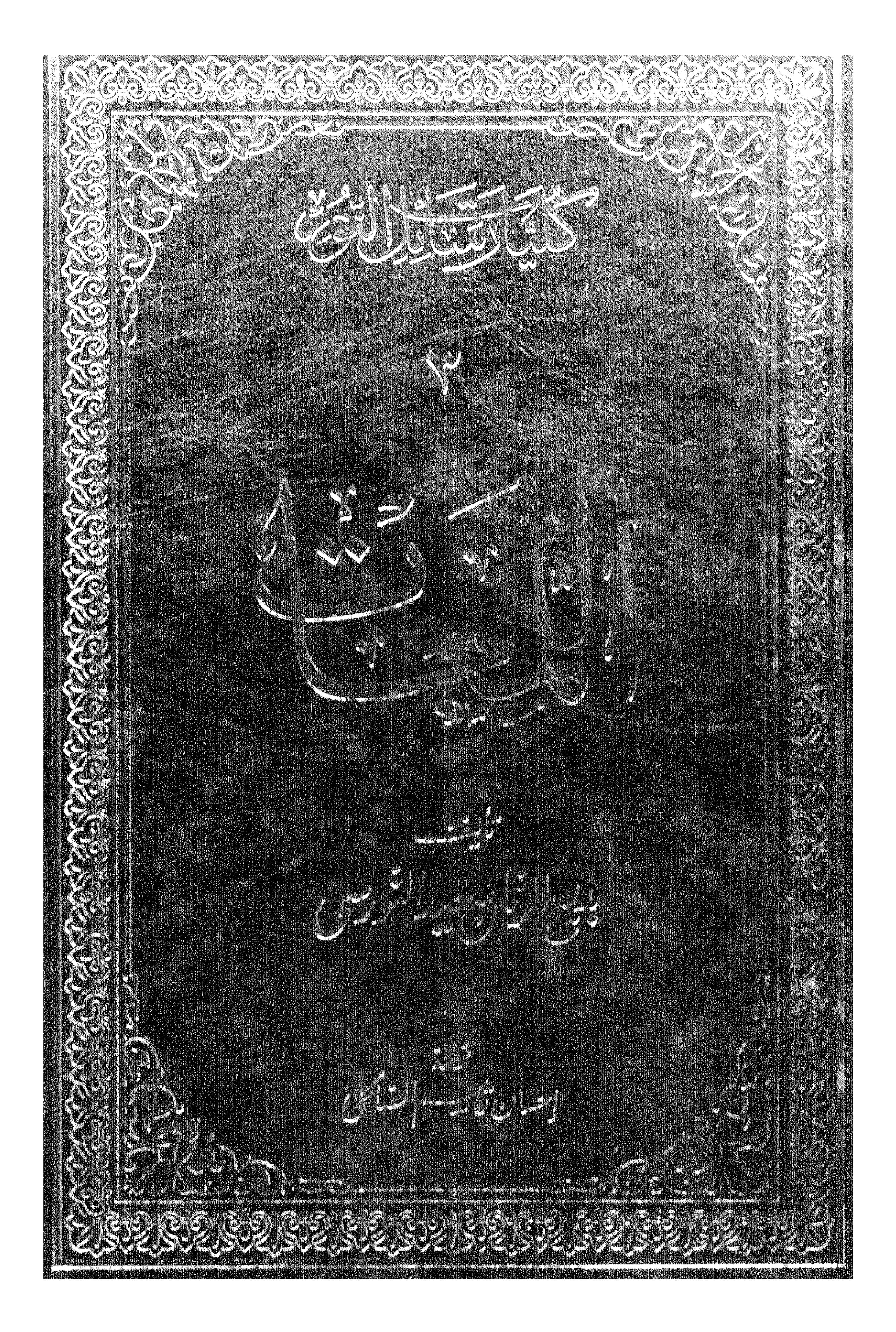

كليات رسائل النور
٣
اللمعات
تأليف
بديع الزمان سعيد النورسي
ترجمة
إحسان قاسم الصالحي

sozler publications

30 st. imam Abu Hanifah (behind masr-sudan market) El- Sabie Dist. Nasr City Cairo
EGYPT
Tel : 00202 4024699
Fax : 2630531

شركة سوزلر للنشر
٣٠ شارع الإمام أبو حنيفة (خلف مصر والسودان)
الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة
ت : ٠٠٢٠٢٤٥٠٢٤٦٩٩ فاكس : ٢٢٦٣٠٥٣١

کلیاتِ رسائل النور

۳

اللمعات

تالیف

بدیع الزمان سعید النورسی

ترجمہ

احسان قاسم الصالحی

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فنادى في الظُلُمات أنْ لاإله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظالمين ﴾ (الانبياء:٨٧)

﴿ إذْ نادى ربّه أنّي مَسّني الضُرُّ وأنتَ أرحَمُ الراحمين ﴾ (الأنبياء:٨٣)

﴿ فإنْ تَولّوا فَقُلْ حَسْبيَ الله لاإله إلاّ هو عَليه تَوكّلتُ وهوَ رَبُّ العَرش العَظيم ﴾ (التوبة:١٢٩)

﴿ حَسبُنا الله وَنِعْمَ الوَكيلُ ﴾(آل عمران:١٧٣)

لاحولَ ولاقوةَ إلاّ بالله العَليِّ العَظيم

ياباقي أنتَ الباقي ياباقي أنتَ الباقي

﴿ للذينَ آمَنُوا هُدىً وشفاءٌ ﴾ (فصلت:٤٤)

هذا القسم الاول من المكتوب الحادي والثلاثين يتضمن ست لمعات تبين كل منها نوراً من انوار كثيرة للكلمات المباركة المذكورة التي لقراءتها ثلاثاً وثلاثين مرة في كل وقت فضائل كثيرة ولاسيما بين المغرب والعشاء.

اللمعة الاولى

ان مناجاة سيدنا يونس بن متى – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – هي من اعظم انواع المناجاة واروعها، ومن ابلغ الوسائل لإستجابة الدعاء وقبوله [1].

تتلخص قصته المشهورة بأنه – عليه السلام – قد أُلقي به الى البحر، فالتقمه الحوت، وغشيته امواج البحر الهائجة، واسدل الليل البهيم ستاره المظلم عليه. فداهمته الرهبة والخوف من كل مكان وانقطعت امامه اسباب الرجاء وانسدت ابواب الامل.. واذا بمناجاته الرقيقة وتضرعه الخالص الزكي:

﴿لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظالمين﴾(الانبياء:٨٧) يصبح له في تلك الحالة واسطة نجاة ووسيلة خلاص.

وسر هذه المناجاة العظيم هو:

ان الاسباب المادية قد هوت كلياً في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائياً فلم تحرك ساكناً ولم تترك أثراً، ذلك لان الذي يستطيع ان ينقذه من تلك الحالة، ليس الأ ذلك الذي تنفذ قدرتُه في الحوت، وتهيمن على البحر وتستولي على الليل وجو السماء؛ حيث أن كلا من الليل الحالك والبحر الهائج والحوت الهائل قد اتفق على

---

(١) عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه: ان رسول الله ﷺ قال: «دعوة ذى النون اذ دعا في بطن الحوت، قال: لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين، فانه لم يدع بها رجل مسلم في شئ إلاّ استجاب الله له».

حديث صحيح: اخرجه احمد (١/١٧٠) والترمذي(٣٥٧٢ ـ تحفة) والحاكم (١/٥٠٥ و٢/٢٨٣) وصححه، ووافقه الذهبي، والحديث عزاه السيوطي في الجامع الصغير للنسائي والبيهقي في شعب الايمان والضياء في المختارة وحسنه الحافظ في تخريج الاذكار.

الانقضاض عليه، فلا ينجيه سبب، ولا يخلصه أحد، ولايوصله الى ساحل السلامة بأمان، الاّ من بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معاً، ومَن يسخّر كل شئ تحت امره.. حتى لو كان الخلق اجمعين تحت خدمته عليه السلام ورهن اشارته في ذلك الموقف الرهيب، ما كانوا ينفعونه بشئ!.

أجل لاتأثير للاسباب قط.. فما أن رأى عليه السلام بعين اليقين ألاّ ملجأ له من امره تعالى إلاّ اللواذ الى كنف مسبب الاسباب، انكشف له سرُّ الأحدية من خلال نور التوحيد الساطع، حتى سخرتْ له تلك المناجاةُ الخالصة الليل والبحر والحوت معاً، بل تحوّل له بنور التوحيد الخالص بطنُ الحوت المظلم الى مايشبه جوف غواصة أمينة هادئة تسير تحت البحر، واصبح ذلك البحر الهائج بالامواج المتلاطمة مايشبه المتنزه الآمن الهادئ، وانقشعت الغيوم عن وجه السماء – بتلك المناجاة – وكشف القمر عن وجهه المنير كأنه مصباح وضيئ يتدلى فوق رأسه..

وهكذا غدت تلك المخلوقات التي كانت تهدده وترعبه من كل صوب وتضيق عليه الخناق، غدت الآن تسفر له عن وجه الصداقة، وتتقرب اليه بالود والحنان، حتى خرج الى شاطئ السلامة وشاهد لطف الرب الرحيم تحت شجرة اليقطين.

فلننظر بنور تلك المناجاة الى انفسنا.. فنحن في وضع مخيف ومرعب أضعاف أضعاف ما كان فيه سيدنا يونس عليه السلام، حيث ان:

ليلنا الذي يخيم علينا، هو المستقبل.. فمستقبلنا اذا نظرنا اليه بنظر الغفلة يبدو مظلماً مخيفاً، بل هو أحلك ظلاماً واشد عتامة من الليل الذي كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمائة مرة..

وبحرنا، هو بحر الكرة الارضية، فكل موجة من امواج هذا البحر المتلاطم تحمل آلاف الجنائز، فهو اذن بحر مرعب رهيب بمائة ضعف رهبة البحر الذي أُلقي فيه عليه السلام.

وحوتنا، هو ما نحمله من نفس أمارة بالسوء، فهي حوت يريد ان يلتقم حياتنا الابدية ويمحقها. هذا الحوت اشد ضراوة من الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس عليه السلام؛ اذ كان يمكنه ان يقضي على حياة امدها مائة سنة، بينما حوتنا نحن يحاول افناء مئات الملايين من سني حياة خالدة هنيئة رغيدة.

فما دامت حقيقة وضعنا هذه، فما علينا اذاً إلاّ الاقتداء بسيدنا يونس عليه السلام والسير على هديه، معرضين عن الاسباب جميعاً، مقبلين كلياً على ربنا الذي هو مسبب الاسباب متوجهين اليه بقلوبنا وجوارحنا، ملتجئين اليه سبحانه قائلين: ﴿ **لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ منَ الظالمين** ﴾ مدركين بعين اليقين ان قد ائتمر علينا – بسبب غفلتنا وضلالنا – مستقبلُنا الذي يرتقبنا، ودنيانا التي تضمنا، ونفوسُنا الامارة بالسوء التي بين جنبينا، موقنين كذلك انه لايقدر ان يدفع عنا مخاوف المستقبل واوهامه، ولايزيل عنا اهوال الدنيا ومصائبها، ولايبعد عنا اضرار النفس الامارة بالسوء ودسائسها، الاّ من كان المستقبل تحت أمره، والدنيا تحت حكمه، وانفسنا تحت ادارته .

تُرى مَن غيرُ خالق السموات والارضين يعرف خلجات قلوبنا، ومَن غَيرُه يعلم خفايا صدورنا، ومَن غَيرُه قادر على انارة المستقبل لنا بخلق الآخرة، ومَن غيرُه يستطيع ان ينقذنا من بين الوف أمواج الدنيا المتلاطمة بالاحداث؟!. حاش لله وكلا ان يكون لنا منجٍ غيره ومخلّصٍ سواه، فهو الذي لولا إرادته النافذة ولولا أمره المهيمن لما تمكن شئ اينما كان وكيفما كان ان يمد يده ليغيث أحداً بشئ!.

فما دامت هذه حقيقة وضعنا فما علينا إلاّ ان نرفع اكفّ الضراعة اليه سبحانه متوسلين، مستعطفين نظر رحمته الربانية الينا، اقتداء بسر تلك المناجاة الرائعة التي سخّرت الحوت لسيدنا يونس عليه السلام كأنه غواصة تسير تحت البحر، وحولت البحر متنزها جميلا، وألبست الليل جلباب النور الوضئ بالبدر الساطع. فنقول: ﴿ **لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ منَ الظالمين** ﴾. فنلفت بها نظر الرحمة الإلهية الى مستقبلنا بقولنا: ﴿ **لااله الا أنت** ﴾. ونلفتها الى دنيانا بكلمة: ﴿ **سبحانك** ﴾ ونرجوها ان تنظر الى انفسنا بنظر الرأفة والشفقة بجملة: ﴿ **إنّي كنتُ من الظالمين** ﴾ كي يعم مستقبلنا نور الايمان وضياء بدر القرآن، وينقلب رعب ليلنا ودهشته الى أمن الانس وطمأنينة البهجة. ولتنتهي مهمة حياتنا ونختتم وظيفتها بالوصول الى شاطئ الامن والامان دخولا في رحاب حقيقة الاسلام، تلك الحقيقة التي هي سفينة معنوية اعدّها القرآن العظيم، فنبحر بها عباب الحياة، فوق أمواج السنين والقرون الحاملة لجنائز لايحصرها العد، ويقذفها الى العدم تبدل الموت والحياة وتناوبهما الدائبين في

دنيانا وارضنا، فننظر الى هذا المشهد الرهيب بمنظار نور القرآن الباهر، واذا هو مناظر متبدلة، متجددة، يحول تجددها المستمر تلك الوحشة الرهيبة النابعة من هبوب العواصف وحدوث الزلازل للبحر الى نظر تقطر منه العبرة، ويبعث على التأمل والتفكر في خلق الله. فتستضيء وتتألق ببهجة التجدد ولطافة التجديد. فلا تستطيع عندها نفوسنا الامارة على قهرنا، بل نكون نحن الذين نقهرها بما منحنا القرآن الكريم من ذلك السر اللطيف، بل نمتطيها بتلك التربية المنبثقة من القرآن الكريم. فتصبح النفس الامارة طوع ارادتنا، وتغدو وسيلة نافعة ووساطة خير للفوز بحياة خالدة.

الخلاصـــة:

ان الانسان بما يحمل من ماهية جامعة يتألم من الحمى البسيطة كما يتألم من زلزلة الارض وهزاتها ويتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة، ويخاف من جرثومة صغيرة كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الاجرام السماوية، ويحب بيته ويأنس به كما يحب الدنيا العظيمة، ويهوى حديقته الصغيرة ويتعلق بها كما يشتاق الى الجنة الخالدة ويتوق اليها.

فما دام أمر الانسان هكذا، فلا معبود له ولا رب ولا مولى ولا منجأ ولا ملجأ إلاّ من بيده مقاليد السموات والارض وزمام الذرات والمجرات، وكل شئ تحت حكمه، طوع أمره.. فلابد ان هذا الانسان بحاجة ماسة دائماً الى التوجه الى بارئه الجليل والتضرع اليه اقتداء بسيدنا يونس عليه السلام. فيقول:

﴿ لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظالمين ﴾

﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا الاّ ما عَلَّمْتَنا انَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحكيم ﴾

اللمعة الثانيـة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وأيوبَ إذْ نادى ربَّه أني مَسّني الضُرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين ﴾

(الانبياء:٨٣)

هذه المناجاة اللطيفة التي نادى بها رائد الصابرين سيدنا أيوب عليه السلام مجرّبة، وذات مفعول مؤثر، فينبغي أن نقتبس من نور هذه الآية الكريمة ونقول في مناجاتنا: رب أني مسني الضر وانت أرحم الراحمين.

وقصة سيدنا أيوب عليه السلام المشهورة، نلخصها بما يأتي:

أنه عليه السلام ظل صابراً ردحاً من الزمن يكابد ألم المرض العضال، حتى سرت القروح والجروح الى جسمه كله، ومع ذلك كان صابراً جلداً يرجو ثوابه العظيم من العلي القدير. وحينما أصابت الديدان الناشئة من جروحه قلبه ولسانه اللذين هما محل ذكر الله وموضع معرفته، تضرع الى ربه الكريم بهذه المناجاة الرقيقة: ﴿ أني مَسّني الضُرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين ﴾ خشية أن يصيب عبادته خلل، ولم يتضرع اليه طلباً للراحة قط، فاستجاب الله العلي القدير لتلك المناجاة الخالصة الزكية استجابة خارقة بما هو فوق المعتاد، وكشف عنه ضرّه واحسن اليه العافية التامة واسبغ عليه ألطاف رحمته العميمة.

في هذه اللمعة خمس نكات.

النكتة الاولى:

انه إزاء تلك الجروح الظاهرة التي أصابت سيدنا أيوب عليه السلام، توجد فينا أمراض باطنية وعلل روحية وأسقام قلبية، فنحن مصابون بكل هذا. فلو انقلبنا ظاهراً بباطن وباطناً بظاهر، لظهرنا مُثقلين بجروح وقروح بليغة، ولبدت فينا أمراضٌ وعلل اكثر بكثير مما عند سيدنا أيوب عليه السلام، ذلك لأن:

كل ما تكسبه ايدينا من إثم، وكل ما يلج الى أذهاننا من شبهة، يشق جروحاً غائرة في قلوبنا، ويفجر قروحاً دامية في أرواحنا.. ثم إن جروح سيدنا أيوب عليه السلام كانت تهدد حياته الدنيا القصيرة بخطر، أما جروحنا المعنوية نحن فهي تهدد حياتنا الاخروية المديدة بخطر.. فنحن اذن محتاجون أشد الحاجة الى تلك المناجاة الايوبية الكريمة بأضعاف أضعاف حاجته عليه السلام اليها. وبخاصة أن الديدان المتولدة من جروحه عليه السلام مثلما أصابت قلبه ولسانه،فان الوساوس والشكوك – نعوذ بالله – المتولدة عندنا من جروحنا الناشئة من الآثام والذنوب تصيب باطن القلب الذي هو مستقر الايمان فتزعزع الايمان فيه، وتمس اللسان الذي هو مترجم الايمان فتسلبه لذة الذكر ومتعته الروحية، ولاتزال تنفره من ذكر الله حتى تسكته كلياً.

نعم، الاثم يتوغل في القلب ويمد جذوره في أعماقه، وماينفك ينكت فيه نكتاً سوداء حتى يتمكن من اخراج نور الايمان منه، فيبقى مظلماً مقفراً، فيغلظ ويقسو.

نعم، ان في كل إثم وخطيئة طريقاً مؤدياً الى الكفر، فإن لم يُمحَ ذلك الاثم فوراً بالاستغفار يتحول الى دودة معنوية، بل الى حية معنوية تعض القلب وتؤذيه. ولنوضح ذلك بما يأتي:

مثلاً: إن الذي يرتكب سراً إثماً يُخجَل منه، وعندما يستحي كثيراً من اطلاع الاخرين عليه، يثقل عليه وجود الملائكة والروحانيات، ويرغب في انكارهم بأمارة تافهة.

ومثلاً: ان الذي يقترف كبيرة تفضي الى عذاب جهنم. ان لم يتحصن تجاهها بالاستغفار، فما أن يسمع نذير جهنم وأهوالها يرغب من أعماقه في عدم وجودها، فيتولد لديه جرأة لإنكار جهنم من أمارة بسيطة أو شبهة تافهة.

ومثلاً: إن الذي لايقيم الفرائض ولايؤدي وظيفة العبودية حق الاداء وهو يتألم من توبيخ آمره البسيط لتقاعسه عن واجب بسيط، فان تكاسله عن أداء الفرائض أزاء الاوامر المكررة الصادرة من الله العظيم، يورثه ضيقاً شديداً وظلمة قاتمة في روحه، ويسوقه هذا الضيق الى الرغبة في ان يتفوه ويقول ضمناً: «ليته لم يأمر بتلك العبادة!» وتثير هذه الرغبة فيه الانكار، الذى يشم منه عداءً معنوياً تجاه ألوهيته سبحانه!، فاذا ماوردت شبهةٌ تافهة الى القلب حول وجوده سبحانه، فانه يميل اليها كأنها دليل قاطع. فينفتح أمامه باب عظيم للهلاك والخسران المبين، ولكن لايدرك هذا الشقي أنه قد جعل نفسه – بهذا الانكار – هدفاً لضيق معنوي ارهب وأفظع بملايين المرات من ذلك الضيق الجزئي الذي كان يشعر به من تكاسله في العبادة، كمن يفرّ من لسع البعوض الى عض الحية!!

فليُفهم في ضوء هذه الامثلة الثلاثة سرّ الآية الكريمة: ﴿ **كلاّ بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾(المطففين:١٤)

النكتة الثانية:

مثلما وضّح في «الكلمة السادسة والعشرين» الخاصة بالقدر: أن الانسان ليس له حق الشكوى من البلاء والمرض بثلاثة وجوه:

■ الوجه الاول:

ان الله سبحانه يجعل ما ألبسه الانسان من لباس الوجود دليلا على صنعته المبدعة، حيث خلقه على صورة نموذج «موديل» يفصّل عليه لباس الوجود، يبدله ويقصه ويغيره مبيناً بهذا التصرف تجليات مختلفة لاسمائه الحسنى. فمثلما يستدعي اسم «الشافي» المرض، فان اسم «الرزاق» ايضاً يقتضي الجوع. وهكذا فهو سبحانه مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء.

■ الوجه الثاني:

أن الحياة تتصفى بالمصائب والبلايا، وتتزكى بالامراض والنوائب، وتجد بها الكمال وتتقوى وتترقى وتسمو وتثمر وتنتج وتتكامل وتبلغ هدفها المراد لها، فتؤدي مهمتها الحياتية. أما الحياة الرتيبة التي تمضي على نسق واحد وتمر على فراش الراحة،

فهي أقرب الى العدم الذي هو شر محض منه الى الوجود الذي هو خير محض. بل هي تفضي الى العدم.

■ الوجه الثالث:

إن دار الدنيا هذه ما هي إلاّ ميدان اختبار وابتلاء، وهي دار عمل ومحل عبادة، وليست محل تمتع وتلذذ ولامكان تسلم الاجرة ونيل الثواب.

فمادامت الدنيا دار عمل ومحل عبادة، فالامراض والمصائب عدا الدينية منها وبشرط الصبر عليها تكون ملائمة جداً مع ذلك العمل، بل منسجمة تماماً مع تلك العبادة، حيث أنها تمد العمل بقوة وتشد من أزر العبادة، فلايجوز التشكي منها، بل يجب التحلي بالشكر لله بها، حيث أن تلك الامراض والنوائب تحوّل كل ساعة من حياة المصاب عبادة ليوم كامل.

نعم، ان العبادة قسمان:

قسم ايجابي وقسم سلبي..

فالقسم الاول معلوم لدى الجميع، أما القسم الاخر فان البلايا والضر والامراض تجعل صاحبها يشعر بعجزه وضعفه، فيلتجئ الى ربه الرحيم، ويتوجه اليه ويلوذ به، فيؤدي بهذا عبادة خالصة. هذه العبادة خالصة زكية لايدخل فيها الرياء قط. فإذا ماتجمّل المصاب بالصبر وفكّر في ثواب ضره عند الله وجميل أجره عنده، وشكر ربه عليها، تحولت عندئذ كل ساعة من ساعات عمره كأنها يوم من العبادة، فيغدو عمره القصير جداً مديداً طويلاً، بل تتحول - عند بعضهم - كل دقيقة من دقائق عمره بمثابة يوم من العبادة.. ولقد كنت أقلق كثيراً على ماأصاب أحد اخوتي في الاخرة وهو «الحافظ احمد المهاجر»(١) بمرض خطير، فخطر الى القلب ما ياتي:

«بشّره، هنّئه، فان كل دقيقة من دقائق عمره تمضي كأنها يوم من العبادة» حقاً انه كان يشكر ربه الرحيم من ثنايا الصبر الجميل.

---

(١) المهاجرالحافظ احمد: هو احد اشراف التجار في بارلا ومن أوائل طلاب النور لازم الاستاذ النورسي طوال بقائه في بارلا . توفي سنة ١٩٤٨م رحمة الله عليه. ـ المترجم.

النكتة الثالثة:

مثلما بينّا في «الكلمات» السابقة أنه: اذا ما فكر كل انسان فيما مضى من حياته فسيرد الى قلبه ولسانه: واأسفاه، أو الحمد لله، أي إما أنه يتأسف ويتحسر، أو يحمد ربه ويشكره. فالذي يقطّر الاسف والاسى انما يكون بسبب الآلام المعنوية الناشئة من زوال اللذائذ السابقة وفراقها، ذلك لأن زوال اللذة ألم، بل قد تورث لذةٌ زائلة طارئة آلاماً دائمة مستمرة، فالتفكر فيها يعصر ذلك الالم ويقطّر منه الاسف والاسى، بينما اللذة المعنوية والدائمة الناشئة من زوال الآلام المؤقتة التي قضاها المرء في حياته الفائتة، تجعل لسانه ذاكِراً بالحمد والثناء لله تعالى.. هذه حالة فطرية يشعر بها كل انسان، فاذا ما فكر المصاب – علاوة على هذا – بما أُدّخر له ربه الكريم من ثواب جميل وجزاء حسن في الآخرة وتأمل في تحول عمره القصير بالمصائب الى عمر مديد فانه لايصبر على ما انتابه من ضُر وحده، بل يرقى ايضاً الى مرتبة الشكر لله والرضا بقَدَره، فينطلق لسانه حامداً ربه وقائلاً: الحمد لله على كل حال سوى الكفر والضلال.

ولقد سار مثلا عند الناس: «ما اطول زمن النوائب!». نعم، هو كذلك ولكن ليس بالمعنى الذي في عرف الناس وظنهم من أنه طويل بما فيه من ضيق وألم، بل هو طويل مديد كالعمر الطويل بمايثمر من نتائج حياتية عظيمة.

النكتة الرابعة:

لقد بينّا في المقام الاول للكلمة الحادية والعشرين:

ان الانسان إن لم يشتت ما وهبه الباري سبحانه من قوة الصبر، ولم يبعثرها في شعاب الاوهام والمخاوف، فان تلك القوة يمكن ان تكون كافية للثبات حيال كل مصيبة وبلاء، ولكن هيمنة الوهم وسيطرة الغفلة عليه والاغترار بالحياة الفانية كأنها دائمة.. يؤدي الى الفتّ من قوة صبره وتفريقها الى آلام الماضي ومخاوف المستقبل، فلا يكفيه ماأودعه الله من الصبر على تحمل البلاء النازل به والثبات دونه، فيبدأ ببث الشكوى حتى كأنه يشكو الله للناس، مبدياً من قلة الصبر ونفاده مايشبه الجنون فضلاً عن أنه لايحق له أن يجزع جزعه هذا ابداً؛ ذلك لان كل يوم من أيام الماضي –

ان كان قد مضى بالبلاء – فقد ذهب عسره ومشقته وترك راحته، وقد زال تعبه وألمه وترك لذته، وقد ذهب ضنكه وضيقه وثبت أجره، فلايجوز اذن الشكوى منه، بل ينبغي الشكر لله تعالى عليه بشوق ولهفة. ولايجوز كذلك الامتعاض من المصيبة والسخط عليها بل ينبغي ربط أواصر الحب بها، لأن عمر الانسان الفاني الذي قد مضى يتحول عمراً سعيداً باقياً مديداً بما يعاني فيه من البلاء، فمن البلاهة والجنون أن يبدد الانسان قسماً من صبره ويهدره بالاوهام والتفكر في البلايا التي مضت والآلام التي ولّت. أما الايام المقبلة، فحيث أنها لم تأت بعد ومجهولة مبهمة، فمن الحماقة التفكر فيها من الآن والجزع عمّا يمكن أن يصيب الانسان فيها من مرض وبلاء. فكما أنه حماقة أن يأكل الانسان اليوم كثيراً من الخبز ويشرب كثيراً من الماء لما يمكن أن يصيبه من الجوع والعطش في الغد أو بعد غد، كذلك التألم والتضجر من الآن لما يمكن أن يبتلى به في المستقبل من امراض ومصائب هي الآن في حكم العدم، واظهار الجزع نحوها دون أن يكون هناك مبرر واضطرار، هو بلاهة وحماقة الى حد تسلب العطف على صاحبها والاشفاق عليه. فوق أنه قد ظلم نفسه بنفسه.

الخلاصة:

ان الشكر مثلما يزيد النعمة، فالشكوى تزيد المصيبة وتسلب الترحم والاشفاق على صاحبها.

لقد ابتلى رجل صالح من مدينة «أرضروم» بمرض خطير وبيل، وذلك في السنة الاولى من الحرب العالمية الاولى، فذهبت الى عيادته وبثّ لي شكواه:

– «لم أذق طعم النوم منذ مائة يوم..». تألمت لشكواه الاليمة هذه، ولكن تذكرت حينها مباشرة وقلت:

– أخي! ان الايام المائة الماضية لكونها قد ولّت ومضت فهي الآن بمثابة مائة يوم مسرّة مفرحة لك، فلا تفكر فيها ولا تشكُ منها، بل انظر اليها من زاوية زوالها وذهابها، واشكر ربك عليها. أما الايام المقبلة فلأنها لم تأت بعد، فتوكل على رحمة ربك الرحمن الرحيم واطمئن اليها. فلا تبك قبل أن تضرب، ولاتخف من غير شئ، ولاتمنح العدم صبغةَ الوجود. اصرف تفكيرك في هذه الساعة بالذات، فان ماتملكه

من قوة الصبر تكفي للثبات لهذه الساعة. ولاتكن مثل ذلك القائد الاحمق الذي شتت قوته في المركز يميناً وشمالاً في الوقت الذي التحقت ميسرة العدو الى صفوف ميمنة جيشه فأمدتها، وفي الوقت الذي لم تكُ ميمنة العدو متهيأة للحرب بعد.. فما أن علم العدو منه هذا حتى سدد قوة ضئيلة في المركز وقضى على جيشه.

فيا أخي! لاتكن كهذا، بل حشّد كل قواك لهذه الساعة فقط، وترقّب رحمة الله الواسعة، وتأمل في ثواب الاخرة، وتدبّر في تحويل المرض لعمرك الفاني القصير الى عمر مديد باق، فقدّم الشكر الوافر المسر الى العلي القدير بدلا من هذه الشكوى المريرة.

انشرح ذلك الشخص المبارك من هذا الكلام وانبسطت أساريره حتى شرع بالقول: الحمد لله. لقد تضاءل ألمي كثيراً.

النكتة الخامسة:

وهي ثلاث مسائل:

المسألة الاولى:

إن المصيبة التي تعدّ مصيبة حقاً والتي هي مضرة فعلاً، هي التي تصيب الدين. فلابد من الالتجاء الى الله سبحانه والانطراح بين يديه والتضرع اليه دون انقطاع. أما المصائب التي لاتمس الدين فهي في حقيقة الامر ليست بمصائب، لأن قسماً منها:

تنبيه رحماني! يبعثه الله سبحانه الى عبده ليوقظه من غفلته، بمثل تنبيه الراعي لشياهه عندما تتجاوز مرعاها، فيرميها بحجر، والشياه بدورها تشعر أن راعيها ينبهها بذلك الحجر ويحذرها من أمر خطير مضر، فتعود الى مرعاها برضى واطمئنان. وهكذا النوائب الظاهرة فان الكثير منها تنبيه الهي، وايقاظ رحماني للانسان.

أما القسم الآخر من المصائب فهو كفارة للذنوب.

وقسم آخر أيضاً من المصائب هو منحة إلهية لتطمين القلب وافراغ السكينة فيه، وذلك بدفع الغفلة التي تصيب الانسان، واشعاره بعجزه وفقره الكامنين في جبلته.

أما المصيبة التي تنتاب الانسان عند المرض – فكما ذكرنا آنفا – فهي ليست

بمصيبة حقيقية، بل هي لطف رباني لانه تطهير للانسان من الذنوب وغسل له من أدران الخطايا، كما ورد في الحديث الصحيح:

(مامن مسلم يصيبه أذى الاّ حاتّ الله عنه خطاياه كما يحاتّ ورق الشجر)(١)

وهكذا فان سيدنا ايوب عليه السلام لم يدعُ في مناجاته لاجل نفسه وتطميناً لراحته، وانما طلب كشف الضر من ربه عندما أصبح المرض مانعاً لذكر الله لسانا، وحائلاً للتفكر في ملكوت الله قلباً، فطلب الشفاء لأجل القيام بوظائف العبودية خالصة كاملة. فيجب علينا نحن ايضاً أن نقصد - بتلك المناجاة - أول ما نقصد: شفاء جروحنا المعنوية وشروخنا الروحية القادمة من ارتكاب الآثام واقتراف الذنوب ولنا الالتجاء الى الله القدير عندما تحول الامراضُ المادية دون قيامنا بالعبادة كاملة، فنتضرع اليه عندئذ بكل ذل وخضوع ونستغيثه دون أن يبدر منا أي اعتراض أو شكوى، اذ مادمنا راضين كل الرضا بربوبيته الشاملة فعلينا الرضا والتسليم المطلق بما يمنحه سبحانه لنا بربوبيته.. أما الشكوى التي تومئ الى الاعتراض على قضائه وقدره، واظهار التأفف والتحسر، فهي أشبه ما يكون بنقد للقدر الإلهي العادل واتهام لرحمته الواسعة.. فمن ينقد القدر يصرعه ومن يتهم الرحمة يُحرم منها. اذ كما ان استعمال اليد المكسورة للثأر يزيدها كسراً، فان مقابلة المبتلي مصيبته بالشكوى والتضجر والاعتراض والقلق تضاعف البلاء.

المسألة الثانية:

كلما استعظمت المصائب المادية عظُمت، وكلما استصغرتَها صغرت. فمثلاً: كلما اهتم الانسان بما يتراءى له من وهم ليلاً يُضخم ذلك في نظره، بينما اذا أهمله يتلاشى. وكلما تعرض الانسان لوكر الزنابير ازداد هجومها واذا أهملها تفرقت.

فالمصائب المادية كذلك كلما تعاظمها الانسان واهتم بها وقلق عليها تسربت من الجسد نافذة في القلب ومستقرة فيه، وعندها تتنامى مصيبة معنوية في القلب وتكون ركيزة للمادية منها فتستمر الاخيرة وتطول. ولكن متى ماأزال الانسان القلق والوهم

(١) رواه البخاري - كتاب المرضى والطب. - المترجم.

من جذوره بالرضا بقضاء الله، وبالتوكل على رحمته تضمحل المصيبة المادية تدريجياً وتذهب، كالشجرة التي تموت وتجف أوراقها بانقطاع جذورها.

ولقد عبّرتُ عن هذه الحقيقة يوماً بما يأتي:(١)

ومن الشكوى بلاءٌ.

أنت يامسكينُ دعها وتوكلْ.

أنت ان تسلمْ الى الوهاب نجواك وجدتْ.

فاذا الكلُّ عطاء.

واذا الكلُّ صفاء.

فبغير الله: دنياك متاهات وخوف!

أفيشكو مَن على كاهله يحمل كلّ الراسيات

حبةَ الرمل الضئيلة؟

انما الشكوى بلاءٌ في بلاء.

وأثام في أثام وعناء!

أنت ان تَبْسَم وفي وجه البلاء.

عادت الأرزاء تذوي وتذوب.

تحت شمس الحق حبات بَرَد!

فاذا دنياك بَسمة،

بسمةٌ من ثغرها ينسابُ ينبوعُ اليقين.

بسمةٌ نشوى باشراق اليقين.

بسمةٌ حيرى باسرار اليقين.

نعم..! ان الانسان مثلما يخفف حدةّ خصمه باستقباله بالبشر والابتسامة، فتتضاءل سَورة العداوة وتنطفئ نار الخصومة، بل قد تنقلب صداقةً ومصالحة، كذلك الامر في استقبال البلاء بالتوكل على القدير يذهبُ أثره.

---

(١) جاءت ترجمة هذه الفقرة بشئ من التصرف واصلها في «المكتوب السادس». ـ المترجم.

المسألة الثالثة:

أن لكل زمان حُكمه، وقد غيّر البلاء شكله في زمن الغفلة هذا، فلايكون البلاء بلاء عند البعض دوماً، بل إحساناً إلهياً ولطفاً منه سبحانه. وأرى المبتلين بالضر في هذا الوقت محظوظين سعداء بشرط ألا يمس دينهم، فلا يولد المرض والبلاء عندي مايجعلهما مضرين في نظري حتى أعاديهما، ولا يورثانني الاشفاق والتألم على صاحبهما، ذلك مأأتاني شاب مريض الاّ وأراه أكثر ارتباطاً من أمثاله بالدين، وأكثر تعلقاً منهم بالآخرة.. فأفهم من هذا أن المرض بحق هؤلاء ليس بلاء، بل هو نعمة من نعمه سبحانه التي لاتعد ولاتحصى، حيث أن ذلك المرض يمد صاحبه بمنافع غزيرة من حيث حياته الأُخروية ويكون له ضرباً من العبادة، مع أنه يمس حياته الدنيا الفانية الزائلة بشئ من المشقة.

نعم قد لايستطيع هذا الشاب أن يحافظ على ما كان عليه في مرضه من الالتزام بالاوامر الإلهية فيما اذا وجد العافية، بل قد ينجرف الى السفاهة بطيش الشباب ونزواته وبالسفاهة المستشرية في هذا الزمان.

خاتمة

ان الله سبحانه قد أدرج في الانسان عجزاً لاحد له، وفقراً لانهاية له، اظهاراً لقدرته المطلقة وابرازاً لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة بحيث يتألم بما لايحصى من الجهات، كما أنه يتلذذ بما لايعد من الجهات، اظهاراً للنقوش الكثيرة لاسمائه الحسنى. فابدعه سبحانه على صورة ماكنة عجيبة تحوي مئات الالات والدواليب، لكل منها آلامها ولذائذها ومهمتها وثوابها وجزاؤها، فكأن الاسماء الإلهية المتجلية في العالم الذي هو انسان كبير تتجلى اكثرها ايضاً في هذا الانسان الذي هو عالم أصغر، وكما أن ما فيه من أمور نافعة - كالصحة والعافية واللذائذ وغيرها - تدفعه الى الشكر وتسوق تلك الماكنة الى القيام بوظائفها من عدة جهات، حتى يغدو الانسان كأنه ماكنة شكر. كذلك الامر في المصائب والامراض والالام

وسائر المؤثرات المهيجة والمحركة، تسوق الدواليب الاخرى لتلك الماكنة الى العمل والحركة وتثيرها من مكمنها فتفجّر كنوز العجز والضعف والفقر المندرجة في الماهية الانسانية. فلا تمنح المصائبُ الانسانَ الالتجاء الى البارئ بلسان واحد، بل تجعله يلتجئ اليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه. وكأن الانسان بتلك المؤثرات والعلل والعقبات والعوارض يغدو قلماً يتضمن آلاف الاقلام، فيكتب مقّدرات حياته في صحيفة حياته أو في اللوح المثالي، وينسج لوحة رائعة للاسماء الإلهية الحسنى، ويصبح بمثابة قصيدة عصماء ولوحة اعلان.. فيؤدي وظيفة فطرته.

اللمعة الثالثة

لقد مازج هذه «اللمعة» شيء من الاذواق والمشاعر، فأرجو عدم تقييمها بموازين علم المنطق؛ لأن ما تجيش به المشاعر لايراعي كثيراً قواعد العقل ولايعير سمعا الى موازين الفكر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وإليه تُرْجَعون ﴾(القصص: ٨٨)

هذه الآية العظيمة تفسرها جملتان تعبّران عن حقيقتين مهمتين بحيث اتخذهما قسم من شيوخ الطريقة النقشبندية بمثابة زبدة الاوراد لديهم، يؤدون بهما ختمتهم الخاصة. والجملتان هما:

ياباقي انت الباقي. ياباقي انت الباقي.

ولما كانت هاتان الجملتان تنطويان على معان جليلة لتلك الآية الكريمة، فسنذكر بضع نكات لبيان الحقيقتين اللتين تعبّران عنهما:

○ **النكتة الاولى:**

ان ترديد «ياباقي انت الباقي» للمرة الاولى، يجرّد القلب مما سوى الله تعالى، فيجرى ما يشبه عملية جراحية فيه، ويقطعه عما سواه سبحانه. وتوضيح هذا:

ان الانسان بما اودع الله فيه من ماهية جامعة يرتبط مع اغلب الموجودات بأواصر ووشائج شتى. ففي تلك الماهية الجامعة من الاستعداد غير المحدود للمحبة ما يجعله

يكنّ حباً عميقاً تجاه الموجودات عامة، فيحب الدنيا العظيمة كما يحب بيته، ويحب الجنة الخالدة كما يحب حديقته. بينما الموجودات - التي وجّه الانسانُ حبه نحوها - لاتدوم، بل لاتلبث أن تزول، لذا يذوق الانسان دائماً عذاب ألم الفراق. فتصبح تلك المحبة التي لامنتهى لها مبعث عذاب معنوي لامنتهى له، لتقصيره بحقها. فالآلام التي يتجرعها ناشئة من تقصيره هو، حيث لم يودع فيه استعداد المحبة إلا ليوجهه الى مَن له جمال خالد مطلق. بينما الانسان لم يُحسن استعمال محبته فوجهها الى موجودات فانية زائلة، فيذوق وبال أمره بآلام الفراق.

فعندما يردد الانسان: ياباقي انت الباقي. يعني بها: البراءة الكاملة من هذا التقصير، وقطع العلاقات مع تلك المحبوبات الفانية، والتخلي عنها كلياً، قبل ان تتخلى هي عنه. ثم تسديد النظر في المحبوب الباقي وهو الله سبحانه دون سواه.

أي يقول بها: «لاباقي بقاء حقيقياً إلاّ أنت ياإلهي. فما سواكَ فانٍ زائل، والزائل غير جدير بالمحبة الباقية ولا العشق الدائم، ولابأن يشد معه أواصر قلب خُلق اصلا للابد والخلود». وحيث ان الموجودات فانية وستتركني ذاهبة الى شأنها، فسأتركها أنا قبل ان تتركني، بترديدي: «ياباقي انت الباقي» اي: أؤمن وأعتقد يقينا انه لاباقي إلاّ أنت يا إلهي، وبقاء الموجودات موكول بإبقائك اياها، فلا يوجه اليها المحبة اذاً الاّ من خلال نور محبتك، وضمن مرضاتك، وإلاّ فانها غير جديرة بربط القلب معها.

فهذه الحالة تجعل القلب يتخلى عن محبوبات كان يوليها محبة لاحدود لها، حيث يبصر ختمَ الفناء ويشاهد طابع الزوال على ما أُضفي عليها من جمال وبهاء. فتتقطع عندئذ تلك الوشائج التي كانت تربط القلب بالموجودات. وبخلاف هذا الامر اي ان لم يتخل القلب عن محبوباته فان جراحات وآلاماً وحسرات تتفجر من اعماقه بقدر تلك المحبوبات الفانية.

أما الجملة الثانية:

«ياباقي انت الباقي» فهي كالمرهم الشافي والبلسم الناجع يمرر على العملية الجراحية التي أُجرتها الجملة الاولى على القلب وروابطه، حيث انها تعني: «كفى بك ياإلهي باقياً. فبقاؤك بديل عن كلّ شئ.. وحيث انك موجود فكل شئ موجود اذاً».

نعم! ان ما يبدو على الموجودات من الحسن والاحسان والكمال - والذي يبعث على محبتها - ما هو إلاّ اشارات لحسن الباقي الحقيقي واحسانه وكماله، وما هو إلاّ ظلال خافتة لذلك الحسن والاحسان والكمال نفذت من وراء حُجُب كثيرة وأستار عدة، بل هو ظلال لظلال تجليات اسمائه الحسنى جل جلاله.

○ النكتة الثانيـة:

في فطرة الانسان عشق شديد نحو البقاء، حتى انه يتوهم نوعاً من البقاء في كل ما يحبه، بل لايحب شيئا إلاّ بعد توهمه البقاء فيه، ولكن حالما يتفكر في زواله أو يشاهد فناءه يطلق عليه الزفرات والحسرات من الاعماق.

نعم! ان جميع الآهات والحسرات الناشئة من انواع الفراق، انما هي تعابير حزينة تنطلق من عشق البقاء. ولولا توهم البقاء لما أحب الانسان شيئا.

بل يصح القول:

ان سبباً من اسباب وجود عالم البقاء والجنة الخالدة هو الرغبة الملحة للبقاء المغروزة في فطرة الانسان، والدعاء العام الشامل الذي يسأله بشدة للخلود.. فاستجاب الباقي ذو الجلال لتلك الرغبة الملحة ولذلك الدعاء العام المؤثر، فخلق سبحانه عالماً باقياً خالداً لهذا الانسان الفاني الزائل، اذ هل يمكن ألاّ يستجيب الفاطرُ الكريم والخالق الرحيم لدعاء تسأله البشرية قاطبة بلسان حالها ومقالها، ذلك الدعاء الكلي الدائمي الحق والخالص النابع من صميم حاجتها الفطرية ومن اعماق رغبتها الملحة، مع انه يستجيب لدعاء معدة صغيرة، تسأله بلسان حالها، فيخلق لها أنواعا من الاطعمة اللذيذة ويشبع بها رغبتها الجزئية للبقاء المؤقت؟ حاش لله وكلا.. الف الف مرة كلا. إنّ ردّ هذا الدعاء للخلود محال قطعا، لأن عدم استجابته جل وعلا ينافي حكمته الخالدة وعدالته الكاملة ورحمته الواسعة وقدرته المطلقة.

وما دام الانسان عاشقاً للبقاء، فلا بد أن جميع كمالاته وأذواقه تابعة للبقاء ايضا. ولما كان البقاء صفة خاصة للباقي ذي الجلال، وان اسماءه الحسنى باقية، وان المرايا العاكسة لتجليات تلك الأسماء تنصبغ بصبغتها وتأخذ حكمها، أي تنال نوعا من البقاء، فلا بد أن ألزم شئ لهذا الانسان وأجلّ وظيفة له هو شدّ الاواصر وربط

العلاقات مع ذلك الباقي ذي الجلال والاعتصام التام بأسمائه الحسنى، لأن ما يُصرف في سبيل الباقي ينال نوعا من البقاء.

هذه الحقيقة تعبّر عنها الجملة الثانية: «ياباقي انت الباقي» فتضمد جراحات الانسان المعنوية الغائرة، كما تطمئن رغبته الملحة للبقاء المودعة في فطرته.

○ **النكتة الثالثة:**

يتفاوت في هذه الدنيا تأثير الزمان في فناء الاشياء وزوالها تفاوتاً كبيراً. فمع ان الموجودات مكتنفة بعضها ببعض كالدوائر المتداخلة، إلاّ ان حكمها من حيث الزوال والفناء مختلف جدا.

فكما ان دوائر حركة عقارب الساعة العادة للثواني والدقائق والساعات تختلف في السرعة، رغم تشابهها الظاهري، كذلك الامر في الانسان، حيث ان حكم الزمن متفاوت في دائرة جسمه، ودائرة نفسه، ودائرة قلبه، ودائرة روحه. فبينما ترى حياة الجسم وبقاءه ووجوده محصورة في اليوم الذي يعيش فيه او في ساعته، وينعدم امامه الماضي والمستقبل، اذا بك ترى دائرة حياة قلبه وميدان وجوده يتسع ويتسع حتى يضم اياما عدة قبل حاضره واياما بعده، بل ان دائرة حياة الروح وميدانها اعظم واوسع بكثير حيث تسع سنين قبل يومها الحاضر وسنين بعده.

وهكذا، بناءً على هذا الاستعداد، فان عمر الانسان الفاني يتضمن عمراً باقياً من حيث حياته القلبية والروحية اللتان تحييان بالمعرفة الالهية والمحبة الرّبانية والعبودية السبحانية والمرضيات الرحمانية، بل ينتج هذا العمر الباقي الخالد في دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفاني بمثابة عمر ابدي.

اجل! ان ثانية واحدة يقضيها الانسان في سبيل الله الباقي الحق، وفي سبيل محبته، وفي سبيل معرفته وابتغاء مرضاته، تعد سنة كاملة. بل هي باقية دائمة لايعتريها الفناء. بينما سنة من العمر ان لم تكن مصروفة في سبيله سبحانه فهي زائلة حتما، وهي في حكم لحظة خاطفة، فمهما تطل حياة الغافلين فهي بمثابة لحظات عابرة لاتجاوز ثانية واحدة.

وهناك قول مشهور يدل على هذه الحقيقة:

سِنة الفراق سَنَةٌ وسَنَةُ الوصال سِنة.

أي ان ثانية واحدة من الفراق طويلة جدا كأنها سَنة واحدة، بينما سنة كاملة من الوصال تبدو قصيرة كالثانية الواحدة.

بيد اني أخالف هذا القول المشهور فأقول: ان ثانية واحدة يقضيها الانسان ضمن مرضاة الله سبحانه وفي سبيل الباقي ذي الجلال ولوجهه الكريم. اي ثانية واحدة من هذا الوصال ليست كسنة وحدها، بل كنافذة مطلة على حياة دائمة باقية. أما الفراق النابع من نظر الغفلة والضلالة فلا يجعل السنة الواحدة كالثانية، بل يجعل الوف السنين كأنها ثانية واحدة.

وهناك مثل آخر اكثر شهرة من السابق يؤيد ما نقرره وهو:

أرض الفلاة مع الاعداء فنجان سمّ الخياط مع الاحباب ميدان

أما اذا اردنا ان نبين وجها صحيحا للمثل السابق فسيكون كالاتي:

ان وصال الموجودات الفانية قصير جداً لأنه فانٍ، فمهما طال فهو يمضي في لمحة، ويغدو خيالا ذا حسرة، ورؤيا عابرة تورث الأسى. فالقلب الانساني التواق للبقاء لايستمتع من سنة من هذا الوصال الا بمقدار مافي الثانية الواحدة من لذة. بينما الفراق طويل وميدانه واسع فسيح، فثانية واحدة منه تستجمع الوانا من الفراق ما يستغرق سنة كاملة، بل سنين. فالقلب المشتاق الى الخلود يتأذى من فراق يمضي في ثانية واحدة، كأنه ينسحق تحت آلام فراق سنين عدة، حيث يذكّره ذلك الفراق بما لايعد من انواع الفراق. وهكذا فماضي جميع اشكال المحبة المادية والهابطة ومستقبلها ملئ بألوان من الفراق.

وللمناسبة نقول:

أيها الناس! أتريدون تحويل عمركم القصير الفاني الى عمر باق طويل مديد، بل مثمر بالمغانم والمنافع؟

فما دام الجواب: ان نعم! وهو مقتضى الانسانية، فاصرفوا اذن عمركم في سبيل الباقي، لأن ايّما شئ يتوجه الى الباقي ينَل تجلياً من تجلياته الباقية.

ولما كان كل انسان يطلب بإلحاح عمراً طويلا وهو مشتاق الى البقاء، وثمة وسيلة أمامه لتحويل هذا العمر الفاني الى عمر باق، بل يمكن تبديله الى عمر طويل معنى، فلابد أنه – ان لم تسقط انسانيته – سيبحث عن تلك الوسيلة وينقب عنها، ولابد أنه سيسعى حثيثا لتحويل ذلك الممكن الى فعل ملموس، ولابد انه سيصبو الى ذلك الهدف بأعماله وحركاته كافة.

فدونكم الوسيلة:

اعملوا لله، التقوا لوجه الله، اسعوا لأجل الله. ولتكن حركاتكم كلها ضمن مرضاة الله (لله، لوجه الله، لاجل الله) وعندها ترون ان دقائق عمركم القصير قد اصبحت بحكم سنين عدة.

تشير الى هذه الحقيقة « ليلة القدر » فمع انها ليلة واحدة إلاّ انها خير من الف شهر – بنص القران الكريم – أي في حكم ثمانين ونيف من السنين.

وهناك اشارة أخرى الى الحقيقة نفسها، وهي القاعدة المقررة لدى اهل الولاية والحقيقة، تلك هي: «بسط الزمان» الذي يثبته ويظهره فعلا المعراج النبوي، فقد انبسطت فيه دقائق معدودة الى سنين عدة، فكانت لساعات المعراج من السعة والاحاطة والطول ما لألوف السنين، اذ دخل ﷺ بالمعراج الى عالم البقاء، فدقائق معدودة من عالم البقاء تضم ألوفا من سني هذه الدنيا.

ومما يثبت حقيقة «بسط الزمان» هذا ماوقع من حوادث غزيرة للاولياء الصالحين، فقد كان بعضهم يؤدي في دقيقة واحدة ما ينجز من الاعمال في يوم كامل. وبعضهم انجزوا في ساعة واحدة من المهمات ماينجز في سنة كاملة وبعضهم ختموا القرآن في دقيقة.

وهكذا فهذه الروايات عنهم وامثالها لاترقى اليها الشبهات لأن الرواة صادقون صالحون يترفعون عن الكذب، فضلا عن أن الحوادث متواترة وكثيرة جدا ويروونها

رواية شهود. فلاشك فيها. فبسط الزمان حقيقة ثابتة[1]. وهناك نوع منه يصدّقه كل الناس، وهو ما يراه الانسان من رؤيا في المنام، اذ قد يرى رؤيا لاتستغرق دقيقة واحدة، بينما يقضي فيها من الاحوال ويتكلم من الكلام ويستمتع من اللذائذ ويتألم من العذاب ما يحتاج الى يوم كامل في اليقظة وربما الى ايام عدة.

حاصل الكلام:

مع ان الانسان فان الاّ أنه مخلوق للبقاء. خَلَقه البارى الكريم بمثابة مرآة عاكسة لتجلياته الباقية، وكلّفه بالقيام بمهمات تثمر ثمارا باقيةً، وصوّره على أحسن صورة حتى اصبحت صورته مدار نقوش تجليات اسمائه الحسنى الباقية، لذا فسعادة هذا الانسان ووظيفته الاساس انما هي: التوجه الى ذلك الباقي بكامل جهوده وجوارحه وبجميع استعداداته الفطرية، سائراً قُدماً في سبيل مرضاته، متمسكا بأسمائه الحسنى، مردداً بجميع لطائفه – من قلب وروح وعقل – ما يردده لسانه: يا باقى انت الباقى:

هو الباقي، هو الازلي الأبدي، هو السرمدي، هو الدائم، هو المطلوب، هو المحبوب، هو المقصود، هو المعبود.

﴿ سُبحَانَكَ لاعِلمَ لنا إلاّ ما عَلمتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحكيم ﴾

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إنْ نَسِينا أو أخطأنا ﴾

---

(١) قال تعالى: ﴿ قال قائلٌ منِهم كمْ لَبثتُم قالوا لبثنا يوماً أو بعضَ يوم ﴾ (الكهف:١٩).

﴿ ولبثوا في كهفهم ثلـث مائةٍ سنين وازدادوا تسعا ﴾ (الكهف: ٢٥)

فهاتان الآيتان الكريمتان تدلان على «طي الزمان» كما ان الآية الآتية تدل على «بسط الزمان»:

﴿ وانّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون ﴾ (الحج:٤٧) . ـ المؤلف.

اللمعة الرابعة

(لقد ارتؤى ان يطلق على هذه الرسالة اسم «منهاج السنة»)

ان «مسألة الامامة» مع كونها مسألة فرعية الاّ أن كثرة الاهتمام بها جعلتها تدخل ضمن مباحث الايمان في كتب علم الكلام واصول الدين وغدت من هذه الجهة ذات علاقة بخدمتنا الاساسية، خدمة القرآن والايمان، وقد بحثت بحثا جزئيا.

بِسْمِ اللّٰه الرّحمن الرّحيم

﴿لقد جاءكُم رسولٌ من أنفُسكُم عَزيزٌ عَليه مَا عَنتُّم حريصٌ عليكُم بالمؤمنينَ رَؤُفٌ رحيم ۞ فإن تَولّوا فقُل حَسْبيَ اللّٰهُ لااِلهَ الاّ هو عليه تَوكلتُ وهو رَبُّ العَرشِ العَظيم﴾ (التوبة:١٢٨– ١٢٩)

﴿قُل لا أسئلُكُم عَليه أجراً إلاّ المَودّةَ في القُربى﴾ (الشورى:٢٣)

سنشير الى جملة من الحقائق العظيمة التي تزخر بها هذه الآيات الجليلة، وذلك ضمن مقامين اثنين.

المقام الاول

«عبارة عن أربع نكات»

○ **النكتة الاولى:**

وهي تعبّر عن كمال رأفة الرسول الاكرم ﷺ وغاية رحمته على أمته.

نعم، لقد وردت روايات صحيحة تبين مدى رأفته الكاملة وشفقته التامة على أمته، بانه ﷺ يدعو يوم الحشر الأعظم بـ: (أمّتي أمّتي)(١) في الوقت الذي يدعو كلُ أحد، بل حتى الأنبياء عليهم السلام بـ:«نفسي نفسي» من هول ذلك اليوم ورهبته. فكما تبين هذه الروايات عظيم شفقته على أمته فقد سمعتْ والدتُه منه عند ولادته انه يناجي: «أمتي أمتي» كما هو مصدّق لدى اهل الكشف من الاولياء الصالحين. وكذا ان سيرته العطرة كلها، وما نشره في الآفاق من مكارم الاخلاق المكللة بالشفقة والرحمة، تبين كمال رأفته وشفقته،كما انه أظهر عظيم شفقته على أمته باظهار حاجته التي لاتحد الى صلوات أمته عليه تلك الصلوات التي تبين مدى علاقته الرؤوفة بجميع سعادات امته.

ففي ضوء هذه الرأفة الشاملة وهذه الرحمة الواسعة لهذا المرشد الرؤوف الرحيم ﷺ؛ كم يكون الإعراضُ عن سنته السنية كفراناً عظيماً بل موتاً للوجدان ! قس ذلك بنفسك وقدّر.

○ **النكتة الثانيـــة:**

ان الرسول الاكرم ﷺ قد أبدى رأفة عظيمة تجاه أمور ومواد جزئية خاصة، ضمن مهمته النبوية العامة الشاملة. فيبدو ان صرف تلك الشفقة العظيمة والرأفة الواسعة الى تلك الامور الجزئية والمواد الخاصة لايناسب - في ظاهر الأمر - عظَم وظيفة النبوة ولايلائمها. ولكن الواقع والحقيقة ان تلك المادة الجزئية والأمر الخاص يمثل طرف سلسلة تتولى في المستقبل مهمة نبوية كلية؛ لذا أُعطي لمثلها تلك الاهمية البالغة.

(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل، ذكر الاستاذ المؤلف جزء منه بمعناه. والحديث بطوله أخرجه البخاري برقم ٣٣٤٠ و٣٣٦١ و٤٧١٢ ومسلم برقم ١٩٤ والترمذي برقم ٢٥٥١ «تحفة» وقال: هذا حديث حسن صحيح، كلهم من حديث ابي هريرة رضي الله عنه باختلاف في السياق.

مثال ذلك: ان اظهار الرسول ﷺ شفقة فائقة وأهمية بالغة للحسن والحسين رضي الله عنهما في صباهما، ليست هي شفقة فطرية ومحبة نابعة من الاحساس بصلة القربى وحدها، بل نابعة ايضاً من انهما بدايةُ سلسلةٍ نورانية تتولى مهمة من مهمات النبوة العظيمة، وأن كلاً منهما منشأ جماعة عظيمة من وارثي النبوة، وممثل عنها وقدوة لها.

نعم! ان حمل الرسول ﷺ الحسن رضي الله عنه في حضنه وتقبيله رأسَه بكمال الشفقة والرحمة هو لأجل الكثيرين من ورثة النبوة الشبيهين بالمهدي الحاملين للشريعة الغراء المتسلسلين من سلالة الحسن المنحدرين من نسله النوراني المبارك أمثال الشيخ الكيلاني(١). فلقد شاهد الرسول الكريم ﷺ ببصيرة النبوة ما يضطلع به هؤلاء الاكارم في المستقبل من مهام مقدسة جليلة، فاستحسن خدماتهم وقدّر اعمالهم، فقبّل راس الحسن رضي الله عنه علامة على التقدير والحث. ثم ان الاهتمام العظيم الذي أولاه الرسول الكريم ﷺ بالحسين رضي الله عنه وعطفه الشديد نحوه انما هو للذين يتسلسلون من نسله النوراني من ائمة عظام وارثي النبوة الحقيقيين الشبيهين بالمهدي من امثال زين العابدين وجعفر الصادق.

نعم، فقد قبّل ﷺ عنق الحسين رضي الله عنه، واظهر له بالغ شفقته وكمال اهتمامه لاجل اولئك الذين سيرفعون شأن الاسلام ويؤدون وظيفة الرسالة من بعده.

نعم، ان نظر الرسول ﷺ الذي يشاهد بقلبه الانيس بالغيب ميدان الحشر الممتد في الأبدية وهو مازال في الدنيا، في خير القرون، والذي يرى الجنة في السموات العلى وينظر الى الملائكة هناك وهو في الارض.. والذي يرى الاحداث المستترة بحجب الماضي المظلمة منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام، بل حظى برؤيته تعالى.. ان هذا النظر النوراني والبصيرة النافذة للمستقبل، لاريب أنه قد رأى الاقطاب العظام وأئمة ورثة النبوة والمهديين المتسلسلين وراء الحسن والحسين، فقبّل رأسيهما باسم اولئك جميعاً.

نعم، ان في تقبيله ﷺ رأسَ الحسن رضي الله عنه حصةً عظيمة للشيخ الكيلاني.

---

(١) الشيخ عبد القادر: ابن ابي صالح ابو محمد الجيلي. ولد سنة ٤٧٠ هـ، ودخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على ابي سعيد المخرمي الحنبلي، كان من سادات المشايخ. من مصنفاته.. كتاب الغنية وفتوح الغيب والفتح الرباني، توفي وله تسعون سنة ودفن بالمدرسة التي كانت له سنة ٥٦١ هـ. البداية والنهاية ٢٥٢/١٢ كشف الظنون ١٢١١، ١٢٤٠ الطبقات الكبرى ١٢٦/١ الاعلام للزركلي ٤٧/٤.

○ **النكتة الثالثـة:**

ان معنى قوله تعالى ﴿**الاّ المودّة في القُربى**﴾ - على قول - هو: أن الرسول الاكرم ﷺ لدى قيامه بمهمة الرسالة لايسأل أجراً من أحد،الاّ محبةَ آل بيته فحسب.

واذا قيل:

إن أجراً من حيث قرابة النسل قد أُخذ بنظر الاعتبار حسب هذا المعنى بينما الآية الكريمة: ﴿**ان أكرمكُم عند الله اتقاكم**﴾ (الحجرات:١٣) تدل على ان وظيفة الرسالة تستمر من حيث التقرب الى الله بالتقوى لامن حيث قرابة النسل.

الجـواب: ان الرسول ﷺ قد شاهد بنظر النبوة الأنيس بالغيب: أن آل بيته سيكونون بمثابة شجرة نورانية عظيمة تمتد اغصانُها وفروعها في العالم الاسلامي، فالذين يرشدون مختلف طبقات العالم الاسلامي الى الهدى والخير، ويكونون نماذج شاخصة للكمالات الانسانية جمعاء،سيظهرون باكثريتهم المطلقة من آل البيت.

وقد كشف عن قبول دعاء امته بحق آل البيت الوارد في التشهد وهو «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين، انك حميد مجيد». أي: كما ان معظم المرشدين الهادين النورانيين من ملة ابراهيم - عليه السلام - هم أنبياء من نسله وآله، كذلك رأى ﷺ ان اقطاب آل بيته يكونون كأنبياء بني اسرائيل في الامة المحمدية يؤدون وظيفة خدمة الاسلام العظيمة في شتى طرقها ومسالكها. ولاجل هذا؛ أُمر ﷺ ان يقول: ﴿**قُل لا اسئلكم عليه أجراً الاّ المودّةَ في القُربى**﴾ وطلب مودّة أُمته لآل بيته. والذي يؤيد هذه الحقيقة هو ما جاء في روايات أخرى انه ﷺ قال: (ياايها الناس اني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي)(١). ذلك لان آل البيت هم منبع السنة الشريفة والمحافظون عليها والمكلفون أولاً بالالتزام بها.

وهكذا وضحت حقيقة هذا الحديث بناء على ما ذكر آنفاً، أي: بالاتباع التام للكتاب والسنة الشريفة. أي: ان المراد من آل البيت من حيث وظيفة الرسالة هو إتباع السنة النبوية، فالذي يدع السنة الشريفة لايكون من آل البيت حقيقة كما لايمكن ان يكون موالياً حقيقياً لآل البيت.

---

(١) حديث صحيح: اخرجه الترمذي برقم ٣٧٨٦ والطبراني في الكبير ٢٦٨٠، وللحديث شواهد كثيرة انظر الاحاديث الصحيحة رقم ١٧٦١.

ثم ان الحكمة في ارادته ﷺ في جمع الأمة حول آل البيت هي: ان الرسول الكريم ﷺ قد علم باذن إلهي ان آل البيت سيكثر نسلهم بمرور الزمن بينما الاسلام سيؤول الى الضعف. فيلزم والحالة هذه وجود جماعة مترابطة متساندة في منتهى القوة والكثرة لتكون مركزاً ومحوراً لرقي العالم الاسلامي المعنوي. وقد علم ﷺ بهذا بإذن إلهي فرغّب في جمع أمته حول آل بيته.

نعم ان افراد آل البيت وان لم يكونوا سابقين ومتقدمين على غيرهم في الايمان والاعتقاد الاّ انهم يسبقونهم كثيراً في التسليم والالتزام والولاء للاسلام، لانهم يوالون الاسلام فطرة وطبعاً ونسلاً. فالموالاة الطبعية لاتُترك ولوكانت في ضعف وعدم شهرة أو حتى على باطل، فكيف بالموالاة الحقيقة التي ارتبطت بها سلسلة أجداده الذين ضحوا بأرواحهم رخيصة في سبيلها فنالوا الشرف بها، فتلك الحقيقة هى في منتهى القوة وذروة الشرف وعلى الحق المبين، أفيستطيع من يشعر بداهة بمدى اصالة هذه الموالاة الفطرية ان يتركها؟

فأهل البيت بهذا الالتزام الشديد للاسلام وهو التزام فطري يرون الأمارة البسيطة بجانب الاسلام برهاناً قوياً لانهم يوالون الاسلام فطرة بينما غيرهم لايلتزم الاّ بعد اقتناعه بالبرهان القوي.

○ **النكتة الرابعة:**

لمناسبة النكتة الثالثة نشير اشارة قصيرة الى مسألة ضُخّمت الى درجة كبيرة بحيث دخلت كتب العقائد وتسلسلت مع أسس الايمان، تلك هي مسألة النزاع بين أهل السنة والشيعة. والمسألة هي:

ان أهل السنة والجماعة يقولون: «ان سيدنا علياً رضي الله عنه هو رابع الخلفاء الراشدين، وان ابا بكر الصديق رضي الله عنه هو أفضل منه وأحق بالخلافة، فتسلم الخلافة اولاً».

والشيعة يقولون: «ان حق الخلافة كان لعلي رضي الله عنه الاّ أنه ظُلمَ، وعلي رضي الله عنه أفضل من الكل».

وخلاصة ما يوردونه من أدلة لدعواهم هي انهم يقولون: ان ورود أحاديث شريفة كثيرة في فضائل سيدنا علي رضي الله عنه، وكونه مرجعاً للاكثرية المطلقة من الاولياء

والطرق الصوفية، حتى لُقّب بسلطان الاولياء، مع مايتصف به من صفات فائقة في العلم والشجاعة والعبادة، فضلاً عن العلاقة القوية التي يظهرها الرسول ﷺ به وبآل البيت الذين يأتون من نسله.. كل ذلك يدلّ على أنه الافضل. فالخلافة كانت من حقه ولكن اُغتصبت منه.

الجواب: ان إقرار سيدنا علي نفسه مراراً وتكراراً، واتباعه الخلفاء الثلاثة وتوليه وظيفة «شيخ القضاة»، وكونه من اهل الحل والعقد طوال عشرين سنة وأكثر..كل ذلك يجرح دعوى الشيعة.

ثم ان الفتوحات الاسلامية وجهاد الاعداء زمن الخلفاء الثلاثة، بخلاف ما حدث زمن خلافة علي رضي الله عنه من حوادث وفتن، تجرح أيضاً دعوى الشيعة من جهة الخلافة.

أي ان دعوى أهل السنة والجماعة حق.

فان قيل:

ان الشيعة قسمان: أحدهما: شيعة الولاية. والآخر: شيعة الخلافة.

فليكن هذا القسم الثاني غير محق باختلاط السياسة والاغراض في دعاواهم، ولكن لا اغراض ولا اطماع سياسية في القسم الاول. فضلاً عن ذلك فقد التحقت شيعة الولاية بشيعة الخلافة. أي ان قسماً من الاولياء في الطرق الصوفية يرون ان سيدنا علياً رضي الله عنه هو الافضل، فيصدّقون دعوى شيعة الخلافة الذين هم بجانب السياسة.

الجواب: انه ينبغي النظر الى سيدنا علي رضي الله عنه من زاويتين أو من جهتين:

الجهة الاولى: النظر اليه من زاوية فضائله الشخصية ومقامه الشخصي الرفيع.

الجهة الثانية: هي من زاوية تمثيله الشخص المعنوي لآل البيت. والشخص المعنوي لآل البيت يعكس نوعاً من ماهية الرسول الكريم ﷺ.

فباعتبار الجهة الاولى: ان جميع اهل الحقيقة وفي مقدمتهم سيدنا علي يقدّمون سيدنا ابابكر وعمر رضي الله عنهما، فقد رأوا مقامهما اكثر رفعة في خدمة الاسلام والقرب الإلهي.

ومن حيث الجهة الثانية اي كون سيدنا علي رضي الله عنه ممثلاً عن الشخص المعنوي لآل البيت(١). فالشخص المعنوي لآل البيت من حيث كونه ممثلاً للحقيقة المحمدية، لايرقى اليه شئ بالموازنة. وكثرة الاحاديث النبوية الواردة في الثناء على سيدنا علي رضي الله عنه وبيان فضائله هي لأجل هذه الجهة الثانية. ومما يؤيد هذه الحقيقة رواية صحيحة بهذا المعنى: (ان نسل كل نبي منه، وانا نسلي من علي)(٢).

اما سبب كثرة انتشار الاحاديث بحق شخصية سيدنا علي رضي الله عنه والثناء عليه أكثر من سائر الخلفاء الراشدين فهو: ان أهل السنة والجماعة وهم أهل الحق، قد نشروا الروايات الواردة بحق سيدنا علي رضي الله عنه تجاه هجوم الأمويين والخوارج عليه وتنقيصهم من شأنه ظلماً. بينما الخلفاء الراشدون الآخرون لم يكونوا عرضة الى هذه الدرجة من النقد والجرح، لذا لم يروا داعياً لنشر الاحاديث الذاكرة لفضائلهم.

ثم انه ﷺ قد رأى بنظر النبوة ان سيدنا علياً رضي الله عنه سيتعرض الى حوادث أليمة وفتن داخلية، فسلاّه، وأرشد الأمة باحاديث شريفة من امثال: (من كنت مولاه فعلي مولاه)(٣)، وذلك لينقذ سيدنا علياً من اليأس وينجي الأمة من سوء الظن به.

ان المحبة المفرطة التي يوليها شيعة الولاية لسيدنا علي رضي الله عنه وتفضيلهم له من جهة الطريقة لايجعلهم مسؤولين بمثل مسؤولية شيعة الخلافة، لأن اهل الولاية

---

(١) ذكر ابن الجوزي في كتاب مناقب الامام احمد بن حنبل ص ١٦٣ حول التفضيل مايأتي:
قال عبد الله بن احمد بن حنبل: حدث ابي بحديث سفينة، فقلت ياأبتي ماتقول في التفضيل ؟ قال: في الخلافة ابو بكر وعمر وعثمان. فقلت: فعلي بن ابي طالب ؟ قال: يابني علي بن ابي طالب من اهل البيت لايقاس بهم أحد. ـ المترجم.

(٢) والحديث نصّه: ان الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب علي بن ابي طالب (اخرجه الطبراني برقم ٢٦٣٠ عن جابر رضي الله عنه، وفي سنده يحيى بن العلاء كذاب. وساق الذهبي هذا الحديث في ترجمته (الميزان ٤/٣٩٨) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٣٣) فيه يحيى بن العلاء وهو متروك. والحديث اخرجه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عباس رضي الله عنه، قال ابن الجوزي: حديث لايصح فيه المرزبان قال ابن الكاتب كذاب ومن فوقه الى المنصور ما بين مجهول وغير موثوق به أهـ، وفي الميزان (٢/٥٨٦) قال الذهبي في ترجمته عبد الرحمن بن محمد الحاسب: لايدرى من ذا، وخبره كذب روى الخطيب...الخ، ثم ساق الحديث. وانظر فيض القدير ٢/٢٢٣ ـ ٢٢٤ وضعيف الجامع الصغير برقم ١٥٨٩.

(٣) حديث صحيح: اخرجه احمد ٤/٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٨٢ والترمذي برقم ٣٧٩٧ واحمد في فضائل الصحابة برقم ٩٥٩ و ١٠٠٧ و ١٠٢١ و ١٠٤٨ و ١١٦٧ و ١٢٠٦ وللحديث شواهد عن عشرة من الصحابة رضي الله عنهم انظر تفصيل ذلك في الاحاديث الصحيحة برقم ١٧٥٠ وقال ابن حجر وهذا حديث كثير الطرق جداً استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد منها صحاح ومنها حسان انظر الفيض ٦/٢١٨، ومع كون الحديث يبلغ حدّ التواتر فقد ضعفه ابن حزم وابن تيمية رحمهما الله تعالى.

ينظرون نظر المحبة الى مرشديهم حسب مسلكهم. ومن شأن المحب؛ الغلو والافراط والرغبة في أن يرى محبوبه أعلى من مقامه. فهم يرون الأمر هكذا فعلاً.

فأهل الأحوال القلبية يمكن ان يعذروا اثناء غليان المحبة لديهم وغلبتها عليهم، ولكن بشرط الأيتعدى تفضيلهم الناشئ من المحبة الى ذم الخلفاء الراشدين وعداوتهم، وألاّ يخرج عن نطاق الاصول الاسلامية.

اما شيعة الخلافة فنظراً لدخول الاغراض السياسية فيها، فلا يمكنهم أن ينجوا من العداء والاغراض الشخصية، فيفقدون حق الاعتذار لهم، ويحرمون منه. حتى انهم يظهرون انتقامهم من «عمر» في صورة حب «علي» وذلك لان القومية الايرانية قد جرحت بيد سيدنا عمر رضي الله عنه. حتى اصبحوا مصداق القول: لا لحب علي بل لبغض عمر. وان خروج عمرو بن العاص على سيدنا علي رضي الله عنه وقتال عمر بن سعد سيدنا الحسين رضي الله عنه في المعركة الفجيعة المؤلمة، كل ذلك أورث الشيعة غيظاً شديداً وعداءً مفرطاً لإسم «عمر».

أما شيعة الولاية فليس لهم حق انتقاد أهل السنة والجماعة. لان اهل السنة كما لا ينقصون من شأن سيدنا علي رضي الله عنه فهم يحبونه حباً خالصاً جاداً، ولكنهم يحترزون من الافراط في الحب الوارد ضرره وخطره في الحديث الشريف.

اما الثناء النبوي لشيعة علي رضي الله عنه كما ورد في احاديث نبوية فانما يعود الى أهل السنة والجماعة لانهم هم المتبعون لسيدنا علي رضي الله عنه على وفق الاستقامة، لذا فهم شيعة سيدنا علي رضي الله عنه.

وقد جاء في حديث صحيح صراحة؛ ان خطورة الغلو في محبة سيدنا علي رضي الله عنه كخطورة الغلو في محبة سيدنا عيسى عليه السلام على النصارى.(١)

فان قالت شيعة الولاية: انه بعد قبول فضائل خارقة لسيدنا علي رضي الله عنه لايمكن قبول تفضيل سيدنا الصديق رضي الله عنه عليه.

---

(١) ونصه: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ياعلي فيك مثل من عيسى ابغضته اليهود حتى بهتوا أمه واحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذي ليس له» وقال علي: «يهلك فيّ رجلان مفرط في حبي ومفرط في بغضي». أخرجه عبدالله في زيادات المسند(١/١٦٠) والنسائي في الخصائص (٢٧) وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/٢٢٣ والبخاري في التاريخ ٢/١/٢٥٧ واحمد في فضائل الصحابة برقم ١٠٨٧ و١٢٢١ و١٢٢٢ واسناده ضعيف من اجل الحكم بن عبدالملك القرشي انظر ترجمته في الميزان ١/٥٧٧ والتهذيب ٢/٤٣١ . وقال الحاكم في المستدرك صحيح الاسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بقول: «الحكم وهاه ابن معين» اهـ. والحديث اورده الهيثمي في المجمع ٩/١٣٣ وقال رواه عبدالله والبزار باختصار وابو يعلى أتم منه وفي اسناد عبدالله وابي يعلى الحكم بن عبدالملك وهو ضعيف وفي اسناد البزار محمد بن كثير القرشي وهو ضعيف اهـ.

الجـــواب: اذا ماوضع في كفة ميزان الفضائل الشخصية لسيدنا ابي بكر رضي الله عنه أو فضائل سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، وما قام كل منهما من خدمات جليلة من حيث وراثة النبوة زمن خلافتهما، ووضع في الكفة الاخرى المزايا الخارقة لسيدنا علي رضي الله عنه ومجاهدات الخلافة في زمانه وما اضطر اليه من معارك داخلية داميةأليمة وما تعرض له بهذا من سوء الظن، فلا ريب ان كفة سيدنا الصديق رضي الله عنه او كفة سيدنا عمرالفاروق رضي الله عنه أو كفة سيدنا ذي النورين رضي الله عنه هي التي تكون راجحة. وهذا الرجحان هو الذي شاهده اهل السنة والجماعة، وبنوا تفضيلهم عليه.

ثم ان رتبة النبوة اسمى وارفع بكثير من درجة الولاية بحيث ان جلوة بوزن درهم من النبوة تفضل رطلاً من جلوة الولاية، كما اثبتناه في «الكلمة الثانية عشرة والكلمة الرابعة والعشرين» من الكلمات، فمن زاوية النظر هذه؛ فإن حصة كل من الصديق والفاروق رضي الله عنهما من حيث وراثة النبوة وتأسيس احكام الرسالة قد زيدت من الجانب الإلهي، فالتوفيق الذي حالفهما في زمن خلافتهما قد صار دليلاً لدى اهل السنة والجماعة. وحيث ان فضائل سيدنا علي الشخصية لاتُسقط من حكم تلك الحصة الزائدة الكثيرة الآتية من وراثة النبوة، فقد اصبح سيدنا علي رضي الله عنه شيخ القضاة للشيخين المكرمين زمن خلافتهما، وكان في طاعتهما.

ان أهل الحق، اهل السنة والجماعة الذين يحبون سيدنا علياً رضي الله عنه ويوقّرونه، كيف لايحبون مَن كان سيدنا علي رضي الله عنه نفسه يحبهما ويجلّهما؟

لنوضح هذه الحقيقة بمثال: رجل ثري جداً وزع ميراثه وامواله الطائلة على اولاده. فأعطى لاحدهم عشرين رطلاً من الفضة واربعة ارطال من الذهب، واعطى لآخر خمسة ارطال من الفضة وخمسة ارطال من الذهب، واعطى لآخر ثلاثة ارطال من الفضة وخمسة ارطال من الذهب، فلا شك ان الاخيرين رغم انهما قد قبضا أقل من الأول كمية الاّ انهما قبضا أعلى منه نوعيةً.

وهكذا في ضوء هذا المثال، ان الزيادة القليلة في حصة الشيخين من ذهب حقيقة الأقربية الإلهية المتجلية من وراثة النبوة وتأسيس احكام الرسالة ترجح على الكثير من

الفضائل الشخصية وجواهر الولاية والقرب الإلهي لسيدنا علي رضي الله عنه. فينبغي في الموازنة النظر من هذه الزاوية وأخذها بنظر الاعتبار، والاّ تتغير صورة الحقيقة ان كانت الموازنة تعقد مع الشجاعة والعلم الشخصي وجانب الولاية.

ثم ان سيدنا علياً رضي الله عنه لايباريه احد من جانب كونه الممثلَ في ذاته الشخص المعنوي لآل البيت، والذي تجلى في هذه الشخصية المعنوية من حيث الوراثة النبوية المطلقة. وذلك لان السر العظيم للرسول الاعظم ﷺ في هذا الجانب.

أما شيعة الخلافة فلا حق لهم غير الخجل أمام أهل السنة والجماعة. لأن هؤلاء يُنقصون من شأن سيدنا علي رضي الله عنه في دعواهم الحبَّ المفرط له بل يفضي مذهبهم الى وصمه بسوء الخلق – حاشاه – حيث يقولون: «ان سيدنا علياً رضي الله عنه قد ماشىٰ سيدنا الصديق والفاروق رضي الله عنهما مع انهما غير محقين واتقى منهما تقاةً»، وباصطلاح الشيعة انه عمل بالتقية. بمعنى انه كان يخافهما وكان يرائيهما في اعماله! ان وصف مثل هذا البطل الاسلامي العظيم الذي نال اسم: «اسدالله» واصبح قائداً لدى الصديقين ووزيراً لهما.. اقول ان وصفه بانه كان يرائي ويخاف ويتصنع بالحب لمن لايحبهم حقاً، واتباعه لغير المحقين اكثر من عشرين عاماً ومسايرتهما تحت سطوة الخوف، ليس من المحبة في شئ. وسيدنا علي رضي الله عنه يتبرأ من مثل هذه المحبة.

وهكذا فان مذهب أهل الحق لا ينقص من شأن سيدنا علي رضي الله عنه بأية جهة كانت ولا يتهمه في اخلاقه قطعاً ولايسند الى مثل هذا البطل المقدام الخوف، ويقولون: «لولم يكن سيدنا علي رضي الله عنه يرى الحق في الخلفاء الراشدين لما كان يعطيهم الولاء لدقيقة واحدة وما كان ينقاد لحكمهم أصلاً».

بمعنى: انه رضي الله عنه قد عرف انهم على حق واقرّ بفضلهم فبذل شجاعته الفائقة في سبيل محبة الحق.

نحصل مما سبق:

انه لاخير في الافراط والتفريط في كل شئ. وان الاستقامة هي الحد الوسط الذي اختاره اهل السنة والجماعة، ولكن مع الاسف كما تستر بعض أفكار الخوارج والوهابية بستار اهل السنة والجماعة فان قسماً من المفتونين بالسياسة والملحدين ينتقدون سيدنا علياً رضي الله عنه ويقولون: «انه لم يوفق كاملاً في ادارة دفة الخلافة لجهله حاشاه – بالسياسة فلم يقدر على ادارة الأمة في زمانه». فازاء هذا الاتهام

الباطل من هؤلاء اتخذ الشيعة طور الغيظ والاستياء من اهل السنة. والحال ان دساتير اهل السنة واسس مذهبهم لاتستلزم هذه الافكار بل تثبت عكسها. لذا لا يمكن إدانة أهل السنة بافكار ترد من الخوارج ومن الملحدين قطعاً، بل ان أهل السنة هم أكثر ولاءً وحباً من الشيعة لسيدنا علي رضي الله عنه. فهم في جميع خطبهم ودعواتهم يذكرون سيدنا علياً بما يستحقه من الثناء وعلو الشأن ولاسيما الاولياء والاصفياء الذين هم باكثريتهم المطلقة على مذهب أهل السنة والجماعة، فهم يتخذونه مرشدهم وسيدهم. فماينبغي للشيعة ان يجابهوا اهل السنة بالعداء تاركين الخوارج والملحدين الذين هم اعداء الشيعة وأهل السنة معاً. حتى يترك قسم من الشيعة السنة النبوية عناداً لأهل السنة!.

وعلى كل حال فقد أسهبنا في هذه المسألة حيث انها قد بحثت كثيراً بين العلماء.

فيا اهل الحق الذين هم اهل السنة والجماعة!

ويا ايها الشيعة الذين اتخذتم محبة اهل البيت مسلكاً لكم!

ارفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لامعنى له ولاحقيقة فيه، وهو باطل ومضر في الوقت نفسه. وان لم تزيلوا هذا النزاع فان الزندقة الحاكمة الان حكماً قوياً تستغل أحدكما ضد الآخر وتستعمله أداة لإفناء الآخر، ومن بعد افنائه تحطّم تلك الاداة ايضاً.

فيلزمكم نبذ المسائل الجزئية التي تثير النزاع، لانكم اهل التوحيد بينكم مئات الروابط المقدسة الداعية الى الأخوة والاتحاد.

المقام الثاني

سيخصص لبيان الحقيقة الثانية للآية الكريمة (*): **﴿فإن تولّوا فقُل حَسبيَ الله لاإله الاّ هوَ عليهِ توكلتُ وهو ربُّ العرش العظيم﴾**.

(*) هذا المقام الثاني قد أُلفَ مستقلاً، وهو اللمعة الحادية عشرة ـ المؤلف.

اللمعة الخامسة

ستكون هذه اللمعة رسالة تبين حقيقة جليلة للآية الكريمة ﴿ **حَسبُنا الله ونِعْمَ الوَكيلُ** ﴾ ضمن خمسة عشرة مرتبة، الا ان تأليفها قد تأجل في الوقت الحاضر لكونها ذات علاقة بالتفكر والذكر اكثر من علاقتها بالعلم والحقيقة، لذا جاءت باللغة العربية.(١)

اللمعة السادسة

في بيان «لاحول ولاقوة الاّ بالله العلي العظيم» التي تعبّر عن حقيقة جليلة تنبع من كثير من الايات الكريمة. توضحها هذه اللمعة في مراتب فكرية تقرب من عشرين مرتبة والتي كنت استشعر بها في نفسي واشاهدها في سيري الروحي اثناء الذكر والتفكر كما في اللمعة الخامسة ولكن لكونها ذات علاقة بالذوق الروحي والحال القلبي اكثر من تعلقها بالعلم والحقيقة ارتؤي وضعها في ختام اللمعات وليس في بدايتها.(٢)

---

(١) لذا وضعت ضمن اللمعة التاسعة والعشرين العربية. هذا وقد ألف الاستاذ النورسي بالتركية فيما بعد الشعاع الرابع في بيان تلك المراتب ـ المترجم.

(٢) لذا وضعت ضمن اللمعة التاسعة والعشرين العربية ـ المترجم.

اللمعة السابعة

(تخص سبعة انواع من اخبار الآيات التي في ختام سورة الفتح بالغيب)

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿لَقدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَه الرُؤيا بالحق لَتَدْخُلُنّ المسْجدَ الحرامَ إن شاء اللهُ آمنينَ مُحلّقين رؤسكُم ومُقصّرين لاتخافونَ فَعَلِمَ مَالَم تَعلَموا فَجَعلَ مِنْ دون ذلك فتحاً قريباً ❁ هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلّه وكفى بالله شَهيداً ❁ محمدٌ رَسولُ اللهِ والذينَ مَعَه اشداءُ على الكُفّار رُحماءُ بينَهم تَريٰهم رُكّعاً سُجّداً يَبتغُونَ فَضْلاً منَ اللهِ ورِضواناً سيماهُم في وُجوهِهِم مِن أثَرِ السُّجُودِ ذلك مَثَلُهم في التَوريٰة وَمَثلُهم في الانجيلِ كزَرعٍ أخرجَ شَطْئَهُ فآزَرَهُ فاستَغلَظَ فاستَوى عَلى سُوقِه يُعجِبُ الزرّاعَ ليَغيظَ بهمُ الكُفّارَ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا وَعملوا الصالحاتِ منهُم مَغفرةً وأجراً عظيماً ❁﴾(الفتح: ٢٧ – ٢٩)

هذه الايات الثلاث في سورة الفتح لها وجوه اعجازية كثيرة جداً.

فوجه من الوجوه الكلية العشرة لاعجاز القرآن هو الاخبار عن الغيب الذي يظهر في هذه الآيات الكريمة بسبعة أو ثمانية وجوه:

□ الوجـه الاول:

قوله تعالى: ﴿ **لَقدْ صَدَق اللهُ رَسُولَه الرُؤيا بالحق لَتدْخُلُنّ المسْجدَ الحرامَ إن شَاء اللهُ آمنينَ...** ﴾ الخ الآية، تُخبر اخباراً قاطعاً عن فتح مكة قبل وقوعه. وقد فتحت فعلاً بعد سنتين كما اخبرت هذه الآية.

□ الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿ **فَجَعلَ مِن دُونِ ذلكَ فَتحاً قَريباً** ﴾

تنبئ هذه الاية: ان صلح الحديبية وإن بدا ظاهراً انه ليس في صالح المسلمين وان لقريش ظهوراً على المسلمين الى حد ما، الاّ أنه سيكون بمثابة فتح معنوي مبين، ومفتاحاً لبقية الفتوحات. وان السيوفَ المادية وان دخلت أغمادها في الواقع الاّ أن القرآن الكريم قد سلّ سيفه الالماسي البارق وفتح القلوب والعقول، اذ بسبب الصلح اندمجت القبائل فيما بينها واختلطت فاستولت فضائل الاسلام على العناد فمزّقت انوارُ القرآن حجبَ التعصب القومي الذميم.

فمثلاً: ان داهية الحرب خالد بن الوليد وداهية السياسة عمرو بن العاص اللذين يأبيان أن يُغلبا، غلبهما سيف القرآن الذي سطع في صلح الحديبية، حتى سارا معاً الى المدينة المنورة وسلّما الاسلام رقابهما، وانقادا اليه انقياد خضوع وطاعة حتى اصبح خالد بن الوليد سيف الله المسلول تفتح به الفتوحات الاسلامية.

سؤال مهم:

ان صحابة الرسول الكريم، وهو حبيب رب العالمين وسيد الكونين ﷺ، قد غُلبوا امام المشركين في نهاية معركة أُحد وبداية معركة حنين. فما الحكمة في هذا؟

الجواب: لأنه حينذاك كان بين المشركين كثيرون من امثال خالد بن الوليد، ممن سيكونون في المستقبل مثل كبار الصحابة في ذلك الزمان، فلأجل الاّ تُكسر عزّتُهم كلياً اقتضت حكمة الله ان تكافأهم مكافأة عاجلة لحسناتهم المستقبلية، بمعنى ان صحابةً في الماضي غُلبوا امام صحابة في المستقبل، لئلا يدخل هؤلاء - اي صحابة المستقبل - في الاسلام خوفاً من بريق السيوف، بل شوقاً الى بارقة الحقيقة، ولئلا تذوق شهامتهم الفطرية الهوان كثيراً.

□ الوجه الثالث:

ان الآية الكريمة تخبر بقيد ﴿ **لاتخافون** ﴾ بأنكم ستدخلون البيت الحرام وتطوفون حول الكعبة بأمان تام، علماً ان معظم قبائل الجزيرة العربية ومن هم حوالي مكة المكرمة وغالبية قريش كلهم اعداء للمسلمين، فهذا الإخبار يدل على انكم تدخلون في اقرب وقت المسجد وتطوفون دون أن يداخلكم الخوف، وان الجزيرة ستدين لكم بالطاعة، وقريش تكون في حظيرة الاسلام ويعم الامن والامان. فوقع كما اخبرت الآية.

□ الوجه الرابع:

قوله تعالى: ﴿ **هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلّه** ﴾.

هذه الآية تخبر إخباراً قاطعاً: ان الدين الذي جاء به الرسول الكريم ﷺ سيظهر على الاديان كلها، علماً ان النصرانية واليهودية والمجوسية التي يعتنقها مئات الملايين من الناس كانت أدياناً رسمية لدول كبرى كالصين وايران وروما، والرسول الكريم ﷺ لم يظهر بعدُ ظهوراً تاماً على قبيلته نفسها. فالآية الكريمة تخبر عن ظهور دينه على الاديان كافة وعلى الدول كافة، بل تخبر عن هذا الظهور بكل يقين وجزم اخباراً قاطعاً. ولقد صدّق المستقبل هذا الخبر الغيبي بامتداد سيف الاسلام من بحر المحيط الشرقي الى بحر المحيط الغربي.

□ الوجه الخامس:

﴿ **محمدٌ رَسولُ اللهِ والذينَ مَعَه اشداءُ على الكُفّار رُحماءُ بينَهم تَريـهم رُكّعاً سُجّداً يَبتَغُونَ فَضْلاً منَ اللهِ ورِضواناً سيماهُم في وُجوهِهم من أثَرِ السُّجُودِ** ﴾.

هذه الآية صريحة في معناها من ان الصحابة الكرام هم افضل بني الانسان بعد الانبياء عليهم السلام لما يتحلون به من سجايا سامية ومزايا راقية، وفي الوقت نفسه تبين ما تتصف به طبقات الصحابة في المستقبل من صفات ممتازة مختلفة خاصة بهم، كما تبين بالمعنى الاشاري – لدى اهل التحقيق – الى ترتيب الخلفاء الذين سيخلفون مقام النبي ﷺ بعد وفاته، فضلاً عن اخبارها عن ابرز صفة خاصة بكل منهم مما اشتهروا به.

وذلـك: فـان قـوله تعـالى: ﴿ **والذيـن معـه** ﴾ يـدل علـى سيدنا الصـديـق رضي الله عنه المتصف بالمعية المخصوصة والصحبة الخاصة، بل بوفاته اولاً دخل ضمن معيته ايضاً.

كما ان قوله تعالى: ﴿ **اشداء على الكفار** ﴾ يدل على سيدنا عمر رضي الله عنه الذي سيهز دول العالم ويرعبهم بفتوحاته، وسيشتهر بعدالته على الظالمين كالصاعقة.

وتخبر الآية بلفظ ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ عن سيدنا عثمان رضي الله عنه الذي لم يرض باراقة الدماء بين المسلمين حينما كانت تتهيأ اعظم فتنة في التأريخ، ففضّل بكمال رحمته ورأفته ان يضحي بروحه ويسلّم نفسه للموت، واستشهد مظلوماً وهو يتلو القرآن الكريم.

كما ان قوله تعالى: ﴿ **تَريٰـهم رُكّعاً سُـجّداً يَبتَغُونَ فَضْلاً منَ الله ورِضواناً** ﴾ يشير الى اوضاع سيدنا علي رضي الله عنه الذي باشر مهام الخَلافة بكمال الاستحقاق والاهلية وهو في كمال الزهد والعبادة والفقر والاقتصاد واختار الدوام على السجود والركوع كما هو مصدّق عند الناس. فضلاً عن اخبارها أنه لايكون مسؤولاً عن حروبه التي دخلها في تلك الفترة وفي المستقبل، والذي كان يبتغي فيها فضلاً من الله ورضواناً.

□ الوجه السادس:

﴿ **ذلك مَثلُهم في التَوريٰـة** ﴾ هذه الجهة فيها اخبار غيبي بجهتين:

الجهة الاولى:

انها تخبر عن اوصاف الصحابة الواردة في التوراة، وهي في حكم الغيب بالنسبة لرسول أميﷺ. اذ قد وضح في المكتوب التاسع عشر ان في التوراة وصفاً لصحابة الرسول الذي سيأتي في آخر الزمان «معه الوف الاطهار» في يمينه او «معه رايات القديسين» بمعنى ان اصحابه مطيعون وعبّاد صالحون واولياء لله حتى يوصفون بالقديسين الاطهار.

فعلى الرغم مما طرأ من تحريفات كثيرة على التوراة بسبب ترجماتها العديدة لألسنة متنوعة، فانها مازالت تصدّق بآيات كثيرة منها هذه الآية الكريمة في ختام سورة الفتح.. ﴿ **مَثلُهم في التَوريٰـة** ﴾.

الجهة الثانية من الاخبار الغيبي هي:

ان ﴿ مَثَلُهم في التَورية... ﴾ تخبر عن ان الصحابة الكرام والتابعين سيبلغون مرتبة من العبادة بحيث أن ما في ارواحهم من نور سيشع على وجوههم وستظهر على جباههم علامة ولايتهم وصلاحهم بكثرة السجود لله.

نعم، فلقد صدّق المستقبل هذا بكل يقين ووضوح وجلاء فان زين العابدين رضي الله عنه الذي كان يصلي الف ركعة ليلاً ونهاراً وطاووساً اليماني رضي الله عنه الذي صلى الفجر بوضوء العشاء طوال اربعين سنة، رغم التقلبات السياسية والاوضاع المضطربة، وكثيرين امثالهما قد بينّوا سراً من اسرار هذه الآية الكريمة: ﴿ مثلهم في التَورية ﴾.

□ الوجه السابع:

﴿ وَمَثَلُهم في الانجيلِ كزَرعٍ أخرَجَ شَطْئَهُ فآزَرَهُ فاستَغلَظَ فاستَوى عَلى سُوقِهِ يُعجِبُ الزرّاعَ ليَغيظَ بهمُ الكُفّارَ ﴾

هذه الفقرة ايضاً فيها اخبار غيبي بجهتين:

اولاها:

ان اخبار مافي الانجيل من اوصاف الصحابة الكرام اخبار هي في حكم الغيب بالنسبة لرسول اميﷺ.

نعم! لقد وردت آيات في الانجيل تصف الرسول الذي سيأتي في آخر الزمان مثل: «ومعه قضيب من حديد وامته كذلك» بمعنى انه صاحب سيف ويأمر بالجهاد واصحابه كذلك اصحاب السيوف ومأمورون بالجهاد وليس كسيدنا عيسى عليه السلام الذي لم يك صاحب سيف. فضلاً عن أن ذلك الموصوف معه قضيب من حديد سيصبح سيد العالم، لأن آية في الانجيل تقول: «سأذهب كي يجئ سيد العالم».

فنفهم من هاتين الفقرتين من الانجيل: ان الصحابة الكرام وإن بدا عليهم في بادئ الامر ضعف وقلة الاّ انهم سينمون نمو البذرة النابتة وسيعلون كالنبات النامي الناشئ

ويقوون حتى يغتاظ منهم الكفار، بل يرُضخون العالم بسيوفهم فيثبتون ان سيدهم الرسول الكريم هو سيد العالم. وهذا المعنى الذي تفيده آية الانجيل هي معنى الاية في ختام سورة الفتح.

الوجه الثاني:

تفيد هذه الفقرة: ان الصحابة الكرام وان كانوا قد قبلوا بصلح الحديبية، لقلتهم وضعفهم آنذاك فانهم بعد فترة وجيزة يكسبون بسرعة قوة رهيبة بحيث ان البشرية التي انبتتها يد القدرة الإلهية في مزرعة الارض تكون سنابلها قصيرة وناقصة وممحوقة بسبب غفلتهم ازاء سنابلهم العالية الشامخة القوية المثمرة المباركة، حتى انهم يكونون من القوة والكثرة بحيث يتركون دولاً كبرى تتلظى بنار غيظها وحسدها.

نعم ان المستقبل قد بين هذا الاخبار الغيبي باسطع صورة. وفي هذا الاخبار الغيبي ايماء خفي ايضاً وهو:

انه لما اثنى على الصحابة الكرام لما يتحلون به من خصال فاضلة مهمة كان المقام يلزم وعد ثواب عظيم ومكافأة جليلة لهم، الاّ انه يشير بكلمة «مغفرة» الى انه ستقع اخطاء وهفوات مهمة من جراء فتن تحدث بين الصحابة، اذ المغفرة تدل على وجود تقصير في شئ وحينذاك سيكون اعظم مطلوب لهم وافضل احسان عليهم هو المغفرة. لان اعظم إثابة هو: العفو، وعدم العقاب.

فكما أن كلمة (مغفرة) تدل على هذا الايماء اللطيف كذلك فهي ذات علاقة مع مافي بداية السورة: ﴿ **ليغفرَ لكَ الله مَا تَقدّم مِن ذَنبكَ ومَا تأخّر** ﴾(الفتح:٢) فالمغفرة هنا ليست مغفرة ذنوب حقيقية لأن في النبوة العصمة، فلا ثمة ذنب. وانما هي بشرى المغفرة بما يناسب مقام النبوة. وما في ختام السورة من تبشير الصحابة الكرام بالمغفرة يضم لطافة اخرى الى ذلك الايماء.

وهكذا فوجوه الاعجاز العشرة للايات الكريمة الثلاث في ختام سورة الفتح، لم نبحث فيها الاّ عن وجه الاعجاز في إخبارها الغيبي بل لم نبحث الا في سبع وجوه من الوجوه الكثيرة جداً عن هذا النوع من الإخبار.

وقد اشير الى لمعة اعجاز مهمة في اوضاع حروف هذه الآية الاخيرة في ختام «الكلمة السادسة والعشرين» الخاصة بالقدر والجزء الاختياري. فهذه الآية موجهة بجملها الى الصحابة الكرام كما تشمل بقيودها احوالهم ايضاً، ومثلما تفيد بالفاظها اوصاف الصحابة فهي تشير بحروفها وتكرار اعدادها الى اصحاب بدر وأحد وحنين واصحاب الصفة وبيعة الرضوان وامثالهم من طبقات الصحابة الكرام. كما تفيد اسراراً كثيرة بحساب الحروف الابجدية والتوافق الذي يمثل نوعاً من علم الجفر ومفتاحه.

﴿ سُبحَانَكَ لاعِلمَ لنا إلاّما عَلمتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

* * *

ان الاخبار الغيبي الذي تخبر به آيات ختام سورة الفتح بالمعنى الاشاري، تخبر به كذلك هذه الآية الآتية وتشير الى المعنى نفسه، لذا نتطرق اليها هنا.

تـتـمة

﴿ ولَهَديناهُم صراطاً مُستَقيماً۝ ومَن يُطع الله والرسولَ فأولئكَ مَع الذينَ أنعَم الله عليهم مِنَ النَبيينَ والصِدّيقينَ والشُهداء والصالحين وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً ﴾
(النساء: ٦٨-٦٩)

نشير الى نكتتين فقط من بين الوف نكات هذه الآية الكريمة:

النكتة الاولى:

ان القرآن الكريم مثلما يبين الحقائق بمفاهيمه وبمعناه الصريح يفيد كذلك معاني اشارية كثيرة باساليبه وهيئاته. فلكل آية طبقات كثيرة من المعاني؛ ولان القرآن الكريم قد نزل من العلم المحيط، فيمكن ان تكون جميع معانيه مرادة، اذ معاني القرآن لاتنحصر في واحد او اثنين من المعاني كما ينحصر كلام الانسان الحاصل بإرادته الشخصية وبفكره الجزئي المحدود.

فبناءً على هذا السر فقد بيّن المفسرون مالايحد من الحقائق لآيات القرآن.

وهناك حقائق كثيرة جداً لم يبينها المفسرون بعدُ. ولاسيما حروف القرآن واشاراته ففيها علومٌ مهمة سوى معانيه الصريحة..

النكتة الثانية:

تبين هذه الآية الكريمة:

﴿ مِنَ النَّبِيينَ والصدّيقينَ والشُهَداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً ﴾

ان اهل الصراط المستقيم والمنعم عليهم بالنعم الإلهية حقاً هم طائفة الأنبياء وقافلة الصديقين وجماعة الشهداء واصناف الصالحين وانواع التابعين. فكما تبين الآية هذه الحقيقة فهي تفيد صراحة اكملَ مَن في تلك الاقسام الخمسة في عالم الاسلام وتدل على ائمة تلك الاقسام الخمسة وعلى رؤسائهم المتقدمين بذكر صفاتهم المشهورة. ثم تعيّن بجهة بلمعة اعجاز أئمة تلك الاقسام في المستقبل واوضاعهم بنوع من إخبار غيبي.

نعم! كما أن لفظ ﴿ **من النبيين** ﴾ ينظر صراحة الى الرسول الكريم ﷺ فان فقرة ﴿ **والصديقين** ﴾ تنظر الى ابي بكر الصديق، مشيرة الى أنه الشخص الثاني بعد الرسول الكريم ﷺ، واول مَن يخلفه. وان اسم الصدّيق عنوانه الخاص الذي لقّب به وهو المعروف لدى الأمة جميعاً. وانه سيكون على رأس الصديقين.

كما تشير بكلمة ﴿ **والشهداء** ﴾ الى عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم اجمعين وتفيد افادة غيبية ان هؤلاء الثلاثة سينالون الخلافة بعد الصديق رضي الله عنه، وانهم سيستشهدون. مما يزيد فضيلة الى فضائلهم.

وكما تشير بكلمة ﴿ **والصالحين** ﴾ الى اصحاب الصفة وبدر، وبيعة الرضوان وتشوّق بجملة ﴿ **وَحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً** ﴾ وبمعناه الصريح على اتباعهم وتبين جمال اتباع التابعين لهم وحُسنه مشيرةً بالمعنى الإشاري الى الحسن رضي الله عنه انه خامس الخلفاء الأربعة، مصدقة حكم الحديث الشريف: «الخلافة بعدي في امتي ثلاثون سنة»(١). فمع قصر مدة خلافته فهي عظيمة الشأن.

---

(١) صحيح: عن سفينة ان الرسول ﷺ قال:
(الخلافة بعدي في امتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك) رواه احمد والترمذي وابو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه (صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣٣٦ قال المحقق: صحيح) (الفتح الرباني للساعاتي: ١٠/٢٣) وفي سلسلة الاحاديث الصحيحة ٤٦٠ بعدة سياقات.

الحاصل:

ان الآية الأخيرة من سورة الفتح تنظر الى الخلفاء الأربعة كما تنظر هذه الآية وتشير الى مستقبل اوضاعهم وتؤيدها بنوع من الاخبار الغيبي.

فالإخبار الغيبي الذي هو احد انواع اعجاز القرآن له لمعات اعجازية كثيرة وكثيرة لاتعد ولاتحصى، لذا فان حصر اهل الظاهر تلك الإخبارات الغيبية في اربعين او خمسين آية فقط انما هو ناشئ من نظر ظاهري سطحي بينما في الحقيقة هناك ما يربو على الألف منها بل قد تكون في آية واحدة فقط اربعة او خمسة إخبار غيبية.

﴿ ربَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسينَا أو أخطأنا ﴾

﴿ سُبحَانَكَ لاعِلمَ لنا إلاّما عَلمْتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

اللمعة الثامنة

ستنشر ضمن مجموعة اخرى باذن الله

اللمعة التاسعة

لايسع كل واحد أن يرى نقائص وحدة الوجود الدقيقة ولاهو بحاجة اليها، لذا لاحاجة له لقراءة هذه اللمعة.

باسمه سبحانه

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اخي العزيز الوفي المخلص الخالص!

ان سبب عدم ارسالي رسالة مستقلة الى اخينا «عبدالمجيد»[1] هو ان رسائلي التي ابعثها اليكم تفي بالغرض، فان «عبدالمجيد» اخ قدير وطالب مجد بعد «خلوصي»[2]، وانا اذكره باسمه في دعائي كل صباح ومساء مع «خلوصي» واحياناً قبله. هذا وان «صبري» ثم «حقي افندي» يستفيدان من رسائلي، فلا ارى داعياً لأبعث إليهما رسائل مستقلة. فلقد أنعم الله عليك وجعلك اخاً كبيراً مباركاً

(١) عبد المجيد: هو أصغر اخوة الاستاذ النورسي. ترجم كثيراً من رسائله الى اللغة العربية الا انها نشرت في وقتها في نطاق ضيق وترجم الى التركية رسائله العربية (اشارات الاعجاز) و (المثنوي العربي). كان مدرساً للغة العربية ثم مفتياً ثم مدرساً للعلوم الاسلامية في معهد الائمة والخطباء والمعهد الاسلامي في قونيا. توفي سنة ١٩٦٧م عن ثلاث وثمانين سنة من العمر رحمه الله رحمة واسعة. ـ المترجم.

(٢) هوخلوصي يحيى گيل من السابقين الذين تتلمذوا على الاستاذ النورسي في «بارلا» وكان حينئذ ضابطاً برتبة نقيب، كان يبعث الى استاذه اسئلته وما يستفسر منه من امور ايمانية. جمعت هذه الاجوبة بتوجيه الاستاذ نفسه وسميت بـ (مكتوبات). توفي سنة ١٩٨٦ عن ٩١ سنة من العمر، رحمه الله رحمة واسعة. ـ المترجم.

لهما، فراسل «عبدالمجيد» بدلاً مني، وطمئنه لئلا يقلق، فانا افكر فيه بعد «خلوصي» . .

سؤالكم الاول

وهو سؤال خاص يعود الى امضاء احد اجدادكم باسم «السيد محمد» (اي من آل البيت).

اخي!

انني لا املك الاجابة عن هذا السؤال جواباً مبنياً على العلم والتحقيق والكشف، ولكن كنت اقول لاصحابي: ان «خلوصي» لا يشبه الاتراك الحاليين، ولا الاكراد، فاني ارى فيه خاصية اخرى، وكانوا يصدّقونني. فكنا نقول: ان ظهور عراقة وأصالة في «خلوصي» دليل على نيله عطاء الحق، بمضمون القاعدة:

«داد حق را قابليت شرط نيست»(١)

واعلم قطعاً ان للرسول الاكرمﷺ نوعين من الآل:

الاول: آله النَسَبي.

والاخر: آله من حيث شخصه المعنوي النوراني، اي من حيث الرسالة.

فأنت داخل قطعاً في هذا الآل الثاني، فضلاً عن دخولك في الآل الأول حسب قناعتي بلا دليل. فان إمضاء جدّك باسم «السيد» ليس عبثاً ولا جزافاً.

---

(١) أي: أن الفضل الإلهي لا يشترط القابلية في ذات الشخص. — المترجم.

خلاصة سؤالكم الثاني:

أخي العزيز!

ان محي الدين بن عربي(١) قد قال: (ان مخلوقية الروح عبارة عن انكشافها). انك ياأخي بسؤالك هذا تضطرني الى ان اناقش وانا الضعيف العاجز خارقة الحقيقة وداهية علم الاسرار محي الدين بن عربي. ولكن لما كنت ساخوض في البحث معتمداً على نصوص القرآن الكريم فسوف استطيع ان احلق اعلى من ذلك الصقر وأسمى منه وإن كنت ذبابة!

أخي:

اعلم ان محي الدين بن عربي لايخدع ولكن ينخدع، فهو مهتد، ولكنه لايكون هاديا لغيره في كل ما كتبه. فما رآه صدق وصواب ولكن ليس هو الحقيقة.

ولقد وضحت «الكلمة التاسعة والعشرون» في مبحث الروح، الحقيقة التي يدور عليها سؤالكم.

نعم! ان الروح من حيث الماهية قانون أمري. ولكن اُلبست وجوداً خارجياً، فهي ناموس ذو حياة، وقانون ذو وجود خارجي.

فالشيخ محي الدين قد نظر الى الروح من حيث ماهيتها فحسب، ويرى الاشياء خيالا حسب مشرب وحدة الوجود.

ولما كان الشيخ قد انتهج مسلكاً مستقلاً وكان صاحب مشرب مهم وله كشفيات ومشاهدات خارقة فانه يلجأ باضطرار الى تأويلات ضعيفة وتكلّف وتمحّل ليطبق بعض الآيات الكريمة حسب مشربه ومشهوداته، مما يخدش صراحة الآية الكريمة ويجرحها.

---

(١) محي الدين بن عربي: هو محمد بن علي بن محمد ابن عربي ابو عبدالله الطائي الاندلسي المعروف بابن العربي الشهير بالشيخ الاكبر، ولد بالاندلس سنة ٥٦٠ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ، له من التصانيف (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية). البداية والنهاية لابن كثير ١٥٦/١٣ كشف الظنون ١٢٣٨، ١٢٦١ هدية العارفين ١١٤/٢ الاعلام ٢٨١/٦ ميزان الاعتدال ١٠٨/٣ جامع كرامات الاولياء ١١٨/١ الطبقات الكبرى ١٨٨/١. ـ المترجم.

ولقد بينا في رسائل اخرى المنهج القرآني ومنهج أهل السنة السنية القويم.

فالشيخ ابن عربي له مقام خاص لذاته، وهو من المقبولين، إلا أنه بكشفياته التي لاضوابط لها خرق الحدود وتجاوزها وخالف جمهور المحققين العلماء في كثير من المسائل.

ولأجل هذا تكاد تقتصر طريقته الخاصة به لفترة قصيرة جداً في «صدر الدين القونوي»(١) ويندر أن يستفاد من آثاره استفادة ذات استقامة، مع كونه شيخاً عظيماً عالي القدر وقطباً خارقاً فريد زمانه. بل لايحث كثير من العلماء المحققين والاصفياء على قراءة آثاره القيمة، بل قسم منهم يمنعون قراءتها.

ان بيان الفرق الاساس بين مشرب الشيخ محي الدين بن عربي واهل التحقيق من العلماء، وبيان منابعهما ومصادرهما يحتاج الى دراسة عميقة وبحث دقيق ونظر واسع رفيع.

نعم! ان الفرق دقيق جداً وعميق جداً الى درجة كبيرة، والمصدر رفيع وسام الى حدٍ كبير، بحيث لم يؤاخذ الشيخ ابن عربي على خطئه، وانما ظل مقبولا لدى العلماء. اذ لو كان الفرق والمصدر مشهودين واضحين علماً وفكراً وكشفاً لكان سقوطاً مريعاً للشيخ وخطأ جسيما له.

ولكن لما كان الفرق عميقا جدا، فاننا نحاول أن نبين خطأ الشيخ في تلك المسألة فحسب ونوضح ذلك الفرق وتلك المنابع في مثال باختصار شديد:

فمثلا: الشمس تشاهد في مرآة. فهذه المرآة هي مظروف الشمس، وموصوفها. بمعنى ان الشمس توجد فيها من جهة، ومن جهة اخرى تزين المرآة حتى تكون صفتها اللامعة وصبغتها الساطعة.

---

(١) صدر الدين القونوي: هو محمد بن اسحاق بن محمد بن يوسف القونوي الرومي، صدر الدين: من كبار تلاميذ محي الدين بن عربي تزوج ابن العربي أمه، وربّاه، من كتبه (النصوص في تحقيق الطور المخصوص) في التصوف، وتفسير سورة الفاتحة سمّاه (اعجاز البيان في تفسير ام القرآن). الاعلام للزركلي (٣٠/٦)، طبقات المفسرين للداوودي ١٠٣/٢، تذكرة الحفاظ للذهبي ١٤٩١، هدية العارفين لاسماعيل باشا ١٣٠/٢، طبقات الاولياء لابن الملقن ٤٦٧ كشف الظنون لحاجي خليفة ٤٥٥ الطبقات الكبرى للشعراني ٢٠٢/١ . ـ المترجم.

فان كانت تلك المرآة، مرآة آلة تصوير فانها ستنقل صورة الشمس على ورقة حساسة بصورة ثابتة. ففي هذه الحالة فالشمس المشهودة في المرآة وماهيتها المرتسمة على الورقة وصفاتها، وتزيينها المرآة – حتى غدت كأنها صفتها – هي غير الشمس الحقيقية. فهي ليست شمسا، بل هي دخول تجلي الشمس في وجود آخر.

اما وجود الشمس المشهودة في المرآة فهو وان لم يكن عين وجود الشمس الموجودة في الخارج الانه قد ظن انه عين وجودها لارتباطه بها واشارته اليها.

فبناء على هذا المثال:

فان القول بأن: «ليس في المرآة غير الشمس الحقيقية» يمكن ان يكون صوابا باعتبار المرآة ظرفا وان المقصود من الشمس التي فيها وجودها الخارجي. ولكن اذا قيل ان صورة الشمس المنبسطة على المرآة – التي اخذت حكم صفة المرآة – والصورة التي انتقلت الى الورقة الحساسة انها الشمس، فهذا خطأ، اي ان عبارة «ليس في المرآة غير الشمس» تكون عبارة خطأ، ذلك لان هناك صورة الشمس التي تظهر على المرآة وهناك الصورة المرتسمة خلفها على الورق الحساس، فكل منها لها وجود خاص بها. فمع أن ذينك الوجودين هما من تجلي الشمس الا انهما ليسا الشمس نفسها.

وكذا فان ذهن الانسان وخياله شبيهان بمثال المرآة هذا. وذلك:

ان المعلومات الموجودة في مرآة فكر الانسان لها وجهان ايضاً: فهي بوجه علم، وبوجه آخر معلوم.

فاذا اعتبرنا الذهن ظرفاً لذلك المعلوم، اصبح ذلك الموجود المعلوم معلوما ذهنيا. فوجوده شئ آخر.

وان اعتبرنا الذهن موصوفا بذلك الشئ الذي حل فيه اصبح صفة للذهن، وذلك الشئ يكون عندئذ علما، وله وجود خارجي. وحتى لو كان لذلك المعلوم وجود وجوهر فسيكون وجوداً خارجياً عرضياً.

فبناء على هذين التمثيلين:

الكون مرآة، وماهية كل موجود مرآة ايضا. هذه المرايا معرضة الى الإيجاد الإلهي بالقدرة الأزلية.

فكل موجود – من جهة – يصبح مرآة لاسم من اسماء الله يبين نقشاً من نقوشه.

فالذين هم على مشرب الشيخ ابن عربي قد كشفوا العالم من حيث المرآتية والظرفية والموجود المثالي في المرآة – من زاوية النفي – ومن حيث منعكس صورة ذلك الشيء في المرآة هو عينه. وقالوا: لاموجود إلا هو، دون ان يفكروا بالمراتب الاخرى، فأخطأوا حتى بلغ بهم الامر ان ينكروا القاعدة الاساسية المعروفة: (حقائق الاشياء ثابتة).

اما اهل الحقيقة فانهم يرون بسر الوراثة النبوية وبصراحة القرآن الكريم وآياته البينات:

ان النقوش التي توجد في مرايا الموجودات بقدرة الله وارادته انما هي من آثاره سبحانه وتعالى. فكل موجود انما هو منه تعالى وهو الذي يوجده، وليس كل موجود هو، حتى يقال: لاموجود إلا هو. اذ للاشياء وجود، وهو وجود ثابت الى حد ما، وان كان هذا الوجود وجودا ضعيفاً كأنه وهمي وخيالي بالنسبة الى وجوده تعالى، إلا انه موجود بايجاد القدير الأزلي وإرادته وقدرته.

ان للشمس المشهودة في المرآة وجوداً مثالياً عدا وجودها الخارجي الحقيقي.

ولها وجود خارجي عرضي آخر يلون المرآة بزينته اذ تنبسط عليها صورتها.

ولها وجود خارجي عرضي ايضاً، وهو وجود ثابت الى حد ما وهو الصورة المنتقشة على الورقة الحساسة خلف المرآة.

فكما ان للشمس وجودات هكذا في المثال كذلك الأمر في مرآة الكون ومرايا ماهية الاشياء. فان نقوش المصنوعات الظاهرة بتجليات الاسماء الإلهية الحسنى

الحاصلة بالإرادة الإلهية واختيارها وقدرتها، لها وجود حادث غير وجود الواجب الوجود. وقد منح بالقدرة الالهية ثباتا لهذا الوجود ولكن لو انقطع الارتباط فنيت الاشياء وانعدمت مباشرة. فكل شئ محتاج لبقائه في كل آن الى ابقاء خالقه له، فان حقائق الاشياء وان كانت ثابتة ولكن ثابتة باثباته سبحانه لها وتثبيته اياها.

وهكذا فان قول الشيخ ابن عربي: «ان الروح ليست مخلوقة وانما هي حقيقة آتية من عالم الامر وصفة الارادة» مخالف لظاهر نصوص كثيرة، كما قد التبس عليه الامر في ضوء التحقيقات المذكورة آنفاً وانخدع اذ لم يشاهد الموجودات الضعيفة.

فلايمكن ان تكون مظاهر (الخلاق والرزاق) من الاسماء الإلهية الحسنى مظاهر وهمية خيالية. فما دامت تلك الاسماء ذات حقيقة، فان مظاهرها ايضاً لها حقائق خارجية.

سؤالكم الثالث:

تطلبون فيه درساً يكون مفتاحاً لعلم «الجفر».

الجواب: اننا يا اخي لسنا في هذه الخدمة القرآنية بارادتنا ولا بتدبيرنا للامور. بل ان اختياراً — وهو خير لنا — فوق اختيارنا وخارج ارادتنا يهيمن على اعمالنا واختيارنا.

اعلم ان علم الجفر يُشغل الانسان عن وظيفته الحقيقية ويصرفه عنها، لما فيه من ذوق وولع. حتى كانت تحل لي أسرار تخص القرآن بذلك المفتاح لمرات عدة، ولكن ما ان اتوجه اليه بشوق وذوق حتى توصد الابواب دوني. فوجدت في هذا الأمر حكمتين:

الاولى: احتمال الوقوع في موضع ينافي الادب اللائق بالقاعدة الاساسية «لا يعلم الغيب الاّ الله».

الثانية: ان العمل على ارشاد الامة الى حقائق الايمان والقرآن بوساطة البراهين الدامغة، له من الفضائل والمزايا ما يفوق مائة درجة على العمل بارشادهم بالعلوم الخفية كعلم الجفر. حيث ان الحجج القاطعة والدلائل الثابتة لا تدع مجالاً للمداخلة في تلك الوظيفة السامية. بينما علم الجفر وامثاله من العلوم الخفية غير المنضبطة بقواعد محكمة، قد يساء استعماله بولوج الماكرين فيه. علماً انه متى ما احتاج الامر اليه لخدمة الحقائق، فان الله سبحانه يفتح علينا نبذة منه حسب الحاجة.

واعلم ان أيسر مفتاح من بين مفاتيح علم الجفر، وانقاها، بل أجملها وأحسنها هو انواع التوافقات الناشئة من اسم «البديع» والتي اظهرت شعاعاً من نورها في توافق لفظ الجلالة في القرآن الكريم وزيّنت الآثار التي نقوم بنشرها. علماً انه وضح شئ منها في عدة مواضع من رسالة الكرامة الغوثية. نذكر منها:

ان التوافق اذا ما أظهر شيئاً في عدة جهات، فهو اشارة بدرجة الدلالة، علماً أنه قد يكون توافق واحد احياناً مع بعض القرائن بمثابة دليل ويحل محله.

وعلى كل حال، يكفي هذا القدر من الاجابة عن سؤالك في الوقت الحاضر. ومتى ما كانت الحاجة جادة اليه ستُبلّغون به.

سؤالكم الرابع:

اي سؤال امام الجامع «عمر أفندي» وليس سؤالكم، وهو:

ان طبيباً شقياً يدّعي انه كان لعيسى عليه السلام والد، وزعم انه يستشهد لنفسه بآية كريمة بتأويل جنوني(١).

ان ذلك العاجز قد سعى سابقاً لإحداث خط بحروف مقطعة، بل سعى سعياً حثيثاً في الأمر. فعلمت حينذاك أن ذلك الرجل قد استشعر من اطوار الزنادقة وتصرفاتهم انهم سيحاولون رفع الحروف الاسلامية وازالتها. وكأنه اراد ان يصدّ ذلك التيار الجارف، ولكن دون جدوى.

وقد شعر الآن في هذه المسألة، وفي مسألته الثانية، بهجوم الزنادقة العنيف على الاسس الاسلامية. واظن انه يحاول فتح طريق للمصالحة والسلام، بمثل هذه التأويلات السخيفة التي لا معنى لها.

انه لا والد لعيسى عليه السلام، كما تبينه يقيناً الآية الكريمة ﴿**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم**﴾(آل عمران: ٥٩) وامثالها من النصوص القاطعة. لذا لا يؤبه بكلام من يحاول تغيير هذه الحقيقة الرصينة الراسخة، بل لا يقام لقوله وزن ولا يستحق الاهتمام به اصلاً، حيث يعدّ مخالفة قانون في التناسل غير ممكنٍ فيتشبث بتأويلات واهية.

لاشك انه لا قانون دون شذوذ منه، ودون نوادر له، ودون افراد خارجة عنه، وليست هناك قاعدة كلّية لم تُخصص بافراد خارقة.

وانه لا يمكن ألاّ يُشَذّ فرد – ايا كان – من قانون، ولايخرج منه، منذ زمن آدم عليه السلام.

فأولاً: ان هذا القانون، قانون التناسل قد خُرق باعتبار المبدأ، بمبادئ مائتي الف

(١) ان الذي تراس ربع البشرية، وانتقل – بجهة – من نوع البشر الى نوع الملائكة، وترك الارض متخذاً السماء له موطناً.. ان هذا الفرد الانساني الخارق، وهذه اوضاعه الخارقة يقتضي ان تكون له صورة خارقة من قانون التناسل. بينما لا ينسجم ضمه بتأويل داخل قانون التناسل بوجه مشكوك مجهول غير فطري، بل بادنى وجه وطراز من وجوه قانون التناسل، كما لا اضطرار الى ذلك اصلاً.

ثم ان صراحة القرآن الكريم لا تتحمل التأويل. ويا عجباً أتُهدم قوانين ثابتة رصينة لم تُخرق في اية جهة كانت، وظلت خارقة عن قانون التناسل؛ كقانون الجنس الملائكي وقانون صراحة القرآن، في سبيل ترميم قانون التناسل المتخرق الممزق بمائة جهة وجهة؟ – المؤلف –

نوع من انواع الحيوانات وختم بها. اي أن آباء تلك الحيوانات الاولين، وهم بمثابة أوادم لها، قد خرقوا قانون التناسل. أي ان مائتي الف أب من اولئك الأباء لم يأتوا الى الوجود من أب وأم. بل أُعطي لهم وجودٌ خارج ذلك القانون.

ثم اننا نشاهد بابصارنا في كل ربيع، أن القسم الاعظم من مائة الف نوع من الكائنات الحية ومما لا تعد ولا تحصى من افرادها، تُخلق خارج ذلك القانون، قانون التناسل، تُخلق على وجوه الاوراق وعلى المواد المتعفنة.

تُرىٰ ان قانوناً يُخرق بشواذ، بهذه الكثرة الكاثرة، في مبدئه، بل في كل سنة. ثم يأتي احدهم ولا يتمكن أن يسع عقله شذوذ فرد واحد لذلك القانون خلال الف وتسعمائة سنة، فيتشبث بتأويلات تافهة تجاه النصوص القرآنية القاطعة.. اقول ترى كم يكون مرتكباً حماقة وبلاهة! قس ذلك بنفسك. علماً ان الاشياء التي يطلق عليها اولئك الشقاة اسم «القوانين الطبيعية» انما هي قوانين عادة الله التي هي تجلٍ كلي للامر الالهي والارادة الالهية، بحيث يغيّر سبحانه وتعالى عاداته تلك لبعض الحِكَم؛ مظهراً هيمنة ارادته واختياره على كل شئ وعلى كل قانون. فيخرق العادة في بعض الافراد الخارقين، وقوله تعالى: ﴿**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم**﴾ يبيّن هذه الحقيقة.

السؤال الثاني لعمر افندي فيما يخص ذلك الطبيب.

لقد تصرف ذلك الطبيب في تلك المسألة تصرف معتوه، وارتكب حماقة بلهاء بحيث لا يستحق إلقاء السمع له، ولا الاهتمام به فضلاً عن الاجابة عن سؤاله. اذ يريد هذ البائس ان يوجد الوسط بين الكفر والايمان.

فأنا اقول جواباً عن استفسار عمر أفندي، وليس جواباً للكلام التافه لذلك الطبيب.

ان العلة في الاوامر والنواهي الشرعية هي الامر الإلهي ونهيه. اما المصالح والحِكم فهي مرجِّحات يمكن ان تكون اسباباً لمتعلقات الامر الإلهي ونهيه من زاوية اسم الله الحكيم..

فمثلاً: يقصر المسافر الصلاة. وهذ القصر له علة وحكمة، فالعلة هي السفر والحكمة هي المشقة. فاذا وجد السفر تقصر الصلاة وان لم تكن مشقة. ولكن لو

وُجدت مائة مشقة في البيت فلا تقصر الصلاة دون سفر. اذ وجود المشقة احياناً في عامة السفر كافية لتكون حكمةً لقصر الصلاة وكافية ايضاً لتجعل السفر علّة للقصر.

فبناءً على هذه القاعدة الشرعية لا تتغير الاحكام الشرعية بحسب الحِكم، بل بحسب العلل الحقيقية.

فان لحم الخنزير – كما ذكره ذلك الطبيب – فيه ضرر، حسب قاعدة «من اكل لحم الخنزير يتصف بصفاته»(١) ففيه مالا يعلمه ذلك الطبيب من اضرار وامراض. فذلك الحيوان لا يشبه سائر الحيوانات الاهلية النافعة التي لا ضرر لها. بل اكل لحمه يورث اضراراً اكثر من نفعه.

علاوة على الشحم القوي الموجود في لحمه له اضرار طبية كثيرة في غير بلاد الافرنج الباردة. بل تحقق ان له اضراراً كثيرة معنوية وحقيقية.

فمثل هذه الحكَم، اصبح حكمةً لتحريمه ولتعلق النهي الالهي به، ولا يلزم ان تكون الحكمة في كل فرد وفي كل وقت. ولا تتبدل العلة بتبدل تلك الحكمة. وان لم تتبدل العلة لا يتبدل الحكم. فليعلم حسب هذه القاعدة مدى ما يتفوه به ذلك الطبيب البائس من كلام بعيد عن روح الشريعة.

لذا لا يُعبأ بكلامه باسم الشريعة. فان للخالق سبحانه حيوانات لا يعقلون كثيرون في صور فلاسفة!.

---

(١) انه مع سبق بلاد الافرنج في رقيها الخارق وتقدمها في المدنية وفي العلوم الحديثة وفي العلوم الانسانية فان ضلالهم ضلال الخنازير في ظلمات الفلسفة المادية ومتاهات الطبيعة منافٍ كلياً لذلك الرقي والتقدم والعلوم، اسائل ألا يكون في ذلك دخل لأكل لحم الخنزير؟

وان الدليل على ان مزاج الانسان يتأثر بما يتغذى به هو المثل المشهور: «من دام على اكل اللحم اربعين يوماً اصيب بقساوة القلب». – المؤلف.

ذيل السؤال الوارد حول ابن عربي

سؤال:

ان ابن عربي يعد مسألة وحدة الوجود أرفع مرتبة ايمانية، حتى ان قسماً من اولياء عظام من اهل العشق اتبعوه في مسلكه.

بيد انك تقول: ان هذا المسلك ليس هو من أرفع المراتب الإيمانية، ولاهو بمسلك حقيقي، وانما هو مشرب اهل السكر والاستغراق واصحاب الشوق والعشق.

فان كان الامر هكذا كما تقول، فبين لنا باختصار: ما اعلى مرتبة من مراتب التوحيد التي بينتها وراثة النبوة وصراحة القرآن الكريم؟.

الجواب: ان عاجزاً مسكيناً مثلي، لاقيمة له ولا أهمية، أنّىٰ له ان يقتحم غمار هذه المراتب السامية الرفيعة ويجري فيها محاكمات عقلية بعقله القاصر، انما هو امر فوق الحد بمائة مرة.. ولكني سأذكر ذكرا مختصرا جدا نكتتين فقط وردتا من فيض القرآن الكريم الى القلب، فلعل فيهما فائدة ونفعاً.

النكتة الاولى:

ان هناك اسباباً عدة للانجذاب نحو مشرب وحدة الوجود. سأبين باختصار شديد سببين منها:

السبب الاول: انهم لم يستطيعوا ان يستوعبوا في اذهانهم خلاقية الربوبية في اعظم مراتبها، وكذا لم يستطيعوا ان يمكّنوا في قلوبهم تمكينا تاما انه سبحانه بأحديته مالك بالذات لزمام كل شئ في قبضة ربوبيته، وان كل شئ يخلق بقدرته واختياره وارادته سبحانه. فلأنهم لم يستطيعوا ادراك ذلك فقد رأوا انفسهم مضطرين امام القول: كل شئ هو «تعالى»، او: لاشئ موجود، او: ان الموجود خيال، او: من التظاهر أو من الجلوات.

السبب الثاني: ان صفة العشق لاتريد الفراق اصلا، وتفر منه بشدة، وترتعد فرائص العاشق من الافتراق، ويرهب من التنائي رهبته من جهنم، وينفر من الزوال نفرة شديدة، ويحب الوصال حبه لروحه ونفسه، ويرغب بشوق لاحد له – كشوقه للجنة – للقرب الإلهي، لذا يرى ان التشبث بتجلى الأقربية الإلهية في كل شئ، يجعل الفراق والتنائي كأنهما معدومان،فيظن اللقاء والوصال دائمين بقوله:لاموجود إلا هو.

ولانهم يتصورون بسكر العشق وبمقتضى شوق البقاء واللقاء والوصال، ان في وحدة الوجود مشرباً حالياً في منتهى الذوق، لذا يجدون ملجأهم في مسألة وحدة الوجود لأجل التخلص من فراقات رهيبة.

أي ان منشأ السبب الاول:

هو عدم بلوغ العقل قسماً من حقائق الايمان الواسعة للغاية والسامية جداً، وعدم استطاعته الاحاطة بها، مع عدم انكشاف العقل انكشافا تاماً من حيث الايمان.

أما منشأ السبب الثاني:

فهو انكشاف القلب انكشافاً فوق المعتاد، بتأثير العشق وانبساطه انبساطاً خارقاً للعادة.

أما مرتبة التوحيد العظمى التي يراها بصراحة القرآن الاولياء العظام اعنى الاصفياء الذين هم اهل الصحو واهل وراثة النبوة، فانها مرتبة رفيعة عالية جداً، اذ تفيد المرتبة العظمى للربوبية والخلاقية الإلهية، وتبين ان جميع الاسماء الحسنى هي أسماء حقيقية، وهي تحافظ على الاسس من دون اخلال بموازنة أحكام الربوبية، لأن اهلها يقولون:

ان الله سبحانه باحديته الذاتية وتنزهه عن المكان قد أحاط – من دون وساطة – بكل شئ علما وشخّصه بعلمه ورجّحه وخصّصه بارادته واوجده وابقاه بقدرته. فانه سبحانه يوجد جميع الكون ويخلقه ويدبر أموره كايجاده لشئ واحد وارادته اياه، فكما انه يخلق الزهرة بسهولة فانه يخلق الربيع العظيم بالسهولة نفسها. فلا يمنع شئ شيئاً قط، فلا تجزؤ في توجهه سبحانه. فهو موجود بتصرفه وبقدرته وبعلمه في كل مكان، في كل آن. فلا انقسام ولا توزع في تصرفه سبحانه.

ولقد وضحنا هذا الامر واثبتناه في الكلمة السادسة عشرة، وفي المقصد الثاني من الموقف الثاني من الكلمة الثانية والثلاثين.

سأورد هنا مثالا ينطوي على نقص كثير (ولامشاحة في الامثال) وذلك لفهم شئ من الفرق بين المشربين:

لنفرض ان هناك طاووساً خارقاً لامثيل له، وهو في غاية الكبر، ومنتهى الزينة وانه يتمكن من الطيران من الشرق الى الغرب في لمحة بصر، وله القدرة على بسط جناحيه الممتدين من الشمال الى الجنوب، وقبضهما في آن واحد، وعليه مئات ألوف النقوش البديعة حتى ان على كل ريش من جناحيه ابداعاً واتقاناً في منتهى الجمال والروعة.

ولنفرض الآن هناك شخصان يتفرجان على هذا الطاووس العجيب، ويريدان التحليق بجناحي العقل والقلب الى المراتب العالية الرفيعة لهذا الطير وبلوغ زينته الخارقة.

فطفق الأول يتأمل في وضع هذا الطاووس وهيكله ونقوش خوارق القدرة في كل ريشة منه، فيغمره العشق والشوق والمحبة تجاه هذا الطير فيترك شيئاً من التفكير العميق الى جانب مستمسكاً بالعشق، ولكنه يرى أن تلك النقوش المحبوبة تتحول وتتبدل يوما بعد يوم، وان تلك المحبوبات التي يوليها الحب والشغف تغيب وتزول كل يوم. فكان ينبغي له ان يقول: ان هذه النقوش المتقنة انما هي لنقاش مالك للخلاقية الكلية مع احديته الذاتية، وله الربوبية المطلقة مع وحدانيته الحقيقية. الا انه لم يتمكن من ان يستوعب هذا ويدركه، فبدأ يسلي نفسه ويقول بدلا من ذلك الاعتقاد:

«ان روح هذا الطاووس روح سامية عالية بحيث ان صانعه فيه، أو قد أصبح هو نفسه! وان تلك الروح العالية متحدة مع جسد الطاووس، ولأن جسده ممتزج مع صورته الظاهرة، فان كمال تلك الروح وعلو ذلك الجسد هما اللذان يظهران هذه الجلوات على هذه الصورة البديعة، حتى يظهر في كل دقيقة نقشاً جديداً وحسناً مجدداً، فليس هذا ايجاد باختيار حقيقي، بل هو جلوة وتظاهر».

أما الشخص الاخر فيقول: «ان هذه النقوش الموزونة المنظمة المتقنة تقتضي يقينا ارادة واختياراً وقصداً ومشيئة، فلا يمكن ان تكون جلوة بلا ارادة ولاتظاهرا بلا اختيار».

نعم! ان ماهية الطاووس جميلة ورائعة، ولكن ماهيته ليست فاعلة قطعاً وانما منفعلة، ولايمكن ان تتحد مع فاعله مطلقاً. وان روحه عالية سامية ولكن ليست

موجدة ولامتصرفة، وانما مظهر ومدار ليس الا. لأنه يشاهد في كل ريش منه اتقان قد تم بحكمة مطلقة بالبداهة، ونقش زينة نقشها بالقدرة المطلقة.

وهذا لايمكن ان يكون دون ارادة واختيار قطعاً.

فهذه المصنوعات البديعة التي تبين كمال الحكمة في كمال القدرة، وكمال الربوبية والرحمة في كمال الاختيار، لايمكن ان تكون هذه المصنوعات نتيجة جلوة أو ماشابهها.

ان الكاتب الذي كتب سطور هذا السجل المذهب لايمكن أن يكون في السجل نفسه، ولايمكن ان يتحد معه. وليس لذلك السجل الاّ تماس بطرف قلم ذلك الكاتب. لذا فان زينة جمال ذلك الطاووس المثالي الذي هو يمثل الكائنات، ليس إلا رسالة من قلم خالق ذلك الطاووس.

فالآن تأمل في طاووس الكائنات واقرأ تلك الرسالة، وقل لكاتبها:
ما شاء الله..
تبارك الله..
سبحان الله...

فالذي يظن الرسالة كاتبها أو يتخيل الكاتب في الرسالة نفسها، أو يتوهم الرسالة خيالا لاشك انه قد ستر عقله بستار العشق ولم يبصر الصورة الحقيقية للحقيقة.

ان أهم جهة من انواع العشق التي تسبب الانسلاك الى مشرب وحدة الوجود هي عشق الدنيا، اذ حينما يتحول عشق الدنيا الذي هو عشق مجازي الى عشق حقيقي ينقلب الى وحدة الوجود.

ان شخصاً اذا أحب انساناً محبة مجازية، ما ان يشاهد فناءه لايستطيع ان يمكّن هذا الزوال في قلبه، تراه يمنح معشوقه عشقاً حقيقياً، فيتشبث بحقيقة عشقه ليسلي بها نفسه، وذلك باضفاء البقاء على محبوبه بعشق حقيقي فيقول:

أنه مرآة جمال المعبود والمحبوب الحقيقي.

كذلك الأمر فيمن احب الدنيا العظيمة وجعل الكون برمته معشوقه، فحينما تتحول هذه المحبة المجازية الى محبة حقيقة بسياط الزوال والفراق التي تنزل بالمحبوب، يلتجئ ذلك العاشق الى وحدة الوجود انقاذاً لمحبوبه العظيم من الزوال والفراق.

فان كان ذا ايمان رفيع راسخ يكون له هذا المشرب مرتبة ذات قيمة نورانية مقبولة كما هي لدى ابن عربي وأمثاله، وإلا فلربما يسقط في ورطات وينغمس في الماديات ويغرق في الاسباب.

أما وحدة الشهود فلا ضرر فيها، وهي مشرب عال لأهل الصحو.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه.

﴿ سُبحَانَكَ لاعِلمَ لنا إلاّما عَلمْتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

اللمعة العاشرة

رسالة

«لطمات الرأفة وصفعات الرحمة»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يومَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ومَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَو أَنَّ بَيْنَها وبَيْنَهُ أَمَداً بَعيداً ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه واللهُ رَؤوفٌ بالعِبادِ﴾

(آل عمران: ٣٠).

هذه اللمعة تفسّر سراً من أسرار هذه الآية الكريمة، وذلك بذكر لطمات تأديب رحيمة وصفعات عتاب رؤوفة تلقاها اخوتي الاحبة العاملون في خدمة القرآن الكريم، وذلك من جراء أخطاء ونسيان وغفلة وقعوا فيها بمقتضى جبلتهم البشرية.

وستبين سلسلة من كرامات يجريها الله سبحانه في خدمة قرآنه العظيم.. مع بيان نوع من كرامة الشيخ الكيلاني الذي يمدّ هذه الخدمة المقدسة بدعائه وهمته ويراقبها بإذن إلهي.

نبين هذه الكرامات لعل العاملين في سبيل القرآن يزدادون ثباتاً واقداماً وجدية واخلاصاً.

نعم، ان كرامة العمل للقرآن الكريم، هذه الخدمة المقدسة، ثلاثة أنواع:

النوع الاول: تهيئة وسائل العمل والخدمة، وسَوق العاملين فيها الى الخدمة.

النوع الثاني: رد الموانع من حولها، ودفع الاضرار عنها، وتأديب من يعيق سيرها، بانزال عقوبات بهم.. هناك حوادث كثيرة جداً حول هذين القسمين، ويطول الحديث عنهما (١) لذا نؤجل الكلام فيهما الى وقت آخر خشية السأم. ونشرع في البحث عن النوع الثالث الذي هو أخفها تناولاً وابسطها فهماً.

النوع الثالث: هو أن العاملين المخلصين في هذه الخدمة القرآنية لما يعتريهم الفتور والاهمال في العمل يأتيهم التحذير والتنبيه فيتلقون لطمة ذات رأفة وعطف، وينتبهون من غفلتهم، ويسرعون بجد للخدمة مرة أخرى. ان حوادث هذا القسم تربو على المائة، إلا أننا نسوق هنا ما يقرب من عشرين حادثة جرت على اخواننا، عشر ونيف منهم تلقوا لطمة حنان رؤوفة، بينما تلقى حوالي سبعة منهم لطمة زجر عنيفة.

فالاول منهم هو هذا المسكين.. سعيد، فكلما انشغلت بما يعود على خاصة نفسي بما يفتر عملي للقرآن، أو انهمكت في اموري الخاصة، وقلت: مالي وللآخرين! أتاني التحذير وجاءتني اللطمة؛ لذا بتُّ على يقين من أن هذه العقوبة لم تنزل الاّ نتيجة اهمالي وفتوري في خدمة القرآن؛ لأنني كنت أتلقى اللطمة بخلاف المقصد الذي ساقني الى الغفلة.. ثم بدأنا مع الاخوة المخلصين نتابع الحوادث ونلاحظ التنبيهات الربانية والصفعات التي نزلت باخوتي الآخرين.. فأمعنا النظر فيها، وتقصّينا كلاً منها، فوجدنا أن اللطمة قد أتتهم مثلي حيثما أهملوا العمل للقرآن وتلقوها بضد ما كانوا يقصدونه، لذا حصلتْ لدينا القناعة التامة بأن تلك الحوادث والعقوبات انما هي كرامة من كرامات خدمة القرآن. فمثلاً هذا السعيد الفقير الى الله تعالى.. فعندما كنت منشغلا بالقاء دروس في حقائق القرآن على طلابي في مدينة «وان» كانت حوادث «الشيخ سعيد»(٢) تقلق بال المسؤولين في الدولة. وعلى

(١) فمثلاً: ان الذين ساموا طلاب النور العذاب والاهانة والعنت قد نالوا جزاءهم مثلها بل ازيد منها. ـ المؤلف.

(٢)هو الشيخ سعيد المشهور بـ «پيران» كردي من شيوخ الطريقة النقشبندية، كان جده من خلفاء مولانا خالد الشهرزوري، قاد ثورة في الاقاليم الشرقية في تركيا ضد السلطة الحاكمة لاتجاهها المعادي للدين. نشبت ثورته في ١٩٢٥/٢/١ وتم القضاء عليها في ١٩٢٥/٤/١٥ وقدم الشيخ الى محكمة الثورة فاصدرت عليه وعلى سبعة واربعين من مقربيه حكم الاعدام وتم تنفيذه عليهم في «دياربكر» في ١٩٢٥/٦/٢٩. ـ المترجم.

الرغم من ارتيابهم من كل شخص، لم يمسوني بسوء، ولم يجدوا عليّ حجة مادمت مستمراً في خدمة القرآن. ولكن ما أن قلت في نفسي: ما لي وللآخرين! وفكرت في نفسي فحسب، وانسحبت الى جبل «أرك» لأنزوي في مغاراته الخربة، وأنجو بنفسي في الآخرة، اذا بهم يأخذونني من تلك المغارة وينفونني من ولاية شرقية الى أخرى غربية، الى «بوردور».

كان المسؤولون في هذه المدينة يراقبون المنفيين مراقبة شديدة، وكان على المنفيين اثبات وجودهم بحضورهم مساء كل يوم لدى الشرطة الا أنني وطلابي المخلصين أُستثنينا من هذا الامر ما دمت قائماً بخدمة القرآن، فلم أذهب لاثبات الحضور ولم أعرف أحداً من المسؤولين هناك. حتى أن الوالي شكا من عملنا هذا لدى «فوزي باشا»(١) عند قدومه الى المدينة، فأوصاه: «احترموه! لاتتعرضوا له!». ان الذي أنطقه بهذا الكلام هو كرامة العمل القرآني ليس الا، اذ حينما استولت عليّ الرغبة في انقاذ نفسي واصلاح آخرتي، وفترت عن العمل للقرآن – مؤقتاً – جاءتني العقوبة بخلاف ماكنت أقصده وأتوقعه، أي نُفيتُ من «بوردور» الى منفى آخر.. الى «اسبارطة».

توليت هناك العمل للقرآن العظيم كذلك.. ولكن بعد مرور عشرين يوماً على الخدمة القرآنية كثرت عليّ التنبيهات من بعض المتخوفين، حيث قالوا: ربما لا يحبذ مسؤولو هذه البلدة عملك هذا! فهلاّ أخذت الامر بالتأني والتريث؟!.. سيطر عليّ الاهتمام بخاصة نفسي وبمصيري فحسب، فأوصيت الاصدقاء بترك مقابلتي وانسحبت من ميدان العمل.. وجاء النفي مرة أخرى.. فنفيت الى منفى ثالث.. الى «بارلا».

وكنت فيها كلما اصابني الفتور في العمل للقرآن واستولى عليّ التفكير بخاصة نفسي واصلاح آخرتي، كان أحد ثعابين أهل الدنيا يتسلط عليّ، وأحد المنافقين يتعرض لي. وأنا على استعداد الآن أن أسرد على مسامعكم ثمانين حادثة من هذا النوع خلال ثماني سنوات قضيتُها في «بارلا» ولكن خشية الملل أقتصر على ما ذكرت.

---

(١) المقصود المارشال فوزي چاقماق الذي كان رئيس اركان الجيش آنذاك. ـ المترجم.

فيا اخوتي! لقد ذكرت لكم ما أصابتني من لطمات الرأفة وصفعات الشفقة والحنان، فاذا سمحتم بأن أسرد ما تلقيتموه أنتم من لطمات رؤوفة أيضاً فسأذكرها، وأرجو ألا تستاءوا، وان كان فيكم من لايرغب في ذكرها فلن أصرح باسمه.

المثال الثاني: هو أخي «عبد المجيد» وهو من طلابي العاملين المخلصين المضحين.. كان يملك داراً أنيقة جميلة في «وان» وحالته المعاشية على مايرام، فضلاً عن أنه كان يزاول مهنة التدريس.. فعندما استوجبت خدمة القرآن ذهابي الى مكان بعيد عن المدينة، على الحدود، أردت استصحابه، الا أنه لم يوافق وكأنه رأى أنه من الافضل عدم ذهابي أنا كذلك، حيث قد يشوب العمل للقرآن شئ من السياسة وقد يعرّضه للنفي، وفضّل المكوث حيث هو ولم يشترك معنا. ولكن جاءته اللطمة الرحمانية بما هو ضد مقصوده، وعلى غير توقع منه، اذ أُخرج من المدينة وأُبعد عن منزله الجميل وأُرغم على الذهاب الى «أرغاني»(١).

الثالث: وهو «خلوصي» وهو من البارزين في خدمة القرآن، فعندما سافر من قضاء «أكريدر»الى بلدته، تيسرت له اسباب التمتع بمباهج الدنيا وسعادتها، مما دفعه الى شئ من الفتور عن خدمة القرآن الخالصة لله. حيث التقى والديه اللذين كان قد فارقهما منذ مدة مديدة، وحل في مدينته وهو بكامل بزّته العسكرية ورتبته العالية، فبدت الدنيا له حلوة خضرة.

نعم! ان العاملين في خدمة القرآن إما أن يُعرضوا عن الدنيا أو الدنيا تعرض عنهم، كي ينهضوا بالعمل بجد ونشاط واخلاص.. وهكذا فعلى الرغم من أن قلب «خلوصي» ثابت لايتزعزع، وهو رابط الجأش، فقد ساقه هذا الوضع الجميل الذي ابتسم له، الى الفتور.. فجاءته لطمة ذات رأفة، اذ تعرض له عدد من المنافقين طوال سنتين متواليتين، فسلبوه لذة الدنيا وأفقدوه طعمها، حتى جعلوه يمتعض منها ويعزف عنها، والدنيا تمتعض منه وتعزف عنه، وعندها التف حول راية العمل القرآني واستمسك بها بجد ونشاط.

(١) قضاء يبعد عن مدينة (وان) ٥٠٠ كم غرباً. ـ المترجم.

الرابع: هو «الحافظ أحمد المهاجر» وسيقص عليكم ما وقع له بنفسه.

نعم! لقد أخطأتُ في اجتهادي في خدمة القرآن، حيث فكرت لانقاذ آخرتي وحدي، فما أن بدا فيّ هذا النوع من الرغبة فترت عن العمل للقرآن. فأتتني لطمة رؤوفة، رغم ما فيها من قوة وشدة، بل كانت في الحقيقة صفعة شديدة وزجراً عنيفاً، أرجو الله تعالى أن تكون كفارة عما بدر مني من غفلة عن العمل لقرآنه العظيم. والحادثة كانت كالآتي:

كان الاستاذ لايوافق على محدثات الامور(١) وحيث ان الجامع الذي أؤدي فيه الصلاة جماعة يقع بجوار مسكن الاستاذ، والشهور المباركة – رجب شعبان رمضان – مقبلة علينا، فقد حدثتني نفسي بالآتي:

ان لم أؤد الصلاة على الوجه البدعي، أُمنع من عملي، وان تركتُ الجامع ولم أصلِّ فيه اماماً للجماعة، يضيع مني ثواب عظيم ولاسيما في هذه الشهور الثلاثة فضلا عن أن أهل المحلة سيعتادون على ترك الجماعة.. فرغبت في نفسي أن لو يغادر الاستاذ – وهو أحب اليَّ من روحي – القرية «بارلا» يغادرها مؤقتاً الى قرية اخرى كي أؤدي الصلاة وفق الامور المحدثة. ولكن فاتني شئ هو أن لو غادر الاستاذ هذا المكان فسوف يفتر العمل للقرآن ولو مؤقتاً. فجاءتني العقوبة في هذه الاثناء، وكانت لطمة قوية جداً مع ما فيها من حنان ورأفة. حتى انني لم أفق من شدتها منذ ثلاثة شهور.

فأملي عظيم في سعة رحمته تعالى أن يجعل كل دقيقة من دقائق تلك المصيبة بمثابة عبادة يوم كامل – كما أخبرني به الاستاذ بما ألهمه الله – حيث أن ذلك الخطأ لم يكن قد بدر مني لدوافع شخصية، وانما هو خطأ اجتهادي في التفكير، ولم ينجم الا عن تفكيري بآخرتي وحدها.

الخامس: هو «السيد حقي». وحيث أنه ليس حاضراً معنا، فسأنوب عنه كما نُبْتُ عن «خلوصي» فأقول:

---

(١) اي اقامة الصلاة ورفع الاذان باللغة التركية وامثالها من البدع التي استحدثت منذ العشرينيات ودامت حتى سنة ١٩٥٠ ـ المترجم.

كان السيد حقي يوفي حق مهمته في العمل للقرآن أيما ايفاء. ولكن عندما عُين قائمقام سفيه للقضاء، فكّر السيد حقي أن يخبئ ما لديه من رسائل خشية أن يصيبه واستاذه أذىً منه، فترك خدمة النور مؤقتاً، واذا بلطمة ذات رحمة وحنان تواجهه، اذ فُتحت عليه دعوى كادت تلجئه الى دفع ألف ليرة كي يبرأ منها، فبات تحت وطأة التهديد طوال سنة كاملة. حتى أتانا عائداً الى وظيفته طالباً في خدمة القرآن، فأنقذه الله من تلك الورطة ورُفع عنه الحكم، وبرئت ساحته.

ثم عندما فُتح أمام الطلاب ميدان عمل جديد للقرآن وهو استنساخه بخط جميل وبنمط جديد، أُعطي للسيد حقي حصته من الاستنساخ، فأجاد القيام بما كلف، وكتب جزءاً كاملا من القرآن الكريم أحسن كتابة، ولكن لأنه كان يرى نفسه في حالة مضطرة من حيث ضروريات العيش، فقد لجأ الى القيام بوكالة الدعاوى أمام المحاكم، من دون علمنا، واذا به يتلقى لطمة أخرى فيها الرأفة والرحمة له، اذ انثنت اصبعه التي كان يكتب بها القرآن الكريم. وحيث اننا لم نكن نعلم تورطه في هذا العمل فقد كنا حائرين أمام ما نزل باصبعه من بأسٍ، وعجزه عن الاستمرار في كتابة القرآن.

ثم علمنا أن الخدمة المقدسة هذه لاتقبل أن تدخل تلك الاصابع الطاهرة في أمور ملوثة(١)، فكأن الاصبع تقول بهذا الانثناء: لايجوز لك أن تغمسني بنور القرآن الكريم ثم تغرقني في ظلمة الدعاوى. فنبهته..

وعلى كل حال، فقد وضعت نفسي موضع «خلوصي»، وتكلمت بدلاً منه، فالسيد حقي أيضاً مثله تماماً. فان لم يرضَ بوكالتي عنه فليكتب بنفسه اللطمة التي تلقاها.

السادس: هو «السيد بكر»(٢) وسأتولى مهمة الكلام عنه لعدم حضوره معنا مثلما تكلمت بدلاً عن أخي عبد المجيد، فهو مثله أيضاً، أتوكل عنه معتمداً على

(١) حيث الدعاوى تختلط فيها القضايا الباطلة مع الحق.ـ المترجم.

(٢) بكر أفندي: من اوائل طلاب النور، ولد سنة ١٨٩٨م في بارلا وتوفي في سنة ١٩٥٤م في استانبول تغمده الله برحمته. ـــ المترجم

اخلاصه ووفائه وصداقته الصميمة وثباته في الخدمة، واستناداً الى ما يرويه «السيد سليمان»(١) و «الحافظ توفيق الشامي»(٢) وأمثالهم من الأخوة الأحبة:

ان السيد بكر هو الذي تولىّ القيام بطبع «الكلمة العاشرة» في استانبول، فاردنا طبع «رسالة المعجزات القرآنية» أيضاً هناك قبل احداث الحروف اللاتينية الحديثة، أرسلت رسالة كتبت له فيها: سنرسل لك ثمن طبع هذه الرسالة مع ثمن الرسالة السابقة. ولكنه عندما لاحظ ان الطبع يكلّف اربعمائة ليرة، وهو يعلم ما انا فيه من فقر، اراد هو ان يدفع المبلغ من خالص ماله وخطر بباله أنني لاأرضى بهذا العمل، فخدعته نفسه فلم يباشر بالطبع، فاصاب الخدمة القرآنية من جراء تفكيره هذا ضرر بالغ.. وبعد مرور شهرين سُرِقَت منه تسعمائة ليرة، فكانت لطمة رؤوفة وشديدة تجاه ما أصاب العمل من فتور. نسأل الله ان يجعل تلك الاموال الضائعة بمثابة صدقة عن نفسه.

السابع: هو «الحافظ توفيق» الملقب بالشامي، وسيورد بنفسه الحادثة:

نعم! لقد قمت بأعمال ساقتني الى الفتور في خدمة القرآن. فأتتني لطمة من جرائها، وتيقنت بما لايقبل الشك ان هذه اللطمة ليست الا من تلك الجهة، اذ كانت نتيجة خطأ مني في التفكير وجهل مني في التقدير.

اللطمة الاولى: عندما وزع الاستاذ أجزاء القرآن الكريم علينا، كان حظي منها كتابة ثلاثة أجزاء، حيث قد أنعم الله عليّ قدرة على كتابة الحروف العربية وتجويدها كخط القرآن الكريم. فالشوق الى كتابة كتاب الله العزيز ولّد فيّ فتوراً عن كتابة مسودات الرسائل وتبييضها، فضلا عن أنه قد أصابني منه شئ من الغرور، حيث كنت أعدّ نفسي فائقاً على أقراني في هذا العمل، بما أجده في نفسي من كفاية في حسن الخط العربي. حتى أنه عندما اراد الاستاذ ارشادي الى أمور تخص الكتابة

(١) وهو الذي خدم الاستاذ النورسي في منفاه «بارلا» طوال ثماني سنوات، كان مثالاً للصدق والوفاء والاخلاص. توفي في سنة ١٩٦٥ رحمه الله رحمة واسعة. ـ المترجم.

(٢) الحافظ توفيق: (١٨٨٧ ـ ١٩٦٥م) من اوائل طلاب النور وكتابها، لقب بالحافظ لحفظه القرآن الكريم وبالشامي لطول بقائه بالشام بصحبة والده الذي كان ضابطاً هناك، وهو المشهود له بالصلاح والعلم والتقوى، لازمَ الاستاذ في بارلا وفي سجون اسكي شهر ودنيزلي. تغمده الله برحمته. ـ المترجم.

العربية، قلت بشئ من الغرور: هذا الامر يعود لي، أعرف هذا فلا أحتاج الى توصية! فتلقيت لطمة عطف ورأفة نتيجة خطأي هذا، وهي انني عجزت عن بلوغ أقراني في الكتابة، فسبقوني في الجودة.. فكنت احار من أمري هذا، لماذا تخلفت عنهم رغم تميزي عليهم؟! ولكن الآن أدركت أن ذلك كان لطمة رحمانية، ضربتني بها كرامة خدمة القرآن، حيث لاتقبل الغرور!

ثانيتها: كانت لديّ حالتان تخلان بصفاء العمل للقرآن، تلقيت على أثرهما لطمة شديدة. والحالتان هما:

كنت أعد نفسي غريباً عن البلد، بل غريباً حقاً، فلأجل تبديد وحشة الغربة جالست أناساً مغرورين بالدنيا، فتعلمت منهم الرياء والتملق، علاوة على تعرضي لفقر الحال – ولاأشكو – حيث لم اراع دستور الاستاذ المهم في الاقتصاد والقناعة، رغم تنبيه الاستاذ لي على هذه الامور وتحذيري، بل توبيخي أحياناً. فلم أستطع – مع الاسف – انقاذ نفسي من هذه الورطة.. نسأل الله العفو والمغفرة.. فهاتان الحالتان استغلتهما شياطين الجن والانس فاصاب العمل للقرآن الفتور، وتلقيت لطمة قوية، الا انها كانت لطمة حنان ورأفة، فأيقنت بما لايدع مجالا للشك أن هذه اللطمة انما هي من ذلك الوضع وكانت على الوجه الآتي:

على الرغم من أنني كنت موضع خطاب الاستاذ وكاتب مسودات رسائله وتبييضها طوال ثماني سنوات. فلم أنل مع الاسف من نورها ما كان يفيض على غيري في ثمانية شهور. فكنت انا والاستاذ حائرين أمام هذا الوضع! ونتساءل: لماذا؟ أي لماذا لايدخل نور حقائق القرآن شغاف قلبي.. بحثنا عن الاسباب كثيراً، حتى علمنا الآن علماً جازماً، ان تلك الحقائق انما هي نور وضياء، ولايجتمع النور مع ظلمات الرياء والتصنع والتزلف للآخرين.. لذا ابتعدت معاني حقائق هذه الانوار عني وغدت كأنها غريبة عني. أسأله سبحانه وتعالى أن يرزقني الاخلاص الكامل اللائق للعمل، وينقذني من الرياء والتذلل لأهل الدنيا. وارجوكم جميعاً – وفي المقدمة ارجو الاستاذ – ان تجهدوا في الدعاء لي.

العبد المقصر
الحافظ توفيق الشامي

الثامن: هو «سيراني»: هذا الأخ صنو «خسرو» (١) من المشتاقين لرسائل النور، ومن طلابي الأذكياء المجدّين.

استطلعت ذات يوم رأي طلاب «اسبارطة» حول التوافق الذي يعدّ مفتاحاً مهما لأسرار القرآن ولعلم الحروف. اشترك الجميع في المناقشة بجد، عدا هذا الشخص، ولم يكتف بعدم المشاركة في المناقشة بل أراد أن يصرفني عمّا أنا اعلمه من حقائق علماً يقيناً، اذ كان له اهتمامات بأمور أخرى، ثم بعث اليّ رسالة جارحة جداً، اصابتني في الصميم. فقلت: وا أسفاه! لقد ضيعت هذا الطالب النابه، فعلى الرغم من محاولتي توضيح الأمر له الاّ أن شيئاً آخر قد خالط الموضوع؛ فأتته اللطمة الرؤوفة.. ودخل السجن زهاء سنة.

التاسع: هو «الحافظ زهدي الكبير».

كان هذا الاخ يشرف على عمل طلاب النور في قصبة «أغروس» ولكن كأنه لم يكتف بالمنزلة المعنوية الرفيعة والشرف السامي الذي يتمتع به طلاب النور، لاتباعهم السنة الشريفة واجتنابهم البدع، فرغب في العثور على هذه المنزلة لدى أهل الدنيا فتسلم وظيفة القيام بتعليم بدعة سيئة، مرتكباً خطأً جسيماً منافياً لمسلكنا الذي هو اتباع السنة الشريفة. فتلقى لطمة رهيبة جداً. اذ تعرض لحادثة كادت تمحو شرفه وشرف أهله، وقد مست الحادثة «الحافظ زهدي الصغير» أيضاً مع الاسف بالرغم من انه لايستحق اللطمة. نسأل الله ان تكون تلك الحادثة المؤلمة بمثابة عملية جراحية لتصرف قلبه عن الدنيا وتدفعه للاقبال على العمل القرآني الخالص لوجه الله، لتنفعه يوم القيامة.

العاشر: هو «الحافظ أحمد».

كان هذا الاخ يستنسخ الرسائل وينهل من انوارها طوال ثلاث سنوات، وهو دؤوب شغوف في عمله، ثم تعرض للاختلاط بأهل الدنيا لعله يدفع أذاهم عنه،

---

(١) خسرو: كان في مقدمة الذين استنسخوا المئات من الرسائل ونشروها في احلك الظروف، وقضى معظم حياته مع استاذه في سجون اسكي شهر ودنزلي وآفيون وهو الذي كتب مصحفاً بتوجيه من الاستاذ النورسي لاظهار الاعجاز في التوافقات اللطيفة لاسم الجلالة في الصفحة الواحدة. ولد في اسبارطة سنة ١٨٩٩ وتوفي في استانبول سنة ١٩٧٧م رحمه الله رحمة واسعة. ـ المترجم.

ويتمكن من ابلاغ الكلام الطيب لهم وليكسب شيئاً من المنزلة لديهم، فضلاً عن انه كان يرغب في أن يوسّع ما ضاق عليه من أمور الدنيا وهموم العيش ففتر شوقه. واستغل اهل الدنيا ضعفه بهذا الجانب فأصابه فتور في عمله القرآني جراء تلك الأوضاع، فأتته لطمتان معاً:

اولاها: ضُمّ الى عائلته خمسة اشخاص آخرين بالرغم من ضيق معيشته، فأصبح حقاً في رهق شديد من العيش.

ثانيتها: على الرغم من أنه كان مرهف الحس ولايتحمل شيئاً من الكلام من أحد، فقد اصبح وسيلة لدساسين من حيث لايعلم، حتى فقد موقعه ومنزلته كلياً، وأصبح كثيرٌ من الناس يهجرونه، ففقد صداقتهم بل عادوه.. وعلى كل حال؛ نسأل الله أن يغفر له، ونسأله ان يوفقه للافاقة من غفلته ويعي الامور ويعود الى مهمته في خدمة القرآن.

الحادي عشـــر: لم يسجّل ربما لايرضى!.

الثاني عشـــر: هو «المعلم غالب» (١) لقد خدم هذا الاخ باخلاص وصدق في تبييض الرسائل، فقام بخدمات جليلة كثيرة، ولم يبد منه ضعفٌ أمام أية مشكلة من المشاكل مهما كانت.

كان يحضر الدرس في أغلب الاوقات وينصت بكل أهتمام وشوق، ويستنسخ الرسائل لنفسه أيضاً، حتى استكتب لنفسه جميع «الكلمات والمكتوبات» لقاء أجرة قدرها ثلاثون ليرة. كان يقصد من وراء هذا الاستنساخ نشر الرسائل في مدينته، وارشاد اصدقائه، وبعد ذلك فتر عن العمل ولم يقم بنشر الرسائل كما هو دأبه، وذلك بسبب ما ساوره من الهواجس، فحجب نور هذه الرسائل عن الانظار فأصابته على حين غرة حادثة أليمة جداً، تجرّع من جرائها العذاب غصصاً مدة سنة كاملة، فوجد أمامه عدداً غفيراً من أعداء ظالمين بدلاً من عداوة بضعة موظفين لقيامه بنشر الرسائل، ففقد أصدقاء أعزاء عليه.

---

(١) المعلم احمد غالب: من أوائل طلاب النور، خطاط وشاعر، له ديوان شعر مخطوط، ولد في (يالواچ) سنة ١٩٠٠، وتوفي في شباط ١٩٤٠م رحمه الله رحمة واسعة. ـ المترجم.

الثالث عشر: هو «الحافظ خالد» (١) وسيذكر لكم الحادثة بنفسه:

عندما كنت أعمل بشوق وحماسة في كتابة مسودات رسائل النور، كانت هناك وظيفة شاغرة، وهي أمامة المسجد في محلتنا. ورغبة مني - رغبة شديدة - لألبس جبتي العلمية القديمة وعمامتها فترتُ مؤقتاً عن العمل وضعفتْ همتي وشوقي في خدمة القرآن فانسحبتُ من ساحة العمل القرآني جهلاً مني، فاذا بي أتلقى لطمة ذات رأفة بخلاف ما كنت أقصده. اذ رغم الوعود الكثيرة التي قطعها المفتي على نفسه بتعييني، ورغم أني كنت قد توليت هذه الوظيفة لما يقرب من تسعة اشهر سابقاً الا انني حرمت من لبس الجبة والعمامة، فأيقنت أن هذه اللطمة انما هي من ذلك التقصير في العمل للقرآن. اذ كان الاستاذ يخاطبني بالذات في الدرس فضلاً عن قيامي بكتابة المسودة، فانسحابي من العمل، ولاسيما من كتابة المسودة، اوقعهم في حرج وضيق.. وعلى كل حال فالشكر لله وحده الذي جعلنا نفهم فداحة تقصيرنا ونعلم مدى سمو هذه الخدمة، ونثق باستاذ مرشد كالشيخ الكيلاني ظهيراً لنا كالملائكة الحفظة.

اضعف العباد
الحافظ خالد

الرابع عشر: لطمات حنان ثلاث صغيرة، أصابت ثلاثة أشخاص كل منهم يسمى «مصطفى».

أولهم: «مصطفى جاويش» (٢) كان هذا الاخ يتولى خدمة الجامع الصغير، وتزويد مدفأته بالنفط، بل حتى علبة الكبريت كان يوفرها للجامع، فخدم طوال ثماني سنوات، ويدفع كل ما تحتاجه هذه الامور من خالص ماله - كما علمنا بعدئذٍ - ولم يكن يتخلف عن الجماعة ابداً، ولاسيما في ليالي الجمع المباركة الاّ اذا اضطر

(١) الحافظ خالد: هو خالد عمر لطفي افندي. من اوائل طلاب النور وكتاب الرسائل. ولد سنة ١٨٩١ في بارلا توفي سنة ١٩٤٦ في استانبول - رحمه الله -. اشتغل في التعليم ثم تركه واصبح اماماً في احد مساجد بارلا، ارسل له الاستاذ رسالة عزى فيها طفله (انور) الذي توفي سنة ١٩٣٠ اثر اصابته بمرض السعال الديكي عن عمر يناهز الثامنة ودخلت هذه الرسالة ضمن المكتوبات - المكتوب السابع عشر. - المترجم.

(٢) مصطفى جاويش: اسمه الحقيقي خلوصي مصطفى ولد سنة ١٨٨٢، خدم الاستاذ النورسي في بارلا وتوفي في شباط سنة ١٩٣٩ عن سبعة وخمسين سنة من العمر تغمده الله برحمته. - المترجم.

الى ذلك بعمل ضروري جداً. أخبره أحد الأيام بعض أهل الدنيا مستغلين صفاء قلبه: بلّغ الحافظ فلاناً – وهو من كتّاب رسائل النور – لينزع عمامته قبل ان يتأذى ويجبر على نزعها، وبلّغ الجماعة ان يتركوا الآذان سراً (١). ولم يعلم هذا الدنيوي الغافل ان تبليغ هذا الكلام ثقيل جداً على شخص مثل مصطفى جاويش من ذوي الأرواح العالية. ولكن لصفاء سريرته بلّغ صاحبَه الخبر، فرأيت تلك الليلة في المنام ان يدي مصطفى جاويش ملطختان وهو يسير خلف القائمقام ويدخلان معاً غرفتي..! قلت له في اليوم التالي لذلك اليوم: أخي مصطفى! مَن قابلت اليوم؟ لقد رأيتك في المنام وانت ملطخ اليدين سائراً خلف القائمقام. قال: وا أسفاه، لقد أبلغني المختار كلاماً وانا بلّغته الحافظ الكاتب، ولم أعلم ما وراءه من كيد.

ثم حدث في اليوم نفسه ان جاء بكمية من النفط للمسجد. وعلى غير المعتاد فقد ظل باب المسجد مفتوحاً فدخل عناق (صغير العنز) الى حرم المسجد فلوث قريباً من سجادتي، وجاء احدهم فاراد تنظيف المكان فلم يجد غير اناء النفط،وحسبه ماء فرشّ ما في الاناء الى أطراف المسجد والعجيب انه لم يشم رائحته. فكأن المسجد يقول بلسان حاله لـ« مصطفى جاويش»: «لاحاجة لنا الى نفطك بعد الآن، لقد أرتكبت خطأً جسيماً». واشارة لهذا الكلام المعنوي لم يشعر ذلك الشخص برائحة النفط بل لم يتمكن مصطفى من الاشتراك في صلاة الجماعة في ذلك اليوم وليلة الجمعة المباركة بالرغم من محاولاته. ثم ندم ندماً خالصاً لله، واستغفر الله كثيراً، فرجع اليه صفاء قلبه وخلوص عبادته والحمد لله.

الشخصان الآخران المسمى كل منهما بـ« مصطفى».

أولهما: مصطفى من قرية «قوله أونلي» وهو من الطلاب المجدّين، والآخر صديقه الوفي هو «الحافظ مصطفى».

كنت قد بلّغت طلابي بان لا يأتوا حالياً لزيارتي عقب العيد لئلا يفتر العمل للقرآن من جراء مراقبة أهل الدنيا ومضايقاتهم. واستثنيت من ذلك من كان يأتي فرداً فلابأس به،واذا بي أفاجأ بثلاثة اشخاص معاً يأتون لزيارتي ليلاً، ويزمعون السفر قبل الفجر – اذا سمحت احوال الجو بالسفر – فلم نتّخذ تدابير الحذر، لا أنا

(١) حيث كانوا يرفعون الاذان الشرعي سراً والاذان البدعي، اي بالتركية علناً. ـ المترجم.

ولاسليمان ولامصطفى جاويش، بل نسيناها حيث ألقى كلٌ منا اتخاذها على عاتق الآخر. وعلى كل حال غادرونا قبل الفجر، فجاءتهم اللطمة بعاصفة شديدة لم نكن قد رأينا مثلها في هذا الشتاء. استمرت ساعتين متواليتين فقلقنا عليهم كثيراً، وقلنا لن ينجوا منها، وتألّمت عليهم ألماً ماتألمت على أحد مثلهم. ثم اردت ان ابعث سليمان - لعدم أخذه بالحذر - ليتلقى اخبارهم ويبلّغنا عن سلامة وصولهم. ولكن مصطفى جاويش قال: اذا ذهب سليمان فسيبقى هناك ايضاً، ولايتمكن من العودة، وسأتبعه أنا ايضاً، وسيتبعني عبد الله جاويش وهكذا.. ولهذا وكّلنا الامر الى العلي القدير قائلين جميعاً: توكلنا على الله. وفوضنا الامر اليه.

* * *

سؤال:

انك تعد المصائب التي تصيب اخوانك الخواص واصدقاءك تأديباً ربانياً ولطمة عتاب لفتورهم عن خدمة القرآن، بينما الذين يعادون خدمة القرآن ويعادونكم يعيشون في بحبوحة من العيش وفي سلام وأمان. فلمَ يتعرض صديق القرآن للّطمة ولايتعرض عدوه لشئ؟

الجواب: يقول المثل الحكيم: (الظلم لايدوم والكفر يدوم) فأخطاء العاملين في صفوف خدمة القرآن هي من قبيل الظلم تجاه الخدمة، لذا يتعرضون بسرعة للعقاب ويجازون بالتأديب الرباني، فان كانوا واعين يرجعون الى صوابهم.

أما العدو فان صدوده عن القرآن وعداءه لخدمته انما هو لأجل الضلالة، وان تجاوزه على خدمة القرآن - سواء شعر به أم لم يشعر - انما هو من قبيل الكفر والزندقة، وحيث ان الكفر يدوم، فلا يتلقى معظمهم الصفعات بذات السرعة، اذ كما يعاقب من يرتكب أخطاء طفيفة في القضاء او الناحية، بينما يساق مرتكبو الجرائم الكبيرة الى محاكم الجزاء الكبرى، كذلك الاخطاء الصغيرة والهفوات التي يرتكبها أهلُ الايمان وأصدقاء القرآن يتلقون على إثرها جزاءاً من العقاب بسرعة في الدنيا ليكفّر عن سيئاتهم ويتطهروا منها، أما جرائم أهل الضلالة فهي كبيرة وجسيمة الى حد لاتسع هذه الحياة الدنيا القصيرة عقابهم، فيمهّلون الى عالم البقاء والخلود

والى المحكمة الكبرى لتقتص منهم العدالة الإلهية القصاص العادل، لذا لايلقون غالباً عقابهم في هذه الدنيا.

وفي الحديث الشريف: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) (١) اشارة الى هذه الحقيقة التي ذكرناها، أي أن المؤمن ينال نتيجة تقصيراته قسماً من جزائه في الدنيا، فتكون بحقه كأنها مكان جزاء وعقاب، فضلا عن أن الدنيا بالنسبة لما أعده الله له من نعيم الآخرة سجن وعذاب. أما الكفار فلأنهم مخلّدون في النار، ينالون قسماً من ثواب حسناتهم في الدنيا، وتُمهَل سيئاتهم العظيمة الى الآخرة الخالدة، فتكون الدنيا بالنسبة لهم دار نعيم لما يلاقونه من عذاب الآخرة. والا فالمؤمن يجد من النعيم المعنوي في هذه الدنيا ما لايناله أسعد انسان. فهو أسعد بكثير من الكافر من زاوية نظر الحقيقة وكأن ايمان المؤمن بمثابة جنة معنوية في روحه وكفر الكافر يستعر جحيماً في ماهيته.

(١) رواه مسلم (برقم ٢٩٥٩) وابن ماجة (٤١١٣) والترمذي (٢٣٢٤) واحمد في مسنده (٢/٤٨٥) وكلهم عن ابي هريرة.

اللمعة الحادية عشرة

(مرقاة السنة وترياق مرض البدعة)

المقام الاول لهذه الآية عبارة عن « منهاج السنة » والمقام الثاني هو « مرقاة السنة ».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقدْ جَاءَكُم رَسُولٌ من انفُسِكُم عَزيزٌ عَليهِ ماعَنِتم حَريصٌ عليكُم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رَحيم ﴾ (التوبة:١٢٨)

﴿ فإن تَولّوا فَقُلْ حَسْبي اللهُ لا اله الاّ هو عَليهِ تَوكّلْتُ وهوَ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ ﴾

(التوبة: ١٢٩)

﴿ قُلْ إنْ كُنتُم تُحبّون الله فاتّبعوني يُحْببكُم الله ﴾ (آل عمران: ٣١).

سنبين « احدى عشرة » نكتة دقيقة، بيانا مجملا، من بين مئات المسائل الدقيقة التي تتضمنها هاتان الآيتان العظيمتان.

- *النكتة الاولى:*

قال الرسول ﷺ:

« من تمسك بسنتي عند فساد امتي فله اجر مائة شهيد » (١).

اجل! ان اتباع السنة المطهرة لهو حتما ذو قيمة عالية، ولاسيما اتباعها عند استيلاء

(١) رواه ابن عدي في الكامل وابن بشران في الامالى ٢/١٩٣ و ١٤١ وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب للبيهقي. والثابت في الحديث الصحيح قولهﷺ: « ان من ورائكم زمان صبر، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدا منكم » اخرجه الطبراني في الكبير١٠٣٩٤ والبزار ١/٣٧٨ وقال الهيثمي في المجمع (٧/٢٨٢): ورجال البزار رجال الصحيح غير سهل بن عامر البجلى وثقه ابن حبان. ا هـ. وفي الصحيحة (٤٩٤) قال عن اسناد الطبراني: وهذا اسناد صحيح رجاله كلهم ثقات رجال مسلم.

البدع وغلبتها، فان له قيمة أعلى وأسمى، وبالاخص عند فساد الامة، اذ تُشعر مراعاة ابسط الآداب النبوية بتقوى عظيمة وايمان قوي راسخ؛ ذلك لأن الاتباع المباشر للسنة المطهرة يذكّر بالرسول الاعظم ﷺ، فهذا التذكر الناشئ من ذلك الاتباع ينقلب الى استحضار الرقابة الإلهية، بل تتحول في الدقائق التي تراعى فيها السنة الشريفة أبسط المعاملات العرفية والتصرفات الفطرية – كآداب الاكل والشرب والنوم وغيرها – الى عمل شرعي وعبادة مثاب عليها؛ لأن الانسان يلاحظ بذلك العمل المعتاد اتباع الرسول ﷺ، فيتصور أنه يقوم بأدب من آداب الشريعة، ويتذكر انه ﷺ صاحب الشريعة، ومن ثم يتوجه قلبه الى الشارع الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فيغنم سكينة واطمئنانا ونوعا من العبادة.

وهكذا، في ضوء ما تقدم فان من يجعل اتباع السنة السنية عادته، فقد حول عاداته الى عبادات، ويمكنه ان يجعل عمره كله مثمرا، ومثابا عليه.

● *النكتة الثانية:*

لقد قال الامام الرباني احمد الفاروقي رحمه الله (١):

«بينما كنت اقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت ان أسطع ما في طبقات الاولياء، وارقاهم وألطفهم وآمنهم واسلمهم هم اولئك الذين اتخذوا اتباع السنة الشريفة اساسا للطريقة، حتى كان الاولياء العوام لتلك الطبقة يظهرون اكثر بهاءا واحتشاما من الاولياء الخواص لسائر الطبقات».

نعم ان الامام الرباني مجدد الالف الثاني ينطق بالحق، فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها اساساً له، لهو أهل لمقام المحبوبية في ظل حبيب الله ﷺ.

---

(١) هو احمد بن عبد الاحد السرهندي الفاروقي (٩٧١-١٠٣٤ هـ) الملقب بحق «مجدد الالف الثاني» برع في علوم عصره، وجمع معها تربية الروح وتهذيب النفس والاخلاص لله وحضور القلب، رفض المناصب التي عرضت عليه، قاوم فتنة «الملك اكبر» التي كادت ان تمحق الاسلام. وفقه المولى العزيز الى صرف الدولة المغولية القوية من الالحاد والبرهمية الى احتضان الاسلام بما بث من نظام البيعة والاخوة والارشاد بين الناس، طهر معين التصوف من الاكدار، تنامت دعوته في القارة الهندية حتى ظهر من ثمارها الملك الصالح «اورنك زيب» فانتصر المسلمون في زمانه، وهان الكفار. انتشرت طريقته «النقشبندية» في ارجاء العالم الاسلامي بوساطة العلامة خالد الشهرزوري المشهور بمولانا خالد (١١٩٢-١٢٤٣ هـ). له مؤلفات عديدة اشهرها «مكتوبات» ترجمها الى العربية محمد مراد في مجلدين. ـ المترجم.

● *النكتة الثالثة:*

عندما كان يسعى هذا السعيد الفقير الى الله، للخروج من حالة (سعيد القديم)[١] ارتج عقلي وقلبي وتدحرجا ضمن الحقائق ازاء اعصار معنوي رهيب، فقد شعرت كأنهما يتدحرجان هبوطا تارة من الثريا الى الثرى وتارة صعدا من الثرى الى الثريا، وذلك لانعدام المرشد، ولغرور النفس الامارة.

فشاهدت حينئذ ان مسائل السنة النبوية الشريفة بل حتى ابسط آدابها، كل منها في حكم مؤشر البوصلة الذي يبين اتجاه الحركة في السفن. وكل منها في حكم مفتاح مصباح يضئ ما لايحصر من الطرق المظلمة المضرة.

وبينما كنت ارى نفسي في تلك السياحة الروحية أرزح تحت ضغط مضايقات كثيرة وتحت اعباء أثقال هائلة، اذا بي أشعر بخفة كلما تتبعت مسائل السنة الشريفة المتعلقة بتلك الحالات، وكأنها كانت تحمل عني جميع الاثقال وترفع عن كاهلي تلك الاعباء. فكنت ألجو باستسلام تام بالسنة من هموم التردد والوساوس مثل: «هل في هذا العمل مصلحة؟ ترى هل هو حق؟». وكنت ارى متى ما كففت يدي عن السنة تشتد موجات المضايقات وتكثر، والطرق المجهولة تتوعر وتغمض، والاحمال تثقل.. وانا عاجز في غاية العجز ونظري قصير، والطريق مظلمة. بينما كنت اشعر متى ما اعتصمت بالسنة، وتمسكت بها، تتنور الطريق من امامي، وتظهر كأنها طريق آمنة سالمة والاثقال تخف والعقبات تزول.

نعم، هكذا احسست في تلك الفترة فصدقت حكم الامام الرباني بالمشاهدة.

● *النكتة الرابعة:*

غمرتني – في فترة ما – حالة روحية نبعت من التأمل في «رابطة الموت» ومن الايمان بقضية «الموت حق»، ومن طول التفكر بزوال العالم وفنائه. فرأيت نفسي في عالم عجيب، اذ نظرت فاذا انا جنازة واقفة على رأس ثلاث جنائز مهمة وعظيمة:

---

(١) «سعيد القديم» هو اللقب الذي يطلقه الاستاذ النورسي على نفسه، قبل قيامه بتأليف رسائل النور (١٩٢٦) وقبل ان يأخذ «سعيد الجديد» على عاتقه مهمة انقاذ الايمان، ويستلهم من فيض القرآن الكريم رسائل النور. ـ المترجم.

الاولى: الجنازة المعنوية لمجموع الاحياء التي لها ارتباط بحياتي الشخصية، والتي ماتت ومضت ودفنت في قبر الماضي.. وما أنا الا كشاهد قبرها موضوع على جثتها.

الثانية: جنازة عظيمة تطوي مجموع انواع الاحياء المتعلقة بحياة البشرية قاطبة، والتي ماتت ودفنت في قبر الماضي الذي يسع الكرة الارضية.. وما أنا الا نقطة تمحى عاجلا ونملة صغيرة تموت سريعا على وجه هذا العصر الذي هو شاهد قبر تلك الجنازة.

الثالثة: الجنازة الضخمة التي تطوي هذا الكون عند قيام الساعة، وحيث ان موته عندئذ امر محقق لامناص منه، فقد اصبح في نظري في حكم الواقع الآن، فأخذت الحيرة جوانب نفسي، وبهت من هول سكرات تلك الجنازة المهولة، وبدت وفاتي – التي هي الأخرى آتية لا محال – كأنها تحدث الان، فادارت جميع الموجودات وجميع المحبوبات ظهرها لي ومضت، وتركتني وحيداً فريداً، مثلما جاءت في الآية الكريمة: ﴿ **فان تولوا...** ﴾. واحسست كأن روحي تساق الى المستقبل الممتد نحو الأبد الذي اتخذ صورة بحر عظيم لا ساحل له.. وكان لابد من القاء النفس في خضم ذلك البحر العظيم طوعاً او كرها.

وبينما انا في هذا الذهول الروحي، والحزن الشديد يعصر قلبي، اذا بمدد يأتيني من القرآن الكريم والايمان. فمدتني الآية الكريمة: ﴿ **فإن تَولّوا فَقُلْ حَسْبيَ اللّهُ لا اله الاّ هو عَليهِ تَوكّلْتُ وهوَ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ** ﴾ حتى غدت هذه الآية بمثابة سفينة أمان في منتهى السلام والاطمئنان. فدخلت الروح آمنة مطمئنة في حمى هذه الآية الكريمة.. وفهمت في حينها ان هناك معنى غير المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة، وهو المعنى الاشاري. فلقد وجدت فيه سلوانا لروحي، حيث وهب لي الاطمئنان والسكينة.

نعم! ان المعنى الصريح للآية الكريمة يقول للرسول الكريمﷺ:

«اذا تولى اهل الضلالة عن سماع القرآن، واعرضوا عن شريعتك وسنتك، فلا تحزن ولاتغتم، وقل حسبي الله، فهو وحده كاف لي، وانا اتوكل عليه؛ اذ هو الكفيل بأن يقيض من يتبعني بدلا منكم، فعرشه العظيم يحيط بكل شيء، فلا العاصون يمكنهم ان يهربوا منه، ولا المستعينون به يظلون بغير مدد وعون منه».

فكما ان المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة يقول بهذا، فالمعنى الاشاري للآية الكريمة يقول:

«ايها الانسان، ويامن يتولى قيادة الانسان وارشاده؛ لئن ودعتك الموجودات كلها وانعدمت ومضت في طريق الفناء.. وان فارقتك الاحياء وجرت الى طريق الموت.. وان تركك الناس وسكنوا المقابر.. وان اعرض اهل الغفلة والضلالة ولم يصغوا اليك وترددوا في الظلمات.. فلا تبال بهم، ولا تغتم، وقل: حسبي الله، فهو الكافي، فاذ هو موجود فكل شئ موجود.. وعلى هذا، فان اولئك الراحلين لم يذهبوا الى العدم، وانما ينطلقون الى مملكة اخرى لرب العرش العظيم، وسيرسل بدلا منهم ما لا يعد ولا يحصى من جنوده المجندين.. وان اولئك الذين سكنوا المقابر لم يفنوا ابدا، وانما ينتقلون الى عالم آخر، وسيبعث بدلا منهم موظفين آخرين يعمرون الدنيا، ويشغلون ما خلا من وظائفها.. وهو القادر على ان يرسل من يطيعه ويسلك الطريق المستقيم بدلا ممن وقعوا في الضلالة من الذاهبين..

فما دام الامر هكذا، فهو الكفيل، وهو الوكيل، وهو البديل عن كل شئ، ولن تعوّض جميع الاشياء عنه، ولن تكون بديلا عن توجه واحد من توجهات لطفه ورحمته لعباده..

وهكذا انقلبت صور الجنازات الثلاث التي راعتني بهذا المعنى الاشاري الى شكل آخر من اشكال الانس والجمال وهو:

ان الكائنات تتهادى جيئة وذهابا في مسيرة كبرى، انهاء لخدمات مستمرة، واشغالا لواجبات مجددة دائمة، عبر رحلة ذات حكمة، وجولة ذات عبرة، وسياحة ذات مهام، في ظل ادارة الحكيم الرحيم العادل القدير ذى الجلال، وضمن ربوبيته الجليلة وحكمته البالغة ورحمته الواسعة.

● *النكتة الخامسة:*

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إنْ كُنتُم تُحبّونَ الله فاتّبعوني يُحْبِبكُم الله** ﴾ (آل عمران: ٣١) تعلن هذه الآية العظيمة اعلانا قاطعاً عن مدى اهمية اتباع السنة النبوية ومدى ضرورتها.

نعم! ان هذه الآية الكريمة اقوى قياس واثبته من قسم القياس الاستثنائي، ضمن المقاييس المنطقية، اذ يرد فيه على وجه المثال: «اذا طلعت الشمس فسيكون النهار».

ويرد مثالا للنتيجة الايجابية: «طلعت الشمس فالنهار اذاً موجود». ويرد مثالا للنتيجة السلبية: «لا نهار فالشمس اذاً لم تطلع». فهاتان النتيجتان - الايجابية والسلبية - ثابتتان وقاطعتان في المنطق.

وكذلك الامر في الآية الكريمة، فتقول: ان كان لديكم محبة الله، فلا بد من الاتباع لـ«حبيب الله». وان لم يكن هناك اتباع، فليس لديكم اذاً محبة الله. اذ لو كانت هناك محبة حقاً فانها تولد حتماً اتباع السنة الشريفة لـ«حبيب الله».

أجل! ان من يؤمن بالله يطعه. ولاريب ان اقصر طريق اليه واكثرها قبولا لديه، وأزيدها استقامة - ضمن طرق الطاعة المؤدية اليه - لهي الطريق التي سلكها وبينها حبيب الله ﷺ.

نعم! ان الكريم ذا الجمال الذي ملأ هذا الكون بنعمه وآلائه الى هذا المدى، بديهي - بل ضروري - ان يطلب الشكر من ذوي المشاعر تجاه تلك النعم.

وان الحكيم ذا الجلال الذي زيّن هذا الكون بمعجزات صنعته الى هذا الحد، سيجعل بالبداهة من هو المختار الممتاز من ارباب الشعور مخاطبا له، وترجمانا لأوامره، ومبلغاً لعباده، واماماً لهم.

وان الجميل ذا الكمال الذي جعل هذا الكون مظهراً بما لايعد ولايحصى لتجليات جماله وكماله سيهب بالبداهة لمن هو اجمع نموذج لبدائع صنعته، واكمل من يظهر ما يحبه ويريد اظهاره من جمال وكمال واسماء حسنى.. سيهب له اكمل حالة للعبودية جاعلا منه اسوة حسنة للآخرين ويحثهم لاتباعه، ليظهر عندهم ما يماثل تلك الحالة اللطيفة الجميلة.

الخلاصة:

ان محبة الله تستلزم اتباع السنة المطهرة وتنتجه.

فطوبى لمن كان حظه وافراً من ذلك الاتباع.

وويل لمن لايقدر السنة الشريفة حق قدرها فيخوض في البدع.

● *النكتة السادسة:*

قال الرسول ﷺ: (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)(١)، أي: بعد ان كملتْ قواعد الشريعة الغراء ودساتير السنة المطهرة، واخذت تمام كمالها، بدلالة الآية الكريمة ﴿**اليومَ أكملتُ لكُم دينكُم...**﴾(المائدة: ٣) فان عدم استحسان تلك الدساتير بمحدثات الامور، او ايجاد البدع التي تشعر كأن تلك القواعد ناقصة – حاش لله – ضلال ليس له مستقر الا النار.

ان للسنة المطهرة مراتب:

قسم منها «واجب» لايمكن تركه، وهو مبين في الشريعة الغراء مفصلا، وهو من المحكمات اي لايمكن باية جهة كانت ان تتبدل.

وقسم منها هو من قبيل «النوافل»، وهذا بدوره قسمان:

قسم منه هو السنن التي تخص العبادات، وهي مبينة ايضا في كتب الشريعة. وتغيير هذه السنن بدعة.

أما القسم الآخر فهو الذي يطلق عليه «الآداب» وهي المذكورة في كتب السير الشريفة، ومخالفتها لاتسمى بدعة، الا انها من نوع مخالفة الآداب النبوية، وعدم الاستفاضة من نورها، وعدم التأدب بالادب الحقيقي. فهذا القسم هو: اتباع افعال الرسولﷺ المعلومة بالتواتر في العرف والعادات والمعاملات الفطرية، ككثير من السنن التي تبين قواعد ادب المخاطبة وتظهر حالات الاكل والشرب والنوم أو التي تتعلق بالمعاشرة. فمن يتحر امثال هذه السنن التي تطلق عليها «الآداب» ويتبعها فانه يحول عاداته الى عبادات، ويستفيض من نور ذلك الأدب النبوي، لأن مراعاة أبسط الآداب واصغرها تذكر بالرسول الاعظمﷺ مما يسكب النور في القلب.

ان اهم ما في السنة المطهرة هي تلك السنن التي هي من نوع علامات الاسلام والمتعلقة بالشعائر، اذ الشعائر هي عبادة من نوع الحقوق العامة التي تخص المجتمع.

(١) حديث صحيح: جزء من حديث اخرجه احمد (٣/ ٣١٠، ٣١١ و٣٣٧، ٣٣٨، ٣٧١) ومسلم (٨٦٧) والنسائي (٣/ ١٨٨) وابن ماجة (٤٥) والبيهقي في السنن (٣/ ٢١٣، ٢١٤) وغيرهم من عدة طرق كلهم من حديث جابر رضي الله عنه. وزيادة «وكل ضلالة في النار» هي عند النسائي فقط من بين هؤلاء وسندها صحيح.

فكما ان قيام فرد بها يؤدي الى استفادة المجتمع كله، فان تركها يجعل الجماعة كلها مسؤولة. فمثل هذه الشعائر يعلن عنها وهي أرفع من ان تنالها ايدي الرياء واهم من الفرائض الشخصية ولو كانت من نوع النوافل.

● *النكتة السابعة:*

ان السنة النبوية المطهرة في حقيقة امرها لهي أدب عظيم، فليس فيها مسألة الا وتنطوي على ادب ونور عظيم. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[١].

نعم، فمن يمعن النظر في السيرة النبوية ويحط علماً بالسنة المطهرة، يدرك يقيناً ان الله سبحانه وتعالى قد جمع اصول الاداب وقواعدها في حبيبه ﷺ. فالذي يهجر سنته المطهرة ويجافيها فقد هجر منابع الادب واصوله، فيحرم نفسه من خير عظيم، ويظل محروماً من لطف الرب الكريم، ويقع في سوء ادب وبيل. ويكون مصداق القاعدة: *بي ادب محروم باشد أز لطف رب.*

سؤال:

كيف نتأدب مع علام الغيوب، البصير العليم، الذي لايخفى عليه شئ، حيث ان هناك حالات تدعو الانسان الى الخجل، ولايمكن اخفاؤها عنه سبحانه، ولاالتستر منه، بينما ستر مثل هذه الحالات المستكرهة احد انواع الأدب؟.

الجواب:

اولا: كما ان الصانع ذا الجلال يظهر صنعته اظهاراً جميلاً في نظر مخلوقاته، ويأخذ الامور المستكرهة تحت أستار وحجب، ويزين نِعَمه ويجمّلها حتى لتشتاقها الابصار. كذلك يطلب سبحانه من مخلوقاته وعباده ان يظهروا امام ذوي الشعور بأجمل صورهم واكثرها حسناً؛ اذ ان ظهورهم للمخلوقات في حالات مزرية قبيحة، واوضاع مستهجنة، يكون منافياً للأدب الجميل، ونوعاً من العصيان تجاه قدسية اسمائه أمثال: الجميل، المزين، اللطيف، الحكيم. وهكذا فالادب الذي في السنة

(١) حديث معناه صحيح، ابن السمعاني في ادب الاملاء عن ابن مسعود (شرح المناوى على الجامع الصغير) وقال ابن تيمية (٣٧٥/١٨): معناه صحيح ولكن لا يعرف له اسناد ثابت وايده السخاوي والسيوطي. راجع (كشف الخفاء ٧٠/١) وسلسلة الاحاديث الضعيفة برقم ٧٢.

النبوية الطاهرة انما هو تأدب بالادب المحض الذي هو ضمن الاسماء الحسنى للصانع الجليل.

ثانيـاً: ان الطبيب له ان ينظر الى أشد الاماكن حرمة لمن يحرم عليه، من زاوية نظر الطب والعلاج. بل يكشف له - في حالات الضرورة - تلك الاماكن ولايعد ذلك خلافاً للأدب، وانما يعتبر ذلك من مقتضيات الطب. الا ان ذلك الطبيب نفسه لا يجوز له ان ينظر الى تلك الاماكن المحرمة من حيث كونه رجلا او واعظاً او عالماً، فلا يسمح الادب قطعاً باظهارها له بتلك العناوين والصفات. بل يعد ذلك انعداماً للحياء.

« ولله المثل الاعلى » فان للصانع الجليل اسماء حسنى كثيرة، ولكل اسم تجليه، فمثلا:

كما يقتضي اسم « الغفار » وجود الذنوب، واسم « الستار » وجود التقصيرات، فان اسم « الجميل » لايرضى برؤية القبح. وان الاسماء الجمالية والكمالية، امثال: اللطيف، الكريم، الحكيم، الرحيم، تقتضى ان تكون الموجودات في احسن الصور، وفي افضل الاوضاع الممكنة. فتلك الاسماء الجمالية والكمالية تقتضى اظهار جمالها؛ بالاوضاع الجميلة للموجودات وتأدبها بالاداب الحسنة، امام انظار الملائكة والعالم الروحاني والجن والانس.

وهكذا فالاداب التي تتضمنها السنة المطهرة اشارة الى هذه الاداب السامية، ولفتة الى دساتيرها ونماذجها.

● *النكتة الثامنة:*

تبين الآية الكريمة ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم..** ﴾ كمال شفقة الرسول الكريم ﷺ ومنتهى رأفته نحو أمته. أما التي تعقبها ﴿ **فإن تولّوا فقُلْ حَسْبي اللهُ..** ﴾ فهي تقول:

« ايها الناس! ايها المسلمون! اعلموا كم هو انعدام للوجدان وفقدان للعقل اعراضكم عن سنن هذا النبي الرؤوف الرحيم، وعما بلغ من احكام، لحد انكاركم شفقته البديهية، واتهام رأفته المشاهدة، وهو الذي أرشدكم برأفته الواسعة وبذل كل

ما اوتي لاجل مصالحكم، مداوياً جراحاتكم المعنوية ببلسم سننه الطاهرة والاحكام التي اتى بها.

وانت ايها الرسول الحبيب الرؤوف الرحيم، ان لم يعرف هؤلاء شفقتك العظيمة هذه، لبلاهتهم، ولم يقدروا رأفتك الواسعة هذه، فأداروا لك ظهورهم، ولم يعيروا لك سمعاً.. فلا تبال ولاتهتم فان رب العرش العظيم الذي له جنود السموات والارض والذي تهيمن ربوبيته من على العرش الاعظم المحيط بكل شئ، لهو كاف لك.. وسيجمع حولك المطيعين حقاً، ويجعلهم يصغون اليك ويرضون باحكامك».

نعم، انه ليست في الشريعة المحمدية والسنة الاحمدية مسألة الا وفيها حِكَمٌ عديدة، فانا هذا الفقير الى الله ادعى بهذا، رغم كل عجزي وقصوري. وانا على استعداد لإثبات هذه الدعوى. فما كتبته لحد الآن من اكثر من سبعين رسالة من رسائل النور انما هو بمثابة سبعين شاهدا صادقا على مدى الحكمة والحقيقة التي تنطوي عليها السنة الاحمدية والشريعة المحمدية، فلو قدر وكتب هذا الموضوع فلا يكفي سبعون رسالة ولاسبعة آلاف رسالة لايفاء تلك الحكم حقها.

ثم اني قد شاهدت شخصياً، وتذوقته بنفسي، بل لي الف تجربة وتجربة: ان دساتير المسائل الشرعية والسنة النبوية افضل دواء وانفعه للامراض الروحية والعقلية والقلبية، ولاسيما الاجتماعية منها. فانا اعلن بمشاهدتي واحساسي هذا، وقد اشعرت الاخرين بشئ منها في الرسائل بأنه: لايمكن ان تسد مسد تلك المسائل اية حلول فلسفية ولا أية مسألة حكيمة. فالذين يرتابون من ادعائي هذا عليهم مراجعة اجزاء رسائل النور.

فليقدر اذاً مدى الربح العظيم في السعي لاتباع سنة هذه الذات المباركة والجد في طلبها على قدر الاستطاعة، ومدى السعادة للحياة الابدية ومدى النفع في الحياة الدنيا.

● *النكتة التاسعة:*

قد لايتيسر اتباع كل نوع من انواع السنة الشريفة اتباعاً فعلياً كاملاً الاّ لأخص الخواص، ولكن يمكن لكل واحد الاتباع عن طريق: النية والقصد والرغبة في الالتزام والقبول. ومن المعلوم انه ينبغي الالتزام بأقسام الفرض والواجب. اما السنن المستحبة في العبادة فتركها واهمالها وان لم يكن فيه اثم الا انه ضياع لثواب عظيم، وفي

تغييرها خطأ كبير. اما السنن النبوية في العادات والمعاملات فانها تصيّر العادة عبادة رغم ان تاركها لايلام، الا أن استفادته تقل وتتضاءل من نور الاداب الحياتية لحبيب الله ﷺ.

اما البدع فهي: احداث امور في الاحكام العبادية، وهي مردودة حيث انها تنافي الآية الكريمة: ﴿ **اليومَ أكملتُ لكُم دينكُم...** ﴾ غير ان تلك الامور المستحدثة ان كانت من قبيل الاوراد والاذكار والمشارب – كالتي في الطرق الصوفية – فهي ليست ببدعة ما دامت اصولها مستقاة من الكتاب والسنة. اذ ان تلك الاصول والاسس المقررة رغم انها باشكال مختلفة وانماط متباينة الا انها مشروطة بعدم مخالفتها للسنة النبوية وبعدم تغييرها لها. وعلى الرغم من ذلك فقد ادخل قسم من اهل العلم بعضاً من هذه الامور ضمن البدع، الا انهم اطلقوا عليها «البدعة الحسنة». ولكن الامام الرباني يقول: «كنت ارى في سيري عبر السلوك الروحاني ان الكلمات المروية عن الرسول الاعظم ﷺ منورة متألقة بشعاع السنة المطهرة، في حين كنت ارى الاوراد العظيمة والحالات الباهرة غير المروية عنه ليس عليها ذلك النور والتألق. فما كان يبلغ اسطع ما في هذا القسم – الاخير – الى اقل القليل لما في السنة... ففهمت من هذا: ان شعاع السنة المطهرة لهو الاكسير النافذ، فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها...»

فهذا الحكم الصادر من هذا الرائد البطل من ابطال الحقيقة والشريعة ليظهر لنا: ان السنة السنية هي الحجر الاساس لسعادة الدارين ومنبع الكمال والخير.

اللهم ارزقنا اتباع السنة السنية.

﴿ **ربّنا آمنّا بما أنزلْتَ واتبَعنا الرسُولَ فاكتُبنا مَع الشّاهدين** ﴾ (آل عمران: ٥٣)

● *النكتة العاشرة:*

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إنْ كُنتُم تُحبّون الله فاتّبعوني يُحْببكُم الله** ﴾.

في هذه الآية الكريمة ايجاز معجز، حيث ان معاني كثيرة قد اندرجت في هذه الجمل الثلاث:

تقول الآية الكريمة: «ان كنتم تؤمنون بالله، فانكم تحبونه، فما دمتم تحبونه فستعملون وفق ما يحبه، وما ذاك الاتشبهكم بمن يحبه.. وتشبهكم بمحبوبه ليس الا في اتباعه، فمتى ما اتبعتموه يحبكم الله، ومن المعلوم انكم تحبون الله كي يحبكم الله».

وهكذا فهذه الجمل ماهي الا بعض المعاني المختصرة المجملة للآية، لذا يصح القول: ان أسمى مقصد للانسان واعلاه هو ان يكون اهلا لمحبة الله.. فنص هذه الاية يبين لنا ان طريق ذلك المقصد الاسنى انما هو في اتباع «حبيب الله» والاقتداء بسنته المطهرة. فاذا ما اثبتنا في هذا المقام ثلاث نقاط فستتبين الحقيقة المذكورة بوضوح.

النقطة الاولى:

لقد جُبل هذا الانسان على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لان الفطرة البشرية تكنّ حباً للجمال، ووداً للكمال، وافتتاناً بالاحسان، وتتزايد تلك المحبة بحسب درجات الجمال والكمال والاحسان حتى تصل الى اقصى درجات العشق ومنتهاه.

نعم ان في القلب الصغير لهذا الانسان الصغير يستقر عشق بكبر الكون. اذ ان نقل محتويات ما في مكتبة كبيرة من كتب، وخزنها في القوة الحافظة للقلب – وهي بحجم حبة عدس – يبين ان قلب الانسان يمكنه ان يضم الكون ويستطيع ان يحمل حباً بقدر الكون.

فما دامت الفطرة البشرية تملك استعداداً غير محدود للمحبة تجاه الاحسان والجمال والكمال.. وان لخالق الكون جمالا مقدساً غير متناه، ثبوته متحقق بداهة بآثاره الظاهرة في الكائنات.. وان له كمالا قدسياً لاحدود له، ثبوته محقق ضرورة بنقوش صنعته الظاهرة في هذه الموجودات.. وان له احسانا غير محدود ثابت الوجود يقينا، يمكن لمسه ومشاهدته ضمن انعامه والآئه الظاهرة في جميع انواع الاحياء.. فلابد انه سبحانه يطلب محبة لاحد لها من الانسان الذي هو اجمع ذوي الشعور صفة، واكثرهم حاجة، واعظمهم تفكراً، واشدهم شوقاً اليه.

نعم، كما ان كل انسان يملك استعدادا غير محدود من المحبة تجاه ذلك الخالق ذي الجلال، كذلك الخالق سبحانه هو اهل ليكون محبوبا، لاجل جماله وكماله واحسانه اكثر من اي احد كان، حتى ان ما في قلب الانسان المؤمن من انواع المحبة ودرجاتها للذين يرتبط بهم بعلاقات معينة، ولاسيما ما في قلبه من حب تجاه حياته وبقائه، وتجاه وجوده ودنياه، وتجاه نفسه والموجودات بأسرها، انما هي ترشحات من تلك الاستعدادات للمحبة الإلهية. بل حتى اشكال الاحساسات العميقة – عند الانسان– ما هي الا تحولات لذلك الاستعداد، وما هي الا رشحاته التي اتخذت اشكالا مختلفة.

ومن المعلوم ان الانسان مثلما يتلذذ بسعادته الذاتية، فهو يتلذذ ايضا بسعادة الذين يرتبط بهم بعلاقة ومحبة ومثلما يحب من ينقذه من البلاء، فهو يحب من ينجي محبيه من المصائب ايضاً.

وهكذا، فاذا ما فكر الانسان وروحه مفعمة بالامتنان لله، في احسان واحد فقط مما لايعد ولايحصى من الاحسانات العظيمة التي قد غمر بها الله سبحانه وتعالى الانسان وشمله بها، فانه سيفكر على النحو الآتي:

ان خالقي الذي انقذني من ظلمات العدم الابدية، ومنحني منحة الخلق والوجود، ووهب لي دنيا جميلة استمتع بجمالها هنا على هذه الارض، فان عنايته ايضا ستمتد اليّ حين يحين اجلي، فينقذني كذلك من ظلمات العدم الابدي والفناء السرمدي، وسيهب لي – من فضل احسانه – عالماً ابدياً باهرا زاهرا في عالم البقاء في الآخرة.. وسينعم عليّ سبحانه بحواس ومشاعر ظاهرة وباطنة لتستمتع وتتلذذ في تنقلها بين انواع ملذات ذلك العالم الجميل الطاهر.

كما انه سبحانه سيجعل جميع الاقارب، وجميع الاحبة من بني جنسي الذين اكن لهم حباً عميقاً وارتبط معهم بعلاقة وثيقة، سيجعلهم اهلا لهذه الآلاء والاحسانات غير المحدودة.. وهذا الاحسان – من جهة – يعود عليّ كذلك، اذ انني اتلذذ بسعادة اولئك، واسعد بها.. فما دام في كل فرد حب عميق وافتتان بالاحسان كما في المثل: «الانسان عبد الاحسان» فلابد ان الانسان امام هذا الاحسان الابدي غير المحدود سيقول:

لو كان لي قلب بسعة الكون لاقتضى ان يملأ حباً وعشقاً تجاه ذلك الاحسان الإلهي، وانا مشتاق لملئه، ولكن رغم انني لست على مستوى تلك المحبة فعلا، الا انني أهل لها بالاستعداد والإيمان، وبالنية والقبول، وبالتقدير والاشتياق، وبالالتزام والارادة.

وهكذا ينبغي قياس ما يظهره الانسان من المحبة تجاه «الجمال» وتجاه «الكمال» بمقياس ما اشرنا اليه مجملا من المحبة تجاه «الاحسان».

اما الكافر الملحد، فانه يحمل عداء لاحد له فهو يستخف بالموجودات من حوله، ويستهين بها، ويمتهنها، ويناصبها العداء والكراهية.

* النقطة الثانية:

ان محبة الله تستلزم اتباع السنة الطاهرة لمحمدﷺ، لان حب الله هو العمل بمرضياته، وان مرضاته تتجلى بافضل صورها في ذات محمدﷺ. والتشبه بذاته المباركة في الحركات والافعال يأتي من جهتين:

احداهما: جهة حب الله سبحانه واطاعة اوامره، والحركة ضمن دائرة مرضاته، هذه الجهة تقتضي ذلك الاتباع، حيث ان اكمل امام وامثل قدوة في هذا الامر هو محمدﷺ.

وثانيتهما: جهة «ذاته المباركة»ﷺ التي هي أسمى وسيلة للاحسان الإلهي غير المحدود للبشرية، فهي اذاً اهل لمحبة غير محدودة لاجل الله وفي سبيله.

والانسان يرغب فطرة في التشبه بالمحبوب ما امكن، لذا فالذين يسعون في سبيل حب «حبيب الله» عليهم ان يبذلو جهدهم للتشبه به باتباع سنته الشريفة.

* النقطة الثالثة:

كما ان لله سبحانه وتعالى رحمة غير متناهية، فله سبحانه كذلك محبة غير متناهية. وكما انه يحبب نفسه – بصورة غير محدودة – بمحاسن الكائنات جميعاً وبجمالها وزينتها الى مخلوقاته، فانه كذلك يحب مخلوقاته، ولاسيما اصحاب

الشعور منهم الذين يقابلون تحببه لهم بالحب والتعظيم. لذا فان اسمى مقصد الانسان في مرضاة ربه، واجلّ سعيه هو ان يكون موضع نظر محبة الله الذي خلق الجنة بلطائفها ومحاسنها ولذائذها ونعمها بتجل من تجليات رحمته.

وبما ان احدا لا يمكنه ان يكون اهلا لمحبته سبحانه الا باتباع السنة الاحمدية كما نص عليه كلامه العزيز، اذن فاتباع السنة المحمدية هو اعظم مقصد انساني واهم وظيفة بشرية.

● *النكتة الحادية عشرة:*

وهي ثلاث مسائل:

* المسألة الاولى:

أن لسنة الرسول الاعظمﷺ ثلاثة منابع، هي:

اقواله، وافعاله، واحواله. وهذه الاقسام الثلاثة هي كذلك ثلاثة اقسام:

الفرائض، النوافل، عاداتهﷺ.

ففي قسم الفرائض والواجب، لامناص من الاتباع، والمؤمن مجبر على هذا الاتباع بحكم ايمانه. والجميع بلا استثناء مكلفون بأداء الفرض والواجب، ويترتب على اهماله او تركه عذاب وعقاب.

وفي قسم النوافل، فأهل الايمان هم مكلفون به ايضا حسب الامر الاستحبابي، ولكن ليس في ترك النوافل عذاب ولاعقاب. غير ان القيام بها واتباعها فيه اجر عظيم. وتغيير النوافل وتبديلها بدعة وضلالة وخطأ كبير.

اما عاداتهﷺ وحركاته وسكناته السامية فمن الافضل والمستحسن جداً تقليدها واتباعها حكمة ومصلحة سواء في الحياة الشخصية او النوعية او الاجتماعية، لان هناك في كل حركة من حركاته الاعتيادية منافع حياتية كثيرة جدا فضلا عن انها بالمتابعة تصير تلك الآداب والعادات بحكم العبادة.

نعم، مادام – عليه الصلاة والسلام – متصف بأسمى مراتب محاسن الاخلاق، باتفاق الاولياء والاعداء. وانهﷺ هو المصطفى المختار من بين بني البشر، وهو اشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع.. وما دام هو اكمل انسان، بل اكمل قدوة ومرشد

بدلالة آلاف المعجزات، وبشهادة العالم الاسلامي الذي كونه، وبكمالاته الشخصية بتصديق حقائق ما بلغه من القرآن الحكيم.. وما دام ملايين من اهل الكمال قد سموا في مراتب الكمالات، وترقوا فيها بثمرات اتباعه فوصلوا الى سعادة الدارين... فلابد ان سنة هذا النبي الكريمﷺ وحركاته هي افضل نموذج للاقتداء واكمل مرشد للاتباع والسلوك واحكم دستور، واعظم قانون، يتخذه المسلم اساسا في تنظيم حياته.

فالسعيد المحظوظ هو من له أوفر نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة.

ومن لم يتبع السنة فهو في خسران مبين ان كان متكاسلا عنها.. وفي جناية كبرى ان كان غير مكترث بها.. وفي ضلالة عظيمة ان كان منتقداً لها بما يومئ التكذيب بها.

* المسألة الثانية:

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الرسولﷺ في القرآن الحكيم بقوله:

﴿ وإنّكَ لَعلَى خُلُقٍ عَظيم ﴾ (القلم: ٤).

ووصفه الصحب الكرام كما وصفته الصحابية الجليلة الصديقة عائشة رضي الله عنها قائلة: (كان خُلُقهُ القرآن)(١). اي: «ان محمدا ﷺ هو المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الاخلاق، وهو افضل من تمثلت فيه تلك المحاسن، بل انه خلق فطرة على تلك المحاسن». ففي الوقت الذي ينبغي ان يكون كل من افعال هذا النبي العظيمﷺ واقواله واحواله، وكل من حركاته نموذج اقتداء للبشرية، فما اتعس اولئك المؤمنين من امته الذين غفلوا عن سنتهﷺ ممن لايبالون بها او يريدون تغييرها فما اتعسهم وما اشقاهم!

* المسألة الثالثة:

لما كان الرسولﷺ قد خلق في افضل وضع وأعدله وفي اكمل صورة واتمها، فحركاته وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة، وسيرته الشريفة تبين هذا بياناً قاطعاً وبوضوح تام، بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته متجنباً الافراط والتفريط.

---

(١) جزء من حديث عائشة رضي الله عنها. اخرجه مسلم ٧٤٦ واحمد ٥٤/٦، ٩١، ١٦٣ وابو داود ١٣٤٢ والنسائي ١٩٩/٣ - ٢٠٠ والدارمي.

نعم لما كان الرسول ﷺ قد امتثل امتثالا كاملا قوله تعالى ﴿ **فاستقم كما أُمرت** ﴾ (هود: ١١٢) فالاستقامة تظهر في جميع افعاله واقواله واحواله ظهوراً لا لبس فيه.

فمثلا: ان قواه العقلية قد سارت دائماً ضمن الحكمة التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، مبرأة عما يفسدها ويكبتها من افراط وتفريط اي الغباء والخب.

وان قواه الغضبية قد سارت دائماً ضمن الشجاعة السامية التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، منزهة عما يفسدها من افراط وتفريط اي الجبن والتهور.

وان قوته الشهوية قد اتخذت محور الاستقامة دائما وهي العفة واستقامت عليها باسمى درجات العصمة، فصفت من فساد تلك القوة من افراط وتفريط اي الخمود والفجور.

وهكذا فانه ﷺ قد اختار حد الاستقامة في جميع سننه الشريفة الطاهرة وفي جميع احواله الفطرية وفي جميع احكامه الشرعية، وتجنب كليا من الظلم والظلمات اي الافراط والتفريط، والاسراف والتبذير، حتى انه قد اتخذ الاقتصاد له دليلا متجنبا الاسراف نهائيا، في كلامه وفي اكله وفي شربه.

وقد أُلفت في تفصيل هذه الحقائق آلاف المجلدات، الا اننا اكتفينا بهذه القطرة من البحر، اذ «العارف تكفيه الاشارة».

اللهم صل على جامع مكارم الاخلاق ومظهر سر ﴿ **وانك لعلى خلق عظيم** ﴾ الذي قال: «من تمسك بسنتي عند فساد امتي فله اجر مائة شهيد».

﴿ **وقَالُوا الحمدُ لله الذي هَدينا لهذا وما كُنا لنهتَدي لولا أنْ هدينا الله لقد جَاءتْ رُسُل ربنا بالحقّ** ﴾.

﴿ **سُبحَانَكَ لاعِلمَ لنا إلاّما عَلمْتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ** ﴾

اللمعة الثانية عشرة

تخص نكتتين قرآنيتين لمناسبة
سؤالين جزئيين سألهما الاخ رأفت

باسمه سبحانه

﴿وَإنْ مِنْ شَيءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

السلام عليكم وعلى اخوانكم ورحمة الله وبركاته

اخي الصادق العزيز السيد رأفت[1]!

ان اسئلتك في هذا الوقت العصيب الذي يحيطني، تجعلني في وضع محرج لأن سؤاليكم – في هذه المرة – وإن كانا جزئيين، إلاّ انني رأيتهما على جانب من الاهمية، لما لهما من علاقة مع نكتتين قرآنيتين، ولأن سؤالكم حول الكرة الارضية يتعرض للشبهات التي ترد من علمي الجغرافية والفلك حول طبقات الارض السبع والسبع الطباق. لذا نبين هنا بياناً علمياً وكلياً ومجملاً نكتتين قرآنيتين بغض النظر عن جزئية السؤال، وانت بدورك تأخذ حصتك منه ازاء سؤاليك الجزئيين.

---

(١) رأفت بارودجي (١٨٨٦-١٩٧٥) عسكري متقاعد من اوائل الذين تتلمذوا على الاستاذ النورسي ولازمه في سجن اسكي شهر ودنزلي. تولى الإمامة في استانبول، كان حاذقاً في تعليم القرآن.– المترجم.

النكتة الاولى:

وهي عبارة عن نقطتين:

*** *النقطة الاولى:***

قال تعالى: ﴿ **وكأيّن من دابّة لاتحملُ رزقَها اللهُ يرزُقها واياكم** ﴾ (العنكبوت:٦٠)

﴿ **ان اللهَ هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ (الذاريات:٥٨)

بدلالة هاتين الايتين الكريمتين، الرزق بيد القدير الجليل وحده، ويخرج من خزينة رحمته دون وساطة. فرزق كل ذي حياة بعهدة ربه، فيلزم الاّ يموت أحد جوعاً. ولكن يبدو ان الذين يموتون جوعاً، أو من فقدان الرزق كثيرون. ان حل هذا السر وكشف هذه الحقيقة هو:

ان التعهد الرباني بالرزق وتكفّله له بنفسه حقيقة ثابتة. فلا أحد يموت من عدم الرزق، لان الرزق الذي يرسله الحكيم ذو الجلال الى جسم الكائن الحي يدّخر قسم منه احتياطاً على هيئة شحوم ودهون داخلية. بل يدّخر قسم من الرزق المرسل في زوايا حجيرات الجسم كي يصرف منه في واجبات الجسم عند عدم مجئ الرزق من الخارج.

فالذين يموتون اذاً، انما يموتون قبل نفاد هذا الرزق الاحتياطي المدخر، اي أن ذلك الموت لاينجم من عدم وجود الرزق، وانما من مرضٍ ناشئٍ من ترك عادة بسوء الاختيار.

نعم! ان الرزق الفطري المدخر بصورة شحوم في جسم الكائن الحي، انما يدوم ويستمر بمعدل اربعين يوماً كاملاً. بل قد يستمر ضعف ذلك، إثر مرض أو استغراق روحاني. حتى كتبت الصحف – قبل تسع وثلاثين سنة(١) – أن رجلاً قد قضى لعناد سبعين يوماً في سجن لندن دون ان يذوق شيئاً وظل على صحة وعافية.

فما دام الرزق الفطري يدوم اربعين يوماً بل سبعين وثمانين يوماً، وان تجلي اسم الرزاق ظاهر على مدّ البسيطة بجلاء، وان الرزق يتدفق من حيث لايحتسب من الاثداء ويخرج من الاكمام. فلابد ان ذلك الاسم يمدّ الكائن ويسعفه ويحول بينه

(١) المقصود سنة ١٩٢٠. – المترجم.

وبين الموت جوعاً قبل انتهاء الرزق الفطري، مالم يتدخل البشر المتلبس بالشر بسوء عمله.

ولهذا فالذين يموتون جوعاً قبل اربعين يوماً، لايموتون بسبب عدم الرزق قطعاً، بل من عادة ناشئة من سوء الاختيار ومن مرض ناشئ من ترك العادة، اذ: «ترك العادات من المهلكات» قاعدة مطردة.

فيصح القول اذاً: انه لاموت من الجوع.

نعم! انه مشاهد امام الانظار: ان الرزق يتناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار، فمثلاً. ان الطفل قبل ان يولد، وليس له من الاختيار والاقتدار شئ، ساكن في رحم الام، يسيل اليه رزقه دون ان يحتاج حتى الى حركة شفتيه. وحينما يفتح عينيه للدنيا، ولايملك اقتداراً ولا اختياراً، الاّ شئ من القابليات، وحسّ كامن فيه، فانه لايحتاج الاّ الى حركة إلصاق فمه بالثدي فحسب، واذا بمنابع الثدي تتدفق برزق هو اكمل غذاء واسهله هضماً، وبألطف صورة واعجب فطرة. ثم كلما نما لديه الاقتدار والاختيار احتجب عنه ذلك الرزق الميسور الجميل شيئاً فشيئاً، حتى ينقطع النبع ويغور، فيرسل اليه رزقه من اماكن اخرى. ولكن لأن اقتداره واختياره ليسا على استعداد بعدُ لتتبع الرزق، فان الرزاق الكريم يجعل شفقة والديه ورحمتهما ممدةً لاختياره ومسعفة لاقتداره. ثم لما يتكامل الاقتدار والاختيار، فلا يعدو الرزق نحوه، ولا يساق اليه، بل يسكن قائلاً: تعال اطلبني، فتش عني وخذني.

فالرزق اذاً متناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار، بل ان حيوانات لااقتدار لها ولااختيار تعيش افضل واحسن من غيرها كما اوضحنا ذلك في رسائل عدة.

*** النقطة الثانية:**

للامكان انواع واقسام هي: الامكان العقلي والامكان العرفي والامكان العادي. فان لم تكن الحادثة الواقعة ضمن الامكان العقلي، فانها تردّ وترفض. وان لم تكن ضمن الامكان العرفي ايضاً فإنها تكون معجزة، ولاتكون كرامةً بيسر. وان لم تكن لها نظير عُرفاً وقاعدةً فلا تقبل إلاّ ببرهان قاطع بدرجة الشهود.

فبناءً على هذا، فان الاحوال الخارقة للعادة المروية عن السيد احمد البدوي (قدس سره)[١] الذي لم يذق طعاماً طوال اربعين يوماً، انما هي ضمن دائرة الامكان العرفي، وتكون كرامة له، بل ربما هي عادة خارقة له.

نعم! ان روايات متواترة تنقل عن السيد احمد البدوي (قدس سره) أنه اثناء استغراقه الروحاني كان يأكل كل اربعين يوماً مرة واحدة. فالحادثة وقعت فعلاً، ولكن ليست دائماً، وانما حدثت بعض الاحيان من قبيل الكرامة. وهناك احتمال ان حالته الاستغراقية كانت غير محتاجة الى طعام، لذا اصبحت بالنسبة اليه في حكم العادة.

وقد رويت حوادث كثيرة موثوقةً من هذا النوع من الاعمال الخارقة عن اولياء كثيرين من امثال السيد احمد البدوي (قدس سره).

فان كان الرزق المدّخر يدوم اكثر من اربعين يوماً -كما اثبتنا في النقطة الاولى- وان الانقطاع عن الطعام طوال تلك الفترة من الامور الممكنة عادةً، وانه قد رويت تلك الحالات روايات موثوقة من اشخاص افذاذ، فلابد الاّ تُنكر قطعاً.

السـؤال الثاني:

لمناسبة هذا السؤال نبين مسألتين مهمتين.

لما عجز اصحاب علوم الجغرافيا والفلك بقوانينها القاصرة ودساتيرها الضيقة وموازينها الصغيرة ان يرقوا الى سموات القرآن وان يكشفوا عن الطبقات السبع لمعاني نجوم آياته الجليلة، بدأوا يحاولون الاعتراض على الآية الكريمة وانكارها بحماقة وبلاهة.

---

(١) السيد البدوي: ٥٩٦ - ٦٧٥هـ / ١٢٠٠ - ١٢٧٦م احمد بن علي بن ابراهيم الحسيني، أبو العباس البدوي. المتصوف، صاحب الشهرة في الديار المصرية. أصله من المغرب، ولد بفاس، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة، ودخل مصر في ايام الملك الظاهر بيبرس، فخرج لاستقباله هو وعسكره، وانزله في دار ضيافته، وزار سورية والعراق سنة ٦٣٤هـ وعظم شأنه في بلاد مصر فانتسب الى طريقته جمهور كبير بينهم الملك الظاهر. وتوفي ودفن في طنطا حيث تقام في كل سنة سوق عظيمة يفد إليها الناس من جميع انحاء القطر المصري احتفاءاً بمولده، لم يذكر له مترجموه تصنيفاً غير «حزب - مخطوط -» و«وصايا» و«صلوات». وقد افرد بعضهم سيرته في كتب، منها كتاب «السيد البدوي» لمحمد فهمي عبداللطيف. (الاعلام للزركلي ١/١٧٥). - المترجم.

● المسألة المهمة الاولى:

تخص كون الارض ذات سبع طبقات كالسموات.

هذه المسألة تبدو لفلاسفة العصر الحديث غير ذات حقيقة، لاتقبلها علومهم التي تخص الارض والسموات. فيتخذون من هذه المسألة ذريعة للاعتراض على بعض الحقائق القرآنية، لذا نكتب بضع اشارات مختصرة تخص هذه المسألة.

الاولى:

اولاً: ان معنى الآية شئ، وأفراد ذلك المعنى ومايشتمل عليه من تلك المعاني من الجزئيات شئ آخر. فان لم يوجد فرد من افرادٍ كثيرة لذلك المعنى الكلي فلايُنكر ذلك المعنى الكلي. علماً ان هناك سبعة افراد ظاهرة مصدّقة للافراد الكثيرة للمعنى الكلي للسموات السبع والارضين السبع.

ثانياً: ان صراحة الآية الكريمة: ﴿ **الله الذي خلق سبع سمـٰـوات ومن الارض مثلهن..** ﴾ (الطلاق:١٢) لاتذكر أن الارض سبع طبقات. بل ظاهرها تفيد: ان الله خلق الارض جاعلاً منها مسكناً لمخلوقاته كالسموات السبع، فلا تقول الآية: خلقت الارض سبع طبقات. أما المثلية (للسموات) فهي تشبيه بها من حيث كونها مخلوقة ومسكناً للمخلوقات.

الاشارة الثانية:

ان الارض مهما كانت صغيرة جداً بالنسبة للسموات، الاّ انها تعدلها وتوازيها من حيث انها في حكم معرض للمصنوعات الإلهية التي لاتحد وموضع اشهارها ومركزها. فهي بهذا تعدل السموات العظيمة وتوازيها، اذ هي كالقلب والمركز المعنوي للسموات، كما يعدل قلب الانسان الجسد.

ولهذا فقد فُهم من الآيات الكريمة: ان الارض سبع طبقات.

اذ الارض سبعة أقاليم منذ القديم بمقياس مصغر.

ثم هي سبع قارات وهي المعروفة باسم اوروبا وافريقيا واوقيانوسيا (استراليا) وآسيتين وامريكتين.

ثم هي سبع قطع معروفة في هذا الوجه وفي الوجه الآخر العالم الجديد. وهي الشرق والغرب والشمال والجنوب مع البحار.

ثم هي سبع طبقات متصلة متباينة ابتداءً من مركزها الى قشرتها الظاهرة، كما هو ثابت علماً.

ثم هي ذات عناصر سبعة مشهورة تعبّر عنها بالطبقات السبع والمتضمنة لسبعين عنصراً من العناصر الجزئية البسيطة التي اصبحت هي مدار الحياة.

ثم الطبقات السبع والعوالم السبعة المتكونة من العناصر الاربعة – الماء والهواء والنار والتراب – والمواليد الثلاثة وهي المعادن والنباتات والحيوانات.

ثم عوالم طبقات الارض السبع، الثابتة بشهادة كثير من اهل الكشف واصحاب الشهود والتي هي مساكن الجن والعفاريت ومقرات مخلوقات مختلفة اخرى ذوات شعور وحياة.

ثم انها سبع طبقات اشارةً الى وجود سبع كرات اخرى شبيهة بكرتنا الارضية، هي مساكن ذوي الحياة ومقرات لها، اي ان كرة الارض سبع طبقات اشارة الى وجود سبع كرات ارضية.

هكذا فُهم من الآيات هذه المعاني. فاذاً يتحقق وجود سبع طبقات للارض في سبعة انواع من الطبقات وفي سبعة اشكال وانماط منها.

أما المعنى الثامن وهو الأخير فليس داخلاً في المعاني السبعة المعدودة وانما له اهمية من ناحية اخرى.

الاشارة الثالثة:

لما كان الخالق الحكيم لايسرف في شئ، ولايخلق عبثاً، وان الموجودات انما وجدت لذوي الشعور، وتجد كمالها بذوي الشعور، بل تعمّر بذوي الشعور، لتنقذ من العبث. وان ذلك الحكيم المطلق والقدير الجليل يعمّر عنصر الهواء وعالم الماء وطبقات التراب بما لايحد من ذوي الحياة، كما هو مشاهد. وان الهواء والماء لايحولان دون جولان الحيوانات كما لا تمنع المواد الكثيفة كالتراب والحجر سير

الكهرباء واشعة رونتكن.. فلابد ان ذلك الحكيم ذا الكمال والصانع الباقي لايترك طبقات الارض السبع الكلية المتصلة ببعضها ولاكهوفها وميادينها الواسعة وعوالمها خالية خاوية ابتداءً من مركزها الى قشرتها الظاهرة التي هي مسكننا.

فلاجرم انه قد عمّر تلك العوالم وخلق لها مخلوقات ذوات شعور يناسبها ويلائمها واسكنهم فيها، ويلزم ان تكون هذه المخلوقات من اجناس الملائكة والروحانيات التي تكون اكثف الطبقات واصلبها بالنسبة اليها كالبحر الى السمك والهواء الى الطير. بل يقتضي ان تكون نسبة النار الهائلة المرعبة في مركز الارض الى تلك المخلوقات الشاعرة كنسبة حرارة الشمس الينا، وحيث ان الروحانيات الشاعرة مخلوقات من نور، فالنار تكون كالنور لهم.

الاشارة الرابعة:

لقد ذكر في «المكتوب الثامن عشر» مثال حولِ تصويرات خارجة عن نطاق العقل بيّنها اهلُ الكشف فيما يخص عجائب طبقات الارض، وخلاصته:

ان كرة الارض بذرة في عالم الشهادة، بينما هي كشجرة ضخمة تضارع عظمتها السموات في عالم المثال والبرزخ، فمشاهدة اهل الكشف لطبقة الارض الخاصة بالعفاريت في كرة الارض بمسافة الف سنة ليست مشاهدتهم لها في بذرة الارض التي تخص عالم الشهادة، بل هي تظاهر لطبقات الارض وفروعها الممتدة في عالم المثال.

فان كانت طبقة واحدة – لا اهمية لها ظاهراً – من طبقات الارض قد حازت هذه الاهمية العظمى في عالم آخر، ألا يصح ان يقال اذاً ان الارض هي سبع طبقات تقابل سبع سموات؟. فالآيات الكريمة تشير بايجاز معجز، الى تلك النقاط المذكورة وتنبه عليها، وذلك باظهارها هذه الارض الصغيرة جداً مكافئة لطبقات السموات السبع.

● المسألة المهمة الثانية:

قوله تعالى: ﴿ **تسبّح له السمٰوات السبع والارض ومن فيهن** ﴾(الاسراء: ٤٤) و﴿ **ثم استوى الى السّماء فسويٰهن سبعَ سمٰوات وهو بكل شيءٍ عليم** ﴾ (البقرة:٢٩)

هاتان الايتان وامثالهما من الايات الكريمة تبين أن السموات سبع. نرى من الانسب اختصار ما ذكرناه في تفسير «اشارات الاعجاز» الذي أُلف في جبهة القتال اثناء السنة الاولى من الحرب العالمية الاولى، اذ جاءت فيه هذه المسألة في غاية الإجمال والاختصار الشديد بسبب ظروف الحرب.

ان الحكمة القديمة قد تصورت السموات انها تسعُ سموات، فزادت على السموات السبع، العرش والكرسي الواردين في الشرع، فكان تصويراً عجيباً لها. ولقد استولت على البشرية طوال عصور مديدة تلك التعابير الرنانة لفلاسفة الحكمة القديمة وحكمائها حتى ان مفسرين كثيرين اضطروا الى امالة ظواهر الايات الى مذهبهم مما ادىّ الى اسدال ستار على اعجاز القرآن، الى حد ما.

أما الحكمة الجديدة المسماة الفلسفة الحديثة فتقول بما يفيد انكار السموات ازاء ما كانت تدّعيه الفلسفة القديمة من ان السموات غير قابلة للاختراق والالتئام. فقد فرّط هؤلاء كما أفرط اولئك. وعجز الاثنان عن بيان الحقيقة بياناً شافياً.

أما حكمة القرآن الكريم المقدسة فانها تدع ذلك الافراط والتفريط متخذة الحد الوسط، فهي تقول:

ان الصانع جل جلاله خلق سبع سموات طباقاً، أما النجوم السيارة فهي تسبح وتسبّح في السماء كالاسماك في البحر. وقد جاء في الحديث الشريف (ان السماء موج مكفوف)[1] اي كبحر استقرت امواجه. هذه الحقيقة نثبتها بسبع قواعد وبسبعة وجوه من المعاني، وباختصار شديد:

---

(١) جزء من حديث اخرجه الامام احمد في مسنده (٢/٣٧٠) والترمذي برقم (٣٢٩٨) وفي تحفة الاحوذي برقم (٣٣٥٢) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. عزاه صاحب التحفة لأحمد وابن ابي حاتم والبزار، وفي مجمع الزوائد (١٣٢/٨) جزء من حديث رواه الطبراني في الاوسط، وفيه ابو جعفر الرازي، وثقه ابو حاتم وغيره وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات. وانظر فيه (١٢١/٧) وتفسير ابن كثير سورة الحديد.

القاعدة الاولى:

انه قد ثبت علماً وفلسفة «حكمة» ان هذا الفضاء الوسيع مملوء بمادة تُسمى الاثير، وليس خالياً فارغاً لانهاية له.

القاعدة الثانية:

انه ثابت علماً وعقلاً بل مشاهدةً؛ ان رابطة قوانين الاجرام العلوية – كالجاذبية والدافعة – وناشرةَ القوى الموجودة في المادة وناقلتَها – كالضياء والحرارة والكهرباء – انما هي مادة موجودة في ذلك الفضاء مالئة له.

القاعدة الثالثة:

انه ثابت بالتجارب ان مادة الاثير – مع بقائها أثيراً – لها انماط مختلفة من الاشكال ولها صور متنوعة كسائر المواد، فكما يحصل ثلاثة انواع من اشكال المواد: الغازية والسائلة والصلبة من المادة نفسها كالبخار والماء والثلج، كذلك لامانع عقلاً من أن تكون سبعة انواع من الطبقات من مادة اثيرية، ولا اعتراض عليه.

القاعدة الرابعة:

انه لو أُنعم النظر في الاجرام العلوية يُرى في طبقاتها تخالفٌ، فكما ان الطبقة التي تحوي درب التبانة المشاهد كسحاب، لاتشبه طبقة النجوم الثوابت البتة، حتى كأن نجوم طبقة الثوابت ثمار ناضجة مكتملة كفواكه الصيف، بينما نجوم لاتحد لدرب التبانة المشاهد كسحاب تنعقد مجدداً وتتكامل. وطبقة الثوابت نفسها لاتشبه ايضاً المنظومة الشمسية بحدس صادق. وهكذا يُدرك بالحدس والحس تخالف المنظومات السبع والطبقات السبع.

القاعدة الخامسة:

لقد ثبت حدساً وحسّاً واستقراءً وتجربة أنه اذا وقع التشكل والتنظيم في مادة تتولد منها مصنوعات اخرى فانها تأخذ اشكالاً مختلفة وطبقات متباينة.

فمثلاً حينما تبدأ التشكلات في معدن الالماس يتولد منه الرماد والفحم والألماس. وحينما تبدأ النار بالتشكل تتميز جمراً ولهباً ودخاناً. وعندما يمزج مولد الماء ومولد الحموضة يتشكل منهما الماء والثلج والبخار.

يفهم من هذا أنه اذا وقع التشكل في مادةٍ ما تنقسم الى طبقات، لذا فالقدرة الفاطرة لما شرعت بالتشكيل في مادة الاثير خلقت منها سبعة انواع من سموات على طبقات مختلفة كما جاءت في قوله تعالى: ﴿ **فسويٰـهن سبع سمٰـوات** ﴾.

القاعدة السادسة:

ان هذه الامارات المذكورة تدل بالضرورة على وجود السموات وعلى تعددها، فالسموات اذاً متعددة قطعاً، وحيث أن المخبر الصادق قد قال بلسان القرآن: هي سبعة، فهي سبعة.

القاعدة السابعة:

ان التعابير: سبعة، وسبعين وسبعمائة وامثالها تفيد الكثرة في اساليب اللغة العربية، اي يمكن ان يضم تلك الطبقات السبع الكلية طبقات كثيرة جداً.

حاصل الكلام:

ان القدير ذا الجلال خلق سبع سموات طباقاً من مادة الاثير، وسوّاها ونظّمها بنظام عجيب دقيق، وزرع فيها النجوم. ولما كان القرآن الكريم خطاباً ازلياً للجن والانس بطبقاتهم كافة، فكل طبقة من البشر تأخذ اذاً حصتها من كل آية من القرآن الكريم، وكل آية ايضاً تُشبع أفهام كل طبقة من الناس، اي لكل آية معان متنوعة متعددة ضمناً واشارة.

نعم! ان سعة خطاب القرآن وشمول معانيه واشاراته ومراعاته درجات افهام الطبقات عامة ومداركهم من ادنى العوام الى أخص الخواص تبين: ان كل آية لها وجه متوجه الى كل طبقة من الناس.

ولأجل هذا فقد فَهِمتْ سبعُ طبقات بشرية سبعَ طبقات مختلفة من المعاني ضمن المعنى الكلي للآية الكريمة: ﴿ **سبع سمٰـوات** ﴾. كالآتي:

يفهم ذوو النظر القاصر والفكر المحدود من الناس انها: طبقات الهواء النسيمية.

والذين اغتروا بعلم الفلك يفهمونها: النجوم المعروفة بالسيارات السبع ومداراتها لدى الناس.

ومن الناس من يفهمها: سبع كرات سماوية اخرى شبيهة بارضنا التي هي مقر ذوي الحياة.

وتفهمها طائفة من البشر: سبع منظومات شمسية اولاها منظومتنا هذه وانقسام المنظومة الشمسية الى سبع طبقات.

وطائفة اخرى من البشر تفهمها: انقسام تشكلات الاثير الى سبع طبقات.

وطبقة اخرى واسعة الادراك والفهم، تفهم: ان السموات المرئية كلها، المرصعة بالنجوم ليست الاّ سماء واحدة وهي السماء الدنيا، وهناك ست سموات اخرى فوقها لاتُرى.

وطبقة سامية من الناس وهم الطبقة السابعة ذوو ادراك عالٍ لايرون انحصار سبع سموات في عالم الشهادة فقط، بل هي سبع سموات تسقّف وتحيط بالعوالم الاخروية والغيبية والدنيوية والمثالية.

وهكذا ففي كلية هذه الآية الكريمة معان اخرى كثيرة جزئية جداً شبيهة بهذه الطبقات السبع المذكورة من المعاني التي تراعي افهام سبع طبقات من الناس. فكلٌ يستفيض بقدر استعداده من فيض القرآن ويأخذ رزقه من المائدة السماوية العامرة.

فما دامت هذه الآية الكريمة تحوي معاني مصدّقة لها الى هذا الحد، فان انكار الفلاسفة الحاليين المحرومين من العقل وجحود علماء الفلك المخمورين، السموات، واتخاذ هذا الانكار وسيلة تعرضٍ لأمثال هذه الآية الجليلة، ان هو الاّ كرمي الصبيان الفاسدي المزاج النجومَ العوالي بالحجارة بغية اسقاط واحدة منها! ذلك:

لأن معنى واحداً لهذه الآية من بين تلك المعاني الكثيرة إن كان صدقاً فان المعنى الكلي يكون صدقاً وصواباً، حتى لو ان فرداً واحداً من تلك المعاني، لاوجود له في الواقع إلاّ في ألسنة الناس، يصح أن يكون داخلاً ضمن ذلك المعنى الكلي، رعاية لأفكار العامة. فكيف ونحن نرى كثيراً جداً من افراده صدقاً وحقيقةً.

الا ترى هؤلاء المغمورين بسُكر الجغرافية وعلم الفلك الذين لاينصفون، كيف يقعون في خطأ فيغمضون عيونهم عن المعنى الكلي الذي هو حق وحقيقة وصدق، فلا يرون مصدّقات الآية الكثيرة جداً، ويتوهمون معنى الآية منحصراً في فرد خيالي عجيب. فرشقوا الآية الكريمة بالحجارة، فارتدت على رؤوسهم فكسرتها، ففقدوا صوابهم وايمانهم.

محصل الكلام:

لما عجز ارباب الافكار المادية الملحدة كالشياطين والجن، من الصعود الى الطبقات السبع للقرآن الكريم النازل على القراءات السبع والوجوه السبعة والمعجزات السبع والحقائق السبع والاركان السبعة، جهلوا ما في الايات من معان. فيخبرون احكاماً كاذبة خاطئة. فينزل على رؤوسهم شهابٌ رصدٌ من نجوم تلك الايات بالتحقيقات العلمية المذكورة فتحرقهم.

نعم! انه لايمكن الرقي الى تلك السموات القرآنية بفلسفة فلاسفة يحملون افكاراً شيطانية خبيثة. وانما يمكن الصعود الى نجوم تلك الآيات بمعراج الحكمة الحقيقية ويمكن الطيران اليها بجناح الايمان والاسلام.

اللهم صل على شمس سماء الرسالة وقمر فلك النبوة وعلى آله وصحبه نجوم الهدى لمن اهتدى.

﴿ سُبحَانَكَ لاعِلمَ لنا إلاّما عَلمْتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

اللهم يارب السموات والارضين زيّن قلوب كاتب هذه الرسالة ورفقائه بنجوم حقائق القرآن والايمان... آمين.

اللمعة الثالثة عشرة

حكمة الاستعاذة

تخص حكمة «اعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقل ربِّ اعـوذ بك من همزات الشياطين ۞ واعـوذ بك ربِّ ان يحضرون﴾

(المؤمنون:٩٧-٩٨)

هذا البحث يخصّ حكمة الاستعاذة من الشيطان. ستكتب ثلاث عشرة إشارة بشكل مجمل، حيث أن قسماً منه قد أُثبت ووُضّح في «الكلمة السادسة والعشرين» وفي رسائل اخرى بصورة متفرقة.

الاشارة الاولى

سؤال: ان الشياطين ليس لهم تدخل في شؤون الخلق والايجاد في الكون، وأن الله سبحانه وتعالى - برحمته وعنايته - ظهيرٌ لأهل الحق، فضلاً عن أن جمال الحق وحُسنه يشوّق أهله ويؤيدهم، بعكس الضلالة المستهجنة بقبحها المنفّر، فما الحكمة في أن حزب الشيطان هو الغالب في اكثر الاحوال، و ما السر في إستعاذة اهل الحق في كل حين بالله سبحانه من شرّ الشيطان؟.

الجواب: السرّ والحكمة هما كما يأتي:

ان الضلالة والشرّ بأكثريتها المطلقة شئٌ عدمي وسلبي وغير أصيل، وهي إخلال وتخريب. أما الهداية والخير فهي بأكثريتها المطلقة ذات وجود وشئ ايجابي واصيل وهي اعمارٌ وبناء. ومن المعلوم أنه يتمكن رجلٌ واحد في يوم واحد ان يهدم ما بناه عشرون رجلاً في عشرين يوماً، وأن حياة الانسان التي تبقى باستمرار اعضائه الاساس ضمن شرائط الحياة، مع أنها تخصّ قدرة الخالق جلّ وعلا، الاّ أنها تتعرض الى الموت - الذي هو عدمٌ بالنسبة لها - إذا ما قطع ظالمٌ عضواً من جسم ذلك الانسان. ولهذا سار المَثل: «التخريبُ أسهلُ» من التعمير.

فهذا هو السرّ في أن اهل الضلالة بقدرتهم الضعيفة حقاً يغلبون احياناً أهل الحق الأقوياء جداً.

ولكن لأهل الحق قلعة منيعة ما ان يتحصنوا بها ويلوذوا بها، فلايجرؤ ان يتقرب اليهم اولئك الأعداء المخيفون ولايمكنهم أن يمسوهم بسوء. ولئن اصابهم شئ منهم - مؤقتاً - فالفوز والثواب الأبدي الذي ينتظرهم في بشرى القرآن الكريم ﴿**والعاقِبَةُ للمُتّقينَ**﴾ (الأعراف: ١٢٨) يُذهب أثر ذلك الضرّ والقرح.

وتلك القلعة الشامخة، وذلك الحصن المنيع هي الشريعة الإلهية وسنّة النبي ﷺ.

الاشارة الثانية

وهي المسألة التي تخطر في أذهان الكثيرين:

إن خلق الشياطين وهم الشر المحض وتسليطَهم علي اهل الايمان، وسوقهم كثيراً من الناس الى الكفر ودخولهم النار بمكايدهم، هو قبحٌ ظاهر. وأمرٌ مُرعب. فيا تُرى كيف ترضى رحمةُ ذلك الرحيم المطلق، ويسمح جمال ذلك الجميل المطلق وهو الرحمن ذو الجمال، بهذا القُبح غير المتناهي والمصيبة العظمى؟!.

الجواب:

انه إزاء الشرور الجزئية للشياطين، تكمن في وجودهم كثير من المقاصد الخيّرة الكلية وكمالات، ترقى بالانسان في سلم الكمال.

نعم، كما ان هناك مراتب كثيرة بدءاً من البذرة الى الشجرة الباسقة، كذلك للاستعدادات الفطرية الكامنة في ماهية الانسان من المراتب والدرجات ما تفوق ذلك، بل قد تصل الى المراتب الموجودة بين الذرة والشمس. ولكي تظهر هذه الاستعدادات وتنبسط لابد لها من حركة، ولابد لها من تفاعل وتعامل. فحركة لولب الرقيّ ونابض السموّ في ذلك التعامل هي بـ« المجاهدة ». ولاتحصل هذه « المجاهدة » الاّ بوجود الشياطين والاشياء المضرّة، اذ لولا تلك « المجاهدة » لظلّت مرتبة الانسان ثابتة كالملائكة، وعندها ما كانت لتظهر تلك الاصناف السامية من الناس التي هي بحكم الآلاف من الانواع في النوع الانساني. وحيث انه ليس من الحكمة والعدالة بشئ ان يُترك الخيرُ الكثير جداً تجنباً لحصول شرّ جزئي، فان انزلاق كثير من الناس باتباع خطوات الشيطان، لايحمل اهمية كبيرة مادام التقويم والاهمية يأخذ « النوعية » بنظر الاعتبار ولا ينظر الى الكمية الاّ قليلاً، بل قد لا ينظر اليها.

مثال ذلك:

شخص لديه ألف وعشرٌ من البذور، زرعها في التراب، فجعلها تتعرض للتفاعلات الكيمياوية. فاذا أنبتت عشرٌ من تلك البذور وأينعت، فان المنافع الحاصلة منها تفوق – بلا شك – خسارة الألف بذرة التي تعرضت للتلف والفساد.

وهكذا، فان المنافع والمنزلة والاهمية التي حازتها البشرية من عشرة أشخاصٍ كاملين يتلألأون كالنجوم في سمائها، والذين أخذوا بيد الانسانية الى مراقي الفلاح، وأضاءوا السبُل أمامهم واخرجوهم الى النور بمجاهدتهم للنفس والشيطان.. لاشك أنها تزيل ما يلحق بها من أثر الضرر الناجم من كثرة الداخلين في حمأة الكفر من الضالين الذين يعدّون من جنس الحشرات لتفاهتهم ودناءتهم. لهذا فقد رضيت العدالةُ الإلهية وحكمتُها وسمحت الرحمة الربّانية بوجود الشياطين وتسلّطها.

فيا معشر أهل الايمان! ان درعكم المنيع لصد اولئك الاعداء، هو التقوى المصنوعة في دوحة القرآن الكريم. وان خنادقكم الحصينة هي سُنّة نبيّكم عليه افضل الصلاة والسلام. واما سلاحكم فهو الاستعاذة والاستغفار والالتجاء الى الحرز الإلهي.

الاشارة الثالثة

سـؤال:

أين يكمن السرّ والحكمة في وعيد القرآن المرعب وتهديده لأهل الضلالة تجاه عملٍ جزئي صَدَر منهم، مما لايتناسب بظاهر العقل مع بلاغته التي تتّسم بالعدالة والانسجام وأسلوبه المعجز الرزين. اذ كأنه يحشّد الجيوش الهائلة تجاه شخص عاجز لا حظّ له في المُلك، فيُكسِبُه منزلة شريك متجاوز حدّه؟

الجواب: ان سر ذلك وحكمته:

ان في وسع الشياطين ومَن تبعهم أن يقوموا بتخريب مدمّر بحركة بسيطة تصدر منهم، لأنهم يسلكون طريق الضلالة، فيلحقون بفعل جزئي يصدر منهم خسائر جسيمة بحقوق الكثيرين، مَثلهُم في هذا كمثل رجلٍ ركب سفينة تجارية عامرة للملك ثم خرقها خرقاً بسيطاً، او ترك واجباً كان عليه أن يؤديه، فأهدر بفعله هذا جهدَ مَن في السفينة، وأفسد عليهم جَني ثمار عملهم فيها، وأبطل نتائج أعمال كل مَن له علاقة بها، لذا سيهدده الملك الذي يملك السفينة تهديداتٍ عنيفة، باسم جميع رعاياه في السفينة وجميع المتضررين فيها، وسيعاقبه أشد العقاب حتماً، لا لحركته الجزئية أو تركه الواجب، وانما للنتائج المترتبة على تلك الحركة أو الترك البسيط، وليس لتجاوزه حمى الملك، وانما لتعدّيه على حقوق الرعية جميعها.

وكذلك سفينة الارض، ففيها مع المؤمنين اهل الضلال من حزب الشيطان الذين يستخفّون بنتائج الوظائف الحكيمة للموجودات الرائعة بل يعدونها عبثاً وباطلاً، فيحقّرون بذلك جميعها، مما تشكّل خطيئاتهم ومعاصيهم - الجزئية في الظاهر- تجاوزاً واضحاً وتعدّياً صارخاً على حقوق الموجودات كافةً، لذا فان الله سبحانه وهو ملك الأزل والابد يحشّد التهديدات المروّعة ضد ذلك التدمير الصادر من أهل الضلالة. وهذا هو الانسجام التام في اسلوب القرآن الكريم والتوافق الرائع، وهو الحكمة البالغة الخالصة المستترة في روح البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهي بعيدة كل البعد ومنزّهة كل التنزيه عن المبالغة التي هي الاسراف في الكلام.

فيا هلاك ويا ضياع مَن لا يحصّن نفسه بحصن منيع من اولئك الاعداء الألداء الذين يقومون بتخريب مروّع وتدمير هائل بحركاتهم الجزئية.

فيا اهل الايمان! أمامكم الحصن السماوي المنيع.. انه القرآن الكريم.. أدخلوا فيه، وانقذوا انفسكم..

الاشارة الرابعة

لقد اتفق العلماء المحققون وأهل الكشف على أن العدم شرٌّ محض.. والوجود خيرٌ محض.

نعم، ان الخير والمحاسن والكمالات - بأكثريتها المطلقة - تستند الى الوجود وتعود اليه، فأساسها ايجابي ووجودي، أي ذو اصالة وفاعلية، وإن بَدَت ظاهراً سلبية وعدمية.

وان اساس وأصل الضلالة والشر والمصائب والمعاصي والبلايا وامثالها من المكاره هو عدمٌ وسلبيٌ. ومافيها من القبح والسوء فناجمان من عدميتها، وان بدت ظاهراً ايجابية ووجوداً، لأن اساسها عدم ونفي اي بلا اساس وبلا فعل ايجابي.

ثم ان وجود البناء يتقرر بوجود جميع أجزائه كما هو ثابت بالمشاهدة، بينما عدمه ودماره يمكن ان يحصل بتهدّم احد اركانه وعدمه.

اي أنّ الوجود يحتاج الى علّةٍ موجودة، ولابد أن يستند الى سبب حقيقي، بينما العدمُ يمكن أن يستند الى امور عدمية ويكون الامر العدمي علّةً لشئ معدوم.

فبناءً على هاتين القاعدتين:

فان شياطين الانس والجن ليس لهم ولو بمقدار ذرة واحدة نصيبٌ في الخلق والايجاد وما تكون لهم اية حصة في المُلك الإلهي، مع أن لهم آثاراً مخيفة وانواعاً من الكفر والضلالة واعمالاً شريرة ودماراً هائلاً، اذ لايقومون بتلك الامور بقدراتهم وقوتهم الذاتية، بل ان اغلب اعمالهم ليس فيها فعلٌ وقدرة حقيقية، وانما هي من نوع: ترك الفعل، وتعطيل العمل، وصد للخير، فيعملون الشرّ بالصرف عن الخير، فتحصل الشرور.

لأن الشرور والمهالك هي من نوع الهدم والتخريب فلا يلزم أن تكون علّتها ايجاداً فاعلاً، ولاقدرةً موجدة، اذ يمكن التخريب الهائل بأمر عدمي، وبافساد شرط. ولعدم وضوح هذا السرّ عند المجوس فقد اعتقدوا بوجود خالق للخير وأسموه «يزدان» وخالق للشر وأسموه «أهريمان» بينما لا يعدو هذا الاله الموهوم سوى الشيطان الذي يكون سبباً للشرور ووسيلة لها، بالارادة الجزئية وبالكسب، دون الايجاد.

فيا اهل الايمان! ان امضى سلاحكم ضد هذه المهالك المفزعة للشياطين واهم وسيلتكم للبناء والتعمير هو: الاستغفار والالتجاء الى الله سبحانه وتعالى بقولكم: أعوذ بالله. واعلموا ان قلعتكم هي سنة رسولكم عليه افضل الصلاة والسلام.

الاشارة الخامسة

انه على الرغم من توفر اسباب الهداية والاستقامة ووسائل الارشاد امام اهل الايمان بما بيّنه الله سبحانه لهم في كتبه المقدسة كافة من مثوبة وهي نعيم الجنّة ومن عقاب أليم وهو نار جهنم، ومع ما كرّره سبحانه من توجيه وتنبيه وترغيب وتحذير.. يُغلبُ اهل الايمان امام الدسائس الدنيئة والضعيفة التافهة الصادرة عن حزب الشيطان!!.

كان هذا يأخذ قسطاً كبيراً من تفكيري، إذ كيف لايهتم صاحب الايمان بذلك الوعيد المخيف من ربّ العالمين؟. وكيف لايزول ايمانه وهو يعصي ربّه مُتَّبعاً خطوات الشيطان ومكايده الضعيفة كما في قوله تعالى: ﴿ **إنّ كَيدَ الشّيطان كانَ ضَعيفاً** ﴾ (النساء:٧٦) ؟ حتى ان بعضاً من أصدقائي المقرّبين بعد أن سمع منّي مائةً من دروس الحقائق الايمانية وصدّق بها تصديقاً قلبياً، ومع شدة علاقته وحسن ظنّه بي فقد انجرف لثناءِ تافهٍ ورخيص من رجلٍ فاسد ميّت القلب، فانجذب اليه، مما دفعه ليكون في الصف المعادي لي. فقلت في نفسي: يا سبحان الله!! هل يمكن للانسان أن يهوي الى هذا الدرك؟. كم كان هذا الرجل ذا معدن رخيص؟ فأثِمتُ من اغتياب هذا المسكين.

ثم انكشفت ولله الحمد حقائق الاشارات السابقة فأنارت كثيراً من الامور الغامضة.. فعلمت بذلك النور: ان تكرار الترغيب والحث في القرآن الكريم ضروري جداً، ومناسب وملائم للحال.. وان انخداع اهل الايمان بمكايد الشيطان لا ينجم عن عدم الايمان، ولامن ضعفه.. وانه لايكفّر مَن ارتكب الكبائر. فالمعتزلة وقسمٌ من

الخوارج قد أخطأوا حين كفّروا مُرتكب الكبائر او جعلوه في منزلةٍ بين المنزلتين.. وان صديقي المسكين، الذي ضحّى بتلك الدروس الايمانية لثناء شخصٍ تافه، لم يسقط في الهاوية كثيراً، ولم ينحط الى الحضيض كلياً – كما تصوّرت – فشكرتُ الله سبحانه الذي أنقذني من تلك الورطة.

ذلك لأن الشيطان – كما قلنا سابقاً – بأمرٍ سلبي جزئي منه يورد الانسان المهالك الخطيرة.. وأن النفس التي بين جَنبيّ الانسان دائمة الانصات الى الشيطان.. وان قوته الشهوانية والغضبية هما بمثابة جهاز لاقط وجهاز توصيل لمكايد الشيطان. ولذلك فقد خصص الله سبحانه وتعالى اسمين من اسمائه الحسنى (الغفور، الرحيم) ليتجليّا بالتجليّ الاعظم ويتوجها الى اهل الايمان، واوضح في القرآن الكريم ان أعظم احسانٍ له للأنبياء عليهم السلام هو: المغفرة.. فدعاهم الى: الاستغفار. وانه سبحانه بتكراره «بسم الله الرحمن الرحيم» وجعلها بدءاً لكل سورة ولكل أمرٍ ذي بال، جعل رحمتَه التي وسعت كل شئ هي الملاذ والملجأ لأهل الايمان، وهي الامان والنجاة لهم من الشيطان. وجعل الحاجز المانع لهم من الشيطان ودسائسه هو في: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وذلك بأمره: ﴿ **فاستَعِذْ بالله** ﴾(النحل:٩٨).

الاشارة السادسة

ان اخطر دسائس الشيطان هو أنه يُلبس على بعض ذوي القلوب الصافية والحس المرهف: تخيّلَ الكفر بتصديق الكفر، ويُظهر لهم تصوّرَ الضلالة تصديقاً للضلالة نفسها، ويجلب الى خيالهم خواطر قبيحة في حق الاشخاص والامور المنزّهة المقدسة، ويوهمهم بالشك في بعض يقينيات الايمان بجعل الامكان الذاتي في صورة الامكان العقلي. وعندئذ يظنّ هذا المسكين المرهف الحسّ أنه قد هوى في الكفر والضلالة، ويتوهم أنه قد زال يقينه الايماني، فيقع في اليأس والقنوط. ويكون بيأسه هذا اضحوكة للشيطان الذي ينفث في يأسه القاتل، ويضرب دوماً على وتره الحسّاس، وينفخ في التباساته ويثيرها، فاما أن يخلّ بأعصابه وعقله، أو يدفعه الى هاوية الضلالة.

وقد بحثنا في بعض الرسائل مدى تفاهة هذه الهمزات والوساوس، وكيف أنها لاسند لها ولااساس، أما هنا فسنجملها بما يأتي:

كما ان صورة الحيّة في المرآة لاتلدغ، وانعكاس النار فيها لايحرق، وظل النَجَس فيها لا ينجّس، كذلك ما ينعكس على مرآة الخيال او الفكر من صورِ الكفر والشرك، وظلال الضلالة، وخيالات الكلمات النابية والشتم، لاتفسد العقيدة واليقين ولاتغير الايمان، ولاتثلم أدب التوقير والاحترام. ذلك لانه من القواعد المقررة: «تخيّل الشتم ليس شتماً، وتخيل الكفر ليس كفراً، وتصوّرَ الضلالة ليس ضلالةً».

أما مسألة الشك في الايمان، فان الاحتمالات الناشئة من «الامكان الذاتي» لاينافي اليقين ولايخلّ به. اذ من القواعد المقررة في علم اصول الدين: «أن الامكان الذاتي لاينافي اليقين العلمي».

فمثلاً: نحن على يقين من أن بحيرة «بارلا» مملوءة بالماء ومستقرةٌ في مكانها،الاّ انه يمكن أن تخسف في هذه اللحظة. فهذا امكان ذاتي واحتمالٌ، وهو من الممكنات. ولكن لأنه لم ينشأ من أمارة، او دليل، فلا يكون «امكاناً ذهنياً» حتى يوجب الشك. لأن القاعدة المقررة في علم اصول الدين أنه: «لاعبرة للاحتمال غير الناشئ عن دليل» بمعنى: لايكون الاحتمال الذاتي الذي لم ينشأ عن أمارة امكاناً ذهنياً، فلا أهمية له كي يوجب الشك. فبمثل هذه الامكانات والاحتمالات الذاتية يظن المسكين المبتلى انه قد فقد يقينَه بالحقائق الايمانية. فيخطر بباله مثلاً خواطر كثيرة من الامكان الذاتي من جهة بشرية الرسول ﷺ، ولاشك أنها لا تخلّ بيقينه وجزمه الايماني، ولكن ظنه أن هذا يضرّ هو الذي يسبب له الضرر.

واحياناً اخرى تُلقي لَمّةُ الشيطان – التي هي على القلب – كلاماً لايليق بجلال الله سبحانه وتعالى. فيظن صاحبه أن قلبه هو الذي فَسَد فصدر عنه هذا الكلام، فيضطرب ويتألم. والحال أن اضطرابه وخوفه وعدم رضاه دليلٌ على أن تلك الكلمات لم تكن صادرةً من قلبه، وانما هي من اللمّة الشيطانية، او أن الشيطان يخيّلها اليه ويذكّره بها.

وكذلك فان من بين اللطائف الانسانية – وهي بضع لطائف لم استطع تشخيصها – ما لا ترضخ للارادة والاختيار، ولا تدخل تحت وطأة المسؤولية – فتتحكم احياناً وتسيطر دون أن تنصت لنداء الحق، وتلج في أمور خاطئة، وعندئذ يُلقي الشيطان في رَوع هذا الانسان المبتلى: اِن فطرتَك فاسدة لا تنسجم مع الايمان والحق، ألا ترى أنها تلج بلا اِرادة في مثل هذه الامور الباطلة؟ اذن فقد حكم عليك قَدَرك بالتعاسة وقضى عليك بالشقاء!!. فيهلك ذلك المسكين في هذا اليأس المدمّر.

وهكذا فان حصن المؤمن الحصين من الدسائس الشيطانية المتقدّمة هي المُحكمات القرآنية والحقائق الايمانية المرسومةُ حدودُها بدساتير العلماء المحققين والاصفياء الصالحين. أما الدسائس الاخيرة فانها تُردّ بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى وباهمالها، لأن من طبيعة الوساوس أنها تكبر وتتضخم كلما زاد الاهتمام بها. فالسُنّة المحمدية للمؤمن هي البلسم الشافي لمثل هذه الجراحات الروحية.

الاشارة السابعة

سؤال:

ان أئمة المعتزلة عندما اعتبروا أن ايجاد الشر شرٌّ، لم يردّوا الى الله سبحانه خلقُ الكفر والضلالة، فكأنهم بهذا ينزّهونه سبحانه ويقدسونه، فقالوا: «ان البشرَ هو خالقُ لأفعاله» فضلّوا بذلك. وكذلك قالوا: يزول ايمان من ارتكب الكبائر لأن صدقَ العقيدة في الله لايتلاءم واِرتكاب مثل هذه الخطايا والذنوب، حيث أن الانسان الذي يحذر مخالفة القوانين في الدنيا رهبةً من السجن الوقتي، اِن ارتكب الكبائر دون أن يبالي لغضب الخالق العظيم، ولالعذاب جهنم الأبدي، لابد أن يكون ذلك دليل عدم ايمانه.

جواب الشّـق الاول من السـؤال: هو ما أوضحناه في «رسالة القدر» وهو:

ان خلق الشرّ ليس شرّاً، وانما كسبُ الشرّ شرٌّ، لأن الخلق والايجاد يُنظر اليه من حيث النتائج العامة. فوجود شرٍ واحد، اِن كان مقدمةً لنتائج خيّرة كثيرة، فان ايجاده يصبح خيراً باعتبار نتائجه، اي يدخل في حكم الخير.

فمثلاً: النار لها فوائد ومنافع كثيرة جداً، فلايحق لأحد أن يقول: ان ايجاد النار شرّ اذا ما أساء استعمالها باختياره وجعلها شرّاً ووبالاً على نفسه.

وكذلك خلقُ الشياطين وايجادهم فيه نتائج كثيرة ذات حكمة للانسان، كسموّه في سلم الكمال والرقي. فلا يسيغ لمن استسلم للشيطان - باختياره وكسبه الخاطئ - ان يقول: ان خلق الشيطان شرّ. اذ قد عمل الشر لنفسه بكسبه الذاتي.

أما الكسب الذي هو مباشرةٌ جزئيةٌ للامر، فانه يصبح شراً لأنه وسيلةٌ تُفضي الى شرّ خاصٍ معين، فيكون كسبُ الشرّ بذلك شرّاً، بينما لايكون الايجاد شراً، بل يكون خيراً، لأنه يرتبط بجميع النتائج المترتبة فلا يكون اذن خلق الشرّ شرّاً.

وهكذا ولعدم ادراك المعتزلة هذا السرّ ضلّوا، اذ قالوا: إن خلق الشر شرٌ وايجاد القُبح قبحٌ. فلم يردّوا الشر الى الله سبحانه وتعالى تقديساً وتنزيهاً له، وتأولوا الركن الايماني: «وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى».

أما الشق الثاني: وهو كيف يبقى مؤمناً من ارتكب الكبائر؟

فجوابه:

اولاً: لقد اوضحت الاشارات السابقة أخطاءهم بصورة قاطعة فلا حاجة للاعادة.

ثانياً: إن النفس الانسانية تُفضّل درهماً من اللذة الحاضرة المعجّلة على رطل من اللذة الغائبة المؤجّلة، وهي تتحاشى صفعةً حاضرة اكثر من تحاشيها سنة من عذاب في المستقبل. وعندما تهيج أحاسيسُ الانسان لاترضخ لموازين العقل، بل الهوى هو الذي يتحكم، فيرجح عندئذ لذةً حاضرةً ضئيلة جداً على ثواب عظيم في العقبى، ويتجنب ضيقاً جزئياً حاضراً اكثر من تجنبه عذاباً أليماً مؤجلاً. ولما كانت الدوافع النفسانية لاترى المستقبل بل قد تنكره، وان كان هناك حثّاً لها من النفس وعوناً، فان القلب والعقل اللذين هما محل الايمان، يسكتان، فيُغلبان على أمرهما. فلا يكون عندئذ ارتكاب الكبائر ناتجاً من عدم الايمان، بل من غلبة الهوى وسيطرة الوهم والحسّ المادي، وانهزام العقل والقلب وغَلَبة كل اولئك عليهما.

ولقد فُهم من الاشارات السابقة بأن طريق الفساد والهوى سهلة جداً لأنها تخريب وهدم، لذا يسوق شيطانُ الانس والجن الانسانَ اليها بكل سهولة ويسر.

وانه لمحيّر جداً أن ترى قسماً من الناس الضعفاء يتبعون خطوات الشيطان لتفضيلهم لذّة زائلة ـ بمقدار جناح بعوضة ـ في هذه الدنيا الفانية، على لذائذ ذلك النعيم الخالد. في حين يفوق نورٌ أبدي بمقدار جناح بعوضة من ذلك العالم السرمدي الخالد جميع اللذات والنِعم التي اكتسبها الانسان طوال حياته، كما هو ثابت في الحديث الشريف (١).

وهكذا من اجل هذه الحِكَم والاسرار، كرر القرآن الكريم الترغيب والترهيب واعادهما ليزجر المؤمن ويجنبه الذنوب والآثام ويحثه على الخير والصلاح.

ولقد جال في ذهني يوماً سؤالٌ حول هذا التكرار في التوجيه والارشاد القرآني وهو: ألاتكون هذه التنبيهات المستمرة مدعاة لجرح شعور المؤمنين في ثباتهم وأصالتهم واظهارهم في موقف لايليق بكرامة الانسان؟. لأن تكرار الامر الواحد على الموظف من آمره يجعله في موقف يظن كأنه متّهم في اخلاصه وولائه! بينما القرآن الكريم يكرّر أوامره باصرار على المؤمنين المخلصين.

وحينما كان هذا السؤال يعصر ذهني كان معي جمعٌ من الاصدقاء المخلصين فكنت أذكّرهم وانبّههم باستمرار كي لاتغرّهم دسائس شياطين الانس، فلم أرَ امتعاضاً أو اعتراضاً منهم قط، ولم يقل أحدٌ منهم: إنك تتّهمنا في اخلاصنا. ولكني كنت اخاطب نفسي وأقول: أخشى انني قد أسخطتهم بتوجيهاتي المتكررة لهم وكأني أتهمتهم في وفائهم وثباتهم! وبينما أنا في هذه الحالة انكشفت الحقائق المثبتة والموضحة في الاشارات السابقة، فعلمت ان اسلوب القرآن الحكيم في تكرار التنبيه مطابقٌ لمقتضى الحال، وضروري جداً، وليس فيه أية مبالغة ولا إسراف قط، ولا اتهامٍ للمخاطبين، حاش لله، بل هو حكمةٌ خالصة، وبلاغة محضة. وعلمت كذلك لِمَ لم يمتعض ويتكدّر اولئك الاصدقاء الاعزاء من ترديدي النصح لهم؟

وخلاصة تلك الحقيقة هي:

---

(١) اشارة الى الحديث الشريف: «لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة، ما شرب الكافر منها جرعة ماء». حديث صحيح: رواه الترمذي ٢٤٢٢ (تحفة) وقال: حديث صحيح غريب من هذا الوجه. والضياء في المختار عن سهل بن سعد (انظر صحيح الجامع الصغير ٥١٦٨ قال المحقق: صحيح وفصل عليه القول في الصحيحة ٩٤٣).

ان الفعل الجزئي القليل الذي يصدر عن الشياطين يكون سبباً لحصول شرور كثيرة، لأنه تخريب وهدم، لذا كان لابد لاولئك الذين يسلكون طريق الحق والهداية أن يُجنبّوا ويُنَبهوا كثيراً، ويأخذوا حذرهم ويُمَدّ لهم يدُ العون دائماً لكثرة حاجتهم اليها. لهذا يقدّم الله سبحانه وتعالى في ذلك التكرار عوناً وتأييداً لهم بعدد ألف اسم من اسمائه الحسنى، ويمدّهم بآلاف من ايادي الرحمة والشفقة لاسنادهم وامدادهم، فلا يقدح به كرامةَ المؤمن بل يقيه ويحفظه، ولا يهوّن شأن الانسان بل يظهر ضخامة شر الشيطان.

فيا اهل الحق واهل الهداية! دونكم سبيل النجاة والخلاص من مكايد شيطان الجن والانس المذكورة فاسلكوها.. اجعلوا مستقركم طريق الحق وهو طريق اهل السنّة والجماعة.. وادخلوا القلعة الحصينة لمحكمات القرآن المعجز البيان.. واجعلوا رائدكم السنّة النبوية الشريفة تَسلموا وتنجوا باذن الله..

الاشارة الثامنة

سؤال:

لقد اثبتّ في الاشارات السابقة أن طريق الضلالة تجاوزٌ وتعدٍّ وتخريب، وسلوكها سهل وميسور للكثيرين، بينما أوردت في رسائل أخرى دلائل قطعية على أن طريق الكفر والضلالة فيها من الصعوبة والمشكلات ما لايمكن ان يسلكها أحد، وطريق الايمان والهداية فيها من السهولة والوضوح بحيث ينبغي ان يسلكها الجميع؟!.

الجواب: ان الكفر والضلالة قسمان:

الاول: هو نفيٌ للأحكام الايمانية نفياً عملياً وفرعياً، فهذا الطراز من الضلالة سهلٌ سلوكه وقبوله لأنه «عدمُ قبول» الحق، فهو تركٌ وعدمٌ ليس الاّ، وهذا القسم هو الذي ورد بيان سهولة قبوله في الرسائل.

أما القسم الثاني: فهو حكمٌ اعتقادي وفكري وليس بعملي ولا فرعي، ولا نفيٌ للايمان وحده بل سلوك لطريق مضادٍ للايمان، وقبول للباطل واثباتُ نقيضِ الحق. فهذا هو خلاف الايمان وضده، لذا فهو ليس «بعدم قبولٍ» كي يكون سهلاً وانما هو

«قبولٌ للعدم». وحيث انه لايتم الاّ بعد الاثبات، أي اثبات العدم. و«العدم لايثبت» قاعدة اساسية، فليس من السهل اذن اثباته وقبوله.

وهكذا فان ما بُيِنَ في سائر الرسائل هو هذا القسم من طريق الكفر والضلالة التي هي عسيرة وذات اِشكال بل ممتنع سلوكها بحيث لايسلكها من له ادنى شعور.

وكذلك أُثبتت في الرسائل اثباتاً قاطعاً أن في هذه الطريق من الآلام المخيفة والظلمات الخانقة ما لا يمكن ان يطلبها مَن عنده ذرة من العقل والادراك.

*** واذا قيل:**

ان كانت هذه الطريق الملتوية مظلمةٌ ومؤلمة وعويصة الى هذا الحد فلِمَ يسلكها الكثيرون؟.

فالجواب: انهم ساقطون فيها، فلا يمكنهم الخروج منها، ولا يرغبون في الخروج مما هم فيه، فيتسلّون بلذة حاضرة مؤقتة، لأن قوى الانسان النباتية والحيوانية لاتفكر في العاقبة ولاتراها، وأنها تتغلب على لطائفه الانسانية.

سؤال:

واذا قيل: لما كان في الكفر هذا الالم الشديد وهذا الخوف الداهم، وان الكافر - باعتباره انساناً - حريصٌ على حياته ومشتاق الى ما لايحصى من الاشياء وهو يرى بكفره: أن موته عدمٌ وفراقٌ أبدي. ويرى دوماً بعينه ان الموجودات وجميع احبّائه سائرون الى العدم والفراق الأبدي. فكل شئ أمامه - بهذا الكفر - اذن الى زوال، فالذي يرى بالكفر هذا، كيف لايتفطّر قلبه ولاينسحق تحت ضغط هذا الألم؟ بل كيف يسمح له كفره ان يتمتع بالحياة ويتذوقَها؟.

الجواب: انه يخادع نفسه بمغالطة شيطانية عجيبة، ويعيش مع الظن بتلذذ ظاهري، وسنشير الى ماهيتها بمثال متداول:

يحكى انه قيل للنعامة «ابل الطير»: لماذا لاتطيرين؟ فانك تملكين الجناح، فقبضتْ وطوتْ جناحيها قائلةً: أنا لست بطائر بل إبل، فأدخلت رأسها في الرمل تاركةً جسدها الضخم للصياد فاستهدفها. ثم قالوا لها: فاحملي لنا اذن هذا الحمل ان

كنت ابلاً كما تدّعين، فعندها صفّت جناحيها ونشرتهما قائلة: أنا طائر. وتفلتت من تعبَ الحمل. فظلت فريدة وحيدة دون غذاء ولا حماية من أحد وهدفاً للصيادين.

وهكذا الكافر، بعد أن تزحزح من كفره المطلق أمام النُذر السماوية القرآنية تردّى في كفر مشكوك. فاذا سُئل: كيف تستطيع العيش وامامك الموت والزوال اللذان تدعي أنهما انعدام أبدي؟ فهل يتمكن من الحياة ويتمتع بها مَن كان يسير بخطاه الى حبل المشنقة؟ يجيب: لا، ليس الموت عَدَماً، بل هناك احتمال للبقاء بعدَه، ذلك بعدما أخذ حَظَه من شمول نور القرآن للعالمين ورحمته لهم فبدأ يتشكك في كفره المطلق، او انه يدسّ رأسه في رمل الغفلة كالنعامة، كي لايراه الأجل ولاينظر اليه القبر، ولايرميه الزوال بسهم!.

والخلاصة: ان الكافر شأنه شأن النعامة فهو حينما يرى الموت والزوال عَدَماً يحاول أن ينقذ نفسه من تلك الآلام بالتمسك والتشبث بما أخبر به القرآن الكريم والكتب السماوية جميعها اخباراً قاطعاً من «الايمان بالآخرة» والذي ولّد عنده احتمالاً للحياة بعد الموت.

واذا ماقيل له: فما دام المصير الى عالم البقاء، فلِمَ اذاً لاتؤدي الواجبات التي يفرضها عليك هذا الايمان كي تسعد في ذلك العالم؟.

يجيب من زاوية كفره المشكوك: ربما ليس هناك عالم آخر، فلِمَ اذن أرهق نفسي؟!. .بمعنى انه ينقذ نفسه من آلام الاعدام الأبدي في الموت بما وعَد القرآن بالحياة الباقية، فعندما تواجهه مشقّة التكاليف الدينية، يتراجع ويتشبث باحتمالات كفره المشكوك ويتخلص من تلك التكاليف.

أي ان الكافر ـ من هذه الزاوية ـ يظن أنه يتمتع اكثر من المؤمن في حياته الدنيا، لأنه يفلت من عناء التكاليف الدينية باحتمالات كفره، وفي الوقت نفسه لايدخل تحت قساوة الالام الابدية باحتماله الأيماني. ولكن هذا في واقع الحال مغالطة شيطانية مؤقتة تافهة بلا فائدة.

ومن هنا يتضح كيف أن هناك جانباً من الرحمة الشاملة للقرآن الكريم حتى على الكفار، وذلك بتشكيكه اياهم في كفرهم المطلق. فنجّاهم ـ الى حَدّ ما ـ من حياة

كالجحيم وجعلهم يستطيعون العيش في الحياة الدنيا بنوعٍ من الشك في كفرهم المطلق، وإلا كانوا يقاسون آلاماً معنوية تذكّر بعذاب الجحيم وقد تدفعهم الى الانتحار.

فيا اهل الايمان! احتموا بحماية القرآن الكريم الذي انقذكم من العدم المطلق ومن جحيم الدنيا والآخرة بكل يقين وثقة واطمئنان، وادخلوا بالتسليم الكامل في الظلال الوارفة للسّنة المحمدية بكل استسلام واعجاب.. وانقذوا انفسكم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة..

الاشارة التاسعة

سؤال:

لِمَ غُلِبَ اهل الهداية وهم حزب الله في كثير من الاحيان امام اهل الضلالة الذين هم حزب الشيطان؟ برغم أنهم محاطون بعناية إلهية ورحمة ربّانية، ويتقدم صفوفهم الانبياء الكرام عليهم السلام ويقود الجميع فخر الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام؟

وما بال قسم من اهل المدينة المنورة مَرَدوا على النفاق وأصروا على الضلالة ولم يسلكوا الصراط السوي رغم انهم كانوا يجاورون الرسول الاعظم ﷺ الذي تسطع نبوّته ورسالتُه كالشمس وهو يُذكّرهم بالقرآن المعجز الذي يؤثر في النفوس كالأكسير الاعظم ويرشدهم بحقائقه التي تشدّ الجميع بقوة اعظم من جاذبية الكون؟

الجواب: للاجابة عن شقّي هذا السؤال المحيّر علينا أولاً أن نبين أساساً راسخاً متيناً وهو:

ان خالق الكون جلّ وعلا له من الاسماء الحسنى اسماء جلالية وأسماءٌ جمالية. وحيث أن كلاً منها يُظهر حُكمَه بتجليات مختلفة عن الاخرى، لذا فان الخالق سبحانه وتعالى قد مَزَجَ الأضداد ببعضها وجعل يقابل كلٌّ منها الآخرَ، واعطى كلاً منها صفةَ التدافع والتجاوز، فأوجد بذلك مبارزةً حكيمة ذات منافع، بما أوجد من الاختلافات والتغيّرات الناشئة من تجاوز تلك الأضداد حدود بعضها البعض الآخر.

فاقتضت حكمته سبحانه أن يسير هذا الكون ضمن دستور السموّ والكمال وحسب قانون التغيّر والتحول؛ لذا جعل الانسان وهو الثمرة الجامعة لشجرة الخليقة يَتبَع ذلك القانون، أي قانون التدافع والمبارزة، اتباعاً شديد الغرابة حيث فَتح أمامَه بابَ «المجاهدة» التي يدور عليها رقيّ جميع الكمالات الانسانية وتكاملها. فمن أجل هذا فقد اعطى سبحانه وتعالى حزبَ الشيطان شيئاً من الاجهزة والوسائل ليتمكن من مواجهة حزب الله ويقابله في ميدان المعركة. وهذا هو السبب، في تمكّن اهل الضلالة وهم في اشد الضعف والوهن والعجز، من مقاومة أهل الحق الأقوياء معنوياً الذين يتقدمهم الانبياء عليهم السلام والتغلب عليهم تغلباً مؤقتاً.

أما سّر الحكمة في هذه المقاومة الغريبة فهي: ان في الضلالة والكفر عَدَماً وتركاً، وهو سهلٌ لايحتاج الى دفعٍ ولا الى تحريك.. وفيها تخريبٌ كذلك، وهو سهلٌ وهيّن ايضاً، اذ تكفيه حركة قليلة.. وفيها تجاوزٌ وتعدٍ، فعمل قليل ويسير منه يؤدي الى ضرر بالكثيرين فيوهم الآخرين أنهم على شئ فيستخفّون بهم ويستعلون عليهم بإرهابهم وفرعونيتهم.. ثم ان في الانسان حواسَ مادية وقوى نباتية وحيوانية لاترى العاقبة ولاتفكر فيها وهي مفتونة بالتذوق الآني والتلذذ الحاضر. فتلذذ هذه القوى، واشباع نهمها وانطلاقها من عقالها وتحررها يجعل اللطائف الانسانية كالعقل والقلب تعْدِل عن وظائفها الاساس التي هي المشاعر الانسانية السامية الساعية للعقبى.

أما طريق أهل الهداية والمسلك السامي للانبياء (عليهم السلام) وفي المقدمة حبيب ربّ العالمين، الرسول الاكرم ﷺ فهي: وجودية وايجابيةٌ وتعمير، كما أنها حركة واستقامة على الطريق والحدود، وهي تفكر بالعقبى، وعبودية خالصة لله، كما أنها سحقٌ لفرعونية النفس الأمّارة بالسوء وكبح لجماحها؛ لذا أصبح منافقو المدينة المنورة في ذلك الوقت أمام هذه الاسس الايجابية المتينة وامثالها كالخفافيش أمام تلك الشمس الساطعة والسراج المنير فأغمضوا أعينهم عنها، فارتموا في احضان القوة الدافعة الشيطانية، وظلوا في الضلالة ولم ينجذبوا بجاذبية القرآن العظمى وحقائقه الخالدة.

* **واذا قيل:**

لما كان الرسول الاكرم ﷺ حبيبُ رب العالمين ولاينطق إلاّ بالحقّ ولا يملك إلاّ الحقيقة، وقد أمدّه اللهُ في غزواته بملائكة جنوداً مسوّمين، وارتوى جيش كامل من غرفة من ماء تفجّر من بين أصابعه، وشَبَعَ ألف من الناس بشاة مطبوخة وحفنات من قمح، وهزم الكفار بقبضة من تراب رماها على عيونهم ودخلت تلك القبضة من التراب في عين كل كافر.. ان قائداً ربانياً يملك امثال هذه المعجزات الباهرة وكثيراً غيرها، كيف يُغلب في نهاية أُحُد وبداية حُنَين؟.

الجواب: ان الرسول ﷺ قد أُرسل الى البشرية كافة، قدوةً واماماً ورائداً، كي تتعلم منه مناهج الحياة الاجتماعية والشخصية ودساتيرَها، وتَتعود على الانقياد لقوانين الارادة الإلهية الحكيمة وتنسجم مع دساتيرها الربانية. فلو كان الرسول ﷺ مستنداً الى المعجزات وخوارق العادات في جميع أفعاله الشخصية منها والاجتماعية لما تسنّى له ان يكون إماماً مطلقاً ولا قدوةً كاملة حسنة للبشرية قاطبةً.

ولهذا السبب لم يُظهر ﷺ المعجزات الاّ تصديقاً لدعواه، بشكل متفرق، عند الحاجة، لكسر عناد المنكرين. أما في سائر الأوقات فقد كان ﷺ مراعياً بكل دقة لقوانين عادة الله ولسننه الجارية، ومطيعاً طاعة كاملة لنواميسه المؤسسّة على الحكمة الربانية والمشيئة الإلهية، كطاعته ومراعاته للأوامر الإلهية، لذا كان ﷺ يلبس الدرع في الحروب، ويأمر الجنود بالتترّس بالموانع ضد الاعداء، ويُجرَح ويتأذى ويتحمل المشقّات.. كل ذلك لكي يُبيّن مدى طاعته الكاملة ومراعاته للقوانين الإلهية الحكيمة، وانقياده التام لشريعة الفطرة الكونية ونواميسها.

الاشارة العاشرة

ان لأبليس دسيسة كبرى هي أنه يجعل الذين اتبّعوه يُنكرون وجودَه. سنذكر شيئاً حول هذه المسألة البديهية، وجود الشياطين. حيث يتردد في عصرنا هذا في قبولها اولئك الذين تلوثت أفكارهم بالفلسفة المادية، فنقول:

اولاً: مثلما هو ثابت بالمشاهدة ثبوتاً قطعياً وجود ارواحٍ خبيثة في اجساد بشرية في عالم الانسان، تنجز وظيفة الشيطان واعماله. كذلك ثابت ثبوتاً قطعياً وجود

ارواحٍ خبيثة بلا اجساد في عالم الجن، فلو ان هؤلاء اُلبسوا أجساداً مادية لأصبحوا تماماً مثل اولئك البشر الاشرار. وكذلك لو تمكن شياطين الانس – الذين هم على صور بشرية – من نزع اجسادهم لأصبحوا أبالسة الجن.

فبناء على هذه العلاقة الوطيدة ذهب أحد المذاهب الباطلة الفاسدة الى «أن الارواح الخبيثة الشريرة المتجسدة بصورة اُناسي تتحول الى شياطين بعد موتها»!.

ومن المعلوم انه اذا ما فسد الشيءُ الثمين يكون فسادهُ أشدَّ من فساد الشيء الرخيص، كما هو في فساد اللبن او الحليب حيث يمكن ان يؤكلا، أما اذا فسدَ الدهنُ فلا يمكن أكلُه، إذ قد يكون كالسمّ. وهكذا الانسان الذي هو اكرم المخلوقات بل ذروتها وقمّتها، اذا فسد فانه يكون أفسد وأحط من الحيوان الفاسد نفسه. فيكون كالحشرات التي تأنس بالعفونة وتريحها الروائح الكريهة، وكالحيّات التي تلتذ بلدغ الآخرين. بل يتباهى بتلذذه بالأخلاق الدنيئة النابتة في مستنقع الضلالة، ويستمرئ الاضرار والجرائم الناجمة في ظلمات الظلم. فيكون اذن قريناً للشيطان ومتقمصاً لماهيته..

نعم، ان الدليل القاطع على وجود شياطين الجنّ هو وجود شياطين الانس.

ثانياً: ان مئات الدلائل القطعية في «الكلمة التاسعة والعشرين» لاثبات وجود الملائكة والعالم الروحاني، هي بدورها دلائل لاثبات وجود الشياطين ايضاً. نحيل إليها.

ثالثاً: ان وجود الملائكة الذين هم بحكم الممثلين والمشرفين على ما في أمور الخير الموجودة في الكون من قوانين كما أنه ثابت باتفاق الاديان، كذلك وجود الشياطين والارواح الخبيثة الذين هم ممثلو الامور الشريرة والمباشرون لها وتدور حولهم قوانينها، فانه قطعي الثبوت حكمةً وحقيقة. بل قد يكون وجود سببٍ وستارٍ مستتر من كائن ذي شعور في ممارسة الامور الشريرة اكثر ضرورةً، وذلك لعجز كل شخص أن يرى الحُسنَ الحقيقي لجميع الامور، كما ذكرنا في مستهل «الكلمة الثانية والعشرين». فلأجل الاّ تحدّثه نفسه باعتراضٍ على امورِ الخالق سبحانه بما يُتوهم من نقصٍ او شرٍّ ظاهريين، ويتهم رحمته او ينتقد حكمته او يشكو بغير حقٍ، جعل الخالق الكريم

الحكيم العليم وسائط واسباباً ظاهرية مادية ستاراً لأمور قَدَره، وحُجُباً لتتوجه اليها الاعتراضات والانتقادات والشكاوى، ولا تتوجه اليه سبحانه وتعالى. فقد جعل الامراض والمصائب مثلاً أسباباً وستاراً للأجل، لكي لاتتوجه الاعتراضات وتصل الى مَلَك الموت «عزرائيل عليه السلام». وجعل مَلَكَ الموت نفسه حجاباً لقبض الارواح، لئلا تتوجه الشكاوى والانتقادات الناتجة من الأمور التي يُتوهم أنها بغير رحمة إليه سبحانه وتعالى.. وهكذا وبقطعية اكثر اقتضت الحكمة الرّبانية وجود الشياطين لتتوجه اليهم الاعتراضات الناشئة من الشرور والأضرار والفساد.

رابعاً: كما ان الانسان عالمٌ صغير، كذلك العالم انسانٌ كبير، فهذا الانسان يمثّل خلاصة الانسان الكبير وفهرسه، فالنماذج المصغّرة في الانسان لابد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الانسان الأكبر بالضرورة.

فمثلاً: ان وجود القوة الحافظة في الانسان دليل قطعي على وجود اللوح المحفوظ في العالم. وكذلك يشعر كلٌ منا ويحسّ أن في قرارة نفسه وفي زاوية من زوايا قلبه آلةً وعضواً للوسوسة وهي اللمّة الشيطانية التي هي بلسانُ شيطان يتكلم بتلقينات القوة الواهمة، هذه القوة قد تحولت بفسادها الى شيطان مصغر، لأنها لاتتحرك الاّ ضدَ اختيار الانسان وإرادته وخلاف رغباته الحقيقية. ان هذا الذي يشعر به كلُ انسان حساً وحَدْساً في نفسه دليلٌ قطعي على وجود الشياطين الكبيرة في العالم الكبير. ثم ان هذه اللمّة الشيطانية وتلك القوة الواهمة تُشعران بوجود نفسٍ شريرةٍ خارجية تنفث في الأُولى وتستنطق الثانية وتستخدمها كالاذن واللسان.

الاشارة الحادية عشرة

يعبّر القرآن الكريم باسلوب معجز عن غضب الكائنات وتغيّظ عناصر الكون جميعها وتهيّج الموجودات كافة من شر اهل الضلالة، عندما يصف اشتراك السماء والارض بالهجوم على قوم «نوح عليه السلام» في الطوفان، وعصفَ الرياح بقوم «عاد» والصيحة على «ثمود»، وهيجان الماء على قوم فرعون، ونقمة الارض على قارون.. عند رفضهم الايمان حتى أن جهنم ﴿ **تكادُ تميّزُ من الغيظ** ﴾ (الملك: ٨). وهكذا يبين القرآن الكريم غَضَبَ الموجودات وحدّتها على اهل الضلالة والعصيان ويزجرهم بهذا الاسلوب الاعجازي الفريد.

سؤال:

لِمَ تجلب هذه الأعمال التافهة الصادرة عن أشخاص لاوزن لهم باقترافهم ذنوباً شخصية، سَخَطَ الكون وغضبه؟

الجواب: لقد أثبتنا في الاشارات السابقة وفي رسائل متفرقة أخرى:

أن الكفر والضلالة تجاوزٌ شنيع وتعدٍّ رهيب، وجريمة تتعلق بجميع الموجودات. ذلك لأن اهل الكفر والضلالة يرفضون الغاية السامية لخلق الكائنات التي نتيجتها العظمى عبودية الانسان وتوجّهه بالايمان والطاعة والانقياد للربوبية الإلهية. فانكارهم هذه النتيجة العظمى للكون ـ التي هي العلّة الغائية وسبب بقاء الموجودات ـ نوعٌ من تعدٍ على حقوق جميع المخلوقات.

وحيث ان الموجودات قاطبة تتجلى فيها الاسماء الإلهية الحسنى وكأن كلٌّ جزء منها مرآة تعكس تجليات أنوار تلك الاسماء المقدسة، فيكتسب ذلك الجزء اهميةً بها ويرتفع منزلةً، فان انكار الكافر لتلك الاسماء الحسنى ولتلك المنزلة الرفيعة للموجودات واهميتها هو اِهانةٌ عظيمة وتحقير شديد فوق كونه تشويهاً ومسخاً وتحريفاً ازاء تلك الاسماء.

وكذلك فان كل مخلوق في هذا الكون قد أوكل اليه وظيفة، وكل جزء أُنيط به أمر، أي أن لكل شئٍ في الوجود مهاماً معينة، فهو اذن بمثابة مأمورٍ وموظف ربّاني. فالكافر بكفره يسلبه تلك الوظيفة المهمة ويجعله جامداً لامعنى له، وفانياً لاغاية له، فيهينه بذلك ويحقّره. وهكذا يظهر تعدّي الكفر ويتبين تجاوزه على حقوق الموجودات جميعها.

ولما كانت الضلالة بأنواعها المختلفة ـ كلٌّ حسب درجتها ـ تنكر الحكمة الرّبانية في خلق الكائنات، وترفض المقاصد الإلهية في بقاء العالم، فان الموجودات بدورها تتهيّج، والمخلوقات تثور، والكائنات تغضب على الكفر وأهله.

فيا ايها الانسان العاجز المسكين!. ويامَن جسمُه صغير وذنبه جسيم وظلمه عظيم!. ان كنت راغباً في النجاة من غضبة العالم ونفور المخلوقات وثورة الموجودات فدونك سبيل النجاة: الدخول في دائرة القرآن الحكيم المقدسة.. واتّباع المبلّغ الامين ﷺ في سنّته المطهّرة. ادخل.. واتبع.

الاشارة الثانية عشرة

جواب عن اربعة اسئلة:

السؤال الاول:

أين وجه العدالة في عذاب مقيم في جهنم لذنوبٍ محدودة في حياة محدودة؟

الجواب: لقد فُهم بشكل واضح من الاشارات السابقة ولاسيما الاشارة الحادية عشرة، أن جريمة الكفر والضلالة ليست محدودة، وانما هي جناية لانهاية لها واعتداء على حقوقٍ لاحدّ لها.

السؤال الثاني:

ما سرّ الحكمة فيما جاء في الشرع: إن جهنمَ جزاء عملٍ أما الجنّة فهي فضلٌ إلهي؟..

الجواب: لقد تبين في الاشارات السابقة: أن الانسان يكون سبباً لتدمير هائل وشرورٍ كثيرة بارادة جزئية بلا ايجاد، وبكسبٍ جزئي، وبتشكيله أمراً عدمياً او اعتبارياً واعطاء الثبوت له. ولأن نفسَه وهواه يميلان الى الأضرار والشرور دائماً، لذا يتحمل هو مسؤولية السيئات الناتجة من ذلك الكسب الجزئي اليسير. ذلك لأن نفسَه هي التي أرادت، وكسبَه الذاتي هو المسبّب، ولأن ذلك الشرّ عدميٌ اصبح العبدُ فاعلاً له، والله سبحانه خَلَقَه فصار الانسان مستحقاً لتحمل مسؤولية تلك الجريمة غير المحدودة بعذاب غير محدود.

أما الحسنات فما دامت وجودية أصيلة، لا يكون الكسب الانساني والارادة الجزئية علّة موجدة لها، فالانسان ليس فاعلاًحقيقياً لها. لأن نفس الانسان الأمّارة بالسوء لاتميل الى الحسنات، بل الرحمة الإلهية هي التي تريدها، وقدرتُه سبحانه هي

التي تخلقها. الاّ أن الانسان يمكن أن يكون مالكاً لتلك الحسنات بالايمان وبالرغبة وبالنيّة. وأما بعد تملكها فان تلك الحسنات هي بذاتها شكرٌ للنعم الإلهية غير المحدودة التي أسبغها الله سبحانه وتعالى على الانسان، وفي مقدمتها نعمة الوجود ونعمة الايمان. أي أن تلك الحسنات شكرٌ للنعم السابقة، لذا فالجنّة التي وعَدَها الله لعباده تُوهَب بفضلٍ رحماني خالص، فهي وان كانت ظاهراً مكافأة للمؤمن الاّ أنها في حقيقتها تفضّلٌ منه سبحانه وتعالى.

إذن فالنفس الانسانية لكونها المسببة للسيئات فهي التي تستحق الجزاء. أما في الحسنات فلما كان السبب من الله سبحانه وكذلك العلّة منه وامتلكها الانسان بالايمان وحدَه فلا يمكنه أن يطالب بثوابها، بل يرجو الفضل منه سبحانه.

السؤال الثالث:

لما كانت السيئات تتعدد بالتجاوز والانتشار كما تبيّن فيما سبق، كان المفروض ان تُكتب كلُ سيئةٍ بألفٍ، أما الحسنات فلأنها ايجابية ووجودية فلا تتعدد مادياً، حيث أنها لاتحصل بايجاد العبد ولابرغبة النفس، فكان يجب ألاّ تُكتب، او تُكتَب حسنة واحدة. فلِمَ تُكتب السيئةُ بمثلها والحسنةُ بعشرِ امثالها او أحياناً بألف؟.

الجواب: ان الله جلّ وعلا يبيّن لنا ـ بهذه الصورة ـ كمالَ رحمته وسعتَها وجمالَ كونه رحيماً بعباده.

السؤال الرابع:

ان الانتصارات التي يحرزها اهل الضلالة والقوة والصلابة التي يظهرونها، وتغلّبهم على اهل الهداية تُظهر لنا أنهم يستندون الى حقيقة ويركنون الى قوة، فاما أن هناك ضعفاً ووهناً في أهل الهداية، أو أن في هؤلاء الضالّين حقيقة وأصالة!.

الجواب: كلا ثم كلا.. فليس في أهل الهداية ضعف ولا في أهل الضلالة حقيقة، ولكن مع الاسف يُبتلى جمعٌ من قصيري النظر – من السذج الذين لا يملكون موازين ـ بالتردد والانهزام، فيصيب عقيدتَهم الخللُ بقولهم: لو أنّ اهل الحق

على صدق وصواب لكان ينبغي الاّ يُغلَبوا ولا يُذلّوا الى هذا الحد. اذ الحقيقة قوية وان القاعدة الاساسية هي: «الحق يعلو ولا يُعلى عليه»[١] ولو لم يكن اهل الباطل ـ الذين يصدّون ويغلبون اهل الحق ـ على قوة حقيقية وقاعدة رصينة ونقطة استناد متين، لما كانوا يَغلبون اهل الحق ويتفوقون عليهم الى هذه الدرجة.

وجواب ذلك: ـ لقد اثبتنا في الاشارات السابقة اثباتاً قاطعاً: ان انهزام اهل الحق أمام أهل الباطل لايتأتى من أنهم ليسوا على حقيقة و لامن أنهم ضعفاء، وان انتصار أهل الضلالة وتغلّبهم ليس ناشئاً من قوتهم ولا من وجود مستند لهم. فمضمون تلك الاشارات السابقة بأجمعها هو جواب هذا السؤال، ولكننا نكتفي هنا بالاشارة الى دسائسهم وشئ من اسلحتهم المستعملة.

لقد شاهدتُ مراراً بنفسي ان عشرةً في المائة من أهل الفساد يَغلبون تسعين في المائة من أهل الصلاح. فكنت أحار في هذا الامر، ثم بامعان النظر فيه، فهمت يقيناً ان ذلك التغلب والسيطرة لم يك ناتجاً من قوة ذاتية ولامن قدرة اصيلة يمتلكها أهل الباطل، وانما من طريقتهم الفاسدة، وسفالتهم ودناءتهم، وعملهم التخريبي، واغتنامهم اختلاف أهل الحق والقاء الخلافات والحزازات فيما بينهم، واستغلال نقاط الضعف عندهم والنفث فيها، واثارة الغرائز الحيوانية والنفسانية والاغراض الشخصية عندهم، واستخدامهم الاستعدادات المضرّة التي هي كالمعادن الفاسدة الكامنة في سبيكة فطرة الانسان، والتربيت على فرعونية النفس باسم الشهرة والرتبة والنفوذ.. وخوف الناس من تخريباتهم الظالمة المدمّرة... وامثال هذه الدسائس الشيطانية يتغلبون بها على أهل الحق تغلباً مؤقتاً. ولكن هذا الانتصار الوقتي لهم لا قيمة له ولا أهمية أمام بشرى الله تعالى: ﴿ **والعاقبةُ للمتّقين** ﴾(الأعراف:١٢٨) والسر الكامن في (الحقُ يعلو ولا يُعلى عليه). اذ يصبح سبباً لدخولهم النار وفوز أهل الحق بالجنّة.

ان ظهور الضعيف الهزيل في الضلالة بمظهر القوة واكتساب التافهين فيها شهرة وصيتاً، يسلكها كل أناني مُراءٍ مولَع بالشُهرة فيقوم بارهاب الآخرين والاعتداء عليهم واضرارهم، للحصول على منزلةٍ وكسبِ شهرة، فيقف في صف المعادين لأهل الحق

---

(١) (الاسلام يعلو ولايعلى): رواه الدارقطني والضياء في المختارة والروياني عن عائذ بن عمر والمزني رفعه، والطبراني والبيهقي عن معاذ رفعه، وعلقه البخاري في صحيحه. والمشهور على الألسنة زيادة (على) آخراً، بل هي رواية احمد. والمشهور ايضاً على الألسنة: الحق يعلو ولايعلى عليه (كشف الخفاء ١٢٧/١).

ليسترعي انتباه الناس ويجلب انظارهم، وليذكروه باسنادهم اعمال التخريب اليه تلك التي لم تنشأ من قوة وقدرة ذاتية له بل من تركه الخير وتعطيله له. حتى سار مثلاً أن احد المغرمين بالشهرة قد لوّث المسجد الطاهر حتى يذكره الناس، وقد ذكروه فعلاً.. ولكن باللعنة، الاّ أن حبّه الشديد للشهرة زيّن له هذا الذكر اللعين فرآه حسناً.

فيا أيها الانسان المسكين المخلوق لعالم الخلود والمبتلي بهذه الدنيا الفانية! أمعن النظر في الآية الكريمة وانصت اليها: ﴿ **فَما بَكَتْ عَلَيهم السَّمَاء والأرض** ﴾ (الدخان:٢٩) وانظر ماذا تفيد.. انها تعلن صراحة ان السموات والارض التي لها علاقة بالانسان لاتبكي على جنازة أهل الضلالة عند موتهم.. اي انها راضية لفراقهم مرتاحةٌ بموتهم.

وانها تشير ضمناً ان السموات والارض تبكي على جنازة أهل الهداية عند موتهم، فلا تتحمل فراقهم، إذ إن الكائنات جميعاً مرتبطة مع أهل الايمان، وذات علاقة بهم، وانها راضيةٌ عنهم، ولأنهم يعرفون بالايمان رب العالمين فيحملون حبّاً للموجودات ويقدرون قيمتها، وليسوا كاولئك الضالين الذين يضمرون العَداء للموجودات ويحقّرونها.

فيا ايها الانسان! تأمل في عاقبتك، وفكّر في مصيرك، فأنت لامحالة صائر الى الموت، فان كنت ممن جعل هواه تبعاً للشيطان، فان جميع الذين حولك من الجيران حتى الأقارب سيُسرّون بنجاتهم من شرورك، وان كنت مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم ومتّبعاً لأوامر القرآن الكريم وسنّة حبيب رب العالمين ﷺ فستحزن عليك السموات والارض، وتبكي معنى لفراقك الموجودات جميعها فيشيعونك بهذا المأتم العلوي والنعي الشامل الى باب القبر معبّرين بذلك عما أُعدّ لك من حسن الاستقبال حسب درجتك في عالم البقاء.

الاشارة الثالثة عشرة

تتضمن ثلاث نقاط:

النقطة الاولى:

ان اعظم كيد للشيطان هو خداعه لضيّقي الصدر، وقاصري الفكر من الناس، من جهة عظمة الحقائق الايمانية بقوله: كيف يمكن تصديق مايقال: أن واحداً أحداً هو الذي يدبّر ضمن ربوبيته شؤون جميع الذرات والنجوم والسيارات وسائرالموجودات

ويدير أمورها بأحوالها كافة؟ فكيف تُصدّق وتَقرُّ في القلب هذه المسألة العجيبة العظيمة؟ وكيف يقنع بها الفكر؟.. مثيراً بذلك حسّاً إنكارياً من نقطة عجز الانسان وضعفه.

الجواب: «الله اكبر» هو الجواب الحقيقي المُلجِم لهذه الدسيسة الشيطانية وهو المُسكت لها.

نعم، ان كثرة تكرار «الله اكبر» واعادتها في جميع الشعائر الاسلامية، مُزيلةٌ لهذا الكيد الشيطاني، لأن الانسان بقوته العاجزة وقدرته الضعيفة وفكره المحدود يرى تلك الحقائق الايمانية غير المحدودة ويصدّقُها بنور «الله اكبر» ويحمل تلك الحقائق بقوة «الله اكبر» وتستقر عنده ضمن دائرة «الله اكبر» فيخاطب قلبه المبتلى بالوسوسة قائلاً: ان تدبير شؤون هذه الكائنات وادارتها بهذا النظام الرائع الذي يراه كل ذي بصر لاتُفسّر الاّ بطريقتين:

الاولى: وهي الممكنة، ولكنها معجزةٌ خارقة. لأن أثراً كهذا الأثر المُعجز لاشك أنه ناتج من عملٍ خارقٍ وبطريقةٍ معجزة ايضاً. وهذه الطريقة هي ان الموجودات قاطبة لم تُخلق الاّ بربوبية الأحد الصمد وبأرادته وقدرته، وهي شاهدة على وجوده سبحانه بعدد ذراتها.

الثانية: وهي طريق الكفر والشرك، الممتنعة والصعبة من جميع النواحي، وغير المعقولة الى درجة الاستحالة؛ لأنه يلزم أن يكون لكل موجود في الكون، بل في كل ذرّة فيه، ألوهيةٌ مطلقة وعلمٌ محيط واسعٌ، وقدرةٌ شاملة غير متناهية كي تظهر الى الوجود نقوشُ الصنعة البديعة المتكاملة بهذا النظام والاتقان الرائعين المشاهدين، وبهذا التقدير والتميّز الدقيقين.. وتلك هي ما بيّنا امتناعها واستحالتها واثبتناها بدلائل قاطعة كما في «المكتوب العشرين» و«الكلمة الثانية والعشرين» وفي رسائل اخرى كثيرة.

والخلاصة:

لو لم تكن ربوبية ذات عظمة وكبرياء لائقة لتدبير الشؤون لَوجبَ حينئذٍ سلوك طريق ممتنع وغير معقول من جميع الجهات. فحتى الشيطان نفسه لن يكلّفَ أحداً

الدخول في هذا المحال الممتنع بترك تلك العظمة والكبرياء اللائقة المستحقة الضرورية.

النقطة الثانية:

ان دسيسة مهمة للشيطان هي: دفع الانسان الى عدم الاعتراف بتقصيره. كي يسدّ عليه طريق الاستغفار والاستعاذة، مثيراً فيه أنانية النفس لتدافع كالمحامي عن ذاتها، وتنزّهها عن كل نقص.

نعم، إن نفساً تصغي الى الشيطان لاترغب في أن تنظر الى تقصيرها وعيوبها، حتى اذا رأتها فانها تؤوّلها بتأويلات عديدة. فتنظر الى ذاتها واعمالها بعين الرضا، كما قال الشاعر: «وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ»(١) فلا ترى عيباً، لذا لاتعترف بتقصيرها، ومن ثم فلا تستغفر الله ولا تستعيذ به فتكون اضحوكة للشيطان. وكيف يوثق بهذه النفس الامارة بالسوء ويعتمد عليها، وقد ذكرها القرآن الكريم بلسان نبيّ عظيم، يوسف عليه السلام: ﴿**وَمَا أُبَرّىءُ نَفسي إنَ النفسَ لأمارةٌ بالسوءِ إلاّ ما رحِم ربّي**﴾ (يوسف:٥٣) فمن يتّهم نفسه يرى عيوبها وتقصيرها، ومن اعترف بتقصير نفسه يستغفر ربّه، ومن يستغفر ربه يستعذ به من الشيطان الرجيم وعندها ينجو من شروره.. وانه لتقصير اكبر ألاّيرى الانسانُ تقصيره، وانه لنقصٌ اعظم كذلك الاّيعترف بنقصه. ومن يرى عيبه وتقصيره فقد انتفى عنه العيب، حتى اذا ما اعترف يصبح مستحقاً للعفو.

النقطة الثالثة:

ان ما يُفسد الحياة الاجتماعية للانسان هي الدسيسة الشيطانية الآتية:

انه يحجب بسيئة واحدة للمؤمن جميع حسناته. فالذين يلقون السمع الى هذا الكيد الشيطاني من غير المنصفين يعادون المؤمن. بينما الله سبحانه وتعالى عندما يزن اعمال المكلّفين بميزانه الأكبر وبعدالته المطلقة يوم الحشر فانه يحكم من حيث رجحان الحسنات او السيئات. وقد يمحو بحسنة واحدة ويذهب ذنوباً كثيرة. حيث أن ارتكاب السيئات والآثام سهل ويسير ووسائلها كثيرة. فينبغي اذاً التعامل في هذه الدنيا والقياس بمثل ميزان العدل الإلهي، فان كانت حسنات شخص اكثر من سيئاته كميةً او نوعيةً فانه يستحق المحبة والاحترام. وربما يُنظر الى كثير من سيئاته بعين العفو والمغفرة والتجاوز لحسنة واحدة ذات نوعية خاصة.

---

(١) البيت منسوب للامام الشافعي. وعجزه: ولكن عين السخط تبدي المساويا. — المترجم.

غير ان الانسان ينسى، بتلقين من الشيطان، وبما يكمن من الظلم في جبلّته، مئات من حسنات أخيه المؤمن لأجل سيئة واحدة بدرت منه فيبدأ بمعاداته، ويدخل في الآثام. فكما ان وضع جناح بعوضة أمام العين مباشرة يحجب رؤية جبل شاهق، فالحقد كذلك يجعل السيئة – التي هي بحجم جناح بعوضة – تحجب رؤية حسنات كالجبل الشامخ، فينسى الانسان حينذاك ذكر الحسنات ويبدأ بعداء اخيه المؤمن، ويصبح عضواً فاسداً وآلة تدمير في حياة المؤمنين الاجتماعية.

وهناك دسيسة اخرى مشابهة لهذه ومماثلة لها في افساد سلامة تفكير المؤمن والاخلال باستقامتها وبصحة النظرة الى الحقائق الايمانية وهي انه يحاول ابطال حكم مئات الدلائل الثبوتية ـ حول حقيقة ايمانية ـ بشبهة تدل على نفيها. علماً ان القاعدة هي: ان دليلاً واحداً ثبوتياً يرجّح على كثير من النفي، وان حكماً لشاهد ثبوتي واحد لدعوى، يؤخذ به ويرجّح على مائة من المنكرين النافين.

ولنوضح هذه الحقيقة في ضوء هذا المثال:

بناية عظيمة لها مئات من الابواب المقفلة، يمكن الدخول فيها بفتح باب واحد منها، وعندها تفتح بقية الأبواب، ولايمنع بقاء قسم من الابواب مقفلة من الدخول في البناية. فالحقائق الايمانية هي كتلك البناية العظيمة، وكل دليل ثبوتي هو مفتاح يفتح باباً معيناً، فلا يمكن انكار تلك الحقيقة الايمانية او العدول عنها بمجرد بقاء باب واحد مسدود من بين تلك المئات من الابواب المفتوحة. ولكن الشيطان يقنع جماعة من الناس – بناءً على اسباب كالجهل او الغفلة – بقوله لهم: لا يمكن الدخول الى هذه البناية مشيراً الى أحد تلك الأبواب المسدودة ليُسقط من الاعتبار جميع الادلة الثبوتية، فيغريهم بقوله: ان هذا القصر لايمكن الدخول فيه ابداً، فانت تحسبه قصراً وهو ليس بقصر، وليس فيه شئ !.

فيا أيها الانسان المسكين!. المبتلى بدسائس الشيطان وكيده!. ان كنت ترجو سلامة حياتك الدينية وحياتك الشخصية وحياتك الاجتماعية وتطلب صحة الفكر واستقامة الرؤية وسلامة القلب، فَزِنْ أعمالك وخواطرك بموازين القرآن المحكمة والسنّة المحمدية الشريفة، واجعل رائدك القرآن الكريم ومرشدك السنّة النبوية الشريفة. وتضرّع الى الله العلي القدير بقولك: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فتلك ثلاث عشرة اشارة، وهي ثلاثة عشر مفتاحاً لتفتح بها القلعة المتينة والحصن الحصين لآخر سورة من القرآن المعجز البيان في المصحف الشريف. وهي كنز الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم وشرحٌ مفصل لها.. فافتحها بهذه المفاتيح.. وادخل فيها تجد السلامة والاطمئنان والامان .

أَعُوذُ بالله منَ الشَّيطانِ الرَّجيم

بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ قل اعوذ برب الناس ۞ ملك الناس ۞ اله الناس ۞ من شر الوسواس الخناس۞ الذي يوسوس في صدور الناس ۞ من الجِنة والناس ﴾

﴿ سُبحَانَكَ لاعِلمَ لنا إلاّما عَلمتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ۞ واعوذ بك رب ان يحضرون ﴾

اللمعة الرابعة عشرة

عبارة عن مقامين

المقام الاول

جواب عن سؤالين

باسمه سبحانه

﴿وَاِنْ مِنْ شَيءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

اخي العزيز الصادق الوفي السيد رأفت!

ان ما سألتموه من سؤال حول «الثور والحوت» قد ورد جوابه في بعض الرسائل. وقد بينت في «الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين» اثنتا عشرة قاعدة مهمة ضمن اثني عشر أصلا حول هذا النوع من الاسئلة، تلك القواعد تمثل اسساً مهمة لدفع الشبهات والاوهام الواردة على الاحاديث الشريفة، فكل قاعدة منها محكّ جيد لبيان التأويلات المختلفة حول الاحاديث النبوية.

اخي! انني لاانشغل الا بالسوانح القلبية، فهناك حالات طارئة في الوقت الحاضر تحول - مع الاسف - دون اشتغالي بالمسائل العلمية؛ لذلك لااستطيع الاجابة عن سؤالكم بجواب شاف، وإن وفق الله وفتح علينا سوانح قلبية اضطر الى الانشغال بها. وربما يجاب عن أسئلة لتوافقها مع السوانح، فلا تتضايقوا، اذ لا استطيع الاجابة عن كلّ من اسئلتكم اجابة وافية. فلأجب هذه المرة عن سؤالكم.

تذكرون ياأخي في سؤالكم:

ان علماء الدين يقولون: الارض تقوم على الحوت والثور، علماً ان الجغرافية تراها كوكباً معلقاً يدور في السماء كأي كوكب آخر، فلا ثور ولاحوت!.

الجواب: هناك رواية صحيحة تُسند الى ابن عباس رضي الله عنهما، تقول: سُئل الرسول ﷺ: على أي شئ تقوم الارض؟. أجاب: على الثور والحوت. وفي رواية اخرى، قال مرة: على الثور ومرة: على الحوت. ولكن عدداً من المحدثين طبقوا هذه الرواية على حكايات خرافية وقديمة وردت عن الاسرائيليات، ولا سيما من علماء بني اسرائيل الذين اسلموا فهؤلاء غيروا معنى الحديث وحولوه الى معنى عجيب غريب جدا، حيث طبقوا الحديث على ما شاهدوه من حكايات حول الثور والحوت في الكتب السابقة.

ونحن هنا نشير باختصار شديد الى «ثلاثة اسس» و«ثلاثةوجوه» لدى الاجابة عن سؤالكم:

الاساس الاول:

لقد حمل قسم من علماء بني اسرائيل بعد اسلامهم معلوماتهم السابقة معهم الى الاسلام، فاصبحت ملك الاسلام اي ضمن المعارف الاسلامية . علماً أن معلوماتهم السابقة تحوي اخطاء. فتلك الاخطاء بلا شك تعود اليهم لاالى الاسلام..

الاساس الثاني:

ان التشبيهات والتمثيلات كلما انتقلت من الخواص الى العوام، اي كلما سرت من يد العلم الى يد الجهل عُدّت حقائق ملموسة بمرور الزمن، اي كأنها حقائق واقعة وليست تشبيهات.

فمثلا: حينما كنت صبياً خسف القمر، فسألت والدتي: ما هذا الذي حدث للقمر؟. قالت: ابتلعته الحية!. قلت: ولكنه يتبين! قالت: ان الحيات في السماء شفافة كالزجاج تشف عما في بطنها. كنت اتذكر هذه الحادثة كثيراً واسائل نفسي: كيف تدور خرافة بعيدة عن الحقيقة الى هذه الدرجة على لسان والدتي الحصيفة الجادة في كلامها؟.

ولكن حينما طالعت علم الفلك رأيت ان الذين يقولون كما تقول والدتي، قد تلقوا التشبيه حقيقة واقعية؛ لان الفلكيين شبهوا القوسين الناشئين من تداخل دائرة الشمس، وهي منطقة البروج ومدار درجاتها، مع دائرة القمر وهي ميل القمر ومدار منازله، شبهوهما تشبيهاً لطيفاً بحيتين ضخمتين، وسموهما تنينين، واطلقوا على احدى نقطتي تقاطع تلك الدائرتين «الرأس» والاخرى «الذنب». فحينما يبلغ القمر الراس والشمس الذنب تحصل حيلولة الارض –كما يصطلح عليها الفلكيون – اي: تقع الارض بينهما تماماً، وعندها يخسف القمر. أي كأن القمر يدخل في فم التنين، حسب التشبيه السابق.

وهكذا عندما سرى هذا التشبيه العلمي الراقي بمرور الزمن الى كلام العوام غدا التشبيه تنيناً عظيماً مجسماً يبتلع القمر!.

وكذلك المَلَكان العظيمان المسميان بالثور والحوت، قد اطلق عليهما هذان الاسمان في تشبيه لطيف سام، وفي اشارة ذات مغزى. ولكن لما انتقل التشبيه اللطيف، من لسان النبوة البليغ السامي الى لسان العوام، بمرور الزمن، انقلب التشبيه الى حقيقة واقعة، فاتخذ الملكان صورة ثور ضخم وحوت هائل.

الاساس الثالث:

كما ان للقرآن الكريم متشابهات، يرشد المسائل الدقيقة العميقةللعوام بالتشبيه والتمثيل، كذلك للحديث الشريف متشابهات يعبّر عن الحقائق الواسعة بتشبيهات مأنوسة لدى العوام. مثال ذلك ما ذكرناه في رسائل اخرى:

أنه عندما سمع دوي في مجلس الرسول ﷺ قال: هذا حجر يتدحرج منذ سبعين سنة في جهنم فالآن حين وصل الى قعرها.

وبعد مضي دقائق جاء أحدهم وقال: ان المنافق الفلاني المعلوم الذي يبلغ سبعين سنة من العمر قد مات.

فأعلن عن الحقيقة الواقعة للتشبيه البليغ الذي ذكره الرسول ﷺ.

أما عن سؤالك ياأخي فسنذكر له ثلاثة وجوه:

الوجه الاول:

ان الله سبحانه قد عين اربعاً من الملائكة العظام في العرش والسموات للاشراف على سلطنة ربوبيته. اسم واحد منهم «النسر» واسم آخر «الثور»(١).

أما الارض التي هي شقيقة صغيرة للسموات ورفيقة أمينة للسيارات فقد عُين لها ملكان مشرفان يحملانها، يطلق على احدهما: «الثور» وعلى الآخر «الحوت». والحكمة في تسميتهما بهذين الاسمين هي ان الارض قسمان: البر والبحر اي اليابسة والماء. فالذي يعمر البحر او الماء هو الحوت او السمك، أما الذي يعمر البر والتراب فهو الثور، حيث أن مدار حياة الانسان على الزراعة المحمولة على كاهل الثور.

فالملكان الموكلان بالارض اذن هما قائدان لها ومشرفان عليها،لذا لهما تعلق وارتباط ومناسبة – من جهة – مع طائفة الحوت ونوع الثور. ولربما - والعلم عند الله - يتمثلان في عالم الملكوت وفي عالم المثال على صورة الحوت والثور(٢).

فاشارة الى هذه المناسبة والعلاقة، وايماءاً الى ذينك النوعين من مخلوقات الارض، قال الذي اوتي جوامع الكلم ﷺ: «الارض على الثور والحوت» فأفاد بجملة واحدة وجيزة بليغة عن حقيقة عظيمة عميقة قد لايعبر عنها في صحيفة كاملة.

---

(١) عن مالك في قوله عز وجل (وسع كرسيه السموات والارض) قال: ان الصخرة التي تحت الارض السابعة، ومنتهى الخلق، على ارجائها اربعة من الملائكة، لكل ملك منهم اربعة وجوه: وجه انسان ووجه اسد، ووجه نسر، ووجه ثور، فهم قيام عليها قد احاطو بالارض والسموات ورؤسهم تحت الكرسي والكرسي (تحت) العرش. قال: وهو واضع رجليه تبارك وتعالى على الكرسي.

أخرجه عبدالله بن الامام احمد في كتاب (السنة) برقم ٥٨٩، ١/٣:٣ في اسناده مجهول والمدى معروف بالوهم وبقية رجاله ثقات. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١/٣٢٩ لعبد بن حميد وابو الشيخ في العظمة واخرجه ايضاً البيهقي في الاسماء والصفات ص/٤٠٣ وقد اخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور باختلاف في السياق ٦/٢٦١ من كلام وهب بن منبه وهو ثقة كثير النقل من كتب الاسرائيليات(انظر الميزان ٤/٣٥٢).

(٢) نعم: ان الكرة الارضية انما هي كسفينة تمخر عباب بحر الفضاء فالذي يجري هذه السفينة الضخمة التي لاشعور لها بانتظام دقيق ويسوقها لحكمة معينة بالامر الإلهي، أي ان قائد تلك السفينة وربانها انما هو الملك الذي يطلق عليه اسم «الحوت». وهي ايضاً - اي الارض - كمزرعة للآخرة كما هو ثابت في الحديث الشريف، فالذي يشرف على تلك المزرعة، من الملائكة - بالاذن الإلهي هو الملك الذي يطلق عليه اسم «الثور». ولايخفى ما لهذا الاطلاق الجميل من انسجام لطيف .ـ المولف.

الوجه الثاني:

لو قيل: بمَ تقوم هذه الدولة؟ فالجواب: على السيف والقلم: اي تستند الى قوة سيف الجيش وشجاعته واقدامه وعلى دراية قلم الموظفين وعدالتهم.

وحيث أن الارض مسكن الأحياء، وسيد الاحياء الانسان، والقسم الاعظم من الناس يقطنون السواحل ومعيشتهم على السمك، والباقون تدور معيشتهم على الزراعة التي هي على عاتق الثور ومحور تجارتهم على السمك. فمثلما يمكن القول: أن الدولة تقوم على السيف والقلم يمكن كذلك القول: ان الارض تقوم على الثور والحوت؛ لأنه متى ما احجم الثور عن العمل ولم يلق السمك ملايين البيوض دفعة واحدة، فلا عيش للانسان وتنهار الحياة، ويدمر الخالق الحكيم سبحانه الارض.

وهكذا اجاب الرسول الكريم ﷺ عن السؤال بحكمة سامية وببلاغة معجزة وبكلمتين اثنتين مبيناً حقيقة واسعة تتعلق بمدى ارتباط حياة الانسان بالحيوان فقال: «الارض على الثور والحوت».

الوجه الثالث:

ان الشمس في نظر علماء الفلك القديم تدور والارض ثابتة. وعبروا عن كل ثلاثين درجة من درجات الشمس بـ«البرج» فلو مدت خطوط افتراضية بين نجوم تلك البروج لحصل ما يشبه صورة الاسد احياناً، او صورة الميزان، او صورة الثور، او صورة الحوت، لذا بينوا تلك البروج بتلك الاسماء.

أما علم الفلك الحاضر فيرى أن الشمس لاتدور حول الارض، بل الارض تدور حولها. أي يعطل العمل في تلك البروج، فلابد ان لتلك البروج العاطلة عن العمل والدوائر الهائلة دوائر بمقياس أصغر في مدارالارض السنوي، اي اصبحت البروج السماوية تتمثل في مدار الارض السنوي، وعندئذ تدخل الارض كل شهر في ظل احد البروج وتكون ضمن انعكاسه، فكأن مدار الارض السنوي مرآة تتمثل فيها صورة البروج السماوية.

وهكذا بناء على هذا الوجه ـ من المسألة ـ فقد قال الرسول الاعظم ﷺ كما ذكرنا سابقاً «على الثور» مرة و«على الحوت» مرة اخرى.

نعم انه حري بلسان ذلك النبي الكريم المعجز ان يقول مرة: «على الثور» مشيراً به الى حقيقة عميقة لاتدرك الا بعد قرون عديدة. حيث أن الارض في تلك الفترة – اي فترة السؤال – كانت في الصورة المثالية لبرج الثور، بينما عندما سئل ﷺ السؤال نفسه بعد شهر قال: «على الحوت» لأن الارض كانت في ظل برج الحوت.

وهكذا اشار ﷺ بقوله: «على الثور والحوت» الى هذه الحقيقة العظيمة التي ستظهر في المستقبل وتتوضح.. وأشار به الى حركة الارض وسياحتها.. ورمز به الى أن البروج السماوية الحقيقية والعاملة هي التي في مدار الارض السنوي، والارض هي القائمة بالوظيفة والسياحة في تلك البروج، بينما التي بالنسبة للشمس عاطلة دون اجرام سيارة فيها. والله اعلم بالصواب.

واما ما جاء من حكايات خارجة عن طور العقل في بعض الكتب الاسلامية حول الثور والحوت. فاما انها من الاسرائيليات، أو هي تشبيهات وتمثيلات، أو أنها تأويلات بعض الرواة، حسبها الذين لايتحرون الدقة أنها من الحديث نفسه واسندوها الى كلام الرسول ﷺ.

﴿ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا﴾

﴿سُبحَانَكَ لاعِلمَ لنا إلاّما عَلمْتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ﴾

السؤال الثاني: يخص اهل العباء (١)

أخي!

سنذكر حكمة واحدة فقط من الحكم الكثيرة التي ينطوي عليها سؤالكم حول «أهل العباء» الذي ظل بلا جواب، وهي: ان اسراراً وحكماً كثيرة في إلقاء الرسول ﷺ عباءه (ملاءته) المباركة التي كان يلبسها على علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم اجمعين، ثم دعاؤه لهم(٢) في هذا الوضع وبهذه الآية الكريمة ﴿ **لِيُذهِبَ عَنكُم الرجسَ أهلَ البيت ويُطَهِّرَكُم تطهيراً** ﴾(الاحزاب:٣٣). ولكننا لانخوض في اسراره، ولانذكر الاّ حكمة من حكمه التي تتعلق بمهمة الرسالة وهي:

ان الرسول الكريم ﷺ قد رأى بنظر النبوة الانيس بالغيب، النافذ الى المستقبل، أنه بعد نحو ثلاثين أو أربعين سنة ستقع فتن عظيمة في صفوف الصحابة والتابعين، وستراق الدماء الزكية. فشاهد ان ابرز من فيها هم الاشخاص الثلاثة الذين سترهم تحت عباءته. فلأجل الاعلان عن تبرئة علي في نظر الأمة.. وتسلية الحسين وعزائه.. وتهنئة الحسن واظهار شرفه ومكانته وعظيم نفعه للأمة برفعه فتنة كبيرة بالصلح.. وطهارة نسل فاطمة وشرافتهم واهليتهم بلقب أهل البيت، ذلك العنوان الشريف الرفيع.. لأجل كل ذلك ستر ﷺ اولئك الاربعة مع نفسه تحت ذلك العباء واهباً لهم ذلك العنوان المشرف: آل العباء الخمسة.

نعم! ان سيدنا علياً رضي الله عنه كان خليفة للمسلمين بحقٍ، ولكن لأن الدماء الزكية التي اريقت جليلة فان براءته منها وتبرئته في نظر الامة لها اهميتها من حيث

(١) قال البوصيري صاحب بردة المديح في القصيدة «الهمزية» ومطلعها «كيف ترقى رقيك الانبياء..»:

كذا عليٌّ مع ابنيه وامهما　　اهلُ العباء كما قد جاءنا الخبرُ　　- المترجم.

(٢) حديث صحيح ذكره الاستاذ النورسي بالمعنى مختصراً، وللحديث طرق كثيرة. انظر المسند ٤٨، ١٠٧، ٢٩٢/٦، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٤ والبخاري في التاريخ الكبير ٦٩/٢/١ والحاكم ١٤٧/٣ والترمذي واحمد في فضائل الصحابة برقم ٩٨٧، ١١٤٩، ١٤٠٤، ١١٧٠، ١٣٩٢ وذكر الهيثمي في المجمع ١٦٦/٩ والسيوطي في الدر المنثور ١٩٨/٥ له طرقاً كثيرة مع مخرجيها عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم. اخرج الطبراني في الاوسط عن عليٍ أنه دخل على النبي ﷺ وقد بسط شملةً فجلس عليها هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين، ثم اخذ النبي بمجامعه فعقد عليهم ثم قال: «اللهم ارضَ عنهم كما انا عنهم راضٍ» قال الهيثمي (١٦٩/٩): رجاله رجال الصحيح غير عبيد بن طفيل وهو ثقة، كنيته ابو سيدان ا هـ. حياة الصحابة ١٠٥/٤.

وظيفة الرسالة. لذا يبرئ الرسول الكريمﷺ ساحته بتلك الصورة. فيدعو الى السكوت بحقه كلّ من ينتقده ويخطئه ويضلله من الخوارج والموالين للامويين المتجاوزين عليه.

نعم ان الخوارج واتباع الامويين المغالين بتفريطهم في حق سيدنا علي رضي الله عنه وتضليلهم له وإفراط الشيعة وغلوهم وبدعهم وتبرّيهم من الشيخين مع وقوع الفاجعة الاليمة على الحسين رضي الله عنه، قد اضرّ اهل الاسلام ايمّا ضرر. فالرسول الكريمﷺ ينجي بهذا الدعاء والعباء علياً والحسين من المسؤولية والتهم، وينقذ امته من سوء الظن في حقهما كما يهنئ - من حيث مهمة الرسالة - الحسن الذي أحسن الى الامة بالصلح الذي قام به، ويعلن ان النسل المبارك الذي يتسلسل من فاطمة سينالون شرفاً رفيعاً، وان فاطمة ستكون كريمة من حيث ذريتها كما قالت ام مريم في قوله تعالى:

﴿ واني اعيذها بكَ وذُريتها من الشيطان الرجيم ﴾(آل عمران:٣٦)

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الابرار وعلى اصحابه المجاهدين المكرمين الاخيار. آمين....

المقام الثاني

يضم هذا المقام ستةً من اُلوف اسرار

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ »

تنبيه:

لقد ظهر عن بُعد لعقلي الخامد نورٌ ساطع أشرق من اُفق رحمة الله في البسملة. فاردتُ تسجيله في صورة ملاحظات ومذكِّرات خاصة بيّ، وقمت بمحاولة اقتناص ذلك النور الباهر باحاطته بسور من أسراره البالغة نحو ثلاثين سراً، كي يسهل حصره ويتيسر تدوينه، إلاّ أنني مع الاسف لم اوفَّق تماماً الآن في مسعاي، فانحسرت الأسرار الى ستة فقط.

والخطاب في هذا المقام موجّه الى نفسي بالذات. فحينما اقول: « أيها الانسان! » أعني به نفسي.

فهذا الدرس مع كونه خاصاً بي الاّ انني اعرضه للانظار الصائبة لأخوتي المدققين ليكون « المقام الثاني من اللمعة الرابعة عشرة » وعلّه يكون موضع فائدة لمن ارتبط بي برباط روحي، والذي نفسُه اكثر يقظة مني وانتباهاً.

هذا الدرس متوجّه الى القلب اكثر منه الى العقل ومتطلّع الى الذوق الروحي اكثر منه الى الدليل المنطقي.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

﴿قَالَتْ: يا ايُّها المَلؤا اني اُلقِيَ اِليَّ كِتابٌ كَريمٌ ۞ اِنّه مِنْ سُلَيْمٰنَ وانه بِسْمِ اللهِ الرَحْمَن الرّحيم ﴾(النمل:٢٩-٣٠)

سنذكر في هذا المقام بضعةً من الأسرار:

السر الأول:

اثناء تأملي في البسملة رأيت نوراً من أنوار «بِسْمِ الله الرَحْمن الرّحيم» على الصورة الآتية:

ان هناك ثلاث علامات نيّرة ساطعة للربوبية على سيماء الكائنات، وعلى قسمات وجه الأرض، وعلى ملامح وجه الانسان. هذه العلامات الزاهرة والآيات الساطعة متداخل بعضُها في البعض الآخر، حتى ان كلاً منها يبين نموذجَ الآخر ومثاله.

فالعلامة الاولى:

هي علامة الأُلوهية، تلك الآية الكبرى، الساطعة من التعاون والتساند والتعانق والتجاوب الجاري في اجزاء الكون كله؛ بحيث يتوجه «بسمِ اللهِ» اليها ويدل عليها.

العلامة الثانية:

هي علامة الرحمانية، تلك الآية العظمى، الزاهرة من التشابه والتناسب والانتظام والانسجام واللطف والرحمة الساري في تربية النباتات والحيوانات؛ بحيث يتوجّه «بسْمِ اللهِ الرَحمن» اليها ويدل عليها.

ثم *العلامة الثالثة:*

وهي علامة الرحيمية، تلك العلامة السامية، الظاهرة من لطائف الرأفة الإلهية ودقائق شفقتها وأشعة رحمتها المنطبعة على سيماء الماهية الجامعة للانسان، بحيث يتوجّه اسم «الرحيم» الذي في «بسْمِ الله الرَحمن الرّحيم» اليها ويدل عليها.

أي أن «بسْم الله الرّحمن الرحيم» عنوان قدسي لثلاث آيات من آيات الأحدية، حتى أنه يشكّل سطراً نورانياً في كتاب الوجود، ويخط خطاً ساطعاً في صحيفة العالم، ويمثل حبلاً متيناً بين الخالق والمخلوق. أي أن «بسْمِ الله الرّحمن الرحيم» نزولاً من العرش الأعظم يرتبط طرفه ونهايته بالانسان الذي هو ثمرة الكائنات ونسخة العالم المصغرة، فيربط الفرش بالعرش الأعظم، ويكون سبيلاً ممَهداً لعروج الانسان الى عرش كمالاته.

السر الثاني:

ان القرآن الكريم يبين دوماً تجلي «الأحدية» ضمن تجلي «الواحدية» ليحول دون غرق العقول وتشتتها في تلك «الواحدية» الظاهرة في مخلوقات كثيرة لا يحصرها العّد.

ولنوضح ذلك بمثال:

الشمس تحيط بضيائها بما لا يحدّ من الاشياء. فلأجل ملاحظة ذات الشمس في مجموع ضيائها يلزم ان يكون هناك تصورٌ واسع جداً ونظرٍ شاملٍ. لذا تُظهِر الشمس ذاتها بوساطة انعكاس ضوئها في كل شئ شفاف، اي يظهر كلِ لماعٍ حسب قابليته جلوةَ الشمس الذاتية مع خواصها كالضياء والحرارة، وذلك لئلا تنسى ذاتَ الشمس. ومثلما يُظهر كلُ لماع الشمسَ بجميع صفاتها حسب قابليته، تحيط ايضاً كل صفةٍ من صفات الشمس كالحرارة والضياء والوانه السبعة بكل ما يقابلها من اشياء.

ولا مشاحة في الامثال (ولله المثل الأعلى) فكما ان لله سبحانه الأحد الصمد تجلياً في كل شئ بجميع اسمائه الحسنى، ولا سيما في الأحياء، وبخاصةٍ في مرآة ماهيّة الانسان. كذلك كل اسم من اسمائه الحسنى المتعلقة بالموجودات يحيط بالموجودات جميعاً من حيث الوحدة والواحدية.

فيضع سبحانه وتعالى طابعَ الأحدية في الواحدية نصبَ عينِ الانسان وامام نظره كيلا تغرق العقولُ وتغيب في سعة الواحدية ولئلا تنسى القلوبُ وتذهل عن الذات الإلهية المقدسة.

فـ«بسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم» يدل على ثلاثٍ من العقد المهمة لذلك الطابع المميز ويبينها.

السر الثالث:

انه بديهي، بل مشاهَد ان الرحمة الإلهية هي التي أبهجت الكائنات التي لايحدها حدود..

وان الرحمة نفسها هي التي أنارت هذه الموجودات المغشية بالظلمات..

وأن الرحمة أيضاً هي التي ربَّت في أحضانها هذه المخلوقات المتقلبة في حاجات لا حد لها..

وان الرحمة ايضاً هي التي وجّهت الكائنات من كل صَوب وحَدب وساقتها نحو الانسان وسخَّرتْها له، بل جعلتها تتطلع الى معاونته وتسعى لإمداده، كما تتوجه أجزاء الشجرة الى ثمرتها..

وان الرحمة ايضاً هي التي عمَّرت هذا الفضاء الواسع وزيَّنت هذا العالم الخالي..

وان الرحمة نفسها هي التي جعلت هذا الانسان الفاني مرشحاً للخلود والبقاء، وأهَّلته لتلقّي خطاب رب العالمين ومَنَحَتْه فضل ولايته سبحانه.

فيا أيها الانسان!

ما دامت الرحمة محبوبة، ولها من القوة والجاذبية والإمداد الى هذا الحد، فاستعصم بتلك الحقيقة بقولك «بِسْمِ اللهِ الرَحمن الرّحيم» وانقذ نفسك من هول الوحشة المطلقة، وخلّصها من آلام حاجات لانهاية لها، وتقرّب الى ذي العرش المجيد، وكن مخاطباً أميناً وخليلاً صادقاً له، بأنوار تلك الرحمة ورأفتها.

نعم! ان حشدَ الكائنات وجمعَها حول الانسان ضمن حكمةٍ مقدّرة، وجعلَ كلٍ منها يمد يد العون اليه لدفع حاجاته المتزايدة، نابع بلاشك من احدى حالتين اثنتين: فإما أن كل نوع من أنواع الكائنات يعرف الانسان ويعلم به فيطيعه ويسعى لخدمته، أي أن هذا الانسان الغارق في عجز مطلق يملك قدرة سلطان مطلق!! (وهذا بعيد كل البعد عن منطق العقل فضلاً عما فيه من محالات لا تحد).. أو أن هذا التعاون والامداد انما يتم بعلمٍ محيط لقادر مطلق محتجب وراء الكائنات.. أي أن أنواع

الكائنات لا تعرف هذا الانسان لتمُد له يدَ العون، وانما هي دلائل على مَن يعرف هذا الانسان ويرحمه، ويعلم بحاله.. وهو الخالق الرحيم.

فيا أيها الانسان!

عُدْ الى رشدك! أوَ يمكن ألاّ يعلم بك وألاّ يراك هذا الرب الرحيم، وهو الذي دفع المخلوقات لمعاونتك ملبية جميع حاجاتك؟

فما دام سبحانه يَعلمُ بك ويُعلمُك بعلمهِ هذا باسباغ رحمته عليك، فما عليك الا بذل الجهد لمعرفته، والسعي لاظهار معرفتك له بتوقير أوامره.

واعلم يقيناً انه ليست الا حقيقة الرحمة الإلهية ـ التي تسع الحكمة والعناية والعلم والقدرة ـ قد سخّرتْ لك هذه الكائنات، وجَعَلَتها طوع ارادتك، وأنت المخلوق الضعيف الصغير العاجز الفقير الفاني.

فرحمةٌ عظيمة الى هذا الحد، واسعةٌ الى هذا القدر.. لاشك أنها تطلب منك شكراً كلياً خالصاً، وتعظيماً لا يشوبه شئ.

فاعلم انه لايترجم لك ذلك الشكر الكلي والتعظيم الخالص الاّ «بسْم اللّٰه الرَحمن الرّحيم». فقله، واتخذه وسيلة لبلوغك تلك الرحمة الواسعة، واجعله شفيعاً لَك لدى الرحمن الرّحيم.

حقاً! ان وجود الرحمة وظهورها أظهر من الشمس في كبد السماء؛ اذ كما يحصل نسجُ نقشٍ جميل في المركز من تناسق لحمته وسُداه ومن انتظام اوضاع خيوطٍ تمتد من كل جهة نحو المركز.. فان خيوط شعاع النور النابع من تجلي ألف اسم واسم من الاسماء الحسنى، والممتدة الى هذا الكون الشاسع تنسج على سيمائه نسيجاً في غاية الروعة والجمال ضمن اطار الرحمة السابغة، حتى يُظهِر للعقول – أوضحَ من الشمس للعيون – ختماً واضحاً للرحيمية، ونقشاً رائعاً للشفقة والرأفة، وشعاراً بديعاً للعناية.

نعم، ان الذي ينظّم الشمس والقمر والعناصر والمعادن والنباتات والحيوانات، وينسقها جميعاً بأشعة ألف اسم واسم، كأنها لحمةُ نقشٍ بديعٍ وسُداه، وخيوطه

النورانية، ويسخّرها جميعاً في خدمة الحياة.. والذي يُظهر رأفته وشفقته على الخلق اجمعين بما اودع في الوالدات ـ من نبات وحيوان ـ تلك الشفقة الحلوة اللذيذة تجاه صغارها.. والذي أظهر أسطع تجليات رحمته، وأجمل نقوش ربوبيته سبحانه، بتسخيره الأحياء لحياة الانسان، مبيناً به منزلة الانسان لديه وأهميته عنده.. هو الرحمن ذو الجمال الذي جعل رحمته الواسعة هذه شفيعة مقبولة مأنوسة لدى غناه المطلق، يتشفّع بها ذوو الحياة والانسان المفتقر فقراً مطلقاً الى تلك الرحمة.

فيا أيها الانسان!

ان كنت انساناً حقاً، فقل: «بسم الله الرحمن الرحيم» لتظفر بذلك الشفيع.

انه بديهي، بل مشاهَد ان الرحمة هي التي تربي طوائف النباتات والحيوانات التي تربو على أربعمائة ألف طائفة، رغم تباينها وتنوعها.. وهي التي تدير أمورها جميعاً بلا التباس ولا نسيان ولا اختلاط، وفي أنسب وقت وأكمل نظام وأتم حكمة وأوفق عناية، حتى وضَعَتْ بهذه الادارة والتربية طابعَ الاحدية وختمها على سيماء الارض.

نعم، ان وجود تلك الرحمة ثابت وقطعي كوجود الموجودات المبثوثة على الارض، كما أن دلائل تحققها بعدد تلك الموجودات.

ومثلما نشاهد على وجه الارض آية الاحدية وسمتها وختم الرحمة وطابعها، فان على سيماء الماهية المعنوية الانسانية أيضاً طابع الرحمة.. هذا الطابع والختم ليس بأقل وضوحاً من ذلك الذي على وجه الارض، ولا من ذلك الذي على وجه الكائنات.. بل ان سمة هذه الرحمة لها من الجامعية والشمول حتى كأنها بؤرة لامّة لأنوار تجليات الاسماء الحسنى.

فيا أيها الانسان!

ان الذي وهب لك هذه السيماء المعنوية، ووضع عليها الرحمة وختَمها بختم الاحدية، أمن الممكن أن يتركك سدىً، ولا يكترث بك ولا يهتم ولا يراقب أعمالك وحركاتك؟ أوَ من الممكن أن يجعل حركة جميع الكائنات المتوجهة اليك عبثاً لا طائل من ورائها؟ أو يجعل شجرة الخلقة العظيمة شجرة تافهة، وثمرتها ثمرة

فاسدة؟ أم هل يمكن أن يضع رحمته الظاهرة ظهور الشمس - والتي لا تحتمل شكاً ولا ريباً - ويضع حكمته الواضحة وضوح النور، موضعَ الانكار والجحود؟ كلا.. ثم كلا.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فيا أيها الانسان!

اعلم ان لبلوغ عرش تلك الرحمة معراجاً.. ذلك المعراج هو: «بسْم الله الرَحمن الرّحيم».

فان شئت أن تعرف مدى أهمية هذا المعراج ومدى عظمته ومكانته فانظر الى مستهل سور القرآن الكريم البالغة مائة واربع عشرة سورة، وانظر بدايات كل كتاب قيّم، ولاحظ بدء كل أمر ذي بال. حتى يُعدّ حجة قاطعة على عظمة البسملة وعلو قدرها ما قاله الامام الشافعي رضي الله عنه وأمثاله من المجتهدين العظام: ان البسملة رغم أنها آية واحدة فانها نزلت في القرآن مائة وأربع عشرة مرة.

السر الرابع:

ان تجلي الواحدية في مخلوقاتٍ لا حدّ لها، لايحيط به كلُ مَن يقول: ﴿ **اياك نعبد** ﴾. حيث يتشتت الفكر ويتيه في تلك الكثرة، اذ يلزم لملاحظة ذات الله الأحد من خلال مجموعِ المخلوقات لدى خطاب ﴿ **اياك نعبدُ واياك نستعين** ﴾ وجود قلبٍ واسعٍ يسع الارضَ كلها.

فبناءً على هذا السر الدقيق فإن الله سبحانه يبيّن بجلاء طابعَ الأحدية في كل جزءٍ مثلما يُظهره في كل نوعٍ، وذلك لتُشدَ الانظارُ الى ذات الله الأحد، وليتمكن كلُ شخص - مهما بلغتْ مرتبته - من التوجّه المباشر في خطابه ﴿ **اياك نعبد واياك نستعين** ﴾ الى ذات الله الأقدس سبحانه من دون تكلّف أو صعوبة.

فتبياناً لهذا السر العظيم فان القرآن الكريم عندما يبحث في آيات الله في اجواء الآفاق وفي اوسعِ الدوائر اذا به يذكُر أصغَر دائرةٍ من دوائر المخلوقات وأدق جزئيةٍ من جزئياتها، اظهاراً لطابع الأحدية بوضوح في كل شئ.

مثال ذلك:

عندما يبين القرآن الكريم آيات خلق السماوات والأرض يعقبها بآيات خلق

الانسان وبيان دقائق النعمة في صوته وبدائع الحكمة في ملامحه، كي لايتشتت الفكرُ في آفاق شاسعة، ولا يغرق القلبُ في كثرة غير متناهية، ولتبلغ الروحُ معبودها الحق دون وساطة.

فالآية الكريمة الآتية تبين الحقيقة السابقة بياناً معجزاً: ﴿ **ومِنْ آياتِه خَلْقُ السّمٰوات والأرضِ واختلافُ ألْسِنَتِكُم وألوانِكُم** ﴾ (الروم: ٢٢).

وكذا فان آيات الوحدانية واختامَها مع انها قد وُضعت في المخلوقات بكثرة غير متناهية، ابتداءً من أوسع الاختام واكثرها كلية الى اصغرها جزئية، في دوائر متداخلة وفي مراتب متنوعة وانواع شتى، الاّ أن وضوح هذه الاختام للوحدانية ـ مهما بلغ من الظهور ـ فهو وضوحٌ ضمن كثرةٍ من المخلوقات لايُوفي حقّ الوفاء حقيقة الخطاب في ﴿ **اياك نعبد** ﴾. لذا يلزم وجود طابع الأحدية في ثنايا ختم الوحدانية، كي يفتح الطريق امام القلب للوصول الى ذات الله الأقدس من دون ان يذكّره بالكثرة.

ثم، لأجل لفت الانظار الى طابع الأحدية، وجلب القلوب نحوها، فقد وُضع فوق تلك السمة للأحدية نقشٌ بديعٌ في منتهى الجاذبية، ونورٌ باهر في منتهى السطوع، وحلاوةٌ لذيذة في منتهى الذوق، وجمالٌ محبوب في منتهى الحُسن، وحقيقة رصينة في منتهى القوة، تلك هي سمة الرحمة وختم الرحيمية.

نعم! ان قوة تلك الرحمة هي التي تجلب انظار ذوي الشعور نحوها فتُوصلها الى طابع الأحدية وتجعلها تلاحظ ذات الأحد الأقدس حتى تجعل الانسان يحظى بالخطاب الحقيقي في ﴿ **اياك نعبد واياك نستعين** ﴾.

وهكذا فـ «بسْمِ اللهِ الرَحمن الرّحيم» من حيث انه فهرس لفاتحة الكتاب المبين وخلاصة مجملة له، قد اصبح عنواناً لهذا السر العظيم المذكور، وترجماناً له، فالذي يتمكن من أن ينال هذا العنوان يستطيع ان يجول في طبقات الرحمة، والذي يستنطق هذا الترجمان يتعرف على اسرار الرحمة ويتعلمها ويشاهد أنوار الرحيمية والرأفة.

السر الخامس:

لقد ورد في حديث شريف «ان الله خلق آدمَ على صورة الرحمن»[١] أو كما قال ﷺ.

فسَّرَ قسمٌ من اهل الطرق الصوفية هذا الحديث الشريف تفسيراً عجيباً لايليق بالعقائد الايمانية، ولاينسجم معها. بل بلغ ببعضٍ من أهل العشق ان نظروا الى السيماء المعنوي للانسان نظرتهم الى صورة الرحمن! ولما كان في اغلب اهل العشق حالة استغراقية ذاهلة والتباس في الامور، فلربما يُعذَرون في تلقّياتهم المخالفة للحقيقة. الاّ أن اهل الصحو، واهل الوعي والرشاد يرفضون رفضاً باتاً تلك المعاني المنافية لاسس عقائد الايمان، ولا يقبلونها قطعاً. ولو رضي بها أحدٌ فقد سقط في خطأ وجانَبَ الصواب.

نعم، ان الذي يدبر امور الكون ويهيمن على شؤونه بسهولة ويسر كادارة قصر أو بيت.. والذي يحرك النجوم واجرام السماء كالذرات بمنتهى الحكمة والسهولة.. والذي تنقاد اليه الذرات وتأتمر بأمره وتخضع لحكمه..

نعم، ان الذي يفعل هذا كله هو الله القدوس سبحانه.. فكما انه منزّه ومقدّس عن الشرك؛ فلا شريكَ له، ولا نظيرَ، ولا ضدّ ولا ندّ، فليس له قطعاً مثيلٌ ولا مثالٌ ولا شبيهٌ ولاصورةٌ ايضاً، وذلك بنص الآية الكريمة ﴿**ليس كَمثْله شئٌ وهو السَّميعُ البَصيرُ**﴾ (الشورى: ١١) الاّ أن شؤونه الحكيمة وصفاته الجليلة وأسماءه الحسنى يُنظر اليها بمنظار التمثيل والمَثَل حسب مضمون الآية الكريمة: ﴿**ولَه المَثَلُ الأعلى في السّمـٰوات والأرض وهو العزيزُ الحكيمُ**﴾ (الروم: ٢٧). أي ان المَثَل والتمثيل وارد في النظر الى شؤونه الحكيمة سبحانه.

ولهذا الحديث الشريف مقاصد جليلة كثيرة، منها: ان الانسان مخلوق على صورة تُظهر تجلي اسم الله «الرحمن» اظهاراً تاماً.

---

(١) «خلق الله عز وجل آدم على صورته..» حديث صحيح اخرجه البخاري برقم ٦٢٢٧ ومسلم برقم ٢٨٤١ واحمد ٣١٥/٢ وابن خزيمة في التوحيد ص٢٩. أما حديث «ان الله خلق آدم على صورة الرحمن» فقد عزاه الحافظ في الفتح ١٨٣/٥ لابن ابي عاصم في السنة والطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الحافظ باسناد رجاله ثقات.

نعم، لقد بينا في الأسرار السابقة انه مثلما يتجلى اسمُ «الرحمن» من شعاعات مظاهر ألف اسمٍ واسم من الأسماء الحسنى على وجه الكون، ومثلما يُعْرَض اسم «الرحمن» بتجليات لاتحد للربوبية المطلقة على سيماء الأرض، كذلك يُظهِر سبحانه التجلي الأتم لذلك الأسم «الرحمن» في الصورة الجامعة للأنسان، يُظهِره بمقياس مصغر بمِثلِ ما يُظهره في سيماء الأرض وسيماء الكون بمقياس اوسع واكبر.

وفي الحديث الشريف اشارة كذلك الى ان في الانسان والاحياء من المظاهر الدالة على «الرحمن الرحيم» ما هو بمثابة مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه، فدلالة الانسان عليه سبحانه ظاهرة قاطعة جلية، تشبه في قطعيتها وجلائها دلالة المرآة الساطعة بصورة الشمس وانعكاسها على الشمس نفسها. فكما يمكن ان يقال لتلك المرآة: انها الشمس، اشارةً الى مدى سطوعها ووضوح دلالتها عليها، كذلك يصح أن يقال ـ وقد قيل في الحديث ـ ان في الانسان صورة «الرحمن»، اشارة الى وضوح دلالته على اسم «الرحمن» وكمال مناسبته معه ووثوق علاقته به. هذا وان المعتدلين من اهل وحدة الوجود قد قالوا: «لا موجود الاّ هو» بناء على هذا السر من وضوح الدلالة، وعنواناً على كمال المناسبة.

اللهمَ يا رَحمن يا رّحِيم بحق «بسْم الله الرَحمن الرّحيم» إرحمنا كما يليق برحيميتك، وفهّمنا أسرار «بسْم اللهِ الرَحمن الرّحيم» كما يليق برحمانيتك آمين.

السر السادس:

أيها الانسان المتقلب في خضم عجز لانهاية له وفقر لاحد له، اذا أردت أن تفهم كيف أن الرحمة أعظم وسيلة وأرجى شفيع، فاعلم:

أن الرحمة أقوى وسيلة للوصول الى سلطان عظيم ذي جلال، تنقاد له النجوم والذرات معاً جنوداً مطيعين طاعة تامة في انتظام تام.. ذلك السلطان ذو الجلال والاكرام رب العالمين المستغني عن الخلق أجمعين، الكبير المتعالي عن الموجودات، فلا حاجة له أصلاً الى الموجودات، بل كل شئ قد تواضع لعظمته واستسلم لقدرته وذل لعزته وخضع لهيبة جلاله.. فالرحمة أيها الانسان ترفعك الى ديوان حضور ذلك الغني المطلق، وتجعلك خليلاً لذلك السلطان السرمدي الاعظم، بل تعرج بك الى مقام خطابه الجليل، وتجعلك عبداً مكرماً محبوباً عنده.

ولكن، كما انك لا تصل الى الشمس لبُعدك عنها، بل لا يمكنك التقرب اليها بحال، فان ضوءها يُسلّم اليك تجليها وصورتها بواسطة مرآة.. (ولله المثلُ الأعلى) فنحن على الرغم من بُعدنا المطلق عن الله سبحانه وتعالى، فان نور رحمته يقربه الينا.

فيا أيها الانسان! ان من يظفر بهذه الرحمة فقد ظفر بكنز عظيم لايفنى، كنزٍ ملؤه النور..

أما طريق الوصول الى ذلك الكنز العظيم فاعلم: ان اسطع مثالٍ للرحمة، وأفضل مَن يمثلها، وأبلغَ لسانٍ ناطقٍ بها، وأكرم داعٍ اليها، هو الذي سميَ في القرآن الكريم ﴿**رحمة للعالمين**﴾ وهو رسولنا الحبيب ﷺ. فالطريق الامثل لبلوغ تلك الخزينة الابدية هو اتباع سنته المطهرة.

ولكن كيف الوصول الى الرسول الحبيب ﷺ، وما الوسيلة اليه؟

فاعلم ان الوسيلة هي الصلاة عليه.

نعم! الصلاة عليه تعني الرحمة، فالصلاة عليه دعاء بالرحمة لتلك الرحمة المجسمة الحية، وهي وسيلة الوصول الى مَن هو رحمة للعالمين.

فيا أيها الانسان! اجعل الصلاة عليه وسيلة الوصول اليه، ثم استمسك به ليبلغك رحمة الرحمن الرحيم. فان الامة جميعها بدعائها وصلواتها على الرسول الكريم ﷺ انما تثبت بوضوح مدى قيمة هذه الرحمة ومدى أهمية هذه الهدية الإلهية، ومدى سعتها وعظمتها.

الخلاصة:

ان حاجب خزينة الرحمة الإلهية وأكرم داع اليها هو الرسول الكريم ﷺ كما أن أسمى مفتاح لتلك الخزينة هو «بسم الله الرحمن الرحيم» واسلس ما يفتحها هو الصلوات على الرسول الحبيب ﷺ.

اللهم بحق اسرار بسم الله الرحمن الرحيم صلِّ على مَن أرسلته رحمة للعالمين كما يليق برحمتك وبحرمته وعلى آله وأصحابه أجمعين، وارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك من خلقك.. آمين.

﴿**سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاَّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكيم**﴾

اللمعة الخامسة عشرة

وهي فهارس كليات رسائل النور: الكلمات، المكتوبات، واللمعات – الى اللمعة الرابعة عشرة – وحيث أن كل مجموعة خصّت بفهرستها لذا لم تدرج هنا.

اللمعة السادسة عشرة

باسمه سبحانه

﴿وَاِنْ مِنْ شَيءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

اخوتي الأعزاء الصدّيقين: العالم صبري، الحافظ علي، مسعود، المصطفون، خسرو، رأفت، بكر بك، رشدي، لطفيون، الحافظ احمد، الشيخ مصطفى وآخرون.

لقد احسست احساساً قلبياً أن أبيّن لكم باختصار أربع مسائل صغيرة ولكنها مهمة، تلك التي اصبحت موضع تساؤل.. ابيّنها لكم للعلم والاطلاع.

السؤال الاول المثير:

أخبر احد اخواننا وهو السيد عبد الله چاپرازادة كما اخبر أناس آخرون ايضاً عن أن اهل الكشف قد قالوا بحدوث بشارات وفتوح لاهل السنة والجماعة وتكشف عنهم الغمة في رمضان الماضي، ولكن لم يظهر شئ من هذا القبيل!

فسألوني: كيف يخبر امثال هؤلاء من اهل الولاية والكشف عما هو خلاف الواقع؟

وخلاصة ما اجبتهم مباشرةً، وهو من سوانح القلب، هي:

لقد ورد في الحديث الشريف مامعناه: ان البلاء ينزل وتقابله الصدقة فتردّه(١).

يتبين من هذا الحديث الشريف: ان المقدرات عندما تأتي من الغيب للوقوع، تأتي مرتبطة ببعض الشروط. فتتأخر عن الوقوع بتأخر الشروط. فتتأخر ايضاً المقدّرات التي اطلع عليها الاولياء من اصحاب الكشف اذ ليست مقدرات مطلقة، بل مقيدة ببعض الشروط، فلعدم حدوث تلك الشروط لاتقع تلك الحادثة. إذ تلك الحادثة كالأجل المعلق، قدكتبت في لوح المحو والاثبات، الذي هو نوع من انواع سجل اللوح الازلي. فالكشف قلّما يرقى الى اللوح الازلي، بل لا يستطيع معظم الكشوف الرقي الى هناك. فبناءً على هذا:

ان الاخبار التي أُخبرت عنها في شهر رمضان الفائت وعيد الاضحى وفي اوقات اخرى، وبناء على الاستنباط أو بنوع من الكشفيات، لم تجد شروطها المعلقة بها، لذا لم تأت الى ميدان الواقع. فالمخبرون عنها لا يُكذّبون، لأن تلك الحوادث كانت مقدّرة، الاّ انها لاتقع الاّ بمجئ شروطها، واذ لم تأت الشروط فلا تقع الحادثة.

نعم! ان الدعاء الخالص الذي يرفعه معظم اهل السنة والجماعة في رمضان المبارك دفعاً للبدع، كان شرطاً وسبباً مهماً له، ولكن دخول البدع في الجوامع في الشهر المبارك مع الاسف حجبت الاستجابة والقبول، فلم تفرج الكربة ولم تكشف الغمة؛ اذ كما تدفع الصدقةُ البلاءَ – بدلالة الحديث الشريف – فالدعاء الخالص من الاكثرين يجذب الفرج العام الشامل. ولكن لأن القوة الجاذبة لم تأتِ الى الوجود، فلم توهب الفرج والفتح.

---

(١) اصل الحديث: عن عائشة رضي الله عنها ان النبي ﷺ قال: «لايغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وان البلاء لينزل، فيتلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة» حديث حسن اخرجه الحاكم. وحديث «لايردّ القضاء الاّ الدعاء» قال الترمذي: حسن غريب (تمييز الطيب لابن الديبع الشيباني). ـ المترجم.

السؤال الثاني المثير:

بينما كان ينبغي القيام بمحاولة، والشروع بتدبير، ازاء وضع سياسي مهيج، في غضون هذين الشهرين، إذ كانت تؤدي تلك المحاولة – باحتمال قوي – الى ما يفرحني ويدخل البهجة في قلوب الكثيرين من اخوتي المقربين؛ لم أعبأ بذلك الوضع، بل قمت خلافاً له احمل فكراً في صالح اهل الدنيا الذين يضايقونني! فظلّ البعض في حيرة مضاعفة من امري، اذ قالوا: ان السياسة التي يتبعها ضدك هذا المبتدع وثلة من المنافقين الرؤساء، كيف تجدها حتى لاتهاجمها؟

وخلاصة جوابي:

ان اعظم خطر على المسلمين في هذا الزمان هو فساد القلوب وتزعزع الايمان بضلال قادم من الفلسفة والعلوم. وان العلاج الوحيد لإصلاح القلب وانقاذ الايمان انما هو النور واراءة النور. فلو عُمل بهراوة السياسة وصولجانها وأُحرز النصر، تدنى اولئك الكفار الى درك المنافقين. والمنافق – كما هو معلوم – أشد خطراً من الكافر وأفسد منه. فصولجان السياسة اذاً لايصلح القلب في مثل هذا الوقت، حيث يُنزل الكفر الى اعماق القلب ويتستر هناك وينقلب نفاقاً.

ثم ان شخصاً عاجزاً مثلي، لايمكنه ان يستعمل النور والهراوة معاً في هذا الوقت، لذا فانا مضطر الى الاعتصام بالنور بما املك من قوة، فيلزم عدم الالتفات الى هراوة السياسة اياً كان نوعها. أما ما يقتضيه الجهاد المادي، فتلك الوظيفة ليست مناطة بنا حالياً. نعم! ان الهراوة هي لوقف تجاوز الكافر أو المرتد عند حدّه، ولكن لانملك سوى يدين، بل لو كانت لنا مائة من الايدي ما كانت تكفي الاّ للنور فلا يد لنا تمسك بهراوة السياسة.

السؤال الثالث المثير:

ان هجوم الاجانب كانكلترا وايطاليا على هذه الحكومة في الآونة الأخيرة يؤدي الى إثارة الحمية الاسلامية وهي ركيزة حقيقية ومنبع قوة معنوية لحكومات خلت في هذا الوطن منذ أمد بعيد وستصبح وسيلة لإحياء الشعائر الاسلامية – الى حدٍ ما – ولدفع شئ من البدع.. فلِم عارضتَ هذه الحرب بشدة وسألت الله أن تحل القضية

بسلام وأمان. فقد اصبحت منحازاً لحكومة المبتدعين، وهذا بذاته وبنتائجه موالاة للبدع!؟

الجواب: نحن نسأل الله الفرج والبشارة والسرور والفتح، ولكن ليس بسيف الكفار.. فسحقاً لسيوفهم ولتكن وبالاً عليهم. نحن لسنا بحاجة ولانرجو الفائدة من سيوفهم، لأن اولئك الاجانب المتمردين هم الذين سلطوا المنافقين على أهل الايمان، وهم الذين ربّوا الزنادقة في احضانهم.

أما مصيبة الحرب وبلاؤها، فهي ضرر بالغ لخدمتنا القرآنية، لأن معظم اخواننا العاملين المضحين الفضلاء لاتتجاوز اعمارهم الخمس والاربعين سنة، فيضطرون الى الذهاب للحرب تاركين الخدمة القرآنية المقدسة. ولو أن لي مبلغاً من المال، لكنت ادفعه - بكل رضاي - لأجل انقاذ هؤلاء الاخوة الاكارم، حتى لو كان البدل النقدي ألف ليرة! ان انخراط مئات من اخواننا العاملين في الجندية، ومزاولتهم الجهاد المادي خسارة فادحة لخدمتنا، أشعر أنها تعدل اكثر من مائة ألف ليرة. بل ان ذهاب «ذكائي» الى الجندية خلال السنتين الماضيتين، أفقدنا اكثر من ألف ليرة من الفوائد المعنوية.

وعلى كل حال فان القدير ذا الجلال الذي يطهّر وجه السماء الملبّد بالغيوم ويبرز الشمس الساطعة في وجه السماء اللامع خلال دقيقة واحدة، هو القادر ايضاً على ان يزيل هذه الغيوم السوداء المظلمة الفاقدة للرحمة، ويظهر حقائق الشريعة كالشمس المنيرة بكل يسر وسهولة وبغير خسارة.

اننا نرجو هذا من رحمته الواسعة، ونسأله سبحانه الاّ يكلّفنا ذلك ثمناً غالياً. وان يمنح رؤوس الرؤساء العقل ويهب لقلوبهم الايمان. وهذا حسبنا، وحينها تتعدل الامور بنفسها وتستقيم.

السؤال الرابع المثير:

يقولون: ما دام الذي في ايديكم نور، وليس هراوة وصولجاناً، فالنور لايُعارض ولايُهرب منه، ولا ينجم من إظهاره ضرر. فلم اذاً توصون اصدقاءكم بأخذ الحذر وتمنعونهم من ابراز رسائل نيّرة كثيرة للناس كافة؟.

مضمون جواب هذا السؤال باختصار هو:

ان رؤوس كثير من الرؤساء مخمورة، لايقرأون، واذا قرأوا لايفهمون، فيخطئون ويتأولون ثم يعترضون ويهاجمون. ولسد الطريق في وجه هجومهم ينبغي عدم اظهار النور لهم لحين افاقتهم واسترجاع رشدهم.

ثم ان هناك غير منصفين كثيرين، ينكرون النور، أو يغمضون اعينهم دونه، لاغراض شخصية خاصة، أو خوفاً أو طمعاً..

ولأجل هذا اوصى اخوتي ايضاً ليأخذوا حذرهم ويحتاطوا للأمر، وعليهم الاّ يعطوا الحقائق احداً من غير اهلها، والاّ يقوموا بعمل يثير اوهام اهل الدنيا وشبهاتهم عليهم[1].

(١) حادثة لطيفة يمكن ان تكون وسيلة لمسألة جادة:
جاءني اول امس السيد محمد وهو صهر أحد اصدقائي، وقال مسروراً ومبشراً: لقد طبعوا في اسپارطة كتاباً من كتبك. وكثير من الناس يقرأونه. قلت: ذلك ليس طبع محظور، وانما هو ما أخذ من النسخ، فلا تعترض عليه الدولة. وقلت له ايضاً: اياك أن تحدث بهذا الخبر صديقيك المنافقين، اذ هما يتحريان امثال هذه الامور ليجعلوها وسيلة للهجوم.
وهكذا فيا اخوتي! على الرغم من ان هذا الشخص صهر احد اصدقائي، فيعدّ من احبابي بهذه العلاقة، الاّ انه بحكم مهنته الحلاقة صديق للمعلم الفاقد للوجدان وللمدير المنافق. وقد اخبره بهذا الخبر احد اخواننا هناك دون علم منه. وحسناً فعل أن اخبرني لأول مرة فنبهته. وبدوري نبهت الاخوة ايضاً. وسدّ بذلك الفساد. ونشرت آلة الرونيو الوف النسخ تحت هذا الستار. ـ المؤلف.

خاتمة

تسلمت اليوم رسالة من السيد رأفت، ولمناسبة سؤاله عن اللحية النبوية الشريفة اقول: انه ثابت في الحديث الشريف: ان عدد الشعرات التي سقطت من لحيته الشريفة ﷺ محدود، وهو عدد قليل، يتراوح بين ثلاثين الى اربعين، أو لا يتجاوز الخمسين والستين من الشعرات، ولكن وجود الشعرات في الوف الاماكن، استوقفني ودفعني الى التأمل والتفكر في حينه، فورد الى خاطري في ذلك الوقت:

ان شعرات اللحية الشريفة الموجودة الآن – في كل مكان – ليست هي شعرات اللحية الشريفة وحدها، بل ربما شعرات من رأسه المبارك ﷺ، اذ الصحابة الكرام الذين ما كانوا ليضيعوا شيئاً منه ﷺ قد حافظوا على تلك الشعرات المنورة المباركة – كلما حلق – والتي تبقى دائماً، فتلك الشعرات تربو على الألوف وهذا يمكن ان يكون مكافئاً للموجود الحاضر.

وورد ايضاً الى خاطري: تُرى هل الشعر الموجود في كل جامع بسند صحيح هو ثابت ايضاً انه من شعره ﷺ حتى تكون زيارتنا له معقولة؟

فسنح ببالي فجأة: ان زيارة تلك الشعرات انما هي وسيلة، وهي سبب لقراءة الصلوات على الرسول الكريم ﷺ، وهي مدار محبته وتوقيره. فلا تنظر الى ذات الوسيلة، وانما الى جهة كونها وسيلة، لذا فإن لم تكن هي شعرة حقيقية من شعراته ﷺ فهي تؤدي وظيفة تلك الوسيلة ما دامت تحسب – في الظاهر – هكذا، وتلقاها الناس شعرة من شعراته ﷺ. فتكون تلك الشعرة وسيلة لتوقيره ﷺ ومحبته واداء الصلوات عليه، فلا يلزم السند القطعي لتشخيص ذات الشعر وتعيينه بل يكفي الاّ يكون هناك دليل قاطع بخلافه، لأن مايتلقاه الناس وما قبلته الامة ورضيت به يكون في حكم نوع من الحجة. وحتى لو اعترض بعض اهل التقوى على مثل هذه الامور سواءً من جهة التقوى أو الأخذ بالاحوط أو العمل بالعزيمة فانما يعترضون على شعرات خاصة، ولو قيل انها بدعة، فانها داخلة ضمن البدعة الحسنة، لأنها الوسيلة للصلوات على الرسول الكريم ﷺ.

ويقول السيد رأفت في رسالته: «ان هذه المسألة قد اصبحت مثار المناقشة بين الاخوان». فاوصي اخواني: الاّ يناقشوا فيما يمكن ان ينجم عنه الانشقاق والافتراق، وانما عليهم أن يتعلموا تباحث الامور من دون نزاع، وعلى نمط التداول في الافكار.

باسمه سبحانه

﴿ وَاِنْ مِنْ شَيءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اخوتي الاعزاء من « سنركنت »[1] السادة: ابراهيم، شكري، الحافظ بكر، الحافظ حسين، الحافظ رجب.

ان المسائل الثلاث التي ارسلتموها بيد الحافظ توفيق، يعترض عليها الملحدون منذ أمد بعيد:

اولاها: ان المعنى الظاهري لقوله تعالى:

﴿ حتى اذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ في عَينٍ حَمِئةٍ ﴾ (الكهف:٨٦).
هو: انه رأى غروب الشمس في ماء عينٍ ذي طين وحرارة.

ثانيتها: اين يقع سد ذي القرنين؟

ثالثتها: نزول سيدنا عيسى عليه السلام وقتله الدجال في آخر الزمان.

ان اجوبة هذه الاسئلة طويلة، الاّ اننا نشير اليها باختصار فنقول:

ان آيات القرآن الكريم مبنية على اساليب اللغة العربية، وبوجه يفهمه عموم الناس بظاهر النظر، لذا كثيراً ما بينت المسائل بالتشبيه والتمثيل.

فقوله تعالى: ﴿ تغرب في عين حمئةٍ ﴾

يعني: ان ذا القرنين قد شاهد الشمس تغرب في ما يشبه عيناً موحلة وحامية، عند ساحل البحر المحيط الغربي، أو شاهد غروبها في عين جبل بركاني ذي لهيب ودخان.

---

(١) قصبة قريبة لبارلا منفى الاستاذ النورسي. ـ المترجم.

أي انه شاهد في ظاهر النظر غروبها في سواحل البحر المحيط الغربي، وفي جزء منه الذي تراءى له من بعيد كأنه بركة او حوض عين واسعة، فشاهد غروبها الظاهري خلف الابخرة الكثيفة المتصاعدة من مياه المستنقعات الواقعة عند سواحل البحر المحيط الغربي، لشدة حرارة شمس الصيف.. او شاهد اختفاء الشمس – التي هي عين السماء –(١) في عين ملتهبة انفلقت حديثاً على قمة جبل بركاني تقذف بحممها مازجة التراب والصخور والمعادن السائلة.

نعم ان تعابير القرآن الكريم البليغة المعجزة ترشد بهذه الجملة الى مسائل كثيرة:

فاولاً ان سياحة ذي القرنين كانت الى جهة الغرب.. وفي وقت عزّ الحر.. ونحو المستنقعات.. وموافقتها أوان غروب الشمس.. وحين انفلاق جبل بركاني.. كل هذا تشير به الآية الكريمة الى مسائل مليئة بالعبر منها استيلاء ذي القرنين على افريقيا استيلاءً تاماً.

ومن المعلوم ان الحركة المشهودة للشمس انما هي حركة ظاهرية، وهي دليل على حركة الارض الخفية – غير المحسوس بها – وهي تخبر عن تلك الحركة. وليس المراد حقيقة الغروب (٢)

ثم ان كلمة «عين» انما هي للتشبيه، اذ البحر العظيم يُرى من بعيد كحوض صغير، فتشبيه البحر المشاهد من خلف الضباب والابخرة المتولدة من المستنقعات والبرك بلفح الحرارة بـ«عين حمئة» اي عين تنبع من طين، وكذا استعمال كلمة «عين» التي تعني في اللغة العربية: الينبوع والشمس والبصر، ينطوي على سرّ بلاغي دقيق وعلاقة وثيقة (٣).

فكما بدا الغروب لنظر ذي القرنين من بُعد هكذا. فان الخطاب القرآني النازل من العرش الاعظم المهيمن على الأجرام السماوية، حريّ بهذا الخطاب السماوي

---

(١) والعين: عين الشمس، وعين الشمس: شعاعها الذي لاتثبت عليه العين. وقيل: العين الشمس نفسها، يقال: طلعت العين، وغابت العين. (لسان العرب لابن منظور). ـ المترجم.

(٢) جاء في تفسير البيضاوي: ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك اذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال (وجدها تغرب) ولم يقل: كانت تغرب. ـ المترجم.

(٣) ان التعبير بـ«عين» في قوله تعالى «عين حمئة» يذكّر برمز الى معنى لطيف وسر دقيق من اسرار البلاغة، وهو ان وجه السماء بعد مشاهدته بعين الشمس جمال رحمته تعالى على وجه الارض، وان وجه الارض عقب رؤيته بعين البحر عظمته تعالى في السماء، تُطبق العينان احداهما في الاخرى، فتطبق العيون على وجه الارض.. فالآية الكريمة تذكر بكلمة واحدة وباعجاز جميل هذا المعنى اللطيف مشيرة الى ما ينهى وظيفة العيون. ـ المؤلف.

ومنسجم مع عظمته ورفعته قوله بأن الشمس المسخرة سراجاً في مضيف رحماني، تختفي في «عين» ربانية وهي البحر المحيط الغربي، معبراً باسلوبه المعجز ان البحر «عين» حامية. نعم هكذا يبدو البحر للعيون السماوية.

حاصل الكلام:

ان التعبير بـ«عين حمئة» للبحر المحيط الغربي انما هي بالنسبة لذي القرنين الذي رأى من بُعد ذلك البحر العظيم كأنه عين ماء. أما النظر القرآني الذي هو قريب الى كل شئ، فلا ينظر نظر ذي القرنين من بعيد الذي يداخله خداع البصر، بل لأنه نزل من السماء مطلعاً عليها، ولأنه يرى الارض ميداناً او قصراً واحياناً مهداً او صحيفة، فان تعبيره بـ«عين» للبحر العظيم وهو المحيط الاطلسي الغربي المغطى بالضباب والابخرة انما يبين علوه ورفعته وسموه وعظمته.

سؤالكم الثاني:

اين يقع سد ذي القرنين؟ ومَن يأجوج ومأجوج؟

الجواب: لقد كتبت سابقاً رسالة حول هذه المسألة، فألزمت الحجة ملاحدة ذلك الوقت. إلاّ انني الآن لا املك تلك الرسالة، فضلاً عن ان حافظتي لا تمدني بشئ فقد أصابها شئ من العُطلِ. علاوة على أن هذه المسألة قد تطرق اليها «الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين» لهذا نشير اشارة في غاية الاختصار الى نكتتين او ثلاث فحسب تعود الى هذه المسألة وهي:

انه بناءً على ما بيّنه اهل العلم المحققون، وابتداء اسماء عدد من ملوك اليمن بكلمة «ذي» — كذي يزن — وما يشير اليه عنوان «ذي القرنين» فان ذا القرنين هذا ليس هو الاسكندر الرومي (المقدوني) وانما هو احد ملوك اليمن الذي عاصر سيدنا ابراهيم عليه السلام وتلقى الدرس من سيدنا الخضر عليه السلام. بينما جاء الاسكندر الرومي قبل الميلاد بحوالي ثلاثمائة سنة ودرس على يد ارسطو.

ان التاريخ الذي دوّنه الانسان يضبط الحوادث الى حد ما قبل ثلاثة آلاف عام. لذا فان نظر هذا التاريخ الناقص القاصر لايستطيع ان يحكم بصواب على حوادث ما قبل زمن سيدنا ابراهيم عليه السلام، فإما يذكرها مشوبة بالخرافات، أو ينكرها او يوردها باختصار شديد.

أما سبب اشتهار «ذي القرنين» اليماني هذا في التفاسير بالاسكندر، فيعود الى:

أن احد اسماء ذي القرنين هو الاسكندر، فهو الاسكندر الكبير، والاسكندر القديم. او نظراً لأن القرآن الكريم لدى ذكره لحادثة جزئية يذكرها لكونها طرفاً لحوادث كلية، فان الاسكندر الكبير الذي هو ذو القرنين؛ مثلما اسس سدّ الصين الشهير بارشاداته النبوية بين الاقوام الظالمة والمظلومة وليصدّ عنهم غاراتهم فان قواداً عظاماً عديدين كالاسكندر الرومي وملوكاً اقوياء اقتدوا بذي القرنين – في الجهة المادية – وان قسماً من الانبياء والاقطاب الاولياء – وهم ملوك معنويون للانسانية، ساروا على اثره في الجهة المعنوية والارشاد.. فهؤلاء اسسوا السدود بين الجبال[1] التي هي من الوسائل المهمة لإنقاذ المظلومين من شر الظالمين. ثم بنوا القلاع في قمم الجبال، فشيّدوا تلك الموانع إما بقوتهم المادية الذاتية أو بارشاداتهم وتوجيهاتهم وتدابيرهم. حتى بنوا الاسوار حول المدن والحصون في اواسطها، الى ان بلغ الامر الى استعمال وسيلة أخيرة هي المدافع الثقيلة والمدرعات الشبيهة بالقلاع السيارة.

فذلك السد الذي بناه ذو القرنين وهو اشهر سد في العالم ويبلغ طوله مسيرة ايام انما بناه ليصد به هجمات اقوام شريرة اطلق عليهم القرآن الكريم اسم يأجوج ومأجوج ويعبر عنهم التاريخ بقبائل المانجور والمغول الذين دمّروا الحضارة البشرية مرات ومرات. وظهروا من وراء جبال هملايا فأهلكوا العباد وخرّبوا البلاد شرقاً وغرباً. فصار ذلك السد المبني بين جبلين قريبين من سلسلة هملايا مانعاً امام هجمات هؤلاء الاقوام الهمجية،وحائلاً دون غاراتهم العديدة على المظلومين في الصين والهند.. ومثلما اسس ذو القرنين هذا السد فقد بنيت سدود كثيرة اخرى بهمة ملوك ايران القدماء في جبال القفقاس في منطقة المضيق صداً للنهب والسلب والغارات التي امتهنتها اقوام التتر. وهناك سدود كثيرة من هذا النوع.

فالقرآن الكريم لأنه يخاطب البشرية كافةً، فانه يذكر ظاهراً حادثة جزئية ويذكّر بها احداثاً مشابهة لها.

---

(١) هناك سدود اصطناعية على وجه الارض تحولت بمرور الزمن الى هيئة جبال حتى لا تعرف انها كانت سدوداً. ـ المؤلف.

فمن زاوية النظر هذه تختلف الروايات واقوال المفسرين حول السد ويأجوج ومأجوج.

ثم ان القرآن الحكيم قد ينتقل من حادثة الى اخرى بعيدة عنها وذلك من حيث المناسبات الكلامية وعلاقاتها. فالذي لايعرف هذه العلاقات يظن ان زمانَي الحادثتين قريبان. وهكذا فإخبار القرآن عن قيام الساعة عقب خراب السد، ليس هو لقرب الزمان، وانما لأجل نكتتين من حيث المناسبات الكلامية، اي: كما ان هذا السد سيُدمر فستدمّر الدنيا كذلك.

ثم ان الجبال التي هي سدود فطرية إلهية راسخة وقوية لا تُنسف الاّ بقيام الساعة، فهذا السد ايضاً قوي كالجبال لا يدكّ الاّ بقيام الساعة، وسيبقى الكثير منه ويدوم حتى لو عملت فيه عوامل التغيير على مدى الزمان من خراب وهدم.

نعم! ان سد الصين الذي هو فرد من كلية سد ذي القرنين ما زال باقياً مشاهداً على الرغم من مرور الوف السنين، وانه يُقرأ كسطر طويل كُتب بيد الانسان على صحيفة الارض، يُقرأ سطراً مجسماً متحجراً ذا مغزى من التاريخ القديم.

سؤالكم الثالث:

وهو حول قتل عيسى عليه السلام للدجال. ففي «المكتوب الاول والخامس عشر» جواب شافٍ لكم وهما في غاية الاختصار.

باسمه سبحانه

﴿ وَاِنْ مِنْ شَيْءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اخويّ الوفيين الصدّيقين المضحيين العزيزين: العالم صبري، والحافظ علي.

ان سؤالكما المهم حول المغيبات الخمسة الموجودة في ختام سورة لقمان، يحتاج الى جواب في غاية الاهمية، الاّ أنني – مع الاسف – اعاني من حالة روحية واحوال مادية.. تحول بيني وبين الجواب الشافي. ومع هذا سأشير اشارة فحسب، في غاية الاجمال الى بضع نقاط يتعلق بها سؤالكما:

ان فحوى سؤالكما هذا هو ان الملحدين يعترضون على كون وقت نزول الغيث ونوعية الجنين في الرحم من المغيبات الخمسة فينتقدون قائلين: ان وقت نزوله يُكشف عنه في المراصد الجوية، فاذن يعلمه كذلك غيرُ الله، وان جنس الجنين في رحم الام يمكن معرفته، ذكراً كان أم انثى باشعة رونتكن. بمعنى انه يمكن الاطلاع على المغيبات الخمسة!

الجواب: لما كان وقت نزول الغيث غير مرتبط بقاعدة مطردة، فانه يرتبط مباشرة بالمشيئة الإلهية الخاصة، ويتبع الارادة الإلهية الخاصة، فينزل من خزينة رحمته تعالى دون وساطة. وإن سرّ حكمته هو الآتي:

ان اهم حقيقة في الكون واثمن ماهية فيه هي الوجود، الحياة، النور، الرحمة وان هذه الاربعة متوجهة مباشرة ودون وسائط وحجب الى القدرة الإلهية ومشيئتها الخاصة، بينما تحجب الاسباب الظاهرة في المصنوعات الإلهية الاخرى تصرّف القدرة الإلهية، وتستر القوانين المطردة والقواعد الثابتة – الى حدٍ ما – الارادة الإلهيَة ومشيئتها، الاّ ان تلك الحجب والاستار لم توضع امام الحياة والنور والرحمة؛ لعدم جريان حكمة وجودها في تلك الامور.

وحيث ان الرحمة والحياة اهم حقيقتين في الوجود، وان الغيث منشأ الحياة ومدار الرحمة بل هو عين الرحمة، فلابد الاّ تكون الوسائط حجباً أمامها، ولابد الاّ تستر القاعدة المطردة المشيئة الإلهية الخاصة بها، وذلك ليضطر كل فرد في كل وقت، وفي كل امر الى الشكر واظهار العبودية والى السؤال والتضرع والدعاء؛ اذ لو كانت تلك الامور على وفق قاعدة معينة لانسدّ باب الشكر والرجاء منه تعالى استناداً الى القاعدة المطردة. فطلوع الشمس مع ما فيه من منافع معلومة، لانه مرتبط بقاعدة معينة، فلا يُسأل الله سبحانه عن طلوعها ولا يشكر عليه شكراً خاصاً ولا يعدّ ذلك من امور الغيب، لأن البشر يعرفون بالعلم الذي توصلوا اليه وبوساطة تلك القاعدة موعد شروق الشمس غداً.

ولكن جزئيات الغيث ليست مرتبطة بقاعدة معينة، لذا يضطر الناس في كل وقت الى التضرع والتوسل الى رحمته تعالى. ولما كان علم البشر، لايستطيع ان يحدد وقت نزول الغيث، فقد تلقاه الناس نعمة خاصة لاتصدر الاّ من خزينة الرحمة الإلهية، فيشكرون ربهم شكراً حقيقياً عليها. وهكذا فهذه الآية الكريمة تُدخل وقت نزول الغيث بين المغيبات الخمسة من هذه الزاوية التي ذكرناها. أما الاحساس بالاجهزة في المراصد عن مقدمات وقت نزوله، ومن ثم تعيين وقته فهذا ليس علماً بالغيب، بل هو علم بالاطلاع على بعض مقدمات نزوله حينما يقترب الى عالم الشهادة بعد صدوره من الغيب، مثلما يُعلم بنوع من احساس مسبق أخفى الامور الغيبية حينما تحصل، أو بعد قربها من الحصول ولا يعدّ ذلك معرفة بالغيب، وانما هو معرفة بذلك الموجود، او بالمقرّب الى الوجود.

حتى انني اشعر احياناً بشعور مرهف في اعصابي، بما سيأتي من الغيث قبل مجيئه باربع وعشرين ساعة. بمعنى ان للغيث مقدمات ومبادئ، فتلك المبادئ تبدي نفسها على صورة رطوبة تُشعر بما وراءها من الغيث، فيكون هذا الحال وسيلة لوصول علم البشر كالقاعدة المطردة، الى امور قد صدرت عن الغيب وخرجت منه ولمّا دخلت بعدُ الى عالم الشهادة.

اما معرفة نزول الغيث الذي لم يطأ قدمه عالمَ الشهادة، ولم يخرج بعدُ من الرحمة الإلهية الخاصة بمشيئتها الخاصة، فانما هو خاص بعلم علام الغيوب.

بقيت المسألة الثانية التي هي:

معرفة جنس الجنين في رحم الام باشعة رونتكن، هذه المعرفة لاتنافي قطعاً ما تفيده الآية الكريمة ﴿ ويَعْلَمُ مَا في الأرحَام ﴾(لقمان:٣٤) من معنى الغيب. لأن المراد من العلم المذكور فيها لاينحصر في ذكورة الجنين وانوثته وانما المراد منه معرفة الاستعدادات البديعة الخاصة بذلك الطفل والتي هي مبادئ المقدرات الحياتية، وهي مدار ما سيكسبه في المستقبل من اوضاع. وحتى معرفة ختم الصمدية وسكتها الرائعة البادية على سيماه.. كلها مرادة في ذلك المعنى بحيث ان العلم بالطفل وبهذه الوجوه من الامور خاص بعلم علام الغيوب وحده، فلو اتحدت مئات الالوف من افكار البشر النافذة كأشعة رونتكن لما كشفت ايضاً عن ملامح الطفل الحقيقية في وجهه وحده تلك الملامح التي تحمل من العلامات التي تفرقها وتميزها عن كل فرد من افراد البشرية قاطبة، فكيف اذن يمكن كشف السيماء المعنوية في استعداداته وقابلياته التي هي خارقة بمئات الالوف من المرات عن ملامح الوجه!

ولقد قلنا في المقدمة: ان الوجود والحياة والرحمة من اهم حقائق الكون ولها اعلى مقام ومرتبة فيه. لذا تتوجه تلك الحقيقة الحياتية الجامعة بجميع دقائقها ولطائفها الى ارادة الله الخاصة ورحمته الخاصة ومشيئته الخاصة.

واحد اسرار ذلك هو ان الحياة بجميع اجهزتها منشأ للشكر، ومدار للعبادة والتسبيح، ولذلك لم توضع دونها القاعدة المطردة التي تحجب رؤية الارادة الإلهية الخاصة ولا الوسائط الظاهرية التي تستر رحمته الخاصة سبحانه.

ان لله سبحانه وتعالى تجليين اثنين في سيماء الجنين المادي والمعنوي.

الاول:

يدل على وحدته سبحانه وأحديته وصمديته، اذ الجنين يشهد على وحدانية خالقه وصانعه بتطابق اعضائه الاساس وتوافق اجهزته الانسانية مع سائر البشر. فذلك الجنين ينادي بصراحة هذا اللسان قائلاً: من الذي وهب لي هذه السيماء في الاعضاء هو ذلك الصانع الذي وهب لجميع البشر الذين يشبهونني في أساسات الاعضاء. وهو سبحانه صانع جميع ذوي الحياة.

فهذا اللسان الذي يدل به الجنين على الصانع الجليل ليس لساناً غيبياً، بل هو معلوم يمكن معرفته والوصول اليه، حيث انه يتبع قاعدة مطردة ويسير على وفق نظام معين ويستند الى نوعية الجنين، فهذا العلم لسان ناطق وغصن قد تدلى من عالم الغيب الى عالم الشهادة.

الجهة الثانية:

وهي ان الجنين ينادي بلسان سيماء استعداداته الخاصة وسيماء وجهه الشخصية فيدل على اختيار صانعه ومشيئته المطلقة وارادته الخاصة ورحمته الخاصة. فهذا اللسان لسان غيبي آت من هناك، فلا يستطيع ان يراه احد قبل وجوده غير العلم الازلي، ولايمكن ان يحيط به سواه. فبمشاهدة جهاز من الف جهاز من سيماء الجنين في الرحم، لا يُعلم هذا الانسان .

الحاصل:

ان سيماء الاستعدادات في الجنين، وسيماء وجهه دليل الوحدانية وحجة الاختيار والارادة الإلهية.

وستكتب إن وفق الله تعالى بضع نكات حول المغيبات الخمسة. اذ لا يسمح الوقت الحاضر ولا حالتي باكثر من هذا. واختم كلامي.

الباقي هوالباقي

سعيد النورسي

باسمه سبحانه

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبداً دائماً

اخي العزيز الصدّيق المتلهف رأفت بك!

أنك تسأل في رسالتك عن اللطائف العشر، وحيث أنني لست في حالة تدريس الطريقة الصوفية، ولعلماء الطريقة النقشبندية مؤلفات تخص اللطائف العشر، وان وظيفتنا في الوقت الحاضر هي استخراج الاسرار القرآنية واستنباطها، لا نقل المسائل الموجودة في بطون الكتب! فلا تمتعض من عدم استطاعتي تقديم التفاصيل. إلاّ انني اقول:

ان الامام الرباني قد عبّر عن اللطائف العشر بالقلب والروح والسر والخفي والأخفى. وذكر ان لكل عنصر من العناصر الاربعة في الانسان لطيفة انسانية ملائمة ومنسجمة معه. وذكر اجمالاً عن رقي كل لطيفة من تلك اللطائف واحوالها في كل مرتبة اثناء السير والسلوك. وبالنسبة لي ارى أن لطائف كثيرة مندرجة في ماهية الانسان الجامعة وفي استعداده للحياة الاّ ان عشراً منها قد اشتهرت حتى أن الحكماء والعلماء الظاهريين ايضاً قد جعلوا تلك اللطائف العشر اساساً لحكمتهم في صورة اخرى، حيث قالوا: أن الحواس الخمس الظاهرة نوافذ أو نماذج لحواس خمس باطنة. حتى ان ما اشتهر لدى العوام والخواص من لطائف الانسان العشر منسجمة مع اللطائف العشر لدى ارباب الطرق الصوفية. فمثلاً: الوجدان والاعصاب والحس والعقل والهوى والقوة الشهوية والقوة الغضبية، اذا الحقت هذه اللطائف بالقلب والروح والسر، تُظهر اللطائف العشر في صورة اخرى. وهناك لطائف اخرى كثيرة غير هذه اللطائف، امثال: السائقة، الشائقة، الحس قبل الوقوع.

فلو كتبت حقيقة هذه المسألة لطالت كثيراً، لذا اضطر الى قطع التفاصيل نظراً لضيق وقتي.

اما سؤالك الثاني الذي يتعلق ببحث المعنى الاسمي والمعنى الحرفي، فمثلما اشارت كتب النحو عامة اليه في بداياتها، فقد وضحته توضيحاً كافياً بالامثلة كتب

علم الحقيقة كالكلمات والمكتوبات ويعدّ من الاسراف الاسهاب في الايضاح لمن يملك ذكاءً ودقة ملاحظة مثلك.

فانك اذا نظرت الى المرآة من حيث انها زجاجة، ترى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شئ ثانوي، بينما ان كان القصد من النظر الى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح امامك حتى تدفعك الى القول ﴿**فتبارك الله احسن الخالقين**﴾(المؤمنون: ١٤) بينما تبقىٰ زجاجة المرآة أمراً ثانوياً.

النظرة الأولىٰ تمثل «المعنى الاسمي» اي: زجاجة المرآة معنىٰ مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها «معنىٰ حرفي» غير مقصود.

أما النظرة الثانية فصورة الشخص هي المقصودة، فهي اذن معنىٰ «إسمى» أما الزجاج فمعنىٰ «حرفي».

وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم أنه: دلّ على معنىً في نفسه. أما الحرف فهو : ما دلّ علىٰ معنىً في غيره.

فالنظرة القرآنية الىٰ الموجودات تجعل الموجودات جميعها حروفاً، اي انها تعبّر عن معنى في غيرها، بمعنىٰ انها تعبّر عن تجليات الاسماء الحسنىٰ والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

اما نظرة الفلسفة الميتة فهي تنظر علىٰ الاغلب بالنظر الاسمي الى الموجودات، فتزل قدمها الى مستنقع الطبيعة.

وعلى كل حال فلا متسع لي من الوقت كي اتكلم كثيراً، حتى أنني لا استطيع ان اكتب القسم الأخير المهم من الفهرس الذي هو سهل يسير. بلّغ سلامي الى رفقائك في الدرس وبخاصة خسرو، بكر، رشدي، لطفي، الشيخ مصطفىٰ، الحافظ احمد، سزائي، المحمدْون والعلماء، واني لادعو للاطفال الابرياء المباركين في بيتكم المبارك.

الباقي هو الباقي

اخوكم

سعيد النورسي

اللمعة السابعة عشرة

(عبارة عن سبع عشرة مذكّرة تألقت من الزُّهرة)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

المقدمة

قبل اثنتي عشرة سنة(١) من تأليف هذه اللمعة وفقني المولى الكريم وشملني بعنايته ولطفه، فكتبتُ بعض ما تألق من مسائل التوحيد وبعض ما تظاهر منها اثناء تأملٍ فكري، وتجوالٍ قلبي، وانكشافٍ روحي عبر العروج في مراتبِ المعرفة الإلهية، كتبتها باللغة العربية على صورة مذكّرات في رسائل موسومة بـ«زهرة» و«شعلة» و«حبّة» و«شمّة» و«ذرة» و«قطرة» وامثالها.

وحيث ان تلك المذكّرات قد كتبتْ لاجل اراءة بداية حقيقة عظيمة واسعة، وابراز مقدمتها فحسب، ولأجل اظهار شعاع من اشعة نور ساطع باهر، فقد جاءت على شكل خواطر وملحوظات وتنبيهات. سجلتها لنفسي وحدها، الأمر الذي جعل الاستفادة منها محدودة، وبخاصة أن القسم الاعظم من اخلص اخواني وخلاصتهم لم يدرسوا اللغة العربية، فاضطررتُ أزاء إصرارهم والحاحهم الى كتابة ايضاحات باللغة التركية لقسم من تلك المذكرات واللمعات. واكتفي بترجمة القسم الاخر منها(٢).

---

(١) اي في سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١م) حيث ان تاريخ تأليف هذه الرسالة ١٣٥٢ هـ(١٩٣٣م). ـ المترجم.

(٢) وحينما ترجمتها الى العربية اعتبرت النص التركي الموضّح هو الاساس، الا انني آثرت استعمال عبارات الاستاذ النورسي البليغة ـ في الرسائل العربية المذكورة (من المثنوي العربي النوري) ـ متى ما كانت مطابقة مع النص التركي. ـ المترجم.

ولقد جاءت الترجمة الى التركية نصاً دون تغيير حيث تراءت «لسعيد الجديد» هذه الخواطر الواردة في الرسائل العربية رؤية أشبه ما يكون بالشهود، وذلك حينما شرع بالاغتراف من منهل علم «الحقيقة».. ولأجل هذا فقد ذُكر بعض الجمل بالرغم من أنه مذكور في رسائل اخرى بينما ذُكر البعض الآخر في غاية الاجمال ولم يوضّح التوضيح المطلوب وذلك لئلا يفقد لطافته الاصلية.

سعيد النورسي

المذكرة الاولى

كنت قد خاطبتُ نفسي قائلاً: اعلم ايها السعيد الغافل! انه لايليق بك ان تربط قلبك وتعلّقه بما لا يرافقك بعد فنـاء هذا العالم، بل يُفارقُك بخراب الدنيا! فليس من العقل في شئ ربطُ القلب بأشـياءَ فانية!

فكيف بما يتركك بانقراض عصرك ويدير ظهره لك؟

بل فكيف بما لا يصاحبك في سَفر البرزخ؟

بل فكيف بما لا يشيّعك الى باب القبر؟

بل فكيف بما يفارقك خلال سنة او سنتين فراقاً ابدياً، مُورّثاً اِثمَه ذمّتَك، محملاً خطاياه على ظهرك؟

بل فكيف بما يتركك على رغمك في آنِ سرورك بحصوله؟

فان كنت فطناً عاقلاً فلا تهتم ولا تغتم، واترك ما لا يقتدر ان يرافقك في سفر الابد والخلود، بل يضمحل ويفنى تحت مصادمات الدنيا وانقلاباتها، وتحت تطورات البرزخ، وتحت انفلاقات الآخرة.

ألا ترى ان فيك لطيفةً لاترضى الاّ بالأبد والأبدي، ولاتتوجه الاّ الى ذلك الخالد، ولاتتنزل لما سواه؟ حتى اذا ما أُعطيت لها الدنيا كُلها، فلا تُطَمأن تلك الحاجة الفطرية.. تلك هي سلطان لطائفك ومشاعرك.. فأطع سلطان لطائفك المطيع لأمر فاطره الحكيم جلّ جلاله، وانجُ بنفسك..

المذكّرة الثانية

لقد رأيت في رؤيا صادقةٍ ذات حقيقة، أنني أخاطب الناس:

ايها الانسان! ان من دساتير القرآن الكريم واحكامه الثابتة: أن لاتحسبنَّ ما سوى الله تعالى اعظمَ منك فترفعه الى مرتبة العبادة، ولاتحسَبنَّ انك اعظم من شئ من الاشياء بحيث تتكبّر عليه. اذ يتساوى ما سواه تعالى في البعد عن «المعبودية» وفي نسبة المخلوقية.

المذكّرة الثالثة

اعلم ايها السعيد الغافل! انك ترى الدنيا الزائلة سريعاً، كأنها دائمة لا تموت، فعندما تنظر ما حولك من الآفاق وتراها ثابتةً مستمرةً - الى حد ما - نوعاً وجملةً، ومن ثم ترجع بالمنظار نفسه فتنظر الى نفسك الفانية، تظنّها ثابتةً ايضاً. وعندها لا تندهش الاّ من هَول القيامة، وكأنك تدوم الى أن تقوم الساعة!.

عُدْ الى رشدك، فانت ودنياك الخاصة بك معرّضان في كلّ آن الى ضربات الزوال والفناء.. ان مَثَلَكَ في خطأ شعورك وغَلَط حسِّك هذا، يشبه مَن في يده مرآة تواجه قصراً او بلداً او حديقةً، وترتسم الصورة المثاليةُ للقصر او البلد او الحديقة فيها، فاذا ما تحركت المرآة أدنى حركة، وتغيرت اقلّ تغيّر، فسيحدث الهرج والمرج في تلك الصورة المثالية، فلا يفيدك بعدُ البقاءُ والدوام الخارجيان في نفس القصر او البلد او الحديقة، اذ ليسَ لك منها الاّ ما تعطيك مرآتُك بمقياسها وميزانها.

فاعلم ان حياتك وعمرك مرآة! وانها عماد دنياك وسندها ومرآتها ومركزها. فتأمل في مرآتك، وإمكان موتها، وخرابِ ما فيها في كل دقيقة، فهي في وضع كأن قيامتك ستقوم في كل دقيقة.

فما دام الامر هكذا فلا تحمّل حياتك ودنياك ما لا طاقة لهما به.

المذكّرة الرابعة

اعلم ان من سنّة الفاطر الحكيم – في الاكثر – ومن عاداته الجارية اعادة ما له اهمية وقيمة غالية بعينه لا بمثله. فعندما يجدد اكثر الاشياء بمثلها عند تبدل الفصول وتغيرّ العصور، يُعيد تلك الاشياء الثمينة بعينها. فانظر الى الحشر اليومي – اي الذي يتم في كل يوم – والى الحشر السنوي، والى الحشر العصري، ترَ هذه القاعدة المطّردة واضحة جلية في الكل. وبناء على هذه القاعدة الثابتة نقول:

قد اتفقت الفنون وشهدت العلوم على أن الانسان هو أكمل ثمرةٍ في شجرة الخليقة، وانه أهم مخلوق بين المخلوقات، وأغلى موجود بين الموجودات، وأن فرداً منه بمثابة نوعٍ من سائر الاحياء، لذا يُحكم بالحدس القطعي على أن كلّ فردٍ من أفراد البشر سيُعاد في الحشر الاعظم والنشر الاكبر بعينِه وجسمهِ واسمهِ ورسمهِ.

المذكّرة الخامسة

حينما سار «سعيد الجديد» في طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلوم الاوروبية الفلسفية وفنونها التي كانت مستقرة الى حدٍّ ما في افكار «سعيد القديم» الى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلاتٌ كثيرة في تلك السياحة القلبية. فما كان من «سعيد الجديد» الاّ القيام بتمخيض فكره والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفيهة. فرأى نفسه مضطراً الى اجراء المحاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوروبا لكبح جماح ما في روحه من احاسيس نفسانية منحازة لصالح اوروبا، فهي محاورة مقتضبة من ناحية ومُسهبةٌ من ناحية اخرى.

ولئلا يُساء الفهمُ لابد أن ننبه: ان اوروبا اثنتان.

احداها: هي اوربا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدّت خدماتٍ لحياة الانسان الاجتماعية، بما توصلت اليه من صناعاتٍ وعلومٍ تخدم العدل والانصاف ، فلا أخاطب – في هذه المحاورة – هذا القسم من اوربا. وانما أخاطب اوربا الثانية تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية،

وحَسبتْ سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهّمت مساوءها فضائل. فساقت البشرية الى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة.

ولقد خاطبتُ في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الاوربية بعد أن استثنيت محاسن الحضارة وفوائد العلوم النافعة، فوجّهت خطابي الى تلك الشخصية التي اخذت بيدها الفلسفة المضرّة التافهة والحضارة الفاسدة السفيهة.. وخاطبتها قائلاً:

يا اوروبا الثانية! اعلمي جيداً أنك قد اخذت بيمينك الفلسفة المضلّة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرّة السفيهة، ثم تدّعين ان سعادة الانسان بهما. ألا شُلّت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون.

ايتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود! تُرى هل يمكن ان يسعد انسانٌ بمجرد تملّكه ثروة طائلة، وترفّله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن ان نطلق عليه أنه سعيد؟! ألا ترين أنّ مَن يئس من امر جزئي، وانقطع رجاؤه من أمل وهمي، وخاب ظنُّه من عمل تافه، كيف يتحول خيالُه العذب مُراً علقماً، وكيف يتعذّب مما حوله من اوضاع لطيفة، فتضيق عليه الدنيا كالسجن بما رحُبت!. فكيف بمن أُصيب بشؤمك بضربات الضلالة في اعمق اعماق قلبه، وفي أغوار روحه، حتى انقطعت – بتلك الضلالة – جميعُ آماله، فانشقت عنها جميع آلامه، فايُّ سعادة يمكنك ان تضمَني لمثل هذا المسكين الشقي؟ وهل يمكن ان يُطلَق لمن روحه وقلبُه يُعذبان في جهنم، وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة.. أنه سعيد؟..

لقد أفسدت – ايتها الروح الخبيثة – البشريةَ حتى طاشت بتعاليمك، فتقاسي منك العذاب المرير، باذاقتك اياها عذابَ الجحيم في نعيم جنة كاذبة.

ايتها النفس الامارة للبشرية! تأملي في هذا المثال وافهمي منه الى اين تسوقين البشرية:

هب أن امامنا طريقين، فسلكنا احدهما، واذا بنا نرى في كل خطوة نخطوها في الطريق الاول، مساكين عَجَزة يهجم عليهم الظالمون، يغصبون اموالهم ومتاعهم،

يخرّبون بيوتهم واكواخهم، بل قد يجرحونهم جرحاً بليغاً تكاد السماء تبكي على حالتهم المفجعة. فاينما يُمد النظر تُرى الحالة نفسها فلا يُسمع في هذا الطريق الاّ ضوضاء الظالمين وصَخبَهم، وأنينُ المظلومين ونُواحهم، فكأن مأتماً عاماً قد خيّم على الطريق.

ولما كان الانسان – بمقتضى انسانيته – يتألم بألم الآخرين، فلا يستطيع ان يتحمل ما يراه في هذا الطريق من ألم غير محدود، اذ الوجدان لا يطيق ألماً الى هذا الحد، لذا يضطر سالك هذا الطريق الى أحد أمرين: اما ان يتجرد من انسانيته، ويحمِل قلباً قاسياً غارقاً في منتهى الوحشة لا يتألم بهلاك الجميع طالما هو سالم معافىً، او يُبطل ما يقتضيه القلبُ والعقلُ!.

فيا اوربا التي نأتْ عن النصرانية وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة! لقد اهديتِ بدهائك الاعور كالدجال لروح البشر حالة جهنمية، ثم ادركتِ ان هذه الحالة داءٌ عَضال لادواءَ له. إذ يهوى بالانسان من ذروة أعلى عليين الى دركِ اسفل سافلين، والى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك امام هذا الداء الوبيل الاّ ملاهيكِ الجذابة التي تدفع الى ابطال الحسّ وتخدير الشعور مؤقتاً، وكمالياتكِ المزخرفة واهواؤك المنوِّمة... فتعساً لَكِ ولدوائكِ الذي يكون هو القاضي عليك.. نعم، ان ما فتحتيه امام البشرية من طريق، يشبه هذا المثال المذكور.

اما الطريق الثاني فهو ما أهداه القرآن الكريم من هديةٍ الى البشرية، فهداهم الى الصراط السوي، فنحن نرى:

في كل منزلٍ من منازل هذا الطريق، وفي كل موضع من مواضعه، وفي كل مدينة تقع عليه، جنود مطيعون أُمناء لسلطانٍ عادل، يتجولون في كل جهة ينتشرون في كل ناحية، وبين فينة واخرى يأتي قسمٌ من مأموري ذلك الملك العادل وموظفيه فيعفي بعض اولئك الجنود من وظائفهم بأمر السلطان نفسه ويتسلم منهم اسلحتهم ودوابّهم ومعدّاتهم الخاصة بالدولة ويسلّم اليهم بطاقة الاعفاء. وهؤلاء المعفون يبتهجون ويفرحون – من زاوية الحقيقة – على اعفائهم فرحاً عظيماً لرجوعهم الى السلطان وعودتهم الى دار قرار سلطنته، والمثول بزيارته الكريمة، مع انهم يحزنون في ظاهر

الامر على ما أُخذ منهم من دابة ومعدات أَلِفوها.. ونرى ايضاً أنه قد يلتقي اولئك المأمورون مَن لا يعرفهم من الجنود، فعندما يخاطبونه: أن سلّم سلاحك! يردّ عليهم الجندي: انا جندي لدى السلطان العظيم وتحت امره وفي خدمته، واليه مصيري ومرجعي، فمن انتم حتى تسلبوا مني ما وهبني السلطان العظيم؟ فان كنتم قد جئتم باذنه ورضاه فعلى العين والرأس فأروني أمره الكريم، والاّ تنحَّوا عني فلأقاتلنّكم ولو كنت وحدي وانتم أُلوف، اذ لا اقاتل لنفسي لانها ليست لي، بل اقاتل حفاظاً لأمانة مالكي ومولاي وصيانةً لعزته وعظمته. فانا لا ارضخ لكم!!.

فدونك مثالاً واحداً من الوف الامثلة على ما في هذا الطريق الثاني من مصدر فرح ومدار سعادة. فانسج على منواله.

وعلى طول الطريق الثاني، وطوال مدة السفرة كلها نرى سَوقاً الى الجندية، يتم في فرح وابتهاج وسرور.. تلك هي التي تسمى بـ« المواليد ». وهناك اعفاءات ورُخَص من الجندية، تتم في فرح وحبور ايضاً، وسط تهليل وتكبير.. تلك هي التي تسمى بـ« الوفيات ».

هذا هو الذي اهداه القرآن الكريم للبشرية، فمن اهتدى به فقد سعد في الدارين ويمضي في طريقه – الثاني – على هذه الصورة اللطيفة بلا حزن وكدَرٍ على ما فات منه، وبلا خوف ووجل مما سيأتي عليه، حتى تنطبق عليه الآية الكريمة ﴿ **لاخَوفٌ عَليهِم ولا هُمْ يَحزَنون** ﴾ (البقرة: ٢٦٢).

يا اوروبا الثانية الفاسدة! انكِ تستندين الى اسس واهية نخرة، فتزعمين:

أن كلّ كائن حي مالكٌ لنفسه، ابتداءً من اعظم مَلَك وانتهاء الى اصغر سمك. كلٌّ يعمل لذاته فقط، ولأجل نفسه فحسب، ولايسعى أحدٌ الاّ للذته الخاصة، ولأجل هذا له حق الحياة. فغاية همته وهدف قصده هو ضمان بقائه واستمرار حياته. ثم انك ترين « قانون التعاون » جارياً فيما بين المخلوقات امتثالاً لأمر الخالق الكريم الذي هو واضح جلي في أرجاء الكون كله كامداد النباتات للحيوانات والحيوانات للانسان، ثم تحسبين هذا القانون والسنّة الإلهية وتلك التجليات الكريمة الرحيمة

المنبعثة من ذلك التعاون العام جدالاً وخصاماً وصراعاً، حتى حكمتِ ببلاهة ان الحياة جدال وصراع!

فيا سبحان الله!! كيف يكون امدادُ ذرات الطعام امداداً بكمال الشوق لتغذية خلايا الجسم جدالاً وخصاماً؟ بل مَا هو الاّ سنّة التعاون، ولايتم الاّ بأمر ربّ حكيم كريم!

وان ما تستندين اليه من «أن كل شئ مالك لنفسه» واضح البطلان. وأوضح دليل عليه هو انّ اشرف الاسباب واوسعها ارادة واختياراً هو الانسان. والحال ليس في يد اختياره ولا في دائرة اقتداره من أظهر افعاله الاختيارية كالاكل والكلام والتفكر، الاّ جزءٌ واحد مُبهَمٌ من بين المائة. فالذي لا يملك واحداً من المائة من مثل هذا الفعل الظاهر، كيف يكون مالكاً لنفسه؟! واذا كان الاشرفُ والاوسع اختياراً مغلولَ الايدي عن التملك الحقيقي والتصرف التام فكيف بسائر الحيوانات والجمادات؟ أليس الذي يطلق هذا الحكم «بأن الحيوان مالك لزمام نفسه» أضلُّ من الانعام وأفقدُ للشعور من الجمادات؟

فيا اوروبا! ما ورطكِ في هذا الخطأ المشين الاّ دهاؤك الأعور، اي ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقد نسيت بذكائك هذا ربَّ كل شئ وخالقه، اذ أسندتِ آثاره البديعة الى الاسباب والطبيعة الموهومة! وقسّمتِ مُلك ذلك الخالق الكريمَ على الطواغيت التي تُعبَد من دون الله.. فانطلاقاً من هذه الزاوية التي ينظر منها دهاؤك الاعور يضطر كلُّ ذي حياة وكل انسان ان يصارع وحده ما لا يعد من الاعداء، ويحصل بنفسه على ما لايحد من الحاجات، بما يملك من اقتدارٍ كذرة، واختيارٍ كشعرة، وشعورٍ كلمعة تزول، وحياة كشعلة تنطفي، وعمرٍ كدقيقة تنقضي، مع أنه لا يكفي كلُ ما في يده لواحدٍ من مطالبه. فعندما يصاب – مثلاً – بمصيبة لا يرجو الدواء لدائه الاّ من اسبابٍ صم، حتى يكون مصداق الآية الكريمة ﴿**وما دُعاءُ الكافرين إلاّ في ضلال**﴾ (الرعد: ١٤). ان دهاءك المظلم قد قَلب نهارَ البشرية ليلاً، ذلك الليل البهيم بالجور والمظالم، ثم تريدين ان تنوري ذلك الظلام المخيف بمصابيح كاذبة مؤقتة!.. هذه المصابيح لا تبتسم لوجه الانسان، بل تستهزئ به، وتستخف من ضحكاته التي يطلقها ببلاهة وهو متمرغ في اوحال اوضاع مؤلمة مُبكية! فكل ذي

حياة في نظر تلاميذك، مسكينٌ مبتلىً بمصائب ناجمة من هجوم الظلمة. والدنيا مأتمٌ عمومي، والاصوات التي تنطلق منها نعيّات الموت، وأناتُ الآلام، ونياحات اليتامى.

ان الذي يتلقى الدرس منك ويسترشد بهدْيك يصبح «فرعوناً» طاغية.. ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس الاشياء، ويتخذ كل شئ ينتفع منه رباً له.

وتلميذك هذا «متمردٌ» ايضاً.. ولكنه متمرد مسكين، إذ لأجل لذةٍ تافهة يقبّل قدَمَ الشيطان، ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمنتهى الذل والهوان.

وهو «جبّار» ولكنه جبار عاجز في ذاته لأنه لا يجد مرتكزاً في قلبه يأوي اليه.

ان غاية ما يصبو اليه تلميذك وذروة همّته: تطمينُ رغبات النفس واشباعُ هواها، حتى انه دسّاس يبحث تحت ستار الحمية والتضحية والفداء عن منافعه الذاتية، فيطمئن بدسيسته وخبثه حرصَه ويُشبع نَهمَ غروره، إذ لا يحب حقاً الاّ نفسه، بل يضحي بكل شئ في سبيلها.

اما التلميذ المخلص الخالص للقرآن الكريم فهو «عبدٌ» ولكنه لايتنزل لعبادة اعظم مخلوق، فهو «عبدٌ عزيزٌ» لايرضى حتى بالجنة، تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله.

وهو «ليّن هيّن» ولكنه لايتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره وإذنه، فهو صاحب همة عليا وعزيمة صادقة.

وهو «فقير» ولكنه مستغن عن كل شئ بما ادّخر له مالكُه الكريم من الثواب الجزيل.

وهو «ضعيف» ولكنه يستند الى قوة سيّده المطلقة. فلا يرضى تلميذ القرآن الكريم الخالص حتى بالجنة الخالدة مقصداً وغاية له، فكيف به بهذه الدنيا الزائلة؟ فافهم من هذا مدى التفاوت الكبير والبونَ الشاسع بين همّة هذين التلميذين!.

وكذلك يمكنكم ان تقيسوا مدى الفرق الهائل بين تلاميذ الفلسفة السقيمة وتلاميذ القرآن الحكيم من حيث مدى التضحية والفداء في كل منهما بما يأتي:

إن تلميذ الفلسفة يفرّ من أخيه إيثاراً لنفسه، ويقيم عليه الدعوى. اما تلميذ القرآن فانه يرى جميع عباد الله الصالحين في الارض والسموات اخواناً له، ويشعر من اعماق روحه باواصر شوق تشدّه نحوهم، فيدعو لهم دعاءً خالصاً نابعاً من صميم قلبه (اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات) فهو يسعد بسعادتهم. حتى انه يرى ما هو اعظم الاشياء كالعرش الاعظم والشمس الضخمة مأموراً مسخَّراً مثله.

ثم يمكنك قياس سموّ الروح وانبساطها لدى التلميذين بما يأتي:

ان القرآن الكريم يمنح تلاميذه نماءاً سامياً للروح وانبساطاً واسعاً لها، اذ يسلّم الى ايديهم بدلاً من تسع وتسعين حبةٍ من حبّات المسبحة، سلسلة مركبة من ذراتٍ تسع وتسعين عالماً من عوالم الكون التي يتجلى فيها تسعٌ وتسعون اسماً من الاسماء الحسنى، ويخاطبهم: هاؤم اقرأوا أورادكم بهذه السلسلة، وهم بدورهم يقرأون اورادهم بتلك المسبحة العجيبة، ويذكرون ربّهم الكريم باعدادها غير المحدودة.

فان شئت فانظر الى تلاميذ القرآن من الاولياء الصالحين امثال الشيخ الكيلاني والشيخ الرفاعي والشيخ الشاذلي (رضي الله عنهم)(١)، وانصت اليهم حينما يقرأون اورادهم، وانظر كيف أخذوا في اياديهم سلاسل الذرات، وعدد القطرات، وانفاس المخلوقات فيذكرون الله بها ويسبّحونه ويقدّسونه.. تأمل كيف يتعالى ذلك الانسان الهزيل الصغير الذي يصارعه اصغر ميكروب ويصرعه أدنى كَرْب! وكيف يتسامى في التربية القرآنية الخارقة فتنبسط لطائفُه وتسطع بفيض إرشادات القرآن حتى انه يستصغر اضخمَ موجودات الدنيا من ان يكون مسبحةً لأوراده، بل يستقل الجنة

(١) الرفاعي: (٥١٢ ـ ٥٧٨ هـ) احمد بن علي بن يحيى الرفاعي، ابو العباس، الامام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن في واسط بالعراق سنة ٥١٢ هـ وتفقه وتأدب في واسط. وكان يسكن قرية ام عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها سنة ٥٧٨ هـ. وفيات الاعيان ١/٥٥ الطبقات الكبرى ١/١٤٠ نور الابصار ٢٢٠ الاعلام ١/١٧٤ جامع كرامات الاولياء ١/٤٩٠.

الشاذلي: «٥٩١ ـ ٦٥٦ هـ» هو علي بن عبدالله بن عبد الجبار الشاذلي، والشاذلة قرية من افريقيا، الضرير الزاهد نزيل الاسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية، صاحب الاوراد المسماة «حزب الشاذلي». الطبقات الكبرى ٢/٤ الاعلام ٤/٣٠٥ نور الابصار ٢٣٤ جامع كرامات الاولياء ٢/٣٤١.

ـ المترجم

العظمى ان تكون غاية ذكره لله سبحانه، مع انه لايرى لنفسه فضلاً على أدنى شئ من خلق الله.. انه يجمع منتهى التواضع في منتهى العزة.. ومن هنا يمكنك ان تقدّر مدى انحطاط تلاميذ الفلسفة ومدى دناءتهم.

وهكذا فالحقائق التي تراها الفلسفة السقيمة الاوربية بدهائها الاعور مشوهةً زائفةً يراها الهديُ القرآني واضحةً جلية، ذلك النور الذي ينظر الى كلا العالمين معاً بعينين براقتين نافذتين الى الغيب، ويشير بكلتا يديه الى السعادتين، ويخاطب البشرية:

ايها الانسان! إن ما تملكه من نفسٍ ومال ليس ملكاً لك، بل هو أمانةٌ لديك، فمالكُ تلك الامانة قديرٌ على كل شئ، عليم بكل شئ، رحيمٌ كريم، يشتري منك ملكه الذي عندك ليحفَظَه لك، لئلا يضيع في يدك، وسيكافؤك به ثمناً عظيماً، فانت لست الاّ جندياً مكلفاً بوظيفة، فاعمل لأجله واسعَ باسمه، فهو الذي يرسل اليك رزقَك الذي تحتاجه، ويحفظك مما لا تقدر عليه.

ان غاية حياتك هذه ونتيجتها هي أن تكون مظهراً لتجليات اسماء ذلك المالك، ومعكساً لشؤونه الحكيمة.. واذا ما اصابتك مصيبةٌ فقل:﴿ **إنّا لله وإناّ اليه رَاجعُون** ﴾ (البقرة:١٥٦). اي أنا طوعُ أمر مولاي، فان كنتِ قادمةً ايتها المصيبة باذنه وباسمه، فأهلاً ومرحباً بكِ، فنحن لا محالة راجعون اليه لامناص من ذلك. وسنحظى بالمثول بين يديه، فنحن حقاً مشتاقون اليه.. فما دام سيُعتقنا يوماً من تكاليف الحياة فليكن ذلك على يديك ايتها المصيبة.. انا مستسلمٌ راضٍ. ولكن إن كان الامر والارادة قد صدر اليك منه سبحانه لأجل الابتلاء والاختبار لمدى محافظتي على الامانة ولمدى قيامي بواجباتي، فلا أسلّم ما استطعت امانة مالكي لأيدٍ غير أمينة. ولا استسلم لغير أمره ورضاه سبحانه.

فدونك مثالاً واحداً من بين الالوف منه على معرفة قيمة ما يلقّنه دهاءُ الفلسفة، ومرتبة ما يرشده هدي القرآن من دروس.

نعم ان الوضع الحقيقي لكلا الطرفين هو على هذا المنوال، بيد أن درجات الناس متفاوتةٌ في الهداية والضلالة ومراتب الغفلة مختلفة متباينة، فلا يشعر كلٌّ واحد بهذه

الحقيقة في كل مرتبة، إذ الغفلة تُبطل الحس والشعور وتخدّرهما، وقد أبطلتْ في هذا الزمان الحسَ والشعورَ الى حدٍ لم يَعُد يَشعر بألم ومرارة هذا العذاب الاليم اولئك السائرون في ركاب المدنية الحاضرة. ولكن ستار الغفلة يتمزق بتزايد الاحساس العلمي، علاوةً على نذير الموت الذي يعرض جنازة ثلاثين ألف شخص يومياً.

فيا اسفى! ويا ويل من ضلّ بطواغيت الاجانب وعلومهم المادية الطبيعية، ويا خسارة اولئك الذين يقلّدونهم تقليداً اعمى، ويتبعونهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع.

فيا ابناء هذا الوطن! لا تحاولوا تقليد الافرنج! وهل بعد كل ما رأيتم من ظلم اوروبا الشنيع وعداوتهم اللدودة، تتبعونهم في سفاهتهم، وتسيرون في ركاب أفكارهم الباطلة؟ وتلتحقون بصفوفهم، وتنضمّون تحت لوائهم بلا شعور؟ فانتم بهذا تحكمون على انفسكم، وعلى اخوانكم بالاعدام الابدي.. كونوا راشدين فطنين! انكم كلما اتبعتموهم في سفاهتهم وضلالهم ازددتم كذباً وافتراءً في دعوى الحمية والتضحية، لأن هذا الاتباع استخفافٌ بأمتكم واستهزاء بملّتكم.

هدانا الله واياكم الى الصراط المستقيم.

المذكّرة السادسة

يامَن يضطرب ويقلق من كثرة عدد الكفار، ويامَن يتزلزل باتفاقهم على إنكار بعض حقائق الايمان، اعلم ايها المسكين!

اولاً:

ان القيمة والاهمية ليستا في وفرة الكمية وكثرة العدد، اذ الانسان إن لم يكن انساناً حقاً انقلب حيواناً شيطاناً، لأنَ الانسان يكسب حيوانية هي أشدُّ من الحيوان نفسه كلما توغل في النوازع الحيوانية، كبعض الاجانب او السائرين في ركابهم. فبينما ترى قلة عدد الانسان قياساً الى كثرة عدد الحيوانات إذا بك تراه قد أصبح سلطاناً وسيداً على جميع انواعها، وصار خليفةً في الارض.

فالكفار المنكرون والذين يتّبعون خطواتهم في السفاهة، هم نوعٌ خبيث من انواع الحيوانات التي خلَقَها الفاطر الحكيم سبحانه لعمارة الدنيا. وجعلهم «واحداً قياسياً» لمعرفة درجات النعمة التي اسبغها على عباده المؤمنين، وسوف يسلّمهم الى جهنم وبئس المصير التي يستحقونها، حينما يرثُ الارضَ ومَن عليها.

ثانياً:

ليس في إنكار الكفار والضالين لحقيقة من الحقائق الايمانية قوة، ولافي نفيهم لها سندٌ، ولا في اتفاقهم اهميةٌ ، لانه نفيٌ. فالفٌ من النافين هم في حكم نافٍ واحد فقط. مثال ذلك:

اذا نَفى اهل استانبول جميعهم رؤيتهم للهلال في بداية رمضان المبارك، فان إثبات اثنين من الشهود، يُسقط قيمة إتفاق كل ذلك الجمع الغفير. فلا قيمة اذن في اتفاق الكفار الكثيرين ما دامت ماهيةُ الكفر والضلالة نفياً، وانكاراً، وجهلاً، وعدماً. ومن هنا يُرجّح حُكمُ مؤمنين اثنين يستندان الى الشهود في المسائل الايمانية الثابتة اثباتاً قاطعاً على إتفاق ما لا يُحد من اهل الضلالة والانكار ويتغلب عليهم.

وسرّ هذه الحقيقة هو ما يأتي:

ان دعاوى النافين متعددة، برغم انها تبدو واحدة في الظاهر، إذ لايتحد بعضها مع البعض الآخر كي يعززه ويشدّ من عضده. بينما دعاوى المثبتين تتحد وتتساند ويمدّ بعضها البعض الآخر ويقّويه ويدعمه، فالذي لا يرى هلال رمضان في السماء يقول: ان الهلال في نظري غير موجود، وعندي غير موجود.. والآخر يقول مثله، فكلٌ منهم ينفي من زاوية نظره، وليس من واقع الحال، ومن الامر بذاته، لذا فاختلافُ نظرهم وتنوعُ الاسباب الداعية الى حَجب الرؤية، وتعدد موانع النظر لدى الاشخاص، يجعل دعاوْاهم متباينة ومختلفة لا تسند احداها الاخرى.

اما المثبتون فلا يقول احدهم: الهلال موجود في نظري، او عندي، بل يقول: ان الهلال موجود فعلاً، وهو في السماء بذاته.. والمشاهدون جميعاً يصدّقونه في دعواه هذه، ويؤيدونه في الامر نفسه قائلين: الهلال موجود في واقع الحال.. اي ان جميع الدعاوى واحدة.

ولما كان نظر النافين مختلفاً، فقد اصبحت دعاواهم كذلك مختلفة، فلا يسري حُكمهم على الامر بذاته، لأنه لا يمكن اثبات النفي في الحقيقة، إذ يلزم الاحاطةُ. ومن هنا صارت من القواعد الاصولية أن «العَدَم المطلق لا يُثبَتُ إلاّ بمُشكلات عظيمة».

نعم! اذ قلت: إن شيئاً ما موجود في الدنيا، فيكفي لاثباته إراءته فقط. ولكن ان قلتَ: انه معدومٌ، غير موجود في الدنيا. اي اذا نفيت وجوده، فينبغي لإثبات هذا النفي او العدم ان تبحث عنه في اطراف الدنيا كافة وإراءتها واشهادها.

وبناء على هذا السر: يتساوى في انكار الكفار لحقيقة واحدة الواحد مع الالف، لعدم وجود التساند فيه. يشبه ذلك، حل مسألة ذهنية، أو المرور من ثقب، او القفز من فوق الخندق، التي لاتساند فيها.

اما المثبتون فلأنهم ينظرون الى الامر نفسه، اي الى واقع الحال، فانْ دعاواهم تتحد وتتعاون ويمدُّ بعضها البعض الآخر قوةً، بمثل التعاون الحاصل في رفع صخرةٍ عظيمة، فكلما تكاثرت الايدي عليها، سهُل رفعُها اكثر، حيث يستمد كلٌّ منهم القوة من الآخر.

المذكرة السابعة

يامن يحثّ المسلمين ويشوّقهم على حُطام الدنيا ويسوقهم قسراً الى صنائع الاجانب والتمسك بأذيال رقيّهم. ويا مدّعي الحمية،ايها الشقي!. تمهّل، وتأمّل! واحذر من إنقطاع عُرى الدين لبعض أفراد هذه الامة وانفصام روابطهم معه، لانه اذا انقطعت تلك الروابط لدى البعض تحت سطوة مطارق التقليد الاعمى والسلوك الارعن، فسيكونون مُلحدين مضرّين بالمجتمع، مُفسدين للحياة الاجتماعية كالسّم القاتل، اذ المرتد سمٌّ زعاف للمجتمع، حيث قد فسد وجدانه وتعفنت طويته كلياً، ومن هنا ورد في علم الاصول: «المرتد لا حقّ له في الحياة، خلافاً للكافر الذميّ او المعاهد فان له حقاً في الحياة» وأن شهادة الكافر من اهل الذمة مقبولةٌ عند الاحناف بينما الفاسقُ مردود الشهادة لانه خائن.

ايها الفاسق الشقي! لا تغتر بكثرة الفسّاق، ولا تقل ان افكار اكثرية الناس تساندني وتؤيدني، ذلك لانه لم يدخل الفسقَ فاسقٌ برغبةٍ فيه وطلباً بذات الفسق، بل وقع فيه ولا يستطيع الخروج منه،إذ ما من فاسقٍ الاّ ويتمنى ان يكون تقياً صالحاً، وان يكون رئيسه وآمره ذا دينٍ وصلاح، اللهّم الاّ من أُشربَ قلبُه بالردة – والعياذ بالله – ففسد وجدانه بها، واصبح يلتذ بلدغ الآخرين وإيذائهم كالحيّة.

ايها العقل الابله والقلب الفاسد! أتظنُّ ان المسلمين لا يرغبون في الدنيا، ولا يفكرون فيها، حتى اصبحوا فقراءَ مُعْدَمين، فتراهم بحاجة الى مَن يوُقظهم من رقدتهم كيلا ينسوا نصيبهم من الدنيا؟

كلا.. ان ظنك خطأ.. بل لقد اشتدّ الحرص، فهم يقعون في قبضة الفقر وشباك الحرمان نتيجة الحرص، اذ الحرص للمؤمن سببُ الخيبة وقائد الحرمان والسفالة. وقد ذهب مثلاً: الحريص خائب خاسر .

نعم، ان الاسباب الداعية الى الدنيا كثيرة، والوسائل السائقة اليها وفيرة، وفي مقدمتها ما يحمله كلُّ انسان من نفس أمّارة بالسوء، وما يكمن فيه من هوىً وحاجة وحواس ومشاعر وشيطانٍ عدو، فضلاً عن اقران السوء – من امثالك – وحلاوة العاجلة ولذّتها... وغيرها من الدعاة اليها كثير، بينما الدعاة الى الآخرة وهي الخالدة والمرشدون الى الحياة الابدية قليلون.

فان كان لديك ذرةٌ من الحَميّة والشّهامة تجاه هذه الامة، وان كنت صادقاً في دعواك الى التضحية والفداء والايثار، فعليك بمدّ يد المساعدة الى اولئك القلّة من الداعين الى الحياة الباقية. والاّ فان عاونت الكثرة، وكممت أفواه اولئك الدعاة القلة، فقد اصبحت للشيطان قريناً. فساء قريناً.

أوَ تظن أن فقرنا ناجمٌ من زُهد الدين او من كسلٍ ناشئ من ترك الدنيا؟ انك مخطئ في ظنك أشدَّ الخطأ.. ألا ترى ان المجوس والبراهمة في الصين والهند والزنوج في افريقيا وامثالهم من الشعوب المغلوبة على أمرها والواقعة تحت سطوة اوروبا، هم أفقر منّا حالاً.

أوَ لا ترى انه لا يبقى بأيدي المسلمين سوى ما يسد رمقهم ويقيم أوَدَهم حيث يغصبه كفار اوربا الظالمون منهم او يسرقه منافقو آسيا بما يحيكون من دسائس خبيثة.

ان كانت غايتكم من سوق المؤمنين قسراً الى المدنية التي هي الدنيّة (اي بلا ميم) تسهيلاً لادارة دفة النظام وبسط الامن في ربوع المملكة، فاعلموا جيداً انكم على خطأ جسيم، اذ تسوقون الامة الى هاوية طريق فاسد. لان ادارة مائة من الفاسقين الفاسدين اخلاقياً والمرتابين في إعتقادهم وإيمانهم، وجعل الامن والنظام يسود فيما بينهم لهو أصعبُ بكثير من ادارة اُلوف من الصالحين المتقين ونشر الامن فيما بينهم.

وبناء على ما تقدم من الاسس فليس المسلمون بحاجة الى ترغيبهم وحثّهم على حب الدنيا والحرص عليها، فلا يحصل الرقي والتقدم ولاينشر الامن والنظام في ربوع البلاد بهذا الاسلوب، بل هم بحاجة الى تنظيم مساعيهم، وبث الثقة فيما بينهم، وتسهيل وسائط التعاون فيما بينهم، ولاتتم هذه الامور الاّ باتباع الاوامر المقدسة في الدين، والثبات عليها، مع التزام التقوى من الله سبحانه وابتغاء مرضاته.

المذكّرة الثامنة

يامَن لايدرك مدى اللذة والسعادة في السعي والعمل.. ايها الكسلان! اعلم، ان الحق تبارك وتعالى قد ادرج لكمال كرمه جزاءَ الخدمة في الخدمة نفسها، وادمج ثوابَ العمل في العمل نفسه.

ولأجل هذا كانت الموجودات قاطبة بما فيها الجمادات – من زاوية نظر معينة – تمتثل الأوامر الربانية بشوق كامل، وبنوع من اللذة، عند ادائها لوظائفها الخاصة بها والتي تطلق عليها «الاوامر التكوينية». فكل شئ ابتداءً من النحل والنمل والطير.. وإنتهاء الى الشمس والقمر، كلٌ منها يسعى بلذة تامة في اداء مهماتها. أي: اللذة كامنة في ثنايا وظائف الموجودات، حيث انها تقوم بها على وجه من الاتقان التام، برغم أنها لا تعقل ما تفعل ولا تدرك نتائج ما تعمل.

* **فان قلت**: ان وجود اللذة في الاحياء ممكنٌ، ولكن كيف يكون الشوقُ واللذةُ موجودين في الجمادات؟

فالجواب: ان الجمادات تطلب شَرَفاً ومقاماً وكمالاً وجمالاً وانتظاماً، بل تبحث عن كل ذلك وتفتش عنه لأجل إظهار الاسماء الإلهية المتجلية فيها، لا لذاتها، لذا فهي تتنور وتترقى وتعلو اثناء إمتثالها تلك الوظيفة الفطرية، حيث أنها تكون بمثابة مرايا ومعاكس لتجليات اسماء« نور الانوار ».

فمثلاً: قطرةٌ من الماء – وقطعة من الزجاج – رغم أنها تافهةٌ وقائمة في ذاتها، فإذا ما توجهت بقلبها الصافي الى الشمس، تتحول الى نوع من عرشٍ لتلك الشمس، فتلقاك بوجه مضئ!

وكذلك الذرات والموجودات – على غرار هذا المثال – من حيث قيامها بوظيفة مرايا عاكسة لتجليات الاسماء الحسنى لذي الجلال والجمال والكمال المطلق، فانها تسمو وتعلو الى مرتبة من الظهور والجلاء والتنوّر هي غاية في العلو والسمو، إذ ترتفع تلك القطرة وتلك القطعة من حضيض الخمود والظلمة الى ذروة الظهور والتنور. لذا يمكن القول: بأن الموجودات تقوم باداء وظائفها في غاية اللذة والمتعة ما دامت تكتسب بها مرتبة نورانية سامية، واللذة ممكنة ان كانت للموجود حصة من الحياة العامة. وأظهر دليل على ان اللذة كامنة في ثنايا الوظيفة نفسها هو ما يأتي:

تأمل في وظائف اعضائك وحواسّك، ترَ أن كلاً منها يجد لذائذ متنوعة اثناء قيامه بمهامه – في سبيل بقاء الشخص او النوع – فالخدمة نفسها، والوظيفةُ عينها تكون بمثابة ضربٍ من التلذذ والمتعة بالنسبة لها، بل يكون ترك الوظيفة والعمل عذاباً مؤلماً لذلك العضو.

وهناك دليل ظاهر آخر هو: ان الديك – مثلاً – يؤثر الدجاجات على نفسه، فيترك ما يلتقطه من حبوب رزقه إليهن دون ان يأكل منها. ويُشاهد انه يقوم بهذه المهمة وهو في غاية الشوق وعزّ الافتخار وذروة اللذة.. فهناك إذن لذةٌ في تلك الخدمة اعظم من لذة الاكل نفسه. وكذا الحال مع الدجاجة – الراعية لأفراخها –

فهي تُؤْثرها على نفسها، إذ تدع نفسَها جائعةً في سبيل اشباع الصغار، بل تضحي بنفسها في سبيل الافراخ، فتهاجم الكلب المُغير عليها لأجل الحفاظ على الصغار.

ففي الخدمة اذن لذة تفوق كل شئ، حتى انها تفوق مرارة الجوع وترجّح على ألم الموت. فالوالدات من الحيوانات تجد منتهى اللذة في حمايتها لصغارها طالما هي صغيرة. ولكن ما إن يكبر الصغير حتى تنتهي مهمة الأم فتذهب اللذة ايضاً. وتبدأ الأم بضرب الذي كانت ترعاه، بل تأخذ الحَب منه.. هذه السّنة الإلهية جاريةٌ في الحيوانات الاّ في الانسان إذ تستمر مهمة الام نوعاً ما، لأن شيئاً من الطفولة يظل في الانسان حيث الضعف والعجز يلازمانه طوال حياته، فهو بحاجة الى الشفقة والرأفة كل حين.

وهكذا، تأمل في جميع الذكور من الحيوانات كالديك، وجميع الوالدات منها كالدجاج، وافهم كيف انها لا تقوم بتلك الوظيفة ولا تنجز اي شئ لأجل نفسها ولالكمالها بالذات حيث تفدي نفسها اذا احتاج الامر. بل انها تقوم بتلك المهمة في سبيل المُنعم الكريم الذي انعم عليها، وفي سبيل الفاطر الجليل الذي وظّفها في تلك الوظيفة فأدرج برحمته الواسعة لذةً ضمن وظيفتها، ومتعةً ضمن خدمتها.

وهناك دليل آخر على ان الاجرة داخلةٌ في العمل نفسه وهو ان النباتات والاشجار تمتثل اوامر فاطرها الجليل بما يُشعر ان فيها شوقاً ولذة، لأن ما تنشره من روائح طيبة، وما تتزين به من زينة فاخرة تستهوي الانظار، وما تقدمه من تضحيات وفداء حتى الرَمَق الاخير لأجل سنابلها وثمارها.. كل ذلك يعلن لأهل الفطنة:

ان النباتات تجد لذةً فائقة في إمتثالها الاوامر بما يفوق اية لذة اخرى، حتى انها تمحو نفسها وتهلكها لأجل تلك اللذة.. ألا ترى شجرة جوز الهند، وشجرة التين كيف تُطعم ثمرتها لبناً خالصاً تطلبه من خزينة الرحمة الإلهية بلسان حالها وتتسلمه منها وتظل هي لا تُطعم نفسها غير الطين. وشجرة الرمان تسقي ثمرتها شراباً صافياً، وَهبَها لها ربُّها، وهي ترضى قانعةً بشراب ماءٍ عكر. حتى انك ترى ذلك في الحبوب كذلك، فهي تُظهر شوقاً هائلاً للتسنبل، بمثل اشتياق السجين الى رحب الحياة.

ومن هذا السرّ الجاري في الكائنات المسمى بـ« سُنّة الله » ومن هذا الدستور العظيم، يكون العاطل الكسلان الطريح على فراش الراحة أشقى حالاً وأضيق صدراً من الساعي المجدّ، ذلك لأن العاطل يكون شاكياً من عمره، يريد ان يمضي بسرعة في اللهو والمرح. بينما الساعي المجدّ شاكرٌ لله وحامدٌ له، لايريد ان يمضي عمرَه سدىً. لذا اصبح دستوراً عاماً في الحياة: « المستريح العاطل شاكٍ من عمره والساعي المجدّ شاكرٌ». وذهب مثلاً: « الراحةُ مندمجة في الزحمة والزحمة مندمجة في الراحة ».

نعم اذا ما أُمعن النظر في الجمادات فان السنة الإلهية المذكورة تظهر بوضوح؛ فالجمادات التي لم تتكشف استعداداتُها وباتت ناقصةً من هذه الناحية، تراها تسعى بشدة، وتبذل جهداً عظيماً لكي تنبسط وتنتقل من طور « القوة » الكامنة الى طور « الفعل ». وعندها يشاهد عليها ما يشير الى أن في تلك الوظيفة الفطرية شوقاً، وفي ذلك التحول لذةً، جرياً بدستور سنّة الله، فان كانت لذلك الجامد حصة في الحياة العامة، فالشوق يعود اليه، والاّ فهو يعود الى الذي يمثل ذلك الجامد ويشرف عليه، بل يمكن أن يقال بناء على هذا السر: ان الماء اللطيف الرقراق ما ان يتسلم امراً بالانجماد، حتى يمتثل ذلك الامر بشدة وشوق الى حدّ انه يكسر الحديد ويحطّمه. فاذن عندما تبلّغ البرودةُ ودرجاتُ الانجماد أمراً ربانياً بالتوسع، الى الماء الموجود داخل كرة حديدٍ مقفلة، فان الماء يمتثل الامر بشدة وشوق بحيث يحطّم كرة الحديد تلك، وينجمد.

وعلى هذا فقس جميع ما في الكون من سعي وحركة، ابتداءً من دوران الشموس في افلاكها وانتهاءً الى دوران الذرات – كالمولوي العاشق – ودوراتها واهتزازاتها.. فلا تجد أحداً الاّ ويجري على قانون القَدَر الإلهي، ويظهر الى الوجود بالامر التكويني الصادر من يد القدرة الإلهية والمتضمن العلم الإلهي وأمره وارادته.. حتى ان كل ذرة، وكل موجود، وكل ذي حياة، انما هو كالجندي في الجيش، له علاقات متباينة ووظائف مختلفة، وارتباطات متنوعة مع كل دائرة من دوائره. فالذرة الموجودة في عينيك – مثلاً – لها علاقة مع خلايا العين، ومع اعصاب العين في الوجه، ومع

الشرايين والاوردة في الجسم، وعلى اساس هذه العلاقات والروابط تُعَيَّنُ لها وظيفة، وعلى ضوئها تنتج فوائد ومصالح وهكذا..

فقس على هذا المنوال كل شئ في الوجود.

وعلى هذا الاساس فان كل شئ في الوجود يشهد على وجوب وجود القدير المطلق من جهتين:

الاولى: قيامه بوظائف تفوق طاقته المحدودة بآلاف المرات، مع أنه عاجزٌ عن ذلك، فيشهد بلسان عجزه إذن على وجود ذلك القدير المطلق.

الثانية: توافق حركته مع الدساتير التي تكوّن نظام العالم، وانسجام عمله مع القوانين التي تديم توازن الموجودات، فيشهد – بهذا الانسجام والتوافق – على وجود ذلك العليم القدير.

ذلك لان جماداً كالذرة – او حشرة كالنحل – لا تستطيع ان تعرف النظام والموازنة اللذين هما من المسائل الدقيقة المهمة المسطورة في الكتاب المبين.. إذ اين الذرة والنحلة من قراءة ذلك الكتاب الذي هو في يدِ مَن يقول: ﴿**يوم نطوي السماء كطيّ السجِل للكتب**﴾ (الانبياء: ١٠٤) فلا يجرؤ أحد أن يردّ هذه الشهادة للذرة الاّ مَن يتوهم بحماقة متناهية انها تملك عيناً بصيرة تتمكن بها قراءة الحروف الدقيقة لذلك الكتاب المبين؟.

نعم، ان الفاطر الحكيم يدرج دساتيرَ الكتاب المبين واحكامه دَرجاً في غاية الجمال، ويجملُها في غاية الاختصار، ضمن لذةٍ خاصةٍ لذلك الشئ، وفي ثنايا حاجةٍ مخصوصة له. فاذا ما عمل الشئ وفق تلك اللذة الخاصة والحاجة المخصوصة، فانه يمتثل – من حيث لا يشعر – احكام ذلك الكتاب المبين.

فمثلاً: ان البعوضة في حين مولدها ومجيئها الى الدنيا تنطلق من بيتها وتهاجم وجه الانسان وتضربه بعصاها الطويلة وخرطومها الدقيق وتفجّر به السائل الحيوي، وتمصّه مصاً، وهي في هذا الهجوم تُظهر براعة عسكرية فائقة..

تُرى مَن علّم هذا المخلوق الصغير الذي اتى حديثاً الى الدنيا وليس له من تجربة سابقة، هذه المهارة البارعة، وهذه الفنون الحربية الدقيقة، وهذا الاتقان في التفجير، فمن اين اكتسب هذه المعرفة؟.. فانا هذا السعيد المسكين اعترف بأني لو كنت بدلاً منه، لما كنت أتعلم تلك المهارة، وتلك الفنون العسكرية من كرّ وفرّ، وتلك الامور الدقيقة في استخراج السائل الحيوي الاّ بعد تجارب طويلة، ودروس عديدة، ومدة مديدة.

فقس على البعوضة النحل الملهمة والعنكبوت والبلبل الناسج لعشه نسجاً بديعاً، بل يمكنك قياس النباتات على الحيوانات ايضاً.

نعم ان الجواد المطلق جل جلاله قد سلّم بيد كل فردٍ من الاحياء «بطاقة تذكرة» مكتوبةً بمداد اللذة وحبر الاحتياج، فاودع سبحانه فيها منهاج اوامره التكوينية، وفهرس ما يقوم به الفردُ من وظائف.. فسبحانه من حكيم ذي جلال، كيف أدرج ما يخص النحل من دساتير الكتاب المبين في تلك «التذكرة» الصغيرة وسطرَها في رأس النحلة، وجعل مفتاحها لذةً خاصة بالنحلة الدائبة،لتفتح به تلك «التذكرة» المودعة في دماغها وتقرأ منهاج عملها فيها وتدرك وظيفتها، وتسعى وتجدّ وفقها، وتبرز حكمةً من الحكم المكنونة في الآية الكريمة: ﴿ **وأوحى ربُّك الى النحل** ﴾ (النحل: ٦٨).

فيا مَن يقرأ او يسمع هذه المذكّرة الثامنة! ان كنت قد فهمتها حقَّ الفهم فقد فهمت إذن سراً من اسرار: ﴿ **ورحمتي وسعت كلَ شئ** ﴾ (الاعراف:١٥٦).

وأدركت حقيقةً من حقائق: ﴿ **وَاِنْ مِنْ شَيءٍ الاّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ (الاسراء: ٤٤)

وتوصلت الى دستور من دساتير: ﴿ **انما أمره اذا ارادَ شيئاً ان يقول له كُن فيكون** ﴾ (يس: ٨٢)

وتعلمت مسألة لطيفة من مسائل: ﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت كلّ شيءٍ وإليه تُرجعون** ﴾ (يس: ٨٣).

المذكّرة التاسعة

اعلم ان النبوة في البشرية فذلكة الخير وخلاصة الكمال واساسه. وأن الدين الحق فهرس السعادة. وأن الايمان حُسنٌ منزّهٌ وجمال مجرّد. وحيث ان حسناً ساطعاً، وفيضاً واسعاً سامياً، وحقاً ظاهراً، وكمالاً فائقاً مشاهَدٌ في هذا العالم، فبالبداهة يكون الحقُ والحقيقة في جانب النبوة، وفي يد الانبياء عليهم السلام، وتكون الضلالة والشر والخسارة في مخالفيهم.

فان شئت فانظر الى مثال واحد من بين الوف الامثلة على محاسن العبودية التي جاء بها النبي عليه السلام وهو:

ان النبي عليه السلام يوحّد بالعبادة قلوبَ الموحدين في صلاة العيد والجمعة والجماعة، ويجمع ألسنتهم جميعاً على كلمة واحدة. حتى يقابل هذا الانسانُ عظمة الخطاب الصادر من المعبود الحق سبحانه بأصوات قلوب وألسنة لا تحد وبدعواتها، متعاوناً متسانداً، بحيث يُظهر الجميع عبوديةً واسعةً جداً ازاء عَظمة أُلوهية المعبود الحق فكأن كرة الارض برمّتها هي التي تنطق بذلك الذكر، وتدعو بذلك الدعاء، وتصلّي لله باقطارها وتمتثل بارجائها الامر النازل بالعزة والعظمة من فوق السموات السبع: ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾.

وبهذا الاتحاد صار الانسان وهو المخلوق الضعيف الصغير الذي هو كالذرة في هذه العوالم، عبداً محبوباً لدى خالق السموات والارض من جهة وعظمة عبوديته له، واصبح خليفة الارض وسلطانها، وسيد الحيوانات ورئيسها، وغاية خلق الكائنات ونتيجتها. أرأيت لو اجتمعت في عالم الشهادة ايضاً – كما هو في عالم الغيب – اصوات المكبرين البالغين مئات الملايين من المؤمنين بـ «الله اكبر» عقب الصلوات ولا سيما صلاة العيد، واتحدت جميعها في آن واحد أما كانت متساوية لصوت تكبيرة «الله اكبر» تطلقها كرةُ الارض ومتناسبةً مع ضخامتها والتي اصبحت كأنها إنسان ضخم، إذ باتحاد تكبيرات اولئك الموحّدين في آن واحد يكون هناك تكبيرةٌ عظيمة جداً كأن الارض تطلقها، بل كأن الارض تتزلزل زلزالها في صلاة العيد. اذ تكبّر الله بتكبير العالم الاسلامي باقطاره واوتاده وتسبّحه بتسبيحهم واذكارهم فتنوي من

صميم قلب كعبتها المشرّفة التي هي قِبلتها، وتكبّر بـ« الله اكبر» بلسان عرَفة من فم مكة المكرمة. فيتموّج صدى « الله اكبر» متمثلاً في هواء كهوف أفواه جميع المؤمنين المنتشرين في العالم بمثل تموج ما لا يحد من الصدى في كلمة واحدة من « الله اكبر». بل تتموج تلك التكبيرات والاذكار في اقطار السموات وعوالم البرزخ. فالحمد لله الذي جعل هذه الارض ساجدةً عابدةً له وهيأها لتكون مسجداً لعباده ومهداً لمخلوقاته. فنحمده سبحانه ونسبّحه ونكبّره بعدد ذرات الارض ونرفع اليه حمداً بعدد موجوداته أن جعلنا من أمة محمد ﷺ الذي علّمنا هذا النوع من العبادة.

المذكّرة العاشرة

ايها السعيد الغافل المتخبط بسوء حاله! اعلم، ان الوصول الى نور معرفة الحق سبحانه، والى مشاهدة تجلياته في مرايا الآيات والشواهد والنظر اليه من مسامات البراهين والدلائل يقتضي الاّ تتجسّس بأصابع التنقيد على كل نورٍ جرى عليك، وورَد الى قلبك، وتظاهر الى عقلك، والاّ تنقده بيد التردد. فلا تمدّن يدك لأخذ نورٍ اضاء لك. بل تجرّد من اسباب الغفلة، وتعرّض لذلك النور، وتوجّه اليه، فاني قد شاهدت أن شواهد معرفة الله وبراهينها ثلاثة اقسام:

قسم منها: كالماء، يُرى ويُحسّ، ولكن لا يُمسك بالاصابع. ففي هذا القسم عليك بالتجرّد عن الخيالات، والانغماس فيه بكليتك، فلا تتجسس باصبع التنقيد، فانه يسيل ويذهب، اذ لا يرضى ماءُ الحياة بذلك الاصبع محلاً.

القسم الثاني: كالهواء، يُحسّ ولكن لا يُرى، ولا يُتخذ ولا يُستمسك، فتوجه لنفحات تلك الرحمة، وتعرّض لها، وقابلها بوجهك وفمك وروحك، فان نظرت الى هذا القسم بيد التردد والريب ومددت اليه يد التنقيد، بدلاً من الانتعاش روحياً، فانه ينطلق، إذ لا يتخذ يدك مسكناً له ولا يرضى بها منزلاً.

القسم الثالث: فهو كالنور، يُرى ولكن لايُحس، ولايؤخذ ولا يستمسك، فتعرّض له وقابله ببصيرة قلبك ونظر روحك، وتوجّه اليه ببصرك، ثم انتظر، فلربما يأتي بذاته

ومن نفسه. لان النور لا يؤخذ باليد، ولا يُصاد بالاصابع، بل بنور البصيرة يُصاد. فاذا مددت اليه يداً مادية حريصةً، ووزنته بموازين مادية، فانه يختفي وإن لم ينطفئ، لان نوراً كهذا مثلما انه لا يرضى بالماديّ حبساً، ولا يدخل بالقيد ابداً،فانه لا يرضى بالكثيف مالكاً وسيداً عليه.

المذكرة الحادية عشرة

انظر الى درجة رحمة القرآن الواسعة وشفقته العظيمة على جمهور العوام ومراعاته لبساطة افكارهم ونظرهم غير الثاقب الى امور دقيقة، انظر كيف يكرر ويُكثر الآيات الواضحة المسطورة في جباه السموات والارض، فيقرئهم الحروف الكبيرة التي تُقرأ بكمال السهولة، كخلق السموات والارض وانزال الماء من السماء، واحياء الارض.. وامثالها من الآيات. ولايوجّه الانظار الى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة الاّ نادراً، كيلا يصعب عليهم الامر.

ثم انظر الى جزالة بيان القرآن وسلاسة اسلوبه وفطريته، كيف يتلو على الانسان ما كتبتهُ القدرة الإلهية في صحائف الكائنات من آيات حتى كأن القرآن قراءةٌ لما في كتاب الكائنات وانظمتها، وتلاوةٌ لشؤون بارئها المصّور وافعاله الحكيمة. فان شئت استمع بقلبٍ شهيد لقوله تعالى ﴿ **عَمّ يتساءَلون** ﴾ و ﴿ **قل اللهُم مالك الملك** ﴾ (آل عمران:٢٦) وأمثالهما من الآيات الكريمة.

المذكّرة الثانية عشرة

يا احبائي المستمعين لهذه المذكّرات، اعلموا!

اني قد اكتب تضرّع قلبي الى ربّي مع ان من شأنه ان يُستَر ولايُسطَر، رجاءً من رحمته تعالى ان يقبل نُطق كتابي، بدلاً عني إذا أسكت الموت لساني.. نعم، لا تسع توبة لساني في عمري القصير كفارة لذنوبي الكثيرة. فنطقُ الكتاب الثابت الدائم أوفى لها. فقبل ثلاث عشرة سنة واثناء اضطراب روحي عارم وفي غمرة تحول

ضحكات «سعيد القديم» الى بكاء «سعيد الجديد» أفقت من ليل الشباب على صبح المشيب فسطرت هذه المناجاة باللغة العربية، اوردها كما هي:

ياربي الرحيم ويا إلهي الكريم!

قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراته في يدي الاّ آثام مؤلمة مُذلّة، وآلام مضرّة مُضلّة، ووساوسٌ مزعجة معجزة، وانا بهذا الحمل الثقيل، والقلب العليل، والوجه الخجيل متقربٌ - بالمشاهدة - بكمال السرعة، بلا انحراف وبلا اختيار كآبائي واحبابي واقاربي واقراني الى باب القبر، بيت الوحدة والانفراد في طريق ابد الآباد، للفراق الابدي من هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة بالمشاهدة، ولا سيما الغدارة المكارة لمثلي ذي النفس الامارة.

فيا ربي الرحيم ويا ربي الكريم!

أراني عن قريب لبستُ كفني وركبت تابوتي، وودعت أحبابي، وتوجهت الى باب قبري، فأنادي في باب رحمتك: الأمان الأمان ياحنان يامنّان، نجني من خجالة العصيان.

آه.. كفني على عنقي، وانا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي الى باب رحمتك أُنادي: الأمان الأمان يارحمن يا حنّان، خلصني من ثقل حمل العصيان.

آه.. انا ملتف بكفني وساكن في قبري وتركني المشيعون، وانا منتظر لعفوك ورحمتك.. ومشاهدٌ بأن لا ملجأ ولا منجأ الاّ اليك، وأُنادي: الأمان الأمانَ من ضيق المكان، ومن وحشة العصيان، ومن قبح وجه الآثام. يارحمن يا حنان.. يا منّان.. ويا ديّان نجني من رفاقة الذنوب والعصيان..

الهي! رحمتك ملجئي ووسيلتي، واليك ارفع بثي وحزني وشكايتي.

يا خالقي الكريم، ويا ربي الرحيم، وياسيدي، ويامولاي.. مخلوقك، ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز، الغافل، الجاهل العليل الذليل المسئ المسن الشقي الآبق، قد عاد بعد اربعين سنة الى بابك ملتجأً الى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات مبتلى بالاوهام والاسقام، متضرعاً اليك.. فان تقبل وتغفر وترحم فانت لذاك اهلٌ وانت

ارحم الراحمين، والاّ فايّ باب يُقصد غير بابك.. وانت الرّبُ المقصود والحق المعبود. ولا اله الاّ انت وحدك لا شريك لك.. آخر الكلام في الدنيا واول الكلام في الآخرة وفي القبر: اشهد ان لا إله الاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

المذكّرة الثالثة عشرة

عبارة عن خمسِ مسائل قد صارت مدار الالتباس.

*** اولاها:**

ان الذين يعملون في طريق الحق ويجاهدون في سبيله، في الوقت الذي ينبغي لهم أن يفكروا في واجبهم وعملهم فانهم يفكرون فيما يخص شؤون الله سبحانه وتدبيره، ويبنون اعمالهم عليه فيخطئون.

ورد في كتاب «ادب الدنيا والدين» أن إبليس – لعنة الله عليه – حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال: ألستَ تقول: إنه لن يُصيبك الاّ ما كتبه الله عليك؟ قال: نعم. قال: فارمِ نفسك من ذروة هذا الجبل فانه إن يقدِّر لك السلامة تسلم، فقال له: يا ملعون! إن لله أن يختبر عبدَه وليس للعبد أن يختبر ربّه.

أي: ان الله سبحانه هو الذي يختبر عبده ويقول له: إذا عملت هكذا سأوافيك بكذا، أرأيتك تستطيع القيام به؟. يختبره.. ولكن العبد ليس له الحق ولا في طوقه اصلاً أن يختبر ربّه ويقول: اذا قمتُ بالعمل هكذا فهل تعمل لي كذا؟. فهذا الاسلوب من الكلام الذي يومئ بالاختبار سوءُ ادبٍ تجاه الربوبية، وهو منافٍ للعبودية. فما دام الامر هكذا، فعلى المرء أن يؤدي واجبه ولا يتدخل بتدبير اللهّ سبحانه وقَدَره.

كان جلال الدين خوارزم شاه (١) وهو احد ابطال الاسلام الذي انتصر على

(١) هو الحاكم السابع والأخير لامبراطورية خوارزم، تصدى لأول مرة لجيش جنكيزخان، وشتت جيش احد قواده، وفي سنة ١٢٢١ شتت ايضاً جيشاً كبيراً للمغول، ولكن اضطر الى الانسحاب الى الهند لتوالي هجوم المغول. وفي سنة ١٢٢٤ احيا امبراطورية خوارزم في ايران ادت انتصاراته الى توجس السلاجقة والدولة الايوبية منه. فلم يجد منها عوناً. وفي سنة ١٢٣١ اضطر الى الانسحاب امام المغول الى جبال طوروس واغتيل هناك. – المترجم.

جيش جنكيزخان انتصارات عديدة. كان يتقدم جيشه الى الحرب، فخاطبه وزراؤه ومقرّبوه: سيُظهرك الله على عدوك، وتنتصر عليهم!.

فاجابهم: «عليَّ الجهاد في سبيل الله إتباعاً لأمره سبحانه ولا حق لي فيما لم أُكلف به من شؤونه، فالنصر والهزيمة من تقديره سبحانه» ولبلوغ هذا البطل العظيم ادراك هذا السر الدقيق في الاستسلام الى امر الله والانقياد اليه، كان النصرُ حليفه في اغلب الاحيان نصراً خارقاً.

نعم انه ينبغي الاّ يفكر الانسان – بما لديه من الجزء الاختياري – بالنتائج التي يتولاّها الله سبحانه.

فمثلاً: يزداد حماسُ بعض الاخوة وشوقهم الى رسائل النور باستجابة الناس لها، فينشطون اكثر.. ولكن عندما لا يستجيب لها الناس، تفتُر قوة الضعفاء المعنوية وتنطفئ جذوة شوقهم. والحال ان سيدنا الرسول الاعظم ﷺ وهو الاستاذ الاعظم ومقتدى الكل والرائد الاعلى قد اتخذ الامر الإلهي: ﴿ **وما على الرسول الاّ البلاغُ المبينُ** ﴾ (النور: ٥٤) دليلاً ومرشداً له، فكلما أعرض الناس عن الاصغاء وتولّوا عنه ازداد جهاداً وسعياً في سبيل التبليغ. لانه عَلِم يقيناً ان جعل الناس يصغون ويهتدون انما هو من شؤون الله سبحانه، وفق الآية الكريمة ﴿ **إنك لاتهدي مَن أحببتَ ولكنَ اللّهَ يَهدي مَن يشاءُ** ﴾ (القصص: ٥٦). فما كان يتدخل ﷺ في شؤونه سبحانه.

لذا فيا اخوتي! لا تتدخلوا في اعمال وشؤون لا تعود اليكم ولا تبنوا عليها اعمالكم ولا تتخذوا طور الاختبار تجاه خالقكم.

*** المسألة الثانية:**

ان غاية العبادة امتثالُ امر الله ونيلُ رضاه، فالداعي الى العبادة هو الامر الإلهي، ونتيجتها نيلُ رضاه سبحانه. اما ثمرتها وفوائدها فأخروية. الاّ انه لا تنافي العبادة اذا مُنحت ثمراتٌ تعود فائدتها الى الدنيا، بشرط الاّ تكون علّتها الغائية، وألاّ يُقصد في طلبها. فالفوائد التي تعود الى الدنيا والثمرات التي تترتب عليها من نفسها وتُمنح من دون طلب لا تنافي العبادة، بل تكون بمثابة حث «وترجيح» للضعفاء. ولكن اذا

صارت الفوائد الدنيوية او منافعها علةً، او جزءاً من العلة لتلك العبادة او لذلك الوِرد او الذكر فانها تُبطل قسماً من تلك العبادة. بل تجعل ذلك الورد الذي له خصائص عدة عقيماً دون نتيجة.

فالذين لا يفهمون هذا السر، ويقرأون «الاوراد القدسية للشاه النقشبند» مثلاً التي لها مئات من المزايا والخواص، او يقرأون «الجوشن الكبير» الذي له ألفٌ من المزايا والفضائل وهم يقصدون بعض تلك الفوائد بالذات، لا يجدون تلك الفوائد، بل لن يجدوها ولن يشاهدوها، وليس لهم الحق لمشاهدتها البتة؛ لأنه لا يمكن ان تكون تلك الفوائد علّة لتلك الاوراد، فلا تُطلب منها تلك الفوائد قصداً، لان تلك الفوائد تترتب بصورة فضل إلهي على ذلك الوِرد الذي يُقرأ قراءةً خالصةً دون طلب شئ. فأما اذا نواها القارئ فان نيّتها تُفسد اخلاصه جزئياً، بل تُخرجها من كونها عبادةً، فتسقط قيمتها.

بيد ان هناك امراً آخر، هو أن اشخاصاً ضعفاء بحاجة دائمة الى مشوّق ومرجّح فاذا ما قرأ الاوراد قراءة خالصة لله متذكراً تلك الفوائد فلا بأس في ذلك، بل هو مقبول.

ولعدم ادراك هذه الحكمة، يقع الكثيرون فريسة الريب والشك عند عدم وجدانهم تلك الفوائد التي رُويت عن الاقطاب والسلف الصالحين، بل قد ينكرونها.

* **المسألة الثالثة:**

«طُوبى لِمَنْ عَرَف حدّه ولم يتجاوز طَوره».

ان هناك تجليات للشمس على كل شئ. ابتداءً من اصغر ذرة وبلورة زجاج وقطرة ماء ومن الحوض الكبير والبحر العظيم، وانتهاءً بالقمر والكواكب السيارة. كل منها يعرف حدّه ويطبع على نفسه انعكاس الشمس وصورتها حسب قابليته. فتستطيع قطرة ماءٍ أن تقول: عندي انعكاسٌ للشمس، وذلك حسب قابليتها. ولكن لا تجرؤ على القولِ: انا مرآة للشمس كالبحر.

كذلك الامر في مقامات الاولياء، ففيها مراتبٌ عدّة، حسب تنوّع تجليات الاسماء الإلهية الحسنى، فكلُ اسم من الاسماء الحسنى له تجلياتٌ - كالشمس في المثال -

ابتداءً من القلب وانتهاءً بالعرش. فالقلب عرشٌ، ولكن لا يستطيع ان يقول: «أنا كالعرش الاعظم». ومن هنا كان السالك في سبيل الفخر والغرور يلتبس عليه الامر فيجعل قلبه الصغير جداً كالذرة مساوياً للعرش الاعظم، ويعتبر مقامه الذي هو كالقطرة كفواً مع مقام الاولياء العظام الذي هو كالبحر. فبدلاً من أن يصرف همّه لمعرفة اساس العبادة الذي هو العجز والفقر وادراك تقصيره ونقصه امام بارئه القدير والتضرع امام عتبة ألوهيته سبحانه والسجود عندها بكل ذل وخضوع، تراه يبدر منه التصنّع والتكلف لأجل أن يلائم نفسه ويحافظ عليها مع مستوى تلك المقامات السامية، فيقع فيما لا طائل وراءه من الغرور والانانية والمشاكل العويصة.

الخلاصة:

لقد ورد في الحديث الشريف: «هَلَكَ الناس الاّ العالمون وهلك العالمون الاّ العاملون وهلك العاملون الاّ المخلصون والمخلصون على خطرٍ عظيم» (١).

أي ان محور النجاة ومدارها الاخلاص، فالفوز به اذن امر في غاية الاهمية لأن ذرة من عمل خالص أفضل عند الله من أطنانٍ من الاعمال المشوبة. فالذي يجعل الانسان يحرز الاخلاص هو تفكّره في ان الدافع الى العمل هو الامر الإلهي لاغير، ونتيجته كسب رضاه وحده، ثم عدم تدخله في الشؤون الإلهية.

ان هناك اخلاصاً في كل شئ. حتى أن ذرةً من حُبٍ خالص تفضل على اطنان من الحب الصوري الشكلي. وقد عبّر احدهم شعراً عن هذا النوع من الحب:

وما انا بالباغي على الحُب رشوةً ضعيفٌ هوىً يُبغى عليه ثوابُ

أي لا أطلب على الحب رشوة ولا أجرة ولا عوضاً ولا مكافأة، لأن الحب الذي يطلب ثواباً ومكافأة حبٌ ضعيف لا يدوم. فهذا الحب الخالص قد أودعه الله سبحانه في فطرة الانسان ولاسيما الوالدات عامة، فشفقة الوالدة مثال بارز لهذا الحب الخالص.

---

(١) في كشف الخفاء (٢٧٩٦): قال الصغاني: وهذا حديث مفترىً ملحون، والصواب في الاعراب العالمين والعاملين والمخلصين اهـ. واقول فيه: ان السيوطي نقل في النكت عن ابي حيان أن الابدال في الاستثناء الموجب لغةً لبعض العرب، وخرج عليها قوله تعالى ﴿فشربوا منه الاّ قليل﴾ اهـ وعليه فالعالمون وما بعده بدل مما قبله.

والدليل على ان الوالدات لا يطلبن تجاه محبتهن لأولادهن مكافأة ولا رشوة قط هو جُودُهن بانفسهن لأجل اولادهن، بل فداؤهن حتى باخراهن لأجلهم. حتى ترى الدجاج تهاجم الكلب انقاذاً لأفراخها من فمه - كما شاهدها خسرو - علماً أن حياتها هي كل ما لديها من رأسمال.

* **المسألة الرابعة:**

ينبغي ألاّ تؤخذ النعم التي تَرِدُ بأسباب ووسائل ظاهرية على حساب تلك الاسباب والوسائل، لأن ذلك السبب وتلك الوسيلة، إما له اختيار او لا اختيار له. فان لم يكن له اختيار - كالحيوان والنبات - فلا ريب انه يعطيك بحساب الله وباسمه. وحيث أنه يذكر الله بلسان حاله، اي يقول: بسم الله، ويسلّمك النعمة، فخذها باسم الله وكُلها.

ولكن إن كان ذلك السبب له اختيار، فعليه أن يذكر الله ويقول: بسم الله، فلا تأخذ منه الاّ بعد ذكره اسم الله، لأن المعنى الاشاري - فضلاً عن المعنى الصريح - للآية الكريمة: ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسمُ الله عليه** ﴾ (الانعام:١٢١) يرمز الى: لاتأكلوا من نعمةٍ لم يُذكر اسم مالكها الحقيقي عليها وهو اللهُ، ولم يسلّم اليك باسمه.

وعلى هذا فعلى المعطي ان يذكر اسم الله، وعلى الآخذ ان يذكر اسم الله. فان كان المعطي لا يذكر اسم الله، وانت في حاجة الى الأخذ، فاذكر انت اسم الله، ولكن ارفع بصرك عالياً فوق رأس المعطي وانظر الى يد الرحمة الإلهية التي انعمت عليه وعليك معاً، وقبّلها بالشكر، وتسلّم منها النعمة. اي انظر الى الإنعام من خلال النعمة، وتذكّر المنعم الحقيقي من خلال الإنعام، فهذا النظر والتذكر شكرٌ. ومن ثم ارجع بصرك - ان شئت - وانظر الى السبب او الوسيلة، وادع له بالخير واثنِ عليه، لورود النعمة على يديه.

ان الذي يوهم عَبَدة الاسباب ويخدعهم هو: اعتبارُ احد الشيئين علةً للآخر عند مجيئهما معاً، او عند وجودهما معاً. وهذا هو الذي يسمى بـ«الاقتران».

وحيث ان عدم وجود شئ ما، يصبح علةً لعدم وجود نعمة، لذا يتوهم المرء ان وجود ذلك الشئ هو علة لوجود تلك النعمة، فيبدأ بتقديم شكره وامتنانه الى ذلك الشئ فيخطئ؛ لأن وجودَ نعمة ما يترتبُ على مقدمات كثيرة وشرائط عديدة، بينما إنعدامُ تلك النعمة يحدث بمجرد انعدام شرط واحد فقط.

مثلاً: ان الذي لا يفتح مجرى الساقية المؤدية الى الحديقة يصبح سبباً وعلةً لجفاف الحديقة ووسيلةً لموتها، وبالتالي الى انعدام النعم التي فيها. ولكن وجود النِعم في تلك الحديقة لا يتوقف على عمل ذلك الشخص وحده، بل يتوقف ايضاً على مئات من الشرائط الاخرى، بل لاتحصل تلك النعم كلها الاّ بالعلّة الحقيقية التي هي القدرةُ الربانية والارادة الإلهية.

فافهم من هذا مدى الخطأ في هذه المغالطة، واعلم فداحة خطأ عبدةِ الاسباب.

نعم! ان الاقتران شئٌ والعلة شئ آخر. فالنعمة التي تأتيك وقد اقترنت بنيّة احسانٍ من أحدهم اليك، علّتها الرحمة الإلهية. وليس لذاك الشخص الاّ الاقتران دون العلة.

نعم، لو لم ينو ذلك الشخص تلك النيّة في الاحسان اليك لما كانت تأتيك تلك النعمة، اي ان عدم نيته كان علةً لعدم مجئ النعمة، ولكن ذلك الميل للاحسان لايكون علةً لوجود النعمة ابداً، بل ربما يكون مجرد شرطٍ واحد من بين مئات الشروط الاخرى. ولقد التبس الامر على بعض طلاب رسائل النور، ممن افاض الله عليهم من نعَمه (امثال خسرو ورأفت..) فالتبس عليهم الاقتران بالعلّة، فكانوا يبدون الرضى باستاذهم ويثنون عليه ثناءً مفرطاً. والحال ان الله سبحانه قد قَرنَ نعمةَ استفادتهم من الدروس القرآنية مع احسانه الى استاذهم من نعمة الافادة، فالامر اقترانٌ ليس الاّ.

فهم يقولون: لو لم يقدم استاذنا الى هنا، ما كنا لنأخذ هذا الدرس الايماني، فافادته اذن هي علّةٌ لاستفادتنا نحن. وانا اقول: يا اخوتي الاحبة، ان الحق سبحانه وتعالى قد قَرَن النعمة التي انعمها عليّ بالتي انعمها عليكم، فالعلّة في كلتا النعمتين هي الرحمة الإلهية.

وقد كنت يوماً اشعر بامتنان بالغ نحو طلاب يملكون قلماً سيالاً مثلكم ويسعون الى خدمة النور. فالتبس عليّ الاقتران بالعلّة، فكنت اقول: تُرى كيف كان ينهض في أداء خدمة القرآن الكريم مَن كان مثلي في رداءة الخط، لولا هؤلاء الطلبة؟. ولكن فَهمتُ بعدئذ ان الحق سبحانه وتعالى بعد ما أنعم عليكم النعمة المقدسة بجودة الكتابة، مَنّ عليّ بالتوفيق في السير في هذه الخدمة القرآنية، فاقترن الامران معاً، فلا يكون احدهما علّة للآخر قط، لذا فلا أُقدم شكري وامتناني لكم، بل ابشّركم واهنئكم. وعليكم انتم كذلك ان تدعوا لي بالتوفيق والبركة بدلاً من الرضى والثناء.

ففي هذه المسألة ميزانٌ دقيقٌ تُعرف به درجات الغفلة والشرك الخفي.

المسألة الخامسة:

كما انه ظلمٌ عظيم اذا ما أعطي الى شخص واحد ما تملكه الجماعة، ويكون الشخص مرتكباً ظلماً قبيحاً اذا ما غصبَ ما هو وقفٌ للجماعة، كذلك الامر في النتائج التي تتحصل بمساعي الجماعة وعملهم، والشرف والمنزلة المترتبة على محاسن الجماعة وفضائلها، اذا ما أُسند الى رئيسها او استاذها او مرشدها يكون ظلماً واضحاً بحق الجماعة، كما هو ظلم بيّن بحق الاستاذ او الرئيس نفسه، لأن ذلك يداعب أنانيته المستترة فيه ويسوقه الى الغرور. فبينما هو حارسٌ بوابٌ للجماعة، إذا به يتزيا بزيّ السلطان ويُوهم الاخرين بزيّه، فيظلم نفسه. بل ربما يفتح له هذا طريقاً الى نوع من شرك خفي. نعم، انه لا يحق ان يأخذ آمرُ طابورِ الغنائم التي حصل عليها الجنود من فتحهم قلعةً حصينة، ولا يمكنه أن يُسند إنتصارهم الى نفسه.

لأجل هذا يجب الاّ يُنظر الى الاستاذ او المرشد على انه المنبع او المصدر بل ينبغي اعتباره والنظر اليه على انه مَعكَس ومظهرٌ فحسب. كالمرآة التي تعكس اليك حرارة الشمس وضوءها، فمن البلاهة ان تتلقى المرآة كأنها مصدرٌ لهما فتنسى الشمس نفسها، ومن ثم تُولي اهتمامك ورضاك الى المرآة بدلاً عن الشمس!.

نعم، انه لابد من الحفاظ على المرآة لانها مَظهرٌ يظهر تلك الصفات. فروح المرشد وقلبه مرآةٌ، تصبح مَعكَساً للفيوضات الربانية التي يفيضها الحق سبحانه عليها، فيصبح المرشد وسيلة لانعكاس تلك الفيوضات الى مريده.

لذا يجب الاّ يُسند اليه مقام اكثر من مقام الوسيلة – من حيث الفيوضات – بل يُحتمل الاّ يكون ذلك الاستاذ الذي ينظر اليه كأنه مصدر مَظهراً ولا مصدراً. وانما يرى مريده ما أخذه من فيوضات – في طريق آخر – يراها في مرآة روح شيخه، وذلك لما يحمل من صفاء الاخلاص نحوه وشدة العلاقة به ودنو صلته به وحصر نظره فيه. مَثَلهُ في هذا كمثل المنوّم مغناطيسياً إذ ينفتح في خياله نافذةً الى عالم المثال بعد إمعانه النظر في المرآة، فيشاهد فيها مناظر غريبة عجيبة، علماً ان تلك المناظر ليست في المرآة وانما فيما وراء المرآة مما يتراءى له من نافذة خيالية التي انفتحت نتيجة إمعان النظر في المرآة.

لهذا يمكن ان يكون مريدٌ مخلصٌ لشيخ غير كامل أكمل من شيخه، فينبرى الى ارشاد شيخه، ويصبح شيخاً لشيخه.

المذكّرة الرابعة عشرة

تتضمن اربعة رموز صغيرة تخصّ التوحيد:

الرمز الاول:

يامن يستمدّ من الاسباب، إنك «تنفخ من غيرِ ضَرم وتستسمن ذا ورم»[1] اذا رأيت قصراً عجيباً يبنى من جواهر غريبة، لا يوجد وقت البناء بعض تلك الجواهر الاّ في الصين، وبعضها الاّ في الاندلس، وبعضها الاّ في اليمن، وبعضها الاّ في سيبريا. واذا شاهدت ان البناء يتم على أحسن ما يكون، وتجلب له تلك الاحجار الكريمة من الشرق والغرب والشمال والجنوب باسرع وقت وبسهولة تامة وفي اليوم نفسه.. فهل يبقى لديك ريب في ان بنّاء ذلك القصر باسط هيمنته على الكرة الارضية؟.

وهكذا كلُ كائنٍ، بناءٌ، وقصر إلهي، ولاسيما الانسان. فهو من اجمل تلك القصور ومن اعجبها، لأن قسماً من الاحجار الكريمة لهذا القصر البديع من عالم الارواح، وقسم منها من عالم المثال واللوح المحفوظ، وقسم آخر من عالم الهواء، ومن عالم النور، ومن عالم العناصر. كما امتدت حاجاته الى الابد، وانتشرت آماله في اقطار السموات والارض، وشرّعت روابطه وعلاقاته في طبقات الدنيا والآخرة.

---

(١) نفخت في غير ضرم... مثل يضرب لمن يصنع الشئ في غير موضعه. والضرم: النار أو الحطب السريع الالتهاب، ونفخ في غير ضرم اي في مكان لا نار فيه. – المترجم.

فيا هذا الانسان الذي يحسب نفسهُ انساناً، انت قصر عجيب جداً، وعمارة غريبة جداً. فما دامت ماهيتُك هكذا، فلا يكون خالقك اذاً الاّ ذلك الذي يتصرف في الدنيا والآخرة بيسر التصرف في منزلين اثنين، ويتصرف في الارض والسماء كتصرفه في صحيفتين، ويتصرف في الازل والابد كأنهما الامس والغدُ، فلا معبود يليق بك، ولاملجأ لك، ولا منقذ الاّ ذلك الذي يحكم على الارض والسماء ويملك أزمة الدنيا والعقبى.

الرمز الثاني:

هناك بعضُ الحمقى يتوجهُ بحبه الى المرآة اذا ما رأى الشمس فيها. وذلك لعدم معرفته الشمس نفسها، فيحافظ على المرآة بحرصٍ شديد لاستبقاء الشمس، ولكيلا تضيع! ولكن اذا تفطّن أن الشمس لا تموت بموت المرآة، ولاتفنى بإنكسارها توجّه بمحبته كلها الى الشمس التي في السماء. وعندئذٍ يُدرك أن الشمس التي تشاهَد في المرآة ليست تابعة للمرآة، ولايتوقف بقاؤها ببقاء المرآة، بل ان بقاء حيوية المرآة وتلألأها إنما هو ببقاء تجليات الشمس ومقابلتها. فبقاء المرآة تابعٌ لبقاء الشمس.

فيا ايها الانسان! ان قلبك وهويتك وماهيتَك مرآةٌ، وما في فطرتك من حبّ البقاء ليس لأجلها، بل لأجل ما فيها من تجلٍ لأسم الباقي ذي الجلال، الذي يتجلّى فيها حسب استعداد كل انسان. ولكن صُرِفَ وجهُ تلك المحبة الى جهة اخرى نتيجة البلاهة. فما دام الأمر هكذا فقل: ياباقي انت الباقي. فاذ انت موجود وباقٍ، فليفعل الفناء بنا ما شاء فلا نبالي بما نلاقي.

الرمز الثالث:

ايها الانسان! إن من غرائب ما أودع الفاطر الحكيم في ماهيتك انه: بينما لاتسعك الدنيا احياناً فتقول: أفّ! أفّ! ضجراً كالمسجون المخنوق، وتبحث عن مكان اوسعَ منه، اذا بك تسعك خردلة من عمل، من خاطرة، من دقيقة، حتى تفنى فيها. فقلبك وفكرُك اللذان لاتسعَهما الدنيا الضخمة، تسعَهما الذرة الصغيرة، فتجول بأشد احاسيسك ومشاعرك في تلك الخاطرة الدقيقة الصغيرة.

وقد اودع البارئ سبحانه في ماهيتك أجهزةً ولطائف معنوية دقيقة، اذا ابتلع بعضها الدنيا فلا يشبع، ويضيق بعضها ذرعاً عن ذرة ولايتحمل شُعيرة - كالعين التي لاتتحمل شعرة والرأس الذي يتحمل اثقالاً هائلة. فتلك اللطيفة لا تتحمل ثقلاً كالشعرة الدقيقة، اي لاتتحمل حالة هينة جداً نشأت من الضلالة ونجمت من الغفلة. بل قد تنطفئ جذوتها وتموت.

فاحذر! وخفف الوطء، وخَفْ من الغَرق، فيغرق معك ألطف لطائفك التي تبتلع الدنيا في أكلة، او كلمة، او لمعة،او اشارة، او بقلة، او قبلة. فهناك اشياء صغيرة جداً تتمكن - في جهة - ان تستوعب ما هو ضخم جداً. فانظر ان شئت كيف تغرق السماء بنجومها في مرآة صغيرة، وكيف كتب الحق سبحانه في خردلة حافظتك اكثر ما في صحيفة اعمالك واغلب ما في صحائف اعمارك. فسبحانه من قادر قيوم!.

الرمز الرابع:

ياعابد الدنيا! ان دنياك التي تتصورها واسعةً فسيحةً ما هي الاّكالقبر الضيّق، ولكن جدرانه من مرآةٍ تتعاكس فيها الصور، فتراه فسيحاً رحباً واسعاً مدّ البصر، فبينما منزلك هذا هو كالقبر تراه كالمدينة الشاسعة، ذلك لأن الجدار الأيمن والايسر لتلك الدنيا واللذين يمثلان الماضي والمستقبل - رغم انهما معدومان وغير موجودين - فانهما كالمرآة تعكسان الصور في بعضهما البعض الآخر فتوسّعان وتبسطان اجنحة زمان الحال الحاضرة الذي هو قصير جداً وضيق جداً. فتختلط الحقيقة بالخيال، فترى الدنيا المعدومة موجودةً. فكما ان خطاً مستقيماً وهو في حقيقته رفيعٌ جداً، إذا ما تحرك بسرعة يظهر واسعاً كأنه سطح كبير، كذلك دنياك انت، هي في حقيقتها ضيقّة جداً، جدرانها قد توسعت ومُدّت بغفلتك وتوهم خيالك، حتى اذا ما تحرك رأسك من جراء مصيبة اصابتك،تراه يَصدم ذلك الجدار الذي كنت تتصوره بعيداً جداً. فيطيّر ما تحمله من خيال، ويطرد نومك. وعندئذ تجد دنياك الواسعة أضيقَ من القبر، وترى زمانك وعمرك يمضي اسرع من البرق، وتنظر الى حياتك تراها تسيل اسرع من النهر.

فما دامت الحياة الدنيا والعيش المادي والحياة الحيوانية هكذا، فانسلْ اذن من الحيوانية، ودع المادية، وادخل مدارج حياة القلب.. تجد ميدان حياةٍ أرحب، وعالم نورٍ اوسع مما كنت تتوهمه من تلك الدنيا الواسعة.

وما مفتاح ذلك العالم الأرحب الاّ معرفةُ الله، وانطاقُ اللسان وتحريك القلب، وتشغيل الروح بما تفيده الكلمة المقدسة (لا إله الاّ الله) من معانٍ واسرار .

المذكّرة الخامسة عشرة

وهي ثلاث مسائل.

المسألة الاولى [١]:

يا مَن يريد ان يرى دليلاً على حقيقة الآيتين الكريمتين: ﴿ **فمَن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيراً يَره ۞ ومَن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يَره** ﴾ (الزلزال:٧ – ٨) اللتين تشيران الى التجلي الأتم لاسم الله «الحفيظ».

ان التجلي الاعظم لاسم الله الحفيظ ونظير الحقيقة الكبرى لهاتين الآيتين مبثوثٌ في الارجاء كافة، يمكنك أن تجده بالنظر والتأمل في صحائف كتاب الكائنات، ذلك الكتاب المكتوب على مسطر الكتاب المبين وعلى موازينه ومقاييسه.

خذ – مثلاً – غَرفةً بقبضتك من اشتات بذور الازهار والاشجار، تلك البذيرات المختلطة والحبّات المختلفة الاجناس والانواع وهي المتشابهة في الاشكال والاجرام، أدفن هذه البُذيرات في ظلمات تراب بسيط جامد، ثم اسقها بالماء الذي لاميزان له ولايميز بين الاشياء فاينما توجهه يسيل ويذهب. ثم عُدْ اليه عند الربيع الذي هو ميدان الحشر السنوي، وانظر وتأمل كيف ان مَلَك الرعّد ينفخُ في صُوره في الربيع كنفخ اسرافيل، مُنادياً المطر ومُبشراً البذيرات المدفونة تحت الارض بالبعث بعد الموت. فانت ترى ان تلك البذيرات التي هي في منتهى الاختلاط والامتزاج مع غاية

---

(١) اما المسألة الثانية والثالثة من هذه المذكرة، وكذلك المذكرات الباقية، فلم يدرجها الاستاذ المؤلف ضمن هذه الرسالة بل جعل كلاً منها في رسالة خاصة في «اللمعات» وهي: الاخلاص، والحجاب، والطبيعة، والاشارات الثلاث.. وغيرها. ـ المترجم.

التشابه تمتثل تحت انوار تجلّي اسم «الحفيظ»، إمتثالاً تاماً بلا خطأ الأوامر التكوينية الآتية اليها من بارئها الحكيم. فتلائم اعمالها وتوافق حركاتها مع تلك الاوامر بحيث تستشف منها لمعان كمال الحكمة والعلم والارادة والقصد والشعور.

الا ترى كيف تتمايز تلك البذيرات المتماثلة، ويفترق بعضها عن البعض الآخر. فهذه البُذيرة قد صارت شجرةَ تين تنشر نِعم الفاطر الحكيم فوق رؤوسها وتنثرها عليها وتمدّها الينا بايدي اغصانها. وهاتان البُذيرتان المتشابهتان بها قد صارتا زهرة الشمس وزهرة البنفسج.. وامثالها كثير من الازهار الجميلة التي تتزين لأجلنا وتواجهنا بوجه طليق مبتسم متوددةً الينا.. وهناك بذيراتٌ اخرى قد صارت فواكه طيبة نشتهيها، وسنابل ملأى، واشجاراً يافعة، تثير شهيتنا بطعومها الطيبة، وروائحها الزكية، واشكالها البديعة فتدعونا الى انفسها، وتُفديها الينا، كي تصعد من مرتبة الحياة النباتية الى مرتبة الحياة الحيوانية. حتى نمت تلك البذيرات نمواً واسعاً الى حد صارت تلك الغرفة منها - باذن خالقها - حديقة غنّاء وجنةً فيحاء مزدهرة بالازهار المتنوعة والاشجار المختلفة، فانظر هل ترى خطأً او فطوراً ﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾ (الملك: ٣).

لقد اظهرت كلُ بذرة بتجلي اسم الله الحفيظ واحسانه ما ورثَته من ميراث ابيها واصلها بلا نقصان وبلا التباس.

فالحفيظ الذي يفعل هذا الحفظ المعجز يشير به الى إظهار التجلي الاكبر للحفيظية يوم الحشر الاكبر والقيامة العظمى.

نعم، ان اظهار كمال الحفظ والعناية في مثل هذه الامور الزائلة التافهة بلا قصور، لهو حجةٌ بالغة على محافظة ومحاسبة ما له اهمية عظيمة وتأثير ابدي كأفعال خلفاء الارض وآثارهم، واعمال حملة الامانة واقوالهم، وحسنات عبدة الواحد الاحد وسيئاتهم..

﴿ **أيحسَبُ الانسانُ أنْ يُترَكَ سُدىً..** ﴾ (القيامة: ٣٦) بلى إنه لمبعوثٌ الى الابد، ومرشّحٌ للسعادة الابدية او الشقاء الدائم، فيحاسَبُ على السبَد واللَّبَد(١) فاما الثواب واما العقاب.

(٦) السبَد: جمع أسباد: القليل من الشعر، يقال: «ما له سبدٌ ولا لَبَد» أي لا شعر ولاصوف، يقال: لمن لا شئ له (انظر مجمع الامثال للميداني). - المترجم.

وهكذا فهناك ما لا يحد ولا يُعد من دلائل التجلي لإسم الله الحفيظ، وشواهد حقيقة الآية المذكورة.

فهذا المثال الذي تنسج على منواله ليس الاّ قبضة من صُبرة[١]، او غرفة من بحر، او حبة من رمال الدهناء، ونقطة من تلال الفيفاء[٢]، وقطرة من زلال السماء، فسبحانه من حفيظ رقيب وشهيد حسيب.

﴿ سُبحَانَكَ لا علِمَ لَنا إلاّ ما عَلمتَنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيم ﴾

اللمعة الثامنة عشرة

ستدرج باذن الله ضمن مجموعة اخرى.

---

(١) الصُبرة: ما جُمع من الطعام بلا كيل ولا وزن. ـ المترجم.

(٢) الفيفاء: الصحراء الملساء، والجمع: الفيافي. ـ المترجم.

اللمعة التاسعة عشرة

«رسالة الاقتصاد»

(هذه الرسالة تحضّ على الاقتصاد والقناعة وتحذّر من مغبة الاسراف والتبذير).

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

﴿ وكُلوا واشربُوا ولَا تُسرِفُوا ﴾ (الاعراف: ٣١)

(هذه الآية الكريمة تلقّن درساً في غاية الاهمية وترشد إرشاداً حكيماً بليغاً بصيغة الأمر الى الاقتصاد، ونهي صريحٍ عن الاسراف. تتضمن هذه المسالة سبع نكات).

النكتة الاولى

ان الخالق الرحيم سبحانه يطلب من البشرية شكراً وحمداً إزاء ما اغدق عليها من النعم والآلاء، الاّ ان الاسراف منافٍ للشكر واستخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة، بينما الاقتصاد توقيرٌ مربح ازاء النعمة.

اجل! إن الاقتصاد كما هو شكر معنوي، فهو توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والاحسان.. وهو سبب حاسم للبركة والاستكثار.. وهو مدار صحة الجسد كالحِمية.. وهو سبيل الى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي.. وهو وسيلة قوية لإحساس ما في النعم والآلاء من لذة.. وهو سبب متين لتذوق اللذائذ المخبأة في ثنايا نعمٍ تبدو غير لذيذة.. ولكون الاسراف يخالف الحِكَم المذكورة آنفاً باتت عواقبه وخيمة.

النكتة الثانية

لقد خلق الفاطر الحكيم جسم الانسان بما يشبه قصراً كامل التقويم وبما يماثل مدينة منتظمة الاجزاء، وجعل حاسة الذوق المغروزة في فمه كالبّواب الحارس، والاعصاب والاوعية بمثابة اسلاك هاتف وتلغراف (تتم خلالها دورة المخابرة الحساسة بين القوة الذائقة والمعدة التي هي في مركز كيان الانسان) بحيث تقوم حاسة الذوق تلك إبلاغ ما حلّ في الفم من المواد، وتحجز عن البدن والمعدة الاشياء الضارة التي لاحاجة للجسم لها قائلة: «ممنوع الدخول» نابذةً اياها، بل لاتلبث أن تدفع وتبصق باستهجان في وجه كل ما هو غير نافع للبدن فضلاً عن ضرره ومرارته.

ولما كانت القوة الذائقة في الفم تؤدي دور الحارس. وان المعدة هي سيدة الجسد وحاكمته من حيث الادارة، فلو بلغت قيمة هديةٍ تُقدّم الى حاكم القصر مائة درجة فان خمساً منها فقط يجوز أن يعطى هبةً للحارس لا اكثر، كيلا يختال الحارس وينسى وظيفته ويقحم في القصر كل مخلّ عابث يرشوه قرشاً اكثر.

وهكذا، بناءً على هذا السرّ، نفترض الآن امامنا لقمتان، لقمة منها من مادة مغذّية - كالجبن والبيض مثلاً - يُقدّر ثمنها بقرش واحد، واللقمة الاخرى حلوى من نوع فاخر يُقدّر ثمنها بعشرة قروش، فهاتان اللقمتان متساويتان قبل دخولهما الفم ولا فرق بينهما، وهما متساويتان كذلك من حيث إنماء الجسم وتغذيته بعد دخولهما الفم ونزولهما عبر البلعوم. بل قد يغذّي الجبن - الذي هو بقرش واحد - تغذية افضل وتنمية أقوى من اللقمة الاخرى. اذن ليس هناك من فرق الاّ ملاطفة القوة الذائقة في الفم التي لاتستغرق سوى نصف دقيقة. فليقدر إذن مدى ضرر الاسراف ويوازن مدى التفاهة في صرف عشرة قروش بدلاً عن قرش واحد في سبيل الحصول على لذة تستغرق نصف دقيقة!

وهكذا فان اثابة الحارس تسعة اضعاف ما يُقدّم الى حاكم القصر من هدايا تُفضي به لا محالة الى الغرور والجشع وتدفعه بالتالي الى القول: انما انا الحاكم. فمن كافأه بهبة اكثر ولذة أزيد دفعه الى الداخل، مسبّباً إخلال النظام القائم هناك، مضرماً فيه ناراً مستعرة وملزماً صاحبه الاستغاثة صارخاً: هيّا اسرعوا اليّ بالطبيب حالاً ليخفف شدة حرارتي ويطفئ لظى نارها.

فالاقتصاد والقناعة منسجمان انسجاماً تاماً مع الحكمة الإلهية، اذ يتعاملان مع القوة الذائقة معاملة الحارس، ويقفانها عند حدّها ويكافئانها حسب تلك الوظيفة. اما الاسراف فلأنه يسلك سلوكاً مخالفاً لتلك الحكمة، فسرعان ما يتلقّى المسرف صفعات موجعة، اذ تحدث الاختلاطات المؤلمة في المعدة التي تؤدي الى فقدان الشهية الحقيقيَة نحو الاكل، فيأكل بشهية كاذبة مصطنعة بتنويع الاطعمة مما يسبب عسراً في الهضم.

النكتة الثالثة

قلنا في النكتة الثانية آنفاً: ان القوة الذائقة تؤدي دور الحارس. نعم، هي كذلك عند الغافلين الذين لم يَسمُوا بعدُ روحياً والذين لم يتقدموا في مضمار الشكر والعروج في مدارجه. نعم إنه لا ينبغي اللجوء الى الاسراف - كصرف عشرة أضعاف الثمن، لأجل تلذذ تلك الحاسة الحارسة. ولكن القوة الذائقة لدى الشاكرين

حقاً ولدى اهل الحقيقة واهل القلوب واولي الابصار بمثابة راصدة وناظرة مفتشة لمطابخ الرحمة الإلهية (كما وضح ذلك في المقارنة المعقودة في الكلمة السادسة). وان ما يتم في تلك القوة الذائقة من عملية تقدير قيمة النعم الآلهية ومن التعرّف عليها بأنواعها المختلفة بما فيها من موازين دقيقة حساسة عديدة بعدد الاطعمة، انما هو لإبلاغ الجسد والمعدة، بما ينّم عن شكر معنوي.

فلا تقتصر وظيفة القوة الذائقة على رعاية الجسد رعاية مادية وحدها، بل هي ايضاً أرقى حكماً من وظيفة المعدة وأرفع منزلة منها، لما لها من رعاية للقلب والروح والعقل ومن عناية لكل منها، علماً أنها تستطيع ان تمضي في سبيل الحصول على لذتها - بشرط عدم الاسراف - انجازاً لمهمة الشكر الخالص المقدرة لها، وبنيّة التعرف والاطلاع على انواع النعم الإلهية بتذوقها والشعور بها بشرط مشروعيتهاوعدم كونها وسيلة للتذلل والاستجداء، اي اننا نستطيع ان نستعمل ذلك اللسان الحامل للقوة الذائقة في الشكر لاجل التفضيل بين الاطعمة اللذيذة.

واليكم هذه الحادثة اشارة الى هذه الحقيقة، وهي كرامة من كرامات الشيخ الكيلاني «قُدس سره»: كان لعجوز رقيقة لطيفة ابن وحيد يتربّى على يد الشيخ، دخلت تلك العجوز الموقرة ذات يوم على ابنها ورأت انه يأكل من كسرة خبز يابس أسمر مزاولاً رياضة روحية حتى ضعف ونحل جسمه. أثارت هذه الحالة شفقة والدته الرؤوم ورقّت لحاله فذهبت لتشتكيه الى الشيخ الكيلاني واذا بها ترى الشيخ يأكل دجاجاً مشوياً. ولشدة رقتها ولطافتها قالت: ايها الشيخ ان ابني يكاد يموت جوعاً وها انت ذا تأكل الدجاج؟! فخاطب الشيخ الدجاج قائلاً: «قم باذن الله» فوثب ذلك الدجاج المطبوخ الى خارج الوعاء بعد ان اكتمل دجاجاً حياً بالتئام عظامه. لقد نقل هذا الخبر بالتواتر المعنوي ثقات كثيرون[١] اظهاراً لكرامة واحدة من صاحب الكرامات المشهورة في العالم، الشيخ الكيلاني قُدس سرّه. ومما قاله الشيخ لتلك العجوز: متى ما بلغ إبنك هذه الدرجة.. فليأكل الدجاج هو الآخر.

(١) وقال اليافعي رضي الله عنه: صح بالسند المتصل الى الشيخ القطب عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى: أن أم شاب عنده دخلت عليه وهو يأكل في دجاجة، فانكرت أكله الدجاجة وإطعامه ابنها أرذل الطعام، فقال لها: اذا صار ابنك بحيث يقول لمثل هذه الدجاجة قومي بأذن الله فقامت ولها اجنحة وطارت بها حق له ان يأكل الدجاج. (الفتاوى الحديثية لابن حجر ص ٨٠)- المترجم.

فمغزى هذا الامر الصادر من الشيخ الكيلاني هو: متى حَكمت روحُ ابنك جَسَدَهُ وهيمن قلبُه على نفسه، وسادَ عقلُه معدته، والتمس اللذةَ لاجل الشكر.. عندئذ يمكنه أن يتناول ما لذّ وطاب من الاطعمة.

النكتة الرابعة

ان المقتصد لا يعاني فاقة العائلة وعوزها كما هو مفهوم الحديث الشريف «لا يعول من اقتصد»(١). اجل هناك من الدلائل القاطعة التي لا يحصرها العدّ بأن الاقتصاد سبب جازم لإنزال البركة، واساس متين للعيش الافضل. أذكر منها ما رأيته في نفسي وبشهادة الذين عاونوني في خدمتي وصادقوني باخلاص فأقول:

لقد حصلتُ احياناً وحصل اصدقائي على عشرة اضعاف من البركة بسبب الاقتصاد. حتى انه قبل تسع سنوات (٢) عندما أصرّ عليّ قسم من رؤساء العشائر المنفيين معي الى «بوردور» على قبول زكاتهم كي يحولوا بيني وبين وقوعي في الذلة والحاجة لقلة ما كانت عندي من النقود، فقلت لاولئك الرؤساء الاثرياء: برغم أن نقودي قليلة جداً الاّ انني املك الاقتصاد، وقد تعودت على القناعة، فانا أغنى منكم بكثير. فرفضتُ تكليفهم المتكرر الملح.. ومن الجدير بالملاحظة ان قسماً من اولئك الذين عرضوا عليّ زكاتهم قد غلبهم الدَّين بعد سنتين، لعدم التزامهم بالاقتصاد، الاّ أن تلك النقود الضئيلة قد كفتني – ولله الحمد – ببركة الاقتصاد الى ما بعد سبع سنوات، فلم يُرَق مني ماء الوجه، ولم يدفعني لعرض حاجتي الى الناس، ولم يفسد عليّ ما اتخذته دستوراً لحياتي وهو «الاستغناء عن الناس».

نعم ان من لا يقتصد، مدعوّ للسقوط في مهاوي الذلّة، ومعرض للانزلاق الى الاستجداء والهوان معنىً.

ان المال الذي يستعمل في الاسراف في زماننا هذا لهو مال غالٍ وباهظ جداً، حيث تدفع احياناً الكرامة والشرف ثمناً ورشوة له، بل قد تُسلب المقدسات الدينية،

(١) «ما عال من اقتصد» رواه احمد عن ابن مسعود (كشف الخفاء، ٢/١٨٩) وانظر ١/١٥٨ ايضاً.

(٢) المقصود سنة ١٩٢٦م. - المترجم.

ثم يُعطى نقوداً منحوسة مشؤومة، اي يقبض بضعة قروش من نقود مادية، على حساب مئات الليرات من النقود المعنوية.

بينما لو اقتصر الانسان على الحاجات الضرورية واختصرها وحصر همّه فيها، فسيجد رزقاً يكفل عيشه من حيث لا يحتسب وذلك بمضمون الآية الكريمة:

﴿ **ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ (الذاريات: ٥٨) وأن صراحة الآية الكريمة:

﴿ **وما من دابة في الارض الاّ على الله رزقها** ﴾ (هود:٦) تتعهد بذلك تعهداً قاطعاً.

نعم، ان الرزق قسمان:

القسم الاول: وهو الرزق الحقيقي الذي تتوقف عليه حياة المرء، وهو تحت التعهد الرباني بحكم هذه الآية الكريمة، يستطيع المرء الحصول على ذلك الرزق الضروري مهما كانت الاحوال، ان لم يتدخل سوء اختياره، دون ان يضطر الى فداء دينه ولا التضحية بشرفه وعزته.

القسم الثاني: هو الرزق المجازي، فالذي يسئ استعماله لا يستطيع ان يتخلّى عن الحاجات غير الضرورية، التي غدت ضرورية عنده نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد. وثمن الحصول على هذا الرزق باهظ جداً ولاسيما في هذا الزمان، حيث لا يدخل ضمن التعهد الرباني، اذ قد يتقاضى ذلك المال لقاء تضحيته بعزته سلفاً راضياً بالذل، بل قد يصل به حد السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي، والتنازل الى تقبيل اقدام أناس منحطين وضيعين، لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق بالتضحية بمقدساته الدينية التي هي نور حياته الخالدة. ثم ان الألم الذي ينتاب ذوي الوجدان من حيث العاطفة الانسانية – بما يرونه من آلام يقاسيها المحتاجون البائسون في هذا الزمان الذي خيّم عليه الفقر والحاجة – يشوّب لذتَهم التي يحصلونها بأموال غير مشروعة، وتزداد مرارتها ان كانت لهم ضمائر. انه ينبغي في هذا الزمان العجيب الاكتفاء بحدّ الضرورة في الاموال المريبة، لانه حسب قاعدة «الضرورة تقدر بقدرها» يمكن ان يؤخذ باضطرارٍ من المال الحرام حدَّ الضرورة وليس اكثر من ذلك. وليس للمضطر ان يأكل من الميتة الى حدّ الشبع، بل له ان يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت. وكذا لا يؤكل الطعام بشراهة امام مائة من الجائعين.

نورد هنا حادثة واقعية للدلالة على كون الاقتصاد سبب العزة والكمال:

اقام «حاتم الطائي» المشهور بكرمه وسخائه ضيافة عظيمة ذات يوم واغدق هدايا ثمينة على ضيوفه. ثم خرج للتجوال في الصحراء، فرأى شيخاً فقيراً يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً من الحطب والكلأ والشوك والدم يسيل من بعض جسمه.. فخاطبه قائلاً:

— ايها الشيخ، ان حاتماً الطائي يقيم اليوم ضيافة كريمة ويوزع هدايا ثمينة، بادرْ اليه لعلك تنال منه اموالاً اضعاف أضعاف ما تناله من هذا الحمل!!.

قال له ذلك الشيخ المقتصد: سأحمل حملي هذا بعزة نفسي وعرق جبيني، ولا أرضى ان أقع تحت طائل منّة حاتم الطائي.

ولما سُئل حاتم الطائي يوماً:

— مَن من الناس وجدتَهم اعزَّ منك واكرم؟.

قال: ذلك الشيخ المقتصد الذي لقيته في المفازة ذات يوم، لقد رأيته حقاً اعزّ مني واكرم.

النكتة الخامسة

ان من كمال كرم الله سبحانه وتعالى، أنه يُذيقُ لذّة نعمه لأفقر الناس، كما يذيقها أغناهم، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان.

نعم ان اللذة التي ينالها فقير من كسرة خبز اسود يابس بسبب الجوع والاقتصاد تفوق ما يناله السلطان او الثري من اكله الحلوى الفاخرة بالملل وعدم الشهية النابعين من الاسراف.

ومن العجب حقاً ان يجرؤ بعض المسرفين والمبذّرين على اتهام المقتصدين بالخسّة.. حاشَ لله، بل الاقتصاد هو العزة والكرم بعينه، بينما الخسة والذلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون والمبذرون من سخاء ظاهري.

وهناك حادثة جرت في غرفتي في «اسبارطة» في السنة التي تم فيها تأليف هذه الرسالة، تؤيد هذه الحقيقة وهي:

اصرّ احد طلابي اصراراً شديداً على ان أقبل هديته التي تزن اوقيتين ونصف الاوقية (١) من العسل،خرقاً لدستور حياتي (٢)، ومهما حاولت في بيان ضرورة التمسك بقاعدتي لم يقنع، فاضطررت الى قبولها مرغماً على نية ان يشترك ثلاثةُ اخوةٍ معي في الغرفة فيها ويأكلوا منه باقتصاد طوال اربعين يوماً من شهري شعبان ورمضان المبارك، ليكسب صاحبه المُهدي ثواباً، ولا يبقوا دون حلاوة. لذا أوصيتهم بقبول الهدية لهم علماً انّي كانت عندي أوقية من العسل..

وبرغم ان اصدقائي الثلاثة كانوا على استقامة حقاً وممن يقدّرون الاقتصاد حق قدره، الاّ انهم – على كل حال – نَسوه نتيجة قيامهم باكرام بعضهم بعضاً ومراعاتهم شعور الآخرين والايثار فيما بينهم، وامثالها من الخصال الحميدة، فانفدوا ماعندهم من العسل في ثلاث ليالٍ فقط، فقلت مبتسماً:

– لقد كانت نيتي ان اجعلكم تتذوقون طعم العسل ثلاثين يوماً او اكثر، ولكنكم انفدتموه في ثلاثة ايام فقط.. فهنيئاً لكم!. في حين انني بت اصرف ما كنتُ املكه من العسل بالاقتصاد، فتناولته طوال شهري شعبان ورمضان، فضلاً عن انه اصبح ولله الحمد سبباً لثواب عظيم، حيث اعطيتُ كل واحد من اولئك الاخوة ملعقة واحدة منه (٣) وقت الافطار.

ولربما حَسِب الذين شاهدوا حالي تلك انها خسّة، واعتبروا اوضاع اولئك الاخوة في الليالي الثلاث حالة عزيزة من الكرم! ولكن شاهَدنا تحت تلك الخسة الظاهرية عزةً عاليةً وبركة واسعة وثواباً عظيماً من زاوية الحقيقة. وتحت ذلك الكرم والاسراف – ان لم يكن قد تُرِك – استجداءً وترقباً لما في ايدي الآخرين بطمع وامثالها من الحالات التي هي أدنى بكثير من الخسة.

---

(١) الاوقية تساوي ٢٨٠و١ كيلو. ـ المترجم.

(٢) وهو ان الاستاذ النورسي ما كان ليقبل الهدايا بلا مقابل. ـ المترجم.

(٣) اي ملعقة شاي كبيرة (ملعقة كوب). ـ المؤلف.

النكتة السادسة

هناك بون شاسع وفرق هائل بين الاقتصاد والخسة، اذ كما أن التواضع الذي هو من الاخلاق المحمودة يخالف معنىً التذللَ الذي هو من الاخلاق المذمومة مع أنه يشابهه صورة. وكما ان الوقار الذي هو من الخصال الحميدة يخالف معنىً التكبّر الذي هو من الاخلاق السيئة مع أنه يشابهه صورة.

فكذا الحال في الاقتصاد الذي هو من الاخلاق النبوية السامية بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الحكمة الإلهية المهيمن على الكون، لا علاقة له أبداً بالخسة التي هي مزيج من السفالة والبخل والجشع والحرص. بل ليست هناك من رابطة بينهما قطعاً، الاّ ذلك التشابه الظاهري. واليكم هذا الحدث المؤيد لهذه الحقيقة:

دخل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو اكبر ابناء الفاروق الاعظم خليفة رسول الله ﷺ وأحد العبادلة السبعة المشهورين ومن البارزين بين علماء الصحابة الأجلاء، دخل هذا الصحابي الجليل يوماً في مناقشة حادة لدى تعامله في السوق على شئ لايساوي قرشاً واحداً، حفاظاً على الاقتصاد وصوناً للأمانة والاستقامة اللتين تدور عليهما التجارة. في هذه الاثناء رآه صحابي آخر، فظنّ فيه شيئاً من خسّة فاستعظمها منه، اذ كيف يصدر هذا الامر من ابن أمير المؤمنين وخليفة الارض. فتبعه الى بيته ليفهم شيئاً من احواله، فوجد أنه قضى بعض الوقت مع فقير عند الباب وتبادلا حديثاً في لطف ومودة، ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب اطراف الحديث مع فقير آخر هناك. أثار هذا الامر لهفة ذلك الصحابي فأسرع الى الفقيرين للاستفسار منهما:

ـ هلاّ تفهماني ماذا فعل ابن عمر حينما وقف معكما؟.

ـ لقد اعطى كلاً منا قطعة ذهب.

فراعه الامر وقال شدهاً: يا سبحان الله.. ما أعجب هذا الامر، انه يخوض في السوق في نقاش شديد لأجل قرش واحد، ثم ها هو ذا يغدق في بيته بمئات أضعافه على محتاجَين اثنين عن رضىً دون ان يشعر به أحد، فسار نحو ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله:

- ايها الإمام: ألا تحل لي معضلتي هذه؟ لقد فعلتَ في السوق كذا وكذا وفي البيت كذا وكذا؟! فردّ عليه قائلاً:

- ان ما حدث في السوق هو نتيجة الاقتصاد والحصافة، فعلتُه صوناً للامانة وحفظاً للصدق اللذين هما اساس المبايعة وروحها وهوليس بخسّةٍ ولابخل، وان ما بدر مني في البيت نابع من رأفة القلب ورقّته ومن سمو الروح واكتمالها.. فلا ذاك خسّة ولا هذا اسراف.

واشارةً الى هذا السرّ قال الامام الاعظم «ابو حنيفة النعمان» رضي الله عنه:«لا اسراف في الخير كما لا خير في الاسراف» أي كما لا اسراف في الخير والاحسان لمن يستحقه كذلك لا خير في الاسراف قط.

النكتة السابعة

ان الاسراف ينتج الحرص، والحرص يولّد ثلاث نتائج:

اولاها: عدم القناعة.

وعدم القناعة هذا يُثنى الشوقَ عن السعي وعن العمل، بما يبثّ في نفس الحريص من الشكوى بدلاً من الشكر، قاذفاً به الى احضان الكسل، فيترك المال الزهيد النابع من الكسب الحلال [1] ويبادر بالبحث عما لا مشقة ولا تكليف فيه من مال غير مشروع، فيهدر في هذه السبيل عزتَه بل كرامته.

النتيجة الثانية للحرص: الخيبة والخسران.

اذ يفوت مقصود الحريص ويتعرض للاستثقال ويُحرم من التيسير والمعاونة حتى يكون مصداق القول المشهور: «الحريصُ خائب خاسر».

ان تأثير الحرص والقناعة يجري في عالم الاحياء على وفق دستور شامل وسنّة مطردة فمثلاً:

---

(١) اذ بسبب الابتعاد عن الاقتصاد، يكثر المستهلكون، ويقل المستحصلون، ويبدأ الجميع يشدون نظرهم الى باب الحكومة، وحينها تنتكس وتتناقص الصناعة والتجارة والزراعة التي هي محور الحياة الاجتماعية ومدارها، وينهار المجتمع ويتدنى بدوره ويغدو فقيراً معدماً. ـ المؤلف.

ان وصول ارزاق النباتات المضطرة الى الرزق اليها هو لقناعتها الفطرية، وسعي الحيوانات بنفسها بالحرص وراء الحصول على رزقها في عناء ونقص، يبديان مدى الضرر الجسيم الكامن في الحرص، ومدى النفع العظيم الكامن في القناعة.

وان سيلان الحليب – ذلك الغذاء اللطيف – الى أفواه الصغار الضعفاء عامة ومن حيث لا يحتسبون بما يبدونه من قناعة ينطق بها لسان حالهم، وانقضاض الوحوش بحرص وجشع على ارزاقها الناقصة الملوّثة، يثبت ما ندّعيه اثباتاً ساطعاً.

وان اوضاع الاسماك البدينة البليدة التي تنم عن القناعة الباعثة لوصول ارزاقها اليها كاملة وعجز الحيوانات الذكية كالثعالب والقردة عن تحصيل غذائها كاملاً مع حرصها سعياً وراءها وبقاءها هزيلة نحيفة، ليبيّن كذلك مدى ما يسببه الحرص من المشقة والعناء ومدى ما تسببه القناعة من الراحة والهناء.

كما ان حصول اليهود على ارزاقهم كفافاً بطرق غير مشروعة ممزوجاً بالذل والمسكنة بسبب حرصهم وتعاملهم بالربا واتباعهم اساليب المكر والخداع، وحصول البدويين المتحلين بالقناعة على رزقهم الكافي وعيشهم العيش الكريم العزيز يؤيد دعوانا ايضاً تأييداً كاملاً.

كما أن تردّي كثير من العلماء [١] والادباء [٢] بما يمنحهم ذكاؤهم ودهاؤهم من الحرص في فقر مدقع وعيش كفاف، وغناء اكثر الاغبياء العاجزين واثرائهم لما لهم من حالة فطرية قنوعة ليثبت اثباتاً قاطعاً: ان الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار لا بالاقتدار والاختيار. بل هو يتناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار. ذلك ان ارزاق الاطفال تتضائل وتبتعد ويصعب الوصول اليها كلما ازدادوا اختياراً وارادةً واقتداراً.

---

(١) سأل انوشيروان حاكم ايران العادل الحكيم بزرجمهر: لماذا يشاهد العلماء بابواب الامراء ولاُيشاهد الامراء بابواب العلماء والعلم يفوق الإمارة؟

فأجاب: ذلك من علم العلماء، وجهل الامراء.

اي: ان الامراء لايعلمون قدر العلم، فلا يأتون ابواب العلماء لطلبه بينما العلماء يعلمون قدره، فيطلبون قيمته بابواب الامراء!

فهذا الجواب اللطيف تأويل ظريف لحرص العلماء النابع من ذكائهم المؤدي بهم الى الذل والفقر.
ـ خسرو.

(٢) هناك حادثة تؤيد هذا الحكم؛ أن الادباء في فرنسا يُمنحون وثيقة التسول لإجادتهم له.
ـ سليمان رشدي.

نعم، ان القناعة كنز للعيش الهنئ الرغيد ومبعث الراحة في الحياة، بينما الحرص معدن الخسران والسفالة كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: (القناعة كنز لايفنى) (١).

النتيجة الثالثة: ان الحرص يتلف الاخلاص ويفسد العمل الاخروي؛ لانه لو وُجد حرص في مؤمن تقي لرغب في توجه الناس واقبالهم اليه، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يبلغ الاخلاص التام قطعاً ولا يمكنه الحصول عليه. فهذه النتيجة ذات اهمية عظمى جديرة بالدقة والملاحظة.

محصل الكلام: ان الاسراف ينتج عدم القناعة اي الطمع، اما الطمع فيُخبت وهج الشوق والتطلع الى العمل ويقذف بالانسان الى التقاعس والكسل، ويفتح امامه ابواب الشكوى والحسرة في حياته حتى ليجعله يئن دوماً تحت مضض الشكوى والسأم (٢). كما انه يفسد اخلاصه ويفتح دونه باباً للرياء والتصنع فيكسر عزته ويريه طريق الاستجداء والاستخذاء.

اما الاقتصاد فانه يثمر القناعة، والقناعة تنتج العزة، استناداً الى الحديث الشريف: (عزّ مَن قنع وذلّ مَن طمع). كما انه يشحذ الشوق بالسعي والعمل ويحث عليهما ويسوق سوقاً الى الكدّ وبذل الجهد فيهما؛ لانه اذا ما سعى المرء في يوم ما وتقاضى اجره مساءً فسيسعى في اليوم التالي له بسر القناعة التي توافرت لديه. اما المسرف فانه لايسعى في يومه الثاني لعدم قناعته وحتى اذا سعى فانه يسعى دون شوق.

وهكذا فان القناعة المستفيضة من الاقتصاد تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوى، فيظل الانسان في شكر وحمدٍ مدى حياته. وبالقناعة لا يتلفت الى توجه الناس اليه لإستغنائه عنهم، فينفتح امامه باب الاخلاص وينغلق باب الرياء.

ولقد شاهدت الاضرار الجسيمة والخسائر الفادحة التي تسفر عن الاسراف وعدم الاقتصاد شاهدتها متجسدة في نطاق واسع ممتد وهي كما يأتي:

(١) حديث (القناعة مال لاينفد وكنز لايفنى) رواه الطبراني في الاوسط والعسكري عن جابر، والمشهور (القناعة كنز لايفنى) وفي القناعة احاديث كثيرة. انظر كشف الخفاء ١٠٢/١ وتمييز الطيب ص ١١٨.

(٢) نعم، اذا قابلت مسرفاً فستسمع منه حتماً الشكاوي العريضة، ومهما كان غنياً فلسانه يشكو لا محالة، بينما اذا قابلت فقيراً قانعاً فلا تسمع منه الاّ الحمد والشكر لله. ـ المؤلف.

جئت الى مدينة مباركة - قبل تسع سنوات - كان الموسم شتاءً فلم اتمكن من رؤية منابع الثروة وجوانب الانتاج في تلك المدينة، قال لي مفتيها رحمه الله: ان أهالينا فقراء مساكين. أعاد قوله هذا مراراً. أثّر فيّ هذا القول تأثيراً بالغاً مما أجاش عطفي، فبت استرحم وأتألم لأهالي تلك المدينة فيما يقرب من ست سنوات. وبعد ثماني سنوات عدت اليها وهي في اجواء الصيف، وأجلت نظري في بساتينها فتذكرت قول المفتي رحمه الله فقلت متعجباً:

- سبحان الله! ان محاصيل هذه البساتين وغلاتها تفوق حاجة المدينة بأسرها كثيراً، وكان حرياً بأهاليها ان يكونوا أثرياء جداً! بقيت في حيرة من هذا الامر.. ولكن ادركت بحقيقة لم تخدعني عنها المظاهر، فهي حقيقة استرشد بها في ادراك الحقائق، وهي: ان البركة قد رفعت من هذه المدينة بسبب الاسراف وعدم الاقتصاد. مما حدا بالمفتي رحمه الله الى القول: ان اهالينا فقراء ومساكين، برغم هذا القدر الواسع من منابع الثروة وكنوز الموارد.

نعم، انه ثابت بالتجربة وبالرجوع الى وقائع لا تحد بأن دفعَ الزكاة، والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة. بينما الاسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة.

ولقد فسّر «ابن سينا» وهو افلاطون فلاسفة المسلمين وشيخ الاطباء واستاذ الفلاسفة فسّر هذه الآية الكريمة: ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا** ﴾. من زاوية نظر الطب فقط بالابيات الآتية:

جمعتُ الطبَّ في بيتين جَمعـــاً ... وحُسن القول في قِصَر الكلام

فقلّل إن اكلتَ وبعد أكل ... تَجنّب، والشفاءُ في الإنهضام

وليس على النفوس أشدُّ حالاً ... من إدخال الطعام على الطعام. (١)

واليكم هذا التوافق الغريب الباعث على الحيرة والجالب للعبرة:

انه مع قيام خمسة وستة من المستنسخين المختلفين - ثلاثة منهم لا يتقنون الكتابة- باستنساخ «رسالة الاقتصاد» فقد توافق كل (واحد وخمسين) ألفاً من ألفات كل نسخة - خالية من الدعاء - وكل (ثلاثة وخمسين) ألفاً - مع دعاء - رغم

(١) اي ان أضر شئ للجسم هو عدم اعطاء مهلة بين وجبات الطعام تتراوح بين اربع او خمس ساعات، او املاء المعدة بادخال الطعام بالتعاقب لأجل التلذذ. - المؤلف.

اختلاف امكنة اولئك المستنسخين واختلاف النسخ التي كانوا ينقلون منها واختلاف خطهم في الكتابة ومع عدم التفكر في تلكم الألفات إطلاقاً!.

فان توافق عدد الألفات مع تاريخ تأليف «رسالة الاقتصاد» واستنساخها وهو بالتاريخ الرومي واحدة وخمسون (١٣٥١) وبالتاريخ الهجري ثلاث وخمسون (١٣٥٣) لايمكن ان يحال ذلك الى الصدفة دون ريب، بل هو اشارة الى صعود البركة الكامنة في (الاقتصاد) الى درجة الكرامة. وانه لحرّي حقاً ان يطلق على هذا العام «عام الاقتصاد».

نعم لقد اثبت الزمان فعلاً هذه الكرامة الاقتصادية وذلك عندما شهدت البشرية بعد عامين الحرب العالمية الثانية... تلك الحرب التي بثت الجوع والتخريب وضروب الاسراف المقيت في كل انحاء العالم مما أرغم البشرية على التشبث بالاقتصاد والالتفاف حوله عنوة.

﴿ سُبحانك لاعِلمَ لَنا إلاّ مَا عَلمتَنا اِنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

اللمعة العشرون

« تخص الإخلاص »

« احرز هذا البحث اهمية خاصة اهّلته ليكون «اللمعة العشرين» بعد ان كان النقطة الاولى من خمس نقاط من المسألة الثانية من المسائل السبع للمذكّرة السابعة عشرة من اللمعة السابعة عشرة ».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انّا أنزَلنا اليكَ الكتاب بالحقّ فاعبد اللهَ مُخلِصاً له الدِّين ۝ ألا لله الدِّينُ الخالصُ ﴾ (الزمر: ٢-٣)

وقال الرسول الاعظم ﷺ: (هَلَكَ النّاسُ إلاّ العَالِمُونَ وَهَلَكَ العَالِمونَ إلاّ العَامِلُونَ وَهَلَكَ العَامِلُونَ إلاّ المُخْلِصُونَ وَالمُخْلِصُونَ عَلى خَطَرٍ عَظيمٍ) او كما قال.

تدلنا هذه الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف معاً على مدى اهمية الاخلاص في الاسلام، ومدى عظمته اساساً تستند اليه امور الدين. فمن بين النكت التي لاحصر لها لمبحث « الاخلاص » نبين باختصار خمس نقاط فقط.

* تنبيه : ان ما يوجب الشكر على هذه البلدة الطيبة « اسبارطة » ان قد أتاها الله حظاً عظيماً ، فلا يبدو بين من فيها من المتقين والصالحين واهل الطرق الصوفية والعلماء اختلاف مشوب بالحسد ، حتى لو ظهر فهو اخف بكثير مما هو عليه في سائر المناطق . وعلى الرغم من ان المحبة الخالصة والاتفاق التام غير موجودين كما ينبغي فان الاختلاف المضر والحسد الممقوت مفقودان ايضاً بالنسبة للمناطق الاخرى. ـ المؤلف.

النقطة الاولى:

سؤال مهم ومثير للدهشة:

لماذا يختلف اصحاب الدين والعلماء وارباب الطرق الصوفية وهم اهل حق ووفاق ووئام بالتنافس والتزاحم في حين يتفق اهل الدنيا والغفلة بل اهل الضلالة والنفاق من دون مزاحمة ولا حسد فيما بينهم. مع ان الاتفاق هو من شأن اهل الوفاق والوئام، والخلاف ملازم لاهل النفاق والشقاق. فكيف استبدل الحق والباطل مكانهما، فأصبح الحق بجانب هؤلاء والباطل بجانب اولئك؟

الجواب: سنبين سبعة من الاسباب العديدة لهذه الحالة المؤلمة التي تقض مضجع الغيارى الشهمين.

السبب الاول:

ان اختلاف اهل الحق غير نابع من فقدان الحقيقة، كما ان اتفاق اهل الغفلة ليس نابعاً من ركونهم الى الحقيقة، بل ان وظائف اهل الدنيا والسياسة والمثقفين وامثالهم من طبقات المجتمع قد تعيّنت وتميزت. فلكل طائفة وجماعة وجمعية مهمة خاصة تنشغل بها، وما ينالونه من اجرة مادية – لقاء خدماتهم ولإدامة معيشتهم – هي كذلك متميزة ومتعينة، كما ان ما يكسبونه من اجرة معنوية كحب الجاه وذيوع الصيت والشهرة، هي الاخرى متعينة ومخصصة ومتميزة(١). فليس هناك اذن ما يولد منافسة او مزاحمة او حسداً فيما بينهم. وليس هناك ما يوجب المناقشة والجدال، لذا تراهم يتمكنون من الاتفاق مهما سلكوا من طرق الفساد.

---

(١) تحذير: ان اقبال الناس وتوجههم لايطلب، بل يوهب، ولو حصل الاقبال فلا يُسرّ به. واذا ما ارتاح المرء لتوجه الناس اليه فقد ضيع الاخلاص ووقع في الرياء.

اما التطلع الى نيل الشهرة والصيت التي تتضمن توجه الناس والرغبة في اقبالهم فهو ليس بأجرة ولا ثواب، بل عتاب وعقاب نابعان من فقدان الاخلاص.

نعم ، ان توجه الناس واقبالهم لايراد، لان ما فيه من لذة جزئية تضر بالاخلاص الذي هو روح الاعمال الصالحة، ثم انه لايستمر الا الى حد باب القبر. فضلا عن انه يكتسب ما وراء القبر صورة اليمة من عذاب القبر، فلا يُرغب في توجه الناس ونيل رضاهم اذن، بل يلزم الفرار والتهيب منه. فليصغ الى هذا عباد الشهرة والمتلهفون على كسب رضى الناس ـ المؤلف.

أما اهل الدين واصحاب العلم وارباب الطرق الصوفية فان وظيفة كل منهم متوجهة الى الجميع، وأن اجرتهم العاجلة غير متعينة وغير متخصصة، كما ان حظهم من المقام الاجتماعي وتوجه الناس اليهم والرضى عنهم لم يتخصص ايضاً.

فهناك مرشحون كثيرون لمقام واحد، وقد تمتد أيد كثيرة جداً الى اية اجرة - مادية كانت او معنوية - ومن هنا تنشأ المزاحمة والمنافسة والحسد والغيرة. فيتبدل الوفاق نفاقاً والاتفاق اختلافاً وتفرقاً.

فلا يشفى هذا المرض العضال الا مرهم الاخلاص الناجع، اي:

ان ينال المرء شرف امتثال الآية الكريمة: ﴿ **إنْ أَجرِيَ إلاَّ عَلَى اللهِ** ﴾ (يونس: ٧٢) بايثار الحق والهدى على اتباع النفس والهوى، وبترجيح الحق على أثرة النفس.. وان يحصل له امتثال بالآية الكريمة: ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ (النور: ٥٤):باستغنائه عن الاجر المادي والمعنوي - المقبلين من الناس -(١) مدركاً ان استحسان الناس كلامه وحسن تأثيره فيهم ونيل توجههم اليه هو مما يتولاه الله سبحانه وتعالى ومن احسانه وفضله وحده، وليس داخلاً ضمن وظيفته التي هي منحصرة في التبليغ فحسب. بل لا يلزمه ذلك ولا هو مكلف به اصلا.

فمن وفّقه الله الى ما ذُكر آنفاً يجد لذة الاخلاص، وإلاّ يفوته الخير الكثير.

---

(١) لابد من جعل شيمة «الايثار» التي تحلى بها الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم ونالوا بها ثناء القرآن الكريم نصب العين، واتخاذها دليلا ومرشداً، وهذا يعني:
تفضيل الاخرين على النفس عند قبول الهدايا والصدقات، وعدم قبول شئ مقابل ما يقوم به المرء من خدمات في سبيل الدين، بل لا يطلبه قلبا. واذا حصل شئ من هذا القبيل فليعده احساناً الهياً محضاً، من دون البقاء تحت منة الناس. اذ ما ينبغي ان يسأل شئ في الدنيا لقاء خدمات في سبيل الدين، لئلا يضيع الاخلاص. فالامة وان كان عليها ان تضمن معاش هؤلاء، كما انهم يستحقون الزكاة، الا ان هؤلاء العاملين لا يسألون الناس شيئاً وربما يوهب لهم، حتى لو وهب لهم شئ فلا يأخذونه لقيامهم في خدمة الدين فالافضل ايثار من هم اهل لها على النفس، والرضى بما قسم الله من رزق والقناعة به، كي يحظى المرء بالثناء القرآني العظيم ﴿ **ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ (الحشر: ٩)، وعندئذ يكون ظافراً بالاخلاص ومنقذا نفسه من شرور هذه التهلكة الخطرة. ـ المؤلف.

السبب الثاني:

ان اتفاق اهل الضلالة نابع من ذلتهم، بينما اختلاف اهل الهداية نابع من عزتهم، اذ لما كان اهلُ الدنيا والضلالة الغافلون لا يستندون الى الحق والحقيقة فهم ضعفاء واذلاء، يشعرون بحاجة ماسة الى اكتساب القوة ويتشبثون بشدة الى معاونة الآخرين والاتفاق معهم، ويحرصون على هذا الاتفاق ولو كان مسلكهم ضلالة، فكأنهم يعملون حقاً في تساندهم على الباطل، ويخلصون في ضلالهم، ويبدون ثباتاً واصراراً على إلحادهم، ويتفقون في نفاقهم، فلاجل هذا يوفّقون في عملهم، لان الاخلاص التام ولو كان في الشر لا يذهب سدى، ولا يكون دون نتيجة. فما من سائل يسأل باخلاص امراً الا قضاه الله له.(١)

اما اهل الهداية والدين واصحاب العلم والطريقة فلانهم يستندون الى الحق والحقيقة، ولان كلاً منهم اثناء سيره في طريق الحق لا يرجو الا رضى ربه الكريم ويطمئن اليه كل الاطمئنان، وينال عزة معنوية في مسلكه نفسه، اذ حالما يشعر بضعف ينيب الى ربه دون الناس،ويستمد منه وحده القوة، زد على ذلك يرى امامه اختلاف المشارب مع ما هو عليه، لذا تراه لا يستشعر بدواعي التعاون مع الآخرين بل لا يتمكن من رؤية جدوى الاتفاق مع مخالفيه ظاهراً ولا يجد في نفسه الحاجة اليه.

واذا ما كان ثمة غرور وانانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقاً ومخالفيه على باطل فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة، وعندها يفوته الاخلاص ويحبط عمله ويكون اثراً بعد عين.

والعلاج الوحيد لهذه الحالة والحيلولة دون رؤية نتيجتها الوخيمة هو في تسعة امور آتية:

١ - العمل الايجابي البنّاء، وهو عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون ان يرد الى تفكيره، او يتدخل في علمه عداء الآخرين او التهوين من شأنهم، أي لا ينشغل بهم اصلاً.

(١) نعم ان «من طلب وَجَدّ وَجَدَ» دستور من دساتير الحقيقة له من السعة والشمول ما يشمل مسلكنا ايضاً .. المؤلف.

٢ – بل عليه ان يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الاسلام – مهما كان نوعها – والتي ستكون منابع محبة ووسائل اخوة واتفاق فيما بينها فيتفق معها.

٣– واتخاذ دستور الانصاف دليلاً ومرشداً، وهو ان صاحب كل مسلك حق يستطيع القول: «ان مسلكي حق وهو افضل واجمل» من دون ان يتدخل في امر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له ان يقول: «الحق هو مسلكي فحسب» او «ان الحسن والجمال في مسلكي وحده» الذي يقضي على بطلان المسالك الاخرى وفسادها.

٤– العلم بان الاتفاق مع اهل الحق هو احد وسائل التوفيق الالهي وأحد منابع العزة الاسلامية.

٥ – الحفاظ على الحق والعدل بايجاد شخص معنوي، وذلك بالاتفاق مع اهل الحق للوقوف تجاه اهل الضلالة والباطل الذين اخذوا يغيرون بدهاء شخص معنوي قوي في صورة جماعة على اهل الحق – بما يتمتعون به من تساند واتفاق – ثم الادراك بان اية مقاومة فردية – مهما كانت قوية – مغلوبة على امرها تجاه ذلك الشخص المعنوي للضلالة.

٦ – ولاجل انقاذ الحق من صولة الباطل:

٧ – ترك غرور النفس وحظوظها.

٨ – وترك ما يُتصور خطأً انه من العزة والكرامة.

٩ – وترك دواعي الحسد والمنافسة والاحاسيس النفسانية التافهة.

بهذه النقاط التسع يُظفر بالاخلاص ويوفي الانسان وظيفته حق الوفاء ويؤديها على الوجه المطلوب.(١)

---

(١) لقد ثبت في الحديث الصحيح ان المتدينين الحقيقيين من النصارى سيتفقون في آخر الزمان مستندين الى اهل القرآن للوقوف معاً تجاه عدوهم المشترك الزندقة، لذا فاهل الايمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة الى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون ايضاً الى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، فيتركوا مؤقتا كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعاً لعدوهم المشترك الملحد المتعدي. – المؤلف.

السبب الثالث:

ان اختلاف اهل الحق ليس ناشئاً عن الوضاعة وفقدان الهمة، كما ان اتفاق اهل الضلالة ليس ناشئاً عن علو الهمة، بل ان اختلاف اهل الهداية نابع من سوء استعمال علو الهمة والافراط فيه، واتفاق اهل الضلالة مردّه الضعف والعجز الحاصلان من انعدام الهمة.

والذي يسوق اهل الهداية الى سوء استعمال علو الهمة وبالتالي الى الاختلاف والغيرة والحسد، انما هو المبالغة في الحرص على الثواب الاخروي – الذي هو في حد ذاته خصلة ممدوحة – وطلب الاستزادة منها دون قناعة وحصرها على النفس. وهذا يستدرج الحريص شيئاً فشيئاً حتى يصل به الامر ان يتخذ وضعاً منافساً ازاء اخيه الحقيقي الذي هو بأمس الحاجة الى محبته ومعاونته واخوته والاخذ بيده، كأن يقول – مثلاً – لأغنم انا بهذا الثواب، ولأرشد أنا هؤلاء الناس وليسمعوا مني وحدي الكلام، وامثالها من طلب المزيد من الثواب لنفسه. او يقول: لماذا يذهب تلاميذي الى فلان وعلان؟ ولماذا لا يبلغ تلاميذي عدد تلاميذه وزيادة؟ فتجد روح الانانية لديه – بهذا الحوار الداخلي – الفرصة سانحة لترفع رأسها وتبرز، فتسوقه تدريجياً الى التلوث بصفة مذمومة، تلك هي التطلع الى حب الجاه، فيفوته الاخلاص وينسد دونه بابه، بينما ينفتح باب الرياء له على مصراعيه.

ان علاج هذا الخطأ الجسيم والجرح البليغ والمرض الروحي العضال هو:

العلم بان رضى الله لا ينال الا بالاخلاص، فرضاه سبحانه ليس بكثرة التابعين ولا باطراد النجاح والتوفيق في الاعمال، ذلك لان تكثير التابعين والتوفيق في الاعمال هو مما يتولاه الله سبحانه بفضله وكرمه، فلا يُسأل ولا يطلب بل يؤتيه الله سبحانه من يشاء.

نعم، رُبّ كلمة واحدة تكون سبباً للنجاة من النار وتصبح موضع رضى الله سبحانه، ورُبّ ارشاد شخص واحد يكون موضع رضى الله سبحانه بقدر ارشاد الف من الناس. فلا ينبغي أن تُؤخذ الكمية كثيراً بنظر الاعتبار.

ثم ان الاخلاص في العمل ونشدان الحق فيه انما يُعرف بصدق الرغبة في افادة المسلمين عامةً اياً كان مصدر الاستفادة ومن اي شخص صدر. وإلا فحصر النظر بان

يؤخذ الدرس والارشاد مني فقط لأفوز بالثواب الاخروي هو حيلة النفس وخديعة الانانية.

فيامن يحرص على المزيد من الثواب ولا يقنع بما قام به من اعمال للآخرة! اعلم ان الله سبحانه قد بعث انبياء كراماً، وما آمن معهم إلاّ قليل. ومع ذلك نالوا ثواب النبوة العظيم كاملاً غير منقوص. فليس السبق والفضل اذن في كثرة التابعين المؤمنين، وانما في نيل شرف رضى الله سبحانه. فمن انت ايها الحريص حتى ترغب ان يسمعك الناس كلهم، وتتغافل عن واجبك وتحاول ان تتدخل في تدبير الله وتقديره؟ اعلم واجبك، ولا تحاول ان تتدخل في تدبير الله وتقديره. اعلم ان تصديق الناس كلامك وقبولهم دعوتك وتجمعهم حولك انما هو من فضل الله يؤتيه من يشاء، فلا تُشغل نفسك فيما يخصه سبحانه من تقدير وتدبير، بل اجمع همك في القيام بما انيط بك من واجب.

ثم ان الاصغاء الى الحق والحقيقة، ونوال المتكلم بهما الثواب ليس منحصراً على الجنس البشري وحده، بل لله عباد من ذوي الشعور ومن الروحانيين والملائكة قد ملأوا اركان الكون وعمروها. فان كنت تريد مزيداً من الثواب الاخروي فاستمسك بالاخلاص واتخذه اساساً لعملك واجعل مرضاة الله وحدها الهدف والغاية في عملك، كي تحيا افراد تلك الكلمات الطيبة المنطوقة من شفتيك منتشرة في جو السماء بالاخلاص وبالنية الخالصة لتصل الى اسماع مخلوقات من ذوي المشاعر الذين لا يحصرهم العد، فتنوّرهم، وتنال بها الثواب العظيم اضعافاً مضاعفة. ذلك لانك اذا قلت: «اَلْحَمْدُ لله» مثلا فستُكتب بأمر الله على اثر نطقك بهذه الكلمة ملايين الملايين من «اَلْحَمْدُ لله» صغيرة وكبيرة في الفضاء. فلقد خلق سبحانه ما لا يعد من الآذان والاسماع تصغي الى تلك الكلمات الكثيرة الطيبة، حيث لا عبث ولا اسراف في عمل البارئ الحكيم. فاذا ما بعث الاخلاص والنية الصادقة الحياة في تلك الكلمات المنتشرة في ذرات الهواء فستدخل اسماع اولئك الروحانيين لذيذة طيبة كلذة الفاكهة الطيبة، ولكن اذا لم يبعث رضى الله والاخلاص الحياة في تلك الكلمات، فلا تستساغ، بل تنبو عنها الاسماع، ويبقى ثوابه منحصراً فيما تفوّه به الفم.

فليصغ الى هذا قراء القرآن الكريم الذين يتضايقون من افتقار اصواتهم الى الجودة والاحسان فيشكون من قلة السامعين لهم!.

السبب الرابع:

ان اختلاف اهل الهداية وتحاسدهم ليس كائناً من عدم التفكر في مصيرهم ولا من قصر نظرهم، كما ان الاتفاق الجاد بين اهل الضلالة ليس كائناً من القلق على المصير ولا من سمو نظرهم وعمق رؤيتهم. بل ان عجز اهل الهداية عن الثبات على الاستقامة في السير، وتقصيرهم عن الاخلاص في العمل يحرمهم من التمتع بمزايا ذلك المستوى الرفيع، فيسقطون في هوة الاختلاف رغم كونهم يسترشدون بالعقل والقلب البصيرين للعاقبة ويستفيضون من الحق والحقيقة ولا يميلون مع شهوات النفس بمقتضى أحاسيسهم الكليلة عن رؤية العقبى.

اما اهل الضلالة فباغراء النفس والهوى وبمقتضى المشاعر الشهوية والاحاسيس النفسانية الكليلة عن رؤية العقبى والتي تفضل درهما من لذة عاجلة على ارطال من الآجلة، تراهم يتفقون فيما بينهم اتفاقاً جاداً ويجتمعون حول الحصول على منفعة عاجلة ولذة حاضرة.

نعم، ان عبيد النفس السفلة من ذوي القلوب الميتة والهائمين على الشهوات الدنيئة يتحدون ويتفقون فيما بينهم على منافع دنيوية عاجلة.. بينما ينبغي لأهل الهداية الاتفاق الجاد والاتحاد الكامل والتضحية المثمرة والاستقامة الرصينة فيما بينهم، حيث انهم يتوجهون بنور العقل وضياء القلب الى جني كمالات وثمرات اخروية خالدة آجلة، ولكن لعدم تجرّدهم من الغرور والكبر والافراط والتفريط يضيّعون منبعاً عظيماً ثراً يمُدهم بالقوة، ألا هو الاتفاق. فيضيع بدوره الاخلاص ويتحطم، وتتضعضع الاعمال الاخروية وتذهب سدى، ويصعب الوصول الى نيل رضى الله سبحانه.

وعلاج هذا المرض الوبيل ودواؤه هو:

الافتخار بصحبة السالكين في منهج الحق، وربط عرى المحبة معهم تطبيقاً للحديث الشريف: «الحب في الله»(١) ثم السير من خلفهم وترك شرف الامامة لهم وترك الاعجاب بالنفس والغرور، بناء على احتمال كون سالك الحق اياً كان هو خيراً

(١) «والحب في الله والبغض في الله من الايمان». رواه البخاري. كتاب الايمان.

منه وافضل، وذلك ليسهل نيل الاخلاص. ثم العلم بأن درهماً من عمل خالص لوجه الله اولى وارجح من ارطال من اعمال مشوبة لا اخلاص فيها. ثم ايثار البقاء في مستوى التابع دون التطلع الى تسلم المسؤولية التي قلما تسلم من الاخطار.

بهذه الامور يعالج هذا المرض الوبيل ويعافى منه، ويظفر بالاخلاص، ويكون المؤمن ممن ادى اعماله الاخروية حق الأداء.

السبب الخامس:

ان اختلاف اهل الهداية وعدم اتفاقهم ليس نابعاً من ضعفهم، كما أن الاتفاق الصارم بين اهل الضلالة ليس نابعاً من قوتهم. بل ان عدم اتفاق اهل الهداية ناجم عن عدم شعورهم بالحاجة الى القوة، لما يمدهم به ايمانهم الكامل من مرتكز قوي. وان اتفاق اهل الغفلة والضلالة ناجم عن الضعف والعجز، حيث لايجدون في وجدانهم مرتكزاً يستندون الى قوته. فلفرط احتياج الضعفاء الى الاتفاق تجدهم يتفقون اتفاقاً قوياً، ولضعف شعور الاقوياء بالحاجة الى الاتفاق يكون اتفاقهم ضعيفاً. مثلهم في هذا كمثل الاسُود والثعالب التي لا تشعر بالحاجة الى الاتفاق فتراها تعيش فرادى، بينما الوعل والماعز الوحشي تعيش قطعاناً خوفاً من الذئاب. أي ان جمعية الضعفاء والشخص المعنوي الممثل لهم قوي كما ان جمعية الاقوياء والشخص المعنوي الممثل لهم ضعيف(١). وهناك اشارة لطيفة الى هذا السر في نكتة قرآنية ظريفة وهي: انه اسند الفعل «قَالَ» بصيغة المذكر الى جماعة الإناث مع كونها مؤنثة مضاعفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ في الْمَدِينَةِ ﴾ (يوسف:٣٠)، بينما جاء الفعل «قالت» بصيغة المؤنث في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ ﴾ (الحجرات:١٤)، وهم جماعة من الذكور، مما تشير اشارة لطيفة الى ان جماعة النساء الضعيفات اللطيفات تتخاشن وتتقوى وتكسب نوعاً من الرجولة، فاقتضت الحال صيغة المذكر، فجاء فعل «قال» مناسباً وفي غاية الجمال. أما الرجال الاقوياء فلانهم يعتمدون على

---

(١) ان ما يؤيد دعوانا هذه هو: ان اقوى المنظمات الاوربية واكثرها تأثيراً في المجتمع واشدها ـ من ناحية ـ هي منظمات النساء ــ وهن الجنس اللطيف ــ في امريكا التي تطالب بحقوق المرأة وحريتها.. وكذلك منظمات الارمن الذين هم اقلية وضعفاء بين الامم، فتراهم يبدون تضحية وبسالة فائقة. ــ المؤلف.

قوتهم ولا سيما الاعراب البدويون فتكون جماعتهم ضعيفة كأنها تكسب نوعاً من خاصية الانوثة من توجس وحذر ولطف ولين فجاءت صيغة التأنيث للفعل ملائمة جداً في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ ﴾.

نعم ان الذين ينشدون الحق لايرون وجه الحاجة الى معاونة الآخرين لما يحملون في قلوبهم من ايمان قوي يمدهم بسند عظيم ويبعث فيهم التوكل والتسليم، حتى لو احتاجوا الى الآخرين فلا يتشبثون بهم بقوة. اما الذين جعلوا الدنيا همّهم، فلغفلتهم عن قوة استنادهم ومرتكزهم الحقيقي يجدون في انفسهم الضعف والعجز في انجاز امور الدنيا، فيشعرون بحاجة ملحة الى من يمد لهم يد التعاون فيتفقون معهم اتفاقاً جاداً لا يخلو من تضحية وفداء.

وهكذا فلأن طلاب الحق لا يقدرون قوة الحق الكامنة في الاتفاق ولا يبالون بها ينساقون الى نتيجة باطلة وخيمة تلك هي الاختلاف، بينما اهل الباطل والضلالة فلأنهم يشعرون – بسبب عجزهم وضعفهم – بما في الاتفاق من قوة عظيمة فقد نالوا امضى وسيلة توصلهم الى اهدافهم، تلك هي الاتفاق.

وطريق النجاة من هذا الواقع الباطل الاليم، والتخلص من هذا المرض الفتاك، مرض الاختلاف الذي المّ بأهل الحق هو اتخاذ النهي الالهي في الآية الكريمة:

﴿ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم ﴾ (الانفال:٤٦) واتخاذ الامر الرباني في الآية الكريمة: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوى ﴾ (المائدة:٢) دستورين للعمل في الحياة الاجتماعية.. ثم العلم بمدى مايسببه الاختلاف من ضرر بليغ في الاسلام والمسلمين وبمدى ما ييسر السبيل امام اهل الضلالة ليبسطوا ايديهم على اهل الحق.. ثم الالتحاق بقافلة الايمان التي تنشد الحق والانخراط في صفوفها بتضحية وفداء وبشعور نابع من عجز كامل وضعف تام، وذلك مع نكران الذات والنجاة من الرياء ابتغاء الوصول الى نيل شرف الاخلاص.

السبب السادس:

ان اختلاف اهل الحق ليس ناشئاً من فقدان الشهامة والرجولة ولا من انحطاط الهمة وانعدام الحمية، كما ان الاتفاق الجاد بين الغافلين الضالين الذين يبغون الدنيا في امورهم ليس ناشئاً من الشهامة والرجولة ولا من الحمية وعلو الهمة. بل ان اهل

الحق وجّهوا نظرهم الى ثواب الآخرة – على الاكثر – فتوزع ما لديهم من حمية وهمة وشهامة الى تلك المسائل المهمة والكثيرة، ونظراً لكونهم لايصرفون اكثر وقتهم – الذي هو رأس مالهم الحقيقي – الى مسألة معينة واحدة، فلا ينعقد اتفاقهم عقداً محكماً مع السالكين في نهج الحق، حيث ان المسائل كثيرة والميدان واسع جداً.

اما الدنيويون الغافلون، فلكونهم يحصرون نظرهم حصراً في الحياة الدنيا – فهي اكبر همهم ومبلغ علمهم – تراهم يرتبطون معها بأوثق رباط وبكل ما لديهم من مشاعر وروح وقلب. فأيما شخص يمد لهم يد المساعدة يستمسكون بها بقوة، فهم يحصرون وقتهم الثمين جداً في قضايا دنيوية لا تساوي شيئاً في الحقيقة لدى اهل الحق. مثلهم في هذا كمثل ذلك الصائغ اليهودي المجنون الذي اشترى قطعاً زجاجية تافهة بأثمان الاحجار الكريمة الباهظة. فابتياع الشيء بأثمان باهظة، وصرف المشاعر كلها نحوه يؤدي حتماً الى النجاح والتوفيق ولو كان في طريق باطل، لان فيه اخلاصاً جاداً. ومن هنا يتغلب اهل الباطل على اهل الحق، فيفقد اهل الحق الاخلاص ويسقطون في مهاوي الذل والتصنع والرياء، ويضطرون الى التملق والتزلف الى ارباب الدنيا المحرومين من كل معاني الشهامة والهمة والغيرة.

فيا اهل الحق! ويا اهل الشريعة والحقيقة والطريقة! ويا من تنشدون الحق لاجل الحق! اسعوا في دفع هذا المرض الرهيب، مرض الاختلاف بتأدبكم بالادب الفرقاني العظيم، الا وهو: ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً** ﴾ (الفرقان: ٧٢)، فاعفوا عن هفوات اخوانكم واصفحوا عن تقصيراتهم، وغضوا ابصاركم عن عيوب بعضكم البعض الآخر، ودعوا المناقشات الداخلية جانباً. فالاعداء الخارجيون يغيرون عليكم من كل صوب، واجعلوا انقاذ اهل الحق من السقوط والذلة من اهم واجباتكم الاخروية واولاها بالاهتمام، وامتثلوا بما تأمركم به مئات الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة من التآخي والتحابب والتعاون، واستمسكوا بكل مشاعركم بعرى الاتفاق والوفاق مع اخوانكم في الدين ونهج الحق المبين باشد مما يستمسك به الدنيويون الغافلون، واحذروا دائماً من الوقوع في شباك الاختلاف. ولا يقولن احدكم: «سأصرف وقتي الثمين في قراءة الاوراد والاذكار والتأمل، بدلاً من ان أصرفه في

مثل هذه الامور الجزئية» فينسحب من الميدان ويصبح وسيلة في توهين الاتفاق والاتحاد وسبباً في اضعاف الجماعة المسلمة، ذلك لان المسائل التي تظنونها جزئية وبسيطة ربما هي على جانب عظيم من الاهمية في هذا الجهاد المعنوي. فكما ان مرابطة جندي في ثغر من الثغور الاسلامية – ضمن شرائط خاصة مهمة – لساعة من الوقت قد تكون بمثابة سنة من العبادة، فان يومك الثمين هذا الذي تصرفه في مسألة جزئية من مسائل الجهاد المعنوي ولا سيما في هذا الوقت العصيب الذي غُلب اهل الحق فيه على أمرهم، اقول ان يومك هذا ربما يأخذ حكم ساعة من مرابطة ذلك الجندي، اي يكون ثوابه عظيماً، بل ربما يكون يومك هذا كألف يوم. اذ ما دام العمل لوجه الله وفي سبيله فلا يُنظر الى صغره وكبره ولا الى سموه وتفاهته، فالذرة في سبيل رضاه سبحانه مع الاخلاص تصبح نجمة متلألئة، فلا تؤخذ ماهية الوسيلة بنظر الاعتبار وانما العبرة في النتيجة والغاية، وحيث انها رضى الله سبحانه، وأن اساس العمل هو الاخلاص، فلن تكون تلك المسألة اذن مسألة صغيرة، بل هي كبيرة وعظيمة.

السبب السابع:

ان اختلاف اهل الحق والحقيقة ومنافستهم ليس ناشئاً من الغيرة فيما بينهم ولا من الحرص على حطام الدنيا، كما ان اتفاق الدنيويين الغافلين ليس من كرامتهم وشهامتهم. بل ان اهل الحقيقة لم يتمكنوا من الحفاظ على الفضائل والمكارم التي يحصلون عليها من تمسكهم بالحقيقة ولم يستطيعوا البقاء والثبات ضمن منافسة شريفة نزيهة في سبيل الحق بتسلل القاصرين منهم في هذا الميدان؛ لذا فقد اساءوا – بعض الاساءة – الى تلك الصفات المحمودة، وسقطوا في الاختلاف والخلاف نتيجة التحاسد فأضروا انفسهم وجماعة المسلمين ايما ضرر.

اما الضالون والغافلون فنظراً لفقدانهم المروءة والحمية لعجزهم ولذلتهم فقد مدوا ايديهم واتحدوا اتحاداً صادقاً مع اناس اياً كانوا، بل مع الدنيئين الوضيعين من الناس كيلا تفوتهم منافع يلهثون وراءها، ولا يُسخطوا اصدقاءهم ورؤساءهم الذين يأتمرون بأوامرهم الى حد العبادة لاجلها، لذا اتفقوا مع من يشاركهم في الامر اتفاقاً جاداً واجتمعوا مع من يجتمع حول تلك المنافع بأي شكل من اشكال الاجتماع، فبلغوا الى ما يصبون اليه من جراء هذا الجد والحزم في الامر.

فيا اهل الحق واصحاب الحقيقة ويا من ابتليتم ببلوى الاختلاف! لقد ضيعتم الاخلاص في هذا الظرف العصيب ولم تجعلوا رضى الله غاية مسعاكم فمهدتم السبل لاسقاط اهل الحق مغلوبين على امرهم، وجرعتموهم مرارة الذل والهوان.

اعلموا انه ما ينبغي ان يكون حسد ولا منافسة ولاغيرة في امور الدين والآخرة، فليس فيها في نظر الحقيقة امثال هذه الامور. ذلك لان منشأ الحسد والمنافسة انما هو من تطاول الايدي الكثيرة على شئ واحد وحصر الانظار الى مقام واحد وشهية المعدات الكثيرة الى طعام واحد، فتؤول المناقشة والمسابقة والمزاحمة الى الغبطة والحسد. ولما كانت الدنيا ضيقة ومؤقتة ولا تشبع رغبات الانسان ومطالييه الكثيرة، وحيث ان هناك الكثيربن يتهالكون على شيء واحد، فالنتيجة اذن السقوط في هاوية الحسد والمنافسة. اما في الآخرة الفسيحة فلكل مؤمن جنة عرضها السموات والارض تمتد الى مسافة خمسمائة سنة[١]، ولكل منهم سبعون الفاً من الحور والقصور، فلا موجب هناك اذن الى الحسد والمنافسة قط، فيدلنا هذا على انه لاحسد ولامشاحنة في اعمال صالحة تفضي الى الآخرة، اي لامجال للمنافسة والتحاسد فيها، فمَن تحاسد فهو لاشك مراء اي انه يتحرى مغانم دنيوية تحت ستار الدين ويبحث عن

---

(١) سؤال مهم وارد من جانب عظيم الاهمية: كيف تستوعب عقولنا الدنيوية القاصرة حقيقة ماروي ان المؤمن يمنح جنة عرضها خمسمائة سنة ؟

الجواب: كما ان لكل شخص في هذه الدنيا دنيا مؤقتة خاصة به، قوامها حياته يستمتع منها بما يشاء بحواسه الظاهرة والباطنة، حتى يمكنه ان يقول: الشمس مصباح لي والنجوم قناديل لي، فلا ينازعه في ملكيته هذه وجود سائر المخلوقات وذوي الارواح، بل يعمرون دنياه الخاصة ويجمّلونها.

كذلك الامر في الجنة - مع فارق عظيم - فلكل مؤمن - فضلا عن روضته الخاصة التي تضم الوف القصور والحور العين - له جنة خاصة بسعة خمسمائة سنة من الجنة العامة، يستمتع بها المؤمن استمتاعاً يليق بالجنة والخلود بما تنكشف له من حواسه وتنبسط من مشاعره حسب درجة كل مؤمن، فلا ينقص وجود الاخرين معه ومشاركتهم له شيئا من تنعمه وتلذذه وتملكه بل يعمرون جنته الخاصة وجنته الواسعة ويزينونها. نعم، فكما يتمتع الانسان في الدنيا بفمه واذنه وعينه واذواقه الاخرى ومشاعره وحواسه كلها في مسافة ساعة يقضيها في حديقة، او في مسافة يوم يمضيه في سياحة، او في مسيرة شهر كامل في مملكة، او في سنة من عمره يستجم بها في رحلة وسفرة.. كذلك الامر هناك في الجنة ولكن تتمتع حاسة الذوق والشم في تلك المملكة الخالدة في مسافة سنة كاملة ما كانت تتمتع به في هذه الحياة الفانية في ساعة من حديقة غناء، وتتمتع حاسة الابصار والسمع في تلك المملكة الابدية الزاهية من اقصاها الى اقصاها ضمن رحلة امدها خمسمائة سنة تمتعا يلائم خلودها ما تتمتع به من سياحة وتجوال ورحلات يمضيها الانسان في سنة في هذه الدنيا. فلكل مؤمن حسب درجته وحسب ما يناله من ثواب على اعماله التي قام بها في الدنيا وحسب نسبة ونوعية حسناته تنكشف مشاعره وتنبسط حواسه، فتستمتع تلك المشاعر والحواس هناك في الجنة بما يلائم خلودها. ـ المؤلف.

منافع باسم العمل الصالح. او انه جاهل صادق لا يعلم اين وجهة الاعمال الصالحة ولم يدرك بعد ان الاخلاص روح الاعمال الصالحة واساسها، فيتهم سعة الرحمة الالهية كأنها لا تسعه، ويبدأ بالحسد والمنافسة والمزاحمة منطوياً في قرارة نفسه على نوع من العداء مع اولياء الله الصالحين الصادقين.

وسأذكر هنا حادثة تؤيد هذه الحقيقة: كان احد اصدقائنا السابقين يحمل في قلبه ضغينة وعداء نحو شخص معين. وعندما أُثني على هذا الشخص امامه في مجلس وقيل في حقه: «انه رجل صالح، انه ولي من اولياء الله» رأينا ان هذا الكلام لم يثر فيه شيئاً فلم يبد ضيقاً من الثناء على عدوه. ولكن عندما قال احدهم: «انه قوي وشجاع» رأيناه قد انتفض عرق الحسد والغيرة لديه. فقلنا له: «يا هذا ان مرتبة الولاية والتقوى من اعظم المراتب في الآخرة فلا يقاس عليها شئ آخر، فأين الثرى من الثريا؟!. لقد شاهدنا ان ذكر هذه المرتبة لم يحرك فيك ساكنا بينما ذكر القوة العضلية التي تملكها حتى الثيران والشجاعة التي تملكها السباع قد اثارتا فيك نوازع الحسد». اجاب: «لقد استهدفنا كلانا هدفاً ومقاماً معيناً في هذه الدنيا، فالقوة والشجاعة وامثالهما هي من وسائل الوصول الى ما استهدفناه من مرتبة دنيوية، فلاجل هذا شعرت بدواعي المنافسة والحسد. اما منازل الآخرة ومراتبها فلا تحد بحدود، وربما يصبح هناك من كان عدواً لي احب صديق واعزه.

فيا اهل الحقيقة والطريقة! ان خدمة الحق ليس شيئاً هيناً، بل هو اشبه ما يكون بحمل كنز عظيم ثقيل والقيام بالمحافظة عليه، فالذين يحملون ذلك الكنز على اكتافهم يستبشرون بأيدي الاقوياء الممتدة اليهم بالعون والمساعدة ويفرحون بها اكثر. فالواجب يحتّم ان يُستقبل اولئك المقبلون بمحبة خالصة، وان يُنظر الى قوتهم وتأثيرهم ومعاونتهم اكثر من ذواتهم وان يُتلقوا بالافتخار اللائق بهم، فهم اخوة حقيقيون ومؤازرون مضحّون. ولئن كان الواجب يحتم هذا، فلِمَ اذن ينظر اليهم نظر الحسد ناهيك عن المنافسة والغيرة، حتى يفسد الاخلاص نتيجة هذه الحالة، وتكون اعمالكم ومهمتكم موضع تهم الضالين. فيضعونكم في مستوى اقل منكم واوطأ من مسلككم بكثير، بل يقرنونكم مع اولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين ويضمنون عيشهم تحت ستار علم الحقيقة ويجعلونكم من المتنافسين الحريصين على حطام الدنيا، وامثالها من الاتهامات الظالمة؟!

ان العلاج الوحيد لهذا المرض هو: اتهام المرء نفسه، والانحياز الى جهة رفيقه في نهج الحق الذي ازاءه وعدم الانحراف عن دستور الانصاف وابتغاء الحق، الذي ارتضاه علماء فن الآداب والمناظرة والذي يتضمن: «اذا اراد المرء ان يظهر الحق على لسانه دون غيره – في مناظرة معينة – وانسرّ لذلك واطمأن ان يكون خصمه على باطلٍ وخطأ فهو ظالم غير منصف» فضلاً عن انه يتضرر نتيجة ذلك لانه لم يتعلم شيئاً جديداً – من تلك المناظرة – بظهور الحق على لسانه، بل قد يسوقه ذلك الى الغرور فيتضرر، بينما اذا ظهر الحق على لسان خصمه فلا يضره شئ ولا يبعث فيه الغرور بل ينتفع بتعلمه شيئاً جديداً. اي ان طالب الحق المنصف يسخط نفسه لاجل الحق، واذا ما رأى الحق لدى خصمه رضى به وارتاح اليه.

فلو اتخذ اهل الدين والحقيقة والطريقة والعلم هذا الدستور دليلاً لهم في حياتهم وعملهم فانهم يظفرون بالاخلاص بأذن الله ويفلحون في اعمالهم الاخروية، وينجون برحمة منه سبحانه وفضله من هذه المصيبة الكبرى التي ألّمت بهم واحاطتهم من كل جانب.

﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَآ إلاّ مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾

اللمعة الحادية والعشرون

«تخص الإخلاص»

«كانت هذه اللمعة المسألة الرابعة للمسائل السبع للمذكرة السابعة عشرة من اللمعة السابعة عشرة الا انها اصبحت النقطة الثانية من اللمعة العشرين. لمناسبة موضوعها – الاخلاص – وبناء على نورانيتها صارت اللمعة الحادية والعشرين، فدخلت في كتاب (اللمعات)».

[تُقرأ هذه اللمعة كل خمسة عشر يوماً في الاقل]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الانفال: ٤٦)

﴿ وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣٨)

﴿ قَدْ اَفْلَحَ مَنْ زَكّاها۞ وَقَد خَابَ مَنْ دَسّاها ﴾ (الشمس:٩، ١٠)

﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتي ثَمَنَاً قَليلاً ﴾ (البقرة: ٤١)

يا اخوة الآخرة! ويا اصحابي في خدمة القرآن! اعلموا – وانتم تعلمون – ان الاخلاص في الاعمال ولا سيما الاخروية منها، هو اهم اساس، واعظم قوة، وارجى شفيع، واثبت مرتكز، واقصر طريق للحقيقة، وأبرّ دعاء معنوي، واكرم وسيلة للمقاصد، واسمى خصلة، واصفى عبودية.

فما ذام في الاخلاص انوار مشعة، وقوى رصينة كثيرة امثال هذه الخواص.. ومادام الاحسان الإلهي قد القى على كاهلنا مهمة مقدسة ثقيلة، وخدمة عامة جليلة، تلك هي وظيفة الايمان وخدمة القرآن.. ونحن في غاية القلة والضعف والفقر، ونواجه اعداء ألدّاء ومضايقات شديدة، وتحيط بنا البدع والضلالات التي تصول وتجول في هذا العصر العصيب.. فلا مناص لنا إلاّ بذل كل ما في وسعنا من جهد وطاقة كي نظفر بالاخلاص.. فنحن مضطرون اليه، بل مكلفون به تكليفاً، واحوج ما نكون الى ترسيخ سر الاخلاص في ذواتنا، اذ لو لم نفز به لضاع منا بعض ما كسبناه من الخدمة المقدسة – لحد الآن – ولَمَا دامت ولا استمرت خدمتنا، ثم نحاسب عليها حساباً عسيراً، حيث نكون ممن يشملهم النهي الالهي وتهديده الشديد في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآياتي ثَمَنَاً قَليلاً ﴾ بما اخللنا بالاخلاص فأفسدنا السعادة الابدية، لاجل مطامع دنيوية دنيئة، مقيتة، مضرة، مكدرة، لاطائل من ورائها ولا فائدة، ارضاء لمنافع شخصية جزئية تافهة، امثال الاعجاب بالنفس والرياء، ونكون ايضاً من المتجاوزين حقوق اخواننا في هذه الخدمة ومن المتعدين

على نهج الخدمة القرآنية، ومن الذين اساءوا الادب فلم يقدروا قدسية الحقائق الايمانية وسموها حق قدرها.

فيا اخوتي! ان الامور المهمة للخير والدروب العظيمة للصلاح، تعترضها موانع وعقبات مضرة كثيرة. فالشياطين يكدون انفسهم ويجهدونها مع خدام تلك الدعوة المقدسة، لذا ينبغي الاستناد الى الاخلاص والاطمئنان اليه، لدفع تلك الموانع وصد تلك الشياطين. فاجتنبوا – يا اخوتي – الاسباب التي تقدح بالاخلاص وتثلمه كما تجتنبون العقارب والحيات. فلا وثوق بالنفس الامارة ولا اعتماد عليها قط، كما جاء في القرآن الكريم على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿ **وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِي اِنَّ النَّفْسَ لَاَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ اِلاَّ مَا رَحِمَ رَبّى** ﴾ (يوسف:٥٣) فلا تخدعنكم الانانية والغرور ولا النفس الامارة بالسوء ابداً. ولاجل الوصول الى الظفر بالاخلاص وللحفاظ عليه، ولدفع الموانع وازالتها اجعلوا الدساتير الآتية رائدكم:

دستوركم الاول:

ابتغاء مرضاة الله في عملكم. فاذا رضى هو سبحانه فلا قيمة لإعراض العالم اجمع ولا اهمية له. واذا ما قبل هو سبحانه فلا تأثير لردّ الناس اجمعين. واذا اراد هو سبحانه واقتضته حكمته بعد ما رضى وقبل العمل ، جعل الناس يقبلونه ويرضون به، وان لم تطلبوه انتم، لذا ينبغي جعل رضى الله وحده دون سواه القصد الاساس في هذه الخدمة.. خدمة الايمان والقرآن.

دستوركم الثاني:

هو عدم انتقاد اخوانكم العاملين في هذه الخدمة القرآنية، وعدم اثارة نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء. لانه كما لا تحاسد في جسم الانسان بين اليدين، ولا انتقاد بين العينين، ولا يعترض اللسان على الاذن، ولا يرى القلب عيب الروح، بل يكمّل كلّ منه نقص الآخر ويستر تقصيره ويسعى لحاجته، ويعاونه في خدمته.. والا انطفأت حياة ذلك الجسد، ولغادرته الروح وتمزق الجسم.

وكما لاحسد بين تروس المعمل ودواليبه، ولايتقدم بعضها على بعض ولايتحكم، ولايدفع احدها الآخر الى التعطل بالنقد والتجريح وتتبع العورات والنقائص، ولا يثبط شوقه الى السعي، بل يعاون كل منها الآخر بكل ما لديه من طاقة موجهاً حركات التروس والدواليب الى غايتها المرجوة، فيسير الجميع الى ما وجدوا لاجله،

بالتساند التام والاتفاق الكامل. فلو تدخل شئ غريب او تحكم في الامر – ولو بمقدار ذرة – لاختل المعمل واصابه العطب ويقوم صاحبه بدوره بتشتيت اجزائه وتقويضه من الاساس.

فيا طلاب رسائل النور ويا خدام القرآن! نحن جميعاً اجزاء واعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها: الانسان الكامل.. ونحن جميعاً بمثابة تروس ودواليب معمل ينسج السعادة الابدية في حياة خالدة. فنحن خدام عاملون في سفينة ربانية تسير بالامة المحمدية الى شاطئ السلامة وهي دار السلام.

نحن اذن بحاجة ماسة بل مضطرون الى الاتحاد والتساند التام والى الفوز بسر «الاخلاص» الذي يهئ قوة معنوية بمقدار الف ومائة واحد عشر «١١١١» ناتجة من اربعة افراد. نعم.. ان لم تتحد ثلاث «الفات» فستبقى قيمتها ثلاثاً فقط، اما اذا اتحدت وتساندت بسر العددية، فانها تكسب قيمة مائة واحد عشر «١١١»، وكذا الحال في اربع «اربعات» عندما تكتب كل «٤» منفردة عن البقية فان مجموعها «١٦» اما اذا اتحدت هذه الارقام واتفقت بسر الاخوة ووحدة الهدف والمهمة الواحدة على سطر واحد فعندها تكسب قيمة اربعة آلاف واربعمائة واربع واربعين «٤٤٤٤» وقوتها. هناك شواهد ووقائع تاريخية كثيرة جداً اثبتت ان ستة عشر شخصاً من المتآخين المتحدين المضحين بسر الاخلاص التام تزيد قوتهم المعنوية وقيمتهم على اربعة آلاف شخص.

اما حكمة هذا السر فهي: ان كل فرد من عشرة اشخاص متفقين حقيقة يمكنه ان يرى بعيون سائر اخوانه ويسمع بأذانهم. اي ان كلاً منهم يكون له من القوة المعنوية والقيمة ما كأنه ينظر بعشرين عيناً ويفكر بعشرة عقول ويسمع بعشرين اذناً ويعمل بعشرين يداً (١).

---

(١) نعم! كما انّ تساندا حقيقيا، واتحادا تاما، نابعا من «الاخلاص» هو محور تدور عليه منافع لا تنتهي، كذلك فهو ترس عظيم، ومرتكز قوي للوقوف تجاه المخاوف العديدة، بل امام الموت، لان الموت لايسلب الا روحا واحدة، لأن الذي ارتبط باخوانه بسر الاخوة الخالصة في الامور المتعلقة بالاخرة وفي سبيل مرضاة الله، يحمل ارواحاً بعدد اخوانه، فيلقى الموت مبتسما وقائلا: «لتَسلّم ارواحي الأُخرى.. ولتبق معافاة، فانها تديم لي حياة معنوية بكسبها الثواب لي دائما. فانا لم امت اذن» ويُسلّم روحه وهو قرير العين. ولسان حاله يقول: «انا اعيش بتلك الارواح من حيث الثواب ولا اموت الا من حيث الذنوب والآثام» ـ المؤلف.

دستوركم الثالث:

اعلموا ان قوتكم جميعاً في الاخلاص والحق.

نعم! ان القوة في الحق والاخلاص، حتى ان اهل الباطل يحرزون القوة لما يبدون من ثبات واخلاص في باطلهم.

نعم! ان خدمتنا هذه في سبيل الايمان والقرآن هي دليل بذاتها على ان القوة في الحق والاخلاص. فشئ يسير من الاخلاص في سبيل هذه الخدمة يثبت دعوانا هذه ويكون دليلاً عليه. ذلك: لان ما قمنا به في ازيد من عشرين سنة في مدينتي [١] وفي استانبول من خدمة في سبيل الدين والعلوم الشرعية، قد قمنا معكم باضعافه مائة مرة هنا [٢] في غضون ثماني سنوات. علماً بأن الذين كانوا يعاونونني هناك هم اكثر مائة مرة بل الف مرة ممن يعاونونني هنا. ان خدماتنا هنا في ثماني سنوات مع انني وحيد غريب شبه امي [٣] وتحت رقابة موظفين لا انصاف لهم وتحت مضايقاتهم قد اكسبتنا بفضل الله قوة معنوية اظهرت التوفيق والفلاح بمائة ضعف مما كان عليه سابقاً، لذا حصلت لدي قناعة تامة من ان هذا التوفيق الالهي ليس الا من صميم اخلاصكم.

وانني اعترف بانكم انقذتموني باخلاصكم التام – الى حد ما – من الرياء، ذلك الداء الوبيل الذي يداعب النفس تحت ستار الشهرة والصيت.

نسأل الله ان يوفقكم جميعاً الى الاخلاص الكامل وتقحموني فيه معكم.

تعلمون ان الامام علياً رضى الله عنه والشيخ الگيلاني قدس الله سره، قد توجها اليكم ونظرا بعين اللطف والاهتمام والتسلية في كراماتهما الخارقة، ويباركان خدماتكم معنىً. فلا يساورنّكم الشك في ان ذلك التوجه والالتفات والتسلية ليس الا بما تتمتعون به من اخلاص. فان افسدتم هذا الاخلاص متعمدين، تستحقون اذن لطماتهم. تذكروا دائماً «لطمات الرأفة والرحمة» التي هي في «اللمعة العاشرة». ولو

(١) المقصود مدينة «وان» الواقعة جنوب شرقي تركيا. ـ المترجم.

(٢) المقصود قرية «بارلا». ـ المترجم.

(٣) المقصود رداءة الخط. ـ المترجم.

أردتم ان يظل هذان الفاضلان استاذين وظهيرين معنويين لكم فاظفروا بالاخلاص الاتم بامتثالكم الآية الكريمة: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ (الحشر:٩).

أي عليكم ان تفضلوا اخوانكم على انفسكم في المراتب والمناصب والتكريم والتوجه، حتى في المنافع المادية التي تهش لها النفس وترتاح اليها. بل في تلك المنافع التي هي خالصة زكية كتعليم حقائق الايمان الى الآخرين، فلا تتطلعوا ما استطعتم ان يتم ذلك بأيديكم، بل ارضوا واطمئنوا ان يتم ذلك بيد غيركم لئلا يتسرب الاعجاب الى انفسكم.

وربما يكون لدى احدكم التطلع للفوز بالثواب وحده، فيحاول ان يبين امراً مهماً في الايمان بنفسه، فرغم ان هذا لا اثم فيه ولاضرر فقد يعكر صفو الاخلاص فيما بينكم.

دستوركم الرابع:

هو الافتخار شاكرين بمزايا اخوانكم، وتصورها في انفسكم، وعد فضائلهم في ذواتكم.

فهناك اصطلاحات تدور بين المتصوفة أمثال: الفناء في الشيخ، الفناء في الرسول. وانا لست صوفياً، ولكن «الفناء في الاخوان» دستور جميلٌ يناسب مسلكنا ومنهجنا تماماً. اي ان يفنى كل في الاخر، اي ان ينسى كل اخ حسياته النفسانية، ويعيش فكراً مع مزايا اخوانه وفضائلهم. حيث ان اساس مسلكنا ومنهجنا هو «الاخوة» في الله، وان العلاقات التي تربطنا هي الاخوة الحقيقية، وليست علاقة الاب مع الابن ولا علاقة الشيخ مع المريد. وان كان لابد فمجرد العلاقة بالاستاذ. وما دام مسلكنا هو «الخليلية» فمشربنا اذاً «الخلة». والخلة تقتضي صديقاً صدوقاً، ورفيقاً مضحياً، وأخاً شهماً غيوراً.. وأس الاساس لهذه الخلة هو «الاخلاص التام». فمن يقصّر منكم فيه فقد هوى من على برج الخلة العالي، ولربما يتردى في واد سحيق، اذ لا موضع في المنتصف.

نعم! ان الطريق طريقان، فمن يفارقنا الآن في مسلك الاخلاص التام – وهو الجادة الكبرى للقرآن الكريم – فربما يكون من الذين يخدمون الالحاد اعداء القرآن دون ان يشعر.

فالذين دخلوا ميدان خدمة القرآن الكريم المقدسة بوساطة رسائل النور لا يهوون بإذن الله في مثل تلك الهاوية، بل سيمدون النور والاخلاص والايمان قوة.

فيا اخوتي في خدمة القرآن!

ان اهم سبب لكسب «الاخلاص» واعظم وسيلة مؤثرة للمحافظة عليه هو: «رابطة الموت»:

فكما ان طول الامل يثلم الاخلاص ويفسده ويسوق الناس الى حب الدنيا والى الرياء، فان «رابطة الموت» تنفّر من الرياء، وتجعل المرابط معه يحرز الاخلاص. اذ تخلصه من دسائس النفس الأمارة، وذلك بتذكر موته وبملاحظة فناء الدنيا وزوالها. هذا ولقد اتخذ المتصوفة واهل الحقيقة العلمية «رابطة الموت» اساساً في منهج سلوكهم، وذلك بما تعلموه من الآية الكريمة:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥) ﴿ اِنَّكَ مَيِّتٌ وَاِنَّهُمْ مَيِّتُون ﴾ (الزمر: ٣٠) فازالوا بتلك الرابطة توهم البقاء وحلم الابدية الذي يولد طول الامل، حيث افترضوا خيالاً وتصوروا انفسهم امواتاً. فالان يُغسلون.. والآن يوضعون في القبر.. وحينما يتفكرون بهذه الصورة تتأثر النفس الامارة بهذا التخيل اكثر فتتخلى شيئاً فشيئاً عن آمالها العريضة. فلهذه الرابطة اذن فوائد جمة ومنافع شتى. ويكفى ان الحديث الشريف يرشدنا اليها بقوله ﷺ: (اَكْثِروُا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ)[1]. وحيث ان مسلكنا حقيقة علمية وليست طريقة صوفية، فلا نرى انفسنا مضطرين مثلهم الى مباشرة تلك الرابطة بالافتراض والخيال. فضلاً عن ان هذا الاسلوب لايلائم منهج الحقيقة. اذ التفكر بالعقبى ليس هو بجلب المستقبل الى الحاضر خيالاً، بل الذهاب فكراً من الحاضر الى المستقبل، ومشاهدة المسقبل من خلال الحاضر الواقع كما هو الحقيقة، فلا حاجة الى الخيال، ولا يلزم الافتراض، اذ الانسان يمكنه مشاهدة جنازته وهي ثمرة محمولة على شجرة عمره القصير، واذا ما حول نظره قليلاً لا يرى موته

(١) اكثروا ذكر هاذم اللذات يعني الموت: رواه احمد والترمذي وحسنه. والنسائي من حديث ابي سلمة عن ابي هريرة به مرفوعاً. وصححه ابن حبان والحاكم. واعلّه الدارقطني بالارتباك. (تمييز الطيب لابن الديبع الشيباني) ومعنى هاذم: قاطع. ـ المترجم.

وحده، بل يرى ايضاً موت عصره، حتى اذا جال بنظره اكثر يرى موت الدنيا ودمارها، وعندها ينفتح امامه الطريق الى «الاخلاص التام».

والسبب الثاني في احراز الاخلاص هو: ان يكسب المرء حضوراً وسكينة بالايمان التحقيقي وباللمعات الواردة عن التفكر الايماني في المخلوقات.

وهذا التأمل يسوق صاحبه الى معرفة الخالق سبحانه، فتنسكب الطمأنينة والسكينة في القلب. حقاً ان تلمع هذا النوع من التأمل في فكر الانسان يجعله يفكر دائماً في حضور الخالق الرحيم سبحانه ورؤيته له، اي انه حاضر وناظر اليه دائماً. فلا يلتفت عندئذ الى غيره، ولا يستمد من سواه. حيث ان النظر والالتفات الى ماسواه يخل بأدب الحضور وسكينة القلب. وبهذا ينجو الانسان من الرياء ويتخلص منه، فيظفر بالاخلاص باذن الله.

وعلى كل حال فان في هذا «التأمل» درجات كثيرة ومراتب عدة. فحظ كل شخص ما يكسبه، وربحه ما يستفيد منه حسب قابلياته وقدراته.

نكتفي بهذا القدر ونحيل الى رسائل النور حيث ذكرت كثيراً من الحقائق حول النجاة من الرياء واحراز الاخلاص.

سنبين باختصار بعضاً من الاسباب العديدة التي تخل بالاخلاص وتمنعه، وتسوق الى الرياء وتدفع اليه:

«المانع الاول للاخلاص»

الحسد الناشئ من المنافع المادية. هذا الحسد يفسد الاخلاص تدريجياً، بل يشوه نتائج العمل، بل يفوّت حتى تلك المنافع المادية ايضاً.

نعم، لقد حملت هذه الامة دائماً التوقير والقدر للعاملين بجد للحقيقة والآخرة، ومدت لهم يد العون فعلاً، وذلك بنية مشاركتهم في تلك الاعمال والخدمات الصادقة الخالصة لوجه الله. فقدمت لهم هدايا وصدقات لدفع حاجاتهم المادية ولئلا ينشغلوا بها عن خدماتهم الجليلة، فأظهروا بذلك ما يكنونه من احترام للعاملين في سبيل الله. الا ان هذه المساعدات والمنافع يجب ألا تُطلب قط، بل تُوهب. فلا يُسأل حتى بلسان الحال كمن ينتظرها قلباً. وانما تُعطى من حيث لا يحتسب وإلاّ اختلّ اخلاص المرء وانتقض، وكاد ان يدخل ضمن النهي الإلهي في قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً** ﴾ فيحبط قسم من اعماله.

فالرغبة في هذه المنافع المادية وترقبها بدافع من اثرة النفس الامارة وحرصها على كسب المنافع لذاتها، تثير عرق الحسد وتحرك نوازعه تجاه اخيه الحقيقي وصاحبه المخلص في الخدمة الايمانية، فيفسد اخلاصه ويفقد قدسية دعوته لله، ويتخذ طوراً منفراً لدى اهل الحقيقة، بل يفقد المنافع المادية ايضاً.. وعلى كل حال فالمسألة طويلة.

وسأذكر ما يزيد سرّ الاخلاص ويديم الوفاق الصادق بين اخوتي الصادقين. اذكره ضمن مثالين:

المثال الاول «لإدامة الاخلاص»:

لقد اتخذ ارباب الدنيا «الاشتراك في الاموال» قاعدة يسترشدون بها لاجل الحصول على ثروة طائلة او قوة شديدة، بل اتخذ من لهم التأثير في الحياة الاجتماعية – من اشخاص او جماعات وبعض الساسة – هذه القاعدة رائداً لهم. ولقد كسبوا نتيجة اتباعهم هذه القاعدة قوة هائلة وانتفعوا منها نفعاً عظيماً، رغم ما فيها من اضرار واستعمالات سيئة، ذلك لان ماهية الاشتراك لا تتغير بالمساوئ والاضرار التي فيها، لأن كل شخص – وفق هذه القاعدة – يحسب نفسه بمثابة المالك لجميع الاموال، وذلك من زاوية مشاركته في المال ومن جهة مراقبته واشرافه عليه، برغم انه لا يمكنه ان ينتفع من جميع الاموال.. وعلى كل حال فان هذه القاعدة اذا دخلت في الاعمال الاخروية فستكون محوراً لمنافع جليلة بلا مساوئ ولا ضرر. لان جميع تلك الاموال الاخروية تحمل سر الدخول بتمامها في حوزة كل فرد من اولئك الافراد المشتركين فيها، دون نقصان او تجزئة.

ولنفهم هذا بمثال:

اشترك خمسة اشخاص في اشعال مصباح زيتي. فوقع على احدهم احضار النفط، وعلى الآخر الفتيلة، وعلى الثالث زجاجة المصباح، وعلى الرابع المصباح نفسه وعلى الاخير علبة الكبريت.. فعندما اشعلوا المصباح اصبح كل منهم مالكاً لمصباح كامل. فلو كان لكل من اولئك المشتركين مرآة كبيرة معلقة بحائط، اذن لاصبح منعكساً في مرآته مصباح كامل – مع ما في الغرفة – من دون تجزؤ او نقص..

وهكذا الامر في الاشتراك في الامور الاخروية بسر الاخلاص، والتساند بسر الاخوة، وضم المساعي بسر الاتحاد، اذ سيدخل مجموع اعمال المشتركين، وجميع النور النابع منها، سيدخل بتمامه في دفتر اعمال كل منهم.. وهذا امر مشهود وواقع بين اهل الحقيقة، وهو من مقتضيات سعة رحمة الله سبحانه وكرمه المطلق.

فيا اخوتي..! آمل ألّا تسوقكم المنافع المادية الى الحسد فيما بينكم ان شاء الله تعالى. الا انكم قد تنخدعون كما انخدع قسم من اهل الطرق الصوفية، من باب المنافع الاخروية. ولكن تذكروا.. اين الثواب الشخصي والجزئي من ذلك الثواب العظيم الناشئ في افق الاشتراك في الاعمال المذكورة في المثال، واين النور الجزئي من ذلك النور الباهر.

المثال الثاني «لإدامة الاخلاص»:

يحصل الصناعيون واهل الحرف على الانتاج الوفير وعلى ثروة هائلة نتيجة اتباعهم قاعدة «المشاركة في الصنعة والمهارة». واليك المثال:

قام عشرة من صناعي ابر الخياطة بعملهم، كل على انفراد، فكانت النتيجة ثلاث ابر فقط لكل منهم في اليوم الواحد.. ثم اتفق هؤلاء الاشخاص حسب قاعدة «توحيد المساعي وتوزيع الاعمال» فأتى احدهم بالحديد والاخر بالنار، وقام الثالث بثقب الابرة والاخر ادخالها النار والاخر بدأ يحدها.. وهكذا. فلم يذهب وقت احد سدى، حيث انصرف كل منهم الى عمل معين وانجزه بسرعة، لانه عمل جزئي بسيط اولاً ولاكتسابه الخبرة والمهارة فيه ثانياً. وحينما وزعوا حصيلة جهودهم رأوا ان نصيب كل منهم في يوم واحد ثلاثمائة ابرة بدلاً من ثلاث ابر.. فذهبت هذه الحادثة انشودة يترنم بها اهل الصناعة والحرف، الذين يدعون الى توحيد المساعي وتوزيع الاعمال.

فيا اخوتي! ما دامت تحصل مثل هذه الفوائد العظيمة نتيجة الاتحاد والاتفاق في امور دنيوية وفي مواد كثيفة، فكم يكون يا ترى ثواب اعمال اخروية ونورانية! وكم يكون الثواب المنعكس من اعمال الجماعة كلها بالفضل الإلهي في مرآة كل فرد منها!

تلك الاعمال التي لا تحتاج الى تجزئة ولا انقسام. فلكم ان تقدروا ذلك الربح العظيم.. فإن مثل هذا الربح العظيم لا يُفوّت بالحسد وعدم الاخلاص..!

«المانع الثاني للاخلاص»:

هو اعطاء ما يداعب انانية النفس الامارة بالسوء وما تستشرفه من منزلة ومكانة، تتوجه اليها الانظار، وحب اقبال الناس وطلب توجههم بدافع من حب الشهرة وذياع الصيت الناشئ من التطلع الى الجاه وحبه... فكما ان هذا داء روحي وبيل، فهو باب الى «الشرك الخفي» الذي هو الرياء والاعجاب بالنفس الماحق للاخلاص.

يا اخوتي! لما كان مسلكنا في خدمة القرآن الكريم مبنياً على الحقيقة وعلى الاخوة، وان سر الاخوة هو في افناء الفرد شخصيته في شخصية اخوانه (١) وايثارهم على نفسه، فما ينبغي ان يؤثر فينا مثل هذا الحسد الناجم من حب الجاه، حيث هو مناف كلياً لمسلكنا، اذ مادامت كرامة جميع الاخوان وشرفهم تعود الى كل اخ في الجماعة، فلا يمكن ان تُضحى بتلك المنزلة الرفيعة والكرامة الفائقة والشرف المعنوي السامي للجماعة، لاجل شهرة جزئية وعزة شخصية ناجمة من الانانية والحسد.. فأنا على ثقة وامل ان ذلك بعيد كل البعد عن طلاب النور.

نعم، ان قلوب طلاب النور وعقولهم وارواحهم لا تنحدر الى مثل هذه الامور السافلة، الا انه ما من احد الا يحمل نفساً امارة بالسوء، فقد تسري امورٌ ونوازع نفسانية في العروق وتتعلق بالاعصاب وتجري احكاماً برغم العقل والقلب والروح. فاعتماداً على ما تتركه رسائل النور فيكم من آثار، فلا اتهم قلوبكم وعقولكم وارواحكم. الا ان النفس والهوى والحس والوهم قد يُخدع؛ لذا يأتيكم التحذير والتنبيه احياناً بشدة وعنف. فتلك الشدة موجهة الى النفس والهوى والحس والوهم، فكونوا على حذر دائماً.

نعم لو كان مسلكنا طريقة خاصة ومشيخة، لكان هناك اذاً مقام واحد، او عدد محدود منه، ولكان هناك مرشحون كثيرون لذلك المقام. وعندها كان يمكن ان تحدث الغبطة والانانية في النفوس. ولكن مسلكنا هو الاخوة، لا غير. فلا يدعي

(١) نعم، ان السعيد هو مَن يرمي شخصيته، ويذيب انانيته التي هي كقطعة ثلج في الحوض العظيم اللذيذ المترشح من كوثر القرآن الكريم كي يغنم ذلك الحوض. ـ المؤلف.

الاخ على اخيه الابوة، ولا يتزيا بزي المرشد له. فالمقام هنا في الاخوة فسيح واسع، لا مجال فيه للمزاحمة بالغبطة، وان كان لابد فالاخ معاون لاخيه مكمّل لعمله، وظهير له.

ومما يدل على ان في المسالك التي فيها مقام الابوة والارشاد والاستاذية نتائج خطرة مهلكة تنجم من المنافسة والحسد حرصاً على الثواب وتطلعاً الى علو الهمة، اقول ان الدليل على ذلك هو تلك الاختلافات والمشاحنات الدائرة في ثنايا المزايا الجليلة والمنافع العظيمة التي يتمتع بها اهل الطرق الصوفية، والتي ادّت بهم الى نتائج وخيمة جعلت قواهم السامية الهائلة لا تثبت امام اعاصير البدع.

«المانع الثالث للاخلاص»:

هو الخوف والطمع. نحيل الى رسالة «الهجمات الست»[1] حيث شرحت هذا المانع مع موانع اخرى بوضوح تام.

نسأل الله الرحمن الرحيم سبحانه مشفّعين جميع اسمائه الحسنى أن يوفقنا الى الاخلاص التام. آمين.

اَللّٰهُمَّ بِحَقِّ سُورَةِ الاِخلاصِ اجعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُخْلِصينَ الْمُخْلَصينَ.

آمينْ.. آمين.

﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَآ اِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا اِنَّكَ اَنْتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

---

(١) وهي القسم السادس من المكتوب التاسع والعشرين الذي كتب تنبيهاً لتلاميذ القرآن عن ست من دسائس الشيطان — المترجم.

رسالة خاصة الى قسم من اخواني

سأذكر نكتة لطيفة لحديثين شريفين لاولئك الاخوة الذين يملّون من كتابة رسائل النور، والذين يفضّلون قراءة الاوراد في الشهور الثلاثة وهي شهور العبادات على كتابة رسائل النور التي تعدّ عبادة بخمس جهات (١).

الحديث الاول: (يُوزن مداد العلماء بدماء الشهداء)(٢)- او كما قال. اي ان ما يصرفه علماء الحقيقة من حبر يوزن يوم القيامة مع دماء الشهداء ويعادلها.

الحديث الثاني: (مَن تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد) او كما قال، اي ان من يتمسك بالسنة الشريفة والحقائق القرآنية وعمل لأجلها عند استيلاء البدع وتغلب الضلالة، فله أجر مائة شهيد.

فيامَن يملّ تكاسلاً عن الكتابة ويا ايها الاخوة الذين ينحون منحى التصوف! ان حصيلة مفهومي الحديثين الشريفين هي ان درهماً مما يقطر من نور اسود وماء باعث للحياة من الاقلام المباركة الزكية لاولئك الذين يخدمون حقائق الايمان واسرار الشريعة والسنة النبوية الشريفة في مثل هذه الظروف يمكن ان يفيد كمائة درهم من دم الشهداء يوم الحشر الاكبر.

---

(١) لقد سألنا استاذنا عن الانواع الخمسة من العبادة اشار اليها في هذه الرسالة القيمة، ندرج ايضاحه ادناه:
١- انها جهاد معنوي تجاه اهل الضلالة، ذلك الجهاد الاهم.
٢- انها خدمة لاستاذه ومعاونة له على نشر الحقيقة.
٣- انها خدمة للمسلمين كافة من حيث الايمان.
٤- انها تحصيل للعلم بالكتابة.
٥- انها عبادة فكرية التي قد تكون ساعة منها بمثابة سنة من العبادة.

«رشدي، خسرو، رأفت».

(٢) نص الحديث: (يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء) رواه الشيرازي في كتاب الالقاب عن أنس والموهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين وابن الجوزي في كتاب العلل عن النعمان بن بشير. قال المناوي في فيض القدير (٤٦٦/٦) اسانيده ضعيفة لكن يقوي بعضها بعضاً وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٥٦١/٢) واورده الغزالي في الإحياء في كتاب العلم قال العراقي، سنده ضعيف. وانظر السيوطي في الجامع الصغير (١٠٠٢٦) وتمييز الطيب ص٢٠١ وضعيف الجامع الصغير برقم ٦٤٦٤.

فاسعوا يا اخوتي لتظفروا بهذا الثواب العظيم.

فان قلتم: ان ما ورد في الحديث هو العالم بينما قسم منا كتّاب فحسب؟

الجواب: ان الذي يقرأ هذه الرسائل، وهذه الدروس في غضون سنة واحدة ويفهمها ويقبل بها، يمكن ان يكون عالماً مهماً ذا حقيقة في هذا الزمان. واذا ما قرأها ولم يفهمها، فان طلاب النور الذين لهم شخصية معنوية، لاشك انها احد علماء هذا الزمان. أما اقلامكم فهي اصابع تلك الشخصية الحقيقية، وهب انكم قد ارتبطتم بهذا الفقير ومنحتموه بحسن ظنكم مكانة عالم واستاذ في نظركم وان كنت ارى انني لا استحقها ولكن لما كنت امياً لا اجيد الكتابة، فان اقلامكم تعدّ اقلامي انا. فتثابون بالاجر المبيّن في الحديث الشريف.

سعيد النورسي

اللمعة الثانية والعشرون

باسمه سبحانه

هذه الرسالة الصغيرة التي كتبتها قبل اثنتين وعشرين سنة، وانا نزيل ناحية «بارلا» التابعة لولاية اسپارطة، هي رسالة خاصة لأخلص اخوتي واخصّهم. وقد كتبتها في غاية السرية ومنتهى الكتمان. ولكن لما كانت ذات علاقة بأهالي «اسپارطة» والمسؤولين فيها، فاني اقدّمها الى واليّها العادل والى مسؤولي دوائر العدل والامن والانضباط فيها. واذا ما ارتؤي انها تستحق الطبع، فلتُطبع منها نسخ معدودة بالحروف القديمة او الحديثة بآلة الطابعة كي يعرف اولئك المترصدون الباحثون عن اسراري منذ اكثر من خمس وعشرين سنة، أنه لا سرّ لنا في الخفاء، وان اخفى اسرارنا هو هذه الرسالة.

سعيد النورسي

الاشارات الثلاث

كانت هذه الرسالة المسألة الثالثة من المذكرة السابعة عشرة للمعة السابعة عشرة، الاّ ان قوة اسئلتها وشمولها وسطوع اجوبتها وسدادها جعلتها اللمعة الثانية والعشرين من المكتوب الحادي والثلاثين، فدخلت ضمن «اللمعات» وامتزجت بها. وعلى «اللمعات» ان تفسح لها موضعاً بينها، فهي رسالة سرية خاصة لأخص اخواننا واخلصهم واصدقهم.

بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيم

﴿ وَمَن يَتوكّل على الله فهو حَسْبُه إن الله بالغُ أمْره قَدْ جَعَل اللهُ لكلّ شئ قدْراً ﴾
(الطلاق:٣)

هذه المسألة ثلاث اشارات

الاشارة الاولى:

سؤال مهم يخصّني بالذات ويخص رسائل النور. يقول كثيرون:

لِم يتدخل اهل الدنيا بامور آخرتك كلما وجدوا لهم فرصة، مع أنك لاتتدخل في شؤون دنياهم؟ علماً انه لا يمسّ قانون اية حكومة كانت شؤون تاركي الدنيا المعتزلين الناس!

الجواب: ان جواب «سعيد الجديد» عن هذا السؤال هو: السكوت؛ اذ يقول: ليُجب عني القدر الإلهي. ومع هذا يقول بعقل «سعيد القديم» الذي اضطر الى استعارته: ان الذي يجيب عن هذا السؤال هو حكومة محافظة اسپارطة واهالي هذه المحافظة؛ لان هؤلاء – المسؤولين والناس كافة – اكثر علاقة مني بالمعنى الذي ينطوي عليه السؤال.

وما دامت حكومة افرادها يربون على الالوف، واهلون يزيدون على مئات الالوف مضطرين الى التفكير والدفاع عوضاً عني، فلِمَ اذاً احاور – دون جدوى – المدّعين دفاعاً عن نفسي؟.

فها أنذا منذ تسع سنوات في هذه المحافظة، وكلما مرّ الزمان ادرت ظهري الى دنياهم. ولم تبق لي حال من احوالي مخفية عنهم مستورة عليهم، بل حتى اخص رسائلي واكثرها سرية يتداولها المسؤولون في الدولة وهي في متناول عدد من النواب. فلو كان لي شئ من تدخل او محاولة ما لتعكير صفو دنياهم والاخلال بها، او حتى التفكير في هذا الامر، لما آثر المسؤولون في هذه المحافظة والاقضية السكوت تجاهي وعدم الاعتراض عليّ على الرغم من مراقبتهم اياي وترصدهم لي وتجسسهم عليّ

طوال تسع سنوات، وعلى الرغم من انني ابوح دون تردد بأسراري الى من يزورني.

فان كان لي عمل مخل بسعادة الامة وسلامة الوطن ويلحق الضرر بمستقبلها، فالمسؤول عنه جميع افراد الحكومة طوال تسع سنوات ابتداءً من المحافظ الى اصغر موظف في مخفر القرية.

فعلى هؤلاء جميعاً يقع الدفاع عني، وعليهم ان يستصغروا ما استهوله واستعظمه الآخرون، وذلك لينجوا من تبعات المسؤولية. ولاجل هذا احيل جواب هذا السؤال اليهم.

أما ما يدفع مواطني هذه المحافظة عامة للدفاع عني اكثر من نفسي فهو:

ان هذه تسع سنوات، ومئات الرسائل التي نسعى لنشرها، قد اثبتت تأثيرها في هذا الشعب الاخ الصديق المبارك الطيب، واظهرت مفعولها الفعلي والمادي في حياته الابدية وفي دعم قوة ايمانه وسعادة حياته، ومن غير ان تمسّ احداً بسوء أو تولد اي اضطراب او قلق كان، اذ لم يشاهد منها ما يومئ الى غرض سياسي ونفع دنيوي مهما كان، حتى ان هذه المحافظة، اسپارطة، قد اكتسبت ولله الحمد بوساطة رسائل النور مقام البركة من حيث قوة الايمان والصلابة في الدين، من نوع البركة التي نالتها الشام الطيبة في السابق ومن نوع بركة الجامع الازهر الذي هو مدرسة العالم الاسلامي عامة.

فهذه المحافظة لها فضل ومزيّة على المحافظات الاخرى، حيث قد كسبت من رسائل النور التمسك باذيال الدين، فتهيمن فيها قوة الايمان ازاء الاهمال، وتسيطر فيها الرغبة في العبادة تجاه السفه والغي؛ ولاجل هذا كله فالناس كلهم في هذه المحافظة، حتى لو كان فيهم ملحد (فرضاً) مضطرون الى الدفاع عني وعن رسائل النور.

وهكذا لايسوقني حقي الجزئي الذي لا اهمية له ضمن حقوق دفاع ذات أهمية الى هذا الحد، ان ادافع عن نفسي ولاسيما انني قد انهيت خدماتي ولله الحمد ويسعى لها الوف من الطلاب عوضاً عن هذا العاجز. فمن كان له وكلاء دعوى ومحامون يربون على الالوف، لايدافع عن دعواه بنفسه.

الاشارة الثانية:

جواب عن سؤال يتسم بالنقد.

يقال من جانب اهل الدنيا:

لِمَ استأت منّا وسكتّ فلا تراجعنا ولو لمرة واحدة. ثم تشكو منا شكاية شديدة قائلاً: «انتم تظلمونني». فنحن اصحاب مبدأ، لنا دساتيرنا الخاصة نسير في ضوئها على وفق ما يتطلبه هذا العصر بينما انت لا تنفذ هذه الدساتير على نفسك وترفضها، علماً أن من ينفذ القانون لا يكون ظالماً، بينما الرافض له يكون عاصياً. ففي عصرنا هذا، عصر الحرية - مثلاً - وفي عهد الجمهوريات التي بدأنا به حديثاً يجري دستور رفع الاكراه والتسلط على الاخرين. اذ المساواة قانون اساس لدينا، بينما انت تكسب اقبال الناس نحوك وتلفت انظارهم اليك تارة بزيّ العلم واخرى بالتزهد، فتحاول تكوين قوةٍ وكسب مقامٍ خارج نطاق نفوذ الدولة.

هكذا يُفهم من ظاهر حالك وهكذا يدلنا مجرى حياتك السابقة. فهذه الحالة ربما تُستصوب في نطاق تحكّم البرجوازيين - بالتعبير الحديث - الاّ ان صحوة طبقة العوام وتغلبها جعلت جميع دساتير الاشتراكية والبلشفية تسيطر وتهيمن، وهي التي تلائم امورنا اكثر من غيرها. فنحن في الوقت الذي رضينا بدساتير الاشتراكية نشمئز من اوضاعك، اذ هي تخالف مبادئنا. لذا لاحق لك في الاستياء منا ولا الشكوى من مضايقاتنا لك.

الجواب: ان من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة، لايستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه في امور الخير والرقي ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع اعماله في سبيل التخريب والشر.

فما دام الانسجام مع قانون الفطرة ضرورياً، فان تنفيذ قانون المساواة المطلقة لا يمكن الاّ بتغيير فطرة البشر ورفع الحكمة الاساسية في خلق النوع البشري.

نعم! انني من حيث النسب ونمط معيشة الحياة من طبقة العوام، ومن الراضين بالمساواة في الحقوق فكراً ومشرباً، ومن العاملين على رفض سيطرة طبقة الخواص

المسمين بالبرجوازيين واستبدادهم منذ السابق وذلك بمقتضى الرحمة وبموجب العدالة الناشئة من الاسلام.

لذا فانا بكل ما اوتيت من قوة بجانب العدالة التامة، وضد الظلم والسيطرة والتحكم والاستبداد.

بيد ان فطرة النوع البشري وحكمة خلقه تخالفان قانون المساواة المطلقة، اذ الفاطر الحكيم سبحانه كما يستحصل من شئ قليل محاصيل كثيرة، ويكتب في صحيفة واحدة كتباً كثيرة، ويُجري بشئ واحد وظائف جمة، كذلك يُنجز بنوع البشر وظائف الوف الانواع، وذلك اظهاراً لقدرته الكاملة وحكمته التامة.

فلاجل تلك الحكمة العظيمة، خلق سبحانه الانسان على فطرة جامعة، لها من القدرة ما يثمر الوف سنابل الانواع، وما يعطى طبقات كثيرة بعدد انواع سائر الحيوانات؛ اذ لم يحدِّد سبحانه قوى الانسان ولطائفه ومشاعره كما هو الحال في الحيوانات، بل اطلقها واهباً له استعداداً يتمكن به من السياحة والجولان ضمن مقامات لاتحد، فهو في حكم الوف الانواع، وان كان نوعاً واحداً.

ومن هنا اصبح الانسان في حكم خليفة الارض.. ونتيجة الكون.. وسلطان الاحياء.. وهكذا فان اجلّ خميرة لتنوع النوع البشري واهم نابض محرك له هو التسابق لإحراز الفضيلة المتسمة بالايمان الحقيقي. فلا يمكن رفع الفضيلة الاّ بتبديل الماهية البشرية واخماد العقل وقتل القلب وافناء الروح.

«لايمكن بالظلم والجور محو الحرية

ارفع الادراك ان كنت مقتدراً من الانسانية!»

هذا الكلام الرصين أُثير خطأً في وجه رجل ذي شأن ما كان يليق به مثل هذه الصفعة، بل جدير بهذا الكلام أن يصفع به الوجه الغدار لهذا العصر الحامل لاستبداد رهيب يتستر بهذه الحرية.

فانا اقول بدلاً من هذا الكلام:

لايمكن بالظلم والجور محو الحقيقة

إرفع القلب ان كنت مقتدراً من الانسانية!

او اقول:

لايمكن بالظلم والجور محو الفضيلة

إرفع الوجدان ان كنت مقتدراً من الانسانية!

نعم! ان الفضيلة المتسمة بالايمان، كما لا تكون وسيلة للاكراه، لا تكون سبباً للاستبداد قطعاً. اذ الاكراه والقسر والتسلط على الآخرين، رذيلة ليس الاّ، بل ان اهم مشرب لدى اهل الفضيلة هو الاندماج في المجتمع بالعجز والفقر والتواضع. ولقد مضت حياتنا ولله الحمد وما زالت كذلك تمضي على وفق هذا المشرب. فانا لا أدعي متفاخراً انني صاحب فضيلة، ولكن اقول تحدثاً بنعمة الله عليّ وبنية الشكر له سبحانه: قد احسن اليّ جلّ وعلا بفضله وكرمه فوفقني الى العمل للعلوم الايمانية والقرآنية وادراكها وفهمها. فصرفت طوال حياتي - لله الحمد - هذا الاحسان الإلهي بتوفيق منه تعالى، في مصالح هذه الامة المسلمة وبذلته في سبيل سعادتها، ولم يك في اي وقت كان وسيلة للاكراه والتسلط على الآخرين. كما انني - بناء على سرّ مهم - أنفر من اقبال الناس وجلب استحسانهم المرغوبين لدى اهل الغفلة؛ اذ قد ضيّعا عليّ عشرين سنة من عمري السابق، فلهذا اعدّهما مضرّين لي. الاّ انني اراهما أمارة على اقبال الناس على رسائل النور فلا أُسخطهم.

فيا اهل الدنيا!

في الوقت الذي لا اتدخل في دنياكم قط؛ ولا علاقة لي بأية جهة كانت بمبادئكم. ولست عازماً على التدخل مجدداً بالدنيا، بل ولا لي رغبة فيها اصلاً كما تشهد بذلك حياتي، هذه التي قضيتها اسير المنفى طوال تسع سنوات. فلماذا تنظرون اليّ وكأنني متجبّر سابق، يضمر التسلط على الآخرين ويتحين الفرص لذلك. بأي قانون يُجرى وعلى اية مصلحة يُبنى هذا المدى من الترصد والمراقبة والعنت؟

فلا توجد في العالم كله، حكومة تعمل فوق القانون، وتسمح بهذه المعاملة القاسية التي اعامل بها والتي لا يرضى بها فرد مهما كان.

فهذه المعاملات السيئة التي تعاملونني بها لاتولد سخطي وحده، بل سخط نوع الانسان - إن ادرك - بل سخط الكائنات.

الاشارة الثالثة:

سؤال يرد على وجه البلاهة والجنون وينطوي على مغالطة.

يقول قسم من افراد الدولة واهل الحكم:

ما دمت قائماً في هذه البلاد، فعليك الانقياد لقوانين الجمهورية الصادرة فيها، فلماذا تنجي نفسك من تلك القوانين تحت ستار العزلة عن الناس.

فمثلاً: ان من يجري نفوذه على الآخرين خارج وظيفة الدولة متقلداً فضيلة ومزية لنفسه ينافي قانون الحكومة الحاضرة ودستور الجمهورية المبني على اساس المساواة. فلماذا تتقلد صفة من يريد جلب الاعجاب بنفسه وكأن على الناس الانقياد له وطاعته. وتجعلهم يقبّلون يدك مع أنك لا وظيفة لك في الدولة؟

الجواب: ان على منفّذي القانون تنفيذه على انفسهم اولاً ثم يمكنهم اجراؤه على الاخرين. فاجراء دستور على الآخرين دون انفسكم يعني مناقضتكم لدستوركم وقانونكم قبل كل احد لانكم تطلبون اجراء قانون المساواة المطلقة هذا عليّ بينما لم تطبقوه انتم على انفسكم.

وانا اقول: متى ما صعد جندي اعتيادي الى مقام المشير الاجتماعي، وشارك المشير فيما يوليه الناس من احترام واجلال، ونال مثله ذلك الاقبال والاحترام.. او متى ما صار المشير جندياً اعتيادياً وتقلد احواله الخامدة، وفقد اهميته كلها خارج وظيفته.. وايضاً متى ما تساوى رئيس ذكي لاركان الجيش قادهم الى النصر مع جندي بليد في اقبال الناس عامة والاحترام والمحبة له، فلكم ان تقولوا حينذاك، حسب قانونكم، قانون المساواة: لاتسم نفسك عالماً. ارفض احترام الناس لك، انكر فضيلتك، إخدم خادمك، رافق المتسولين.

فان قلتم: ان هذا الاحترام والمقام والاقبال الذي يوليه الناس، انما هو خاص بالموظفين واثناء مزاولتهم مهنتهم، بينما انت انسان لا وظيفة لك، فليس لك ان تقبل احترام الامة كالموظفين.

فالجواب: لو اصبح الانسان مجرد جسد فقط.. وظل في الدنيا خالداً مخلداً.. وأُغلق باب القبر.. وقُتل الموت.. فانحصرت الوظائف في العسكرية والموظفين

الاداريين.. فكلامكم اذاً يعني شيئاً. ولكن لما كان الانسان ليس مجرد جسد، ولا يُجرد من القلب واللسان والعقل ليعطى غذاءً للجسد، فلا يمكن افناء تلك الجوارح. فكل منها يطلب التغذية والعناية. ولما كان باب القبر لا يغلق، بل ان اجلّ مسألة لدى كل فرد هو قلقه على ما وراء القبر. لذا لاتنحصر الوظائف التي تستند الى احترام الناس وطاعتهم في وظائف اجتماعية وسياسية وعسكرية تخص حياة الامة الدنيوية. اذ كما ان تزويد المسافرين بتذاكر سفر وجواز مرور وظيفة، فان منح وثيقة سفر للمسافرين الى ديار الابد ومناولتهم نوراً لتبديد ظلمات الطريق وظيفة جليلة، بحيث لا ترقى اية وظيفة اخرى الى اهميتها. فانكار وظيفة جليلة كهذه لايمكن الاّ بانكار الموت، وبتكذيب شهادة ثلاثين الف جنازة يومياً تُصدق دعوى: أن الموت حق.

فما دامت هناك وظائف معنوية تستند الى حاجات ضرورية معنوية، وان اهم تلك الوظائف هي الايمان وتقويته والارشاد اليه، اذ هو جواز سفر في طريق الابدية ومصباح القلب في ظلمات البرزخ ومفتاح دار السعادة الابدية. فلا شك ان الذي يؤدي تلك الوظيفة، وظيفة الايمان، من اهل المعرفة لايبخس قيمة النعمة التي انعم الله عليه كفراناً بها، ولايهوّن من فضيلة الايمان التي منحها الله اياه، ولا يتردى الى درك السفهاء والفسقة، ولا يلوث نفسه بسفاهة السافلين وبدعهم. فالانزواء واعتزال الناس الذي لايروق لكم وحسبتموه مخالفاً للمساواة انما هو لاجل هذا.

ومع هذه الحقيقة، فلا اخاطب – بكلامي هذا – اولئك الذين يذيقونني العنت بتعذيبهم اياي، من امثالكم المتكبرين المغترين بنفوسهم كثيراً حتى بلغوا الفرعونية في نقض هذا القانون، قانون المساواة. اذ ينبغي عدم التواضع امام المتكبرين لما يُظن تذللاً لهم.. وانما اخاطب المنصفين المتواضعين العادلين من اهل الحكم فاقول:

انني ولله الحمد على معرفة بقصوري وعجزي، فلا ادّعى مستعلياً على احد من الناس مقاماً للاحترام فضلاً عن ان ادّعيه على المسلمين! بل ابصر بفضل الله تقصيراتي التي لاتحد، واعلم يقيناً اني لست على شئ يُذكر، فأجد السلوان والعزاء في الاستغفار ورجاء الدعاء من الناس، لاالتماس الاحترام منهم. واعتقد ان سلوكي هذا معروف لدى اصدقائي كلهم. الا ان هناك امراً وهو انني، اتقلد مؤقتاً وضعاً عزيزاً

يتطلبه مقام عزة العلم ووقاره، وذلك اثناء القيام بخدمة القرآن ودرس حقائق الايمان، اتقلده موقتاً في سبيل تلك الحقائق وشرف القرآن ولأجل الأ أحني رأسي لأهل الضلالة. اعتقد أنه ليس في طوق قوانين أهل الدنيا معارضة هذه النقاط.

معاملة تجلب الحيرة:

ان اهل العلم والمعرفة في كل مكان – كما هو معلوم – يزنون الامور بميزان العلم والمعرفة. فاينما وجدوا معرفة وفي اي شخص تلمسوا علماً يولون له الاحترام ويعقدون معه الصداقة باعتبار مسلك العلم. بل حتى لو قدم عالم – پروفسور – لدولة عدوة لنا، الى هذه البلاد، لزاره اهل المعرفة واصحاب العلوم، وقدروه واحترموه لعلمه ومعرفته.

والحال أنه عندما طلب أعلى مجلس علمي كَنَسي انكليزي من المشيخة الاسلامية الاجابة عن ستة اسئلة بستمائة كلمة، قام احد اهل العلم – الذي تلقى عدم الاحترام من اهل هذه البلاد – بالاجابة عن تلك الاسئلة بست كلمات حتى نالت اجابته التقدير والاعجاب.

وهو الذي قاوم بالعلم الحقيقي والمعرفة الصائبة اهم دساتير الاجانب واسس حكمائهم وتغلب عليهم.

وهو الذي تحدى فلاسفة اوروبا استناداً الى ما استلهمه من القرآن الكريم من قوة المعرفة والعلم.

وهو الذي دعا العلماء واهل المدارس الحديثة في استانبول – قبل اعلان الحرية بستة شهور – الى المناظرة والمناقشة، والاجابة عن اسئلتهم دون ان يسأل احداً شيئاً. فاجاب عن جميع استفساراتهم اجابة شافية صائبة (١).

وهو الذي وقف حياته لإسعاد هذه الامة. فنشر مئات الرسائل بلغتها، اللغة التركية، ونورّهم بها.

---

(١) يقول سعيد الجديد: انا لا اشارك سعيداً القديم في اقواله هذه التي يقولها في هذا المقام مفتخراً. بيد أني لا استطيع أن اسكته لاني قد اعطيته حق الكلام في هذه الرسالة. بل اوثر جانب الصمت نحوه كي يبدي شيئاً من فخره امام المتكبرين. - المؤلف.

هذا الذي قام بهذه الاعمال، وهو ابنُ هذا الوطن، والصديق لأهله، والاخ في الدين، قابله قسم من المنسوبين الى العلم والمعرفة مع عدد من علماء الدين الرسميين بالاضطهاد واضمار العداء نحوه، بل اهين.

فتعال، وتأمل هذه الحالة! ماذا تسميها؟

أهي مدنية وحضارة؟ أم هي محبة للعلم والمعرفة؟ أم هي وطنية؟ أم هي قومية؟ أم هي دعوة الى التمسك باهداف الجمهورية؟..

حاش لله وكلا لاشئ من هذا قط!

بل هي قدر إلهي عادل أظهر من اهل العلم العداء لذلك الشخص فيما كان يتوقع الصداقة منهم لكيلا يدخل في علمه الرياء بسبب توقع الاحترام، وليفوز بالاخلاص.

الخاتمة

اعتداء محيّر لي يوجب الشكران!

ان اهل الدنيا المتكبرين المغرورين غروراً فوق المعتاد، لهم حساسية شديدة في معرفة الانانية والغرور، بحيث لو كانت تلك المعاملة بشعور منهم لكانت تعدّ كرامة او دهاء عظيماً. وهي كالآتي:

ان مالا تشعر به نفسي وعقلي من حالة غرور جزئية متلبسة بالرياء، كأنهم يشعرون بها بميزان غرورهم وتكبرهم الحساس فيجابهون غروري الذي لا اشعر به.

ففي غضون هذه السنين التسع تقريباً لي ما يقارب التسع من التجارب، حتى انني عقب معاملتهم الجائرة نحوي، كنت افكر في القدر الإلهي واقول: لماذا سلّط القدر الإلهي هؤلاء عليّ؟ فاتحرى بهذا السؤال عن دسائس نفسي.

ففي كل مرة، كنت افهم: ان نفسي، إما انها مالت فطرياً الى الغرور والتكبر من غير شعور مني. او انها غرّتني على علم.

فكنت اقول حينذاك: ان القدر الإلهي قد عدل في حقي من خلال ظلم اولئك الظالمين. فمنها:

في هذا الصيف، اركبني اصدقائي حصاناً جميلاً، فذهبت به الى متنزه، وما ان تنبهت رغبة في نفسي نحو اذواق دنيوية مشوبة بالغرور من غير شعور مني حتى تعرّض اهل الدنيا لتلك الرغبة بشدة بحيث قطعوا دابرها بل دابر كثير من رغبات اخرى في النفس.

وفي هذه المرة، بعد شهر رمضان المبارك وفي جو من اخلاص الاخوة الكرام وتقواهم واحترام الزائرين وحسن ظنهم، عقب الالتفات الذي اولاه إمام عظيم سامٍ من السابقين نحونا بكرامة غيبية، رغبت نفسي في ان تتقلد – دون شعور مني – حالة غرور ممزوج بالرياء، فأبدت رغبَتها مفتخرة تحت ستار الشكر، وفي هذه الاثناء تعرّض ليَ فجأة اهل الدنيا بحساسية شديدة، حتى كأنها تتحسس ذرات الرياء.

فالى المولى القدير ابتهل شاكراً لأنعمه، إذ اصبح ظلم هؤلاء وسيلة للاخلاص.

﴿ وقُل ربِ أعوذُ بكَ من هَمزاتِ الشياطين ۞ وأعوذُ بك ربِ أن يحضُرون ﴾

اللّهم يا حافظ ياحفيظ يا خير الحَافظين، احفظني واحفظ رفقائي من شر النفس والشيطان ومن شر الجن والانسان ومن شر اهل الضلالة واهل الطغيان. آمين.. آمين.. آمين.

﴿ سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا إلا ما عَلمتنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

اللمعة الثالثة والعشرون

« رسالة الطبيعة »

كانت هذه الرسالة هي المذكّرة السادسة عشرة من اللمعة السابعة عشرة الاّ أن اهميتها الفائقة جعلتها «اللمعة الثالثة والعشرين» فهي تُبيد تيار الكفر النابع من مفهوم «الطبيعة» إبادة تامة وتُفتّت حجر زاوية الكفر وتحطّم ركيزته الاساس.

تنبيه

لقد بيَّنت هذه المذكرة ماهية المذهب الذي يسلكه الجاحدون من الطبيعيين، واوضحت مدى بُعد مسلكهم عن موازين العقل، ومدى سماجته وخرافيته، وذلك من خلال تسعة محالات مستخلصة من تسعين محالاً في الاقل، ولما كان قسم من تلك المحالات قدوضّح في رسائل اخرى فقد جاء هنا مدرجاً ضمن محالات اخرى، او جاء مختصراً بعضَ الشئ.

والسؤال الذي يرد للخاطر هو:

كيف ارتضى فلاسفة مشهورون وعلماء معروفون بهذه الخرافة الفاضحة وسلّموا لها زمام عقولهم؟!

والجواب: ان اولئك لم يتبينوا حقيقة مسلكهم [1]، ولا باطن مذهبهم، ولم يدركوا ما يقتضيه مسلكهم من «محالات» وما يستلزمه مذهبهم من امور فاسدة وممتنعة عقلاً، والتي ذكرت في بداية كل محال يرد في هذه الرسالة.

وانا على استعداد كامل لإقامة البراهين الدامغة ونصب الحجج البديهية الواضحة لإثبات ذلك لكل مَن يساوره الشك، وابينها لهم باسهاب وتفصيل.

---

(١) ان الداعي الاشد الحاحاً الى تأليف هذه الرسالة هو ما لمسته من هجوم صارخ على القرآن الكريم، والتجاوز الشنيع على الحقائق الايمانية بتزييفها، وربط اواصر الالحاد بالطبيعة، والصاق نعت «الخرافة» على كل مالا تدركه عقولهم القاصرة العفنة... وقد اثار هذا الهجوم غيظاً شديداً في القلب ففجر فيه حمماً سرت الى اسلوب الرسالة، فانزلت هذه الحمم والصفعات على اولئك الملحدين وذوي المذاهب الباطلة المعرضين عن الحق، والاّ فليس من دأب «رسائل النور» الاّ القول الليّن في الخطاب والرفق في الكلام. ـ المؤلف.

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ قَالَتْ رُسُلُهم أفي اللهِ شكٌّ فاطرِ السَمواتِ والارض ﴾ (ابراهيم: ١٠).

هذه الآية الكريمة بما فيها من استفهام إنكاري تدل دلالة قاطعة على وجود الله ووحدانيته بوضوح وجلاء بدرجة البداهة.

وقبل ان نوضح هذا السرّ نودّ ان ننبه الى ما يأتي:

دعيتُ لزيارة «انقرة» سنة ١٣٣٨(١٩٢٢م) وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان امام الجيش الاسلامي، الاّ أنني ابصرتُ – خلال موجة الفرح هذه – زندقة رهيبة تدب بخبث ومكر، وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة الى عقائد اهل الايمان الراسخة بغية افسادها وتسميمها.. فتأسفتُ من اعماق روحي، وصرختُ مستغيثاً بالله العلي القدير ومعتصماً بسور هذه الآية الكريمة، من هذا الغول الرهيب الذي يريد ان يتعرض لأركان الايمان، فكتبت برهاناً قوياً حاداً يقطع رأس تلك الزندقة، في رسالة باللغة العربية واستقيت معانيها وافكارها من نور هذه الآية الكريمة لاثبات بداهة وجود الله سبحانه ووضوح وحدانيته، وقد طبعتها في مطبعة«يَني كَون» في انقرة.. الاّ انني لم ألمس آثار البرهان الرصين في مقاومة الزندقة وإيقاف زحفها الى أذهان الناس. وسبب ذلك كونه مختصراً ومجملاً جداً، فضلاً عن قلة الذين يُتقنون العربية في تركيا وندرة المهتمين بها آنذاك، لذا فقد انتشرت اوهام ذلك الالحاد واستشرت في صفوف الناس مع الاسف الشديد، مما اضطرني الى اعادة كتابة تلك الرسالة ببراهينها بالتركية، مع شئ من البيان والتوضيح فكانت هذه الرسالة.

ولما كان بعض اقسام تلك البراهين قد وضحت توضيحاً كافياً في بعض «رسائل النور» فسنذكرها هنا مجملة، كما ان البعض من البراهين الاخرى المبثوثة في ثنايا رسائل اخرى تبدو مندرجة في هذه الرسالة، وكأن كل برهان منها جزء من هذه الرسالة.

المقدمة

أيها الانسان!

اعلم ان هناك كلمات رهيبة تفوح منها رائحة الكفر النتنة، تخرج من افواه الناس، وترددها ألسنة اهل الايمان دون علمهم بخطورة معنى ما يقولون، وسنبين ثلاثاً منها هي الغاية في الخطورة:

اولاها: قولهم عن الشئ: «أوجدته الاسباب» اي أن الاسباب هي التي توجد الشئ المعين.

ثانيها: قولهم عن الشئ: «تشكّل بنفسه» اي أن الشئ يتشكل من تلقاء نفسه، ويوجِد نفسَهُ، بنفسه، وينتهي الى صورته التي انتهى اليها كما هي.

ثالثها: قولهم عن الشئ: «اقتضته الطبيعة» اي أن الشئ طبيعي، والطبيعة هي التي اوجدته واقتضته.

نعم! مادامت الموجودات موجودة وقائمة امامنا بما لا يمكن إنكارها مطلقاً، وان كل موجود يأتي الى الوجود في غاية الاتقان والحكمة، وهو ليس بقديم أزلي، بل هو محدث جديد.

فيا ايها الملحد! إما انك تقول ان هذا الموجود - وليكن هذا الحيوان مثلاً - توجده أسبابُ العالم، اي أنه يكتسب الوجود نتيجة اجتماع الاسباب المادية، او أنه تشكل بنفسه، او أنه يرد الى الوجود بمقتضى الطبيعة ويظهر بتأثيرها! او عليك ان تقول:

ان قدرة الخالق القدير ذي الجلال هي التي توجده.

لأنه لاسبيل الى حدوثه غير هذه الطرق الاربعة، حسب موازين العقل، فاذا ما أثبت - اثباتاً قاطعاً - ان الطرق الثلاثة الاولى محالة، باطلة ممتنعة، غير ممكنة، فبالضرورة والبداهة يثبت الطريق الرابع، وهو طريق وحدانية الخالق بيقين جازم لاريب فيه.

■ *اما الطريق الاول:*

وهو القول بأن: «اجتماع اسباب العالم يخلق الموجودات ويوجدها، ويؤدي الى تشكيل الاشياء» نذكر منه ثلاثة محالات فقط، من بين محالاته الكثيرة جداً.

*** المحال الاول:**

ولنوضحه بهذا المثال: تحوي الصيدلية مئات الدوارق والقناني المملوءة بموادٍّ كيمياوية متنوعة، وقد احتجنا - لسبب ما - الى معجون حيوي من تلك الادوية والمواد لتركيب مادة حيوية خارقة مضادة للسموم.. فلما دخلنا الصيدلية وجدنا فيها اعداداً هائلة من انواع ذلك المعجون الحيوي، ومن تلك المادة الحيوية المضادة للسموم، وعندما بدأنا بتحليل كل معجون رأيناه مركباً مستحضراً بدقة متناهية من موادٍّ مختلفة طبق موازين محسوبة، فقد اخذ من تلك القناني: درهم (غرام واحد) من هذه.. وثلاثة غرامات من تلك.. وعشرة غرامات من الاخرى.. وهكذا فقد أُخِذَ من كل منها مقادير مختلفة، بحيث لو كان ما أُخِذَ من هذه المقادير اقل منها بجزء من الغرام، او ازيد، لفقد المعجون خواصه الحيوية...

والآن جئنا الى «المادة الحيوية المضادة للسموم» ودققنا فيها نظراً كيمياوياً، فرأيناها قد ركبت بمقادير معينة أُخذت من تلك القناني على وفْق موازين حساسة بحيث أنها تفقد خاصيتها لو غلطنا في الحساب فزادت المواد المركبة منها او نقصت بمقدار ذرة واحدة. نخلص من هذا:

ان المواد المتنوعة قد استحضرت بمقادير مختلفة، على وفق موازين دقيقة. فهل يمكن او يُعقل ان يتكون ذلك المعجون المحسوب كل جزء من اجزائه حساباً دقيقاً من جرّاء مصادفة غريبة، او من نتيجة تصادم القناني بحدوث زلزالٍ عاصف في الصيدلية يؤدي الى سيلان تلك المقادير بموازينها المعينة، واتحادها بعضها بالبعض الآخر مكوناً معجوناً حيوياً؟!. فهل هناك محال أغرب من هذا واكثر بعداً عن العقل والمنطق؟! وهل هناك خرافة اخرق منها؟! وهل هناك باطل اوضح بطلاناً من هذا؟! والحمار نفسه لو تضاعفت حماقته ونطق لقال: يا لحماقة من يقول بهذا القول!.

وفي ضوء هذا المثال نقول:

ان كل كائن حي هو مركب حيوي، ومعجون ذو حياة. وان كل نبات شبيه بترياق حيوي مضاد للسموم إذ ركّب من اجزاء مختلفة ومن مواد متباينة، على وفق موازين دقيقة في منتهى الحساسية.. فلا ريب ان اسناد خلق هذا الكائن البديع الى الاسباب المادية والعناصر، والقول بان «الاسباب اوجدته» باطل ومحال وبعيد عن موازين العقل بمثل بُعدِ وبطلان ومحالية تكون المعجون الحيوي بنفسه من سيلان تلك المواد من القناني.

وحصيلة الذي قلناه آنفاً:

ان المواد الحيوية المستحضرة بميزان القضاء والقدر للحكيم العليم في هذا العالم الكبير الذي هو صيدلية ضخمة رائعة لا يمكن ان توجد الاّ بحكمة لا حدّ لها، وبعلم لانهاية له، وبارادة تشمل كل شئ وتحيط بكل شئ، والاّ فما أشقاه من يتوهم« ان هذه الموجودات هي نتاج عناصر الكون الكلية» وهي العمياء الصماء في جريانها وتدفقها، او هي «من شؤون طبائع المواد» او «من عمل الاسباب المادية»!.

لاشك ان صاحب هذا الوهم هو اشقى اشقياء العالم، واعظمهم حماقة، واشدّ هذياناً من هذيان مخمور فاقد للوعي عندما يخطر بباله ان ذلك الترياق العجيب قد أوّجد نفسه بنفسه من جراء تصادم القناني وسيلان ما فيها!

نعم، ان ذلك الكفر هذيان احمق وجنون سكران.

*** المحال الثاني:**

إن لم يُسند خلق كل شئ الى الواحد الاحد القدير ذي الجلال، وأُسند الى الاسباب المادية، يلزم عندئذ آن يكون لاغلب عناصر العالم واسبابه دخلٌ وتأثير في وجود كل ذي حياة.

والحال ان اجتماع الاسباب المتضادّة والمتباينة فيما بينها، بانتظام تام، وبميزان دقيق وباتفاق كامل في جسم مخلوق صغير - كالذباب مثلاً - هو محال ظاهر الى حد يرفضه مَن له عقل بمقدار جناح ذبابة، ويُردّه قائلاً: هذا محال.. هذا باطل.. هذا غير ممكن..!

ذلك لان جسم الذباب الصغير ذو علاقة مع اغلب عناصر الكائنات، ومع مظاهرها واسبابها المادية، بل هو خلاصة مستخلصة منها، فان لم يُسند ايجادُه الى القدرة الإلهية المطلقة، يلزم ان تكون تلك الاسباب المادية حاضرة ومحتشدة جَنبَ ذلك الجسم مباشرة عند ايجاده، بل يلزم ان تدخل في جسمه الضئيل، بل يجب دخولها في حجيرة العين التي تمثل نموذج الجسم، ذلك لان الاسباب ان كانت مادية يلزم ان تكون قرب المسبَّب وداخلة فيه، وعندئذٍ يقتضي قبول دخول جميع العناصر في جميع اركان العالم مع طبائعها المتباينة في ذلك المسبَّب دخولاً مادياً، وعملها في تلك الحجيرة المتناهية في الصغر بمهارة واتقان! أفلا يخجل ويستحي من هذا القول حتى اشد السوفسطائيين بلاهةً؟

* المحال الثالث:

ان الموجود إن كانت له وحدة واحدة، فلابدّ ان يكون صادراً من مؤثر واحد، ومن يدٍ واحدة، حسب مضمون القاعدة البديهية المقررة: (الواحد لا يصدر الاّ عن الواحد). فإن كان ذلك الموجود في غاية الانتظام والميزان، وفي منتهى الدقة والاتقان، وكان مالكاً لحياة جامعة، فمن البداهة انه لم يصدر من أيد متعددة قط – التي هي مدعاة الاختلاف والمنازعة – بل لابد أنه صادر من يد واحدة لواحد أحد قدير حكيم؛ لذا فان اسناد الموجود، المنتظم، المتناسق، الموزون، الواحد، الى ايدي الاسباب الطبيعية العمياء الصمّاء الجامدة غير المنضبطة، والتي لاشعور لها ولاعقل، وهي في اختلاط شديد يزيد من عماها وصممها، ثم الادعاء بأن تلك الاسباب هي التي تقوم بخلق ذلك الموجود البديع واختياره من بين امكانات واحتمالات لا حدّ لها، اقول ان قبول هذا الاسناد والادعاء هو – في الحقيقة – قبول لمائة محال ومحال، اذ هو بعيد كل البعد عن جميع مقاييس العقل وموازينه..

دعنا نترك هذا المحال ونتجاوزه مؤقتاً، لننظر الى تأثير «الاسباب المادية» الذي يتم بالتماس والمباشرة. فبينما نرى ان تماس تلك الاسباب الطبيعية هو تماس بظاهر الكائن الحي فحسب، ونرى ان باطن ذلك الكائن الذي لاتصل اليه ايدي تلك الاسباب المادية ولا يمكنها ان تمسّه بشيء، هو ادق نظاماً، واكثر انسجاماً، من الظاهر، بل

ألطف منه خلقاً واكمل اتقاناً. بل الاحياء الصغيرة والمخلوقات الدقيقة التي لايمكن ان تستوعب تلك الاسباب المادية قطعاً ولاتصل اليها ايديها ولا وسائلها هي اعجب إتقاناً من اضخم المخلوقات وابدع خلقاً منها.

فلا يكون إذن اسناد خلقها الى تلك الاسباب العمياء الصماء الجامدة الجاهلة الغليظة المتباعدة المتضادّة الأعمى ما بعدها عمى، وصمم ليس وراءه صمم.

■ *اما المسألة الثانية:*

وهي قولهم عن الشئ: «تشكّل بنفسه». فهي تنطوي على محالات كثيرة، ويتضح بطلانها ومحاليتها من نواحٍ كثيرة جداً الاّ اننا نتناول هنا ثلاثة محالات منها كنماذج ليس الاّ:

● **المحال الاول:**

ايها الجاحد العنيد! ان طغيان غرورك،جعلك تتردى في احضان حماقة متناهية، فتقدم على قبول مائة محال ومحال!

انك ايها الجاحد العنيد موجود بلا شك، وانك لست من مادة بسيطة وجامدة تأبى التغير، بل انت معمل عظيم متقن الصنع، اجهزته دائمة التجدد. وانت كالقصر المنيف، انحاؤه دائمة التحول.. فذرات وجودك انت تعمل دوماً وتسعى دون توقف، وترتبط بوشائج واواصر مع مظاهر الوجود في الكون من حولك، فهي في اخذ وعطاء مع الكائنات، وبخاصة من حيث الرزق، ومن حيث بقاء النوع.

ان الذرات العاملة في جسدك تحتاط من ان تخل بتلك الروابط، وتتحاشى ان تنفصم تلك العلاقات، فهي حذرة في تصرفها هذا، وتتخذ موقفاً ملائماً لها على وفق تلك العلاقات كأنها تنظر الى جميع الكائنات وتشاهدها، ثم تراقب موقعك انت منها، وانت بدورك تستفيد حسب ذلك الوضع الخارق لتلك الذرات وتنتفع وتتمتع بمشاعرك وحواسك الظاهرة والباطنة.

فان لم تعتقد ان تلك الذرات موظفات صغيرات لدى القدير الازلي، ومأمورات مسخرات منقادات لقوانينه سبحانه، او هي جنود مجندة في جيشه المنظم، او هي

نهايات قلم القدر الإلهي، او هي نقاط ينقطها قلم القدرة الإلهية.. لزمك ان تقول ان لكل ذرة عاملة – في عينك مثلاً – عيناً واسعة بصيرة، ترى جميع اجزاء جسدك ونواحيه، وتشاهد جميع الكائنات التي ترتبط بها، وتعلم جميع ماضيك ومستقبلك، وتعرف اصلك وآباءك واجدادك مع نسلك واحفادك وتدرك منابع عناصرك، وكنوز رزقك.. فهي اذن ذات عقل جبار!!

فيا معطل عقله في مثل هذه المسائل! أليس في اسناد هذا العلم والشعور والعقل الذي يسع ألفاً من مثل «افلاطون» الى ذرة في عقل مَن لايملكه مثلك، خرافة خرقاء، وبلاهة بلهاء؟!.

- **المحال الثاني:**

ان جسمك ايها الانسان يشبه قصراً فخماً عامراً، له من القباب الف قبة وقبة، وكل قبة من قبابه معلقة فيها الاحجار، ومرصوصة بعضها الى البعض الآخر في بناء محكم دون عمد. بل ان وجودك – لو فكرت – هو اعجب من هذا القصر بالوف المرات، لان قصر جسمك انت في تجدد مستمر يبلغ الكمال في الانتظام والروعة.

فلو صرفنا النظر عما تحمله من روح ومن قلب ومن لطائف معنوية وهي معجزة بذاتها، واخذنا بنظر الاعتبار والتفكر عضواً واحداً فقط من اي عضو كان من بين اعضاء جسدك نراه شبيهاً بمنزلٍ ذي قباب. فالذرات التي فيه قد تعاونت وتعانقت بعضها مع البعض الآخر، في انتظام تام، وموازنة كاملة – كالاحجار في تلك القباب – وكونت بناءً خارقاً، وصنعة رائعة بديعة، فاظهرت للعيان معجزة عجيبة من معجزات القدرة الإلهية «كالعين واللسان» مثلاً.

فلو لم تكن هذه الذرات مأمورة منقادة لامر الصانع القدير، فان كل ذرة منها اذن لابد ان تكون حاكمة حكماً مطلقاً على بقية ذرات الجسد ومحكومة لها حكماً مطلقاً كذلك، وان تكون مثل كلٍ منها، وضدّ كل منها – من حيث الحاكمية – في الوقت نفسه! وان تكون مناط اغلب الصفات الجليلة التي لا يتصف بها الاّ الله سبحانه وتعالى، وان تكون مقيدة كلياً، وطليقة كلياً في الوقت نفسه...!

فالمصنوع الواحد المنتظم والمنسق الذي لا يمكن ان يكون – بسر الوحدانية – الاّ أثراً من آثار الواحد الاحد محال ان يسند الى تلك الذرات غير المحدودة بل هو مائة محال في محال...! يدرك ذلك كل من له مسكة من عقل!

● **المحال الثالث:**

ان لم يكن وجودك هذا قد كتب بقلم الواحد الاحد القدير الأزلي، وكان مطبوعاً بمطابع الطبيعة والاسباب، فيلزم عندئذٍ وجود قوالب طبيعية بعدد الوفٍ الالوف من المركبات المنتظمة العاملة في جسمك، والتي لا يحصرها العد، ابتداءً من اصغر الخلايا العاملة بدقة متناهية وانتهاءً بأوسع الاجهزة العاملة فيه.

ولفهم هذا المحال نأخذ الكتاب الذي بين ايدينا مثالاً، فنقول:

إن اعتقدت ان هذا الكتاب مستنسخ باليد، فيكفي اذن لاستنساخه قلم واحد، يحركه علمُ كاتبه ليدوّن به ما يشاء، ولكن إن لم يعتقد انه مستنسخ باليد ولم يسند الى قلم الكاتب، وافترض انه قد تشكّل بنفسه، او اسندت كتابته الى الطبيعة، فيلزم عندئذ ان يكون لكل حرف من حروفه قلم معدني خاص به، ويكون عدد الاقلام بعدد تلك الحروف – بمثل وجود الحروف المعدنية في المطبعة والتي هي بعدد الحروف وانماطها – اي يلزم وجود اقلام بعدد الحروف بدلاً من قلم واحد للاستنساخ، وقد يكون هناك في تلك الحروف، حروفٌ كبيرة مكتوب فيها بخط دقيق ما في صحيفة كاملة، فيلزم اذن لكتابة مثل هذه الحروف الكبيرة الوف الاقلام الدقيقة!

والان ماذا تقول لو كانت تلك الحروف متداخلة بعضها بالبعض الآخر بانتظام كامل متخذةً هيأة جسدك وشكله؟! فيلزم عندئذ ان يكون لكل جزء من اجزاء كل دائرة من دوائره المذكورة قوالب عديدة بعدد تلك المركبات التي لا يحصرها العدّ!

هَبْ انك تقول لهذه الحالة المتضمنة لمائة محال في محال، انها ممكنة الحدوث! فحتى في هذه الحالة – على فرض إمكانها – افلا يلزم لصنع تلك الاقلام وعمل تلك القوالب والحروف المعدنية اقلاماً وقوالب وحروفاً بعددها لتصبّ وتسكب فيها إنْ لم يُسند صنعها جميعاً الى قلم واحد؟ ذلك لان جميعها مصنوعة ومحدثة منتظمة، ومفتقرة الى صانع ليصنعها، ومحدثٍ ليحدثها، وهكذا الامر يتسلسل كلما اوغلت

فيه. فافهم من هذا مدى سقم هذا الفكر الذي يتضمن محالات وخرافات بعدد ذرات جسمك!

فيا ايها الجاحد... عُد الى عقلك وانبذ هذه الضلالة المشينة!

■ *الكلمة الثالثة:*

والتي هي قولهم عن الشئ: «اقتضته الطبيعة». فهذا الحكم له محالات كثيرة جداً، نذكر ثلاثة منها على سبيل المثال:

○ **المحال الاول:**

ان الاتقان والايجاد المتَّسمَين بالبصيرة والحكمة الظاهرين في الموجودات ظهوراً جلياً، ولا سيما في الاحياء، إن لم يُسندا الى قلم «القدر الإلهي» والى قدرته المطلقة، واسندا الى «الطبيعة» العمياء الصماء الجاهلة والى «القوة» يلزم ان توجد الطبيعة – من اجل الخلق – مطابع ومكائن معنوية لا حد لها في كل شئ او تدرج في كل شئ قدرة قادرة على خلق الكون كله، وحكمة مدبرة لادارة شؤونه كلها.

مثال ذلك:

ان تجليات الشمس وانعكاساتها الضوئية، وبريق لمعانها المشاهد على قطرات الماء الرقراقة المتلألئة، او على القطع الزجاجية المتناثرة هنا وهناك على سطح الارض، مما يخيل للناظر السطحي النظر انها صورٌ لشميسات مثالية. فان لم تنسب هذه الانعكاسات واللمعات الى الشمس الحقيقية التي تطالعنا بشعاعها الغامر يلزم الاعتقاد بشمس طبيعية فطرية صغيرة ظاهرية تملك صفات الشمس نفسها وتتصف بخصائصها، موجودة وجوداً فعلياً في تلك القطعة الزجاجية الصغيرة – التي لا تسع لأدنى شئ – اي يلزم الاعتقاد بوجود شموس بعدد ذرات القطع الزجاجية.

وفي ضوء هذا المثال نقول:

ان لم يُسند خلق الموجودات والاحياء اسناداً مباشراً الى تجليات اسماء الله الحسنى الذي هو نور السموات والارض يلزم الاعتقاد اذن بوجود طبيعة وقوة تملكان قدرة مطلقة وارادة مطلقة مع علم مطلق وحكمة مطلقة في كل موجود من الموجودات، ولاسيما الاحياء، اي يلزم قبول ألوهية وربوبية في كل موجود!

فهذا النمط من التفكير المعوج لهو اشد بطلاناً من اي محال آخر، واكثر خرافة منه، فالذي يُسند ما ابدعه الخالق العظيم من صنعة رائعة دقيقة، ظاهرة جلية حتى في اصغر مخلوق الى يد الطبيعة الموهومة، التافهة التي لا تملك شعوراً لاشك انه يتردى بفكره الى درك أضلّ من الحيوان.

○ **المحال الثاني:**

ان هذه الموجودات التي هي في غاية الانتظام، وفي منتهى الروعة والميزان، وفي تمام الاتقان، وكمال الحكمة والاتّزان؛ ان لم تسند الى من هو قدير مطلق القدرة، وحكيم مطلق الحكمة، واسندت الى الطبيعة، يلزم الطبيعة ان تحضر في كل حفنة تراب، معامل ومطابع بعدد معامل اوربا ومطابعها، كي تتمكن تلك الحفنة من ان تكون منشأ الازهار والاثمار الجميلة اللطيفة؛ لأن تلك الحفنة من التراب التي تقوم بمهمة مشتل صغير للازهار تظهر قابلية فعلية لاستنبات وتصوير ما يلقى فيها بالتناوب من بذور جميع ازهار العالم وثماره، وبأشكالها، وهيئاتها المتنوعة، والوانها الزاهية. فإن لم تسند هذه القابلية الى قدرة الفاطر الجليل القادر على كل شئ.. فلابد اذن ان توجد في تلك الحفنة ماكنة معنوية طبيعية خاصة لكل زهرة من ازهار العالم والاّ لا يمكن ان يظهر ما نشاهده من انواع الازهار والثمار الى الوجود! اذ البذور - كالنطف والبيوض ايضاً - موادها متشابهة اختلط وعجن بعضها ببعض بلا شكل معين وهي مولد الماء ومولد الحموضة والكربون والآزوت: علماً ان كلاً من الهواء والماء والحرارة والضوء اشياء بسيطة لا تملك عقلاً او شعوراً، وهي تتدفق كالسيل في كل شئ دونما ضابط. فتشكيل تلك الازهار التي لا تحد من تلك الحفنة من التراب بصورها المتنوعة البديعة واشكالها المختلفة الزاهية وبهيئاتها المتباينة الرائعة وهي في منتهى الانتظام والاتقان تقتضي بالبداهة وبالضرورة ان توجد في تلك الحفنة من التراب مصانع ومطابع معنوية بمقاييس صغيرة جداً اكثر مما في اوروبا من مصانع ومطابع، كي تتمكن ان تنسج تلك المنسوجات الحية التي لا تعد، وتطرز تلك النقوش الزاهية المتنوعة التي لاتحصى!

فيا لبعد ما يحمله الطبيعيون من فكر إلحادي عن جادة العقل السليم! اعلم هذا، وقس مدى بُعد اولئك الذين يدّعون انهم عقلاء وعلميون عن موازين العقل والعلم

بتوهمهم ان الطبيعة موجدةٌ للاشياء.. اولئك الذين اتخذوا خرافة ممتنعة وغير ممكنة اطلاقاً، مسلكاً لهم، فاسخر منهم، واحتقرهم.

ولسائل ان يسأل:

صحيح ان محالات كثيرة، ومعضلات عظيمة تنجم عندما يُسند خلق الموجودات الى الطبيعة، ولكن كيف تزول هذه المشكلات، وتنحل هذه المعضلات عندما نسند عملية الخلق برمتها الى الواحد الاحد الفرد الصمد؟ وكيف ينقلب ذلك الامتناع الصعب الى الوجوب السهل؟

الجواب: ان تجليات الشمس وانعكاساتها - كما ذُكرَ في المحال الاول - أظهرت نفسها بكل سهولة، ومن دون تكلف او صعوبة في جميع المواد ابتداءً من الجامد الصغير المتناهي في الصغر - كقطع الزجاج - الى اوسع السطوح للبحار والمحيطات، فأظهرت على الكل فيضها وأثرها في منتهى السهولة، وكأن كلاً منها شميسات مثالية. فلو قُطعت نسبة تلك الانعكاسات الى الشمس الحقيقية، فلا بد من الاعتقاد بوجود شمس طبيعية في كل ذرة من الذرات وجوداً ذاتياً خارجياً. وهذا ما لا يقبله عقل، بل هو ممتنع ومحال.

فكما ان الامر في المثال هو هكذا، كذلك اسناد خلق كل موجود اسناداً مباشراً الى الواحد الاحد الفرد الصمد فيه من السهولة المتناهية بدرجة الوجوب، اذ يمكن ايصال مايلزم ايّ موجود اليه، بكل سهولة ويسر، وذلك بالانتساب وبالتجلي. بينما اذا ما قطع ذلك الانتساب، وانقلب الاستخدام والتوظيف والطاعة الى الانفلات من الاوامر والعصيان، وترك كل موجود طليقاً يسرح كيفما يشاء، او اسند الامر الى الطبيعة، فستظهر مئات الالوف من المشكلات والمعضلات بدرجة الامتناع، حتى نرى ان خلق ذبابة صغيرة يقتضي ان تكون الطبيعة العمياء التي فيها مالكة لقدرة مطلقة تتمكن بها من خلق الكون كله، وان تكون - مع ذلك - ذات حكمة بالغة تتمكن بها من ادارته، حيث ان الذبابة - رغم صغرها - بديعة الصنع، تنطوي على أغلب مكونات الكائنات وكأنها فهرس مختصر لها..

وهذا ليس بمحال واحد فحسب بل الف محال ومحال..!

الخلاصة:

كما انه محالٌ وممتنعٌ وجود نظير او شريك لله سبحانه وتعالى في ألوهيته، كذلك ممتنع ومحال مثله ان تكون هناك مداخلة من غيره في ربوبيته، او مشاركة له من احد في ايجاده الاشياء وخلقها..

أما المشكلات التي في «المحال الثاني» التي اثبتناها في عديد من الرسائل؛ فهي: انه اذا ما نُسِبَ خلق جميع الاشياء الى الواحد الاحد، يسهل ذلك الخلق كما يسهل خلق شئ واحد. بينما اذا ما نُسِبَ الخلق الى الاسباب والى الطبيعة يصبح خلق الشئ الواحد وايجاده مشكلاً وصَعباً، كخلق الجميع. وحيث اننا سبق ان اثبتنا هذا ببراهين دامغة، نورد هنا ملخص برهان واحد فقط:

اذا انتسب احدٌ الى السلطان بالجندية او بالوظيفة الحكومية، فانه يتمكن ان ينجز من الامور والاعمال اضعاف اضعاف ما يمكنه انجازه بقدرته الشخصية، وذلك بقوة ذلك الانتساب السلطاني. فمثلاً يستطيع ان يأسر قائداً كبيراً باسم سلطانه، مع انه جندي. حيث تحمل خزائن السلطان وقطعات الجيش الاجهزة والاعتدة لما يقوم به من اعمال، فلا يحملها هو وحده، كما انه ليس مضطراً الى حملها. كل ذلك بفضل إنتسابه الى السلطان، لذا تظهر منه اعمالٌ خارقة كأنها اعمال سلطان عظيم، وتبدو له آثار — فوق ماتبدو منه عادةً — وكأنها آثار جيش كبير رغم انه فرد. فالنملة — من حيث تلك الوظيفة — تتمكن من تدمير قصر فرعون طاغٍ، والبعوضة تستطيع ان تهلك نمروداً جبارا بقوة ذلك الانتساب.. والبذرة الصغيرة للصنوبر الشبيهة بحبة الحنطة تنشئ بذلك الانتساب جميع اجهزة شجرة الصنوبر الضخمة(١). فلو انقطع ذلك

(١) نعم، اذا حصل الانتساب، فان تلك البذرة تتسلم امراً من القدر الإلهي، وتنال شرف النهوض بتلك الاعمال الخارقة، ولكن اذا انقطع ذلك الانتساب فان خلق تلك البذرة يقتضي اجهزة وقدرة ومهارة هي اكثر بكثير مما يحتاج خلق شجرة الصنوبر الضخمة، وذلك لان جميع اعضاء شجرة الصنوبر التي تكسو الجبال وتضفي عليها الجمال والروعة والتي تمثل اثراً مجسماً واضحاً للقدرة الإلهية،يلزم ان تكون موجودة في الشجرة المعنوية التي هي اثر القدر والمندمجة في تلك البذرة، لان مصنع تلك الشجرة الضخمة يكمن في تلك البذرة، وان ما في تلك البذرة من شجرة قدرية تتظاهر بالقدرة الإلهية في الخارج - خارج البذرة - وتتشكل شجرة صنوبر مجسمة. - المؤلف.

الانتساب، واعفي الموجود من تلك الوظيفة، فعليه ان يحمل على كتفه قوة ما ينجزه من اعمال وينوء كاهله بلوازمها ومعداتها. وبذلك لا يمكنه القيام بأعمال سوى اعمال تتناسب مع تلك القوة الضئيلة المحدودة المحمولة على ذراعه، بما يناسب كمية المعدات واللوازم البسيطة التي يحملها على ظهره، فلو طلب منه ان يقوم بأعمال كان يقوم بها بسهولة ويسر في الحالة الاولى لأظهر عجزه، الاّ اذا استطاع ان يُحمّل ذراعه قوة جيش كامل، ويردف على ظهره معامل اعتدة الدولة الحربية!!

إن صاحب هذا الخيال السابح في فضاء الوهم والخرافة يتوارى خجلاً مما يقول.

نخلص من كل ما تقدم الى ان تسليم أمر كل موجود وتنسيبه الى واجب الوجود سبحانه فيه السهولة التامة بدرجة الوجوب.

اما اسناد ايجاده الى الطبيعة فهو معضل الى حد الامتناع وخارج عن دائرة العقل.

○ المحال الثالث:

نوضح هذا المحال بمثالين قد بيّناهما في بعض الرسائل؛ هما:

المثال الاول:

يدخل انسان بدائي ساذج التفكير، لم يكن يملك ايّ تصور حضاري مسبقٍ؛ يدخل هذا الشخص قصراً فخماً بديعاً، يزهو بزينته، ويختال بأرقى ما وصلت اليه الحضارة من وسائل الابهّة والراحة، ويتلألأ بأضوائه في عتمة فلاةٍ خاليةٍ موحشة، فيدلف اليه، ويدور في ارجائه، فتشدهُه براعة بنائه، ونقوش جدرانه، وروعة إتقانه.. وبكل سذاجة تصوره وبلاهته يمنح القصر حياةً، ويعطيه قدرة تشييد نفسه بغرفه وابهائه، وصوره الجميلة، ونقوشه الاخّاذة، لا لشئ الاّ لكونه قاصراً عن تصور وجود احد – خارج هذا القصر – وفي هذه الفلاة يمكنه ان ينسب اليه بناء هذا القصر، لذا فقد طفق يتحرى عن «الباني» داخل القصر لعله يعثر عليه بين اشياء القصر، فما من شئ وقع عليه بصره الاّ وتردد فيه وشكّ في كونه قادراً على ايجاد مثل هذا القصر الذي يملأ اقطار النفس والعقل بروعة صنعه، وجمال بنائه. وتقوده قدماه الى زاوية من

زوايا القصر ويعثر فيها فجأةً على دفتر ملاحظات كان قد دونت فيه خطة مفصلة لعملية بناء القصر، وخُطّ فيه ايضاً فهرس موجوداته وقوانين ادارة ممتلكاته. ورغم ان ذلك الدفتر كمحتوياته، ليس من شأنه تشييد القصر وتزيينه، اذ لا يملك يداً يعمل بها، ولا بصيرةً يبصر بها، الاّ انه تعلق به اذ وجده متطابقاً بمحتوياته، مع مجاميع اشياء القصر، ومنسجماً مع سير العمل فيه – اذ هو عنوان قوانين الله العلمية – لذا قال مضطراً: «إن هذا الدفتر هو الذي شيّد هذا القصر ونظّمه وزينه، وهو الذي اوجد الاشياء فيه ورتبها هذا الترتيب ونسقها هذا التنسيق»... فكشف بهذا الكلام عن مدى عمق جهله، وتأصل حماقته.

وعلى غرار هذا المثال تماماً، يدلف الى قصر العالم العظيم – الذي هو ادق نظاماً واكمل إتقاناً، واجمل صنعاً، وازهى جمالاً، من ذلك القصر الصغير المحدود المذكور آنفاً في المثال، حيث لا يقبل المقايسة والموازنة معه، فكل ناحية من نواحيه تشع معجزاتٍ بديعةً وحكماً ساميةً – يدلف واحد ممّن يدينون بفكرة الطبيعة وينكرون عظمة الالوهية الى هذا القصر، واضعاً في ذهنه – مسبقاً – الإعراض عما هو مبثوث امامه من آثار صنعة الله سبحانه المنزه عن المخلوقات، المتعالي عن الممكنات.. ويبدأ بالبحث والتحري عن السبب «الموجد» ضمن الممكنات والمخلوقات! فيرى قوانين السنن الإلهية، وفهارس الصنعة الربانية. والتي يطلق عليها خطأ – وخطأ جسيماً – اسم الطبيعة التي يمكن ان تكون شبيهة بصفحة من كراسة «التغيير والتبديل» لقوانين اجراءات القدرة الإلهية، وبمثابة لوحة «المحو والاثبات» للقدر الإلهي، ولكنه ينبري الى القول:

مادامت هذه الاشياء مفتقرة الى علّةٍ موجدةٍ، ولا شئ اعظمُ ارتباطاً بها، من هذه «الكراسة» فاني أُخلصُ من ذلك الى ان هذه «الكراسة» – بما تتضمنه من قوانين المحو والاثبات – هي التي اوجدت الاشياء، مادام لا يطيبُ لي الاعتقاد والايمان بالصانع الجليل سبحانه. برغم ان العقل المنزه عن الهوى يرفض كلياً – ضمن منطقه – ان ينسب شؤون الربوبية المطلقة – والتي تقتضي قدرةً مطلقةً – الى هذه «الكراسة» العمياء الصماء العاجزة.

ونحن نقول:

يا أحمق من « هَبَنَّقة »![1].

أطلَّ برأسك من تحت مستنقع الطبيعة.. لترى الصانع الجليل الذي تشهد له جميع الموجودات، من الذرات الى المجرات، بألسنة متنوعة، وتشير اليه اشارات مختلفة.. وشاهد تجليات ذلك المصور الجليل الذي شيّد قصر العالم الباذخ، ودوّن خطته وبرنامجه وقوانينه في تلك الكراسة.. وانقذ نفسك من ذلك الهذيان الآثم الرخيص!

المثال الثاني:

يدخل انسانٌ معزولٌ عن عالم المدنية والحضارة، وسط معسكر مهيب، فيبهره ما يشاهد من تدريبات متنوعة يؤديها - بغاية الانتظام والاتقان ومنتهى الطاعة والانقياد - جنود هذا المعسكر، فيلاحظ حركاتهم المنسقة وكأنها حركة واحدة يتحرك الجميع - فوجاً ولواءً وفرقةً - بحركة فرد واحد منهم، ويسكن الجميع بسكونه، يطلق الجميع النار اطلاقاً واحداً إثر امر يصدره ذلك الفرد.. فحارَ في أمره، ولم يكن عقله الساذج ليدرك ان قيادة قائد عظيم هو الذي ينفذ اوامره بأنظمة الدولة واوامر السطان، فتخيل حبلاً يربط اولئك الجنود بعضهم بالبعض الآخر.. ثم بدأ يتأمل خيالاً، مدى اعجوبة هذا الحبل الموهوم. فزادت حيرته واشتدّ ارتباكه. ثم يمضي الى شأنه.

ويدخل جامع «أياصوفيا» العظيم، يوم الجمعة ويشاهد جموع المصلّين خلف رجل واحد يمتثلون لندائه في قيامهم وقعودهم وسجودهم وركوعهم، ولمّا لم يكن يعرف شيئاً عن الشريعة الإلهية، والدساتير المعنوية لأوامر صاحب الشريعة، فانه

---

(١) مثل يضرب لشدة الغباء والحماقة (جمهرة الامثال للعسكري ٣٨٥/١ والمستقصى للزمخشري ٨٥/١). - المترجم.

يتصور، بأن هذه الجماعة مرتبطة ببعضها البعض بحبال مادية، وان هذه الحبال قد قيدت حركة الجماعة واسرتهم، وهي التي تحركهم وتوقفهم عن الحركة.

وهكذا يمضي الى سبيله وقد امتلأ ذهنه بأخطاء تصوراته، التي تكاد تثير الهزء والسخرية حتى لدى أشد الناس وحشية وهمجية.

ففي ضوء هذا المثال:

يأتي ملحدٌ الى هذا العالم الذي هو معسكر مهيب رائع لجنود السلطان الجليل، وهو مسجد عظيم بارع يعظّم فيه ذلك المعبود الازلي ويقدّس؛ يأتيه وهو يحمل فكرة «الطبيعة» الجاحدة ذلك الجهل المطبق..

فيتصور «القوانين المعنوية» التي يشاهد آثارها في ربط انظمة الكون البديع، والنابعة من «الحكمة» البالغة للبارئ المصور سبحانه، يتصورها كأنها قوانين مادية، فيتعامل معها في ابحاثه كما يتعامل مع المواد، والاشياء الجامدة..

ويتخيل احكام قوانين الربوبية التي هي قوانين اعتبارية ودساتير الشريعة الفطرية الكونية للمعبود الازلي، والتي هي بمجموعها معنوية بحتة، وليس لها وجود سوى وجود علمي، يتخيلها وكأنها موجودات خارجية ومواد مادية..

ويقيم تلك القوانين الصادرة من العلم الإلهي والكلام الرباني التي لها وجود علمي فقط مقام القدرة الإلهية، ويملّكها الخلق والايجاد، ويطلق عليها اسم «الطبيعة»، متصوراً القوة التي هي تجلٍ من تجليات القدرة الربانية، انها صاحب قدرة فاعلة، وقديراً مستقلاً بذاته:

أفبعد هذا جهالة وغباء؟ أوَ ليس هذا جهلاً باضعاف اضعاف ما في المثال؟!

الخلاصة:

ان الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون ذلك الأمر الموهوم الذي ليس له حقيقة، إن كان ولابد أنها مالكة لوجود حقيقي خارجي فان هذا «الوجود» انما هو:

صنعة صانع ولن يكون صانعاً، وهو نقشٌ ولن يكون نقاشاً، ومجموعة احكام ولن يكون حاكماً، وشريعة فطرية ولن يكون شارعاً، وستار مخلوق للعزة، ولن يكون خالقاً، وفطرة منفعلة ولن يكون فاطراً فاعلاً، ومجموعة قوانين ولن يكون قادراً، ومِسطَر ولن يكون مصدراً

وحاصل الكلام:

مادامت الموجودات موجودةً فعلاً، والعقل يعجز عن تصور اكثر من اربعة طرق للوصول الى حدوث الموجود ـ كما ذكرنا ذلك في المقدمة ـ وقد اثبتَ إثباتاً قاطعاً بطلان ثلاثة من تلك الطرق الاربعة، وذلك ببيان ثلاثة محالات ظاهرة جلية في كل منها، فلابد وبالضرورة والبداهة ان يثبت بيقين لاسبيل مطلقاً الى الشك فيه الطريق الرابع، وهو طريق الوحدانية ذلك الطريق الذي تنيره الآية الكريمة: ﴿ **أفي اللهِ شكٌ فاطرِ السموات والارض** .. ﴾ (ابراهيم: ١٠).

والتي تدل بداهةً ويقيناً على وجود واجب الوجود، وعلى ألوهيته المهيمنة، وعلى صدور كل شئ من يد قدرته، وعلى ان مقاليد السموات والارض بيده سبحانه وتعالى.

فيا عابد الاسباب!

ايها المسكين المفتون بالطبيعة!

ما دامت طبيعة كل شئ مخلوقة كالشئ نفسه، لأن تكونها محدثٌ ـ غير قديم ـ وعليها علامة الصنعة والاتقان، وان سبب وجود هذا الشئ الظاهري هو ايضاً مصنوع حادثٌ. ولما كان وجود اي شئ مفتقراً الى وسائل وآلات وأجهزة كثيرة جداً..

فلابُدّ من قدير مطلق القدرة ليخلق تلك الطبيعة في الشئ، ويُوجد ذلك السبب له، ولا بد ان يكون - هذا القدير المطلق القدرة - مستغنياً غناءً مطلقاً، فلا يشرك الوسائط العاجزة في ايجاده للشئ وفي هيمنة ربوبيته عليه.

فحاش لله ان يكون سواه القدير المستغني المتعال، بل هو سبحانه وتعالى يخلق المسبّب والسبب معاً من علوه خلقاً مباشراً، ويوجد بينهما سببية ظاهرية وصورية، ويقرن بينهما من خلال ترتيب وتنظيم، جاعلاً من الاسباب والطبيعة ستاراً ليد قدرته الجليلة، وحجاباً لعظمته وكبريائه، ولتبقى عزتُه منزهةً مقدسة في عليائها، ويجعل تلك الاسباب موضع الشكوى لما يتراءى من نقائص، ولما يتصور من ظلم ظاهري في الاشياء.

ايهما اسهل على الفهم، واقرب معقوليةً الى الذهن: تصور «ساعاتي» يصنع تروس الساعة ومعداتها، ثم ينظمها على وفق ترتيب تروسها، ويوازن بين حركات عقاربها بدقة متناهية، ام ان نتصور الساعاتي يصنع في تروس الساعة وعقاربها ودقيق آلاتها ماكنة خارقة الفعال يُسلّمُ صنع الساعة الى جمادية ايديها؟! قل معي: أليس هذا كلاماً فارغاً ومحالاً وخارجاً عن حدود الامكان؟ فهيا خاطب انت عقلك المجحف وكن انت القاضي والحكم.

وايهما يكون مستساغاً ومقبولاً في منطق العقل: تصور كاتب يخط كتاباً بنفسه بعد ان يحضر لوازم الكتابة؛ من مداد وقلم وورق، ام تصور ايجاد ذلك الكاتب مطبعة خاصة بذلك الكتاب وهي اعقد وادق من الكتاب نفسه يترك لها امر كتابة هذا الكتاب فيخاطبها قائلاً:

هيا اشرعي انت بكتابة الكتاب.. من دون تدخل من قبله؟

أليس مثل هذا التصور السقيم معضلاً عقلاً؟ ومشكلاً باضعاف امر الكتابة نفسها؟!

واذا قلت: ان ايجاد مطبعة لطبع الكتاب اعقد واصعب من الكتاب نفسه، إلاّ أنّ ماكنة المطبعة،قادرة على اصدار الآف النسخ من الكتاب في مدة قصيرة. وهذا وسيلة التيسير.

الجواب: ان البارىء المصور سبحانه قد خلق بقدرته المطلقة، بتجديد تجليات اسمائه الحسنى واظهارها على اشكال مختلفة، تشخصات الاشياء وملامحها، الخاصة بها، بحيث لا يشبه مخلوق مخلوقاً آخر تشابهاً تاماً ومتطابقاً قط، وهو كتابٌ صمداني، ومكتوبٌ رباني.

نعم، انه لاجل ان يفي كل مخلوق بمعاني وجوده، لابدّ ان يملك سيماءً يعرف بها ويخالف بها الآخرين، وملامح تباين ملامح غيره. فانظر ودقق النظر في وجه الانسان ترَ ان علامات فارقة قد احتشدت في هذا الوجه الصغير، بحيث تميز هذه العلامات صاحبها عن جميع الوجوه الاخرى المتتابعة منذ زمن آدم عليه السلام حتى اليوم، والى الابد، رغم التشابه والاتفاق في الماهية الانسانية، والكينونة البشرية، وهذا واضح جلي وثابت قطعاً.

فملامح كلّ وجهٍ كتابٌ خاص بالوجه نفسه، وهو كتابٌ مستقلٌ بذاته عن غيره.. فلاجل إخراج هذا الكتاب الخاص، واتقان صنعه وتنظيمه، يستوجب الامر وجود مجموعة ابجدية كاملة من الحروف، والمناسبة حجماً له، ويتطلب تنضيد هذه الحروف في مواضعها من لوحة التنضيد، ليتم بعد ذلك مؤلف خاص بهذا الوجه يخالف تأليف الاخرين.

ويلزم هذا الامر جلب مواد صنعه الخاصة به، ثم وضعها في اماكنها المخصصة لها، ثمّ إدراج كل مايلزم وجود هذا الوجه – في الوجه نفسه – من عناصر البناء. وهذا كله لاشك يحتاج الى مصنع مستقل خاص به اي الى مطبعة خاصة في كل اشيائها لكل وجه من الوجوه!!

ثم الا تحتاج هذه المطبعة الخاصة – على فرض وجودها – الى تنظيم معين، وتنسيق مخصوص، فأمر الطبع نفسه – دع عنك تنسيق الحروف وترتيبها وتنظيمها – هو ايضاً بحاجة الى تنظيم؟..

فالمواد الموجودة في جسم كل كائن حي هي اكثر تعقيداً وادق تنظيماً من مواد المطبعة وتنظيمها بمئات الاضعاف، فجلب هذه المواد من اقطار العالم، ضمن

حسابات معينة، وموازين دقيقة، ثم تنضيدها حسب مقتضيات الحاجة اليها، واخيراً وضعها تحت يد تلك المطبعة... هذه السلسلة الطويلة من الاجراءات تحتاج – اولاً وقبل كل شئ – الى موجد يوجد تلك المطبعة المفترضة، وليس هو الاّ القدرة الفاطرة للخالق القدير وارادته النافذة.

اذن فاحتمال كون الطبيعة كأنها مطبعة، خرافة فاضحة لا معنى لها على الاطلاق..!!

وهكذا على غرار ما شاهدناه في مثال «الساعة والكتاب»: ان الصانع ذا الجلال وهو القادر على كل شئ، هو نفسه خالق الاسباب، وخالق المسبّبات، وهو الذي يربط المسبّبات بالاسباب بحكمته سبحانه، وقد عين بإرادته طبيعة الأشياء، وجعلها مرآة عاكسة لتجليات الشريعة الفطرية الكبرى التي فطر عليها الكون، والتي هي قوانين الله وسننه الجارية التي تخص تنظيم شؤون الكون، وقد اوجد بقدرته وجه «الطبيعة» التي يقوم عليها عالم الشهادة الخارجي الوجود، ثم خلق الاشياء وانشأها على تلك الطبيعة ومازج بينهما بتمام الحكمة.

والآن نحيل الامر الى انصاف عقلك المجحف ليرى: ايهما يستسيغه عقلك ويسهل عليه الاعتقاد به؟ أهذه الحقيقة المعقولة النابعة من براهين دامغة غير محدودة – وهي مُلزمة الى حدّ الوجوب – أم اعطاء ما يلزم للاشياء من اجهزة واعضاء لا تحد، واسناد اعمالٍ تتسم بالحكمة والبصيرة الى الشئ نفسه؟! او تنسيبها الى ما تسمونه بـ«الطبيعة» والاسباب التي هي مواد جامدة خالية من الشعور وهي مخلوقة مصنوعة؟ أليست هذه خرافة ممتنعة وخارجة عن نطاق الامكان؟

يجيب عابد الطبيعة – ذلك الجاحد – قائلاً: ما دمت تدعوني الى الانصاف فانا اعترف: ان ما سلكناه من طريق مضلّ الى الآن مثلما انه محال بمائة محال فهو مضر ايما ضرر، وهو في منتهى القبح والفساد. إنَّ مَن كان له مسكة من عقلٍ يدرك من محاكماتكم العقلية، وتحقيقاتكم العلمية المسندة بالبراهين والمذكورة آنفاً، ان اسناد الايجاد والخلق الى الاسباب والى الطبيعة ممتنع عقلاً ومحال قطعاً، بل الواجب

والضروري الملزم للعقل هو اسناد كل شئ مباشرة الى واجب الوجود سبحانه، فاحمد الله الذي هداني الى هذا الايمان .

ولكن بقيتْ لديّ شبهة واحدة فقط وهي: انني أؤمن بالله ربّاً وانه خالق كل شئ، ولكني أتساءل:

ماذا يضر عظمته سبحانه، وماذا يضر سلطانه جلّ وعلا، ان نتوجه ببعض المدح والثناء الى بعض الاسباب الجزئية في ايجادها الاشياء الصغيرة التافهة، فهل ينقص ذلك شيئاً من سلطانه سبحانه وتعالى؟!

والجواب: كما اثبتنا في قسم من الرسائل إثباتاً قاطعاً:

ان شأن الحاكمية «ردّ المداخلة» ورفضها كلياً، بل إن أدنى حاكم، او اي موظف بسيط لايقبل تدخلاً حتى من ابنه ضمن حدود حاكميته، بل ان توهم التدخل في الحاكمية قد دفع بعض السلاطين الى قتل اولادهم الابرياء رغم انهم كانوا على شئ من التقوى والصلاح، مما يظهر مدى اصالة هذا القانون – قانون ردّ المداخلة – في الحاكمية، فهو سارٍ في كل شيء ابتداءً من متخاصمين في تسنم إدارة ناحية صغيرة الى سلطانين يتنازعان للتفرد بالسلطة في البلاد، وكذلك فقد اظهر – بما لايقبل الشك – ما يقتضيه استقلال الحاكمية من قانون «منع الاشتراك»، واوضح نفوذه وقوته خلال تاريخ البشرية الطويل، وما ادى اليه من اضطراب وقتل وتشريد وانهار من الدماء المهراقة.

تأمل في الانسان الذي هو عاجز عن ادارة نفسه ومفتقر الى التعاون مع الآخرين، ولايملك من الحاكمية والآمرية إلاّ ظلاً باهتاً، فهو يردُّ المداخلة الى هذه الدرجة، ويمنع تدخل الآخرين الى هذا الحد، ويرفض مشاركة الآخرين في حاكميته، ويسعى بما لديه من قوة للتشبث باستقلالية مقامه، تأمل في هذا، ثم انظر الى الحاكم المطلق وهو مستوٍ على عرش الربوبية، والآمر المطلق وهو المهيمن بالالوهية، والمستقل المطلق بالفردية والاحدية، وهو المستغني المطلق بقادرية مطلقة، ذلكم الله ربنا ذو الجلال..

فكم يكون لازماً وضرورياً «ردّ المداخلة» هذه بالنسبة اليه، ومنع الاشتراك وطرد الشريك في حاكميته المطلقة، وكم هو من لوازم هذه الحاكمية ومن اوجب وجائبها؟

فقايسْ الآن ووازن بين حاكمية الانسان المحدودة الضيقة المفتقرة الى الآخرين وحاكمية الله المطلقة الغنية المهيمنة الشاملة.

أما الشق الثاني من شبهتك والذي هو:

اذا قُصدَ «بعض الاسباب» ببعض العبادة من بعض الامور الجزئية، فهل ينقص ذلك شيئاً من عبادة المخلوقات المتوجهة جميعاً الى الله القدير، ابتداءً من الذرات وانتهاءً بالسيارات والمجرّات؟!

الجواب: ان الخالق الحكيم العليم سبحانه، قد خلق هذا الكون بمثابة شجرة، وجعل ارباب الشعور ثمارها الكاملة، وكرّم الانسان باعتباره اجمع ثمرة لأرباب المشاعر، وجعل الشكر والعبادة افضل ما تثمره حياة الانسان، بل هما – الشكر والعبادة – نتيجة خلقه وغاية فطرته وثمرة حياته.

فهل يمكن عقلاً لهذا الحاكم المطلق والآمر الفرد، وهو الواحد الاحد، أن يسلّم امر الانسان الذي هو ثمرة الكون كله الى غيره من «الاسباب» ويسلم ثمرة حياته – وهي الشكر والعبادة – الى الآخرين، بعدما خلق الكون كله لمعرفة ألوهيته، ولمحبة ربوبيته، فهل يمكن ان يجعل نتيجة الخلق، وثمرة الكون تسقط بين اشداق عفونة العبث؟! حاش لله وكلا، سبحان الله عمّا يشركون.

ثم هل يمكن ان يرضى سبحانه بما يخالف حكمته وربوبيته بجعل بعض الاسباب مقصودةَ عبادةِ المخلوقات؟ علماً بأنه سبحانه وتعالى قد اشهر نفسه وعرّفها وحببها بافعاله وألطافه في هذا العالم.

فكيف يرضى سبحانه – بعد هذا كله – ان يدع تحبّب افضل مخلوقاته واكملهم

عبودية وشكراً وحمداً الى غيره من المخلوقات، وكيف يسمح لمخلوقاته ان تنساه بعد أن اظهر بافعاله مقاصده السامية في الكون: وهي معرفته، ثم عبادته؟ حاش وكلا، فسبحان الله عما يقولون علواً كبيراً.

ماذا تقول ايها الصديق بالذي سمعته آنفاً؟

وإذا به يجيب فيقول:

الحمد لله الذي سهل لي حل هاتين الشبهتين، فقد اظهرت لي في وحدانية الله، المعبود الحق والمستحق للعبادة وحده، دليلين قويين ساطعين لا يمكن انكارهما، وهل ينكر ضوء الشمس والنهار إلاّ مكابر معاند؟!

الخاتمة

يقول «رجل الطبيعة» وقد ترك وراءه فكره وتصوراته، ودخل «حظيرة الايمان» بفكر ايماني جديد:

الحمد لله.. اشهد أنّ شبهاتي قد زالت كلها، ولكن مازال في النفس ما يحيرني ويثير المزيد من هواجسي، ممايرد على خاطري من اسئلة لا اعرف جواباً عنها.

السؤال الاول:

نسمع من كثير من الكسالى المتقاعسين عن العبادات، ومن تاركي الصلاة بخاصة، انهم يقولون:

ما حاجة الرب سبحانه وتعالى – الغني بذاته – الى عبادتنا حتى يزجرنا في محكم كتابه الكريم، ويتوعدنا بأشد العذاب في نار جهنم، فكيف يتساوق هذا الاسلوب – التهديدي الصاعق في مثل هذا الخطأ الجزئي التافه – مع اسلوبه الاعجازي اللين الهادىء الرقيق في المواضع الاخرى؟

الجواب: حقاً ان الله سبحانه وتعالى – الغني بذاته – لا حاجة له قط الى عبادتك انت – ايها الانسان – بل هو سبحانه لاحاجة له لشئ قط، ولكنك انت المحتاج الى العبادة، وانت المفتقر اليها.

فأنت مريض معنى، والعبادة هي البلسم الشافي لجراحات روحك، واوجاع ذاتك، وقد اثبتنا هذا الكلام في عديد من الرسائل.

ترى لو خاطب مريضٌ طبيباً رحيماً يشفق عليه ويصر عليه ليتناول دواءً شافياً يخص مرضه، لو خاطبه تجاه اصراره عليه قائلاً: ما حاجتك انت الى هذا الدواء حتى تلح عليّ هذا الالحاح الشديد بتناول الدواء؟ الا يفهم من كلامه مدى تفاهته وسخفه وغباء منطقه؟

اما نذير القرآن الكريم فيما يخص ترك العبادة وتهديده المخيف بعقاب اليم، فاليك تفسيره:

فكما ان سلطاناً يعاقب شخصاً سافلاً يرتكب جريمةً تمس حقوق الآخرين بعقاب صارم لاجل الحفاظ على حقوق رعاياه، كذلك سلطان الازل والابد يعاقب تارك العبادة والصلاة عقاباً صارماً، لانه يتجاوز تجاوزاً صارخاً على حقوق الموجودات ويظلمها ظلماً معنوياً بشعاً ويهضم حقوقها هضماً مجحفاً، تلك الموجودات التي هي رعاياه وخلقه. وذلك لان كمالاتها تتظاهر على صورة تسبيح وعبادة في وجهها المتوجه الى البارئ الحكيم سبحانه. فتارك العبادة لا يرى عبادة الموجودات ولن يراها، بل ينكرها وفي هذا بخس عظيم لقيمة الموجودات التي كلّ منها مكتوب سامٍ صمداني، قد خطّ بآيات العبادة والتسبيح وهو متوجه بآياته وتسبيحه نحو الموجد الخالق جلّ وعلا.. وكل منها - ايضاً - مرآة لتجلي الاسماء الربانية المشعة بالانوار.. فينزل هذه الموجودات - بهذا الانكار - من مقامها الرفيع السامي، ولايرى في وجودها سوى العبث الخالي من المعنى، ويجردها من وظائفها الخلقية، ويظنها شيئاً هامداً ضائعاً لا اهمية له، فيكون بذلك قد استهان بالموجودات واستخف بها، واهان كرامتها وانكر كمالاتها، وتعدى على مصداقية وجودها.

نعم، ان كل انسان انما ينظر الى الكون بمنظاره الخاص وعلى وفق ما تصوره له مرآته الخاصة، فلقد خلقه البارئ المصور سبحانه على صورة يستطيع قياس الكون عليها، ويزنه بميزانها. فمنحه عالماً خاصاً به من هذا العالم العظيم فيصطبغ عالمه الخاص بحسب ما يعتقده الانسان من عقيدة في قلبه.

فالانسان الحزين اليائس الباكي يرى الموجودات باكية بائسة، بينما السعيد الجذلان يراها مبتسمة ضاحكة ومسرورة.

كذلك الذي يؤدي العبادة والاذكار بصورة جادّة وبشعور تام وبتفكر وتأمل، فانه يكشف شيئاً من عبادة الموجودات وتسابيحها بل قد يراها وهي حقيقة موجودة ثابتة، اما الذي يترك العبادة غافلاً او منكراً لها فأنه يتوهم الموجودات توهماً خاطئاً جداً

ومنافياً كلياً ومخالفاً مخالفة تامة لحقيقة كمالاتها، فيكون متعدياً على حقوقها معنىً.

زد على ذلك، فان تارك الصلاة يظلم نفسه كذلك بتركه الصلاة، حيث انه غير مالك لذات نفسه، فهي - اي النفس - عبد مملوك لدى مالكها ومولاها وخالقها وفاطرها، لذا ينذره مولاه الحق انذاراً شديداً ويهدده بعنف ليأخذ حقّ عبده ذاك من نفسه الامارة بالسوء، فضلاً عن انه عندما ترك العبادة التي هي نتيجة خلقته وغاية فطرته يكون متجاوزاً حدّه تجاه الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية، لذا يعاقب على هذا عقاباً شديداً.

نحصل مما تقدم:

ان تارك العبادة مثلما انه يظلم نفسه، والنفس مملوك الحق سبحانه وعبده فهو يتعدى على حقوق كمالات الكائنات ويظلمها ايضاً. نعم، فكما ان الكفر استهانة بالموجودات واستخفاف بها، فترك العبادة انكار لكمالات الكائنات، وتجاوزٌ على الحكمة الإلهية، لذا يستحق تاركها تهديداً عنيفاً، وعقاباً صارماً.

ومن هنا يختار القرآن الكريم اسلوب التهديد والانذار ليعبر عن هذا الاستحقاق وعن هذه الحقيقة المذكورة آنفاً، فيكون الاسلوب حقاً ومطابقاً تماماً لمقتضى الحال الذي هو البلاغة بعينها.

السؤال الثاني:

يقول صاحبنا الذي نبذ فكرة «الطبيعة» وتبرأ منها، وشَرُفَ بالايمان بالله:

إن انقياد كل موجود، في كل شأن من شؤونه، وفي كل جزء من جزئياته، وفي كل ما يقوم به وينجزه، انقياداً مطلقاً للمشيئة الإلهية، والقدرة الربانية، هو حقيقة عظيمة جليلة، فهي لعظمتها وسعتها لاتستوعبها اذهاننا الكليلة القاصرة، علماً اننا نطالع عياناً وفرةً متناهيةً من الموجودات، وسهولة مطلقة في خلق الاشياء، وقد تحققت «السهولة في الايجاد» التي هي من مستلزمات «الوحدانية» بما اقمتموه من براهين وحجج قاطعة، فضلاً عن أن القرآن الكريم قد قرر السهولة المطلقة صراحة في آيات كريمة كثيرة امثال:

﴿ مَا خَلقُكمْ ولا بَعثُكمْ الاّ كنَفسٍ واحدةٍ ﴾(لقمان: ٢٨)

﴿ ومَا أمرُ الساعَةِ إلاّ كلمحِ البَصرِ او هوَ اقرَبُ ﴾ (النحل: ٧٧).

كل ذلك يجعل تلك الحقيقة العظيمة «سهولة الايجاد» مسألة مقبولة جداً ومستساغة عقلاً، فأين يكمن سرّ هذه السهولة ياترى وما الحكمة من ورائها؟

الجواب: لقد وضح ذلك السرّ وضوحاً تاماً ومقنعاً في «المكتوب العشرين» عند شرحه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ على كُلِ شَيءٍ قَديرٌ﴾ بما يفي بالغرض، وبخاصة في ذيله، حيث جاء التوضيح وافياً وشافياً جداً، ومقنعاً بالدليل والبرهان والاثبات القاطع، وخلاصته:

عندما يسند ايجاد الموجودات جميعها الى الصانع الواحد، يسهل الامر كسهولة ايجاد مخلوق واحد، بينما اذا اسند للكثرة يصعبُ – على هذه الكثرة – امر ايجاد مخلوق واحد بقدر صعوبة ايجاد جميع الموجودات.. فيكون خلق بذرة واحدة صعباً ومشكلاً كخلق شجرة.. ولكن اذا اسند «الايجاد» الى صانعه الحق سبحانه، يسهل الامر حتى يصبح ايجاد الكائنات كلها كايجاد شجرة واحدة، والشجرة كالبذرة، والجنة كالربيع، والربيع كالزهرة، فالامر يسهل ويكون هيناً.

وسنشير هنا اشارة مختصرة الى دليل او دليلين من بين مئات الادلة التي اوضحناها بالتفصيل في رسائل اخرى، تلك الادلة التي تبين ما يدور من الاسرار والحكم الكامنة فيما نشاهده من وفرة الموجودات التي لاحصر لها ورخصها، وكثرة افراد كل نوع منها، وورودها الى الوجود منتظمةً، متقنةً، وبكل سهولة ويسر.

مثال هذا: إن ادارة مائة جندي تحت إمرة ضابط واحد، اسهل بمائة ضعف من ادارة جندي واحد تحت إمرة مائة ضابط.

وعندما يُودَعُ أمرُ تجهيز جيش كامل باللوازم العسكرية، من مركز واحد، وبقانون واحد، ومن مصنع واحد، الى امرٍ يصدره قائد واحد، فان ذلك يكون سهلاً وهيناً من حيث الكمية والوفرة، بسهولة تجهيز جندي واحد.

بينما يكون ايداع أمر تجهيز جندي واحد باللوازم العسكرية الكاملة من مراكز متعددة ومصانع متعددة، الى قواد عديدين مشكلاً وصعباً من حيث الكمية والوفرة

ايضاً بصعوبة تجهيز جيش كامل. اذ ينبغي عندئذ وجود مصانع كثيرة للتجهيزات بعدد ما يلزم جيشاً كاملاً، لاجل تجهيز الجندي الواحد.

ويشاهد ايضاً ان الشجرة الواحدة، التي تتزود بالمواد الضرورية لها من جذر واحد، ومن مركز واحد، وعلى وفق قانون واحد، تثمر الوف الثمرات، ويتم ذلك بسهولة ويسر كأن للشجرة ثمرة واحدة. بينما اذا استبدلت الكثرة بالوحدة، وسُلكَ طريق الكثرة عوضاً عن طريق الوحدة، فزوّدت كل ثمرة بالمواد الضرورية للحياة من مراكز مختلفة، وجذور متباينة، يكون ايجاد ثمرة واحدة مشكلا وصعباً كايجاد الشجرة نفسها، بل قد يكون ايجاد البذرة التي هي أنموذج الشجرة وفهرستها — صعباً ومعضلاً كايجاد الشجرة نفسها. لان مايلزم حياة الشجرة من مواد ضرورية يلزم البذرة ايضاً.

فهناك المئات من امثال هذه الامثلة، وكلها تبين: ان ورود الوف الموجودات بسهولة مطلقة الى الوجود — في الوحدة — اسهل من ورود موجود واحد الى الوجود بالتعدد والكثرة.

ولما كنا قد اثبتنا هذه الحقيقة في رسائل اخرى بيقين قاطع نحيل اليها، ولكننا نبين هنا فقط سراً عظيماً يتعلق بهذه السهولة واليسر من زاوية نظر العلم الإلهي، والقدر الإلهي، والقدرة الربانية، وهذا السر هو:

انت موجود من الموجودات فاذا سلّمتَ نفسك الى يد القدير المطلق القدرة، فانه يخلقك بأمر واحد وبقدرته المطلقة بلمح البصر من العدم، من غير شئ. ولكن ان لم تسلم نفسك اليه، بل اسندتها الى «الطبيعة» واسلمتها الى الاسباب المادية، فيلزم عندئذ لايجادك انت، عملية بحث دقيق — لجمع جميع المواد التي في وجودك — في اقطار العالم كله، والتفتيش عنها في زوايا الكون كله، وامرارها في مصافٍ واختبارات دقيقة جداً، ووزنها بموازين حساسة، ذلك لانك خلاصة منتظمة للكون، وثمرته اليانعة، وفهرسته المصغرة، ومحفظته المنطوية على مواد الكون كله.

لأن الاسباب المادية ليس لها الاّ التركيب والجمع، اذ هو ثابت لدى ارباب العقول

انه لا يمكن للأسباب المادية ايجاد ما لا يوجد فيها، من العدم ومن غير شئ، لذا فهي مضطرة الى جمع المواد اللازمة لجسم كائن حي صغير من اقطار العالم كله.

فافهم من هذا مدى السهولة المطلقة في الوحدة والتوحيد. ومدى الصعوبات والمشكلات في الشرك والضلالة.

ثانيها:

ان هناك سهولة مطلقة في الخلق والايجاد تنبع من زاوية نظر «العلم الإلهي» وتفصيلها كالآتي:

ان القدر الإلهي هو نوع من العلم الإلهي، يعيّن مقدار كل شئ كأنه قالب معنوي له وخاص به، فيكون ذلك المقدار القدَري بمثابة خطّة لذلك الشئ، وبحكم «موديل» انموذج له، فعندما توجده «القدرة الإلهية» توجده على ذلك المقدار القدري بكل سهولة ويسر.

فان لم يُنسب ايجاد ذلك الشئ الى مَن له علم محيط مطلق ازلي وهو الله القدير ذو الجلال لاتحصل الوف المشكلات فحسب، بل تقع مئات المحالات ايضاً - كما ذكر آنفاً - لانه إن لم يكن هناك ذلك المقدار القدري، والمقدار العلمي، يلزم استعمال ألوف القوالب المادية والخارجية للجسم الصغير للحيوان!

فافهم من هذا سراً من اسرار السهولة المطلقة في الوحدة والتوحيد وكثرة المشكلات غير المتناهية في التعدد والكثرة والشرك.

واعلم مدى الحقيقة السامية الصائبة التي تعبر عنها الآية الكريمة: ﴿ **ومَا أمرُ السّاعَةِ إلاّ كلمح البصَر او هوَ أقرَبُ** ﴾.

السؤال الثالث:

يقول الذي كان يعادي سابقاً ووُفّق الى الايمان الآن واهتدى:

مابال بعض الفلاسفة المغالين في عصرنا هذا يطلقون مقولة: «لا يُستحدث شئ من العدم ولايفنى شئ من الوجود» وان ما يدير هذا الكون، انما هو تركيب المادة وتحليلها ليس الاّ!

الجواب:

ان هؤلاء الفلاسفة الذين لم يتسنّ لهم النظر الى الموجودات بنور القرآن المبين، عندما نظروا اليها بمنظار «الطبيعة» و«الاسباب» توصلوا الى ان وجود هذه الموجودات، وافتراض تشكلها بعوامل «الطبيعة» و«الاسباب» مسألة تطرح مشكلات عويصة بدرجة الامتناع – على غرار ما ذكرناه في بيان الاحتمالات ومحالاتها – فانقسم هؤلاء الفلاسفة إزاء هذه العقبة الكأداء الى قسمين:

قسم منهم صاروا سوفسطائيين وعافوا العقل الذي هو خاصة الانسان وسقطوا الى درك أدنى من الحيوانات، اذ وصل بهم امر فكرهم الى انكار الوجود عموماً، بل حتى انكار وجودهم، وذلك عندما رأوا ان هذا الانكار اجدى على العقل وايسر عليه واسلم من تصور «الطبيعة» و«الاسباب» مالكة لزمام الايجاد، فانكروا وجود انفسهم ووجود الموجودات جميعاً، فسقطوا في هاوية الجهل المطلق.

اما القسم الثاني: فقد نظروا الى الموجودات انها لو سلّم ايجادها الى «الاسباب» و«الطبيعة» كما هو شأن اهل الضلالة فان ايجاد شئ صغير جداً كالبعوضة او البذرة فيه من المشكلات مالا يحد، ويقتضي قدرة عظيمة لا يبلغ مداها العقل، فوجدوا انفسهم مضطرين الى انكار «الايجاد» نفسه، فقالوا: «لايستحدث شئ من العدم» ورأوا ان اعدام الشئ محال ايضاً فقرروا انه «لايفنى الموجود». وتخيلوا جملة من الاوضاع الاعتباريةساريةً ما بين تحليل وتركيب وتفريق وتجميع، ناتجة عن حركات الذرات، وسيل المصادفات!

فتأمل في هؤلاء الذين يظنون انفسهم في ذروة العقل، قد سقطوا في حضيض من الحماقة والجهل، واعلم من هذا كيف تضع الضلالة هذا الانسان المكرّم – حين يلغي ايمانه – موضع سخرية وازدراء من كل احد..

وبدورنا نسأل هؤلاء:

ترى كيف يمكن استبعاد ايجاد شئ ما من القدرة المطلقة التي توجدُ على سطح الارض في كل سنة اربعمائة الف نوع من الاحياء؟ والتي خلقت السموات والارض

في ستة ايام؟ والتي تنشئ في كل ربيع تحت بصر الانسان وسمعه، على سطح الارض كوناً حياً من النبات والحيوان هو اظهر اتقاناً واجلى حكمةً من الكون كله، في ستة اسابيع؟ كيف يستبعد منها ان تخلق الموجودات العلمية – التي تعينت خططها ومقاديرها ضمن دائرة العلم الازلي – فتخلقها بسهولة مطلقة سهولة اظهار الكتابة غير المنظورة بإمرار مادة كيمياوية عليها. فاستبعاد إضفاء الوجود الخارجي على الموجودات العلمية – والتي هي معدومات خارجياً – من تلك القدرة الازلية، ثم انكار الايجاد نفسه لهو حماقة وجهالة اشد من حماقة السوفسطائيين المعروفين وجهالتهم!

وحيث ان نفوس هؤلاء التعساء المتفرعنة العاجزة عجزاً مطلقاً والتي لا تملك إلاّ جزءاً يسيراً من الاختيار غير قادرة على إفناء اي شئ كان واعدامه، وايجاد اية ذرة كانت او مادة من غير شئ ومن العدم.. ولما كانت الطبيعة والاسباب التي يفخرون بعبوديتهم لها عاجزة هي الاخرى وليس في طوقها امر «الايجاد» من غير شئ.. نراهم يصدرون حكماً عاماً: «ان المادة لاتفنى ولا تستحدث» ويحاولون ان يعمموا حكم هذه القاعدة الباطلة الخاطئة حتى على قدرة القدير المطلق القدرة سبحانه.

نعم، ان القدير المطلق ذا الجلال له طرازان من الايجاد:

الاول:

هو بالاختراع والابداع، اي انه سبحانه يبْدع الوجود من العدم إبداعاً من غير شئ، ويوجِدُ كل ما يلزم – هذا الوجود – من اشياء من العدم ويسلّمها اياه.

الاخر:

هو بالانشاء والصنعة والاتقان. اي ينشئ قسماً من الموجودات من عناصر الكون نفسه، إظهاراً لكمال حكمته، وتبياناً لتجليات اسمائه الحسنى.. وامثالها من الحكم

الدقيقة، فيرسل الى تلك الموجودات الذرات والمواد المنقادة الى اوامره ضمن سنن الرزاقية الكونية، ويسخرها لها ليكمل انشاء هذا الوجود، وهكذا فالقدير المطلق القدرة له اسلوبان من الايجاد وصورهما:

الابداع.. والانشاء..

فإفناء الموجود، وايجاد المعدوم، امر سهل جداً لديه، وهيّن جداً بل هو قانونه الدائم العام.

فالذي يستبعد من القدرة الفاطرة التي تخلق من العدم ثلاث مائة الف نوع من المخلوقات والاحياء، وتمنحها اشكالها وصفاتها وكيفياتها واحوالها مما سوى ذراتها. ويقول: «انها لن تقدر على ايجاد المعدوم» لابد ان يهوي في ظلمة العدم.

يقول الذي نَبَذَ «الطبيعة» ونفذ الى طريق الحقيقة:

الحمد لله حمداً كثيراً بعدد الذرات، الذي وفقني للفوز بكمال الايمان، وانقذني من الاوهام والضلالات، فزالت بفضله جميع ما لديّ من شبهات وريب.

الحمد لله على دين الاسلام وكمال الايمان

﴿ سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا إلا ما عَلمتنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

اللمعة الرابعة والعشرون

رسالة الحجاب

كانت هذه هي المسألة الثانية والثالثة من «المذكرة الخامسة عشرة» الا ان اهميتها جعلتها «اللمعة الرابعة والعشرين».

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ يا أيُها النَبيُّ قُل لأزواجِكَ وبنَاتكَ ونسَاء المؤمنينَ يُدنينَ عَليهنَ من جَلابيبهن ﴾ (الاحزاب: ٥٩)

هذه الآية الكريمة تأمر بالحجاب، بينما تذهب المدنية الزائفة الى خلاف هذا الحكم الرباني، فلا ترى الحجاب أمراً فطرياً للنساء، بل تعده اسراً وقيداً لهن [١].

---

(١) هذه فقرة من اللائحة المرفوعة الى محكمة التمييز، القيت امام المحكمة، فأسكتتها، واصبحت حاشية لهذا المقام:

«وانا اقول لمحكمة العدل!

ان ادانة من يفسر اقدس دستور إلهي وهو الحق بعينه، ويحتكم اليه ثلاث مائة وخمسون مليوناً من المسلمين في كل عصر في حياتهم الاجتماعية، خلال الف وثلاث مائة وخمسين عاماً. هذا المفسر استند في تفسيره الى ما اتفق عليه وصدق به ثلاث مائة وخمسون ألف مفسر، واقتدى بالعقائد التي دان بها اجدادنا السابقون في الف وثلاث مائة وخمسين سنة.. اقول: ان ادانة هذا المفسر، قرار ظالم، لابد ان ترفضه العدالة، ان كانت هناك عدالة على وجه الارض، ولابد ان ترد ذلك الحكم الصادر بحقه وتنقضه». ـ المؤلف.

وسنبين جواباً اربعاً من الحكم فقط من بين حكم غزيرة دالة على كون هذا الحكم القرآني تقتضيه فطرة النساء وخلافه غير فطري.

الحكمة الاولى:

ان الحجاب امر فطري للنساء، تقتضيه فطرتهن، لان النساء جُبلْن على الرقة والضعف، فيجدن في انفسهن حاجة الى رجل يقوم بحمايتهن وحماية اولادهن الذين يؤثرنهم على انفسهن، فهن مسوقات فطرياً نحو تحبيب انفسهن للاخرين وعدم جلب نفرتهم وتجنب جفائهم واستثقالهم.

ثم، ان ما يقرب من سبعة اعشار النساء: اما متقدمات في العمر، او دميمات لا يرغبن في اظهار شيبهن او دمامتهن، او أنهن يحملن غيرة شديدة في ذواتهن يخشين ان تفضل عليهن ذوات الحسن والجمال، او أنهن يتوجسن خيفة من التجاوز عليهن وتعرضهن للتهم.. فهؤلاء النساء يرغبن فطرة في الحجاب حذراً من التعرض والتجاوز عليهن وتجنباً من ان يكن موضع تهمة في نظر أزواجهن، بل نجد ان المسنات احرص على الحجاب من غيرهن.

وربما لايتجاوز الاثنتين او الثلاث من كل عشر من النساء هن: شابات وحسناوات لايتضايقن من ابداء مفاتنهن! اذ من المعلوم ان الانسان يتضايق من نظرات من لايحبه. وحتى لو فرضنا ان حسناء جميلة ترغب في ان يراها اثنان او ثلاثة من غير المحارم فهي حتما تستثقل وتنزعج من نظرات سبعة او ثمانية منهم، بل تنفر منها.

فالمرأة لكونها رقيقة الطبع سريعة التأثر تنفر حتماً – ما لم تفسد اخلاقها وتتبذّل – من نظرات خبيثة تصوب اليها والتي لها تأثير مادي كالسم – كما هو مجرب – حتى اننا نسمع: أن كثيرا من نساء اوربا وهي موطن التكشف والتبرج، يشكين الى الشرطة من ملاحقة النظرات اليهن قائلات: ان هؤلاء السفلة يزجوننا في سجن نظراتهم!

نخلص مما تقدم:

ان رفع المدنية السفيهة الحجاب وافساحها المجال للتبرج يناقض الفطرة الانسانية. وان امر القرآن الكريم بالحجاب – فضلاً عن كونه فطرياً – يصون النساء من المهانة والسقوط، ومن الذلة والاسر المعنوي ومن الرذيلة والسفالة، وهن معدن الرأفة والشفقة والرفيقات العزيزات لازواجهن في الأبد.

والنساء - فضلاً عما ذكرناه - يحملن في فطرتهن تخوفاً من الرجال الاجانب وهذا التخوف يقتضي فطرة التحجب وعدم التكشف، حيث تتنغص لذة غير مشروعة لتسع دقائق بتحمل اذى حمل جنين لتسعة اشهر، ومن بعده القيام بتربية ولد لا حامي له زهاء تسع سنين! ولوقوع مثل هذه الاحتمالات بكثرة تتخوف النساء فطرة خوفاً حقيقياً من غير المحارم. وتتجنبهم جبلة، فتنبهها خلقتها الضعيفة تنبيها جادا، الى التحفظ وتدفعها الى التستر، ليحول دون اثارة شهوة غير المحارم، وليمنع التجاوز عليها، وتدلها فطرتها على ان حجابها هو قلعتها الحصينة وخندقها الامين.

ولقد طرق سمعنا: ان صباغ أحذية قد تعرض لزوجة رجل ذي منصب دنيوي كبير، كانت مكشوفة المفاتن، وراودها نهاراً جهاراً في قلب العاصمة «انقرة»! أليس هذا الفعل الشنيع صفعة قوية على وجوه اولئك الذين لا يعرفون معنى الحياء من اعداء العفة والحجاب؟

الحكمة الثانية:

إن العلاقة الوثيقة والحب العميق بين الرجل والمرأة ليسا ناشئين عما تتطلبه الحياة الدنيا من الحاجات فحسب، فالمرأة ليست صاحبة زوجها في حياة دنيوية وحدها، بل هي رفيقته ايضاً في حياة ابدية خالدة.

فما دامت هي صاحبته في حياة باقية فينبغي لها ألاّ تلفت نظر غير رفيقها الابدي وصديقها الخالد الى مفاتنها، وألا تزعجه، ولا تحمله على الغضب والغيرة.

وحيث ان زوجها المؤمن، بحكم ايمانه لا يحصر محبته لها في حياة دنيوية فقط ولا يوليها محبة حيوانية قاصرة على وقت جمالها وزمن حسنها، وانما يكنّ لها حباً واحتراماً خالصين دائمين لا يقتصران على وقت شبابها وجمالها بل يدومان الى وقت شيخوختها وزوال حسنها، لأنها رفيقته في حياة ابدية خالدة.. فإزاء هذا لابد للمرأة ايضاً أن تخص زوجها وحده بجمالها ومفاتنها وتقصر محبتها به، كما هو مقتضى الانسانية، وإلاّ ستفقد الكثير ولا تكسب الا القليل.

ثم ان ما هو مطلوب شرعاً: ان يكون الزوج كفوءا للمرأة، وهذا يعني ملاءمة الواحد للآخر ومماثلتهما، واهم مافي الكفاءة هذه هي كفاءة الدين كما هو معلوم.

فما اسعد ذلك الزوج الذي يلاحظ تدين زوجته ويقوم بتقليدها، ويصبح ذا دين، لئلا يفقد صاحبته الوفية في حياة ابدية خالدة!

وكم هي محظوظة تلك المرأة التي تلاحظ تدين زوجها وتخشى ان تفرط برفيق حياتها الامين في حياة خالدة، فتتمسك بالايمان والتقوى.

والويل ثم الويل لذلك الرجل الذي ينغمس في سفاهة تفقده زوجته الطيبة الصالحة.

ويا لتعاسة تلك المرأة التي لاتقلد زوجها التقي الورع، فتخسر رفيقها الكريم الابدي السعيد.

والويل والثبور لذينك الزوجين الشقيين اللذين يقلدان بعضهما البعض الآخر في الفسوق والفحشاء، فيتسابقان في دفع احدهما الآخر في النار.

الحكمة الثالثة:

ان سعادة العائلة في الحياة واستمرارها انما هي بالثقة المتبادلة بين الزوجين، والاحترام اللائق والود الصادق بينهما، الا أن التبرج والتكشف يخل بتلك الثقة ويفسد ذلك الاحترام والمحبة المتبادلة. حيث تلاقي تسعة من عشرة متبرجات امامهن رجالاً يفوقون ازواجهن جمالاً، بينما لاترى غير واحدة منهن مَن هو اقل جمالاً من زوجها ولا تحبب نفسها اليه. والامر كذلك في الرجال فلا يرى الاّ واحدٌ من كل عشرين منهم مَن هي اقل جمالا من زوجته، بينما الباقون يرون امامهم من يفقن زوجاتهن حسنا وجمالا. فهذه الحالة قد تؤدي الى انبعاث احساس دنئ وشعور سافل قبيح في النفس فضلاً عما تسببه من زوال ذلك الحب الخالص وفقدان ذلك الاحترام، وذلك:

ان الانسان لايمكنه ان يحمل فطرة شعوراً دنيئاً حيوانياً تجاه المحارم – كالاخت – لان سيماء المحارم تشعر بالرأفة والمحبة المشروعة النابعين من صلة القربى. فهذا الشعور النبيل يحدّ من ميول النفس الشهوية، الا أن كشف ما لايجوز كشفه كالساق، قد

يثير لدى النفوس الدنيئة حساً سافلاً خبيثاً لزوال الشعور بالحرمة، حيث ان ملامح المحارم تشعر بصلة القرابة، وكونها محرماً وتتميز عن غيرهم، لذا فكشفُ تلك المواضع من الجسد يتساوى فيه المحرم وغيره، لعدم وجود تلك العلامات الفارقة التي تستوجب الامتناع عن النظر المحرّم، ولربما يهيج لدى بعض المحارم السافلين هوى النظرة الحيوانية! فمثل هذه النظرة سقوط مريع للانسانية تقشعر من بشاعتها الجلود.

الحكمة الرابعة:

من المعلوم أن كثرة النسل مرغوبة فيها لدى الجميع،، فليس هناك امة ولا دولة لاتدعو الى كثرة النسل، وقد قال الرسول الكريم ﷺ: (تناكحوا تكثروا فاني أباهي بكم الامم يوم القيامة)[١]. بيد ان رفع الحجاب وافساح المجال امام التبرج والتكشف يحد من الزواج، بل يقلل من التكاثر كثيراً، لان الشاب مهما بلغ فسوقه وتحلله، فانه يرغب في ان تكون صاحبته في الحياة مصونة عفيفة، ولايريدها ان تكون مبتذلة متكشفة مثله، لذا تجده يفضل العزوبة على الزواج. وربما ينساق الى الفساد. اما المرأة فهي ليست كالرجل حيث لاتتمكن من ان تحدد اختيار زوجها.

والمرأة من حيث كونها مدبرة لشؤون البيت الداخلية، ومأمورة بالحفاظ على اولاد زوجها وامواله وكل ما يخصه، فان اعظم خصالها هي: الوفاء والثقة. الا ان تبرجها وتكشفها يفسد هذا الوفاء ويزعزع ثقة الزوج بها، فتجرع الزوج آلاماً معنوية وعذاباً وجدانياً.

حتى ان الشجاعة والسخاء وهما خصلتان محمودتان لدى الرجال اذا ماوجدتا في النساء عدتا من الاخلاق المذمومة، لاخلالهما بتلك الثقة والوفاء، اذ تفضيان الى

---

(١) «تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الامم يوم القيامة» رواه عبدالرزاق والبيهقي عن سعيد بن ابي هلال مرسلا بلفظ: (تناكحوا تكثروا فاني اباهي بكم الامم يوم القيامة) قال في المقاصد: جاء معناه عن جماعة من الصحابة، فأخرج ابو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم عن معقل بن يسار مرفوعاً: تزوجوا الولود الودود فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة، ولأحمد وسعيد بن منصور والطبراني في الاوسط والبيهقي وآخرين عن أنس قال كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة وينهى عن التبتل نهيا شديداً ويقول: تزوجوا الولود الودود فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة، وصححه ابن حبان والحاكم.. الخ (باختصار عن كشف الخفاء للعجلوني ١٠٢١) والسيوطي في الجامع الصغير (٣٣٦٦).

الوقاحة والاسراف. وحيث ان وظيفة الزوج غير قاصرة على الائتمان على اموالها، وعلى الارتباط بها بل تشمل حمايتها والرحمة بها والاحترام لها فلا يلزمه ما يلزم الزوجة، اي لا يقيد اختياره بزوجة واحدة، ويمكنه ان ينكح غيرها من النساء.

ان بلادنا لاتقاس ببلدان اوربا، فهناك وسائل صارمة للحفاظ – الى حد ما – على الشرف والعفاف في وسط متبرج متكشف، منها المبارزة وامثالها، فالذي ينظر بخبث الى زوجة احد الشرفاء عليه ان يعلق كفنه في عنقه مقدماً. هذا فضلاً عن ان طبائع الاوربيين باردة جامدة كمناخهم. اما هنا في بلاد العالم الاسلامي خاصة فهي من البلدان الحارة قياسا الى اوروبا، ومعلوم مدى تأثير البيئة في اخلاق الانسان. ففي تلك الاصقاع الباردة، ولدى أناس باردين قد لايؤدي التبرج الذي يثير الهوى الحيواني ويهيج الرغبات الشهوانية الى تجاوز الحدود مثلما يؤدي الى الافراط والاسراف في اناس حساسين يثارون بسرعة في المناطق الحارة.

فالتبرج وعدم الحجاب الذي يثير هوى النفس، ويطلق الشهوات من عقالها يؤدي حتماً الى الافراط وتجاوز الحدود والى ضعف النسل وانهيار القوى. حيث ان الرجل الذي يمكنه أن يقضي وطره الفطري في شهر أو في عشرين يوماً يظن نفسه مضطراً الى دفعه كل بضعة ايام. وحيث ان هناك عوارض فطرية – كالحيض – تجنبه عن اهله وقد تطول خمسة عشر يوما، تراه ينساق الى الفحش ان كان مغلوبا لنفسه.

ثم ان اهل المدن لا ينبغي لهم انّ يقلّدوا اهل القرى والارياف في حياتهم الاجتماعية ويرفعوا الحجاب فيما بينهم، لأن اهل القرى يشغلهم شاغل العيش وهم مضطرون الى صرف جهود بدنية قوية لكسب معيشتهم، وكثيراً ما تشترك النساء في اشغال متعبة، لذا لا يهيج ما قد ينكشف من اجزاء اجسامهن الخشنة شهوات حيوانية لدى الآخرين، فضلاً عن انه لا يوجد في القرى سفهاء عاطلون بقدر ما هو موجود في المدن. فلا تبلغ مفاسدها الى عشر ما في المدينة، لهذا لا تقاس المدن على القرى والارياف.

[مسألة مهمة اخطرت على القلب فجأة]

تنبيه :
ان دأب رسائل النور في الخطاب هو الرحمة والشفقة والرأفة، لذا يرتبط معها النساء اللاتي يتميزن بالشفقة والحنان اكثر من الرجال. اما هذا البحث فانه موجه الى اللاتى يقلدن الاجنبيات تقليداً اعمى، لذا تبدو فيه الشدة في الكلام، وليس ذلك الا لتنبيه الغافلات وايقاظهن. أما اخواتنا رائدات الشفقة والحنان فنرجو الاّ تزعجهن شدته في الكلام.

يُفهم من روايات الاحاديث النبوية ان النساء وفتنتهن ستؤدى أخطر دور وأرهبه في فتنة آخر الزمان.

نعم، كما تنقل لنا كتب التاريخ: انه كانت في القرون الاولى طائفة من النساء اشتهرن بالشجاعة وحمل السلاح يعرفن بـ (نساء الامازون) حتى تشكلت منهن فرقة عسكرية اقتحمت حروباً ضارية، كذلك في عصرنا هذا، لدى تصدى ضلالة الزندقة للاسلام وحربها معه فان أرهب فرقة من الفرق المغيرة على الاسلام والتى تسير وفق مخطط النفس الامارة بالسوء، وسلمت قيادها وامرتها الى الشيطان، هى طائفة من النساء الكاسيات العاريات اللائى يكشفن عن سيقانهن ويجعلنها سلاحاً قاسياً جارحاً ينزل بطعناته على أهل الايمان! فيغلقن بذلك باب النكاح ويفتحن أبواب السفاح، اذ يأسرن بغتة نفوسَ الكثيرين ويجرحنهم جروحاً غائرة في قلوبهم وأرواحهم بارتكابهم الكبائر، بل ربما يصرعن قسماً من تلك القلوب ويقضين عليها.

وانه لعقاب عادل لهن، أن تصبح تلك السيقانُ المدججة بسلاح الفتنة الجارح حطب جهنم وتحرق في نارها أول ما يحرق، لما كن يكشفنها لبضع سنوات أمام من يحرم عليهن.

فضلاً عن ذلك فانهن يفقدن الزوج المناسب لهن، بل لا يستطعن الحصول عليه وهن في أمس الحاجة اليه بحكم الفطرة والخلقة، لما كن قد ضيّعن الثقة والوفاء في الدنيا، بل يصبحن في حالة من الابتذال وفقدان الرعاية والاهمية – نتيجة عدم الرغبة

في النكاح وعدم الرعاية لحقوقه ـ أن يكون رجل واحد قيّماً على أربعين من النساء، كما ورد ذلك في الحديث الشريف[١].

فما دامت الحقيقة هكذا.. وما دام كلُّ جميل يحب جماله، ويحاول جهده المحافظة عليه، ولا يريد أن يُمَسّ بسوء.. وما دام الجمال نعمة مهداة، والنعمة إن حُمدت عليها زادت وان قوبلت بالنكران تغيّرت.. فلا شك ان المرأة المالكة لرشدها ستهرب بشدة وبكل ماالديها من قوة من ان تجعل جمالها وسيلة لكسب الخطايا والذنوب وسوق الآخرين اليها.. وستفر حتماً من ان تجعل جمالها يتحول الى قبح دميم وجمال منحوس مسموم.. وستنهزم بلاشك من ان تجعل بالنكران تلك النعمة المهداة مدار عذاب وعقاب.

لذا ينبغي للمرأة الحسناء استعمال جمالها على الوجه المشروع ليظل ذلك الجمال الفانى خالداً دائماً بدلاً من جمال لا يدوم سوى بضع سنين، فتكون عندئذ قد أدت شكر تلك النعمة. والاّ ستتجرع الآلام والعذاب في وقت شيخوختها، وستبكى وتندب على نفسها يائسة نادمة لشدة ما ترى من استثقال الآخرين لها واعراضهم عنها.

أما اذا زُين ذلك الجمال بزينة آداب القرآن الكريم وروعي الرعاية اللائقة ضمن نطاق التربية الاسلامية، فسيظل ذلك الجمال الفانى باقياً ـ معنىً ـ وستمنح المرأة جمالاً هو أجمل وأبهى وأحلى من جمال الحور العين في الجنة الخالدة كما هو ثابت في الحديث الشريف[٢]. فلئن كانت لتلك المرأة مسكة من عقل، فلن تدع هذه النتيجة الباهرة الخالدة قطعاً ان تضيع منها.

---

(١) عن أنس قال: لاحدثنكم حديثاً لا يحدثكم احد بعدى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من اشراط الساعة ان يقل العلم ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيّمُ الواحد) البخارى ـ كتاب العلم ـ باب رفع العلم وظهور الجهل.

(٢) في الباب احاديث كثيرة نذكر منها: عن ام سلمة زوج النبي ﷺ قالت: (في حديث طويل) قلت: يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا افضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يارسول الله. وبمَ ذلك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله عز وجل ألبس الله عز وجل وجوههن النور واجسادهن الحرير، بيض الالوان، خضر الثياب، صفر الحلي... الخ الحديث.. رواه الطبرانى في الكبير والاوسط وهذا لفظه (عن الترغيب والترهيب للمنذري ٥٣٧/٤).

حوار مع المؤمنات، اخواتي في الآخرة

باسمه سبحانه

حينما كنت اشاهد في عدد من الولايات اهتمام النساء برسائل النور اهتماماً حاراً خالصاً وعلمت اعتمادهن على دورسي التي تخص النور بما يفوق حدي بكثير، جئت مرة ثالثة الى مدرسة الزهراء المعنوية، هذه المدينة المباركة «اسپارطة»، فسمعت ان اولئك النساء الطيبات المباركات، اخواتي في الآخرة، ينتظرن مني ان القي عليهن درسا، على غرار ما يلقى في المساجد من دروس الوعظ والارشاد. بيد أني اعاني امراضاً عدة، مع ضعف وانهاك شديدين حتى لا استطيع الكلام ولا التفكر. ومع ذلك فقد سنحت بقلبي هذه الليلة خاطرة قوية، هي:

انك قد كتبت قبل خمس عشرة سنة رسالة (مرشد الشباب) بطلب من الشباب انفسهم، وقد استفاد منها الكثيرون، بينما النساء هن احوج الى مثل هذا «المرشد» في هذا الزمان.

فازاء هذه الخاطرة وعلى الرغم مما اعانيه من اضطراب ومن عجز وضعف كتبت في غاية الاختصار لأخواتي المباركات ولبناتي المعنويات الشابات بعض ما يلزمهن من مسائل، ضمن نكات ثلاث.

النكتة الاولى:

لما كان اهم اساس من اسس رسائل النور هو «الشفقة» وان النساء هن رائدات الشفقة وبطلات الحنان، فقد اصبحن اكثر ارتباطاً برسائل النور فطرة. فهذه العلاقة الفطرية تُحس بها في كثير من الاماكن ولله الحمد والمنة.

ولقد غدت التضحية التي تنطوي عليها الشفقة والحنان ذات اهمية عظمى في زماننا هذا، اذ انها تعبر عن اخلاص حقيقي وفداء دون عوض ومقابل.

نعم! ان فداء الام بروحها انقاذاً لولدها من الهلاك من دون انتظار لأجر، وتضحيتها بنفسها باخلاص حقيقي لاولادها باعتبار وظيفتها الفطرية، تدلان على وجود بطولة سامية رفيعة في النساء، بحيث يستطعن ان ينقذن حياتهن الدنيوية والاخروية بانكشاف هذه البطولة وانجلائها في انفسهن، إلا ان تيارات فاسدة تحول دون ظهور تلك السجية القيمة القويمة وتمنع انكشافها، او تصرف تلك التيارات هذه السجية الطيبة الى غير محالها فتسيئ استعمالها.

نورد هنا مثالا واحدا من مئات امثلتها:

ان الوالدة الحنون تضع نصب عينها كل فداء وتضحية لتمنع عن ولدها المصائب والهلاك، لتجعله سليماً معافىً في الدنيا. فتربي ولدها على هذا الاساس، فتنفق جميع اموالها ليكون ابنها عظيماً وسيداً آمراً. فتراها تأخذ ولدها من المدارس العلمية الدينية وترسله الى اوروبا، من دون ان تفكر في حياة ولدها الابدية التي تصبح مهددة بالخطر.

فهي اذ تسعى لتنقذه من سجن دنيوي، لا تهتم بوقوعه في سجن جهنم الابدي، فتتصرف تصرفا مخالفا لفطرتها مخالفة كلية، اذ بدلا من ان تجعل ولدها البرئ شفيعا لها يوم القيامة تجعله مدعياً عليها، اذ سيشكو ذلك الولد هناك قائلا لها: «لِمَ لم تقوى ايماني حتى سببت في هلاكي هذا؟!».

وحيث انه لم يأخذ قسطاً وافراً من التربية الاسلامية، فلا يبالي بشفقة والدته الخارقة، بل قد يقصر في حقها كثيراً.

ولكن اذا ما سعت تلك الوالدة الى انقاذ ولدها الضعيف من السجن الابدي الذي هو جهنم، ومن الاعدام الابدي الذي هو الموت في الضلالة، بشفقتها الحقيقية الموهوبة دون الاساءة في استعمالها، فان ولدها سيوصل الانوار دوما الى روحها بعد وفاتها، اذ يسجل في صحيفة اعمالها مثل جميع الحسنات التي يعملها الولد. كما سيكون لها ولدا طيبا مباركاً ينعمان معاً في حياة خالدة، شفيعاً لها عند الله ما وسعته الشفاعة، لا شاكيا منها ولامدعيا عليها.

نعم! ان اول استاذ الانسان واكثر من يؤثر فيه تعليماً، انما هو والدته.

سأبين بهذه المناسبة هذا المعنى الذي احسسه دائماً احساسا قاطعا في شخصي، وهو:

اقسم بالله ان ارسخ درس اخذته، وكأنه يتجدد عليّ، انما هو تلقينات والدتي رحمها الله ودروسها المعنوية، حتى استقرت في اعماق فطرتي واصبحت كالبذور في جسدي، في غضون عمري الذي يناهز الثمانين رغم اني قد اخذت دروساً من ثمانين الف شخص، بل ارى يقينا ان سائر الدروس انما تبنى على تلك البذور.

بمعنى اني اشاهد درس والدتي - رحمها الله - وتلقيناتها لفطرتي وروحي وانا في السنة الاولى من عمري، بذور اساس ضمن الحقائق العظيمة التي اراها الآن وانا في الثمانين من عمري.

مثال ذلك:

ان «الشفقة» التي هي اهم اساس من الاسس الاربعة في مسلكي ومشربي في الحياة.. وان «الرأفة والرحمة» التي هي حقيقة عظمى ايضاً من حقائق رسائل النور، اشاهدهما يقينا بانهما نابعتان من افعال تلك الوالدة الرؤوف ومن احوالها الشفيقة ومن دروسها المعنوية.

نعم! ان الشفقة والحنان الكامنين في الامومة والتي تحملها باخلاص حقيقي وتضحية وفداء قد أسئ استعمالها في الوقت الحاضر، اذ لا تفكر الام بما سينال ولدها في الآخرة من كنوز هي اثمن من الالماس، بل تصرف وجهه الى هذه الدنيا التي لاتعدل قطعاً زجاجية فانية، ثم تشفق على ولدها وتحنو عليه في هذا الجانب من الحياة. وما هذا الا اساءة في استعمال تلك الشفقة.

ان مما يثبت بطولة النساء في تضحيتهن العظيمة دون انتظار لأجر ولاعوض، من دون فائدة يجنينها لانفسهن ومن دون رياء واظهار لأنفسهن، هي استعدادهن للفداء بأرواحهن لأجل الولد، اقول ان مما يثبت ذلك هو ما نراه في الدجاجة التي تحمل مثالا مصغراً من تلك الشفقة، شفقة الامومة وحنانها، فهي تهاجم الاسد، وتفدي بروحها، حفاظا على فراخها الصغار.

وفي الوقت الحاضر، ان ألزم شئ واهم اساس في التربية الاسلامية واعمال الآخرة، انما هو «الاخلاص» فمثل هذه البطولة الفائقة في الشفقة تضم بين جوانحها الاخلاص الحقيقي.

فاذا ما بدت هاتان النقطتان في تلك الطائفة المباركة، طائفة النساء، فانهما سيكونان مدار سعادة عظمى في المحيط الاسلامي.

اما تضحية الآباء فلا تكون دون عوض قطعاً، وانما تطلب الاجر والمقابل من جهات كثيرة تبلغ المائة، وفي الاقل تطلب الفخر والسمعة. ولكن مع الاسف فان النساء المباركات يدخلن الرياء والتملق بطراز آخر وبنوع آخر نتيجة ضعفهن وعجزهن، وذلك خلاصا من شر ازواجهن الظلمة وتسلطهم عليهن.

النكتة الثانية:

لما كنت في هذه السنة معتزلا الناس مبتعداً عن الحياة الاجتماعية، نظرت الى الدنيا نزولا عند رغبة اخوة واخوات من النوريين، فسمعت من اغلب من قابلني من الاصدقاء، شكاوى عن حياتهم الاسرية. فتأسفت من الاعماق وقلت: «او دبّ الفسادُ في هذه الحياة ايضاً؟ ان الحياة الاسرية هي قلعة الانسان الحصينة، ولاسيما المسلم، فهي كجنته المصغرة ودنياه الصغيرة».

فتشت عن السبب الذي ادى الى فسادها. وعلمت ان هناك منظمات سرية تسعى لاضلال الشباب وافسادهم بتذليل سبل الشهوات امامهم وسوقهم الى السفاهة والغواية لافساد المجتمع الاسلامي والاضرار بالدين الاسلامي، كما احسست ان منظمات ايضاً تعمل في الخفاء وتسعى سعياً جاداً مؤثراً لدفع الغافلات من النساء اللطيفات الى طرق خاطئة آثمة. وادركت ان ضربة قاصمة على هذه الامة الاسلامية تأتي من تلك الجهة.

فانا ابين بيانا قاطعا، يا اخواتي ويا بناتي المعنويات الشابات!

ان العلاج الناجع لانقاذ سعادة النساء من الافساد في دنياهن واخراهن معا، وان الوسيلة الوحيدة لصون سجاياهن الراقية اللاتي في فطرتهن من الفساد، ليس الا في تربيتهن تربية دينية ضمن نطاق الاسلام الشامل.

انكن تسمعن ما آلت اليه حال تلك الطائفة المباركة في روسيا!

وقد قيل في جزء من رسائل النور:

ان الزوج الرشيد لا يبني محبته لزوجته على جمال ظاهري زائل لايدوم عشر سنوات، بل عليه ان يبني مودته لها على شفقتها التي هي اجمل محاسن النساء وادومه، ويوثقها بحسن سيرتها الخاصة بانوثتها، كي تدوم محبته لها كلما شابت

تلك الزوجة الضعيفة، اذ هي ليست صاحبته ورفيقته في حياة دنيوية مؤقتة، وانما هي رفيقته المحبوبة في حياة ابدية خالدة. فيلزم ان يتحابا باحترام ازيد ورحمة أوسع، كلما تقدما في العمر. اما حياة الأسرة التي تتربى في احضان المدنية الحديثة فهي معرضة للانهيار والفساد، حيث تبنى العلاقة فيها على صحبة مؤقتة يعقبها فراق ابدي.

وكذلك قيل في جزء من رسائل النور:

ان السعيد هو ذلك الزوج الذي يقلد زوجته الصالحة، فيكون صالحا مثلها، لئلا يفقد رفيقته في حياة ابدية خالدة.

وكم هي سعيدة تلك الزوجة التي ترى زوجها متدينا فتتمسك بأهداب الدين لئلا تفقد رفيقها الابدي، فتفوز بسعادة آخرتها ضمن سعادة دنياها!

وكم هو شقي ذلك الزوج الذي يتبع زوجته التي ارتمت في احضان السفاهة فيشاركها ولا يسعى لانقاذها!

وما اشقاها تلك الزوجة التي تنظر الى فجور زوجها وفسقه وتقلده بصورة اخرى!

والويل ثم الويل لذينك الزوجين اللذين يعين كل منهما الآخر في دفعه الىٰ النار، اي يغري كل منهما الآخر للانغماس في زخارف المدنية.

وفحوى هذه الجمل التي وردت بهذا المعنى في رسائل النور هو:

انه لايمكن ان يكون – في هذا الزمان – تنعّم بحياة عائلية وبلوغ لسعادة الدنيا والآخرة وانكشاف لسجايا راقية في النساء الا بالتأدب بالآداب الاسلامية التي تحددها الشريعة الغراء.

ان اهم نقطة وجانب في حياة الاسر في الوقت الحاضر هي:

انه اذا ما شاهدت الزوجة فسادا في زوجها وخيانة منه وعدم وفاء، فقامت هي كذلك – عنادا له – بترك وظيفتها الاسرية وهي الوفاء والثقة فتفسدهما، يختل عندئذٍ نظام تلك الاسرة كليا ويذهب هباء منثوراً، كالاخلال بالنظام في الجيش.

فلابد للزوجة ان تسعى جادة لإكمال نقص زوجها واصلاح تقصيره كي تنقذ صاحبها الابدي، والا فهي تخسر وتتضرر في كل جانب اذا ما حاولت اظهار نفسها وتحبيبها للآخرين بالتكشف والتبرج، لان الذي يتخلى عن الوفاء يجد جزاءه في

الدنيا ايضاً. لان فطرتها تتجنب غير المحارم وتشمئز منهم. فهي تحترز من ثمانية عشرة شخصاً من كل عشرين شخصاً اجنبياً، بينما الرجل قد لا يشمئز من النظر الى امرأة واحدة من كل مائة اجنبية.

فكما ان الزوجة تعاني من العذاب من هذه الجهة فهي تضع نفسها موضع اتهام ايضا بعدم الوفاء وفقدان الثقة والوفاء فلاتستطيع الحفاظ على حقوقها فضلا عن ضعفها.

حاصل الكلام:

كما ان النساء لايشبههن الرجال – من حيث الشفقة والحنان – في التضحية ولا في الاخلاص، وان الرجال لا يبلغون شأوهن في التضحية والفداء. كذلك لاتدرك المرأة الرجل في السفاهة والغي بأي وجه من الوجوه، لذا فهي تخاف كثيراً بفطرتها وخلقتها الضعيفة من غير المحارم وتجد نفسها مضطرة الى الاحتماء بالحجاب. ذلك لان الرجل اذا غوى لاجل تلذذ ثماني دقائق لا يتضرر الا بضع ليرات، بينما المرأة تجازى على ثماني دقائق من اللذة بثقل ثمانية اشهر وتتحمل تكاليف تربية طفل لا حامي له طوال ثماني سنوات. بمعنى ان المرأة لاتبلغ مبلغ الرجال في السفاهة، وتعاقب عليها اضعاف اضعاف عقاب الرجل.

ان هذه الحوادث ليست نادرة وهي تدل على ان النساء مخلوقات مباركات خُلقن ليكنّ منشأ للاخلاق الفاضلة، اذ تكاد تنعدم فيهن قابلية في الفسق والفجور للتمتع باذواق الدنيا. بمعنى ان النساء نوع من مخلوقات طيبات مباركات، خلقن لاجل قضاء حياة اسرية سعيدة ضمن نطاق التربية الاسلامية.

فتباً وسحقاً لتلك المنظمات التي تسعى لافساد هؤلاء الطيبات.

واسأله تعالى ان يحفظ اخواتي من شرور هؤلاء السفهاء الفاسدين.. آمين..

اخواتي! اقول لكُنّ هذا الكلام بشكل خاص:

اعملن على كسب نفقاتكن بعمل ايديكن كما تفعل نساء القرى الطيبات واكتفين بالاقتصاد والقناعة المغروزتين في فطرتكن. وهذا اولى من إمتهان انفسكن

بسبب هموم العيش بالرضوخ لسيطرة زوج فاسد، سئ الخلق، متفرنج. واذا ما كان حظ احداكن وقسمتها زوجا لا يلائمها، فلترض بقسمتها ولتقنع، فعسى الله ان يصلح زوجها برضاها وقناعتها. والاّ ستراجع المحاكم لاجل الطلاق - كما اسمع في الوقت الحاضر - وهذا لا يليق قطعاً بعزة الاسلام وشرف الامة.

النكتة الثالثة:

اخواتي العزيزات!

اعلمن قطعاً! ان الاذواق والمتع الخارجة عن حدود الشرع فيها من الآلام والمتاعب اضعاف اضعاف لذائذها. وقد اثبتت رسائل النور هذه الحقيقة بمئات من الدلائل القوية والحوادث القاطعة. ويمكنكن ان تجدن تفاصيلها في رسائل النور.

فمثلاً: الكلمة السادسة والسابعة والثامنة من «الكلمات الصغيرة» و«مرشد الشباب» تبين لكن هذه الحقيقة بوضوح تام نيابة عني. فعليكن اذاً القناعة والاطمئنان والاكتفاء بما في حدود الشرع من اذواق ولذائذ، فملاطفة اولادكن الابرياء ومداعبتهم ومجالستهم في بيوتكن متعة نزيهة تفضل مئات المرات متعة السينما.

واعلمن يقيناً! ان اللذة الحقيقية في هذه الدنيا انما هي في الايمان وفي حدود الايمان. وان في كل عمل صالح لذة معنوية، بينما في الضلالة والغي آلاما منغصة في هذه الدنيا ايضاً. هذه الحقيقة اثبتتها رسائل النور بمئات من الادلة القاطعة. فانا شخصياً شاهدت بعين اليقين عبر تجارب كثيرة وحوادث عديدة: ان في الايمان بذرة جنة، وفي الضلالة والسفه بذرة جهنم. وقد كتبت هذه الحقيقة مرارا في رسائل النور حتى عجز اعتى المعاندين والخبراء الرسميون والمحاكم عن جرح هذه الحقيقة.

فلتكن الآن «رسالة الحجاب» في المقدمة و«مرشد الشباب» و«الكلمات الصغيرة» نائبة عني في القاء الدرس عليكن يا اخواتي الطيبات المباركات ويا من هن بمثابة بناتي الصغيرات. فلقد سمعت انكن ترغبن في ان القي عليكن درساً في الجامع، ولكن مرضي الشديد، فضلاً عن ضعفي الشديد، واسباب اخرى، تحول دون ذلك. لذا فقد قررت ان اجعلكن يا اخواتي اللاتي تقرأن درسي هذا الذي كتبته لكنّ مشاركات لي في جميع مكاسبي المعنوية وفي دعواتي، كطلاب النور.

واذا استطعتن الحصول على رسائل النور وقرأتنها او استمعتن اليها، نيابة عني، فانكن تصبحن مشاركات لإخوانكن طلاب النور في جميع مكاسبهم المعنوية وادعيتهم حسب قاعدتنا المقررة.

كنت ارغب ان اكتب اليكن اكثر من هذا ولكن اكتفيت بهذا القدر لمرضي الشديد وضعفي الشديد وشيخوختي وهرمي، وواجبات كثيرة تنتظرني كتصحيح الرسائل.

الباقي هو الباقي

اخوكم المحتاج الى دعائكن

سعيد النورسي

اللمعة الخامسة والعشرون

وهي خمسة وعشرون دواء

هي عيادة للمريض، وبلسم للمرضى، ومرهم تسلية لهم، ووصفة معنوية، وقد كتبت بمثابة القول المأثور: «ذهب البأس وحمداً لله على السلامة».

تنبيه و اعتذار

تم تأليف هذه الوصفة المعنوية بسرعة تفوق جميع ما كتبناه [1] ولضيق الوقت كان تصحيحها وتدقيقها - بخلاف الجميع - بنظرة خاطفة في غاية السرعة كتأليفها، فظلت مشوشة كالمسودة الاولى، ولم نرَ حاجة للقيام بتدقيقات جديدة، حيث ان الخواطر التي ترد القلب فطرياً ينبغي عدم افسادها بزخرف القول والتفنن والتدقيق، فالرجاء من القراء وبخاصة المرضى منهم الاّ يضجروا من العبارات غير المأنوسة والجمل الصعبة وان يدعوا لي بظهر الغيب.

سعيد النورسي

---

(١) نعم نشهد ان تأليف هذه الرسالة قد تم خلال اربع ساعات ونصف الساعة.
(رشدي، رأفت، خسرو، سعيد). - المؤلف.

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ الذينَ اذا أصابَتهُم مُصيبَةٌ قالوا إنا للهِ وإنا إليهِ راجعون ﴾ (البقرة: ١٥٦)

﴿ والذي هُوَ يُطعِمُني وَيسقين ۞ واذا مَرِضتُ فهوَ يَشفين ﴾(الشعراء: ٧٩ – ٨٠)

«في هذه اللمعة نبين خمسة وعشرين دواءً بياناً مجملاً تلك الادوية التي يمكن ان تكون تسلية حقيقية ومرهماً نافعاً لاهل البلاء والمصائب وللمرضى العليلين الذين هم عُشر اقسام البشرية».

الدواء الاول

ايها المريض العاجز! لاتقلق، اصبر! فان مرضك ليس علّة لك بل هو نوع من الدواء؛ ذلك لان العمر رأس مال يتلاشى، فان لم يُستثمر فسيضيع كل شئ، وبخاصة اذا انقضى بالراحة والغفلة وهو يحث الخطى الى نهايته، فالمرض يكسب رأس مالك المذكور أرباحاً طائلة، ولايسمح بمضيّه سريعاً، فهو يُبطئ خطوات العمر، ويمسكه، ويطوّله، حتى يؤتى ثماره، ثم يغدو الى شأنه. وقد ذهب طول العمر بالامراض مثلاً، فقيل: «ألا ما أطول زمن النوائب وما اقصر زمن الهناء!».

الدواء الثاني

ايها المريض النافد الصبر! تجمّل بالصبر! بل تجمّل بالشكر، فان مرضك هذا يمكنه ان يجعل من دقائق عمرك في حكم ساعات من العبادة، ذلك لان العبادة قسمان:

الاولى: العبادة الايجابية المتجسّدة في اقامة الصلاة والدعاء وامثالها.

الثانية: العبادة السلبية التي يتضرع فيها المُصاب ملتجأً الى خالقه الرحيم مستجيراً به متوسلاً اليه، منطلقاً من احاسيسه التي تُشعره بعجزه وضعفه امام تلك الامراض والمصائب. فينال بذلك التضرع عبادةً معنوية خالصة متجردة من كل انواع الرياء.

نعم، هناك روايات صحيحة على ان العمر الممزوج بالمرض والسقم يعدّ للمؤمن عبادة (١) على شرط عدم الشكوى من الله سبحانه. بل هو ثابت بعدة روايات صحيحة وكشفيات صادقة كون دقيقة واحدة من مرض قسم من الشاكرين الصابرين هي بحكم ساعة عبادة كاملة لهم، وكون دقيقة منه لقسم من الكاملين هي بمثابة يوم عبادة كاملة لهم. فلا تشكُ – يا اخي – من مرض يجعل من دقيقة عصيبة عليك الف دقيقة ويمدك بعمر طويل مديد! بل كن شاكراً له.

الدواء الثالث

ايها المريض الذي لايطيق! ان الانسان لم يأت الى هذه الدنيا للتمتع والتلذذ. والشاهد على ذلك: رحيل كل آت، وتشيّب الشباب، وتدحرج الجميع في دوّامة الزوال والفراق. وبينا ترى الانسان اكمل الاحياء واسماها واغناها اجهزة بل هو السيد عليها جميعاً، اذا به بالتفكر في لذات الماضي وبلايا المستقبل، يقضي حياته في كدر ومشقة هاوياً بنفسه الى دركاتٍ ادنى من الحيوان.

فالانسان اذاً لم يأت الى هذه الدنيا لقضاء عيش ناعم جميل مغمور بنسمات الراحة والصفاء، بل جاء الى هنا ليغنم سعادة حياةٍ ابدية دائمة بما يُسّر له من سبل التجارة برأس ماله العظيم الذي هو العمر. فاذا انعدمُ المرضُ، وقع الانسان في الغفلة نتيجة الصحة والعافية، وبدت الدنيا في عينيه حلوة خضرة لذيذة، فيصيبه عندئذ مرضُ نسيان الآخرة، فيرغب عن ذكر الموت والقبر، ويهدر رأس مال عمره الثمين هباءً منثورا.. في حين ان المرض سرعان ما يوقظه مفتحاً عينيه، قائلاً له: «انت لست خالداً ولست سائباً، بل انت مسخّر لوظيفة، دع عنك الغرور، اذكر خالقك.. واعلم بانك ماض الى القبر، وهيئ نفسك وجهّزها هكذا».

فالمرض اذاً يقوم بدور مرشد ناصح امين موقظ، فلا داعي بعدُ الى الشكوى منه، بل يجب التفيؤ في ظلال الشكر – من هذه الناحية – واذا ما اشتدت وطأته كثيراً فعليك بطلب الصبر منه تعالى.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «اذا ابتلى الله العبد المسلم ببلاء في جسده، قال الله عزّ وجل: اكتب له صالح عمله، فإن شفاه غسّله وطهّره، وان قبضه غفر له ورحمه» حديث حسن: رواه احمد (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢٥٦) الارواء ٥٥٣.

الدواء الرابع

ايها المريض الشاكي! اعلم انه ليس لك حق في الشكوى، بل عليك الشكر، عليك الصبر؛ لان وجودك واعضاءك واجهزتك ليست بملكك انت، فانت لم تصنعها بنفسك، وانت لم تبتعها من اية شركة او مصنع ابتياعاً، فهي اذن ملكٌ لآخر. ومالك تلك الاشياء يتصرف في ملكه كيف يشاء، كما ورد ذلك في مثال في «الكلمة السادسة والعشرين الخاصة بالقَدَر» وهو:

أن صانعاً ثرياً ماهراً يكلّف رجلاً فقيراً لقاء اجرة معينة ليقوم له لمدة ساعة بدور «الموديل» النموذج. فلاجل اظهار صنعته الجميلة وثروته القيمة يُلبسه القميص المزركش الذي حاكه، والحلة القشيبة المرصعة التي نسجها في غاية الجمال والصنعة، وينجز عليه اعمالاً ويظهر اوضاعاً واشكالاً شتى لبيان خوارق صنعته وبدائع مهارته، فيقصّ ويبدل، ويطوّل، ويقصر، وهكذا..

فيا تُرى أيحق لذلك الفقير الاجير ان يقول لذلك الصانع الماهر: «انك تتعبني وترهقني وتضيّق عليّ بطلبك مني الانحناء مرة والاعتدال اخرى.. وانك تشوّه الجمال المتألق على هذا القميص الذي يجمّل هندامي ويزيّن قامتي بقصّك وتقصيرك له.. إنك تظلمني ولا تنصفني؟»

وكذلك الحال بالنسبة للصانع الجليل سبحانه وتعالى — ولله المثل الاعلى — الذي البسك ايها المريض قميص الجسد، واودع فيه الحواس النورانية المرصعة كالعين والاذن والعقل، فلأجل اظهار نقوش اسمائه الحسنى، يبدّلك ضمن حالات متنوعة ويضعك في اوضاع مختلفة. فكما انك تتعرف على اسمه «الرزاق» بتجرعك مرارة الجوع، تتعرف على اسمه «الشافي» بمرضك.

ونظراً لظهور قسم من احكام اسمائه الحسنى بالآلام وانكشافه بالمصائب، ففيها لمعات الحكمة وشعاعات الرحمة وأنوار الجمال. فاذا ما رُفع الحجاب فستجد فيما وراء مرضك الذي تستوحش منه وتنفر، معاني عميقة جميلة محببة ترتاح اليها، تلك التي كانت تنزوي خلف حجاب المرض.

الدواء الخامس

ايها المبتلى بالمرض! لقد توافرت لديّ القناعة التامة خلال تجربتي في هذا الزمان، بان المرض نوع من الاحسان الإلهي والهدية الرحمانية لقسم من الناس[١]. فقد التقاني بعض الشباب في هذه السنوات الثماني او التسع، لمعاناتهم المرض، ابتغاء دعائي لهم، رغم اني لست اهلاً لذلك. فلاحظت أن مَن كان منهم يعاني مرضاً هو اكثر تفكراً في الآخرة وتذكراً لها، وليس ثملاً بغفلة الشباب، بل كان يقي نفسه - الى حدّ ما - تحت اوجاع المرض وأوصابه ويحافظ عليها من الشهوات الحيوانية. وكنت اذكّرهم بأني ارى أن أمراضهم هذه، ضمن قابليتهم على التحمّل انما هي احسان إلهي وهبة منه سبحانه. وكنت اقول: «ياأخي! انا لست ضد مرضك هذا ولاعليه، فلا اشعر بشفقة عليك ورأفة لاجل مرضك، كي اقوم بالدعاء لك، فحاول التجمل بالصبر والثبات امام هذا المرض، حتى تتحقق لك الافاقة والصحوة؛ إذ بعد أن ينهي المرض مهامه سيشفيك الخالق الرحيم ان شاء». وكنت اقول ايضاً: «ان قسماً من امثالك يزعزعون حياتهم الابدية بل يهدمونها مقابل متاع ظاهري لساعة من حياة دنيوية، وذلك لمضيّهم سادرين في الغفلة الناشئة من بلاء الصحة، هاجرين الصلاة ناسين الموت وغافلين عن الله عز وجل. اما انت فترى بعين المرض القبرَ الذي هو منزلك الذي لا مناص من الذهاب اليه، وترى كذلك ما وراءه من المنازل الاخروية الاخرى، ومن ثم تتحرك وتتصرف على وفق ذلك. فمرضك اذاً انما هو بمثابة صحةٍ لك، والصحة التي يتمتع بها قسم من امثالك انما هي بمثابة مرضٍ لهم».

الدواء السادس

ايها المريض الشاكي من الالم! أسألك أن تعيد في نفسك ما مضى من عمرك وان تتذكر الايام الهانئة اللذيذة السابقة من ذلك العمر والاوقات العصيبة والاليمة التي فيه.

فلا جرم انك ستنطق لساناً أو قلباً: إما بـ«أوه» او «آه». اي اما ستتنفس الصعداء وتقول: «الحمد لله والشكر له» او ستتنهد عميقاً قائلاً: «واحسرتاه!. وا اسفاه!».

---

(١) عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال: «مَن يرد الله به خيراً يُصب منه» رواه البخاري ومالك.

فانظر كيف ان الآلام والنوائب التي عانيت منها سابقاً عندما خَطَرتْ بذهنك غمرتك بلذة معنوية، حتى هاج قلبك بـ« الحمد لله والشكر له »؛ ذلك لان زوال الالم يولّد لذة وشعوراً بالفرح. ولان تلك الآلام والمصائب قد غَرست بزوالها لذةً كامنة في الروح سالت بتخطرها على البال وخروجها من مكمنها حلاوةً وسروراً وتقطرت حمداً وشكراً. اما حالات اللذة والصفاء التي قضيتها والتي تنفث عليها الآن دخان الالم بقولك: « واأسفاه، واحسرتاه » فانها بزوالها غَرست في روحك ألماً مضمراً دائمياً، وها هو ذا الالم تتجدّد غصّاتُه الآن بأقل تفكرٍ في غياب تلك اللذات، فتنهمر دموع الاسف والحسرة. فما دامت اللذة غير المشروعة ليوم واحد تذيق الانسان – احياناً – ألماً معنوياً طوال سنة كاملة، وان الالم الناتج من يوم مرض موقت يوفر لذة معنوية لثواب ايام عدة فضلاً عن اللذة المعنوية النابعة من الخلاص منه، فتذكر جيداً نتيجة المرض الموقت الذي تعانيه وفكرّ في الثواب المرجو المنتشر في ثناياه، وتشبث بالشكر وترفّع عن الشكوى وقل: « ياهذا.. كل حالٍ يزول.. ».

الدواء السادس (١)

ايها الاخ المضطرب من المرض بتذكر اذواق الدنيا ولذائذها! لو كانت هذه الدنيا دائمة فعلاً، ولو انزاح الموت عن طريقنا فعلاً، ولو انقطعت اعاصير الفراق والزوال عن الهبوب بعد الآن، ولو تفرغ المستقبلُ العاصف بالنوائب عن مواسم الشتاء المعنوية، لانخرطتُ في صفك ولرثيتك باكياً لحالك. ولكن ما دامت الدنيا ستخرجنا منها قائلة: « هيا اخرجوا..!.. » صامّة اذانها عن صراخنا واستنجادنا. فعلينا نحن قبل ان تطردنا هي نابذة لنا، ان نهجر عشقها والاخلاد اليها من الآن، بايقاظات الامراض والسعي لاجل التخلي عن الدنيا قلباً ووجداناً قبل ان تتخلى هي عنّا.

نعم، ان المرض بتذكيره ايانا هذا المعنى اللطيف والعميق، يهمس في سرائر قلوبنا قائلاً:

---

(١) نظراً لورود هذه اللمعة فطرياً دون تكلف وتعمّد، فقد كُتبت في المرتبة السادسة دواءان، واحجاماً عن الاقحام في فطريتها، فقد تركناها كما هي ولم نجرؤ على تبديل شئ منها خوفاً من وجود سرٍّ في المسألة.–المؤلف.

«بنيتك ليست من الصلب والحديد بل من مواد متباينة مركبة فيك، ملائمة كل التلاؤم للتحلل والتفسخ والتفرق حالاً، دع عنك الغرور وادرك عجزك وتعرّف على مالكك، وافهم ما وظيفتك وتعلّم ما الحكمة والغاية من مجيئك الى الدنيا؟».

ثم ما دامت ان اذواق الدنيا ولذاتها لاتدوم، وبخاصة اذا كانت غير مشروعة، بل تبعث في النفس الالم وتكسبه ذنباً وجريرة، فلا تبك على فقدك ذلك الذوق بحجة المرض، بل تفكّر في معنى العبادة المعنوية التي يتضمنها مرضك والثواب الاخروي الذي يخفيه لك، واسع لتنال ذلك الذوق الخالص الزكي.

الدواء السابع

ايها المريض الفاقد لنعمة الصحة! ان مرضك لايذهب بلذة النعمة الإلهية في الصحة بل على العكس، انه يذيقك ايّاها ويطيّبها ويزيدها لذة، ذلك ان شيئاً ما اذا دام واستمر على حاله يفقد طعمه وتأثيره. حتى اتفق أهل الحق على القول: «انما الاشياء تُعرف بأضدادها..» فمثلاً: لولا الظلمة لما عُرف النور ولظل دون لذة، ولولا البرودة لما عُرفت الحرارة ولبقيت دون استساغة، ولولا الجوع لما اعطى الاكل لذته وطعمه، ولولا حرارة المعدة لما وَهَبنا احتساء الماء ذوقاً، ولولا العلّة لكانت العافية بلا ذوق، ولولا المرض لباتت الصحة عديمة اللذة.

ان الفاطر الحكيم لمّا اراد اشعار الانسان وجعله يحس بمختلف احساناته واذاقته انواع نِعَمه سوقاً منه الى الشكر الدائم، جهّزه بأجهزة في غاية الكثرة لتُقبل على تذوق تلك الآلاف المؤلفة من انواع النعم المختلفة، لذا فلابد من انه سينزل الامراض والاسقام والعلل ايضاً مثلما يُلطف ويرزق بالصحة والعافية.

واسألك: «لو لم يكن هذا المرض الذي اصاب رأسك او يدك او معدتك.. هل كان بمقدورك ان تتحسس اللذة الكامنة في الصحة التي كانت باسطة ظلالها على رأسك او يدك او معدتك؟ وهل كنت تتمكن ان تتذوق وتشكر النعمة الإلهية التي جسّدتها تلك النعمة؟ بل كان الغالب عليك النسيان بدلاً من الشكر، او لكنت تصرف تلك الصحة بطغيان الغفلة الى سفاهة دون شعور!»

الدواء الثامن

ايها المريض الذاكر لآخرته! ان مرضك كمفعول الصابون، يطهّر ادرانك، ويمسح عنك ذنوبك، وينقيك من خطاياك. فقد ثبت أن الامراض كفّارات للذنوب والمعاصي، وورد في الحديث الصحيح:

(ما من مسلم يصيبه اذىً الاّ حاتّ الله عنه خطاياه كما تحاتّ ورق الشجر)(١) والذنوب هي امراض دائمة في الحياة الابدية. وهي في هذه الحياة الدنيا امراضٌ معنوية في القلب والوجدان والروح. فاذا كنت صابراً لا تشكو نجوت بنفسك اذاً بهذا المرض العابر من امراض دائمة كثيرة جداً. واذا كنت لاهياً عن ذنوبك، ناسياً آخرتك غافلاً عن ربك، فاني أؤكد معاناتك من داءٍ خطير، هو أخطر وأفتك واكبر بمليون مرة من هذه الامراض الموقتة، ففرّ منه واصرخ..! لان قلبك وروحك ونفسك كلها مرتبطة بموجودات الدنيا قاطبة، وان تلك الاواصر تنقطع دوماً بسيوف الفراق والزوال فاتحة فيك جروحاً عميقة، وبخاصة انك تتخيل الموت اعداماً ابدياً لعدم معرفتك بالآخرة. فكأن لك كياناً مريضاً ذا جروح وشروخ بحجم الدنيا، مما يحتم عليك قبل كل شئ ان تبحث عن العلاج التام والشفاء الحقيقي لكيانك المعنوي الكبير الذي تفسّخه العلل غير المحدودة والكلوم غير المعدودة، فما اظنك تجدها الاّ في علاج الايمان وبلسمه الشافي، واعلم ان اقصر طريق لبلوغ ذلك العلاج هو الاطلال من نافذتي «العجز والفقر» اللتين تتفتحان بتمزيق المرض المادي لحجاب الغفلة واللتين جُبلَ الانسان عليهما، وبالتالي تبلغ معرفة قدرة القادر ذي الجلال ورحمته الواسعة.

نعم ان الذي لا يعرف الله يحمل فوق رأسه هموماً وبلايا بسعة الدنيا وما فيها، ولكن الذي عرف ربه تمتلئ دنياه نوراً وسروراً معنوياً، وهو يشعر بذلك بما لديه من قوة الايمان - كل حسب درجته - نعم ان ألم الامراض المادية الجزئية يذوب وينسحق تحت وابل السرور المعنوي والشفاء اللذيذ القادمين من الايمان.

---

(١) رواه البخاري. كتاب المرضى والطب - المترجم.

الدواء التاسع

ايها المريض المؤمن بخالقه! ان سبب التألم من الامراض والخوف والفزع منها ينبع من كون المرض احياناً وسيلة للموت والهلاك، ولكون الموت - بنظر الغفلة - مرعباً مخيفاً ظاهراً، فان الامراض التي يمكن ان تكون وسائل له، تبعث على القلق والاضطراب. فاعلم:

اولاً: آمن قطعاً:

ان الاجل مقدّر لا يتغيّر. فقد حدث ان مات اولئك الباكون عند المحتضرين في مرضهم. مع انهم كانوا يتمتعون بصحة وعافية، وشفي اولئك المرضى الذين كانت حالتهم خطرة وعاشوا بعد ذلك احياءً يرزقون.

ثانياً:

ان الموت ليس مخيفاً في ذاته، كما يبدو لنا في صورته الظاهرية، وقد اثبتنا في رسائل كثيرة اثباتاً قاطعاً - دون ان يترك شكاً ولا شبهة - بموحيات نور القرآن الكريم:

أن الموت للمؤمن اعفاء وانهاء من كلفة وظيفة الحياة ومشقتها.. وهو تسريح من العبودية التي هي تعليم وتدريب في ميدان ابتلاء الدنيا.. وهو باب وصال لالتقاء تسعة وتسعين من الاحبة والخلاّن الراحلين الى العالم الآخر.. وهو وسيلة للدخول في رحاب الوطن الحقيقي والمقام الابدي للسعادة الخالدة.. وهو دعوة للانتقال من زنزانة الدنيا الى بساتين الجنة وحدائقها.. وهو الفرصة الواجبة لتسلم الاجرة ازاء الخدمة المؤداة، تلك الاجرة التي تغدق سخية من خزينة فضل الخالق الرحيم.

فما دامت هذه هي ماهية الموت - من زاوية الحقيقة - فلا ينبغي ان يُنظر اليه كأنه شئ مخيف، بل يجب اعتباره تباشير الرحمة والسعادة. حتى أن قسماً من «اهل الله» لم يكن خوفهم من الموت بسبب وحشة الموت ودهشته، وانما بسبب رغبتهم في كسب المزيد من الخير والحسنات بادامة وظيفة الحياة.

نعم ان الموت لاهل الايمان باب الرحمة. وهو لاهل الضلالة بئر مظلمة ظلاماً ابدياً.

الدواء العاشر

ايها المريض القلق دون داع للقلق! انت قلقٌ من وطأة المرض وشدته، فقلقك هذا يزيد ثقل المرض عليك. فاذا كنت تريد ان تخفف المرض عنك، فاسع جاهداً للابتعاد عن القلق. اي: تفكّر في فوائد المرض، وفي ثوابه، وفي حثه الخطى الى الشفاء. فاجتث جذور القلق من نفسك لتجتث المرض من جذوره.

نعم، ان القلق (او الوسوسة) يضاعف مرضك ويجعله مرضين. لان القلق يبث في القلب – تحت وطأة المرض المادي – مرضاً معنوياً، فيدوم المرض المادي مستنداً اليه، فاذا ما أذهبتَ عنك القلق والهواجس بتسليم الامر لله والرضا بقضائه، وباستحضار حكمة المرض، فان مرضك المادي سيفقد فرعاً مهماً من جذوره فيخفف، وقسمٌ منه يزول، واذا ما رافقت المرض المادي اوهام وهواجس فقد يكبر عشر معشار تلك الاوهام بوساطة القلق الى معشار، ولكن بانقطاع القلق يزول تسعٌ من عشرة من مفعول ذلك المرض، وكما ان القلق يزيد المرض، كذلك يجعل المريض كأنه يتهم الحكمة الإلهية وينتقد الرحمة الإلهية ويشكو من خالقه الرحيم، لذا يؤدَّب المريض بلطمات التأديب – بخلاف ما يقصده هو – مما يزيد مرضه. اذ كما ان الشكر يزيد النعم فالشكوى كذلك تزيد المرض والمصيبة. هذا وان القلق في حد ذاته مرض، وعلاجه انما هو في معرفة حكمة المرض. واذا ما عرفت حكمته وفائدته، فامسح قلقك بذلك المرهم وانج بنفسك وقل بدلاً من «وآسفاه»: «الحمد لله على كل حال».

الدواء الحادي عشر

ايها الاخ المريض النافد صبره! مع ان المرض يعطيك ألماً حاضراً فهو يمنحك في الوقت نفسه لذة معنوية مستدرة من زوال مرضك السابق، مع لذةٍ روحية نابعة من الثواب الحاصل من جراء ذلك المرض. فالزمان القابل بعد اليوم، بل بعد هذه الساعة لا يحمل مرضاً. ولاشك أن لا ألم من غير شئ، وما لم يكن هناك ألمٌ فلا توجّع ولاشكوى. ولكن لانك تتوهم توهماً خطأً فان الجزع ينتابك، اذ مع زوال فترة المرض المادي قد ذاب ألم تلك الفترة ايضاً وثبت ثواب المرض وبقيت لذة زواله.. فمن البلاهة بل من الجنون ان تتذكر بعد الآن المرض السابق وتتألم منه، فتفقد صبرك

وينفد منك، في حين يلزمك الانشراح بذهابه والارتياح بثوابه. اما الايام القابلة فانها لم تأت بعد. أليس من البلاهة إشغال النفس من الآن بالتفكر في يوم لم يولد بعد، وفي مرض لم ينزل بعد وفي الم لم يقع بعد؟. فهذا النوع من التوهم – نتيجة التفكر المرير وتحميل النفس ألماً موجعاً – يدفع الى فقدان الصبر ويُصبغ ثلاثة انواع من العدم بثلاث مراتب من الوجود. أليس هذا جنوناً؟. فما دامت أزمنة المرض التي سبقت هذه الساعة تبعث على النشوة والحبور، وما دام الزمان القابل بعد هذه الساعة معدوماً، فالمرض معدوم والالم معدوم.

فلا تبذّر يا اخي ما وهب لك الحق سبحانه وتعالى من قوة الصبر يميناً وشمالاً. بل احشدها جميعاً مقابل الالم الذي يعتريك في هذه الساعة وقل: «ياصبور» وتحمل صابراً محتسباً!...

الدواء الثاني عشر

ايها المريض المحروم من العبادة واورادها بسبب المرض! ويا ايها الآسف على ذلك الحرمان! اعلم انه ثابت في الحديث الشريف (١) ما معناه: ان المؤمن التقي يأتيه ثواب ما كان يؤديه من العبادة حتى في اثناء مرضه، فالمرض لايمنع ثوابه. فان المريض المؤدي للفرائض – على قدر استطاعته – سينيب المرض عن سائر السنن ويحل محلّها اثناء شدة المرض إنابة خالصة، لما يتجمل ذلك المريض بالصبر والتوكل والقيام بالفرائض، وكذا يشعر المرضُ الانسان بعجزه وضعفه، فيتضرع المريض بذلك العجز وذلك الضعف بالدعاء حالاً وقولاً. وما اودع الله سبحانه وتعالى في الانسان عجزاً غير محدود وضعفاً غير متناه الا ليلتجئ دائماً الى الحضرة الإلهية بالدعاء سائلاً راجياً، حيث ان الحكمة من خلق الانسان والسبب الاساس لأهميته هو الدعاء الخالص بمضمون الآية الكريمة:

﴿ قُل مَا يَعبَؤا بِكُم رَبّي لَولا دُعاؤكُم ﴾ (الفرقان: ٧٧) ولكون المرض سبباً للدعاء الخالص، فلا تصح الشكوى منه، بل يجب الشكر لله؛ اذ لا ينبغي ان تُجفّف ينابيع الدعاء التي فجّرها المرض عند كسب العافية.

(١) عن ابي موسى ان النبي ﷺ قال: «اذا مرض العبد او سافر، كتب الله تعالى له من الاجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً» اخرجه احمد والبخاري.

الدواء الثالث عشر

ايها المسكين الشاكي من المرض! ان المرض يغدو كنزاً عظيماً لبعض الناس، وهدية إلهية ثمينة لهم. وباستطاعة كل مريض ان يتصور مرضه من هذا النوع، حيث ان الحكمة الإلهية اقتضت ان يكون الاجلُ مجهولاً وقته، انقاذاً للانسان من اليأس المطلق ومن الغفلة المطلقة، وابقاءاً له بين الخوف والرجاء، حفظاً لدنياه وآخرته من السقوط في هاوية الخسران.. اي أن الاجل متوقع مجيئه كل حين، فإن تمكّن من الانسان وهو سادر في غفلته يكّبده خسائر فادحة في حياته الاخروية الابدية. فالمرض يبدد تلك الغفلة ويشتتها، وبالتالي يذكّر بالآخرة ويستحضر الموت في الذهن فيتأهب له. بل يحدث ان يربّحه ربحاً عظيماً، فيفوز خلال عشرين يوماً بما قد يستعصي استحصاله خلال عشرين سنة كاملة. فعلى سبيل المثال:

كان هناك فَتَيان – يرحمهما الله – احدهما يدعى «صبري» من قرية «إيلاما» والآخر «مصطفى وزير زاده» من «اسلام كوي» ورغم كونهما أميين من بين طلابي، فقد كنتُ ألحظ باعجاب موقعهما في الصف الاول في الوفاء والصدق وفي خدمة الايمان، فلم ادرك حكمة ذلك في حينها، ولكن بعد وفاتهما علمت انهما كانا يعانيان من داءين عضالين، وبارشاد من ذلك المرض اصبحا على تقوى عظيمة يسعيان في خدمة راقية، وفي وضع نافع لآخرتهما، على خلاف سائر الشباب الغافلين الساهين حتى عن فرائضهم. فنسأل الله أن تكون سنتا المرض والمعاناة اللتان قضياهما في الحياة الدنيا قد تحولتا الى ملايين السنين من سعادة الحياة الابدية.

والآن فقط أفهم أنّ دعائي لهما بالشفاء قد اصبح دعاء عليهما من زاوية الدنيا، ولكن ارجو الله ان يكون دعائي مستجاباً لصحتهما الاخروية.

وهكذا استطاع هذان الشخصان – حسب اعتقادي – الحصول على ربح يساوي الكسب الذي يحققه الانسان بالسعي والتقوى لعشر سنين في الاقل [١]، فلو كانا متباهيين بصحتهما كبعض الشباب وسائقين لنفسيهما الى شراك الغفلة والسفاهة حتى يأتيهما الموت المترصد، وهما يتخبطان في اوحال الخطايا وظلماتها،

---

(١) عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال: «ان الرجل ليكون له عند الله المنزلةُ، فما يبلغها بعمل، فما يزالُ الله يبتليه بما يكره حتى يُبلغه إياها» حديث حسن: اخرجه ابو يعلى في مسنده ١٤٤٧/٤ وابن حبان في صحيحه ٦٩٣ والحاكم ٣٤٤/١ وانظر (الاحاديث الصحيحة ١٥٩٩).

لكان قبراهما الان جحور العقارب والافاعي بدلاً من كونهما الآن دفائن النور وكنوز البهجة.

فما دامت الامراض تحمل في مضامينها هذه المنافع الكبيرة فلا يجوز الشكوى منها، بل يجب الاعتماد على الرحمة الإلهية بالتوكل والصبر بل بالحمد والشكر.

الدواء الرابع عشـــر

ايها المريض المسدل على عينيه! اذا ادركت ان هناك نوراً، واي نور! وعيناً معنوية تحت ذلك الحجاب المسدل على أعين أهل الايمان، فستقول: «شكراً والف شكر لربي الرحيم». وتوضيحاً لهذا المرهم سأورد الحادثة الآتية:

لقد اصيبت عمة «سليمان» وهو من «بارلا» الذي ظل يخدمني دون أن يملّني يوماً او يتضايق بشئ مني طوال ثماني سنوات خدمة مقرونة بكمال الوفاء والاحترام... اصيبت هذه المسكينة بالعمى فانطفأ نور عينها، ولفرط حسن ظن تلك المرأة الصالحة بي اكثر مما استحق بكثير تشبثت بي وانا اغادر المسجد قائلة: «بالله عليك ادع الله لي من اجل عيني»، وانا بدوري جعلت صلاح تلك المرأة المباركة المؤمنة قريناً وشفيعاً لدعائي فدعوت الله بتضرع وتوسل قائلاً: «اللّهم يا ربنا بحرمة صلاحها اكشف عن بصرها». وفي اليوم التالي جاء طبيب من ولاية «بوردور» القريبة، وهو مختص بالعيون، فعالجها، فردّ الله عليها بصرها، وبعد اربعين يوماً عادت عينها الى حالتها الاولى، فتألمت لذلك كثيراً ودعوت دعاءً كثيراً، وارجو ان يكون دعائي مستجاباً على حساب آخرتها والاّ فان دعائي ذلك سيصبح – خطأً – دعاءً عليها، حيث قد بقيت لتستوفي اجلها اربعين يوماً فقط؛ اذ بعد اربعين يوماً مضت الى رحمة الله.

وهكذا، فان حرمان هذه المرأة المرجوة لها الرحمة من نعمة النظر ببصر الشيخوخة العطوف والاستمتاع بجمال الحدائق الحزينة لـ«بارلا» واسدال الحجاب بينها وبين المروج اللطيفة خلال اربعين يوماً، قد عوض عنها الآن في قبرها، إطلالها على الجنة ومشاهدة ألفاف حدائقها الخضراء لاربعة آلاف يوم ويوم.. ذلك لان ايمانها كان راسخاً عميقاً وصلاحها كان مشعاً عظيماً.

نعم ان المؤمن اذا ما أُسدل على عينيه حجاب ودخل القبر هكذا، فانه يستطيع ان يشاهد عالم النور – حسب درجته – بنظر اوسع من نظر اهل القبور. اذ كما اننا نرى بعيوننا اكثر الاشياء في هذه الدنيا، والمؤمنون العميان لا يستطيعون رؤيتها، ففي القبر ايضاً سيرى اولئك العميان – بتلك الدرجة – ان كانوا اصحاب ايمان – اكثر مما يراه اهل القبور، وسيشاهدون بساتين الجنة ونعيمها كأنهم مزوّدون بمراصد – كل حسب درجته – تلتقط مناظر الجنة الرائعة وتعرضها كالشاشة السينمائية امام اعين اولئك المكفوفين الذين حرموا من نور ابصارهم في الدنيا.

فبامكانك ايها الاخ الحصول على هذه العين النورانية التي تكشف عن الجنة فيما فوق السموات العلى وانت بعدُ تحت الثرى، وذلك بالصبر والشكر على ذلك الحجاب المسدل على عينيك، واعلم ان الحكيم المختص بالعين والقادر على رفع ذلك الحجاب عن عينيك لترى بتلك العين النورانية، انما هو القرآن الحكيم.

الدواء الخامس عشر

ايها المريض المتأوه بالانين! لاتتأوه ابداً ولا تئن ناظراً الى صورة المرض القبيحة المذمومة، بل انظر الى معناه وفحواه وانبسط قائلاً: الحمد لله.

فلو لم يكن معنى المرض شيئاً جميلاً لما كان الخالق الرحيم يبتلي احبّ احبائه من عباده بالامراض والاسقام، فقد جاء في الحديث الشريف: (أشدّ الناس بلاءً الانبياء ثم الاولياء، ثم الامثل فالامثل)[1] او كما قال. ويقف في مقدمة المبتلين النبي الصابر ايوب عليه السلام، ثم الانبياء الباقون عليهم السلام، ثم الاولياء ثم الصالحون. وقد تلقوا جميعاً تلك الامراض التي قاسوها عبادة خالصة وهدية رحمانية، فأدوا الشكر من خلال الصبر، وكانوا يرونها نوعاً من العمليات الجراحية تمنح لهم من لدن الرحمن الرحيم.

فانت ايها المريض المتأوه المتألم! إن كنت تروم الالتحاق بهذه القافلة النورانية، فأدّ الشكر في ثنايا الصبر، والاّ فان شكواك ستجعلهم يحجمون عن ضمّك الى قافلتهم، وستهوي بنفسك في هوة الغافلين! وستسلك درباً تخيم عليه الظلمات.

---

(١) هناك عدة احاديث بهذا المعنى كلها صحيحة نختار واحداً منها: عن أخت حذيفة رضي الله عنهما: ان رسول الله ﷺ قال: (اشد الناس بلاءً الانبياء ثم الصالحون، ثم الامثل فالامثل) رواه الطبراني في الكبير (انظر صحيح الجامع الصغير برقم ١٠٠٥).

نعم، هناك امراض اذا اعقبتها المنية، يكلل صاحبها بشهادة معنوية تجعله يحرز مقام الولاية لله، وهي تلك الامراض التي تتمخض عن الولادة (١) وغصص البطن، والغرق والحرق والطاعون، فهذه الامراض اذا مات بها صاحبها فانه سيرتفع الى درجة الشهيد المعنوي، فهناك امراض كثيرة ذات بركة تكسب صاحبها درجة الولاية بالموت الذي تنتهي به، ولما كان المرض يخفف من شدة حب الدنيا وغلوائها ومن عشقها والعلاقة الشديدة بها فهو يخفف كذلك الفراق الاليم والمرّ لاهل الدنيا وهم يغادرونها بالموت بل قد يحببه اليهم.

الدواء السادس عشر

ايها المريض الشاكي من الضجر! ان المرض يلقّن صاحبه اهم عرى الحياة الاجتماعية والانسانية واجمل اواصرها وهما الاحترام والمحبة، لانه ينقذ الانسان من الاستغناء عن الآخرين، ذلك الاستغناء الذي يسوق الى الوحشة ويجرد الانسان من الرحمة، لانه كما يتبيّن من الآية الكريمة ﴿ **إنَّ الانسانَ ليطغى۞ أن رآهُ استغنى** ﴾ (العلق:٦- ٧) ان النفس الامارة الواقعة في شباك الاستغناء - الناجم عن الصحة والعافية - لن تشعر بالاحترام اللائق تجاه العلاقات الاخوية، ولن تحس بالرحمة والرأفة بالمبتلين بالمصائب والامراض الجديرين بالرحمة والعطف، ولكن متى ما انتاب الانسان المرض وادرك مدى عجزه، ومدى فقره، تحت ضغوط المرض وآلامه واثقاله فانه يشعر بالاحترام اللائق لأشقائه المؤمنين الذين يقومون برعايته، او الذين يأتون لعيادته، ويشعر كذلك بالرأفة الانسانية وهي خصلة اسلامية تجاه اهل المصائب والبلايا - قياساً على نفسه - فتفيض من قلبه الرحمة والرأفة بكل معناهما تجاههم، وتضطرم عنده الشفقة حارة ازاءهم، واذا استطاع قدّم لهم يد العون، وان لم يقدر عليه شرع بالدعاء لهم، او بزيارتهم والاستفسار عن راحتهم واحوالهم مؤدياً بذلك سنةً مشروعة كاسباً ثوابها العظيم.

(١) ان كسب هذا المرض للشهادة المعنوية يمتد لغاية انتهاء فترة النفاس وهي اربعون يوماً. - المؤلف.

الدواء السابع عشر

ايها المريض الشاكي من العجز عن القيام باعمال البر! كن شاكراً! فاني ابشرك: بان الذي يفتح ابواب اخلص الخيرات، انما هو المرض نفسه، فالمرض فضلاً عن انه يورث ثواباً مستمراً للمريض وللذين يرعونه لله، فهو يمثل اهم وسيلة لقبول الدعاء.

نعم، ان رعاية المرضى تجلب لاهل الايمان ثواباً عظيماً، وان زيارتهم والسؤال عن صحتهم وراحتهم بشرط عدم تنغيصهم لهي من السنة الشريفة (١)، وهي كفارة للذنوب في الوقت نفسه. وقد ورد حديث بهذا المعنى: اطلبوا دعاء المريض فدعاؤه مستجاب (٢)، وبخاصة اذا كان المريض من الاقربين، وبخاصة اذا كان والداً او والدة، فان خدمتهما هي عبادة مهمة وهي مثوبة كبرى ايضاً. وان تطمين افئدة المرضى وبث السلوان في قلوبهم، يعتبر بحكم صَدَقة مهمة. فما أسعد اولئك الابناء الذين يقومون برعاية آبائهم او أمهاتهم عند مرضهم ويدخلون البهجة في قلوبهم الرقيقة المرهفة فيفوزون بدعاء الوالدين لهم.

نعم، ان الحقيقة التي تستحق احتراماً اكثر ومكانة اسمى في الحياة الاجتماعية هي شفقة الوالدين، وتعويض الابناء الطيبين لتلك الشفقة، بتوجيه الاحترام اللائق والعاطفة البارّة الزكية اليهما حينما يعانون من مرض. وهي لوحة وفية تظهر الوضع الجيد للابناء وسمو الانسانية بحيث تثير اعجاب كل المخلوقات حتى الملائكة، فيحيّونها مهللين مكبرين وهاتفين: «ماشاء الله، بارك الله».

نعم ان العواطف والرأفة والرحمة المحلقة حوالي المريض لتذيب ألم المريض وتحوله الى لذات حلوة مفرحة.

ان قبول دعاء المريض والاستجابة له مسألة مهمة جديرة بالاهتمام. فمنذ حوالي اربعين سنة كنت ادعو للشفاء من مرض في ظهري، ثم ادركتُ ان المرض انما يُمنح

(١) عن جابر قال رسول الله ﷺ: «افضل العيادة اجراً سرعة القيام من عند المريض». فيض القدير ١٢٨٥/١ وجمع الفوائد ٣٣٢/١.

(٢) دعاء المريض مستجاب وذنبه مغفور. مسند الفردوس ٢٨٠/١ جمع الفوائد ٣٣٣/١. وابن ماجه برقم ١٤٤١.

لاجل الدعاء، وكما ان الدعاء لايرفع دعاء، اي ان الدعاء لعدم تمكنه من إزالة نفسه فان نتيجته أُخروية (١). والدعاء بذاته نوع من العبادة، اذ يلتجئ المريض الى الملاذ الإلهي عند ادراكه لعجزه.

ولهذا فان عدم القبول الظاهري لدعوتي بالشفاء من مرضي طوال ثلاثين سنة لم يصرفني ابداً من ان افكر في يوم من الايام بتركه والتخلي عنه، ذلك لان المرض أوان الدعاء ووقته، والشفاء ليس نتيجة الدعاء بل اذا وهب الله سبحانه – وهو الحكيم الرحيم – الشفاء فانه يهبه من فضله وكرمه، وان عدم قبول الدعاء بالشكل الذي نريده لا يقودنا الى القول بأن الدعاء لم يُستَجب، فالخالق الحكيم يعلم افضل منا ونحن نجهل، وانه سبحانه يسوق الينا ما هو خير لنا وانفع، وانه يدّخر لنا الادعية الخاصة بدنيانا احياناً لتنفعنا في أُخرانا، وهكذا يقبل الدعاء. ومهما يكن فان الدعاء الذي اكتسب الاخلاص والنابع من سرّ المرض والآتي من الضعف والعجز والتذلل والاحتياج، قريبٌ جداً من القبول. والمرض اساس لمثل هذا الدعاء الخالص ومداره. فالمريض والذين يقومون برعايته من المؤمنين ينبغي ان يستفيدوا من هذا الدعاء.

الدواء الثامن عشر

ايها المريض التارك للشكر والمستسلم للشكوى!

ان الشكوى تكون نابعة من وجود حق يعود اليك، وانت لم يذهب حَقّكَ سدىً حتى تشكو، بل عليك حقوقٌ كثيرة لم تؤدّ بعدُ شكرها، انك لم تؤدّ حق الله عليك، وفوق ذلك تقوم بالشكوى بالباطل وكأنك على حق، فليس لك ان تشكو ناظراً الى مَن هو اعلى منك مرتبة من الاصحاء، بل عليك النظر – من زاوية الصحة – الى اولئك العاجزين من المرضى الذين هم ادنى منك درجة.

(١) ان قسماً من الامراض مع أنه يشكل علّة لوجود الدعاء، الا انه اذا اصبح الدعاء سبباً لعدم المرض، فكأن الدعاء يصبح سبباً لعدم نفسه وهذا لا يمكن.ـ المؤلف.

فانت مكلف اذاً بالشكر الجزيل. فاذا كانت يدُك مكسورةً فتأمل الايدي المبتورة، واذا كنت ذا عين واحدة فتأمل الفاقدين لكلتا العينين.. حتى تشكر الله سبحانه.

نعم، فليس لأحد في زاوية النعمة حق بمدّ البصر الى مَن هو فوقه، لتتأجج نار الشكوى المحرقة عنده، الاّ انه عند المصيبة يتحتم على المرء من زاوية المصيبة النظر الى من هو اشد منه مصيبة واعظم مرضاً ليشكر بعد ذلك قانعاً بما هو فيه. وقد وضح هذا السرّ في بعض الرسائل بمثال مقتضاه كالآتي:

« شخص يأخذ بيد مسكين ليُصعدهُ الى قمة منارة، ويهدي اليه في كل درجة من درجات المنارة هدية. واخيراً يختم تلك الهدايا بأعظم هدية يهبها له عند قمة المنارة. واذ كان المفروض على هذا المسكين ان يقدم الشكر والامتنان ازاء الهدايا المتنوعة، تراه يتناسى كل تلك الهدايا التي اخذها عند تلك الدرجات، او يعدّها غير ذات بال، فلا يشكر، رافعاً ببصره الى مَن هو اعلى منه شاكياً قائلاً: لو كانت هذه المنارة اعلى مما هي عليه، لأبلغ اعلى درجة من هذه الدرجات! لِمَ لم تصبح مثل ذلك الجبل الشاهق ارتفاعاً او المنارة المجاورة؟.. »

وهكذا اذا قام هذا الرجل بهذه الشكوى، فما اعظم ما يرتكبه من كفران بالنعمة وما اعظم ما يقترف من تجاوز على الحق!

وكذا حال الانسان الذي اتى الى الوجود من العدم ولم يصبح حجراً ولاشجراً ولاحيواناً، بل كان انساناً مسلماً وقد تمتع كثيراً بالصحة والعافية، ونال درجة من النعمة سامية... مع هذا يأتي هذا الانسان ويُظهر الشكوى من عدم تمتعه بالصحة والعافية نتيجة بعض العوارض، او لاضاعته النِعَم بسوء اختياره، او من سوء الاستعمال، او لعجزه عن الوصول اليها، ثم يقول: « يا ويلتا ماذا جنيت حتى حلّ بي ما حلّ »، ناطقاً بما يشي بانتقاد للربوبية الإلهية. فهذه الحالة هي مرض معنوي ومصيبة اكبر من المرض المادي والمصيبة التي هو فيها، فهو يزيد مرضه بالشكوى كمن يتصارع ويده مرضوضة. لكن العاقل يتمثل قوله تعالى: ﴿ **الذين إذا اصابَتهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا اليه راجعون** ﴾ فيسلّم الامر لله صابراً حتى ينتهي ذلك المرض من اداء وظيفته ويمضي الى شأنه.

الدواء التاسع عشر

ان التعبير الصمداني باطلاق «الاسماء الحسنى» على جميع اسماء الله الجميل ذي الجلال يدل على ان تلك الاسماء جميلة كلّها. وحيث ان الحياة هي اجمل مرآة صمدانية وألطفها واجمعهافي الموجودات، وان مرآة الجميل جميلة ايضاً، وان المرآة التي تعكس محاسن الجميل تصبح جميلة ايضاً، وان كل شئ يصيب تلك المرآة من ذلك الجميل هو جميل كذلك، فكل ما يصيب الحياة جميل ايضاً من زاوية الحقيقة؛ ذلك لانه يُظهر النقوش الجميلة لتلك «الاسماء الحسنى» الجميلة.

فلو مضت الحياة بالصحة والعافية على نسق واحد، لاصبحت مرآة ناقصة، بل قد تُشعر – في جهة ما – بالعدم والعبث، فتذيق العذاب والضيق، وتهبط قيمة الحياة، وتنقلب لذة العمر وهناؤه الى ألم وغصّة، فيلقي الانسان بنفسه إما الى اوحال السفاهة او الى اوكار اللهو والعربدة ليقضي وقته سريعاً، مَثَله كمثل المسجون الذي يعادي عمره الثمين ويقتله بسرعة، بغية انهاء مدة السجن. ولكن الحياة التي تمضي بالتحولات والحركة وتقضي اطواراً شتى فانها تُشعر ان لها قيمة ووزناً وتنتج – هذه الحياة – للعمر اهمية وتُكسبه لذة، حتى ان الانسان لايرغب في ان يمضي عمره، رغم ما يعانيه من اصناف المشاق والمصائب ولا يتأوه ولا يتحسر قائلاً: «أنّى للشمس ان تغيب وأنّى لليل أن ينجلي».

نعم، ان شئت فاسأل شخصاً ثرياً عاطلاً، كل شئ عنده على ما يرام. اسأله: كيف حالك؟ فستسمع منه حتماً عبارات أليمة وحسرة مثل: آه من هذا الوقت.. انه لايمرّ.. ألا تأتي لنبحث عن لهو نقضي به الوقت.. هلم لنلعب النرد قليلاً..!. او تسمع شكاوى ناجمة عن طول الامل مثل: ان أمري الفلاني ناقص.. ليتني افعل كذا وكذا.. اما اذا سألت فقيراً غارقاً في المصائب او عاملاً كادحاً: كيف حالك؟ فان كان رشيداً فسيقول لك: اني بخير والحمد لله وألف شكر لربي، فاني في سعي دائم.. ياحبذا لو لم تغرب الشمس بسرعة لاقضي ما في يدي من عمل. فالوقت يمر حثيثاً والعمر يمضي دون توقف، ورغم اني منهمك في الواقع، الا أن هذا سيمضي ايضاً، فكل شئ يحث خطاه على هذا المنوال..!!. فهو بهذه الاقوال انما يعبّر عن قيمة العمر واهميته ضمن اسفه على العمر الذي يهرب منه، آسفاً على ذلك.. فهو

يدرك اذاً ان لذة العمر وقيمة الحياة بالكدّ والمشقة، اما الراحة والدعة والصحة والعافية فهي تجعل العمر مراً وتثقله بحيث يتمنى المرء الخلاص منه بسرعة.

ايها الاخ المريض! اعلم ان اصل المصائب والشرور بل حتى الذنوب انما هو العدم كما اثبت ذلك اثباتاً قاطعاً ومفصلاً في سائر الرسائل، والعدم هو شرّ محض وظلمة تامة. فالتوقف والراحة والسكون على نسق واحد ووتيرة واحدة حالات قريبة جداً من العدم والعبث، ودنوّها هذا هو الذي يُشعر بالظلمة الموجودة في العدم ويورثّ ضجراً وضيقاً. اما الحركة والتحول فهما وجودان ويُشعران بالوجود، والوجود هو خيرٌ خالص ونور.

فما دامت الحقيقة هكذا، فان المرض الذي فيك انما هو ضيف مُرسلٌ اليك ليؤدي وظائفه الكثيرة فهو يقوم بتصفية حياتك القيمة وتقويتها ويرتقي بها ويوجه سائر الاجهزة الانسانية الاخرى في جسدك الى معاونة ذلك العضو العليل ويبرز نقوش اسماء الصانع الحكيم، وسينتهي من وظيفته قريباً، ان شاء الله ويمضي الى شأنه مخاطباً العافية: تعالي الآن لتمكثي مكاني دائماً، وتراقبي اداء وظيفتك من جديد، فهذا مكانك تسلّميه واسكنيه هنيئاً.

الدواء العشرون

ايها المريض الباحث عن دوائه! اعلم ان المرض قسمان: قسم حقيقي وقسم آخر وهمي.

اما القسم الحقيقي: فقد جعل الشافي الحكيم الجليل جلّ وعلا لكل داءٍ دواءً، وخزنّه في صيدليته الكبرى التي هي الكرة الارضية، فتلك الادوية تستدعي الادواء، وقد خلق سبحانه لكل داء دواء، فاستعمال العلاج وتناوله لغرض التداوي مشروع اصلاً. ولكن يجب العلم بأن الشفاء وتأثير الدواء لايكونان الا من الحق تبارك وتعالى، فمثلما انه سبحانه يهب الدواء فهو ايضاً يهب الشفاء. وعلى المسلم الالتزام بارشاد الاطباء الحاذقين المسلمين وتوصياتهم. وهذا الامتثال علاج مهم؛ لان اكثر الامراض تتولد من سوء الاستعمال، وعدم الحمية، واهمال الارشاد، والاسراف، والذنوب، والسفاهة، وعدم الحذر. فالطبيب المتدين لاشك انه ينصح ضمن الدائرة

المشروعة ويقدم وصاياه، ويحذر من سوء الاستعمال والاسراف ويبث في نفس المريض التسلية والامل، والمريض بدوره اعتماداً على تلك الوصايا والسلوان يخفّ مرضه ويغمره الفرح بدلاً من الضيق والضجر.

اما القسم الوهمي من المرض: فان علاجه المؤثر الناجع هو: «الاهمال» اذ يكبر الوهم بالاهتمام وينتفش، وان لم يُعبأ به يصغر وينزوي ويتلاشى. فكما اذا تعرض الانسان لوكر الزنابير فانها تتجمع وتهجم عليه، وان لم يهتم تتفرق عنه وتتشتت.

وكما ان الذي يلاحق باهتمام خيالاً في الظلمات من حبلٍ متدلٍ، سيكبر امامه ذلك الخيال حتى قد يوصله الى الفرار كالمعتوه، واذا لم يهتم فسينكشف له ان ذلك انما هو حبل وليس بثعبان.. ويبدأ بالسخرية من اضطراب ذهنه وتوهمه. فهذا المرض الوهمي كذلك اذا دام كثيراً فسينقلب الى مرض حقيقي، فالوهم عند مرهف الحس، عصبي المزاج مرض وبيل جداً، حيث يستهوله ويجعل له الحبة قبة، فتنهار قواه المعنوية، وبخاصة اذا صادف أنصاف الاطباء ذوي القلوب الغلاظ الخالية من الرحمة، او الاطباء غير المنصفين، الذين يثيرون اوهامه ويحركونها اكثر من ذي قبل حتى تذهب امواله وتنضب ان كان غنياً، او يفقد عقله او يخسر صحته تماماً.

الدواء الحادي والعشرون

ايها الاخ المريض! حقاً ان في مرضك الماً مادياً، الا أن لذة معنوية مهمة تحيط بك، تمحو كل آثار ذلك الالم المادي؛ لان ألمك المادي لا يفوق تلك الرأفة او الشفقة اللذيذة التي نسيتها منذ الصغر، والتي تتفجر الآن من جديد في اكباد والديك واقاربك نحوك، ان كان لك والدان واقارب. حيث ستستعيد تلك العواطف والنظرات الابوية الحنونة الحلوة التي كانت تتوجه اليك في الطفولة، وينكشف الحجاب عن احبائك من حواليك ليرعوك من جديد وينطلقوا اليك بمحبتهم ورأفتهم بجاذبية المرض التي أثارت تلك العواطف الداخلية. فما أرخص تلك الآلام المادية

التي تعاني منها امام ما يؤديه لك من خدمات جليلة ممزوجة بالرحمة والرأفة بحكم مرضك اولئك الذين سعيتَ انت - بكل فخر - لخدمتهم ونيل رضاهم، فاصبحت بذلك سيداً وآمراً عليهم وفزت ايضاً بمرضك في كسب المزيد من الاحبة المعاونين والاخلاء المشفقين. فتضمهم اليك للرقة والرأفة الانسانية التي جُبل عليهما الانسان.

ثم انك قد اخذت بمرضك هذا اجازة من الوظائف الشاقة المهلكة، فأنت الآن في غنىً عنها وفي راحة منها... فلا ينبغي ان يسوقك ألمك الجزئي الى الشكوى بل الى الشكر تجاه هذه اللذات المعنوية.

الدواء الثاني والعشرون

ايها الاخ المريض بداء عضال كالشلل! انني ابشّرك اولاً بأن الشلل يعدّ من الامراض المباركة للمؤمن.. لقد كنت اسمع هذا منذ مدة من الاولياء الصالحين، فكنت اجهل سرّه، ويخطر الآن احد اسراره على قلبي هكذا:

ان اهل الولاية قد تعقبّوا بارادتهم اساسيَن مهميّن للوصول الى الحق تبارك وتعالى نجاةً من اخطار معنوية عظيمة ترد من الدنيا وضماناً للسعادة الابدية. والاساسان:

اولهما: رابطة الموت، اي أنهم سعوا لاجل سعادتهم في الحياة الابدية بالتفكر في فناء الدنيا وبأنهم ضيوف يُستخدمون لوظائف موقتة.

وثانيهما: اماتة النفس الامارة بالسوء بالمجاهدات والرياضة الروحية لاجل الخلاص من مهالك تلك النفس، والاحاسيس التي لا ترى العقبىٰ.

فيا اخي الذي فقد من كيانه نصف صحته، لقد أُودع فيك دون اختيار منك اساسان قصيران سهلان، يمهّدان لك السبيل الى سعادتك الابدية، ويذكّرانك دائماً بزوال الدنيا وفناء الانسان. فلا تتمكن الدنيا بعدئذ من حبس انفاسك وخنقك، ولاتجرؤ الغفلة على غشيان عيونك. فالنفس الامارة لاتتمكن بالشهوات الرذيلة ان تخدع مَن هو نصف انسان، فينجو من بلائها وشرها بسرعة. والمؤمن بسر الايمان والاستسلام والتوكل يستفيد من داء عضال كالشلل بأقصر وقت استفادة المجاهدين من اهل الولاية بالرياضة في المعتكفات، فيتضاءل عندئذ ذلك الداء ويسهل حمله.

الدواء الثالث والعشرون

ايها المريض الوحيد الغريب العاجز! ان كانت غربتك وعدم وجود من يعيلك فضلاً عن مرضك سبباً في لفت القلوب القاسية نحوك وامتلائها بالرقة عليك، فكيف بنظر رحمة خالقك الرحيم ذي التجليات الذي يقدم نفسه اليك في بدء سور القرآن بصفته الجليلة «الرحمن الرحيم» والذي يجعل جميع الامهات - بلمعةٍ من لمعات شفقته ورأفته الخارقة - يقمن بتربية اولادهن.. والذي يملأ وجه الدنيا ويصبغه في كل ربيع بتجلٍ من رحمته ويملأه بانواع نعمه وفضله.. وبتجلٍ من رحمته كذلك تتجسم الجنة الزاخرة بكل محاسنها. فانتسابك اليه بالايمان والالتجاء اليه بلسان العجز المنبعث من مرضك، ورجاؤك منه وتضرعك اليه يجعل من مرضك في وحدتك وغربتك هدفاً ووسيلة تجلب اليك نظر الرحمة منه سبحانه تلك النظرة التي تساوي كل شئ.

فما دام هو موجوداً ينظر اليك فكل شئ موجود لك. والغريب حقاً والوحيد اصلاً هو ذلك الذي لاينتسب اليه بالايمان والتسليم، او لا يرغب في ذلك الانتساب.

الدواء الرابع والعشرون

ايها المرضون المعتنون بالاطفال المرضى الابرياء وبالشيوخ الذين هم بحكم الاطفال عجزاً وضعفاً! ان بين ايديكم تجارة اخروية مهمة، فاغتنموا تلك التجارة وليكن شوقكم اليها عظيماً وسعيكم حثيثاً. ان امراض الاطفال الابرياء هي حقنات تربية ربانية لاجسادهم الرقيقة للاعتياد عليها وترويضهم بها لمقاومة مشقات الحياة في المستقبل، وهي تحمل حكماً وفوائدَ تعود عليهم في حياتهم الدنيوية وفي حياتهم الروحية، فتصفي حياة الصغار تصفية معنوية مثلما تصفىٰ حياة الكبار بكفارة الذنوب. فهذه الحقن اسس للرقي المعنوي ومداره في مستقبل اولئك الصغار او في آخرتهم.

والثواب الحاصل من مثل هذه الامراض يُدرج في صحيفة اعمال الوالدين او في صحيفة حسنات الوالدة التي تفضلُ صحة ولدها - بسر الشفقة - على نفسها، كما هو ثابت لدى اهل الحقيقة.

اما رعاية الشيوخ والاعتناء بهم، فضلاً عن كونه مداراً لثواب عظيم وبخاصة الوالدين والظفر بدعائهم واسعاد قلوبهم والقيام بخدمتهم بوفاء واخلاص، يقود صاحبه الى سعادة الدنيا والآخرة، كما هو ثابت بروايات صحيحة وفي حوادث تأريخية كثيرة. فالولد السعيد البار بوالديه العاجزين سيرى الطاعة نفسها من ابنائه، بينما الولد العاق المؤذي لأبويه مع ارتداده الى العذاب الاخروي سيجد كذلك في الدنيا مهالك كثيرة.

نعم انه ليست رعاية الشيوخ والعجائز والابرياء من الاقربين وحدهم، بل حتى اذا صادف المؤمن شيخاً مريضاً ذا حاجة جديراً بالاحترام فعليه القيام بخدمته بهمة واخلاص، ما دامت هنالك اخوة ايمانية حقيقية وهذا مما يقتضيه الاسلام.

الدواء الخامس والعشرون

ايها الاخوان المرضى! اذا كنتم تشعرون بحاجة الى علاج قدسي نافع جداً، والى دواءٍ لكل داء يحوي لذة حقيقية، فمدّوا ايمانكم بالقوة واصقلوه، اي تناولوا بالتوبة والاستغفار والصلاة والعبادة العلاج القدسي المتمثل في الايمان.

نعم، ان الغافلين بسبب حبّهم للدنيا والتعلق بها بشدة كأنهم قد اصبحوا يملكون كياناً معنوياً عليلاً بحجم الدنيا كلها، فيتقدم الايمان ويقدّم لهذا الكيان العليل المكلوم بضربات الزوال والفراق، مرهم شفائه منقذاً إياه من تلك الجروح والشروخ، وقد أثبتنا في رسائل عدة بأن الايمان يهب شفاءً حقيقياً، وتجنباً للاطالة أوجز قولي بما يأتي:

ان علاج الايمان يتبين تأثيره بأداء الفرائض ومراعاة تنفيذها ما استطاع الانسان اليها سبيلاً، وان الغفلة والسفاهة وهوى النفس واللهو غير المشروع يبطل مفعول ذلك العلاج وتأثيره.

فما دام المرض يزيل الغشاوة، ويقطع دابر الاشتهاء، ويمنع ولوج اللذات غير المشروعة، فاستفيدوا منه واستعملوا علاج الايمان الحقيقي وانواره القدسية بالتوبة والاستغفار والدعاء والرجاء.. منحكم الحق تبارك وتعالى الشفاء وجعل من امراضكم مكفرات للذنوب..آمين..آمين.. آمين.

﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتَدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رُسُل ربنا بالحق ﴾

﴿ سُبحانَكَ لا علِمَ لنا إلا ما عَلمتنا إنكَ أنتَ العَليمُ الحكيمُ ﴾

اللهم صلّ على سيدنا محمد، طب القلوب ودوائها،

وعافية الابدان وشفائها،

ونور الابصار وضيائها،

وعلى آله وصحبه وسلم.

ذيل اللمعة الخامسة والعشرين

وهو «المكتوب السابع عشر» ادرج ضمن المكتوبات.

اللمعة السادسة والعشرون

« رسالة الشيوخ »

« هذه اللمعة عبارة عن ستة وعشرين
نـور رجـاء وضيـاء تسـلٍ »[1]

---

(١) كتب المؤلف رحمه الله الهامش الآتي على نسخة خطية مصححة من قبله:

ان بقية الرجايا (اي من الرجاء الرابع عشر الى الرجاء السادس والعشرين) لم تكتب لوقوع المصيبة المعروفة (سجن اسكي شهر). ولفوات اوانها ظلت هذه الرسالة ناقصة. ـ المترجم.

تنبيه

ان السبب الذي دعاني الى تسجيل ما كنت اعانيه من آلام معنوية في مستهل كل رجاء بأسلوب مؤثر جداً الى حد يثير فيكم الألم ايضاً، انما هو لبيان مدى قوة مفعول العلاج الوارد من القرآن الحكيم وشدة تأثيره الخارق.

بيد ان هذه «اللمعة» التي تخصّ الشيوخ لم تحافظ على حسن البيان، وجمال الافادة لعدة اسباب:

اولها: لأنها تخص احداث حياتي الشخصية ووقائعها، فالذهاب عبر الخيال الى تلك الازمنة، ومعايشة احداثها، ومن ثم تناولها بالكتابة بتلك الحالة، سبّب عدم المحافظة على الانتظام في البيان والتعبير.

ثانيها: اعترى البيان شئ من الاضطراب، لأن الكتابة كانت بعد صلاة الفجر، حيث كنت اشعر حينها بتعب وانهاك شديدين، فضلاً عن الاضطرار الى الاسراع في الكتابة.

ثالثها: لم يكن لدينا متسع من الوقت للقيام بالتصحيح الكامل؛ فالكاتب الذي كان معي مرهق بشؤون «رسائل النور» وكثيراً ما كان يعتذر عن الحضور مما أفقد المضمون التناسق المطلوب.

رابعها: لم نستطع الاّ الاكتفاء بالتصحيحات والتعديلات العابرة دون التوغل في اعماق المعاني؛ لما كنا نحسّ به من تعب ونصب عقب التأليف، فلا جرم ان رافق الموضوع شئ من التقصير في التعبير والأداء.

لذا نهيب بالشيوخ الكرام أن ينظروا بعين الصفح والسماح الى قصوري في الاداء، وان يجعلوني ضمن دعواتهم عندما يرفعون اكّفهم متضرعين الى الله الرحيم الذي لايردّ دعوات الشيوخ الطيبين...

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ كهيعص ۞ ذكرُ رحمتِ ربك عبدهُ زكريّا ۞ إذ نادى ربّهُ نداءً خفياً ۞ قال ربّ إني وهنَ العظمُ منّي واشتعل الرأسُ شَيباً ولم أكُن بدعائك رَبّ شقياً ﴾ (مريم: ١-٤).

(هذه اللمعة عبارة عن ستة وعشرين رجاء)

الرجاء الاول

يا من بلغتم سنّ الكمال، ايها الاخوة الشيوخ الاعزاء، ويا ايتها الاخوات العجائز المحترمات! انني مثلكم شيخ كبير، سأكتب لكم بعض مامرّ عليّ من احوال، وما وجدته بين حين وآخر من ابواب الامل، وبوارق الرجاء في عهد الشيخوخة، لعلكم تشاركونني في انوار السلوة المشعة من تلكم الرجايا والآمال. ان ما رأيته من الضياء، وما فتحه الله عليّ من ابواب النور والرجاء، انّما شاهدته حسب استعدادي الناقص وقابلياتي المشوشة، وستجعل استعداداتكم الخالصة الصافية - بإذن الله - ذلك الضياء اسطع وأبهر مما رأيته، وذلكم الرجاء اقوى وامتن مما وجدته.

ولا ريب انّ منبع ما سنذكره من الاضواء ومصدر ما سنورده من الرجايا ما هو الاّ «الايمان».

الرجاء الثاني

حينما شارفت على الشيخوخة، وفي احد ايام الخريف، وفي وقت العصر، نظرت الى الدنيا من فوق ذروة جبل، فشعرت فجأة حالة في غاية الرقة والحزن مع ظلام يكتنفها، تدب في اعماقي.. رأيت نفسي: انني بلغت من العمر عتياً، والنهار قد

غدا شيخاً، والسنة قد اكتهلت، والدنيا قد هرمت.. فهزّني هذا الهرم الذي يغشى كل شئ حولي هزّاً عنيفاً. فلقد دنا أوان فراق الدنيا، واوشك أوان فراق الاحباب ان يحلّ.. وبينما اتململ يائساً حزيناً اذا بالرحمة الإلهية تنكشف امامي انكشافاً حوّل ذلك الحزن المؤلم الى فرحة قلبية مشرقة، وبدّل ذلك الفراق المؤلم للاحباب الى عزاء يضيئ جنبات النفس كلها.

نعم يا امثالي من الشيوخ! ان الله سبحانه وتعالى الذي يقدّم ذاته الجليلة الينا، ويعرّفها لنا في اكثر من مائة موضع في القرآن الكريم، بصفة «الرحمن الرحيم».. والذي يرسل رحمته بما يسبغ على وجه الارض دوماً من النعم، مدداً وعوناً لمن استرحمه من ذوي الحياة، والذي يبعث بهداياه من عالم الغيب فيغمر الربيع كل سنة بنعم لاتعد ولاتحصى، يبعثها الينا نحن المحتاجين الى الرزق، مظهراً بها بجلاء تجليات رحمته العميمة، وفق مراتب الضعف ودرجات العجز الكامنة فينا. فرحمة خالقنا الرحيم هذه اعظمُ رجاءً، واكبر أملاً في عهد شيخوختنا هذه، بل هي اسطع نوراً لنا.

ان ادراك تلك الرحمة والظفر بها، انّما يكون بالانتساب الى ذلك «الرحمن» بالايمان، وبالطاعة له سبحانه باداء الفرائض والواجبات.

الرجاء الثالث

حينما أفقت على صبح المشيب، من نوم ليل الشباب، نظرت الى نفسي متأملاً فيها، فوجدتها كأنها تنحدر سعياً من علٍ الى سواء القبر، مثلما وصفها نيازي المصري [1]:

بناء العمر يذوي حجراً إثر حجر غافلاً يغط الروح وبناؤه قد اندثر

---

(١) نيازي المصري: شاعر تركي صوفي (١٦١٨- ١٦٩٤م)، ولد في قرية قريبة لولاية «ملاطية». اكمل دراسته في الازهر الشريف فلقّب بـ«المصري»، له ديوان شعر ومؤلفات منها: رسالة الحسنين، موائد العرفان وعوائد الاحسان، هداية الاخوان. تولّى الارشاد في مدارس استانبول العلمية. ـ المترجم.

فجسمي الذي هو مأوى روحي، بدأ يتداعى ويتساقط حجراً إثر حجر على مرّ الايام.. وآمالي التي كانت تشدّني بقوة الى الدنيا، بدأت اوثاقها تنفصم وتنقطع. فدب فيّ شعور بدنو وقت مفارقة من لا يحصى من الاحبة والاصدقاء، فاخذت ابحث عن ضماد لهذا الجرح المعنوي الغائر، الذي لا يرجى له دواء ناجع كما يبدو!. لم استطع أن اعثر له على علاج، فقلت ايضاً كما قال نيازي المصري:

حكمة الاله تقضى فناء الجسد والقلب تواق الى الابـــد

لهف نفسي من بلاء وكمــد حار لقمان في ايجاد الضمد

وبينما كنت في هذه الحالة اذا بنور الرسول الكريم ﷺ الذي هو رحمة الله على العالمين، ومثالها الذي يعبّر عنها، والداعي إليها، والناطق بها، واذا بشفاعته، وبما أتاه من هدية الهداية الى البشرية، يصبح بلسماً شافياً، ودواءً ناجعاً لذلك الداء الوخيم الذي ظننته بلا دواء، ويبدل ذلك اليأس القاتم الذي احاطني الى نور الرجاء الساطع.

اجل، ايها الشيوخ وايتها العجائز الموقرون، ويامن تشعرون كلكم بالشيخوخة مثلي!. اننا راحلون ولا مناص من ذلك.. ولن يُسمح لنا بالمكوث هنا بمخادعة النفس واغماض العين، فنحن مساقون الى المصير المحتوم. ولكن عالم البرزخ، ليس هو كما يتراءى لنا بظلمات الاوهام الناشئة من الغفلة، وبما قد يصوره اهل الضلالة، فليس هو بعالم الفراق، ولا بعالم مظلم، بل هو مجمع الأحباب، وعالم اللقاء مع الاحبة والاخلاّء، وفي طليعتهم حبيب رب العامين وشفيعنا عنده يوم القيامة عليه افضل الصلاة والسلام.

نعم، ان مَن هو سلطان ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الناس في كل عصر، عبر ألف وثلاثمائة وخمسين سنة وهو مربّى ارواحهم، ومرشد عقولهم، ومحبوب قلوبهم، والذي يُرفع الى صحيفة حسناته يومياً امثال ما قدمت أمته من حسنات، اذ «السبب كالفاعل» والذي هو مدار المقاصد الربانية، ومحور الغايات الإلهية السامية في الكون، والذي هو السبب لرقي قيمة الموجودات وسمّوها، ذلك الرسول الاكرم ﷺ، فكما أنه قال في الدقائق الاولى التي تشرّف العالم به «امتي.. امتي..» كما ورد في

الروايات الصحيحة والكشفيات الصادقة، فانه ﷺ يقول في المحشر ايضاً: «امتي.. امتي..» ويسعى بشفاعته الى امداد امته واغاثتها باعظم رحمة واسماها واقدسها واعلاها، في الوقت الذي يقول كلّ فرد من الجموع العظيمة: «نفسي.. نفسي». فنحن اذن ذاهبون الى العالم الذي ارتحل اليه هذا النبي الكريم، راحلون الى العالم الذي استنار بنور ذلك السراج المنير وبمن حوله من نجوم الاصفياء والاولياء الذين لايحصرهم العد.

نعم، ان اتباع السنة الشريفة لهذا النبي الكريم ﷺ هو الذي يقود الى الانضواء تحت لواء شفاعته والاقتباس من انواره، والنجاة من ظلمات البرزخ.

الرجـاء الرابـع

حينما وطأت قدماي عتبة الشيخوخة، كانت صحتي الجسدية التي ترخي عنان الغفلة وتمدّها قد اعتلّت ايضاً فاتفقت الشيخوخة والمرض معاً على شن الهجوم عليّ، وما زالا يكيلان على راسي الضربات تلو الضربات حتى أذهبا نوم الغفلة عنّي. ولم يكن لي ثمة ما يربطني بالدنيا من مال وبنين وما شابههما، فوجدت ان عصارة عمري الذي اضعته بغفلة الشباب، انما هي آثام وذنوب، فاستغثتُ صائحاً مثلما صاح نيازي المصري:

ذهب العُمر هباءً، لم أفز فيه بشئ
ولقد جئت اسير الدرب، لكنْ
رحل الرّكبُ بعيداً
وبقيتْ
ذلك النائي الغريب
وبكيتْ
همتُ وحدي تائهاً اطوي الطريق
وبعينيّ ينابيع الدموع
وبصدري حرقة الشوق
حار عقلي..!

كنت حينها في غربة مضنية، فشعرت بحزن يائس، واسف نادم، وحسرة ملتاعة على ما فات من العمر. صرخت من اعماقي اطلب امداد العون، وضياء الرجاء.. واذا بالقرآن الحكيم المعجز البيان يمدّني، ويسعفني، ويفتح امامي باب رجاء عظيم، ويمنحني نوراً ساطعاً من الامل والرجاء يستطيع ان يزيل اضعاف اضعاف يأسي، ويمكنه ان يبدد تلك الظلمات القاتمة من حولي.

نعم، ايها الشيوخ وايتها العجائز المحترمون، يامَن بدأت اوثاق صلتهم بالانفصام عن الدنيا مثلي! ان الصانع ذا الجلال الذي خلق هذه الدنيا كأكمل مدينة وأنظمها، حتى كأنها قصر منيف، هل يمكن لهذا الخالق الكريم الاّ يتكلم مع احبائه واكرم ضيوفه في هذه المدينة او في هذا القصر؟ وهل يمكن الاّ يقابلهم؟!!

فما دام قد خلق هذا القصر الشامخ بعلم، ونظمه بارادة، وزيّنه باختيار، فلابد انه يتكلم؛ اذ كما ان الباني يعلم، فالعالم يتكلم. وما دام قد جعل هذا القصر دار ضيافة جميلة بهيجة، وهذه المدينة متجراً رائعاً، فلابد ان يكون له كتب وصحف يبين فيها ما يريده منا، ويوضح علاقاته معنا.

ولاشك ان اكمل كتاب من تلك الكتب المقدسة التي انزلها، انما هو القرآن الحكيم المعجز، الذي ثبت اعجازه بأربعين وجهاً من وجوه الاعجاز، والذي يتلى في كل دقيقة بألسنة مائة مليون شخص في الاقل، والذي ينشر النور ويهدي السبيل. والذي في كل حرف من حروفه عشر حسنات، وعشر مثوبات في الاقل، واحياناً عشرة آلاف حسنة، بل ثلاثين ألف حسنة، كما في ليلة القدر. وهكذا يمنح من ثمار الجنة ونور البرزخ ما شاء الله ان يمنح. فهل في الكون اجمع كتاب يناظره في هذا المقام، وهل يمكن ان يدّعي ذلك احد قط؟

فما دام هذا القرآن الكريم الذي بين ايدينا هو كلام رب العالمين، وهو أمره المبلّغ الينا، وهو منبع رحمته التي وسعت كل شئ، وهو صادر من خالق السموات والارض ذي الجلال، من جهة ربوبيته المطلقة، ومن جهة عظمة ألوهيته، ومن جانب رحمته المحيطة الواسعة، فاستمسك به واعتصم، ففيه دواء لكل داء، ونور لكل ظلام، ورجاء لكل يأس.. وما مفتاح هذه الخزينة الابدية الاّ الايمان والتسليم، والاستماع اليه، والانقياد له، والاستمتاع بتلاوته.

الرجاء الخامس

في بداية شيخوختي ومستهلها، ورغبة منّي في الانزواء والاعتزال عن الناس، بحثَت روحي عن راحة في الوحدة والعزلة على تل «يوشع» المطل على البسفور. فلما كنت – ذات يوم – اسرح بنظري الى الافق من على ذلك التل المرتفع، رأيت بنذير الشيخوخة لوحة من لوحات الزوال والفراق تتقطر حزناً ورقة، حيث جلت بنظري من قمة شجرة عمري، من الغصن الخامس والاربعين منها، الى ان انتهيت الى اعماق الطبقات السفلى لحياتي، فرايت ان في كل غصن من تلك الاغصان الكائنة هناك ضمن كل سنة، جنائز لا تحصر من جنائز احبابي واصدقائي وكل من له علاقة معي. فتأثرت بالغ التأثر من فراق الاحباب وافتراقهم، وترنمت بأنين« فضولي البغدادي »(١) عند مفارقته الاحباب قائلاً:

كلما حنَّ الوصـال عَذبٌ دمعي مادام الشهيق

لقد بحثتُ من خلال تلك الحسرات الغائرة عن باب رجاء، وعن نافذة نور، أسلّي بها نفسي. فاذا بنور الايمان بالاخرة يغيثني ويمدّني بنور باهر. انه منحني نوراً لاينطفئ ابداً، ورجاءً لا يخيب مطلقاً.

اجل يا اخواني الشيوخ ويا اخواتي العجائز! ما دامت الآخرة موجودة، وما دامت هي باقية خالدة، وما دامت هي اجمل من الدنيا، وما دام الذي خلقنا حكيماً ورحيماً؛ فما علينا اذاً إلاّ عدم الشكوى من الشيخوخة، وعدم التضجر منها؛ ذلك لان الشيخوخة المشربّة بالايمان والعبادة، والموصلة الى سنّ الكمال، ماهي الاّ علامة انتهاء واجبات الحياة ووظائفها، واشارة ارتحال الى عالم الرحمة للخلود الى الراحة. فلابدّ اذن من الرضا بها اشدّ الرضا.

نعم ان اخبار مائة واربعة وعشرين ألفاً من المصطفين الاخيار وهم الانبياء والمرسلون (٢) عليهم الصلاة والسلام – كما نص عليه الحديث – اخباراً بالاجماع

(١) فضولي البغدادي شاعر عاش في القرن السادس عشر الميلادي وهو مؤسس الادب العثماني الآذري، له اشعار ودواوين في اللغات التركية والعربية والفارسية توفي سنة ١٥٥٥م، من اعماله المشهورة «ليلى ومجنون» اسمه الحقيقي: محمد. ـ المترجم.

(٢) عن ابي أمامة، قال ابو ذر: «قلت: يارسول الله كم وفاء عدة الانبياء؟ قال: مائة ألف واربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً» رواه الامام احمد (مشكاة المصابيح ١٢٢/٣ ت ٥٧٣٧ قال المحقق: حديث صحيح) وانظر زاد المعاد المحقق ٤٣/١ . ـ المترجم.

والتواتر مستندين الى الشهود عند بعضهم والى حق اليقين عند آخرين، عن وجود الدار الآخرة، واعلانهم بالاجماع ان الناس سيساقون اليها، وان الخالق سبحانه وتعالى سيأتي بالدار الآخرة بلا ريب، مثلما وعد بذلك وعداً قاطعاً.

وان تصديق مائة واربعة وعشرين مليوناً من الاولياء كشفاً وشهوداً ما اخبر به هؤلاء الانبياء عليهم السلام، وشهادتهم على وجود الآخرة بعلم اليقين، دليل قاطع وايّ دليل على وجود الآخرة..

وكذا، فان تجليات جميع الاسماء الحسنى لخالق الكون المتجلّية في ارجاء العالم كله، تقتضي بالبداهة وجود عالم آخر خالد، وتدل دلالة واضحة على وجود الآخرة.

وكذا القدرة الإلهية وحكمتها المطلقة، التي لا اسراف فيها ولا عبث، والتي تحيي جنائز الاشجار الميتة وهياكلها المنتصبة، تحييها وهي لاتعد ولاتحصى على سطح الارض في كل ربيع، وفي كل سنة، بأمر «كن فيكون» وتجعلها علامة على «البعث بعد الموت» فتحشر ثلاثمائة ألف نوع من طوائف النباتات وأمم الحيوانات وتنشرها، مظهرةً بذلك مئات الالوف من نماذج الحشر والنشور ودلائل وجود الآخرة.

وكذا الرحمة الواسعة التي تديم حياة جميع ذوي الارواح المحتاجة الى الرزق، وتعيّشها بكمال الرأفة عيشة خارقة للغاية. والعناية الدائمة التي تظهر انواع الزينة والمحاسن بما لا يُعد ولايحصى، في فترة قصيرة جداً في كل ربيع. لاشك انهما تستلزمان وجود الآخرة بداهة.

وكذا عشق البقاء، والشوق الى الابدية وآمال السرمدية المغروزة غرزاً لا انفصام لها في فطرة هذا الانسان الذي هو اكمل ثمرة لهذا الكون، واحب مخلوق الى خالق الكون، وهو اوثق صلة مع موجودات الكون كله، لاشك انه يشير بالبداهة الى وجود عالم باقٍ بعد هذا العالم الفاني، والى وجود عالم الآخرة ودار السعادة الابدية.

فجميع هذه الدلائل تثبت بقطعية تامة – الى حدّ يستلزم القبول – وجود الآخرة بمثل بداهة وجود الدنيا (١).

فما دام أهم درس يلقننا القرآن ايّاه هو «الايمان بالآخرة» وهذا الدرس رصين ومتين الى هذه الدرجة، وفي ذلك الايمان نور باهر ورجاء شديد وسلوان عظيم مالو اجتمعت مائة الف شيخوخة في شخص واحد لكفاها ذلك النور، وذلك الرجاء، وذلك السلوان النابع من هذا الايمان؛ لذا علينا نحن الشيوخ ان نفرح بشيخوختنا ونبتهج قائلين: «الحمد لله على كمال الايمان».

الرجاء السادس

حينما كنت في منفاي ذلك الاسر الاليم بقيت وحدي منفرداً منعزلاً عن الناس على قمة جبل «چام» المطلة على مراعي «بارلا».. كنت ابحث عن نور في تلك العزلة. وذات ليلة، في تلك الغرفة الصغيرة غير المسقفة، المنصوبة على شجرة صنوبر عالية على قمة ذلك المرتفع، اذا بشيخوختي تشعرني بألوان وانواع من الغربة المتداخلة – كما جاء ذلك في المكتوب السادس بوضوح – ففي سكون تلك الليلة حيث لا اثر ولا صوت سوى ذلك الصدى الحزين لحفيف الاشجار وهمهمتها.. احسست بأن ذلك الصدى الاليم قد اصاب صميم مشاعري، ومس اعماق شيخوختي وغربتي، فهمَست الشيخوخةُ في اذني منذرةً:

---

(١) ان مدى السهولة في إخبار «الامر الثبوتي» ومدى الصعوبة والاشكال في نفي وانكار ذلك، يظهر في المثال الآتي:

اذا قال احدهم: ان هناك - على سطح الارض - حديقة خارقة جداً ثمارها كعلب الحليب، وأنكر عليه الآخر قوله هذا قائلاً: لا، لا توجد مثل هذه الحديقة. فالاول يستطيع بكل سهولة ان يثبت دعواه، بمجرد اراءة مكان تلك الحديقة او بعض ثمارها. اما الثاني (اي المنكر) فعليه ان يرى ويري جميع انحاء الكرة الارضية لاجل ان يثبت نفيه، وهو عدم وجود مثل هذه الحديقة.

وهكذا الامر في الذين يخبرون عن الجنة، فانهم يُظهرون مئات الآلاف من ترشحاتها، ويبيّنون ثمارها وآثارها، علماً ان شاهدين صادقين منهم كافيان لاثبات دعواهم، بينما المنكرون لوجودها، لا يسعهم اثبات دعواهم الاّ بعد مشاهدة الكون غير المحدود، والزمن غير المحدود، مع سبر غورهما بالبحث والتفتيش، وعند عدم رؤيتهم لها، يمكنهم اثبات دعواهم!

فيامن بلغ به الكبر عتياً ويا ايها الاخوة! اعلموا ما اعظم قوة الايمان بالآخرة وما اشد رصانته!.

- المؤلف.

ان النهار قد تبدل الى هذا القبر الحالك، ولبست الدنيا كفنها الاسود، فسوف يتبدل نهار عمرك الى ليل، وسوف ينقلب نهار الدنيا الى ليل البرزخ، وسوف يتحول نهار صيف الحياة الى ليل شتاء الموت.

فأجابتها نفسي على مضض:

نعم، كما انني غريبة هنا عن بلدتي ونائية عن موطني، فان مفارقتي لاحبائي الكثيرين خلال عمري الذي ناهز الخمسين ولا املك سوى تذراف الدموع وراءهم هي غربة تفوق غربتي عن موطني.. واني لأشعر في هذه الليلة غربة اكثر حزناً واشد ألماً من غربتي على هذا الجبل الذي توشح بالغربة والحزن، فشيخوختي تنذرني بدنوي من موعد فراق نهائي عن الدنيا وما فيها، ففي هذه الغربة المكتنفة بالحزن، ومن خلال هذا الحزن الذي يمازجه الحزن، بدأتُ أبحث عن نور، وعن قبس امل، وعن باب رجاء، وسرعان ما جاء «الايمان بالله» لنجدتي ولشد ازري، ومنحني أنساً عظيماً بحيث لو تضاعفت آلامي ووحشتي اضعافاً مضاعفة لكان ذلك الانس كافياً لإزالتها.

نعم، ايها الشيوخ، ويا ايتها العجائز!.. فما دام لنا خالق رحيم، فلا غربة لنا اذاً ابداً.. وما دام سبحانه موجوداً فكل شئ لنا موجود اذاً، وما دام هو موجوداً وملائكته موجودة. فهذه الدنيا إذن ليست خالية لا أنيس فيها ولا حسيس، وهذه الجبال الخاوية، وتلك الصحارى المقفرة كلها عامرة ومأهولة بعباد الله المكرمين، بالملائكة الكرام. نعم، ان نور الايمان بالله سبحانه، والنظرة الى الكون لاجله، يجعل الاشجار بل حتى الاحجار كأنها اصدقاء مؤنسون فضلاً عن ذوي الشعور من عباده، حيث يمكن لتلك الموجودات ان تتكلم معنا – بلسان الحال – بما يسلينا ويروّح عنا.

نعم، ان الدلائل على وجوده سبحانه بعدد موجودات هذا الكون، وبعدد حروف كتاب العالم الكبير هذا، وهناك دلائل وشواهد على رحمته بعدد اجهزة ذوي الارواح وما خصهم من نِعَمه ومطعوماته التي هي محور الشفقة والرحمة

والعناية، فجميعها تدل على باب خالقنا الرحيم والكريم، وصانعنا الانيس، وحامينا الودود، ولاشك ان العجز والضعف هما ارجى شفيعين عند ذلك الباب السامي. وان عهد الشيب أوانهما، ووقت ظهورهما، فعلينا إذن ان نوّد الشيخوخة، وان نحبها، لا ان نعرض عنها؛ اذ هي شفيع مرتجى امام ذلك الباب الرفيع.

الرجاء السابع

حينما تبدلت نشوة «سعيد القديم» وابتساماته الى نحيب «سعيد الجديد» وبكائه، وذلك في بداية المشيب، دعاني ارباب الدنيا في «انقرة» اليها، ظناً منهم انني «سعيد القديم» فاستجبت للدعوة.

ففي ذات يوم من الايام الاخيرة للخريف، صعدت الى قمّة قلعة انقرة، التي اصابها الكبر والبلى اكثر مني، فتمثّلت تلك القلعة امامي كأنها حوادث تأريخية متحجرة، واعتراني حزن شديد واسى عميق من شيب السنة في موسم الخريف، ومن شيبي انا، ومن هرم القلعة، ومن هرم البشرية ومن شيخوخة الدولة العثمانية العلية، ومن وفاة سلطنة الخلافة، ومن شيخوخة الدنيا. فاضطرتني تلك الحالة الى النظر من ذروة تلك القلعة المرتفعة الى اودية الماضي وشواهق المستقبل، أنقب عن نور، وابحث عن رجاء وعزاء ينير ما كنت أحسّ به من اكثف الظلمات التي غشيت روحي هناك وهي غارقة في ليل هذا الهرم المتداخل المحيط (١).

فحينما نظرت الى اليمين الذي هو الماضي باحثاً عن نور ورجاء، بدت لي تلك الجهة من بعيد على هيئة مقبرة كبرى لأبي واجدادي والنوع الانساني، فأوحشتني بدلاً من ان تسلّيني.

ثم نظرت الى اليسار الذي هو المستقبل مفتشاً عن الدواء، فتراءى لي على صورة مقبرة كبرى مظلمة لي ولأمثالي وللجيل القابل، فأدهشني عوضاً من ان يؤنسني.

ثم نظرت الى زمني الحاضر بعد ان امتلأ قلبي بالوحشة من اليمين واليسار، فبدا ذلك اليوم لنظري الحسير ونظرتي التأريخية على شكل نعش لجنازة جسمي المضطرب كالمذبوح بين الموت والحياة.

---

(١) وردت هذه الحالة الروحية على صورة مناجاة الى القلب باللغة الفارسية، فكتبتها كما وردت، ثم طبعت ضمن رسالة (حَباب) في أنقرة. ـ المؤلف.

فلما يئست من هذه الجهة ايضاً، رفعت رأسي ونظرت الى قمة شجرة عمري، فرأيت ان على تلك الشجرة ثمرة واحدة فقط، وهي تنظر اليّ، تلك هي جنازتي، فطأطأت رأسي ناظراً الى جذور شجرة عمري، فرأيت ان التراب الذي هناك ما هو الاّ رميم عظامي، وتراب مبدأ خلقتي قد اختلطا معاً وامتزجا، وهما يُداسان تحت الاقدام، فأضافا الى دائي داء من دون ان يمنحاني دواءً.

ثم حوّلتُ نظري على مضض الى ما ورائي، فرأيت ان هذه الدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في اودية العبث وتنحدر في ظلمات العدم، فسكبتْ هذه النظرة السمَّ على جروحي بدلاً من ان تواسيها بالمرهم والعلاج الشافي.

ولما لم أجد في تلك الجهة خيراً ولا أملاً، ولّيت وجهي شطر الامام ورنوت بنظري بعيداً، فرأيت ان القبر واقف لي بالمرصاد على قارعة الطريق، فاغراً فاه، يحدق بي، وخلفه الصراط الممتد الى حيث الابد، وتتراءى القوافل البشرية السائرة على ذلك الصراط من بعيد. وليس لي من نقطة استناد امام هذه المصائب المدهشة التي تأتيني من الجهات الست، ولا املك سلاحاً يدفع عني غير جزء ضئيل من الارادة الجزئية. فليس لي اذن امام كل اولئك الاعداء الذين لا حصر لهم، والاشياء المضرة غير المحصورة، سوى السلاح الانساني الوحيد وهو الجزء الاختياري. ولكن لما كان هذا السلاح ناقصاً وقاصراً وعاجزاً، ولاقوة له على ايجاد شئ، وليس في طوقه الاّ الكسب فحسب، حيث لا يستطيع ان يمضي الى الزمان الماضي ويذبّ عني الاحزان ويسكتها، ولايمكنه ان ينطلق الى المستقبل حتى يمنع عنّي الاهوال والمخاوف الواردة منه، أيقنت الاّ جدوى منه فيما يحيط بي من آلام وآمال الماضي والمستقبل.

وفيما كنت مضطرباً وسط الجهات الست تتوالى عليّ منها صنوف الوحشة والدهشة واليأس والظلمة، اذا بأنوار الايمان المتألقة في وجه القرآن المعجز البيان، تمدني وتضيئ تلك الجهات الست وتنورها بانوار باهرة ساطعة ما لوتضاعف ما انتابني من صنوف الوحشة وانواع الظلمات مائة مرة، لكانت تلك الانوار كافية ووافية لإحاطتها.

فبدّلت – تلك الانوار – السلسلة الطويلة من الوحشة الى سلوان ورجاء، وحوّلت كل المخاوف الى انس القلب، وامل الروح الواحدة تلو الاخرى.

نعم، ان الايمان قد مزق تلك الصورة الرهيبة للماضي وهي كالمقبرة الكبرى، وحوّلها الى مجلس منوّر أنوس والى ملتقى الاحباب، وأظهر ذلك بعين اليقين وحق اليقين...

ثم ان الايمان قد أظهر بعلم اليقين ان المستقبل الذي يتراءى لنا بنظر الغفلة، كقبر واسع كبير ما هو الاّ مجلس ضيافة رحمانية اعدّت في قصور السعادة الخالدة.

ثم ان الايمان قد حطّم صورة التابوت والنعش للزمن الحاضر التي تبدو هكذا بنظر الغفلة، واشهدني ان اليوم الحاضر انما هو متجر اخروي، ودار ضيافة رائعة للرحمن.

ثم ان الايمان قد بصّرني بعلم اليقين ان ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة التي هي فوق شجرة العمر على شكل نعش وجنازة. انها ليست كذلك، وانما هي انطلاق لروحي – التي هي اهل للحياة الابدية ومرشحة للسعادة الابدية – من وكرها القديم الى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتياد.

ثم ان الايمان قد بيّن بأسراره؛ ان عظامي ورميمها وتراب بداية خلقتي، ليسا عظاماً حقيرة فانية تداس تحت الاقدام، وانما ذلك التراب باب للرحمة، وستار لسرادق الجنة.

ثم ان الايمان أراني بفضل اسرار القرآن الكريم ان احوال الدنيا واوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم – كما ظنّ في بادئ الامر – بل انها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للاسماء السبحانية قد اتمّت مهامها، وأفادت معانيها، واخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الايمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين.

ثم ان الايمان قد اوضح لي بنور القرآن ان ذلك القبر الذي احدق بي ناظراً ومنتظراً ليس هو بفوهة بئر، وانما هو باب لعالم النور. وان ذلك الطريق المؤدي الى الابد ليس طريقاً ممتداً ومنتهياً بالظلمات والعدم، بل انه سبيل سوي الى عالم النور، وعالم الوجود وعالم السعادة الخالدة.. وهكذا اصبحت هذه الاحوال دواء لدائي، ومرهماً له، حيث قد بدت واضحة جلية فأقنعتني قناعة تامة.

ثم، ان الايمان يمنح ذلك الجزء الضئيل من – الجزء الاختياري – الذي يملك كسباً جزئياً للغاية، وثيقة يستند بها الى قدرة مطلقة، وينتسب بها الى رحمة واسعة، ضد

تلك الكثرة الكاثرة من الاعداء والظلمات المحيطة، بل ان الايمان نفسه يكون وثيقة بيد الجزء الاختياري. ثم ان هذا الجزء الاختياري الذي هو السلاح الانساني، وان كان في حد ذاته ناقصاً عاجزاً قاصراً، الاّ أنه اذا استعمل باسم الحق سبحانه، وبذل في سبيله، ولاجله، يمكن ان ينال به – بمقتضى الايمان – جنة ابدية بسعة خمسمائة سنة. مَثَلُ المؤمن في ذلك مثل الجندي اذا استعمل قوته الجزئية باسم الدولة فانه يسهل له ان يؤدي اعمالاً تفوق قوته الشخصية بألوف المرات.

وكما ان الايمان يمنح الجزء الاختياري وثيقة، فانه يسلب زمامه من قبضة الجسم الذي لايستطيع النفوذ في الماضي ولا في المستقبل، ويسلمه الى القلب والروح، ولعدم انحصار دائرة حياة الروح والقلب في الزمن الحاضر كما هو في الجسد، ولدخول سنوات عدة من الماضي وسنوات مثلها من المستقبل في دائرة تلك الحياة، فان ذلك الجزء الاختياري ينطلق من الجزئية مكتسباً الكلية. فكما انه يدخل بقوة الايمان في اعمق اودية الماضي مبدداً ظلمات الاحزان، كذلك يصعد محلقاً بنور الايمان الى ابعد شواهق المستقبل مزيلاً اهواله ومخاوفه.

فيا ايها الاخوان الشيوخ، ويا ايتها الاخوات العجائز، ويا من تتألمون مثلي من تعب المشيب! ما دمنا والحمد لله من اهل الايمان، والايمان فيه خزائن حلوة نيرة لذيذة محبوبة الى هذا الحد، وان شيبنا يدفعنا الى هذه الخزائن دفعاً اكثر، فليس لنا التشكي من الشيخوخة اذاً، بل يجب علينا ان نقدم ألف شكر وشكر الى الله عزّ وجلّ، وان نحمده تعالى على شيبنا المنوّر بالايمان.

الرجاء الثامن

حينما خالط بعض شعرات رأسي البياض الذي هو علامة الشيخوخة، وكانت اهوال الحرب العالمية الاولى وما خلفه الاسر لدى الروس من آثار عميقة في حياتي عمّقت فيّ نوم غفلة الشباب. وتلا ذلك استقبال رائع عند عودتي من الاسر الى استانبول، سواء من قبل الخليفة او شيخ الاسلام، او القائد العام، او من قبل طلبة العلوم الشرعية، وما قوبلت به من تكريم وحفاوة اكثر مما استحق بكثير.. كل ذلك

ولّد عندي حالة روحية فضلاً عن سكرة الشباب وغفلته، وعمّقتْ فيّ ذلك النوم اكثر، حتى تصورت معها ان الدنيا دائمة باقية، ورأيت نفسي في حالة عجيبة من الالتصاق بالدنيا كأنني لا أموت.

ففي هذا الوقت، ذهبت الى جامع بايزيد في استانبول، وذلك في شهر رمضان المبارك لأستمع للقرآن الكريم من الحفاظ المخلصين، فاستمعت من لسان اولئك الحفاظ ما اعلنه القرآن المعجز بقوة وشدة، خطابه السماوي الرفيع في موت الانسان وزواله، ووفاة ذوي الحياة وموتهم، وذلك بنص الآية الكريمة:

﴿ **كُلُّ نَفسٍ ذائقةُ الموْت** ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

نفذ هذا الاعلان الداوي صماخ أذني مخترقاً وممزقاً طبقات النوم والغفلة والسكرة الكثيفة الغليظة حتى استقر في اعماق قلبي.

خرجت من الجامع، رأيت نفسي لبضعة ايام، كأن اعصاراً هائلاً يضطرم في رأسي بما بقي من آثار ذلك النوم العميق المستقر فيّ منذ امد طويل، ورأيتني كالسفينة التائهة بين أمواج البحر المضطربة البوصلة. كانت نفسي تتأجج بنار ذات دخان كثيف.. وكلما كنت انظر الى المرآة، كانت تلك الشعرات البيضاء تخاطبني قائلة: انتبه!!!.

نعم ان الامور توضحت عندي بظهور تلك الشعرات البيضاء وتذكيرها إياي، حيث شاهدت ان الشباب الذي كنت أُغتر به كثيراً، بل كنت مفتوناً باذواقه يقول لي: الوداع! وان الحياة الدنيا التي كنت ارتبط بحبها بدأت بالانطفاء رويداً رويداً، وبدت لي الدنيا التي كنت اتشبث بها، بل كنت مشتاقاً اليها وعاشقاً لها، رأيتها تقول لي: الوداع!! الوداع!! مشعرة اياي، بانني سأرحل من دار الضيافة هذه، وسأغادرها عما قريب. ورأيتها – اي الدنيا – هي الاخرى تقول: الوداع، وتتهيأ للرحيل. وانفتح الى القلب من كلية هذه الآية الكريمة ﴿ **كُلُ نفسٍ ذائقةُ الموت** ﴾ ومن شموليتها، ذلك المعنى الذي يتضمنها وهو:

ان البشرية قاطبة انما هي كالنفس الواحدة، فلابد انها ستموت كي تبعث من جديد، وان الكرة الارضية كذلك نفسٌ فلابد انها سوف تموت ويصيبها البوار كي

تتخذ هيأة البقاء وصورة الخلود، وان الدنيا هي الاخرى نفسٌ وسوف تموت وتنقضي كي تتشكل بصورة (آخرة).

فكرت فيما أنا فيه؛ فرأيت:

أن الشباب الذي هو مدار الاذواق واللذائذ، ذاهب نحو الزوال، تارك مكانه للشيخوخة التي هي منشأ الاحزان. وان الحياة الساطعة الباهرة لفي ارتحال، ويتهيأ الموت المظلم المخيف - ظاهراً - ليحل محلها.

ورأيت الدنيا التي هي محبوبة وحلوة ومعشوقة الغفاة وتُظن انها دائمة، رأيتها تجري مسرعة الى الفناء. ولكي انغمس في الغفلة واخادع نفسي ولّيت نظري شطر اذواق المنزلة الاجتماعية ومقامها الرفيع الذي حظيت به في استانبول والذي خُدعت به نفسي وهو فوق حدى وطوقي من حفاوة واكرام وسلوان واقبال واعجاب.. فرأيت أن جميعها لا تصاحبني الاّ الى حد باب القبر القريب مني، وعنده تنطفئ.

ورأيت أن رياءً ثقيلاً، وأثرة باردة وغفلة مؤقتة، تكمن تحت الستار المزركش للسمعة والصيت، التي هي المثل الاعلى لارباب الشهرة وعشاقها، ففهمت ان هذه الامور التي خدعتني حتى الآن لن تمنحني اي سلوان، ولا يمكن ان اتلمس فيها اي قبس من نور.

ولكي استيقظ من غفلتي مرة اخرى وانتبه منها نهائياً، بدأت بالاستماع كذلك لأولئك الحفاظ الكرام في «جامع بايزيد» لأتلقى الدرس السماوي للقرآن الكريم.. وعندها سمعت بشارات ذلك الارشاد السماوي من خلال الاوامر الربانية المقدسة في قوله تعالى: ﴿ **وبَشِّر الذين آمنوا....** ﴾(البقرة: ٢٥)

وبالفيض الذي اخذته من القرآن الكريم تحريت عن السلوة والرجاء والنور في تلك الامور التي ادهشتني وحيّرتني واوقعتني في يأس ووحشة، دون البحث عنها في غيرها من الامور. فألف شكر وشكر للخالق الكريم على ما وفقني لان أجد الدواء في الداء نفسه، وأن أرى النور في الظلمة نفسها، وان اشعر بالسلوان في الالم والرعب ذاتهما.

فنظرت اول ما نظرت الى ذلك الوجه الذي يُرعب الجميع ويُتوهم أنه مخيف جداً .. وهو وجه «الموت» فوجدت بنور القرآن الكريم، ان الوجه الحقيقي للموت بالنسبة للمؤمن صبوح منور، على الرغم من ان حجابه مظلم والستر الذي يخفيه يكتنفه السواد القبيح المرعب. وقد اثبتنا واوضحنا هذه الحقيقة بصورة قاطعة في كثير من الرسائل وبخاصة في «الكلمة الثامنة» و«المكتوب العشرين» من ان الموت: ليس اعداماً نهائياً، ولا هو فراقاً ابدياً، وانما مقدمة وتمهيد للحياة الابدية وبداية لها. وهو إنهاء لأعباء مهمة الحياة ووظائفها ورخصة منها وراحة واعفاء، وهو تبديل مكان بمكان، وهو وصال ولقاء مع قافلة الاحباب الذين ارتحلوا الى عالم البرزخ.. وهكذا، بمثل هذه الحقائق شاهدت وجه الموت المليح الصبوح. فلا غرو لم انظر اليه خائفاً وجلاً، وانما نظرت اليه بشئ من الاشتياق – من جهة – وعرفت في حينها سراً من اسرار «رابطة الموت» التي يزاولها اهل الطرق الصوفية.

ثم تأملت في «عهد الشباب» فرأيت أنه يُحزن الجميع بزواله، ويجعل الكل يشتاقون اليه وينبهرون به، وهو الذي يمر بالغفلة والآثام، وقد مرّ شبابي هكذا! فرأيت أن ثمة وجهاً دميماً جداً بل مسكراً ومحيراً تحت الحلة القشيبة الفضفاضة الملقاة عليه، فلو لم اكن مدركاً كنهه لكان يبكيني ويحزنني طوال حياتي الدنيا، حتى لو عمرت مائة سنة حيال بضع سنين تمضي بنشوة وابتسامة، كما قال الشاعر الباكي على شبابه بحسرة مريرة:

ألا ليت الشبابَ يعود يوماً فأُخبره بما فعلَ المشيبُ

نعم ان الذين لم يتبينوا سر الشباب وماهيته من الشيوخ يقضون شيخوختهم بالحسرة والنحيب على عهد شبابهم كهذا الشاعر. والحال ان فتوة الشباب ونضارته اذا ما حلت في المؤمن المطمئن الحصيف ذي القلب الساكن الوقور، واذا ما صُرفت طاقة الشباب وقوته الى العبادة والاعمال الصالحة والتجارة الاخروية، فانها تصبح اعظم قوة للخير وتغدو افضل وسيلة للتجارة، واجمل وساطة للحسنات بل ألذها.

نعم، ان عهد الشباب نفيس حقاً وثمين جداً، وهو نعمة الهية عظمى، ونشوة لذيذة لمن عرف واجبه الاسلامي ولمن لم يسئ استعماله. ولكن الشباب ان لم تصحبه الاستقامة، ولم ترافقه العفة والتقوى، فدونه المهالك الوبيلة، اذ يصدّع طيشه

ونزواته سعادة صاحبه الابدية، وحياته الاخروية، وربما يحطم حياته الدنيا ايضاً. فيجرعه الآلام غصصاً طوال فترة الهرم والشيخوخة لما أخذه في بضع سنين من اذواق ولذائذ.

ولما كان عهد الشباب لا يخلو من الضرر عند اغلب الناس، فعلينا اذن نحن الشيوخ ان نشكر الله شكراً كثيراً على ما نجّانا من مهالك الشباب واضراره. هذا وان لذات الشباب زائلة لامحالة، كما تزول جميع الاشياء. فلئن صُرف عهد الشباب للعبادة، وبذل للخير والصلاح لكان دونه ثماره الباقية الدائمة، وعنده وسيلة الفوز بشباب دائم وخالد في حياة ابدية.

ثم نظرت الى «الدنيا» التي عشقها اكثر الناس، وابتلوا بها. فرأيت بنور القرآن الكريم ان هناك ثلاث دنىً كلية قد تداخل بعضها في البعض الآخر:

الاولى: هي الدنيا المتوجهة الى الاسماء الإلهية الحسنى، فهي مرآة لها.

الثانية: هي الدنيا المتوجهة نحو الآخرة، فهي مزرعتها.

الثالثة: هي الدنيا المتوجهة الى ارباب الدنيا واهل الضلالة، فهي لعبة اهل الغفلة ولهوهم.

ورأيت كذلك ان لكل احد في هذه الدنيا دنيا عظيمة خاصة به، فهناك اذن دنىً متداخلة بعدد البشر. غير ان دنيا كل شخص قائمة على حياته الشخصية، فمتى ما ينهار جسم شخص فإن دنياه تتهدم وقيامته تقوم. وحيث ان الغافلين لايدركون انهدام دنياهم الخاصة بهذه السرعة الخاطفة؛ فهم يفتتنون بها، ويظنونها كالدنيا العامة المستقرة من حولهم.

فتأملت قائلاً: لاشك أن لي ايضاً دنيا خاصة – كدنيا غيري – تتهدم بسرعة – فما فائدة هذه الدنيا الخاصة اذن في عمري القصير جداً؟!.. فرأيت بنور القرآن الكريم ان هذه الدنيا – بالنسبة لي ولغيري – ما هي الاّ متجر مؤقت، ودار ضيافة تملأ كل يوم وتخلى، وهي سوق مقامة على الطريق لتجارة الغادين والرائحين، وهي كتاب مفتوح يتجدد للبارىء المصور، فيمحو فيه ما يشاء ويثبته بحكمة. وكل ربيع فيها رسالة مرصعة مذهّبة، وكل صيف فيها قصيدة منظومة رائعة، وهي مرايا تتجدد

مظهرة تجليات الاسماء الحسنى للصانع الجليل، وهي مزرعة لغراس الآخرة وحديقتها، وهي مزهرة الرحمة الإلهية، وهي مصنع موقت لتجهيز اللوحات الربانية الخالدة التي ستظهر في عالم البقاء والخلود. فشكرتُ الله الخالق الكريم اجزل شكر على خلقه الدنيا بهذه الصورة. بيد ان الانسان الذي مُنح حباً مقبلاً الى وجهي الدنيا الحقيقيين المليحين المتوجهين الى الاسماء الحسنى والى الآخرة، اخطأ المرمى وجانب الصواب عندما استعمل تلك المحبة في غير محلها، فصرفها الى الوجه الفاني القبيح ذي الغفلة والضرر حتى حق عليه الحديث الشريف (حب الدنيا رأس كل خطيئة)(١).

فيا ايها الشيوخ ويا ايتها العجائز!.

انني رأيت هذه الحقيقة بنور القرآن الحكيم، وبتذكير من شيخوختي، وبما منحه الايمان لبصيرتي من نور، وقد اثبتُّها في رسائل كثيرة مع براهين دامغة.. رايت أن هذه الحقيقة هي السلوان الحقيقي لي، وهي الرجاء القوي والضياء الساطع.. فرضيت بشيخوختي وهرمي وسررت من رحيل الشباب.

فلا تحزنوا اذن، ولا تبكوا يا اخوتي الشيوخ على شيخوختكم بل احمدوا الله واشكروه. وما دمتم تملكون الايمان، والحقيقة تنطق هكذا، فليبك اولئك الغافلون، وليحزن الضالون ولينتحبوا..

الرجاء التــاسع

كنت اسيراً اثناء الحرب العالمية الاولى في مدينة قصية، في شمال شرقي روسيا تدعى «قوصترما». كان هناك جامع صغير للتتار على حافة نهر «فولغا» المشهور.. كنت ضجراً من بين زملائي الضباط الاسرى، فآثرت العزلة، الاّ أنه لم يكن يسمح

---

(١) رواه البيهقي في الشعب باسناد حسن الى الحسن البصري رفعه مرسلاً، وذكره الديلمي في الفردوس وتبعه ولده بلا سند عن علي رفعه، قال ابن الفرس: الحديث ضعيف، ورواه البيهقي ايضاً في الزهد وابو نعيم من قول عيسى بن مريم وآخرون يعدّونه من كلام ابن مسعود او جندب البجلي رضي الله عنهم، انظر تفصيله في كشف الخفاء ١٠٩٩ وتخريج الاحياء للعراقي والدرر المنتثرة ٩٧ وحلية الاولياء ٣٨٨/٦ والمشكاة ٥٢١٢٥ والاحاديث المشكلة ص١٢١ واحاديث القصاص برقم ٧ وضعيف الجامع الصغير وزيادته ٢٦٨١.

لي بالتجوال في الخارج دون اذن ورخصة، ثم سمح لي بأن أظل في ذلك الجامع بضمانة اهل حيّ التتار وكفالتهم، فكنت انام فيه وحيداً، وقد اقترب الربيع، وكانت الليالي طويلة جداً في تلك البقعة النائية..

كان الارق يصيبني كثيراً في تلك الليالي الحالكة السواد، المتسربلة باحزان الغربة القاتمة، حيث لا يُسمع الاّ الخرير الحزين لنهر «فولغا»، والاصوات الرقيقة لقطرات الامطار، ولوعة الفراق في صفير الرياح.. كل ذلك ايقظني – مؤقتاً – من نوم الغفلة العميق..

ورغم انني لم اكن اعدّ نفسي شيخاً بعدُ، ولكن من يرى الحرب شيخ، حيث ايامها يشيب من هولها الولدان، وكأن سراً من اسرار الآية الكريمة ﴿**يَوماً يَجعلُ الوِلدانَ شيباً**﴾ (المزمل: ١٧) قد سرى فيها. ومع انني كنت قريباً من الاربعين الاّ انني وجدتُ نفسي كأنني في الثمانين من عمري..

في تلك الليالي المظلمة الطويلة الحزينة، وفي ذلك الجو الغامر بأسى الغربة، ومن واقعي المؤلم الاليم، جثم على صدري يأس ثقيل نحو حياتي وموطني، فكلما التفتُّ الى عجزي وانفرادي انقطع رجائي واملي. ولكن جاءني المدد من القرآن الكريم..

فردد لساني: ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ (آل عمران: ١٧٣)

وقال قلبي باكياً:

انا غريب.. انا وحيد.. انا ضعيف.. انا عاجز.. انشد الامان.. اطلب العفو.. اخطب العون.. في بابك يا الهي.

اما روحي التي تذكرت احبابي القدامى في بلدي، وتخيلت موتي في هذه الغربة، فقد تمثلت بأبيات نيازي المصري، وهي التي تبحث عن صديق:

مررت بأحزان الدنيا، واطلقت جناحي

للحرمان

طائراً في شوق، صائحاً في كل لحظة:

صديق!.. صديق..!

على اي حال.. فقد اصبح «عجزي» و«ضعفي» في تلك الليالي المحزنة الطويلة والحالكة بالفرقة والرقة والغربة وسيلتين للتقرب الى عتبة الرحمة الالهية، وشفيعين لدى الحضرة الالهية، حتى انني لا ازال مندهشاً كيف استطعت الفرار بعد ايام قليلة. واقطع بصورة غير متوقعة مسافة لا يمكن قطعها مشياً على الاقدام الاّ في عام كامل، ولم اكن ملماً باللغة الروسية. فلقد تخلصت من الاسر بصورة عجيبة محيّرة، بفضل العناية الإلهية التي ادركتني بناء على عجزي وضعفي، ووصلت استانبول ماراً بـ«وارشو» و«فينا». وهكذا نجوت من ذلك الاسر بسهولة تدعو الى الدهشة، حيث اكملت سياحة الفرار الطويل بسهولة ويسر كبيرين، بحيث لم يكن لينجزها اشجع الاشخاص وأذكاهم وامكرهم وممن يلمّون باللغة الروسية.

ولكن حالتي في تلك الليلة التي قضيتها في الجامع على ضفاف «فولغا» قد ألهمتني هذا القرار:

«سأقضي بقية عمري في الكهوف والمغارات معتزلاً الناس.. كفاني تدخلاً في امورهم. ولما كانت نهاية المطاف دخول القبر منفرداً وحيداً، فعليّ ان اختار الانفراد والعزلة من الآن،لأعوّد نفسي عليها!.».

نعم، هكذا قررت.. ولكن – ويالِلأسف – فان احبابي الكثيرين المخلصين في استانبول، والحياة الاجتماعية البهيجة البرّاقة فيها، ولاسيما ما لا طائل فيه من اقبال الناس والشهرة والصيت.. كل ذلك أنساني قراري ذلك لفترة قصيرة. فكأن ليلة الغربة تلك هي السواد المنوّر البصير لعين حياتي، وكأن النهار البهيج لحياة استانبول هي البياض غير البصير لعين حياتي. فلم تتمكن تلك العين من رؤية البعيد، بل غطت ثانية في نوم عميق، حتى فتحها الشيخ الكيلاني بكتابه «فتوح الغيب» بعد سنتين.

وهكذا ايها الشيوخ، ويا ايتها العجائز!.. اعلموا ان ما في الشيخوخة من العجز والضعف ليسا الاّ وسيلتين لدرّ الرحمة الإلهية وجلب العناية الربانية.. فانني شاهد على هذه الحقيقة في كثير من حوادث حياتي، وان تجلي الرحمة على سطح الارض يظهرها كذلك بشكل واضح ابلج؛ لان اعجز الحيوانات واضعفها هي صغارها، والحال ان ألطف حالات الرحمة وألذها واجملها تتجلى في تلك الصغار، فعجزُ

الفرخ الساكن في عشّه على شجرة باسقة، يستخدم والدته - بتجلي الرحمة - كأنها جندية تنتظر الاوامر. فتحوم حول الزروع الخضر لتجلب الرزق الوفير لفرخها الصغير، ولكن ما ان ينسى الفرخ الصغير عجزه - بنموّ جناحيه وتكامله - حتى تقول له والدته: عليك ان تبحث عن رزقك بنفسك. فلا تعود تستجيب لندائه بعد ذلك.

فكما يجري سرّ الرحمة هذا على هذه الصورة بحق الصغار، يجري كذلك من زاوية الضعف والعجز، بحق الشيوخ الذين اصبحوا في حكم الصغار.

ولقد اعطتني تجاربي الخاصة القناعة التامة ان رزق الصغار مثلما يأتي بناء على عجزهم، وترسله الرحمة الإلهية لهم بشكل خارق، فتفجّر ينابيع الاثداء وتسيّلها لهم سيلاً، فان رزق الشيوخ المؤمنين الذين اكتسبوا العصمة يُرسل اليهم من قبل الرحمة على صورة بركة، وأن عمود البركة لأي بيت وسندها انما هو اولئك الشيوخ الذين يأهلونه، وان الذي يحفظ ذلك البيت من البلايا والمصائب انما هم اولئك الشيوخ الركع الذين يعمرونه. يثبت هذه الحقيقة اثباتاً كاملاً جزء من حديث شريف: لولا الشيوخ الركع لصبّ عليكم البلاء صبّاً (١).

وهكذا فما دام الضعف والعجز اللذان في الشيخوخة يصبحان محورين لجلب الرحمة الإلهية الواسعة، وان القرآن الكريم يدعو الاولاد الى الاحترام والرأفة بالوالدين في خمس مراتب، وبأسلوب غاية في الاعجاز، في قوله تعالى:

﴿إمّا يَبلُغَنّ عندَكَ الكِبَرَ أحدُهُما أو كلاهما فلا تَقُل لهما أفّ ولا تَنهَرهُما وقُل لهُما قولاً كريماً ۞ واخفِضْ لهُما جَناحَ الذُلّ من الرحمة وقُل ربّ ارحَمهُما كما ربّياني صغيرا﴾ (الاسراء: ٢٣ - ٢٤).

وما دام الاسلام يأمر بتوقير الشيوخ والرحمة بهم، والفطرة الانسانية تقضي الاحترام والرحمة تجاه الشيوخ.. فلابد لنا - نحن الشيوخ - ألاّ نستبدل شيخوختنا هذه بمائة عهد من عهود الصبا؛ ذلك لان لنا فيها اذواقاً معنوية دائمة جديرة، بدلاً

(١) (لولا عباد لله ركّع وصبية رضّع وبهائم رتّع لصبّ عليكم - وفي رواية العذاب - صباً) رواه الطيالسي والطبراني وابن منده وابن عدى وغيرهم عن ابي هريرة رفعه.... ورواه السيوطي في الجامع الصغير - الحديث نفسه - ثم رصّ رصاً. قال المناوي نقلاً عن الهيثمي: وهو ضعيف (باختصار عن كشف الخفاء ١٦٣/٢). - المترجم.

من الذوق المادي الناشئ من نزوة الشباب، حيث نأخذ اذواقاً روحية نابعة من الرحمة الصادرة من العناية الإلهية ومن الاحترام النابع من فطرة الانسانية.

نعم، انى أُطمئنكم بأنه لو أُعطيتُ عشر سنوات من عهد شباب « سعيد القديم » فلن استبدلها بسنة واحدة من شيب « سعيد الجديد ». فانا راضٍ عن شيخوختي، فارضوا عنها انتم كذلك..

الرجاء العاشر

بعدما رجعت من الأسر، سيطرت الغفلة عليّ مرة اخرى طوال سنتين من حياتي في استانبول، حيث الأجواء السياسية وتياراتها صرفت نظري عن التأمل في نفسي، وحدثت تشتتاً في ذهني وفكري.

فحينما كنت جالساً ذات يوم في مقبرة ابي ايوب الانصاري رضي الله عنه وعلى مرتفع مطلّ على وادٍ سحيق، مستغرقاً في تأمل الافاق المحيطة باستانبول، اذا بي أرى كأن دنياي الخاصة اوشكت على الوفاة، حتى شعرت – خيالاً – كأن الروح تنسل منها انسلالاً من بعض نواحيّ. فقلت: تُرى هل الكتابات الموجودة على شواهد هذه القبور هي التي دعتني الى هذا الخيال؟

أشحتُ نظري عن الخارج وانعمت النظر في المقبرة دون الآفاق البعيدة فألقى في روعي:

« ان هذه المقبرة المحيطة بك تضم مائة استانبول! حيث ان استانبول قد أفرغت فيها مائة مرة، فلن تُستثنى انت وحدك من حكم الحاكم القدير الذي افرغ جميع اهالي استانبول هنا، فانت راحل مثلهم لا محالة..! »

غادرت المقبرة وانا احمل هذا الخيال المخيف، ودخلت الغرفة الصغيرة في محفل جامع ابي ايوب الانصاري رضي الله عنه والتي كنت ادخلها مراراً في السابق فاستغرقت في التفكير في نفسي: إنما انا ضيف! وضيف من ثلاثة اوجه؛ اذ كما انني ضيف في هذه الغرفة الصغيرة، فانا ضيفٌ كذلك في استانبول، بل انا ضيف في الدنيا وراحل عنها كذلك، وعلى المسافر ان يفكر في سبيله ودربه.

نعم، كما انني سوف اخرج من هذه الغرفة واغادرها، فسوف اترك استانبول ذات يوم واغادرها، وسوف اخرج من الدنيا كذلك.

وهكذا جثمت على قلبي وفكري وانا في هذه الحالة، حالة أليمة محزنة مكدّرة. فلا غرو انني لا أترك احباباً قليلين وحدهم، بل سأفارق ايضاً آلاف الاحبة في استانبول، بل سأغادر استانبول الحبيبة نفسها وسأفترق عن مئات آلالاف من الاحبة كما افترق عن الدنيا الجميلة التي ابتلينا بها.

ذهبتُ الى المكان المرتفع نفسه في المقبرة مرة اخرى، فبدا لي اهالي استانبول، جنائز يمشون قائمين مثلما يظهر الذين ماتوا شخوصاً متحركة في الافلام السينمائية، فقد كنت اتردد اليها احياناً للعبرة! فقال لي خيالي: ما دام قسم من الراقدين في هذه المقبرة يمكن ان يظهروا متحركين كالشخوص السينمائية، ففكّر في هؤلاء الناس كذلك انهم سيدخلون هذه المقبرة حتماً، واعتبرهم داخلين فيها من الآن.

وبينما كنت اتقلب في تلك الحالة المحزنة المؤلمة اذا بنور من القرآن الحكيم وبارشاد من الشيخ الكيلاني (قدس سرّه) يقلب تلك الحالة المحزنة ويحولها الى حالة مفرحة مبهجة، ذات نشوة ولذة، حيث ذكّرني النور القادم من القرآن الكريم ونبهني الى ما يأتي:

كان لك صديق أو صديقان من الضباط الاسرى عند اسرك في «قوصترما» في شمال شرقي روسيا، وكنتَ تعلم حتماً أنهما سيرجعان الى استانبول. ولو خيّرك احدهما قائلاً: أتذهب الى استانبول أم تريد ان تبقى هنا؟. فلا جرم انك كنت تختار الذهاب الى استانبول لو كان لك مسكة من عقل، بفرح وسرور حيث ان تسعمائة وتسعة وتسعين من الف حبيب وحبيب لك هم الآن في استانبول، وليس لك هنا الاّ واحد او اثنان، وهم بدورهم سيرحلون الى هناك. فالذهاب الى استانبول بالنسبة لك اذن ليس بفراق حزين، ولا بافتراق أليم.. وها أنتذا قد أتيت اليها، ألم تصبح راضياً شاكراً؟ فلقد نجوتَ من بلد الاعداء، من لياليها الطوال السوداء، ومن شتائها القارس العاصف، وقدمت استانبول الزاهية الجميلة، كأنها جنة الدنيا!. وهكذا الامر حيث ان تسعاً وتسعين من مائة شخص ممن تحبهم منذ صغرك حتى الآن، قد ارتحلوا الى

المقبرة. تلك التي تبدو لك موحشة مدهشة، ولم يظل منهم في هذه الدنيا الاّ واحد او اثنان، وهم في طريقهم اليها كذلك. فوفاتك في الدنيا اذن ليست بفراق، ولا بافتراق، وانما هي وصال ولقاء مع اولئك الاحبة الاعزاء.

نعم ان اولئك - اي الارواح الباقية - قد تركوا مأواهم وعشهم المندرس تحت الارض، فيسرح قسم منهم بين النجوم، وقسم آخر بين طبقات عالم البرزخ.

وهكذا ذكّرني ذلك النور القرآني.. ولقد أثبت هذه الحقيقة اثباتاً قاطعاً كلٌ من القرآن الكريم، والايمان، بحيث مَن لم يفقد قلبه وروحه، او لم تغرقه الضلالة لابد ان يصدق بها كأنه يراها؛ ذلك لأن الذي زيّن هذه الدنيا بأنواع ألطافه التي لاتحد وبأشكال آلائه التي لاتُعد مُظهراً بها ربوبيته الكريمة الرؤوف، حفيظاً حتى على الاشياء الصغيرة الجزئية جداً - كالبذور مثلاً - ذلك الصانع الكريم الرحيم، لابد - بل بالبداهة - لايُفني هذا الانسان الذي هو اكمل مخلوقاته واكرمها واجمعها واهمّها واحبها اليه، ولا يمحوه بالفناء والاعدام النهائي، بلا رحمة وبلا عاقبة - كما يبدو ظاهراً - ولايضيّعه ابداً.. بل يضع الخالق الرحيم ذلك المخلوق المحبوب تحت التراب الذي هو باب الرحمة موقتاً، كي يعطي ثماره في حياة اخرى، كما يبذر الفلاح البذور على الارض (١).

وبعد ان تلقيت هذا التنبيه القرآني، باتت تلك المقبرة عندي مؤنسة اكثر من استانبول نفسها، واصبحت الخلوة والعزلة عندي اكثر لطافة من المعاشرة والمؤانسة، مما حدا بي ان اجد مكاناً للعزلة في «صارى ير» على البسفور. واصبح الشيخ الكيلاني رضي الله عنه استاذاً لي وطبيباً ومرشداً بكتابه «فتوح الغيب»، وصار الامام الرباني رضي الله عنه (٢) كذلك بمثابة استاذ أنيس ورؤوف شفيق بكتابه «مكتوبات»

---

(١) لقد اثبتت هذه الحقيقة بصورة قاطعة كقطعية (اثنين في اثنين يساوي اربعاً) في سائر الرسائل ولاسيما الكلمة العاشرة والكلمة التاسعة والعشرون. ـ المؤلف.

(٢) هو احمد بن عبد الاحد السرهندي (٩٧١ - ١٠٣٤هـ) الملقب بحق مجدد الالف الثاني. برع في علوم عصره، وجمع معها تربية الروح وتهذيب النفس والاخلاص لله وحضور القلب. رفض المناصب التي عرضت عليه، قاوم فتنة «الملك اكبر» التي كادت ان تمحق الاسلام. وفقه المولى العزيز الى صرف الدولة المغولية القوية من الالحاد والبرهمية الى احتضان الاسلام بما بث من نظام البيعة والاخوة والارشاد بين الناس. طهّر معين التصوف من الاكدار. تنامت دعوته في القارة الهندية حتى ظهر من ثمارها الملك الصالح «اورنك زيب» فانتصر الدين في زمانه، وعزّ المسلمون وهان الكفار. له مؤلفات عديدة اشهرها «مكتوبات» ترجمها الى اللغة العربية محمد مراد في مجلدين. ـ المترجم.

فاصبحت راضياً كلياً وممتنّاً من دخولي المشيب، ومن عزوفي عن مظاهر الحضارة البراقة ومتعها الزائفة، ومن إنسلالي من الحياة الاجتماعية وانسحابي منها، فشكرت الله على ذلك كثيراً.

فيا من يدلف الى المشيب مثلي.. ويامن يتذكر الموت بنذير الشيب..! ان علينا ان نرضى بالشيخوخة وبالموت وبالمرض، ونراها لطيفة بنور الايمان الذي أتى به القرآن الكريم، بل علينا ان نحبها – من جهة – فما دمنا نملك ايماناً وهو النعمة الكبرى، فالشيخوخة اذن طيبة والمرض طيب، والموت طيب ايضاً.. وليس هناك شئ قبيح محض في حقيقة الامر الاّ الاثم والسفه والبدع والضلالة.

الرجاء الحادى عشر

عندما رجعت من الاسر، كنت أسكن مع ابن اخي «عبد الرحمن»(١) في قصر على قمة «چاملجة» في استانبول. ويمكن ان تعتبر هذه الحياة التي كنت احياها حياة مثالية من الناحية الدنيوية بالنسبة لأمثالنا؛ ذلك لانني قد نجوت من الاسر، وكانت وسائل النشر مفتوحة امامي في «دار الحكمة الاسلامية»(٢) وبما يناسب مهنتي العلمية، وان الشهرة والصيت والاقبال عليّ تحفّ بي بدرجة لا استحقها، وانا ساكن في اجمل بقعة من استانبول «چاملجة»، وكل شئ بالنسبة لي على ما يرام، حيث أن ابن اخي «عبد الرحمن» ـ رحمه الله – معي، وهو في منتهى الذكاء والفطنة، فهو تلميذ ومضحّ وخادم وكاتب معاً، حتى كنت أعدّه ابناً معنوياً لي.

وبينما كنت احس بأني اسعد انسان في العالم، نظرت الى المرآة، ورأيت شعيرات بيضاء في رأسي وفي لحيتي، واذا بتلك الصحوة الروحية التي احسست بها في الاسر في جامع «قوصترما» تبدأ بالظهور. فأخذتُ أنعم النظر وافكر مدققاً في تلك

(١) هو عبد الرحمن بن عبدالله، ابن شقيق الاستاذ النورسي ولد سنة ١٩٠٣ في نورس وتوفي سنة ١٩٢٨ ودفن في قرية (ذو الفضل) في انقرة. كتب تاريخ حياة الاستاذ حتى عام ١٩١٨ ونشره بكتاب طبع في استانبول. ـ المترجم.

(٢) هي اعلى مؤسسة علمية تابعة للمشيخة الاسلامية في الدولة العثمانية. ـ المترجم.

الحالات التي كنت ارتبط بها قلبياً، وكنت اظنها انها هي مدار السعادة الدنيوية. فما من حالة او سبب دققت النظر فيه، الا رأيت أنه سبب تافه وخادع، لا يستحق التعلق به، ولا الارتباط معه. فضلاً عن ذلك وجدت في تلك الاثناء عدم الوفاء وفقدان الصداقة من صديق حميم، يُعدّ من أوفى الاصدقاء لي، وبشكل غير متوقع وبصورة لاتخطر على بال.. كل ذلك أدى الى النفرة والامتعاض من الحياة الدنيا، فقلت لقلبي:

- ياتُرى هل انا منخدع كلياً؛ فأرى الكثيرين ينظرون الى حياتنا التي يُرثى لها من زاوية الحقيقة نظر الغبطة؟ فهل جُنَّ جنون جميع هؤلاء الناس؟ أم انا في طريقي الى الجنون، لرؤيتي هؤلاء المفتونين بالدنيا مجانين بلهاء؟! وعلى كل حال.. فالصحوة الشديدة التي صحوتها برؤية الشيب جعلتني ارى اولاً: فناء ما ارتبط به من الاشياء المعرّضة للفناء والزوال!!

ثم التفتّ الى نفسي، فوجدتها في منتهى العجز!.. عندها صرختْ روحي وهي التي تنشد البقاء دون الفناء وتشبثت بالاشياء الفانية متوهمة فيها البقاء، صرخت من اعماقها: «مادمتُ فانية جسماً فأي فائدة ارجوها من هذه الفانيات؟ وما دمتُ عاجزة فماذا انتظر من العاجزين؟.. فليس لدائي دواء الاّ عند الباقي السرمدي، عند القدير الازلي» فبدأت أبحث وأستقصي.. راجعت اول ما راجعت، تلك العلوم التي اكتسبتها سابقاً، أبحث فيها السلوة والرجاء. ولكن كنت – وياللاسف – الى ذلك الوقت مغترفاً من العلوم الاسلامية مع العلوم الفلسفية ظناً مني – ظناً خطأً جداً – أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل ومحور الثقافة وتنوّر الفكر، بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوثت روحي كثيراً، بل اصبحت عائقة امام سموي المعنوي.

نعم، بينما كنت في هذه الحالة، اذا بحكمة القرآن المقدسة تسعفني، رحمةً من العلي القدير، وفضلاً وكرماً من عنده سبحانه. فغسلتْ أدران تلك المسائل الفلسفية، وطهرت روحي منها – كما هو مبين في كثير من الرسائل – اذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية، يغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فاينما كنت اتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نوراً ولا اجد قبساً، ولم أتمكن من التنفس

والانشراح، حتى جاء نور التوحيد الساطع النابع من القرآن الكريم الذي يلقن «لا اله الا هو» فمزق ذلك الظلام وبدده. فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان.. ولكن النفس والشيطان، شنّا هجوماً عنيفاً على العقل والقلب وذلك بما أخذاه من تعليمات وتلقياه من دروس من اهل الضلالة والفلسفة. فبدأت المناظرة النفسية في هذا الهجوم حتى اختتمت – ولله الحمد والمنّة – بانتصار القلب وفوزه.

ولما كان قسم من تلك المناظرات قد ورد في اغلب الرسائل، فنحن نكتفي به، الا أننا نبين هنا برهاناً واحداً فقط من بين آلاف البراهين، لنبين انتصار القلب وفوزه على النفس والشيطان، وليقوم ذلك البرهان بتطهير ارواح اولئك الشيوخ الذين لوثوا أرواحهم، واسقموا قلوبهم، واطغوا انفسهم، حتى تجاوزت حدودها، تارة بالضلالة، وتارة بما لايعنيهم من أمور تتستر تحت ستار العلوم الاجنبية والفنون الحضارية ولينجوا – باذن الله – في حق التوحيد، من شرور النفس والشيطان. والمناظرة هي كالآتي:

قالت نفسي مستفسرة باسم العلوم الفلسفية المادية: ان الاشياء الموجودة في الكون،بطبيعتها تتدخل في الموجودات، فكل شئ متوجه الى سبب وصادر منه، فالثمرة تؤخذ من الشجرة، والحبوب تطلب من التراب، فماذا يعني التضرع الى الله وطلب اصغر شئ واكثره جزئية منه سبحانه؟!

انكشف حالا سر التوحيد بنور القرآن الكريم بالصورة الآتية:

أجاب قلبي لنفسي المتفلسفة: ان اصغر شئ واكثره جزئية انما هو كأكبر شئ واعظمه، فهو يصدر من قدرة خالق الكائنات مباشرة، ويأتي من خزينته سبحانه.. فليس هناك صورة اخرى قط، وما الاسباب الاّ ستائر؛ ذلك لان اصغر المخلوقات وأتفهها – حسب ظننا – قد يكون أعظم من اكبر المخلوقات واضخمها، من حيث الخلقة والصنعة والاتقان. فالذباب مثلاً، ان لم يكن ادق وارقى من حيث الصنعة من الدجاج فليس هو بقاصر عنها، لهذا لايمكن التمييز بين الصغير والكبير من حيث الخلقة والصنعة فإما أن يُنسب خلق الجميع – صغيرُه وكبيرُه – الى الاسباب المادية، وإما أن يُسند الخلق جميعاً الى الواحد الاحد. ومثلما أن الشق الاول محال في محال، فان الشق الثاني واجب الاعتقاد به وضروري. لانه:

ما دام علم الله سبحانه وتعالى يحيط بكل شئ، والذي هو ثابت وجوده بشكل قاطع بانتظام جميع الموجودات والحِكَم التي فيها.. وما دام كل شئ يتعيّن مقداره في علمه سبحانه.. وما دامت المصنوعات والمخلوقات وهي في منتهى الروعة والاتقان تأتي بمنتهى السهولة الى الوجود من العدم كل حين كما هو مشاهد.. ومادام ذلك القدير العليم يملك قدرة مطلقة يمكنه أن يوجِد كل شئ بامر «كن فيكون» وفي لمح البصر.. كما بيّنا ذلك في كثير من الرسائل بدلائل قاطعة ولاسيما في المكتوب العشرين وختام اللمعة الثالثة والعشرين. فلا بد أن السهولة المطلقة المشاهدة، والخارقة للعادة، ماهي الاّ من تلك الاحاطة العلمية ومن عظمة تلك القدرة المطلقة.

مثلاً: كما انه اذا أمررت مادة كيمياوية معينة على كتاب كُتب بحبر كيمياوي لايُرى، فان ذلك الكتاب الضخم يظهر عياناً حتى يستقرئ كل ناظر اليه، كذلك يتعين مقدار كل شئ وصورته الخاصة به في العلم المحيط للقدير الازلي، فيمرر القدير المطلق قوته - التي هي تجلٍ من قدرته - بكل سهولة ويسر، كإمرار تلك المادة في المثال، على تلك الماهية العلمية، يمرره بأمر« كنْ فيكون»، وبقدرته المطلقة تلك، وبارادته النافذة.. فيعطي سبحانه ذلك الشئ وجوداً خارجياً، مُظهراً اياه امام الاشهاد، مما يجعلهم يقرأون ما فيه من نقوش حكمته..

ولكن ان لم يُسند خلق جميع الاشياء دفعة واحدة الى العليم المطلق والى القدير الازلي، فان خلق اصغر شئ عندئذ - كالذباب مثلاً - يستلزم جمع جميع ما له علاقة بالذباب من اكثر انواع العالم، جمعه بميزان خاص ودقيق جداً، اي جمع كل ذلك في جسم الذباب، بل ينبغي ان تكون كل ذرةٍ عاملةٍ في جسم الذباب عالمة تمام العلم بسرّ خلق الذباب وحكمة وجوده، بل ينبغي أن تكون متقنة لروعة الصنعة التي فيها بدقائقها وتفاصيلها كافة.

ولما كانت الاسباب المادية او الطبيعية لايمكنها ان تخلق شيئاً من العدم مطلقاً كما هو بديهي ومتفق عليه عند ارباب العقول؛ لذا فان تلك الاسباب حتى لو تمكنت من الايجاد فانها لاتتمكن ذلك الاّ بالجمع، فما دامت ستقوم بالجمع، وأن الكائن الحي

– اياً كان – ينطوي على اغلب نماذج ما في العالم من عناصر وانواع، وكأنه خلاصة الكائنات او بذرتها، فلابد اذن من جمع ذرات البذرة من شجرة كاملة، وجمع عناصر الكائن الحي وذراته من ارجاء العالم اجمع، وذلك بعد تصفيتها وتنظيمها وتقديرها بدقة واتقان حسب موازين خاصة ووفق مصاف حساسة ودقيقة جداً.. ولكون الاسباب المادية الطبيعية جاهلة وجامدة، فلا علم لها مطلقاً كي تقدّر خطة، وتنظم منهاجاً، وتنسق فهرساً، وكي تتعامل مع الذرات وفق قوالب معنوية، مصهرة اياها في تلك القوالب لتمنعها من التفرق والتشتت واختلال النظام. بينما يمكن أن يكون شكل كل شئ وهيئته ضمن أنماط لاتحد.. لذا فان اعطاء شكل معين واحد من بين تلك الاشكال غير المحدودة، وتنظيم ذلك الشئ بمقدار معين ضمن تلك المقادير غير المعدودة، دون أن تتبعثر ذرات العناصر الجارية كالسيل وبانتظام كامل. ثم بناؤها وعمارتها بعضها فوق بعض بلا قوالب خاصة وبلا تعيين المقادير، ثم اعطاء الكائن الحي وجوداً منتظماً منسقاً.. كل هذا امر واضح أنه خارج عن حدود الامكان، بل خارج عن حدود العقل والاحتمال! فالذي لم يفقد بصيرته يرى ذلك بجلاء! نعم، وتوضيحاً لهذه الحقيقة فقد جاء في القرآن الكريم ﴿**انّ الذين تَدعونَ من دون الله لن يَخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له..**﴾ (الحج: ٧٣). اي اذا اجتمعت الاسباب المادية كافة لايمكنها أن تجمع وتنسق جسم ذبابة واحدة وأجهزتها وفق موازين دقيقة خاصة حتى لو أوتيت تلك الاسباب ارادةً واختياراً، بل حتى لو تمكنت من تكوين جسم ذباب وجمعه فانها لاتستطيع ابقاءه وادامته على مقداره المعين له، بل حتى لو تمكنت من ابقائه بالمقدار المعين فلن تستطيع ان تحرك بانتظام تلك الذرات التي تتجدد دوماً وترد الى ذلك الوجود لتسعى فيه؛ لذا فمن البداهة أن الاسباب لن تكون مالكة لهذه الاشياء ولن تكون صاحبتها مطلقاً. انما صاحبها الحقيقي هو غير الاسباب.. نعم، ان لها مالكاً وصاحباً حقيقياً بحيث أن إحياء ما على الارض من كائنات سهل عليه ويسير، كإحياء ذبابة واحدة. وايجاد الربيع عنده سهل وهين كسهولة

ايجاد زهرة واحدة.. كما تبينه الآية الكريمة: ﴿**ما خلقُكُم ولا بَعثُكم الاّ كنَفسٍ واحدة**﴾ (لقمان: ٢٨) ذلك لأنه غير محتاج الى الجمع، حيث أنه مالك لأمر «كن فيكون».. ولانه يخلق من العدم في كل ربيع أحوال موجودات الربيع وصفاتها واشكالها، مما سوى عناصرها.. ولان خطة كل شئ ونموذجه وفهرسه ومخططه متعين في علمه سبحانه.. ولان جميع الذرات لاتتحرك الاّ ضمن دائرة علمه وقدرته؛ لذا فانه يخلق كل شئ ويوجده ايجاداً بلمح البصر وفي منتهى اليسر، ولن يحيد شئ عمّا أنيط به في حركته ولو بمقدار ذرة. فتغدو الكواكب السيارة جيشاً منظماً طائعاً له، وتصبح الذرات جنوداً مطيعين لأمره، وحيث ان الجميع يسيرون على وفق تلك القدرة الازلية ويتحركون وفق دساتير ذلك العلم الازلي؛ لذا فان هذه الآثار تأتي الى الوجود حسب تلك القدرة، فلا تصغُر تلك الآثار بنظر الاستصغار، ولا تكون مهملة بعدم الاهتمام بها؛ اذ الذبابة المنتسبة الى تلك القدرة تهلك نمروداً، والنملة تدمر قصر فرعون، وبذرة الصنوبر المتناهية في الصغر تحمل على اكتافها ثقل شجرة الصنوبر الضخمة كالجبل. فكما اننا اثبتنا هذه الحقيقة في رسائل كثيرة فاننا نقول هنا كذلك: ان الجندي المنتسب الى السلطان بالجندية يمكنه أن يقوم بأعمال تفوق طاقته ألف مرة، كأن يأسر مثلاً قائداً عظيماً للعدو بانتسابه، كذلك فان كل شئ بانتسابه الى تلك القدرة الازلية يكون مصدراً لمعجزات الصنعة والاتقان بما تفوق تلك الاسباب الطبيعية بمائة ألف مرة.

الخلاصة:

ان الصنعة المتقنة البديعة لكل شئ، والسهولة المطلقة في ايجاده، تظهران معاً أنه آثار القدير الازلي ذي العلم المحيط، وإلاّ فهو محال في مائة محال ورود ذلك الشئ الى الوجود، بل يكون ـ عندئذ ـ خارجاً عن دائرة الامكان وداخلاً في دائرة الامتناع، بل خارجاً من صورة الممكّن الى صورة الممتنع وماهية الممتنع، بل لا يمكن ان يرد ـ عندئذ ـ شئ مهما كان الى الوجود مطلقاً.

وهكذا فان هذا البرهان وهو في منتهى القوة والدقة، ومنتهى العمق والوضوح قد أسكت نفسي التي اصبحت تلميذة مؤقتة للشيطان، ووكيلة لاهل الضلالة والفلسفة، حتى آمنت ـ ولله الحمد ـ ايماناً راسخاً، وقالت:

نعم انه ينبغي أن يكون لي ربٌّ خالق يعلم ويسمع أدق خواطر قلبي وأخفى رجائي ودعائي. ويكون ذا قدرة مطلقة فيسعف أخفى حاجات روحي ويستبدل كذلك بهذه الدنيا الضخمة دنيا اخرى غيرها ليسعدني سعادة ابدية فيقيم الآخرة بعدما يرفع هذه الدنيا، وكما أنه يخلق الذباب فانه يوجد السموات ايجاداً ايضاً. وكما أنه رصّع وجه السماء بعين الشمس جعل من الذرة ترصيعاً في بؤبؤ عيني. والاّ فان الذي لا يستطيع أن يخلق ذباباً لا يمكنه أن يتدخل في خواطر قلبي، ولن يسمع تضرع روحي. وان الذي لايستطيع أن يخلق السموات لايمكنه ان يهبني السعادة الابدية؛ لذا فان ربي انما هو الذي يسمع – بل يصلح – خواطر قلبي، فمثلما أنه يملأ جو السماء بالغيوم ويفرغها منه خلال ساعة فانه سيبدل الآخرة بهذه الدنيا ويعمّر الجنة ويفتح أبوابها لي قائلاً: هيا أدخل!!

فيا اخوتي الشيوخ، ويامن صرفتم جزءاً من عمركم بسوء حظ النفس وشقائها – مثل نفسي – في مغالطات العلوم الاجنبية والفلسفة المظلمة.. اعلموا أن الذي يردده القرآن دوماً من «لا اله الاّ هو» ذلك الامر القدسي، ركن ايماني لا يتزلزل ولا يتصدع ولايتغير أبداً!! فما اقواه وما اصوبه! حيث يبدد جميع الظلمات ويضمد الجراحات المعنوية.

هذا وان درج هذه الحادثة المطولة ضمن ابواب الرجاء والامل لشيخوختي، لم يكن باختياري، بل لم أكن أرغب درجها هنا، تحاشياً من الملل، الاّ انني استطيع ان اقول قد كُتّبتها وأمليَتْ عليّ.. وعلى كل.. لنرجع الى الموضوع الذي نحن بصدده:

نعم، هكذا جاءني النفور من تلك الحياة الدنيوية البهيجة في استانبول التي ظاهرها اللذة، من ذلك التأمل والنظر في شعيرات بيضاء لرأسي ولحيتي، ومن عدم الوفاء الذي بدر من الصديق الوفي المخلص.. حتى بدأت النفس بالبحث والتحري عن اذواق معنوية بدلا عما افتتنت به من اذواق، فطلبت نوراً وسلواناً في هذه الشيخوخة التي تبدو ثقيلة ومزعجة ومقيتة في نظر الغافلين. فلله الحمد والمنّة وألف شكر وشكر له سبحانه أن وفقني لوجدان تلك الاذواق الايمانية الحقيقية الدائمة في «لا اله الاّ هو» وفي نور التوحيد بدلا من تلك الاذواق الدنيوية التي لاحقيقة لها ولالذة فيها، بل لا خير في عقباها. وله الحمد أن وفقني كذلك لأجد الشيخوخة خفيفة الظل أتنعم بدفئها ونورها بخلاف ما يراه أهل الغفلة من ثقل وبرودة.

نعم ياإخوتي! فما دمتم تملكون الايمان، وما دامت لديكم الصلوات والدعاء اللذان ينوران الايمان، بل ينميانه ويصقلانه.. فانكم تستطيعون اذن أن تنظروا الى شيخوختكم من أنها شباب دائم، بما تكسبكم اياه من شباب خالد، حيث ان الشيخوخة الباردة حقاً، والثقيلة جداً، والقبيحة، بل المظلمة والمؤلمة تماماً ليس الاّ شيخوخة اهل الضلالة، بل ربما عهد شبابهم كذلك.. فليبكوا.. ولينتحبوا.. وليقولوا: وا أسفاه.. واحسرتاه!!

أما انتم ايها الشيوخ المؤمنون الموقرون فعليكم أن تشكروا ربكم بكل فرح وسرور قائلين: «الحمد لله على كل حال!».

الرجاء الثاني عشر

بينما كنت وحيداً بلا معين في «بارلا» تلك الناحية التابعة لمحافظة «اسپارطة» أعاني الأسر المعذّب المسمى بالنفي، ممنوعاً من الاختلاط بالناس، بل حتى من المراسلة مع أيٍّ كان، فوق ما كنت فيه من المرض والشيخوخة والغربة.. فبينما كنت اضطرب من هذه الحالة واقاسي الحزن المرير اذا بنور مسلٍّ يشعّ من الاسرار اللطيفة للقرآن الكريم ومن نكاته الدقيقة، يتفضل الحق سبحانه به عليّ برحمته الكاملة الواسعة، فكنت اعمل جاهداً بذلك النور لتناسي ما انا فيه من الحالة المؤلمة المحزنة، حتى استطعت نسيان بلدتي واحبتي واقاربي.. ولكن – ياحسرتاه – لم اتمكن من نسيان واحد منهم أبداً وهو ابن اخي، بل ابني المعنوي، وتلميذي المخلص وصديقي الشجاع «عبد الرحمن» تغمده الله برحمته الذي فارقني قبل حوالي سبع سنوات، ولا اعلم حاله كي أراسله واتحدث معه ونتشارك في الآلام، ولاهو يعلم مكاني كي يسعى لخدمتي وتسليتي، نعم لقد كنت في أمسّ الحاجة – ولاسيّما في الشيخوخة هذه – الى من هو مثل «عبد الرحمن».. ذلك الفدائي الصادق.. وذات يوم وفجأة سلمني أحدهم رسالة، ما إن فتحتها حتى تبيّن لي انها رسالة تظهر شخصية «عبدالرحمن» تماماً وقد أدرج قسم من تلك الرسالة ضمن فقرات المكتوب السابع والعشرين بما يظهر ثلاث كرامات واضحة.

لقد ابكتني تلك الرسالة كثيراً ولاتزال تبكيني، حيث يبيّن فيها «عبدالرحمٰن» بكل صدق وجدّ انه قد عزف عزوفاً تاماً عن الاذواق الدنيوية وعن لذائذها، وان اقصى ما يتمناه هو الوصول اليّ ليقوم برعايتي في شيخوختي هذه مثلما كنت ارعاه في صغره، وان يساعدني بقلمه السيّال في وظيفتي ومهمّتي الحقيقية في الدنيا، وهي نشر اسرار القرآن الكريم، حتى انه كان يقول في رسالته: إبعث اليّ ما يقرب من ثلاثين رسالة كي اكتب وأستكتب من كل منها ثلاثين نسخة.

لقد شدتني هذه الرسالة الى الدنيا بأمل قوي شديد، فقلت في نفسي: ها قد وجدت تلميذي المخلص الشجاع، ذا الذكاء الخارق، وذا الوفاء الخالص، والارتباط الوثيق الذي يفوق وفاء الابن الحقيقي وارتباطه بوالده. فسوف يقوم - باذن الله - برعايتي وخدمتي، بل حتى انني بهذا الامل نسيت ما كنت فيه من الاسر المؤلم ومن عدم وجود معين لي، بل نسيت حتى الغربة والشيخوخة! بايمان وكأن عبدالرحمن قد كتب تلك الرسالة في منتهى القوة وفي غاية اللمعان وهو ينتظر أجله، اذ استطاع ان يحصل على نسخة مطبوعة من الكلمة العاشرة التي كنت قد طبعتها وهي تبحث عن الايمان بالآخرة. فكانت تلك الرسالة بلسماً شافياً له حيث ضمّدت جميع جراحاته المعنوية التي عاناها عبر سبع سنوات خلت.

وبعد مضي حوالي شهرين وانا اعيش في ذلك الامل لنعيش معاً حياة دنيوية سعيدة.. اذا بي أفاجأ بنبأ وفاته، فيا اسفاه.. ويا حسرتاه.. لقد هزّني هذا الخبر هزاً عنيفاً، حتى انني لاازال تحت تأثيره منذ خمس سنوات، واورثني حزناً شديداً وألماً عميقاً للفراق المؤلم يفوق ما كنت اعانيه من ألم الاسر المعذّب وألم الانفراد والغربة الموحشة وألم الشيخوخة والمرض.

كنت اقول: ان نصف دنياي الخاصة قد إنهدّ بوفاة أمي، بيد اني رأيت ان النصف الاخر قد توفي ايضاً بوفاة عبد الرحمٰن، فلم تبق لي اذن علاقة مع الدنيا.. نعم لو كان عبدالرحمٰن يظل معي في الدنيا لاصبح محوراً تدور حوله وظيفتي الاخروية في الدنيا ولغدا خير خلف لي، ولحلّ مكاني من بعدي، ولكان صديقاً وفياً

بل مدار سلوان لي وأنس، ولبات اذكى تلميذ لرسائل النور، والامين المخلص المحافظ عليها.. فضياع مثل هذا الضياع - باعتبار الانسانية - لهو ضياع محرق مؤلم لأمثالي. ورغم انني كنت ابذل الوسع لأتصبّر وأتحمل ما كنت اعانيه من الآلام الاّ أنه كانت هناك عاصفة قوية جداً تعصف باقطار روحي، فلولا ذلك السلوان النابع من نور القرآن الكريم يفيض عليّ احياناً لما كان لمثلي ان يتحمل ويثبت.

كنت أذهب واسرح في وديان «بارلا» واجول في جبالها وحيداً منفرداً واجلس في اماكن خالية منعزلة، حاملاً تلك الهموم والآلام المحزنة، فكانت تمر من امامي لوحات الحياة السعيدة ومناظرها اللطيفة التي كنت قد قضيتها مع طلابي - امثال عبد الرحمن - كالفلم السينمائي. فكلما مرّت تلك اللوحات امام خيالي، سلبت من شدة مقاومتي وفتّ في عضدي، سرعة التأثر النابعة من الشيخوخة والغربة.

ولكن على حين غرّة انكشف سرّ الآية الكريمة ﴿**كلُ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجههُ لهُ الحُكمُ واليه تُرجعون**﴾ (القصص:٨٨). انكشافاً بيّناً بحيث جعلني أردّد: ياباقي انت الباقي، ياباقي انت الباقي.. وبه اخذت السلوان الحقيقي.

اجل!. رأيت نفسي بسرّ هذه الآية الكريمة، وعبر تلك الوديان الخالية، ومع تلك الحالة المؤلمة، رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى كما أشرت اليها في رسالة «مرقاة السنّة»:

الاولى: رأيت نفسي كشاهد قبر يضم خمساً وخمسين سعيداً ماتوا ودفنوا في حياتي، وضمن عمري الذي يناهز الخامسة والخمسين سنة.

الثانية: رأيت نفسي كالكائن الحي الصغير جداً - كالنملة - يدب على وجه هذا العصر الذي هو بمثابة شاهد قبر للجنازة العظمى لمن هم بنو جنسي ونوعي، والذين دفنوا في قبر الماضي منذ زمن آدم عليه السلام.

اما الثالثة: فقد تجسّمت امام خيالي - بسرّ هذه الآية الكريمة - موت هذه الدنيا الضخمة، مثلما تموت دنيا سيارة من على وجه الدنيا كل سنة كما يموت الانسان..

وهكذا فقد أغاثني المعنى الاشاري للآية الكريمة ﴿ **فإنْ تَوَلوا فَقُل حَسبيَ الله لا الهَ إلاّ هو عليهِ توكلتُ وهو ربُّ العرش العظيم** ﴾ (التوبة:١٢٩) وأمدني بنور لايخبو، فبدد ما كنت اعانيه من الحزن النابع من وفاة «عبد الرحمن» واهباً لي التسري والتسلي الحقيقي.

نعم لقد علمتني هذه الآية الكريمة أنه مادام الله سبحانه وتعالى موجوداً فهو البديل عن كل شئ، وما دام باقياً فهو كافٍ عبده، حيث أن تجلياً واحداً من تجليات عنايته سبحانه يعدل العالم كله، وان تجلياً من تجليات نوره العميم يمنح تلك الجنائز الثلاث حياة معنوية أيما حياة، بحيث تظهر انها ليست جنائز، بل ممن أنهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الارض فارتحلوا الى عالم آخر.

ولما كنا قد اوضحنا هذا السرّ والحكمة في «اللمعة الثالثة» أراني هنا في غير حاجة الى مزيدٍ من التوضيح، الاّ أنني اقول:

ان الذي نجّاني من تلك الحالة المحزنة المؤلمة، تكراري لـ« ياباقي انت الباقي.. ياباقي انت الباقي» مرتين والذي هو معنى الآية الكريمة ﴿ **كُلُّ شئٍ هالكٌ إلاّ وجهه** ﴾ وتوضيح ذلك:

انني عندما قلت: «ياباقي انت الباقي» للمرة الاولى، بدأ التداوي والضماد بما يشبه العمليات الجراحية على تلك الجروح المعنوية غير المحدودة الناشئة من زوال الدنيا وزوال مَنْ فيها من الاحبّة - من أمثال عبدالرحمن - والمتولدة من انفراط عقد الروابط التي ارتبط بها معهم.

اما في المرة الثانية فقد اصبحت جملة «ياباقي انت الباقي» مرهماً لجميع تلك الجروح المعنوية، بلسماً شافياً لها، وذلك بالتأمل في المعنى الآتي:

ليرحل مَن يرحل ياإلهي فانت الباقي وانت الكافي، وما دمتَ باقياً فَلَتجلٍّ من تجليات رحمتك كافٍ لكل شئ يزول، وما دمتَ موجوداً فكل شئ اذاً موجود لمن يدرك معنى انتسابه اليك بالايمان بوجودك ويتحرك على وفق ذلك الانتساب بسر الاسلام، فليس الفناء والزوال ولا الموت والعدم الاّ ستائر للتجديد، وإلاّ وسيلة

للتجول في منازل مختلفة والسير فيها.. فانقلبتْ بهذا التفكير تلك الحالة الروحية المحرقة الحزينة، وتلك الحالة المظلمة المرعبة الى حالة مسرّة بهيجة ولذيذة، والى حالة منورة محبوبة مؤنسة. فاصبح لساني وقلبي بل كل ذرّة من ذرات جسمي، يردد بلسان الحال قائلاً: الحمد لله.

ولقد تجلى جزء من ألف جزء من ذلك التجلّي للرحمة بهذه الصورة:

عندما رجعت من موطن حزني.. من تلك الوديان، الى «بارلا» حاملاً معي تلك الاحزان، رأيت شاباً يدعى «مصطفى قوله أونلى» قد أتاني مستفسراً عن بعض ما يشغله من مسائل الفقه والوضوء والصلاة.. فرغم انني لم اكن استقبل الضيوف في تلك الفترة الاّ أن روحي كأنها قد قرأت ما في روح ذلك الشاب من الاخلاص، وكأنها شعرت - بحسٍّ قبل الوقوع - ما سوف يؤديه هذا الشاب من خدمات لرسائل النور في المستقبل (١)، لذا لم أردّه وقبلته ضيفاً (٢) ثم تبيّن لي أن الله سبحانه وتعالى قد عوضني بهذا الشاب عن «عبدالرحمن» الذي هو خير خلف لي ويفي بمهمة الوارث الحقيقي في خدمة رسالة النور. وبعث سبحانه وتعالى اليّ

---

(١) وهكذا فان الاخ الصغير لهذا الشاب «مصطفى» يدعى «علي الصغير» قد أثبت انه «عبدالرحمن» حقاً، بكتابته اكثر من سبعمائة نسخة من رسائل النور بقلمه الطاهر بل قد ربىٰ عديداً من عباد الرحمن. ـ المؤلف.

(٢) نعم فقد اظهر هذا الشاب أنه ليس اهلاً للقبول فحسب، بل هو اهل للاستقبال كذلك. ـ المؤلف. (*).

....

(*) هذه حادثة ارويها تصديقاً لحكم استاذي من ان مصطفى، وهو اول تلميذ لرسائل النور اهل للاستقبال: كان الاستاذ يرغب في التجول في اليوم السابق ليوم عرَفة، فأرسلني لأن أهيء له الفرس، قلت: لاتنزل يااستاذي لغلق الباب فانا سأقفله وسأخرج من الباب الخلفي، قال لي: بل اخرج من الباب.. فنزل واغلق الباب بالمزلاج من ورائي، وصعد الى غرفته يضطجع... وبعد ذلك قدم «مصطفى اونلى» بصحبة الحاج عثمان. وكان الاستاذ لايقبل يومها أحداً عنده بله ان يقبل في تلك الفترة شخصين معاً! فلا محالة أنه يردهما.. ولكن مصطفى هذا ـ المذكور في هذا البحث ـ ما أن أتى الى باب الاستاذ مع الحاج عثمان حتى كأن الباب قد رحّب به بلسان الحال قائلاً: ان استاذي لن يستقبلك، ولكني سأنفتح لك فانفتح له الباب المغلق. «نعم ان ما قاله الاستاذ حق حول مصطفى من أنه يستحق الاستقبال والقبول، مثلما أظهر المستقبل ذلك بوضوح فأن باب بيته قد شهد على ذلك ايضاً..» خسرو.

«نعم ان ما كتبه «خسرو» صدق، فأنا اصدقه. فباب البيت الذي اسكنه قد قبل مصطفى واستقبله بدلاً عني». سعيد النورسي

«مصطفى» وكأنه يقول: أخذت منك عبداً للرحمن واحداً وسأعوضك عنه بثلاثين «عبدالرحمن» كهذا الشاب «مصطفى» ممن يسعون في تلك الوظيفة الدينية، وسيكونون لك طلاباً اوفياء، وابناء اخ كرماء، واولاداً معنويين، واخوة طيبين، واصدقاء فدائيين مضحّين..

نعم.. ولله الحمد فقد وهبني البارى عز وجل ثلاثين عبداً للرحمن، وعندها خاطبت قلبي: مادمتَ ياقلبي الباكي المكلوم قد رأيت هذا النموذج وهذا المثال وضمدتَ به اهم جرح من تلك الجروح المعنوية، فعليك ان تسكن وتطمئن بأن الله سبحانه سيضمد الجروح الباقية التي تقلقك وتتألم منها..

فيا أيها الاخوة الشيوخ ويا أيتها الاخوات العجائز.. ويامَن فقدتم مثلي أحب ولده اليه زمن الشيخوخة او فارقه احد اقاربه.. ويامن يثقل كاهله وطأة الشيخوخة ويحمل معها على رأسه الهموم الثقيلة الناشئة من الفراق! لقد علمتم وضعي وعرفتم حالي فانه رغم شدّته باضعاف ما عندكم من اوضاع وحالات، الاّ أن هذه الآية الكريمة قد ضمدته واسعفته فشفته باذن الله، فلا شك من أن صيدلية القرآن المقدسة زاخرة بعلاج كل مرض من امراضكم ودواء كل سقم من اسقامكم. فاذا استطعتم مراجعتها بالايمان، وقمتم بالتداوي والعلاج بالعبادة، فلابدّ أن تخف وطأة ما تحملون على كاهلكم من أثقال الشيخوخة وما يثقل رؤوسكم من هموم.

هذا وان سبب كتابة هذا البحث كتابة مطوّلة هو رجاء الاكثار من طلب الدعاء للمرحوم «عبدالرحمن». فلا تملّوا ولا تسأموا من طوله. وان قصدي من اظهار جرحي المخيف بهذه الصورة المفجعة المؤلمة، فتتألمون أكثر وتحزنون حتى أنه قد يؤدي الى زيادة آلامكم واحزانكم فتنفرون منه، ليس الاّ لبيان ما في البلسم القرآني المقدس من شفاء خارق ومن نور باهر ساطع .

الرجاء الثالث عشر [1]

سأبحث في هذا الرجاء عن لوحة مهمة من لوحات وقائع حياتي، فالرجاء ألاّ تسأموا وتضجروا من طولها.

---

(١) ان حادثة المدرسة التي يذكرها الرجاء الثالث عشر قد حدثت قبل ثلاث عشر سنة... انه توافق لطيف!!. ـ المؤلف.

بعدما نجوت من أسر الروس في الحرب العالمية الاولى، لبثت في استانبول لخدمة الدّين في «دار الحكمة الاسلامية» حوالي ثلاث سنوات. ولكن بارشاد القرآن الكريم وبهمّة الشيخ الكيلاني، وبانتباهي بالشيخوخة، تولّد عندي سأم وملل من الحياة الحضارية في استانبول، وبت أنفر من حياتها الاجتماعية البهيجة، فساقني الشوق والحنين المسمى بـ«داء الغُربة» الى بلدتي، اذ كنت اقول: ما دمت سأموت فلأمت اذن في بلدتي.. فتوجهت الى مدينة «وان».

وهناك قبل كل شئ ذهبت الى زيارة مدرستي المسماة بـ«خورخور» فرأيت أن الأرمن قد أحرقوها مثلما احرقوا بقية البيوت الموجودة في «وان» اثناء الاحتلال الروسي.. صعدت الى القلعة المشهورة في «وان» وهي كتلة من صخرة صلدة تضم تحتها مدرستي الملاصقة بها تماماً، وكانت تمرّ من امامي أشباح اولئك الاصدقاء الحقيقيين والاخوة المؤنسين من طلابي في مدرستي الذين فارقتهم قبل حوالي سبع سنوات خلت، فعلى إثر هذه الكارثة اصبح قسم من اولئك الاصدقاء الفدائيين شهداء حقيقيين وآخرون شهداء معنويين، فلم اتمالك نفسي من البكاء والنحيب.. صعدت الى قمة القلعة وارتقيتها وهي بعلو المنارتين ومدرستي تحتها، وجلست عليها أتأمل، فذهب بي الخيال الى ما يقرب من ثماني سنوات خلتْ وجال بي الخيال في ذلك الزمان، لما لخيالي من قوة ولعدم وجود مانع يحول بيني وبين ذلك الخيال ويصرفني عن ذلك الزمان، اذ كنت وحيداً منفرداً.

شاهدت تحولاً هائلاً جداً قد جرى خلال ثماني سنوات حتى أنني كلّما كنت افتح عيني أرى كأن عصراً قد ولّى ومضى باحداثه. رأيت ان مركز المدينة المحيطة بمدرستي – الذي هو بجانب القلعة – قد أحرق من اقصاه الى أقصاه ودمّر تدميراً كاملاً. فنظرت الى هذا المنظر نظرة حزن وأسى.. اذ كنت أشعر الفرق الهائل بين ماكنت فيه وبين ما أراه الآن، وكأن مائتي سنة قد مرّت على هذه المدينة.. كان أغلب الذين يعمّرون هذه البيوت المهدّمة أصدقائي، وأحبّة اعزّاء عليّ.. فلقد توفّى قسم منهم بالهجرة من المدينة وذاقوا مضاضتها، تغمدهم الله جميعاً برحمته. حيث دُمّرت بيوت المسلمين في المدينة كلياً ولم تبق الاّ محلة الأرمن، فتألمت من الاعماق، وحزنت حزناً شديداً ما لو كان لي ألف عين لكانت تسكب الدموع مدراراً.

كنت أظن أنني قد نجوت من الاغتراب حيث رجعت الى مدينتي، ولكن – ويااللاسف – لقد رأيت أفجع غربة في مدينتي نفسها؛ اذ رأيت مئات من طلابي وأحبتي الذين ارتبط بهم روحياً – كعبد الرحمن المارذكره في الرجاء الثاني عشر – رأيتهم قد أهيل عليهم التراب والانقاض، ورأيت أن منازلهم أصبحت أثراً بعد عين، وامام هذه اللوحة الحزينة تجسّد معنى هذه الفقرة لأحدهم والتي كانت في ذاكرتي منذ زمن بعيد إلاّ انني لم اكن افهم معناها تماماً: ـ

لولا مفارقةُ الاحبابِ ما وجَدَتْ   لها المنايا الى ارواحنا سبُلاً (١)

اي ان اكثر ما يقضي على الانسان ويهلكه انما هو مفارقة الاحباب.

نعم، انه لم يؤلمني شئ ولم يبكني مثل هذه الحادثة، فلو لم يأتني مددٌ من القرآن الكريم ومن الايمان لكان ذلك الغم والحزن والهم يؤثر فيّ الى درجة كافية لسلب الروح منيّ. لقد كان الشعراء منذ القديم يبكون على منازل أحبتهم عند مرورهم على اطلالها فرأيت بعيني لوحة الفراق الحزينة هذه.. فبكت روحي وقلبي مع عيني بحزن شديد كمن يمّر بعد مائتي سنة على ديار أحبّته واطلالها..

عند ذلك مرّت الصفحات اللطيفة اللذيذة لحياتي امام عيني وخيالي واحدة تلو الاخرى بكل حيوية، كمرور مشاهد الفلم السينمائي.. تلك الحياة السارة التي قضيتها في تدريس طلابي النجباء بما يقرب من عشرين سنة، وفي هذه الاماكن نفسها، التي كانت عامرة بهيجة وذات نشوة وسرور، فاصبحت الآن خرائب وأطلالاً. قضيت فترة طويلة امام هذه اللوحات من حياتي، وعندها بدأت أستغرب من حال أهل الدنيا، كيف أنهم يخدعون انفسهم، فالوضع هذا يبيّن بداهة ان الدنيا لامحالة فانية، وان الانسان فيها ليس الاّ عابر سبيل، وضيف راحل. وشاهدت بعينيّ مدى صدق ما يقوله اهل الحقيقة:

ـ «لاتنخدعوا بالدنيا فإنها غدّارة.. مكّارة.. فانية..».

---

(١) قول المتنبي: لولا مفارقة الاحباب.. الخ.. في «لها» وجه غريب، وهو أن تقدره جمعاً للهاة، كحصاة وحصا، ويكون «لها» فاعلاً بـ«وجدت» و«المنايا» مضافاً اليه. ويكون اثبات اللهوات للمنايا استعارة شُبهت بشئ يبتلع الناس. ويكون اقام «اللها» مقام الافواه، لمجاورة اللهوات للفم. (عن مغنى اللبيب ٢٣٤/١). ـ المترجم.

ورأيت كذلك أن الانسان ذو علاقة مع مدينته وبلدته بل مع دنياه مثلما له علاقة مع جسمه وبيته، فبينما كنت أريد أن ابكي بعينيّ لشيخوختي - باعتبار وجودي - كنت أريد أن أجهش بالبكاء بعشرة عيون لا لمجرد شيخوخة مدرستي، بل لوفاتها، بل كنت أشعر أنني بحاجة الى البكاء بمائة عين على مدينتي الحلوة الشبيهة بالميتة.

لقد ورد في الحديث الشريف من أن مَلَكاً ينادي كل صباح: (لِدوا للموت وابنوا للخراب)[١] كنت اسمع هذه الحقيقة، اسمعها بعينيّ لا بأذني، ومثلما أبكاني وضعي في ذلك الوقت، فان خيالي منذ عشرين سنة يذرف الدموع ايضاً كلّما مرّ على ذلك الحال. نعم ان دمار تلك البيوت في قمة القلعة التي عمّرت آلاف السنين، واكتهال المدينة التي تحتها خلال ثماني سنوات، حتى كأنه قد مرّت عليها ثمانمائة سنة، ووفاة مدرستي - اسفل القلعة - التي كانت تنبض بالحياة والتي كانت مجمع الاحباب.. تشير الى وفاة جميع المدارس الدينية في الدولة العثمانية. وتبين العظمة المعنوية لجنازتها الكبرى، حتى كأن القلعة التي هي صخرة صلدة واحدة، قد اصبحت شاهدة قبرها. ورأيت ان طلابي - رحمهم الله جميعاً - الذين كانوا معي في تلك المدرسة - قبل ثماني سنوات - وهم راقدون في قبورهم، رأيتهم كأنهم يبكون معي، بل تشاركني البكاء والحزن حتى بيوت المدينة المدمَّرة، بل حتى جدرانها المنهدّة واحجارها المبعثرة.

نعم انني رأيت كُل شئ وكأنه يبكي، وعندئذٍ علمت انني لا استطيع أن اتحمّل هذه الغربة في مدينتي، ففكرت إما أن أذهب اليهم في قبورهم او عليّ أن انسحب الى مغارة في الجبل منتظراً اجلي، وقلت مادام في الدنيا مثل هذه الفراقات والافتراقات التي لايمكن أن يُصبر عليها، ولايمكن أن تقاوم، وهي مؤلمة ومحرقة الى هذه الدرجة، فلا شك أن الموت افضل من هذه الحياة، ويرجح على مثل هذه الاوضاع التي لاتطاق.. لذا ولّيت وجهي سارحاً بنظري الى الجهات الست.. فما رأيت فيها الاّ الظلام الدامس، فالغفلة الناشئة من ذلك التألم الشديد والتأثر العميق

---

(١) البيهقي في الشعب من حديث عن ابي هريرة والترمذي مرفوعاً، ابو نعيم في الحلية عن ابي ذر مرفوعاً، واحمد في الزهد عن عبدالواحد قال: قال عيسى عليه السلام، فذكره (الدرر المنتثرة) وانظر كشف الخفاء (٢٠٤١). - المترجم.

أرتني الدنيا مخيفة مرعبة، وانها خالية جرداء وكأنها ستنقض على رأسي. كانت روحي تبحث عن نقطة استناد وركن شديد امام البلايا والمصائب غير المحدودة التي اتخذت صورة اعداء ألدّاء. وكانت تبحث ايضاً عن نقطة استمداد امام رغباتها الكامنة غير المحدودة والتي تمتد الى الابد. فبينما كانت روحي تبحث عن نقطة استناد، وتفتش عن نقطة استمداد وتنتظر السلوان والتسرّي من الهموم والاحزان المتولدة من الفراقات والإفتراقات غير المحدودة والتخريبات والوفيات الهائلة، اذا بحقيقة آية واحدة من القرآن الكريم المعجز وهي: ﴿ **سبّح لله ما في السموات والارض وهو العزيزُ الحكيم ❁ لهُ مُلك السموات والأرض يحيي ويُميت وهو على كلِّ شئٍ قديرٌ** ﴾ (الحديد: ١-٢) تتجلى امامي بوضوح وتنقذني من ذلك الخيال الاليم المرعب، وتنجيني من ألم الفراق والافتراق، فاتحةً عيني وبصيرتي. فالتفتُ الى الاثمار المعلقة على الاشجار المثمرة وهي تنظر اليّ مبتسمة ابتسامة حلوة وتقول لي: «لاتحصرنَّ نظرك في الخرائب وحدها.. فهلاّ نظرت الينا، وانعمت النظر فينا..»

نعم ان حقيقة هذه الاية الكريمة تنبّه بقوة مذكّرةً وتقول: لِمَ يُحزنك الى هذا الحدّ سقوط رسالة عامرة شيّدت بيد الانسان الضيف على صحيفة مفازة «وان»، حتى اتخذت صورة مدينة مأهولة؟ فلِمَ تحزن من سقوطها في السيل الجارف المخيف المسمّى بالاحتلال الروسي الذي محا آثارها واذهب كتابتها؟ إرفع بصرك الى البارى المصوّر وهو ربّ كل شئ ومالكه الحقيقي، فناصيته بيده، وان كتاباته سبحانه على صحيفة «وان» تُكتب مجدداً باستمرار بكمال التوهج والبهجة وان ما شاهدته من اوضاع في الغابر والبكاء والنحيب على خلو تلك الاماكن وعلى دمارها وبقائها مقفرة انما هو من الغفلة عن مالكها الحقيقي، ومن توهم الانسان – خطأً – انه هو المالك لها، ومن عدم تصوره انه عابر سبيل وضيف ليس الاّ..

فانفتح من ذلك الوضع المحرق، ومن ذلك الخطأ في التصور بابٌ لحقيقة عظيمة، وتهيأت النفسُ لتقبلها – كالحديد الذي يدخل في النار ليلين ويعطى له شكلاً معيناً نافعاً – اذ اصبحت تلك الحالة المحزنة وذلك الوضع المؤلم، ناراً متأججة ألانت النفس. فأظهر القرآن الكريم لها فيض الحقائق الايمانية بجلاء ووضوح تام من خلال حقيقة تلك الآية المذكورة حتى جعلها تقبل وترضخ.

نعم، فكما أثبتنا في المكتوب العشرين وامثاله من الرسائل، فان حقيقة هذه الآية الكريمة – ولله الحمد – قد وهبت بفيض الايمان نقطة استناد وارتكاز هائلة، وهبتها للروح ومنحتها الى القلب كل حسب ما ينكشف له من فيض ما يملكه من قوة الايمان، بحيث تستطيع ان تتصدّى لتلك المصائب والحالات المرعبة حتى لو تضاعفت مائة مرة، ذلك لانها ذكّرت بأن كل شئ مسخّر لأمر خالقك الذي هو المالك الحقيقي لهذه المملكة، فمقاليد كل شئ بيده، وحسبك أن تنتسب اليه سبحانه.

فبعدما عرفتُ خالقي، وتوكلتُ عليه، ترك كل شئ ما يضمره من العداء نحوي حتى بدأت الحالات التي كانت تحزنني وتؤلمني، بدأت الآن تسعدني وتسرّني.

وكما أثبتنا في كثير من الرسائل ببراهين قاطعة، فان النور القادم من «الايمان بالآخرة» كذلك اعطى «نقطة استمداد» هائلة جداً تجاه الآمال والرغبات غير المحدودة، بحيث أنها تكفي تلك القوة لا لتلك الميول والرغبات الصغيرة المؤقتة والقصيرة، ولا لتلك الروابط مع احبتي في الدنيا وحدها. بل تكفي ايضاً لرغباتي غير المتناهية في دار الخلود وعالم البقاء وفي السعادة الابدية، ذلك لانه بتجلٍّ واحد من تجليات رحمة الرحمن الرحيم يُنشر على مائدة الربيع ما لايعد ولايُحصى من نعمه اللذيذة البديعة على سطح الارض التي هي منزل من منازل دار ضيافة الدنيا المؤقتة، فيمنح بها – سبحانه – في كل ربيع الى اولئك الضيوف، وينعم بها عليهم، كي يدخل في قلوبهم السرور لبضع ساعات، وكأنه يطعمهم فطور الصباح، ثم يأخذهم الى مساكنهم الابدية في ثماني جنات خالدات ملأى بنعم غير محدودة لزمن غير محدود التي اعدّها لعباده، فلاريب ان الذي يؤمن برحمة هذا «الرحمن الرحيم» ويطمئن اليها مدركاً انتسابه اليه سبحانه، لابدّ أنه يجد نقطة استمداد عظيمة بحيث ان ادنى درجاتها تمدّ آمالاً غير محدودة وتديمها.

هذا وان النور الصادر من ضياء الايمان – بحقيقة تلك الآية – قد تجلّى كذلك تجلياً باهراً ساطعاً حتى أنه نوّر تلك الجهات الست المظلمة تنويراً كالنهار، ونوّر خالتي المؤسفة المبكية على مدرستي هذه وعلى طلابي وأحبتي الراحلين تنويراً كافياً حيث نبهني الى ان العالم الذي يرحل اليه الاحباب ليس هو بعالم مظلم، بل بدّلوا المكان

ليس الآ، فستتلاقون معاً وستجتمعون ببعضكم.. وبذلك قطع دابر البكاء قطعاً كاملاً، وأفهمني كذلك انني سأجد أمثالهم ومن يحلّ محلهم.

فلله الحمد والمنّة الذي احيا مدرسة «اسپارطة» عوضاً عن مدرسة «وان» المتوفاة والمتحولة الى اطلال، واحيا اولئك الاحبة معنىً باكثر وافضل منهم من الطلاب النجباء والاحبة الكرام. وعلّمني كذلك ان الدنيا ليست خاوية مقفرة، وانها ليست مدينة خربة مدمّرة، كما كنت أتصورها خطأً، بل ان المالك الحقيقي – كما تقتضي حكمته – يبدل اللوحات المؤقتة والمصنوعة من قبل الانسان بلوحات اخرى ويجدد رسائله، فكما تحل ثمار جديدة كلما قطعت الثمار فكذلك الزوال والفراق في البشرية انما هو تجددٌ وتجديد، فلا يبعث حزناً أليماً لانعدام الاحباب نهائياً، بل يبعث من زاوية الايمان حزناً لذيذاً نابعاً من فراق لأجل لقاء في دار اخرى بهيجة.

وكذا نوّر تلك الحالة المدهشة التي كنت فيها، ونوّر ما يتراءى لي من الوجه المظلم لموجودات الكون كلها. فأردت ابداء الحمد والشكر على تلك الحالة المنوّرة في وقته فأتتني الفقرة التالية باللغة العربية مصورةً لتلك الحقيقة كاملة:

[الحمد لله على نور الايمان المصور ما يُتوهم اجانب اعداءً امواتاً موحشين أيتاماً باكين، أودّاء اخواناً احياءً مؤنسين مرخّصين مسرورين ذاكرين مسبحين].

وهي تعني: انني اقدم الى الخالق ذي الجلال حمداً لانهاية له، على ما وهبني من نور الايمان الذي هو منبع جميع هذه النعم الالهية غير المحدودة، بما حوّل تلك اللوحة المرعبة التي أُظهرتْ لنفسي الغافلة فأوهمتها الغفلة – المتولدة من شدة التأثر على تلك الحالة المؤلمة – أن قسماً من موجودات الكون أعداء او اجانب (١) وقسماً آخر جنائز مدهشة مفزعة، وقسماً آخر أيتام باكون حيث لامعين لهم ولامولى، حوّل ذلك النور كل شئ حتى شاهدت بعين اليقين ان الذين كانوا يبدون اجانب وأعداء انّما هم اخوة واصدقاء.. وان ما كان يَظهر كالجنائز المرعبة؛ قسمٌ منهم أحياء مؤنسون، أو هم ممن أنهوا وظائفهم ومهماتهم.. وان ما يتوهم أنها نواح الايتام الباكين، ترانيم ذِكر وتراتيل تسبيح. اي أنني اقدم الحمد لله مع جميع الموجودات التي تملأ دنياي الخاصة التي تسع الدنيا كلها، فأشركها معي في ذلك الحمد والتسبيح لله سبحانه، نيةً

(١) مثل الزلازل والعواصف والطوفان والطاعون والحريق. ـ المؤلف.

وتصوراً. حيث لي الحق في ذلك، فنقول معاً بلسان حال كل فرد من افراد الموجودات وبلسان حال الجميع ايضاً: «الحمد لله على نور الايمان».

ثم أن لذائذ الحياة واذواقها التي تلاشت على اثر تلك الحالة المدهشة الباعثة على الغفلة، والآمال التي انسحبت نهائياً وانكمشت ونضب معينها، والنعم واللذائذ الخاصة بي التي ظلّت محصورة في أضيق دائرة وربما فنيت، كل ذلك قد تحول وتبدل بنور الايمان - كما أثبتنا ذلك في رسائل اخرى - فوسّع ذلك النور تلك الدائرة الضيقة المطوقة حول القلب الى دائرة واسعة جداً حتى انطوى فيها الكون كلّه، وجعل دار الدنيا ودار الآخرة سفرتين مملوءتين بالنعم، وحوّلهما الى مائدتين ممدتين للرحمة، بدلاً من تلك النعم التي يبست وفقدت لذتها في حديقة «خورخور». ولم يقتصر على ذلك فقط بل جعل كلاً من العين والاذن والقلب وامثالها من الحواس بل مائة من اجهزة الانسان، يداً ممتدة حسب درجات المؤمن تمتد الى السفرتين المملوءتين بالنعم بحيث تتمكن من ان تأخذ النعم وتلتقطها من جميع اقطارها؛ لذا قلت امام هذه الحقيقة الكبرى شكراً لله على تلك النعم غير المحدودة ما يأتي:

[الحمد لله على نور الايمان المصوّر للدارين مملوءتين من النعمة والرحمة، لكل مؤمن حقٌ أن يستفيد منهما بحواسه الكثيرة المنكشفة باذن خالقه].

وهذا يعني: الحمد لله الذي وهب لي ذلك الايمان الذي يُري بنعمة نوره أن الدنيا والآخرة مملوءتان بالنعم والرحمة ويضمن الاستفادة من تينك السفرتين العظيمتين بايدي جميع الحواس المنكشفة بنور الايمان والمنبسطة بنور الاسلام للمؤمنين الحقيقيين، فلو استطعت تقديم الحمد والشكر لله خالقي تجاه ذلك الايمان بجميع ذرات كياني وبملء الدنيا والاخرة لَفعلت.

فما دام الايمان يفعل فعله في هذا العالم بمثل هذه الآثار العظيمة، فلابدّ أن له في دار البقاء والخلود ثمرات اعظم وفيوضات اوسع، بحيث لايمكن أن تستوعبها عقولنا الدنيوية وتعرّفها.

فيا اخوتي الشيوخ، ويا اخواني العجائز، ويامَن تتجرعون مثلي الآلام المرّة بفراق كثير من الاحبة بسبب الشيخوخة! انيّ أخال نفسي اكثر منكم شيباً معنى، وان كان يبدو أن فيكم من هو اكبر مني سناً، ذلك لانني أتألم - فضلاً عن آلامي - بآلام

آلاف من اخواني، لما أحمله في فطرتي من الرقة والشفقة الزائدتين الى بني جنسي. فأتألم كأنني شيخ يناهز المئات من السنين، أما انتم فمهما تجرعتم من آلام الفراق لم تتعرضوا لمثل ما تعرضت له من البلايا والمصائب! انه ليس لي ابن افكر فيه، الاّ انني اشعر برقة وألم – بسر الشفقة الكامنة في فطرتي – متوجهة الى آلام ومصائب آلاف من أبناء الاسلام، بل اشعرها حتى لالآم الحيوانات البريئة. زد على ذلك أنني ارى نفسي متعلقة – من جهة الغيرة على الاسلام – بهذه البلاد، بل بالعالم الاسلامي، وارتبط بهما كأنهما داري، برغم انّي لا أملك بيتاً خاصاً بي كي أحصر ذهني فيه؛ لذا فانني أتألم بالآم المؤمنين الذين هم في هاتين الدارين وأحزن كثيراً لفراقهم.

ولما كان نور الايمان قد كفاني كفاية تامة وأتى على جميع تأثراتي الناشئة من شيخوختي كلها ومن بلايا الفراقات، ووهب لي رجاءً لايخيب، واملاً لاينفصم، وضياءً لاينطفئ، وسلواناً لاينفد، فلابد أن الايمان ايضاً سيكون كافياً لكم ووافياً ايضاً ازاء الظلمات الناشئة من الشيخوخة، وازاء الغفلة الواردة منها، وازاء التأثرات والتألمات الصادرة منها. وحقاً ان اعتم شيخوخة انما هي شيخوخة اهل الضلالة والسفاهة وأن أقسى الفراقات واشدها ايلاماً انما هي آلامهم وفراقاتهم!!

نعم، ان تذوق الايمان الذي يبعث الرجاء ويشيع النور وينشر السلوى، وان الشعور بسلوانه والتلذذ به هو في التمثل الشعوري للعبودية اللائقة بالشيخوخة والموافقة للاسلام، وليس هو بتناسي الشيخوخة واللهاث وراء التشبّه بالشباب واقتحام غفلتهم المسكرة.. تفكّروا دائماً وتأملوا في الحديث النبوي الشريف (خيرُ شبابكم من تشبّه بكهولكم وشرُّ كهولكم من تشبّه بشبابكم)[1] اوكما قال ﷺ، اي خير شبابكم من تشبه بالكهول في التأني والرزانة وتجنبهم السفاهة وشر كهولكم من تشبه بالشباب في السفاهة والانغماس في الغفلة.

---

(١) اخرجه ابو يعلى والطبراني في الكبير من حديث واثلة وغيرهم. قال الحافظ العراقي في تخريج الاحياء ٦٢/٣ باسناد ضعيف واخرجه البيهقي في شعب الايمان من حديث انس ومن حديث ابن عباس و اخرجه ابن عدي في الكامل من حديث ابن مسعود وقال ابن الجوزي: لا يصح. انظر فيض القدير ٤٨٧/٣ ورمز السيوطي لحسنه.

فيا اخوتي الشيوخ ويا اخواتي العجائز! لقد ورد في الحديث الشريف ما معناه «ان الرحمة الإلهية لتستحي من أن تردّ يداً ضارعة من شيخ مؤمن او عجوز مؤمنة»(١). فما دامت الرحمة الإلهية تحترمكم هكذا، فعظموا إذن احترامها بعبوديتكم لله.

الرجاء الرابع عشر

جاء في مستهل (الشعاع الرابع) الذي هو تفسير للآية الكريمة: ﴿**حسبنا الله ونِعمَ الوكيل**﴾ ما خلاصته:

حينما جرّدني أرباب الدنيا من كل شئ، وقعت في خمسة ألوان من الغربة. ولم ألتفت الى ما في «رسائل النور» من أنوار مسلّية ممدّة، جراء غفلة اورثها الضجر والضيق وانما نظرت مباشرة الى قلبي وتحسست روحي، فرأيت انه يسيطر عليّ عشق في منتهى القوة للبقاء، وتهيمن عليّ محبة شديدة للوجود، ويتحكم فيّ شوق عظيم للحياة.. مع مايكمن فيّ من عجز لاحد له، وفقر لانهاية له. غير ان فناءً مهولاً مدهشاً، يطفئ ذلك البقاء ويزيله، فقلت مثلما قال الشاعر المحترق الفؤاد:

حكمة الأله تقضي فناء الجسد   والقلب توّاق الى الابـــــد

لهف نفســي من بلاء وكمـد   حار لقمان في ايجاد الضمد

فطأطأت رأسي يائساً... واذا بالآية الكريمة: ﴿**حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيل**﴾ تغيثني قائلة: إقرأني جيداً بتدبر وامعان، فقرأتها بدوري خمسمائة مرة في كل يوم، فكلما كنت أتلوها كانت تكشف عن بعضٍ من أنوارها وفيوضاتها الغزيرة، فرأيت منها بعين اليقين – وليس بعلم اليقين – تسع مراتب حسبية:

---

(١) روى السيوطي في الجامع الكبير عن ابن النجار بسند ضعيف.. ان الله عز وجل يستحي من ذي الشيبة اذا كان مسدداً كروماً للسنة ان يسأله فلا يعطيه. (بأختصار عن كشف الخفاء ١/٢٤٤). ـ المترجم.

المرتبة النورية الحسبية الاولى:

ان ما فيّ من عشق البقاء، ليس متوجهاً الى بقائي أنا، بل الى وجود ذلك الكامل المطلق والى كماله وبقائه. وذلك لوجود ظلٍ لتجلٍ من تجليات اسمٍ من اسماء الجليل والجميل المطلق ذي الكمال المطلق، وهو المحبوب لذاته - اي دون داعٍ الى سبب - في ماهيتي الاّ ان هذه المحبة الفطرية ضلت سبيلها وتاهت بسبب الغفلة، فتشبثت بالظل وعشقت بقاء المرآة.

ولكن ما ان جاءت ﴿ حَسبُنا الله ونِعمَ الوَكيل ﴾ حتى رفعت الستار. فاحسستُ وشاهدت، وتذوقتُ بحق اليقين:

ان لذة البقاء وسعادته، موجودة بنفسها، بل افضل وأكمل منها، في ايماني وإذعاني وإيقاني ببقاء الباقي ذي الكمال، وبأنه ربي والهي. وقد وضحت دلائل هذا بعمق ودقة متناهية في الرسالة «الحسبية» في اثنتى عشرة كذا.. كذا.. كذا..». وبينت الاستشعار الايماني بما يجعل كل ذي حسّ وشعور في تقدير واعجاب!.

المرتبة النورية الحسبية الثانية

انه مع عجزي غير المتناهي الكامن في فطرتي، ومع الشيخوخة المستقرة في كياني، ومع تلك الغربة التي لفّتني، ومع عدم وجود المعين لي، وقد جُردت من كل شئ ويهاجمني اهل الدنيا بدسائسهم وبجواسيسهم.. في هذا الوقت بالذات خاطبت قلبي قائلاً:

«ان جيوشاً كثيفة عارمة تهاجم شخصاً واحداً ضعيفاً مريضاً مكبّل اليدين.. أوَ ليس له - اي لي - من نقطة استناد؟».

فراجعت آية ﴿ حَسبُنا الله ونِعمَ الوَكيل ﴾ فاعلمتني:

انك تنتسب بهوية الانتساب الايماني الى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة، بحيث يجهز بانتظام تام في الربيع جميع ما تحتاجه جيوش النباتات والحيوانات المنتشرة على سطح الارض من معدّات، فيزوّد جميع تلك الجيوش المتشكلة في اربعمائة ألف نوع

من الأمم المختلفة، ويوزع جميع ارزاق الجيش الهائل للأحياء – وفي مقدمتها الانسان – لابشكل ما اكتشفه الانسان في الآونة الأخيرة من مستخلصات اللحم والسكر وغيرهما، بل بصورة مستخلصات أكمل وافضل بكثير بل تفوقها مائة مرة، فهي مستخلصات متضمنة جميع انواع الاطعمة. بل هي مستخلصات رحمانية.. تلك التي تسمى البذور والنوى.. زد على ذلك فانه يغلف ايضاً تلك المستخلصات باغلفة قَدرية تتناسب مع نضجها وانبساطها ونموها، ويحفظها في عُلبيات وصنيدقات صغيرة وصغيرة جداً، وهذه الصُنيدقات ايضاً تُصنع بسرعة متناهية جداً، وبسهولة مطلقة للغاية، وبوفرة هائلة، وذلك في معمل «ك. ن» الموجود في أمر «كُنْ»، حتى أن القرآن الكريم يقول: ﴿ **فإنما يَقولُ لهُ كُنْ فيكُونْ!** ﴾.

فما دمت قد ظفرت بنقطة استناد مثل هذه بهوية الانتساب الايماني، فيمكنك الاستناد والاطمئنان اذاً الى قوة عظيمة وقدرة مطلقة. وحقاً لقد كنت أحسّ بقوة معنوية عظيمة كلما كنت أتلقى ذلك الدرس من تلك الآية الكريمة، فكنت أشعر انني أملك قوة يمكنني أن اتحدّى بها جميع اعدائي في العالم وليس الماثلين امامي وحدهم، لذا رددتُ من اعماق روحي: ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾.

المرتبة النورية الحسبية الثالثة

حينما اشتد خناق الامراض وألوان الغربة وأنواع الظلم عليّ، وجدت ان علاقاتي تنفصم مع الدنيا، وان الايمان يرشدني بانك مرشح لدنيا اخرى ابدية، وانك مؤهل لمملكة باقية وسعادة دائمة. ففي هذه الاثناء تركت كل شئ تقطر منه الحسرة ويجعلني أتأوّه وأتأفف، وأبدلته بكل ما يبشّر بالخير والفرح ويجعلني في حمدٍ دائم. ولكن أنّى لهذه الغاية أن تتحقق وهي غاية المنى ومبتغى الخيال وهدف الروح ونتيجة الفطرة، الاّ بقدرة القدير المطلق الذي يعرف جميع حركات مخلوقاته وسكناتهم قولاً وفعلاً، بل يعرف جميع احوالهم واعمالهم ويسجلها كذلك. وانّى لها أن تحصل الاّ بعنايته الفائقة غير المحدودة لهذا الانسان الصغير الهزيل المتقلب في العجز المطلق حتى كرّمه، واتخذه خليلاً مخاطباً، واهباً له المقام السامي بين مخلوقاته.

نعم، حينما كنت أفكر في هاتين النقطتين، اي: في فعالية هذه القدرة غير المحدودة، وفي الاهمية الحقيقية التي أولاها البارئ سبحانه لهذا الانسان الذي يبدو حقيراً. اردت ايضاحاً في هاتين النقطتين ينكشف به الايمان ويُطمئن به القلب. فراجعت بدوري تلك الآية الكريمة ايضاً، فقالت لي: دقق النظر في «نا» التي في «حسبنا»، وانظر مَنْ هم اولاء ينطقون «حسبنا» معك، سواء ينطقونها بلسان الحال، او بلسان المقال، أنصت اليهم.. نعم هكذا أمرتني الآية!. فنظرت.. فاذا بى أرى طيوراً محلّقة لاتحدّ، وطويرات صغيرة صغيرة جداً كالذباب لاتحصى، وحيوانات لا تعد ونباتات لاتنتهي واشجاراً لاآخر لها ولا نهاية...

كل ذلك يردد مثلي بلسان الحال معنى ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾، بل يُذكّر الآخرين بها.. أن لهم وكيلاً – نِعمَ الوكيل – تكفّل بجميع شرائط حياتهم، حتى انه يخلق من البيوض المتشابهة بعضها مع بعض وهي المتركبة من المواد نفسها، ويخلق من النطف التي هي مثل بعضها البعض، ويخلق من الحبوب التي هي البعض عينه، ويخلق من البذور المتماثلة بعضها مع البعض الآخر مائة الف طراز من الحيوانات ومائة الف شكل من الطيور ومائة الف نوع من النباتات، ومائة الف صنف من الاشجار، يخلقها بلاخطأ وبلانقص وبلا التباس، يخلقها مزينة جميلة وموزونة منظمة، مع تميّز بعضها عن البعض الآخر واختلاف بعضها عن بعض، يخلقها باستمرار ولاسيما ايام كل ربيع امام اعيننا في منتهى الكثرة، وفي منتهى السهولة، وفي منتهى السعة، وفي منتهى الوفرة.. فخلق جميع هذه المخلوقات متشابهاً ومتداخلاً ومجتمعة على النمط نفسه والاشكال عينها، ضمن عظمة هذه القدرة المطلقة وحشمتها، يظهر لنا بوضوح: وحدانيته سبحانه وتعالى وأحديته.

وقد أفهمتني الآية أنه لايمكن التدخل مطلقاً ولا المداخلة قطعاً في مثل هذا الفعل للربوبية المطلقة وفي تصرف هذه الخلاقية، اللتين تبرزان هذه المعجزات غير المحدودة وتنشرانها.

فالى الذين يريدون ان يفهموا هويتي الشخصية وماهيتي الانسانية كما هي لكل مؤمن.. والى الذين يرغبون أن يكونوا مثلي، عليهم أن ينظروا الى تفسير نفسي (أنا) في جمع «نا» في الآية الكريمة ويتدبّروا في موقعه في ذلك الجمع.وليفهموا ما

وجودي وجسمي الذي يبدو ضئيلاً وفقيراً لا اهمية له – كوجود كل مؤمن -؟! وليعلموا ما الحياة نفسها بل ما الانسانية؟! وما الاسلام؟! وما الايمان التحقيقي؟ وما معرفة الله؟ وكيف تحصل محبة الله؟. فليفهموا.. وليتلقوا درساً في ذلك!.

المرتبة النورية الحسبية الرابعة

وافقت العوارض المزلزلة لكياني أمثال الشيب والغربة والمرض وكوني مغلوباً على أمري، وافقت تلك العوارض فترة غفلتي، فكأن وجودي الذي أتعلق به بشدة يذهب الى العدم، بل وجود المخلوقات كلها تفنى وتنتهي الى الزوال، فولّد عندي ذهاب الجميع الى العدم قلقاً شديداً واضطراباً أليماً فراجعت الآية الكريمة ايضاً ﴿**حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيل**﴾ فقالت لي: «تدبّر في معانيّ، وانظر اليها بمنظار الايمان» وانا بدوري نظرت الى معانيها بعين الايمان فرأيت:

ان وجودي الذي هو ذرة صغيرة جداً – كوجود كل مؤمن – مرآةٌ لوجود غير محدود، ووسيلة للظفر بانواع من وجود غير محدود بإنبساط غير متناهٍ.. وهو بمثابة كلمة حكيمة تثمر من انواع الوجود الكثيرة الباقية ما هو اكثر قيمة من وجودي حتى أن لحظة عيش له من حيث انتسابه الايماني ثمين جداً، وله قيمة عالية كقيمة وجودٍ أبدي دائم، فعلمت كل ذلك بعلم اليقين؛ لأن معرفتي بالشعور الايماني بان وجودي هذا أثرٌ من آثار واجب الوجود وصنعةٌ من صنعته وجلوة من جلواته جعلتني انجو من ظلمات لا حدّ لها تورثها أوهام موحشة، واتخلص من آلام لا حدّ لها نابعة من افتراقات وفراقات غير متناهية، ودفعتني لأمدّ روابط اخوة وثيقة الى جميع الموجودات ولاسيما الى ذوي الحياة، روابط بعدد الافعال والاسماء الإلهية المتعلقة بالموجودات. وعلمت أن هناك وصالاً دائماً بهذه الروابط مع جميع ما أحبه من الموجودات من خلال فراق موقت.

وهكذا فان وجودي كوجود كل مؤمن، قد ظفر بالايمان والانتساب الذي فيه بأنوار انواع وجود غير محدودة لاافتراق فيها. فحتّى لو ذهب وجودي فان بقاء تلك الأنواع من الوجود من بعده يطمئن وجودي وكأنه قد بقي بنفسه كاملاً.

والخلاصة: ان الموت ليس فراقاً بل هو وصال وتبديل مكان وإثمار لثمرة باقية...

المرتبة النورية الحسبية الخامسة

لقد تصدّعت حياتي حيناً تحت اعباء ثقيلة جداً، حتى لفتت نظري الى العمر، والى الحياة فرأيت أن عمري يجري حثيثاً الى الآخرة.. وان حياتي المتقربة الى الآخرة قد توجهت نحو الانطفاء تحت المضايقات العديدة، ولكن الوظائف المهمة للحياة ومزاياها الراقية وفوائدها الثمينة لاتليق بهذا الانطفاء السريع، بل تليق بحياة طويلة، مديدة، ففكرت في هذا بكل ألم وأسى، وراجعت استاذي الآية الكريمة ﴿**حَسبُنا الله ونِعمَ الوَكيل**﴾ فقالت لي: انظر الى الحياة من حيث «الحي القيوم» الذي وهب لك الحياة. فنظرت اليها بهذا المنظار وشاهدت أنه ان كان للحياة وجه واحد متوجه اليّ انا فان لها مائة وجه متوجه الى «الحي المحيي» وان كانت لها نتيجة واحدة تعود اليّ انا، فان لها الفاً من النتائج تعود الى خالقي؛ لذا فان لحظة واحدة من الحياة، او آناً من الوقت ضمن هذه الجهة كافٍ جداً، فلا حاجة الى زمان طويل.

هذه الحقيقة تتوضح باربع مسائل: فليفتش اولئك الذين ينشدون الحياة او الذين هم ليسوا أمواتاً.. ليفتشوا عن ماهية الحياة وعن حقيقتها وعن حقوقها الحقيقية ضمن تلك المسائل الاربع. فليظفروا.. وليحيوا..

وخلاصتها هي: ان الحياة كلما تتوجه الى الحيّ القيوم وتتطلع اليه، وكلما كان الايمان حياةً للحياة وروحاً لها تكسب البقاء بل تعطي ثماراً باقية كذلك، بل أنها ترقى وتعلو الى درجة تكتسب تجلى السرمدية، وعندها لاينظر الى قصر العمر وطوله.

المرتبة النورية الحسبية السادسة

من خلال الشيب الذي يذكّر بفراقي الخاص، ومن خلال حوادث آخر الزمان التي تنبئ عن دمار الدنيا ضمن الفراقات العامة الشاملة، ومن خلال الانكشاف الواسع فوق العادة في اوآخر عمري لأحاسيس الجمال والعشق له والافتتان بالكمالات المغروزة في فطرتي. من خلال كل هذا رأيت ان الزوال والفناء اللذين يدمران دائماً،

وان الموت والعدم اللذين يفرّقان باستمرار، رأيتهما يفسدان بشكلٍ مرعب ومخيف، جمال هذه الدنيا الرائعة الجمال ويشوهانه بتحطيمهما لها، ويتلفان لطافة هذه المخلوقات.. فتألّمت من اعماقي بالغ التألم لما رأيت. ففار ما في فطرتي من عشق مجازي فوراناً شديداً وبدأ يتاجج بالرفض والعصيان امام هذه الحالة المفجعة، فلم يك لي منها بد الاّ مراجعة الآية الكريمة ايضاً لأجد المتنفس والسلوان، فقالت: «إقرأني جيداً، أنعم النظر في معانيَّ» وأنا بدوري دخلت الى مركز الارصاد لسورة النور لآية ﴿ **الله نور السموات والارض...** ﴾. فنظرت من هناك «بمنظار» الايمان الى أبعد طبقات الآية الحسبية، وفي الوقت نفسه نظرت «بمجهر» الشعور الايماني الى أدق اسرارها.. فرأيت انه مثلما تظهر المرايا والزجاج والمواد الشفافة وحتى حباب البحر الجمال المخفي المتنوع لضوء الشمس، فيُظهر كل منها مختلف الجمال للالوان السبعة لذلك الضوء ومثلما يتجدد ذلك الجمال وذلك الحسن بتجدد تلك المواد وبتحركها وحسب قابليتها المختلفة ووفق انكساراتها المتنوعة، اي مثلما أنها تُظهر الجمال المخفي للشمس ولضوئها ولألوانها السبعة – بشكل جميل جذاب – فكذلك الامر في هذه المصنوعات الجميلة وهذه المخلوقات اللطيفة والموجودات الجميلة التي تقوم مقام مرايا عاكسة لذلك الجمال المقدس للجميل ذي الجلال الذي هو «نور الأزل والابد». فهذه المخلوقات لاتلبث أن تذهب دون توقف مجدّدة بذلك تجليات لأسمائه الحسنى جل وعلا. فالجمال الظاهر في هذه المخلوقات والحسن البارز فيها اذن ليس هو ملك ذاتها، وانما هو اشارات الى ذلك الجمال المقدس السرمدي الذي يريد الظهور، وعلامات واشارات وتجليات لذلك الحسن المجرد والجمال المنزّه المتجلي دائماً والذي يريد المشاهدة والاشهاد.

وقد وضحّت دلائل هذا مفصلاً في «رسائل النور» لاسيما تلك الرسالة التي تستهل بـ«هنا سنذكر ثلاثة براهين بصورة مختصرة جداً ومعقولة»[1]. فأيّما إنسان نظر الى هذه الرسالة من اصحاب الذوق السليم لايمكن أن يتمالك نفسه من غير الاعجاب والتقدير بل سيرى أن عليه أن يسعى لإفادة الآخرين بعدما أفاد نفسه، ولاسيما النقاط الخمس المذكورة في البرهان الثاني. فلابد ان من لم يفسد عقله ولم يصدأ قلبه أن يقول مستحسناً ومستصوباً: ماشاء الله.. بارك الله.. ويجعل وجوده الذي يظهر فقيراً حقيراً يسمو ويتعالى.. ويدرك مصدقاً أنه: معجزة خارقة حقاً!!.

(١) المقصود «المرتبة النورية السادسة من الشعاع الرابع» – المترجم.

الرجاء الخامس عشر (١)

عندما كنت نزيل غرفة في « اميرداغ »(٢) تحت الاقامة الجبرية وحيداً فريداً، كانت عيون الترصد تتعقبني وتضايقني دائماً فأتعذب منها أشد العذاب، حتى مللت الحياة نفسها وتأسفت لخروجي من السجن، بل رغبتُ من كل قلبي في ان اعود الى سجن« دنيزلي » او دخول القبر، حيث السجن او القبر افضل من هذا اللون من الحياة. فأتتني العناية الإلهية مغيثة، إذ وهبتْ آلة الرونيو التي ظهرت حديثاً لطلاب « مدرسة الزهراء »(٣) وهم يحملون اقلاماً ماسية كآلة الرونيو. فباتت « رسائل النور » تظهر بخمسمائة نسخة بقلم واحد. فتلك الفتوحات التي هيأتها العناية الإلهية لرسائل النور جعلتني أحب تلك الحياة الضجرة القلقة المضطربة، بل جعلتني اردد الف شكر وشكر للبارئ سبحانه وتعالى.

ولكن بعد مرور فترة وجيزة لم يتمكن اعداء رسائل النور المتسترون ان يتحملوا تلك الفتوحات النورية، فنبهوا المسؤولين في الدولة ضدنا وأثاروهم علينا، فاصبحت الحياة – مرة اخرى – ثقيلة مضجرة، الاّ ان العناية الإلهية تجلت على حين غرة، حيث ان المسؤولين أنفسهم – وهم أحوج الناس الى رسائل النور – بدأوا فعلاً بقراءة الرسائل المصادرة بشوق واهتمام، وذلك بحكم وظيفتهم. واستطاعت تلك الرسائل بفضل الله أن تليّن قلوبَهم وتجعلها تجنح الى جانبها. فتوسعت بذلك دائرة مدارس النور، حيث أنهم بدأوا بتقديرها والاعجاب بها بدلاً من جرحها ونقدها. فأكسبتنا هذه النتيجة منافع جمة، اذ هي خير مائة مرة ممّا نحن فيه من الاضرار المادية، وأذهبت

(١) كُتب هذا الرجاء الخامس عشر كي يكون مصدر تكملة رسالة الشيوخ وتأليفها من قبل أحد طلاب النور، حيث أن فترة تأليف رسائل النور قد انتهت قبل ثلاث سنوات. ـ المؤلف.

(٢) قضاء يقع في اواسط الاناضول ، نفي اليه الاستاذ النورسي سنة (١٩٤٤) وظل فيه حتى سنة ١٩٥١ ـ المترجم.

(٣) سعى الاستاذ النورسي طوال حياته لاقامة هذه المدرسة التي تدمج فيها الدراسة الدينية والعلمية معاً، حتى وضع حجرها الاساس سنة ١٩١١ قرب بحيرة « وان ». الاّ ان ظروف الحرب العالمية الاولى حالت دون اتمام المشروع، ولكن العناية الربانية عوضت عن تلك المدرسة بمدرسة معنوية امتدت اغصانها الوارفة في طول البلاد وعرضها، تلك هي المدارس المعنوية النورية، ومن هنا كان الاستاذ النورسي يعد طلاب النور طلاب مدرسة الزهراء. ـ المترجم.

ما نعانيه من اضطراب وقلق. ولكن ما ان مرّت فترة وجيزة، حتى حوّل المنافقون – وهم الاعداء المتسترون – نظر الحكومة الى شخصي أنا، ونبّهوا أذهانها الى حياتي السياسية السابقة، فأثاروا الأوهام والشكوك، وبثوا المخاوف من حولي في صفوف دوائر العدل والمعارف (التربية) والامن ووزارة الداخلية. ومما وسّع تلك المخاوف لديهم ما يجري من المشاحنات بين الاحزاب السياسية، وما أثاره الفوضويون والارهابيون – وهم واجهة الشيوعيين – حتى أن الحكومة قامت إثر ذلك بحملة توقيف وتضييق شديد علينا، وبمصادرة ما تمكنت من الحصول عليه من الرسائل، فتوقف نشاط طلاب النور وفعالياتهم.

وبالرغم من أن بعض الموظفين المسؤولين أشاعوا دعايات مغرضة عجيبة لجرح شخصيتي وذمّها – مما لايمكن أن يصدّقها أحد – الاّ انهم باؤوا بالاخفاق الذريع، فلم يستطيعوا ان يقنعوا احداً بها. ومع ذلك احالوني الى الموقف لمدة يومين بحجج رخيصة تافهة جداً، ووضعوني في قاعة واسعة جداً وحيداً في تلك الايام الشديدة البرد كالزمهرير، علماً انني ما كنت اتحمل البرد في بيتي الاّ على مضض وكنت اقاومه بشدة بإشعال الموقد دائماً وباشعال المدفأة عدة مرات يومياً، وذلك لما أعانيه من ضعف ومرض.

فبينما كنت اتقلب من شدة الحمّى المتولدة من البرد، واتململ من حالتي النفسية المتضايقة جداً، انكشفت في قلبي حقيقة عناية إلهية، ونُبهّت الى ما يأتي:

« أنك قد اطلقت على السجن اسم «المدرسة اليوسفية»، وقد وهب لك «سجن دنيزلي» من النتائج والفوائد اضعاف اضعاف ما اذاقكم من الضيق والشدة، ومنحكم فرحاً شديداً وسروراً عظيماً وغنائم معنوية كثيرة: واستفادة المساجين معكم من رسائل النور، وقراءة رسائل النور في الاوساط الرسمية العليا وغيرها من الفوائد، حتى جعلتكم في شكر دائم مستمر بدل التشكي والضجر محوّلة كل ساعة من ساعات السجن والضيق الى عشر ساعات من العبادة، فخلّدت تلك الساعات الفانية، فهذه «المدرسة اليوسفية الثالثة»[1] كذلك ستعطي – باذن الله – من الحرارة الكافية ما

(١) المقصود سجن آفيون سنة ١٩٤٨. –المترجم.

يدفىء هذا البرد الشديد، وستمنح من الفرح والبهجة ما يرفع هذا الضيق الثقيل، باستفادة اهل المصائب والبلاء معكم من رسائل النور ووجدانهم السلوان فيها. أما الذين غضبت واحتديت عليهم، فان كانوا من المغرّر بهم ومن المخدوعين فلا يستحقون الغضب والحدّة، اذ انهم يظلمونك دون قصد ولاعلم ولاشعور. وان كانوا يعذبونك ويشددون عليك الخناق وهم يقومون بهذا عن علم وعن حقد دفين ارضاء لأهل الضلالة فإنهم سيعذّبون عن قريب بالموت الذي يتصورونه إعداماً أبدياً، وسيرون الضيق الشديد الدائمي المقيم في السجن المنفرد وهو القبر. وانت بدورك تكسب ثواباً عظيماً – نتيجة ظلمهم – وتظفر بخلود ساعاتك الفانية، وتغنم لذائذ روحية معنوية فضلاً عن قيامك بمهمتك العلمية والدينية باخلاص.

هكذا ورد الى روحي هذا المعنى فقلت بكل ما أوتيت من قوة: «الحمد لله». واشفقت على اولئك الظَلَمة بحكم انسانيتي ودعوت: ياربّى أصلح شأن هؤلاء..

ولقد ثبتّ في افادتي التي كتبتُها الى وزارة الداخلية: ان هذه الحادثة الجديدة غير قانونية، وأثبتها بعشرة أوجه، بل ان هؤلاء الظلمة الذين يخرقون القانون باسم القانون هم المجرمون حقاً، حيث بدأوا بالبحث عن حجج واهية جداً وتتبعوا افتراءات مختلقة الى حدّ ان جلبوا سخرية السامعين وابكت اهل الحق المنصفين، وأظهروا لأهل الانصاف أنهم لايجدون باسم القانون والحق اي مسوّغ للتعرض لرسائل النور ومسّ طلابها بسوء، فيزلّون الى البلاهة والجنون ويتخبطون خبط عشواء.

مثال ذلك:

لم يجد الجواسيس الذين راقبونا لمدة شهر شيئاً علينا، لذا لفّقوا التقرير الآتي: «ان خادم «سعيد» قد اشترى له الخمر من حانوت». الاّ أنهم لم يجدوا أحداً يوقّع على هذا التقرير تصديقاً لهم، الاّ شخصاً غريباً وسكيراً في الوقت نفسه، فطلبوا منه – تحت الضغط والتهديد – ان يوقع مصدقاً على ذلك التقرير، فردّ عليهم: «استغفر الله من يستطيع أن يوقع مصدقاً هذا الكذب العجيب» فاضطروا الى اتلاف التقرير.

مثال آخر

لحاجتي الشديدة لاستنشاق الهواء النقي، ولما يُعلم من اعتلال صحتي، فقد أعارني شخص لا أعرفه – ولم اتعرف عليه لحدّ الآن – عربة ذات حصان، لأتنزه بها خارج البلدة فكنت اقضي ساعة او ساعتين في هذه النزهة. وكنت قد وعدت صاحب العربة والحصان بأن أوفي اجرتها كتباً تثمن بخمسين ليرة، لئلا أحيد عن قاعدتي التي اتخذتها لنفسي، ولئلا أظل تحت منّة أحد من الناس واذاه.. فهل هناك احتمال لان ينجم ضرر ما من هذا العمل؟! غير أن دائرة الشرطة ودائرة العدل والامن الداخلي وحتى المحافظ نفسه استفسر باكثر من خمسين مرة: لمنْ هذا الحصان؟ ولمن هذه العربة؟ وكأنه قد حدثت حادثة سياسية خطيرة للاخلال بالأمن والنظام! مما اضطر ان يتطوع أحد الاشخاص لقطع دابر هذه الاستفسارات السخيفة المتتالية فيدّعي أن الحصان ملكه، وادّعى آخر بان العربة له، فصدر الامر بالقبض عليهما واودعا معي في السجن. فبمثل هذه النماذج اصبحنا من المتفرجين على لعب الصبيان ودُماهم، فبكينا ضاحكين وحزنّا ساخرين، وعرفنا أن كل من يتعرض لرسائل النور ولطلابها يصبح اضحوكة وموضع هزء وسخرية.

واليك محاورة لطيفة من تلك النماذج: لقد قلتُ للمدعي العام – قبل ان اطلّع على ماكتب في محضر اتهامي من الاخلال بالامن – قلت له: لقد اغتبتك امس اذ قلت لأحد افراد الشرطة الذي استجوبني نيابة عن مدير الامن: «ليهلكني الله – ثلاث مرات – ان لم اكن قد خدمت الامن العام لهذا البلد أكثر من الف مدير أمن واكثر من ألف مدع عام..».

ثم انني في الوقت الذي كنتُ في أمسّ الحاجة الى الاخلاد الى الراحة وعدم الاهتمام بهموم الدنيا والابتعاد نهائياً عن البرد، فان قيام هؤلاء بنفيي – في هذه الفترة من البرد بالذات – وتهجيري من مدينة لاخرى بما يفوق تحملى، ومن ثم توقيفي والتضييق عليّ باكثر من طاقتي وبما يشعر أنه حقدٌ دفين وأمر متعمد مقصود.. كل ذلك ولّد عندي غيظاً وامتعاضاً غير اعتيادي تجاه هؤلاء. ولكن العناية الإلهية أغاثتني فنبهت القلب الى هذا المعنى:

ان للقدر الإلهي – الذي هو عدل محض – حصةً عظيمةً جداً فيما يسلطه عليك هؤلاء البشر من الظلم البيّن، وان رزقك في السجن هو الذي دعاك الى السجن، فينبغي اذاً ان تقابل هذه الحصة بالرضى والتسليم.

وان للحكمة الربانية ورحمتها حظاً وافراً ايضاً كفتح طريق النور والهداية الى قلوب المساجين وبث السلوان والأمل فيهم، ومن ثم احراز الثواب لكم؛ لذا ينبغي تقديم آلاف الحمد والشكر لله – من خلال الصبر – تجاه هذا الحظ العظيم.

وكذا فان لنفسك انت ايضاً حصتها حيث ان لها مالاتعرف من التقصيرات.. فينبغي مقابلة هذه الحصة ايضاً بالاستغفار والتوبة والانابة الى الله وتأنيب النفس بأنها مستحقة لهذه الصفعة.

وكذا فان بعض الموظفين السذج والجبناء المنخدعين الذين يساقون الى ذلك الظلم بدسائس الاعداء المتسترين منهم حصة ايضاً ونصيب، فرسائل النور قد ثأرت لك ثأراً كاملاً من هؤلاء المنافقين بما أنزلت بهم من صفعاتها المعنوية المدهشة. فحسبهم تلك الضربات.

أما الحصة الاخيرة فهي لاولئك الموظفين الذين هم وسائط فعلية. ولكن لكونهم منتفعين حتماً من جهة الايمان – سواء أرادوا أم لم يريدوا – عند نظرهم الى رسائل النور وقراءتهم لها بنيّة النقد او الجرح، فان العفو والتجاوز عنهم وفق دستور ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ هو شهامة ونجابة.

وبعد ان تلقيت هذا التنبيه والتحذير الذي كلّه حق وحقيقة قررت أن أظل صابراً وشاكراً جذلاً في هذه المدرسة اليوسفية الجديدة. بل قررت أن اعاقب نفسي بتقصير لا ضرر فيه فأساعد حتى اولئك الذين يسيئون اليّ ويخاصمونني وأعاونهم.

ثم ان من كان مثلي في الخامسة والسبعين من عمره، وقد انقطعت علاقاته مع الدنيا ولم يبق من احبابه في الدنيا الاّ خمس من كل سبعين شخصاً، وتقوم سبعون ألف نسخة من رسائل النور بمهمته النورية بكل حرية، وله من الاخوان ومن الورثة من يؤدون وظيفة الايمان بآلاف الالسنة بدلاً من لسان واحد.. فالقبر لمثلي اذاً خير

وأفضل مائة مرّة من هذا السجن. فضلاً عن أن هذا السجن هو اكثر نفعاً واكثر راحة بمائة مرة من الحرية المقيدة في الخارج، ومن الحياة تحت تحكّم الآخرين وسيطرتهم؛ لان المرء يتحمل مضطراً مع مئات المساجين تحكماً من بعض المسؤولين؛ امثال المدير ورئيس الحراس بحكم وظيفتهم، فيجد سلواناً وإكراماً أخوياً من اصدقاء كثيرين من حوله، بينما يتحمل وحده في الخارج سيطرة مئات الموظفين والمسؤولين.

وكذلك الرأفة الاسلامية والفطرة البشرية تسعيان بالرحمة للشيوخ ولاسيما من هم في هذه الحالة، فتبدلان مشقة السجن وعذابه الى رحمة ايضاً.. لاجل كل ذلك فقد رضيت بالسجن..

وحينما قُدمت الى هذه المحكمة الثالثة جلست على كرسي خارج باب المحكمة لما كنت أحسّ من النصب والضيق في الوقوف لشدة ضعفي وشيخوختي ومرضي. وفجأة أتى الحاكم وقال مغاضباً مع إهانة وتحقير: لِمَ لا ينتظر هذا واقفاً؟!.

ففار الغضب في اعماقي على انعدام الرحمة للشيب، والتفتُّ واذا بجمع غفير من المسلمين قد احتشدوا حولنا ينظرون الينا بعيون ملؤها الرأفة، بقلوب ملؤها الرحمة والاخوة، حتى لم يستطع أحد من صرفهم عن هذا التجمع، وهنا وردت الى القلب هاتان الحقيقتان:

الاولى

ان اعدائي، واعداء النور المتسترين قد اقنعوا بعض الموظفين الغافلين وساقوهم الى مثل هذه المعاملات المهينة كي يحطموا شخصيتي امام أنظار الناس، ويصرفوا ما لا أرغبه أبداً من توجه الناس واقبالهم عليّ، ظناً منهم أنهم يتمكنون بذلك من إقامة سدّ منيع امام سيل فتوحات النور. فتجاه تلك الاهانة الصادرة من رجل واحد فقد صرفت العناية الإلهية نظري الى هؤلاء «المائة» إكراماً منها للخدمة الايمانية التي تقدمها رسائل النور وطلابها قائلة: «انظر الى هؤلاء، فقد أتوا للترحيب بكم لخدمتكم تلك، بقلوب ملأى بالرأفة والحزن والاعجاب والارتباط الوثيق».

بل حتى في اليوم الثاني عندما كنت أجيب عن اسئلة حاكم التحقيق؛ إحتشد ألفٌ من الناس في الساحة المقابلة لنوافذ المقر. كانت ملامح وجوههم تعبّر عن وضعهم، وتقول: «لاتضايقوا هؤلاء». ولشدة ارتباطهم بنا، عجزت الشرطة عن ان تفرقهم. وعند ذلك ورد الى القلب:

«ان هؤلاء الناس في هذا الوقت العصيب؛ ينشدون سلواناً كاملاً، ونوراً لاينطفئ، وايماناً راسخاً، وبشارة صادقة بالسعادة الابدية، بل يبحثون عنها بفطرتهم، وقد طرق سمعَهم أن ما يبحثون عنه موجود فعلاً في رسائل النور، لذا يبدون هذا الاحترام والتقدير لشخصي - الذي لااهمية له - بما يفوق طاقتي وحدي، من موقع كوني خادماً للايمان، وعسى أن اكون قد قمت بشئ من الخدمة له».

الحقيقة الثانية

لقد ورد الى القلب: انه حيال اهانتنا والاستخفاف بنا بحجة اخلالنا بالامن العام، وازاء صرف اقبال الناس عنا بالمعاملات الدنيئة التي يقوم بها اشخاص معدودون من المغرر بهم.. فان هناك الترحيب الحار والقدر اللائق لكم من قبل اهل الحقيقة وابناء الجيل القادم. نعم، في الوقت الذي تنشط الفوضى والارهاب المتستّر بستار الشيوعية للاخلال بالأمن العام، فان طلاب رسائل النور يقفون ذلك الأفساد المرعب، في جميع ارجاء البلاد ويكسرون شوكته بقوة الايمان التحقيقي، ويسعون حثيثاً لإحلال الأمن والنظام مكان الخوف والفوضى. فلم تظهر في العشرين سنة السابقة اية حادثة كانت حول اخلالهم بالأمن، رغم كثرة طلاب النور وانتشارهم في جميع انحاء البلاد، فلم يجد ولم يسجل عليهم أحد من الضباط المسؤولين حدثاً، في عشر ولايات وعبر حوالي اربع محاكم ذات علاقة، بل لقد قال ضباط منصفون لثلاث ولايات: «ان طلاب النور ضباط معنويون للأمن في البلاد، انهم يساعدوننا في الحفاظ على الامن والنظام لما يجعلون من فكر كل من يقرأ رسائل النور بالايمان التحقيقي حارساً ورقيباً عليه فيسعون بذلك للحفاظ على الأمن العام».

وسجن «دنيزلي» مثال واضح ونموذج جيد لهذا الكلام، فما ان دخل طلاب النور ورسالة «الثمرة» التي كتبت للمسجونين حتى تاب اكثر من مائتي سجين وتحلّوا

بالطاعة والصلاح، وذلك في غضون ثلاثة أشهر أو تزيد. حتى أن قاتلاً لاكثر من ثلاثة اشخاص كان يتحاشى أن يقتل (بقة الفراش). فلم يعد عضواً لايضر، بل اصبح نافعاً رحيماً للبلاد.

فكان الموظفون المسؤولون ينظرون الى هذا الوضع بحيرة واعجاب، حتى صرّح بعض الشباب قبل ان يستلموا قرار المحكمة: «اذا لبث طلاب النور في السجن فسنحكم على انفسنا ونَدينها لنظل معهم ونتتلمذ عليهم ونصلح انفسنا بارشاداتهم لنكون امثالهم». فالذين يتهمون طلاب النور الذين لهم هذه الخصائص والخصال بإخلال الامن لامحالة قد انخدعوا بشكل مفجع، او خُدعوا، او انهم يستغفلون اركان الحكومة في سبيل الفوضى والارهاب – من حيث يعلمون او لا يعلمون – لذا يسعون لإبادتنا واقحامنا في العذاب.

فنحن نقول لهؤلاء:

«مادام الموت لايُقتل والقبر لايُغلق بابه، وقوافل البشرية في دار ضيافة الدنيا تغيب وتتوارى فيما وراء التراب بسرعة مذهلة.. فلا مناص اننا سنفترق في اقرب وقت، وسترون جزاء ظلمكم جزاءً رهيباً، وفي الاقل ستذوقون الموت الذي هو رخصة من الحياة عند اهل الايمان المظلومين، ستذوقونه إعداماً ابدياً لكم، فالاذواق الفانية التي تكسبونها بتوهمكم الخلود في الدنيا ستنقلب الى آلام باقية مؤلمة دائمة..

ان حقيقة الاسلام التي ظفرت بها هذه الامة المتدينة وحافظت عليها بدماء مئات الملايين من شهدائها الذين هم بمرتبة الاولياء وسيوف ابطالها المجاهدين يطلق عليها اليوم – مع الاسف – اعداؤنا المنافقون المتسترون اسم «الطريقة الصوفية» احياناً، ويظهرون الطريقة الصوفية التي هي شعاع واحد من اشعة تلك الشمس المنيرة انها الشمس نفسها ليموهوا على بعض الموظفين السطحيين. مطلقين على طلاب النور الذين يسعون بجد ونشاط لابراز حقيقة القرآن وحقائق الايمان اسم «اهل الطريقة الصوفية» او«جمعية سياسية» ولايبغون من ورائها الاّ التشويه والتحريض علينا. فنحن نقول لهؤلاء ولكل من يصغي اليهم قولتنا التي قلناها امام محكمة دنيزلي العادلة:

«ان الحقيقة المقدسة التي افتدتها ملايين الرؤوس فداءٌ لها رأسنا ايضاً، فلو اشعلتم الدنيا على رؤوسنا ناراً فلن ترضخ تلك الرؤوس التي افتدت الحقيقة القرآنية ولن تسلم القيادة للزندقة ولن تتخلّى عن مهمتها المقدسة باذن الله».

وهكذا فلا أستبدل بسنة واحدة من شيخوختي التي أنشأت حوادثُها اليأسَ والاعباء الثقيلة والتي اسعفها السلوان النزيه النابع من الايمان والقرآن، مع ما فيها من معاناة وضيق، عشر سنوات بهيجة سارة من حياة شبابي. وبالاخص اذا كان كل ساعة من ساعات التائب المقيم لفرائضه في السجن بحكم عشر ساعات له من العبادة، وان كُل يوم يمرّ بالمريض وهومظلوم يجعل صاحبه يفوز بثواب عشرة ايام خالدة، فكم يكون مثل هذه الحياة مبعث شكر وامتنان لله لمثلي الذي يترقب دوره وهو على شفير القبر.

نعم، فهذا هو الذي فهمته من ذلك التنبيه المعنوي، فقلت: شكراً لله بلا نهاية.. وفرحت بشيخوختي ورضيت بالسجن. حيث ان العمر لايتوقف بل يمضي مسرعاً، فان مضى باللذة والفرح فانه يورث الحزن والاسى؛ لان زوال اللذة يورث الألم، وان مضى مشبعاً بالغفلة خاوياً من الشكر. فانه يترك بعض آثار الآثام ويفني هو ويمضي. ولكن اذا مضى العمر بالعناء والسجن، فلكون زوال الألم يورث لذةً معنوية، وأن مثل هذا العمر يعدّ نوعاً من العبادة؛ لذا يظل باقياً من جهة، فيجعل صاحبه يفوز بعمر خالد بثمرات خالدة خيّرة، ومن جهة اخرى يكون كفّارة للذنوب السابقة وتزكية للاخطاء التي سببت السجن. فمن زاوية النظر هذه على المسجونين الذين يؤدون الفرائض أن يشكروا الله تعالى ضمن الصبر.

الرجاء السادس عشر

عندما ساقوني منفياً الى قسطموني (١) بعد أن اكملت سنة محكوميتي في سجن «اسكي شهر» وانا الشيخ الهرم، مكثت موقوفاً هناك في مركز الشرطة حوالي ثلاثة

---

(١) مدينة تقع في شمالي تركيا، نفي اليها الاستاذ النورسي سنة ١٩٣٦ وظل فيها تحت الاقامة الاجبارية في غرفة مقابل مخفر الشرطة الى ان سيق منها (سنة ١٩٤٣)موقوفاً لمحاكمته في محكمة الجزاء الكبرى في «دنيزلي». — المترجم.

اشهر. ولايخفى عليكم مدى الأذى الذي يلحق بمثلي في مثل هذه الاماكن، وقد انعزل عن الناس، ولا يتحمل البقاء حتى مع اصدقائه الاوفياء، ولايطيق أن يبدل زيّه الذي اعتاد عليه (١).

فبينما كان اليأس يحيط بي من كل جانب، اذا بالعناية الإلهية تغيث شيخوختي، اذ اصبح افراد الشرطة المسؤولون في ذلك المخفر بمثابة اصدقاء أوفياء، حتى كانوا يخرجونني متى شئت للاستجمام والتجوال في سياحة حول المدينة وقاموا بخدمتي كأي خادم خاص، فضلاً عن أنهم لم يصروا عليّ بلبس القبعة مطلقاً.

ثم دخلت المدرسة النورية التي كانت مقابل ذلك المخفر في قسطموني وبدأت بتأليف الرسائل، وبدأ كل من «فيضي وامين وحلمي وصادق ونظيف وصلاح الدين» وامثالهم من ابطال النور يداومون في تلك المدرسة لاجل نشر الرسائل وتكثيرها، وأبدوا في مذاكراتهم العلمية القيّمة التي أمضوها هناك جدارة تفوق ما كنت قضيتها ايام شبابي مع طلابي السابقين.

ثم بدأ اعداؤنا المتسترون يحرّضون علينا بعضاً من المسؤولين وبعضاً ممن يعتّدون بأنفسهم والمغرورين من العلماء والمشايخ الصوفية، فأصبحوا الوسيلة في جمعنا في تلك المدرسة اليوسفية «سجن دنيزلي» مع طلاب النور القادمين من عدة ولايات.

هذا وان تفاصيل هذا الرجاء السادس عشر هي في تلك الرسائل التي ارسلتها سراً من «قسطموني» والتي ضمت في كتاب «ملحق قسطموني» وفي الرسائل المقتضبة السرية التي كنت قد ارسلتها الى اخواني من سجن دنيزلي. ويرد تفاصيله ايضاً في «الدفاع» المرفوع امام محكمة دنيزلي.

فحقيقة هذا الرجاء تظهر بوضوح في ذلك، نحيل الى تلك التفاصيل المذكورة في (الملحق) و (الدفاع) ونشير هنا اشارة مختصرة اليها:

(١) حيث اكره الناس على لبس القبعة والزي الاوروبي بعد صدور (قانون القيافة). ـ المترجم.

لقد خبأتُ بعض الرسائل الخاصة والمجموعات المهمة ولاسيما التي تبحث عن دجّال المسلمين (السفياني) وعن كرامات رسائل النور، خبّأتها تحت أكوام من الحطب والفحم لأجل أن تنشر بعد وفاتي، او بعد أن تصغي آذان الرؤساء وتعي رؤوسهم الحقيقة ويرجعوا الى صوابهم. كنت مطمئن البال من هذا العمل، ولكن ما ان داهم موظفو التحريات ومعاون المدعي العام البيت واخرجوا تلك الرسائل المهمة المخبوءة من تحت اكوام الفحم والحطب، ساقوني الى سجن «اسپارطة» وانا اعاني من اعتلال صحتي ما اعاني. وبينما كنت متألماً بالغ الالم ومستغرقاً في التفكير حول ما اصاب رسائل النور من اضرار، اذا بالعناية الربانية تأتي لأغاثتنا جميعاً حيث بدأ المسؤولون الذين هم في أمسّ الحاجة الى قراءة تلك الرسائل المخبوءة القيمة، بدأوا بدراستها بكل اهتمام ولهفة، فتحولت تلك المحافل الرسمية الى ما يشبه المدارس النورية، اذ انقلب النقد والجرح عندهم الى نظرة الاعجاب والتقدير. حتى انه في (دنيزلي) قرأ الكثيرون سواء من المسؤولين او غيرهم – دون علمنا – رسالة «الآية الكبرى» المطبوعة بسرية تامة فازدادوا ايماناً واصبحوا سبباً لجعل مصيبتنا كأن لم تكن.

ثم ساقونا الى سجن دنيزلي وزجّوني في ردهة كبيرة ذات عفونة ورطوبة شديدتين فوق ما فيها من برودة شديدة، فاعتراني حزن وألم شديدان من جراء ابتلاء اصدقائي الابرياء بسببي فضلاً عن الحزن النابع مما اصاب انتشار «النور» من عطلٍ ومصادرة مع ما كنت اعانيه من الشيب والمرض.. كل ذلك جعلني اتقلب مضطرباً في ضجر وسأم.. حتى اغاثتني العناية الربانية فحوّلت ذلك السجن الرهيب الى مدرسة نورية، فحقاً ان السجن مدرسة يوسفية، وبدأت رسائل النور بالانتشار والتوسع حيث بدأ أبطال «مدرسة الزهراء» بكتابة تلك الرسائل بأقلامهم الالماسية. حتى أن بطل النور قد استنسخ اكثر من عشرين نسخة من رسالتي «الثمرة» و«الدفاع» خلال مدة لم تتجاوز اربعة اشهر، مع ضراوة تلك الظروف المحيطة، فكانت تلك النسخ سبباً للفتوحات في السجن وفي خارجه فحوّل ضررنا في تلك المصيبة الى منافع وبدّل ضجرنا وحزننا الى افراح، مبدياً مرة اخرى سراً من اسرار الآية الكريمة ﴿ **وعَسى أنْ تَكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكُم** ﴾ (البقرة: ٢١٦).

ثم وُزّع ضدنا بيان شديد اللهجة بناء على التقرير السطحي الخاطئ المقدّم من قبل «الخبراء الاولبين» وشنّ وزير التربية هجوماً عنيفاً علينا، مما حدا بالبعض أن يطالب باعدامنا بل قد سعوا في الامر.

وفي هذا الوقت العصيب بالذات جاءتنا العناية الربانية فأسعفتنا ايضاً، اذ بينا ننتظر انتقادات لاذعة عنيفة من «خبراء انقرة» اذا بتقاريرهم المتضمنة للاعجاب والتقدير برسائل النور، واذا بهم لم يجدوا من مجموع خمسة صناديق من رسائل النور الاّ بضعة اخطاء لاتتجاوز العشرة. وقد وضحّنا امام المحكمة واثبتنا كذلك ان هذه الاخطاء التي أوردوها ليست أخطاءً، بل الحقيقة بعينها، وان الخبراء هم انفسهم على خطأ فيما يدّعون، وبيّنا أن في تقريرهم المتكون من خمس اوراق حوالي عشرة اخطاء.

وبينما كنا ننتظر التهديد والاوامر المشددّة من الدوائر الرسمية السبع التي ارسلت اليها رسائل الثمرة والدفاع كما أُرسلت الى دائرة العدل جميع الرسائل، ولاسيما تلك الرسائل الخاصة المتضمنة للصفعات الشديدة والتعرض لاهل الضلالة.. اجل بينما كنا ننتظر التهديد العنيف منهم، إذا بتقاريرهم المسلّية وهي في منتهى اللين والرقة - الشبيهة بتلك الرسالة التي بعثها رئيس الوزراء الينا - وكأنهم يبدون رغبتهم في المصالحة معنا. فأثبت - كل هذا - اثباتاً قاطعاً ان حقائق رسائل النور بفضل العناية الإلهية وكرامتها قد غلبتهم وانتصرت عليهم حتى جعلتهم يقرأونها ويسترشدون بها، وحولت تلك الدوائر الرسمية الواسعة الى ما يشبه المدارس النورية، وانقذت كثيراً من الحيارى والمترددين وشدّت من ايمانهم، مما ملأنا بهجة وسروراً هو اضعاف اضعاف ما كنا نعانيه من ضيق وضجر.

ثم دسّ الاعداء المتسترون السُّم في طعامي، ونقل بطل النور الشهيد (حافظ علي) على اثرها الى المستشفى بدلاً عني، ومن ثم ارتحل الى عالم البرزخ ايضاً عوضاً عني، مما جعلنا نحزن كثيراً ونبكي بكاءً حاراً عليه.

لقد قلت يوماً - قبل نزول هذه المصيبة بنا - وانا على جبل قسطموني. بل صرخت مراراً: يا اخواني «لاتلقوا اللحم امام الحصان ولا العشب امام الاسد» بمعنى: لا تعطوا كل رسالة أياً كان حذراً من أن يتعرضوا لنا بسوء. وكأن الاخ

«حافظ علي» قد سمع بهاتفه المعنوي كلامي هذا (وهو على بعد مسيرة سبعة ايام). فكتب اليّ – في الوقت نفسه – يقول: «نعم ياأستاذي.. انها من احدى كرامات رسائل النور وخصائصها أنها لاتعطي اللحم الحصان ولا العشب الأسد، بل تعطى العشب الحصان واللحم الاسد!» حتى اعطى ذلك العالم رسالة الاخلاص، وبعد سبعة ايام تسلمنا رسالته هذه، وبدأنا بالعدّ والحساب فعلمنا انه قد كتب تلك العبارة الغريبة نفسها في الوقت الذي كنت ارددها من فوق جبل قسطموني.

فوفاة بطل معنوي مثل هذا البطل من ابطال النور، والمنافقون يسعون لادانتنا وانزال العقوبة بنا، علاوة على قلقي المستمرّ من اخذهم إياي بأمر رسمي الى المستشفى لمرضي الناشئ من التسمم.. في هذا الوقت وجميع هذه المضايقات تحيط بنا، اذا بالعناية الإلهية تأتي لإمدادنا؛ فلقد أزال الدعاء الخالص المرفوع من قبل اخواني الطيبين خطر التسمم. وهناك أمارات قوية جداً تدل على أن ذلك البطل الشهيد منهمك في قبره برسائل النور، وانه يجيب بها عن اسئلة الملائكة. وان بطل دنيزلي «حسن فيضي» (تغمده الله برحمته) واصدقاءه الاوفياء سيحلون محله فيقومون بمهمته في خدمة النور سراً.. وان اعداءنا قد انضموا الى الرأي القائل بضرورة اخراجنا من السجن خوفاً من سعة انتشار الرسائل بين المساجين وسرعة استجابتهم لها ليحولوا بيننا وبين السجناء وقد حوّل تلاميذ النور تلك الخلوة المزعجة الى ما يشبه كهف اصحاب الكهف، اولئك الفتية المؤمنون، أو ما يشبه مغارات المنزوين من الزهاد، وسعوا بكل اطمئنان وسكينة في كتابة الرسائل ونشرها.. كل ذلك أثبت ان العناية الإلهية كانت تمدّنا وتغيثنا.

ولقد خطر للقلب: ما دام الامام الاعظم «ابو حنيفة النعمان» وامثاله من الائمة المجتهدين قد اوذوا بالسجن وتحملوا عذابه، وان الامام احمد بن حنبل وامثاله من المجاهدين العظام قد عذّبوا كثيراً لاجل مسألة واحدة من مسائل القرآن الكريم. وقد ثبت الجميع امام تلك المحن القاسية وكانوا في قمة الصبر والجلد، فلم يُبد احدهم الضجر والشكوى، ولم يتراجع عن مسألته التي قالها. وكذا علماء عظام كثيرون وأئمة عديدون لم يتزلزلوا قط امام الآلام والاذى الذي نزل بهم، بل صبروا شاكرين لله تعالى، مع أن البلاء الذي نزل بهم كان أشدّ مما هو نازل بكم، فلابد أن في

اعناقكم دَين الشكر لله تبارك وتعالى شكراً جزيلاً على ما تتحملونه من العذاب القليل والمشقة اليسيرة النازلة بكم في سبيل حقائق عديدة للقرآن الكريم مع الثواب الجزيل والاجر العميم.

وسأبين هنا باختصار احدى تجليات العناية الربانية من خلال الظلم الذي يقترفه البشر:

كنت اكرر واقول في العشرين من عمري: سأنزوي في اخريات حياتي في مغارة، مبتعداً عن الحياة الاجتماعية كما كان ينزوي الزهاد في الجبال، وكذلك قررت عندما كنت اسيراً في شمال شرقي روسيا في الحرب العالمية الاولى أن سأقضي بقية ايام عمري في الكهوف والمغارات منسلاً عن الحياة الاجتماعية والسياسية. كفاني تدخلاً.. فتجلت العناية الربانية وعدالة القدر – رحمة بشيخوختي – وحولتا تلك المغارات التي كنت أتصورها الى ما هو خير وافضل منها، وبما يفوق كثيراً رغبتي وقراري.. حوّلتاها الى سجون انزواء وانفراد، ومنحتا لي «مدارس يوسفية» بدلاً عن تلك المغارات في الجبال للمنزوين واهل الرياضة الروحية، لئلا تضيع اوقاتنا سدىً، حيث ان في تلك المغارات فوائد اخروية زيادة عما فيها من اداء مهمة الجهاد لاجل القرآن والحقائق الايمانية. حتى عزمت – بعد الافراج عن اخواني وتبرئتهم – أن أظهر شيئاً يدينني ويبقيني في زنزانة السجن مع «خسرو وفيضي» وامثالهم من المجاهدين المخلصين المتفرغين للخدمة لأتخذها حجة تغنيني عن الاختلاط بالناس ولئلا أضيّع شيئاً من وقتي فيما لايعني من الامور وبالتصنع وحب الظهور، حيث البقاء في ردهات السجن افضل، الاّ ان القدر الإلهي وما قسم الله لنا من رزق قد ساقني الى محل انزواء آخر. فحسب مضمون (الخير فيما اختاره الله) وبسر الآية الكريمة ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهوخير لكم** ﴾ ورحمة بشيخوختي، ولاجل ان نسعى بشوق اكثر في الخدمة الايمانية،فقد وُهبتْ لنا مهمة، وأوكلت الينا وظيفة، هي خارج إرادتنا وطوقنا في هذه المدرسة اليوسفية الثالثة.

نعم ان في تحويل العناية الإلهية مغارات عهد الشباب الذي لم يكن له اعداء شرسون، الى ردهات السجن المنفرد، ثلاث حِكم وثلاث فوائد مهمة لخدمة النور:

* *الحكمة والفائدة الاولى*

اجتماع طلاب النور في هذا الوقت دون ان يتضرر منهم احد انّما يكون في «المدرسة اليوسفية». حيث ان اللقاء فيما بينهم في الخارج قد يثير الشبهة ويحتاج الى مصاريف، اذ كان بعضهم ينفق حوالي خمسين ليرة لاجل لقائي مدة لاتزيد عن عشرين دقيقة، او كان يرجع دون أن يتمكن من مقابلتي. لذا فأنا أتحمل ضيق السجن بل أتقبله مسروراً لاجل اللقاء عن قرب مع بعض اخوتي الاوفياء، فالسجن بالنسبة لنا اذن نعمة ورحمة.

* *الحكمة والفائدة الثانية*

انه لابدّ من الاعلان والتبليغ في كل جهة في وقتنا هذا عن خدمة الايمان برسائل النور، ولفت أنظار المحتاجين اليها في كل مكان. فدخولنا السجون يلفت الانظار الى الرسائل، فيكون اذن بمثابة اعلان عنها، فيجدها اعتى المعاندين والمحتاجين فتكسر بها شوكة عنادهم وينقذون بها ايمانهم، وينجون من المهالك، وتتوسع دائرة مدارس النور.

* *الحكمة والفائدة الثالثة*

ان طلاب النور الذين دخلوا السجن يتعرف كل منهم على احوال الآخر، ويتعلم كل منهم من الآخر السجايا الحميدة والاخلاص والتضحية، فلا يبالون بعدئذٍ بالمنافع الدنيوية في الخدمة النورية.

نعم انهم يوفقون بالظفر بالاخلاص الكامل لما يجدون ويرون من أمارات كثيرة تدل على ان كل ضيق ومشقة في المدرسة اليوسفية لها عشرة اضعافها من الفوائد المعنوية والمادية، ومن النتائج اللطيفة، ومن الخدمات الواسعة الخالصة للايمان، بل قد تصل الى مائة ضعف، وعندئذٍ لايتنازلون لكسب المنافع الخاصة الجزئية.

وبالنسبة لي فان لأماكن الانزواء والمعتكفات هذه لطافة حزينة الاّ أنها لذيذة وهي كما يأتي:

اني أجد هنا من الاوضاع والاحوال ما كنت اجدها في ايام شبابي في بلدتي وفي مدرستي القديمة، حيث كان طعام قسم من طلاب المدارس – حسب عادة

الولايات الشرقية – يأتيهم من خارج المدرسة وقسم آخر يطبخونه فيما بينهم في المدرسة، فكلما نظرت هنا – مع حالات اخرى متشابهة – تذكرت تلك الحالة ايام شبابي من خلال حسرة لذيذة فأذهب خيالاً الى تلك الايام، وأنسى حالات شيخوختي.

ذيل اللمعة السادسة والعشرين

هو المكتوب الحادي والعشرون، نشر ضمن «المكتوبات».

اللمعة السابعة والعشرون

هي دفاع الاستاذ النورسي امام محكمة اسكي شهر، ينشر في مجموعة «سيرة ذاتية»

اللمعة الثامنة والعشرون

هذه اللمعة عبارة عن فقرات مختصرة كتبتها لبعث السلوان الى قلوب اخواني الذين كانوا معي، حينما كنت ممنوعاً عن التكلم والاختلاط مع الاخرين في سجن «اسكي شهر».

محاورة لطيفة

مع سليمان رشدي(١) الذي هو رمز الوفاء والاخلاص، المتميز بنقاء السريرة.

عندما يقترب زمن تسريح الذباب من مهمة الحياة وذلك في موسم الخريف، يستعمل بعض من يقصد نفعه بالذات دواءً لمكافحة الذباب ليحولوا دون ان يمسهم شئ من الازعاج. فمسّ ذلك رقة قلبي واثّر فيّ كثيراً. علماً ان الذباب قد تكاثر اكثر من قبل على الرغم من استعمال الدواء القاتل. وكان في غرفتي في السجن حبل لنشر الملابس لأجل تنشيفها فكانت تلك الطويرات الصغيرة جداً تتراصف على ذلك الحبل مساءً تراصفاً جميلاً منتظماً. فقلت لرشدي: لا تتعرض لهذه الطويرات الصغيرة، انشر الملابس في مكان آخر. فردّ عليّ بجدّ: اننا بحاجة الى هذا الحبل، فلتجد الذبان لها موضعاً آخر!

وعلى كل حال، ولمناسبة المحاورة اللطيفة التي جرت بيننا انفتح باب البحث عن الذباب والنحل وما شابههما من الحشرات الكثيرة، فدار الكلام حولها.

---

(١) من تلاميذ الاستاذ النورسي الأوائل في اسبارطة.-المترجم.

فقلت له:

ان مثل هذه الانواع من الحيوانات التي تتكاثر نسخها بكثرة هائلة، لها وظائف مهمة. فالكتاب يطبع طبعات كثيرة نظراً لقيمته. بمعنى ان جنس الذباب[١] له وظيفة مهمة وقيمة كبيرة حيث يُكثر الفاطر الحكيم من نسخ تلك الرسائل القَدَرية وكلمات القدرة الإلهية.

نعم! ان هذه الطائفة من الذباب التي تنظّف وجهها وعينيها وجناحيها كل حين، وكأنها تتوضأ، تشكّل موضوعاً مهماً للآية الكريمة: ﴿ **يا ايها الناسُ ضُربَ مثلٌ فاستمعوا له إنّ الذين تَدعونَ من دون الله لن يَخلُقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإنْ يَسلُبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ** ﴾(الحج:٧٣).

بمعنى ان الاسباب وما يدّعيه اهل الضلالة من ألوهية من دون الله لو اجتمعت على خلق ذبابة واحدة لعجزت. اي ان خلق الذباب معجزة ربانية وآية تكوينية عظيمة، بحيث لو اجتمعت الاسباب كلها لما خلقت مثل تلك الآية الربانية ولا استطاعت ان تعارضها ولا تقليدها قطعاً. فتلك المعجزة قهرت نمرود، ودافعت عن حكمة خلقها دفاعاً فاق ألف اعتراض، لما شكى موسى عليه السلام من ازعاجاتها قائلاً: يا رب لِمَ اكثرتَ من نسل هذه المخلوقات المزعجة.. أُجيب إلهاماً: لقد اعترضتَ مرة على الذبان، وهي كثيراً ما تسأل: يا رب ان هذا الانسان الكبير ذا الرأس الضخم لا يذكرك الاّ بلسان واحد بل يغفل احياناً عن ذكرك، فلو خلقتَ من رأسه فحسب مخلوقات من امثالنا لكانت الوف المخلوقات ذاكرة لك.

وفضلاً عن هذا فان الذباب يرعى النظافة ايمّا رعاية، اذ ينظف وجهه وعينيه باستمرار ويمسح على اجنحته دوماً ويؤدي كل ذلك كمن يتوضأ. اذاً لهذه الطائفة وظائف مهمة وجليلة بلاشك، الاّ ان نظر الحكمة البشرية وعلمها قاصر لم يحط بعدُ بتلك الوظائف.

نعم، ان الله سبحانه وتعالى قد خلق قسماً من الحيوانات مفترسة آكلة للحوم، وكأنها موظفات صحيات ومأمورات للتنظيف تؤدي وظيفتها في غاية الاتقان،

(١) الذباب: يطلق على كل حشرة طائرة (ج) أذبة وذبان. –المترجم.

بتنظيفها وجه البحر وجمعها لجثث ملايين الحيوانات البحرية يومياً، وانقاذ وجه البحر من المناظر القذرة(١). فان لم توف هذه الحيوانات بوظيفتها الصحية حق الوفاء وعلى اجمل وجه لما تلألأ وجه البحر كالمرآة الساطعة، ولكان البحر يورث الكآبة والحزن.

وكذا فانه سبحانه قد خلق حيوانات مفترسة وطيوراً جارحة بمثابة مأمورات للنظافة والامور الصحية، تقوم بتنظيف وجه الارض يومياً من جثث مليارات من الحيوانات البرية والطيور وانقاذها من التعفن، وانقاذ ذوي الحياة من ذلك المنظر الكئيب الأليم. حيث تستطيع تلك الحيوانات ان تتحسس مواضع تلك الجثث الخفية والبعيدة من مسافة تبلغ حوالي ست ساعات، وذلك بسوق من إلهام رباني، فتنطلق الى تلك المواضع وتزيل الجثث. فلولا هذه الموظفات الصحيات البرية وهي تؤدي وظائفها على افضل وجه لكان وجه الارض في حالة يرثى لها.

نعم، ان الرزق الحلال للحيوانات الوحشية المفترسة هو لحوم الحيوانات الميتة، وحرام عليها لحوم الحيوانات الحية، بل لها جزاء إن اكلت منها. فالحديث الشريف (حتى يقتصّ للجماء من القَرناء)(٢). يدل على أن الحيوانات التي تبقى ارواحها رغم فناء اجسادها لها جزاء وثواب يناسبها في دار البقاء. فعلى هذا يصح القول ان لحوم الحيوانات الحية حرام على المفترسات.

وكذا النمل موظف بجمع شتات القطع الصغيرة للنعم الإلهية وصيانتها من التلف والامتهان لئلا تداس تحت الاقدام، فضلاً عن جمعه جثث الحيوانات الصغيرة وكأنه موظف صحي.

---

(١) نعم، ان سمكة واحدة تضع الوفاً من البويضات، فتخرج منها الوفاً من الصغار واحياناً تخرج من مبيضها مليوناً من البويضات، فتكون مواليد الاسماك متناسبة مع وفياتها، كي يمكن ان تحافظ على التوازن في البحر. ومن ألطاف تجليات الرحمن الإلهية تتفاوت اجسام الوالدات تفاوتاً كبيراً مع اجسام صغارها، فلا تستطيع ان تقود صغارها اينما ذهبت، حيث لا يمكنها الدخول في اماكن تدخلها الصغار، فيولّد الحكيم الرحيم سبحانه قائداً صغيراً من بين الصغيرات ويسخّرها في وظيفة الوالدات. ـالمؤلف.

(٢) عن ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدُّن الحقوق الى اهلها يوم القيامة، حتى يقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» رواه مسلم برقم ٢٥٨٢ والترمذي ٢٥٣٥ (تحفة الأحوذي) وقال: في الباب عن ابي ذر وعبدالله بن أنيس. حديث ابي هريرة حديث حسن صحيح (ومعنى الجلحاء: اي التي لا قرن لها).

وكذا الذبان لها وظائف ـ اهم مما ذكر ـ فهي مأمورة بتنظيف مالا يراه الانسان من جراثيم مرضية وتطهير المواد السامة. فهي ليست ناقلة للجراثيم، بل العكس تهلك تلك الجراثيم المضرة وتمحيها بمصها لها واكلها، وتحيل تلك المواد السامة الى مواد اخرى. فتحول دون سريان كثير من الامراض، وتوقفها عند حدّها.

والدليل على أن الذبان موظفات صحيات، ومأمورات تنظيف وكيمياويات حاذقات، وان لوجودها حكمة الهية واسعة.. هو كثرتها المتناهية، اذ المواد النافعة والثمينة يكثّر منها(١).

ايها الانسان الذي يقصد نفع ذاته وحده!

انظر الى فائدة واحدة للذباب تعود اليك فحسب مما سوى فوائده ومنافعه للحياة. وتخلّ عن عدائك له. فكما انه يورثك الانس والسلوان في الاغتراب والوحدة والانفراد، كذلك يوقظك من نوم الغفلة وغمرات تشتت الفكر، فيذكّرك بوظائف انسانية كالحركة والنشاط والنظافة الدائمة بوضوئه وصلاته وتنظيفه وجهه وعينه، كما هو مشاهد.

وكذا النحل – وهي صنف من الذباب – تطعمك العسل الذي هو ألذّ غذاء وألطفه، وهي الملهمة بالوحي الإلهي كما نص عليه القرآن الكريم. فعليك ان توليها حبّك.

ان العداء للذباب لا معنى له، بل هو ظلم واجحاف بحق تلك الحيوانات التي تعاون الانسان وتسعى لصداقته وتتحمل أذاه. وانما يجوز مكافحة المضرة منها فحسب، وذلك دفعاً لأضرارها، كدفع ضرر الذئاب عن الاغنام.

فيا ترى أليس من المحتمل ان يكون البعوض والبرغوث المسلّطين علينا حجّامات فطرية، اي موظفات بمص الدم الفاسد الجاري في الاوردة وقت الحر وزيادة الدم اكثر من حاجة الجسم؟.. سبحان من تحيّر في صنعه العقول..

---

(١) ان الفقرة الآتية للصوفي الشهير «يونس أمره» لطيفة جداً في اشارتها الى مدىً ما في جناح الذباب من خوارق وابداع، ومدى كون الذباب نفسه صنعة ربانية عظيمة: «حملت جناح ذباب على اربعين حمل، فعجزت الاربعون عن حملها وظلت مسطورة هكذا!». -المؤلف.

كنت يوماً في جدال مع نفسي، اذ اغترت بما انعم الله عليها، وتوهمت انها مالكة لها، وبدأت بالفخر والمدح.

فقلت لها: انك لا تملكين شيئاً بل هو أمانة. فتركت الغرور والفخر. ولكنها تكاسلت قائلة: لِمَ أَرعىٰ ما ليس لي؟ وماذا عليّ لو ضاع؟.

وفجاة رأيت ذبابة وقفت على يدي وبدأت بتنظيف وجهها وعينها وجناحيها وهي امانات لديها تنظيفاً على اجمل ما يكون، مثلما ينظف الجندي سلاحه وملابسه التي سلّمتها له الدولة، فقلت لنفسي: انظري الى هذه الذبابة، فنظرت وتعلّمت منها درساً بليغاً. وهكذا اصبح الذباب استاذاً لنفسي الكسلانة.

ان فضلات الذباب لا ضرر لها من حيث الطب، بل قد تكون شراباً حلواً (وغذاء لحشرات اخرى) اذ ليس من المستبعد عن الحكمة الإلهية، بل من شأنها ان تجعل من الذباب مكائن تصفية واجهزة استحالة، نظراً لأكلها الوف الأصناف من مواد هي منشأ الجراثيم والسموم.

نعم ان من طوائف الذباب – مما سوى النحل – طائفة تأكل الموادالمتعفنة المختلفة(١) فتقطر دوماً قطرات من مواد حلوة بدلاً من فضلاتها – كنزول المنّ على اوراق الاشجار – فتثبت انها مكائن استحالة.

وهكذا يتبين امام الانظار مدى عظمة امة الذباب الصغير هذا، ومدى عظمة وظائفها. وكأنها تقول بلسان الحال: لا تنظروا الى صغر اجسامنا بل الى عِظَم وظائفنا. وقولوا: سبحان الله.

(١) ان طائفة صغيرة جداً من الذباب تُخلق على هيئة كتلة سوداء، على اغصان اللوز والمشمش، في اواخر الربيع، وتبقى ملتصقة بالغصن، وتسيل منها بدلاً من الفضلات، قطرات شبيهة بالعسل فتتجمع حولها انواع الذباب الاخرى وتمصها. وطائفة اخرى من الذباب تستخدم في تلقيح بعض ازاهير النباتات والاشجار المثمرة، كالتين. وطائفة اخرى للذباب، هي اليراع، المتلمعة ليلاً، وهي اعجوبة تلفت الانظار وتدعو الى التدبر والتأمل، كما ان قسماً منها تتلمع لمعان الذهب. ولا ينبغي ان ننسىٰ البعوض والزنابير المجندات الحاملات للرماح. فلو لم تكن زمام هذه الذبان بيد الخالق الرحيم، واغارت على الاحياء والانسان لأفنت نوع الانسان كما قتلت نمرود، ولفسّرت لنا المعنى الاشاري للآية الكريمة ﴿ **وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه** ﴾. ولهذا فان جنس الذباب الذي يضم مائة من الطوائف المالكة للمزايا والخواص المذكورة، لها اهميتها التي أهّلتها لتكون موضوع الآية الكريمة ﴿ **يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له..** ﴾ ..–المؤلف.

«الحروف القرآنية» (١)

بِسْم الله الرّحمٰـن الرّحيم

﴿ اِنّما أمرُه إذا أراد شَيئاً أنْ يقولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾(يس:٨٢)

يفهم من اشارة هذه الآية الكريمة: ان الخلق يتم بالأمر ، وان خزائن القدرة الإلهية بين الكاف والنون. ولهذا السر الدقيق وجوه كثيرة، وقد ذكر بعضها في الرسائل.

اما الآن فنحاول ان نفهم هذا السر وفق مثال مادي محسوس لأجل تقريب الأحاديث النبوية الواردة حول خواص الحروف القرآنية ومزاياها وتأثيراتها المادية – ولاسيما الحروف المقطعة في اوائل السور– الى نظر هذا العصر المادي، وذلك:

ان للخالق الجليل ذي العرش العظيم سبحانه وتعالى أربعة عروش إلهية، هي محاور لتدبير امور المخلوقات الموجودة على كرة الارض، التي هي بمثابة مركز معنوي للعالم وقلب الكائنات وقبلتها.

احدها : هو عرش الحفظ والحياة وهو التراب، المظهر لتجلي اسم الحفيظ والمحيي.

ثانيها: هو عرش الفضل والرحمة وهو عنصر الماء.

ثالثها: هو عرش العلم والحكمة وهو عنصر النور.

رابعها: هو عرش الامر والارادة وهو عنصر الهواء.

اننا نشاهد بابصارنا ظهور المعادن التي تدور عليها حاجات غير محدودة حيوانية وانسانية، وظهور مالايحد من النباتات المختلفة، من تراب بسيط كما نشاهد ظهور ما لا يحد من معجزات الصنعة الإلهية ولاسيما من نطف الحيوانات التى هى سائل شبيه بالماء، ظهورها في الأحياء المختلفة بالماء .. اي ظهور تلك الكثرة الكاثرة والانواع

(١) هذه العناوين الصغيرة وضعت من قبلنا. – المترجم.

المختلفة من عنصر بسيط، وبانتظام تام وكتابتها على صحيفة بسيطة على صورة نقوش بديعة لاتحد، مما يدلنا على ان النور والهواء ايضاً -كهذين العرشين - مظاهر لمعجزات عجيبة لقلم علم المصور الازلي العليم الجليل وقلم ارادته وأمره كالعرشين السابقين، رغم بساطتهما.

سندع حالياً عنصر النور. ولمناسبة مسألتنا نحاول كشف الحجاب عما يستر عجائب الامر والارادة وغرائبهما في عنصر الهواء الذي يمثل عرش الامر والارادة بالنسبة الى كرة الارض. وذلك:

كما اننا نزرع الحروف والكلمات بالهواء الذي في افواهنا، واذا بها تتسنبل وتثمر، اي ان الكلمة تصبح حبة في آن واحد كأنه بلازمان وتتسنبل في الهواء الخارجي، هواءً حاوياً على مالايحد من الكلمة نفسها، صغيرها وكبيرها. كذلك ننظر الى عنصر الهواء فنرى انه مطيع ومنقاد لأمر «كن فيكون» ومسخّر له الى حد عظيم حتى كأن كل ذرة من ذراته جندى لجيش منظم متأهب لتلقي الأمر في كل آن، ويظهر الطاعة والامتثال للارادة المتجلية في أمر «كن» بلازمان، سواء في ذلك أبعد الذرات وأقربها.

مثلاً: ان الخطاب الذي يلقيه انسان من الاذاعة يُسمع في كل مكان في الارض في الوقت نفسه وكأنه بلا زمان - بشرط وجود الراديوات - مما يبين مدى امتثال كل ذرة من ذرات الهواء لتجلي امر «كن فيكون» امتثالاً كاملاً.

فالأمر كذلك في الحروف التي هي غير مستقرة في الهواء، يمكن ان تصبح بكيفياتها القدسية مظاهر لتأثيرات خارجية ولخواص مادية كثيرة حسب سر الامتثال هذا. فتشاهد فيها خاصية، كأنها تقلب المعنويات الى ماديات وتحول الغيب الى شهادة.

وهكذا بمثل هذه الامارة ، فان امارات اخرى لا تحد تظهر لنا ان الحروف التي هي موجودات هوائية، ولاسيما الحروف المقدسة والحروف القرآنية وبخاصة حروف الشفرات الإلهية وهي المقطعات التي في اوائل السور، تسمع الاوامر وتمتثلها امتثالاً في غاية الانتظام والشعور التام والحساسية الكاملة وبلا حاجة الى زمان. فلا شك ان هذا يحمل المرء على التسليم بالخواص المادية والمزايا الخارقة المروية للحروف التى فى

ذرات الهواء ومن حيث القدسية، والتي ينعكس فيها تجلي الارادة الازلية وجلوة من أمر «كن فيكون».

وهكذا فان تعابير القرآن الكريم التي تبين احياناً اثر القدرة كأنها صادرة من صفة الارادة وصفة الكلام مبني على هذا السر. فتلك التعابير القرآنية تدل على ان الموجودات تُخلق في منتهى السرعة ومسخّرة ومنقادة انقياداً تاماً للاوامر حتى لكأن الأمر ينفّذ حُكمه كالقدرة.

اي ان الحروف الآتية من الأمر التكويني تؤثر في وجود الاشياء وكأنها قوة مادية، ويظهر الامر التكويني كأنه القدرة نفسها والارادة نفسها. نعم ان هذه الموجودات الخفية التي وجودها المادي هوائي وهى في غاية الخفاء، حتى كأنها موجودات نصف معنوية ونصف مادية، تشاهد فيها آثار الامر والارادة بحيث يشبه الامر التكويني كالقدرة بعينها ، بل يصبح القدرة نفسها.

وهكذا لأجل جلب الانظار والحث على التدبر في موجودات كأنها برزخ بين المعنويات والماديات يقول القرآن الكريم: ﴿**انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون**﴾. لذا فمن المعقول جداً ان تكون الحروف المقطعة التي في اوائل السور امثال: الم، طس، حم، وماشابهها من الشفرات الإلهية، عقداً وازراراً حرفية تستطيع ان تهزّ اوتار العلاقات الدقيقة الخفية بين ذرات الهواء بلا زمان، بل هذا من شأن تلك الحروف ومن وظائفها أن تؤدي مخابرات قدسية –كاللاسلكي المعنوي– من الارض الى العرش.

نعم ان كل ذرة بل كل ذرات الهواء المنتشرة في اقطار العالم تمتثل الاوامروتنقلها عبر اللاسلكي والهاتف والبرقية، فضلاً عن نقلها سائر السيالات اللطيفة كالكهرباء. فلقد شاهدت بالحدس القطعي بل بالمشاهدة الحقة احدى وظائفها – مما سوى المذكورة – في ازاهير اللوز،وهي: ان الاشجار المنتشرة في اقطار الارض كأنها جيش منظم يستلم الامر نفسه في آن واحد. فبمجرد هبوب نسيم رقيق تستلم الامر من تلك الذرات، وتظهر وضعاً معيناً . مما اورثتني تلك الحالة يقيناً تاماً وقناعة كاملة. بمعنى ان قيام الهواء في سطح الارض كخادم امين نشط فعال، يخدم ضيوف الرحمن

الرحيم الذين يسكنون سطح الارض، يبلّغ في الوقت نفسه أوامر الرحمن بذراته الشبيهة باللاسلكي الى النباتات والحيوانات، بحيث تكون ذراته كلها في حكم خدّام الامر وشبيهة بلا قطات اللاسلكي والهاتف. وفي الوقت نفسه يؤدي بأمر «كن» مهمات جليلة ووظائف منتظمة كثيرة، من امثال تشكيل الحروف في الفم بعد خروجه منه، وتهوية الانفاس واستورواح النفوس، اي بعد ادائه وظيفة تنقية الدم الباعث على الحياة ،واشعال الحرارة الغريزية التي هي وقود الحياة، ثم يخرج الهواء من الفم ويكون مبعث نطق الحروف وانطلاقها.. وهكذا تجري وظائف كثيرة بأمر «كن فيكون».

فبناء على خاصية الهواء هذه، فان الحروف التي هي موجودات هوائية كلما اكتسبت قداسة، اي اتخذت اوضاع البث والالتقاط يصبح لها حظ وافر من تلك الخاصية.

لذا فلكون حروف القرآن، وهي في حكم العقد، وحروف المقطعات في حكم المركز لرؤوس تلك المناسبات الخفية، وفي حكم عقدها وازرارها الحساسة، يكون وجودها الهوائي مالكاً لهذه الخاصية، كما ان وجودها الذهني، بل وجودها النقشي ايضاً ، لهما خاصية من تلك الخاصية.

اي يمكن بقراءة تلك الحروف وبكتابتها كسبَ الشفاء – كالدواء المادي – والحصول على مقاصد اخرى.

سعيد النورسي

« الكلمات الإلهية »

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

﴿ قُل لَو كان البحرُ مِداداً لكلمات ربّي لَنَفِد البحرُ قبل ان تَنفَدَ كلماتُ ربّي ولو جئنا بمثله مَدداً ﴾ (الكهف:١٠٩)

ان هذه الآية اللطيفة بحر واسع رفيع زاخر باللآلئ والدرر، ينبغي لكتابة جواهرها النفيسة كتابة مجلد ضخم، لذا نعلقها الى وقت آخر بمشيئة الله. ولقد تراءى لي من بعيد شعاع صدر من نكتة من نكاتها الدقيقة، فلفت نظر فكري اليه بعد اذكار الصلاة التي اعدّها افضل وقت لخطور الحقائق. الاّ أنني لم اتمكن من تسجيل تلك النكتة في حينه، فتباعد ذلك الشعاع كلما مرّ الزمان، فنذكر هنا بضع كلماتٍ لتخط حوله دوائر لاقتناص جلوة منها قبل ان يغيب كلياً ويتوارى عن الانظار.

الكلمة الأولى:

ان الكلام الازلي صفة إلهية، كالعلم والقدرة، لذا فهو غير محدد وغير متناهٍ، والذي لا نهاية له لا ينفد ولو كان البحر مداداً له.

الكلمة الثانية:

ان اظهر شئ للإشعار بوجود شخص ما هو تكلمه، فهو أقوى أثر للدلالة عليه؛ اذ سماع كلام صادر من شخص ما، يثبت وجوده اثباتاً يفوق الف دليل، بل بدرجة الشهود. لذا فان هذه الآية تقول بمعناها الاشاري:

لو كان البحر مداداً لعدّ الكلام الإلهي الدال على وجوده سبحانه وتعالى وكانت الاشجار اقلاماً تكتب ذلك العدد، ما نفد كلام الله. بمعنى أن ما يدل على الأحد الصمد – دلالة الكلام على المتكلم – لا يعدّ ولا يحصى ولا حدّ له، حتى لو كانت البحار مداداً له.

الكلمة الثالثة:

لما كان القرآن الكريم يرشد جميع الطبقات البشرية الى حقائق الايمان، يكرر ظاهراً الحقيقة الواحدة بمقتضى تقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة وإقناعهم.

لذا فهذه الآية الكريمة جواب ضمني لأهل العلم وعلماء اليهود من اهل الكتاب في ذلك الوقت، على اعتراضهم المجحف الظالم ظلماً بيّناً على أُمية الرسول العظيمﷺ وعلى قلة علمه.

فالآية تقول: ان تكرار المسائل الجليلة التي لكل منها قيمة الف مسألة وتتضمن الوفاً من الحقائق - كما هي في مسائل الاركان الايمانية - تكراراً معجزاً وبأساليب شتى، وان تكرار حقيقة واحدة وهي تتضمن كثيراً جداً من النتائج من حيث الفوائد المتنوعة، لإقرارها في قلوب الناس كافة ولا سيما العوام.. هذا التكرار الذي تقتضيه حكمٌ كثيرة - كالتقرير والاقناع والتحقيق - لا يعدّ حصراً للكلام ولا هو نابع من قصور الذهن ولا من قلة البضاعة وقصر الباع، بل لو كانت البحار مداداً، وذوو الشعور كتّاباً والنباتات اقلاماً، بل حتى الذرات لو كانت رؤوس اقلام وقامت كلها بعدّ كلمات الكلام الإلهي الازلي، ما نفدت ايضاً، لأن كل ما ذكر من امور هي متناهية، وكلمات الله غير متناهية، وهي منبع القرآن الكريم المتوجه الى عالم الشهادة من عالم الغيب مخاطباً الجن والانس والملائكة والروحانيين، فيرنّ في اسماع كل فرد منهم. ولا غرو فهو النازل من خزينة الكلام الإلهي الذي لا ينفد.

الكلمة الرابعة:

من المعلوم ان صدور كلامٍ مما لا يُتوقع منه الكلام، يمنح الكلام اهمية ويدفع الى سماعه، ولا سيما الاصداء الشبيهة بالكلام، الصادرة من الاجسام الضخمة كالسحاب وجوّ السماء، فانها تحمل كل احد على سماعها باهتمام بالغ، وبخاصة النغمات التي يطلقها جهاز ضخم ضخامة الجبل فانها تجلب الاسماع اليها اكثر. ولا سيما الصدى السماوي القرآني الذي يبث - بالراديو - فترن به السموات العلىٰ حتى تسمع هامة الكرة الارضية برمتها. فتصبح ذرات الهواء بمثابة لاقطات تلك الحروف القرآنية ومراكز بثّها. فتكون الذرات بمثابة المرايا العاكسة للانوار والاذان الصاغية

للأصداء، والألسنة الذاكرة لها، وكأنها نهايات إبر لجهاز حاك عظيم تخرج الاصوات.

فالآية تبين رمزاً مدى اهمية الحروف القرآنية ومدى قيمتها ومزاياها وكونها نابضة بالحياة، فتقول بمعناها الاشاري: ان القرآن الكريم الذي هو كلام الله، حي يتدفق بالحيوية، رفيع سام الى حدّ لا ينفد عدد الاسماع التي تنصت اليه ولا عدد الكلمات المقدسة التي تدخل تلك الاسماع.. لا تنفد تلك الاعداد حتى لو كانت البحار مداداً والملائكة كتّاباً لها والذرات نقاطاً والنباتات والشعور اقلاماً.

نعم، لا تنفد، لان الله سبحانه الذي يُكثر في الهواء عدد ما لا روح فيه ولا حياة من كلام الانسان الضعيف،الى الملايين فكيف بعدد كل كلمة من كلام رب السموات والارض الذي لا شريك له والمتوجه الى جميع ذوي الشعور في السموات والارضين.

الكلمة الخامسة: عبارة عن حرفين:

الحرف الاول: كما أن لصفة الكلام كلمات، كذلك لصفة القدرة كلمات مجسمة. ولصفة العلم كلمات قَدَرية حكيمة وهي الموجودات ولاسيما الأحياء ولاسيما المخلوقات الصغيرة، فكل منها كلمة ربانية بحيث تشير الى المتكلم الازلي اشارة اقوى من الكلام. فهذه الآية الكريمة تومئ الى هذا المعنى: ان إحصاء عدد تلك المخلوقات لا ينفد حتى لو كانت البحار مداداً له.

الحرف الثاني: ان جميع انواع الالهام الآتي الى الملائكة والانسان وحتى الى الحيوانات، نوع من كلام إلهي. فلاشك ان كلمات هذا الكلام غير متناهية. فان الآية الكريمة تخبرنا عن مدى كثرة ولا نهائية عدد كلمات الالهام والامر الإلهي الذي يستلهمه دوماً ما لايعد ولا يحصى من جنود رب السموات والارض.

والعلم عند الله .. ولا يعلم الغيب إلا الله

« انزال الحديد »

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ وأنزلْنا الحديدَ فيه بأسٌ شَديدٌ وَمَنافعُ للنّاس ﴾(الحديد:٢٥)

جواب مهم جداً ومختصر عن سؤال يخص هذه الاية الكريمة، طرحه رجل له اهميته وعلى علم واسع، وألزم به بعض العلماء.

سؤال:

يقال: ان الحديد يخرج من الارض ولا ينزل من السماء حتى يقال: «انزلنا». فلِمَ لم يقل القران الكريم: «اخرجنا» بدلاً عن «انزلنا» الذي لا يوافق الواقع ظاهراً؟

الجواب: ان القرآن الكريم قد قال كلمة « انزلنا» لأجل التنبيه الى جهة النعمة العظيمة التي ينطوي عليها الحديد والتى لها اهميتها في الحياة..فالقرآن الكريم لا يلفت الانظار الى مادة الحديد نفسها ليقول «اخرجنا» بل يقول «انزلنا» للتنبيه الى النعمة العظيمة التي في الحديد والى مدى حاجة البشر اليه. وحيث ان جهة النعمة لا تخرج من الاسفل الى الاعلى بل تأتى من خزينة الرحمة، وخزينة الرحمة بلا شك عالية وفي مرتبة رفعية معنى، فلا بد ان النعمة تنزل من الاعلى الى الاسفل، وان مرتبة البشر المحتاج اليها في الاسفل، وان الإنعام هو فوق الحاجة. ولهذا فالتعبير الحق الصائب لورود النعمة من جهة الرحمة اسعافاً لحاجة البشر هو: «انزلنا» وليس «اخرجنا».

ولما كان الاخراج التدريجي يتم بيد البشر، فان كلمة «الاخراج» لا يُشعر جهة النعمة ولا يجعلها محسوسةً بأنظار الغافلين.

نعم لو كانت مادة الحديد هي المرادة، فالتعبير يكون « الاخراج» باعتبار المكان المادي. ولكن صفات الحديد، والنعمة التي هي المعنى المقصود هنا، معنويتان،؛ لذا لا يتوجه هذا المعنى الى المكان المادي، بل الى المرتبة المعنوية.

فالنعمة الآتية من خزينة الرحمة التي هي احدى تجليات مراتب سمو الرحمن ورفعته غير المتناهية ترسل من اعلى مقام الى اسفل مرتبة بلاشك ؛ لذا فالتعبير الحق لهذا هو: انزلنا. والقرآن الكريم ينبه البشر بهذا التعبير الى ان الحديد نعمة إلهية عظيمة. نعم، ان الحديد هو منشأ جميع الصناعات البشرية ومنبع جميع رقيها ومحور قوتها، فلاجل التذكير بهذه النعمة العظمى يذكر القرآن بكل عظمة وهيبة وفي مقام الامتنان والإنعام قائلاً : ﴿ **وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾ كما يعبّر عن اعظم معجزة لسيدنا داود عليه السلام بقوله تعالى ﴿ **وألنّا له الحديد** ﴾. اي انه يبين تليين الحديد معجزة عظيمة ونعمة عظيمة لنبي عظيم.

ثانياً: ان « الاعلى » و« الاسفل » تعبيران نسبيان، فيكون الاعلى والاسفل بالنسبة الى مركز الكرة الارضية. حتى ان الذي هو اسفل بالنسبة الينا هو الاعلى بالنسبة لقارة امريكا. بمعنى ان المواد الاتية من المركز الى سطح الارض تتغير اوضاعها بالنسبة الى من هم على سطح الارض.

فالقرآن المعجز البيان يقول بلسان الاعجاز: ان للحديد منافع كثيرة وفوائد واسعة، بحيث انه ليس مادة اعتيادية تخرج من مخزن الارض التي هي مسكن الانسان، وليس هو معدناً فطرياً يستعمل في الحاجات كيفما اتفق. بل هو نعمة عظيمة أنزلها خالق الكون بصفته المهيبة « رب السموات والارض » انزلها من خزينة الرحمة وهيأها في المصنع العظيم للكون، ليكون مداراً لحاجات سكنة الارض. فعبّر عنه بالانزال قائلاً ﴿ **وانزلنا الحديد** ﴾ لأجل بيان المنافع العامة التي ينطوي عليها الحديد وفوائده الشاملة، كما للحركة والحرارة والضياء الآتي من السماء فوائد. تلك التي ترسل من مصنع الكون. فالحديد لا يخرج من المخازن الضيقة لكرة الارض، بل هو في خزينة الرحمة التي هي في قصر الكون العظيم ثم ارسل الى الارض ووضع في مخزنها كيما يمكن استخراجه من ذلك المخزن حسب حاجة العصور تدريجياً.

فلا يريد القرآن الكريم ان يبين استخراج الحديد هذا تدريجياً من هذا المخزن الصغير، الارض. بل يريد ان يبين ان تلك النعمة العظمى قد انزلت من الخزينة الكبرى للكون مع كرة الارض، وذلك لاظهار الحديد انه هو اكثر ضرورة لخزينة الارض. بحيث ان الخالق الجليل عندما فصل الارض من الشمس انزل معها الحديد

ليحقق اكثر حاجات البشر ويضمنها. فالقرآن الحكيم يقول باعجاز، ما معناه: انجزوا بهذا الحديد اعمالكم واسعوا للاستفادة منه باخراجه من باطن الارض.

وهذه الآية الجليلة تبين نوعين من النعم التي هي محور لدفع الاعداء وجلب المنافع. ولقد شوهد تحقق منافع الحديد المهمة للبشرية قبل نزول القرآن، إلاّ ان القرآن يبين ان الحديد سيكون في المستقبل في صور تحيّر العقول سيراً في البحر والهواء والارض حتى انه يسخّر الارض ويظهر قوة خارقة تهدد بالموت، وذلك بقوله تعالى ﴿ **فيه بأس شديد** ﴾ مظهراً لمعة اعجاز في إخبار غيبي.

* * *

عندما تطرق البحث عن النكتة السابقة انفتح الكلام حول هدهد سليمان. فيسأل احد اخواننا الذي يلح في السؤال[١]: ان الهدهد يصف الخالق الكريم سبحانه بقوله ﴿ **يخرج الخبء في السمٰوات والارض** ﴾(النمل:٢٥) فما سبب ذكره في هذا المقام الجليل هذا الوصف الرقيق بالنسبة الى الاوصاف الجليلة؟.

الجواب: ان احدى مزايا الكلام البليغ هو ان يُشعر الكلامُ صنعةَ المتكلم التي ينشغل بها. فهدهد سليمان الذي يمثل عريف الطيور والحيوانات كالبدوي العارف الذي يكشف بالفراسة الشبيهة بالكرامة مواضع الماء الخفية في صحراء جزيرة العرب الشحيحة بالماء. فهو طير ميمون مأمور بايجاد الماء ويعمل عمل المهندس لدى سيدنا سليمان عليه السلام، فلذلك يثبت بمقياس صنعته الدقيقة، كون الله معبوداً ومسجوداً له، باخراجه سبحانه ما خبئ في السماوات والارض، فيعرّف اثباته هذا بصنعته الدقيقة.

ألا ما أحسن رؤية الهدهد! اذ ليس من مقتضى فطرة ما تحت التراب من المعادن والنوى والبذور التي لا تحصى، ان تخرج من الاسفل الاعلى. لأن الاجسام الثقيلة التي لا روح لها ولا اختيار لا تصعد بنفسها الى الاعلى، وانما تسقط من الاعلى الى الاسفل. فاخراج جسم مخفي تحت التراب، من الاسفل الى الاعلى ونفض التراب الثقيل الجسيم من على كاهله الجامد لا بد ان يكون بقدرة خارقة لا بذاته. فادرك الهدهد أخفى براهين كون الله تعالى معبوداً ومسجوداً له وكشفها بعارفيته ووجد أهم تلك البراهين بصنعته، والقرآن الحكيم منح اعجازاً بالتعبير عنه.

---

(١) هو «رأفت» الغيور في طرح الاسئلة والمتكاسل في كتابة الرسائل.—المؤلف.

« انزال الأنعام »

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ وأنزلَ لكُم من الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ يَخْلُقُكُم في بُطونِ أُمّهاتِكُم خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خلقٍ في ظُلُماتٍ ثَلـٰـث . . ﴾ (الزمر:٦)

ان هذه الآية الكريمة تتضمن النكتة نفسها التي بينّاها في الآية الكريمة: ﴿ وانزلنا الحديد ﴾ فهي تؤيدها وتتأيد بها في الوقت نفسه.

نعم، ان القرآن الكريم يقول في سورة الزمر: ﴿ وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج ﴾ ولا يقول: « وخلق لكم من الانعام ثمانية ازواج » وذلك للإفادة بان ثمانية ازواج من الحيوانات المباركة قد انزلت لكم وارسلت اليكم من خزينة الرحمة الإلهية وكأنها مرسلة من الجنة، لان تلك الحيوانات المباركة نعمة بجميع جهاتها للبشرية كافة. فمن أشعارها واوبارها يستفيد البدو في حلّهم وترحالهم، ومنها تنسج الملابس، ومن لحومها تهيأ ألذّ المأكولات، ومن ألبانها تستخرج أطيب الاطعمة، ومن جلودها تصنع الاحذية والنعال وغيرها من المواد النافعة، حتى ان روثها يكون رزقاً للنباتات ووقوداً للانسان. فكأن تلك الحيوانات المباركة قد تجسمت واصبحت النعمة بعينها والرحمة بنفسها. ولهذا أُطلق عليها اسم « الأنعام » مثلما اطلق على المطر اسم « الرحمة ». فكأن الرحمة قد تجسمت مطراً والنعمة تجسدت في صور شتى من اشكال المعزى والضأن والبقر والجاموس والابل.

وعلى الرغم من ان موادها الجسمانية تُخلق في الارض، فان صفة النعمة ومعنى الرحمة قد غلبتا واستحوذتا على مادتها، فعبّر القرآن عنها بـ « انزلنا » الذي يفيد: ان الخالق قد أنزل هذه الحيوانات المباركة من خزينة الرحمة مباشرة، اي ان الخالق الرحيم قد ارسلها من مرتبة رحمته الرفيعة، ومن جنته المعنوية العالية، هدية الى وجه الارض بلا وساطة.

نعم، تُدرج احياناً صنعةٌ تقدّر بخمس ليرات في مادة لا تساوي خمسة قروش، فلا تؤخذ مادة الشئ بنظر الاعتبار، بل تعطى الاهمية للصنعة الموجودة عليها، كالصنعة الربانية العظيمة الموجودة في الجرم الصغير للذباب. واحياناً تكون صنعة زهيدة في مادة ثمينة، فالحكم عندئذٍ للمادة.

على غرار هذا المثال: فان مادة جسمانية قد تحمل من معاني الرحمة ومعاني النعمة الكثيرة بحيث تفوق مائة مرة في الاهمية على مادتها. حتى لكأن مادة ذلك الشئ تختفي وتنزوي امام عظم اهمية النعمة والرحمة، لذا فالحكم هنا يتوجه الى حيث النعمة.

وكما تخفي المنافع العظيمة للحديد وفوائده الكثيرة مادته المادية، فان النعمة الموجودة في كل جزء من اجزاء هذه الحيوانات المباركة المذكورة كأنها قد قلبت مادتها الجسمانية الى نعمة، فأُخذت صفاتها المعنوية بنظر الاعتبار دون مادتها الجسمانية. لذا عُبّرت عنها في الاية الكريمة «**وانزل ... وانزلنا**».

نعم، ان عبارة «وانزل.. وانزلنا» كما تفيد النكات السابقة من حيث الحقيقة فانها تفيد ايضاً معنى بلاغياً مهماً إفادة معجزة. وذلك :

ان منح الحديد خواص مميزة، كوجوده في كل مكان، وسهولة تليينه كالعجين، نعمة إلهية. حيث يمكن الحصول عليه واستعماله في كل عمل رغم صلابته واختفائه ووجوده في الاعماق فطرة، لذا فان التعبير بـ ﴿**وانزلنا الحديد**﴾ انما يبين هذا المعنى اي كأن الحديد نعمة من النعم الفطرية السماوية التي يمكن الحصول عليها بيسر، وكأن مادة الحديد تنزل من مصنع علوي رفيع وتسلّم بيد الانسان بسهولة.

وكذلك الحيوانات الضخمة كالبقر والجاموس والابل وغيرها من المخلوقات الجسيمة، مسخّرة وذليلة ومطيعة ومنقادة حتى لصبي صغير، اذ تسلم قيادها له وتطيعه. لذا فالتعبير بـ ﴿**وانزل لكم من الانعام**﴾ يفيد ان هذه الحيوانات المباركة ليست حيوانات دنيوية تستوحش منّا وتلحق بنا الضرر كالبعوض والحية والعقرب والذئب والسبع وما شابهها من الضوارى المفترسة، بل كأنها حيوانات آتية من جنة معنوية، لها منافع جليلة، ولا يأتي منها ضرر، بل كأنها تنزل من الاعلى ، اي من خزينة الرحمة.

ولعل المقصود من قول بعض المفسرين: ان هذه الحيوانات قد أُنزلت من الجنة ناشئ من هذا المعنى المذكور[١].

ان كتابة صحيفة كاملة حول ايضاح ما في حرف واحد من القرآن الكريم من مسائل ونكات لا تعد اطناباً، فليس اذن من الاسراف في شئ كتابتنا ثلاث صفحات لبيان نكات العبارة القرآنية «انزلنا». بل قد يكون احياناً حرف واحد من القرآن الكريم مفتاحاً لخزينة معنوية عظيمة.

***

دستور

ان طلاب النور لا يتحرّون عن نورٍ خارج دائرة رسائل النور، وما ينبغي لهم. ولو تحرّى أحدٌ منهم فلا يجد الاّ مصباحاً بدلاً من شمس معنوية تضئ من نافذة رسائل النور، بل قد يفقد الشمس.

ثم ان ما في دائرة رسائل النور من مشرب الخلة ومسلك الاخوة، هذا المشرب الخالص والمسلك القوي الذي يُكسب الفرد الواحد ارواحاً كثيرة ويُظهر سراً من اسرار الاخوة التي ورثها الصحابة الكرام من نور النبوة، هذا المشرب لا يدع حاجة الى البحث عن المرشد الوالد في الخارج – مع إضرار به بثلاث جهات – بل يوجِد له بدلاً من الوالد المرشد الواحد، اخواناً كباراً كثيرين. فلاشك ان ما تسبغه انواع الشفقة النابعة من قلوب اخوة كبار، يزيل شفقة الوالد الواحد.

نعم، ان الذي اتخذ لنفسه شيخاً قبل دخوله الدائرة يمكنه ان يحافظ على رابطته بشيخه ومرشده ضمن الدائرة ايضاً، ولكن من لم يكن له شيخ بعد الدخول في الدائرة، ليس له ان يتخذ شيخاً إلاّ ضمن الدائرة.

---

(١) لقد قال بعض المفسرين : ان مبادى هذه الحيوانات قد أتت من السموات. ومرادهم في ذلك: ان بقاء هذه الحيوانات المسماة بالأنعام، انما هو بالرزق، وان ارزاقها هي الاعشاب والنباتات، ورزق الاعشاب آت من المطر، والمطر باعث على الحياة ورحمة نازلة من السماء، فالرزق آت من السموات. والآية الكريمة ﴿ **وفي السماء رزقكم** ﴾(الذاريات:٢٢) تشير الى هذا المعنى. اذ لما كانت ادامة اجسام الحيوانات المتجددة هي بالمطر النازل من السموات، فان التعبير بـ «انزلنا» هو في موضعه اللائق – المؤلف.

ثم ان ما في درس رسائل النور للحقائق من علم الحقيقة الذي يمنح فيض الولاية الكبرى النابعة من سر الوراثة النبوية، لا يدع حاجة الى الانتماء الى الطرق الصوفية خارج الدائرة، إلا من فهم الطريقة على غير وجهها وكأنها رؤى جميلة وخيالات وانوار وأذواق، ويرغب في الحصول على اذواق الدنيا وهوساتها مما سوى فضائل الآخرة، ويطلب مقام المرجعية كعبدة النفس. ان هذه الدنيا دار حكمة. والأجر والثواب فيها على قدر المشقات والتكاليف، وهي ليست دار مكافأة وجزاء. ولهذا لا يهتم اهل الحقيقة بالاذواق والانوار التي في الكشف والكرامات، بل قد يفرّون منها ويريدون سترها.

ثم ان دائرة رسائل النور دائرة واسعة جداً، وطلابها كثيرون جداً، فلا تعقب الذين يهربون منها، ولا تهتم بهم. وربما لا تدخلهم ضمن دائرتها مرة اخرى. لأن الانسان يملك قلباً واحداً والقلب الواحد لا يمكن أن يكون في داخل الدائرة وخارجها معاً.

ثم ان الراغبين في ارشاد الآخرين ممن هم خارج دائرة النور،عليهم الاّ ينشغلوا بطلاب النور لأن احتمال خسرانهم بثلاث جهات وارد. فالطلاب الذين هم في دائرة التقوى ليسوا بحاجة الى الارشاد، علماً ان في الخارج الكثيرين من تاركي الصلاة، فترك اولئك والانشغال بهؤلاء المتقين ليس من الارشاد في شئ. فان كان ممن يحب هؤلاء الطلاب فليدخل اولاً ضمن الدائرة، وليكن لهم أخاً، وان كان ذو مزايا وفضائل فليكن لهم اخاً كبيراً.

ولقد تبيّن في هذه الحادثة ان للانتساب الى رسائل النور اهمية عظيمة وثمناً غالياً جداً، فالراشد الذي بذل هذه التضحيات وجاهد الالحاد باسم العالم الاسلامي، لا يترك هذا المسلك الذي هو أثمن من الألماس ولا يستطيع ان يدخل مسالك اخرى غيره.

سعيد النورسي

فقرة

كتبت في سجن «اسكي شهر»

اخوتي!

لقد دافعتُ دفاعات عديدة عن طلاب النور بما يليق بهم من دفاع، وسأقولها باذن الله في المحكمة وبأعلى صوتي، وسأُسمع صوت رسائل النور ومنزلة طلابها الى الدنيا بأسرها. الاّ أنني انبهكم الى ما يأتي:

ان شرط الحفاظ على ما في دفاعي من قيمة، هو عدم هجر رسائل النور بمضايقات هذه الحادثة وامثالها، وعدم استياء الأخ من استاذه، وعدم النفور من اخوانه مما يسببه الضيق والضجر، وعدم تتبع عورات الآخرين وتقصيراتهم.

انكم تذكرون ما اثبتناه في رسالة القدر: ان في الظلم النازل بالانسان جهتين وحكمين.

الجهة الأولى: للانسان. والاخرى: للقدر الإلهي

ففي الحادثة الواحدة يظلم الانسان فيما يعدل القدر وهو العادل.

فعلينا ان نفكر – في قضيتنا هذه – في عدالة القدر الإلهي والحكمة الإلهية اكثر مما نفكر في ظلم الانسان.

نعم! ان القدر قد دعا طلاب النور الى هذا المجلس. وان حكمة ظهور الجهاد المعنوي قد ساقتهم الى هذه المدرسة اليوسفية التي هي حقاً ضجرة وخانقة، فصار ظلم الانسان وسيلة لذلك.

ولهذا، اياكم ان يقول بعضكم لبعض: «لو لم افعل كذا لما اعتقلت».

سعيد النورسي

***

« شرف الرسائل الرفيع »

اخوانى !

لقد أُخطر الى قلبى: كما ان المثنوى الرومى قد اصبح مرآة لحقيقة واحدة من الحقائق السبع المفاضة من نور شمس القرآن الكريم، فاكتسب منزلة سامية وشرفاً رفيعاً حتى اصبح مرشداً خالداً لكثير من اهل القلب فضلاً عن المولويين. كذلك رسائل النور ستنال باذن الله شرفاً رفيعاً سامياً بسبع جهات، وستكون لدى اهل الحقيقة بمثل مرشدة خالدة رائدة باقية بسبعة اضعاف المثنوى الرومى. لأنها تمثل الانوار السبعة لنور شمس القرآن الكريم والالوان السبعة المتنوعة في ضيائها، تمثلها دفعة واحدة في مرآتها.

سعيد النورسي

* * *

« لطمة رحمة »

اخوتى !

لقد ادركت ان التى نزلت بنا – مع الاسف – هى لطمة رحمة. ادركتها منذ حوالى ثلاثة ايام وبقناعة تامة. حتى اننى فهمت اشارة من الاشارات الكثيرة للآية الكريمة الواردة بحق العاصين لله، فهمتها كأنها متوجهة الينا وتلك الآية الكريمة هى: ﴿ **فلما نسوا ما ذكّروا به...... اخذناهم** ﴾[1] اى: لما نسي الذين ذُكّروا بالنصائح، ولم يعملوا بمقتضاها .. اخذناهم بالمصيبة والبلاء.

نعم، لقد كُتّبنا مؤخراً رسالة تخص سر الاخلاص، وكانت حقاً رسالة رفيعة سامية، ودستوراً اخوياً نورانياً، بحيث ان الحوادث والمصائب التى لايمكن الصمود تجاهها الاّ بعشرة الآف شخص ، يمكن مقاومتها – بسر ذلك الاخلاص – بعشرة اشخاص فقط. ولكن أقولها آسفاً: اننا لم نستطع وفي المقدمة أنا، ان نعمل بموجب ذلك التنبيه المعنوى، فأخذتنا هذه الآية الكريمة – بمعناها الاشارى – فابتلي قسم منا بلطمة تأديب ورحمة ، بينما لم تكن لطمة تأديب لقسم آخر بل مدار سلوان لهم، وليكسبوا بها لأنفسهم الثواب.

---

(١) نص الآية الكريمة : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما اوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون** ﴾ (الانعام:٤٤)

نعم، اننى لكونى ممنوعاً عن الاختلاط منذ ثلاثة شهور لم استطع ان اطلع على احوال اخوانى الاّ منذ ثلاثة أيام، فلقد صدر - مالا يخطر ببالى قط- ممن كنت احسبهم من اخلص اخوانى اعمالٌ منافية لسر الاخلاص. ففهمت من ذلك ان معنىً اشارياً للآية الكريمة ﴿ **فلما نسوا ما ذكّروا به.... اخذناهم** ﴾ يتوجه الينا من بعيد.

ان هذه الآية الكريمة التى نزلت بحق اهل الضلال مبعث عذاب لهم، هي لطمة رحمة وتأديب لنا؛ لتربية النفوس وتكفير الذنوب وتزييد الدرجات. والدليل على أننا لم نقدر قيمة ما نملك من نعمة إلهية حق قدرها هو: اننا لم نقنع بخدمتنا القدسية برسائل النور المتضمنة لأقدس جهاد معنوى، ونالت الولاية الكبرى بفيض الوراثة النبوية وهى مدار سر المشرب الذى تحلى به الصحابه الكرام. وان الشغف بالطرق الصوفية التي نفعها قليل لنا في الوقت الحاضر، واحتمال إلحاقها الضرر بوضعنا الحالى ممكن،قد سُدّ امامه بتنبيهي الشديد عليه.. والاّ لأفسد ذلك الهوى وحدتنا، وادّى الى تشتت الافكار الذى ينزل قيمة الترابط والتساند من ألف ومائة وأحد عشر الناشئة من اتحاد أربعة آحاد، ينزلها الى قيمة أربعة فحسب، وادّى الى تنافر القلوب الذى يبدّد قوتنا إزاء هذه الحادثة الثقيلة ويجعلها أثراً بعد عين.

اورد الشيخ سعدى الشيرازى [1] صاحب كتاب «گلستان» ما مضمونه:

لقد رأيت أحد المتقين من أهل القلب في زاوية «التكية» يزاول السير والسلوك، ولكن بعد مضى بضعة ايام شاهدته في المدرسة بين طلاب العلوم الشرعية، فسألته: لِمَ تركت الزاوية التى تفيض الانوار واتيت الى هذه المدرسة؟ قال: هؤلاء النجباء ذوو الهمم العالية يسعون لإنقاذ الآخرين مع انقاذهم لأنفسهم بينما اولئك يسعون لإنقاذ أنفسهم وحدها إن وفقوا اليها. فالنجابة وعلو الهمة لدى هؤلاء والفضيلة والهمة عندهم، ولأجل هذا جئت الى هنا. هكذا سجل الشيخ سعدى خلاصة هذه الحادثة في كتابه «گلستان».

فلئن رُجّحت المسائل البسيطة للنحو والصرف التى يقرأها الطلاب مثل: نصر،

---

(١) السعدي «شيخ مصلح الدين» من شعراء الصوفية الكبار، ومن أرقهم تعبيراً، ولد في مدينة «شيراز»، قدم بغداد استكمالاً لدراساته في علوم الدين في المدرسة النظامية، كان من مريدي الشيخ عبدالقادر الكيلاني، قضى ثلاثين سنة من عمره في الاسفار ونظم الشعر، وكتابه «گلستان» مشهور. — المترجم.

نصرا، نصروا.. على الاوراد التى تُذكر في الزوايا، فكيف برسائل النور الحاوية على الحقائق الايمانية المقدسة في «آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر». ففي الوقت الذى ترشد رسائل النور الى تلك الحقائق باوضح صورة واكثرها قطعية وثبوتاً حتى لأعتى المعاندين المكابرين من الزنادقة وأشد الفلاسفة تمرداً، وتلزمهم الحجة، كم يكون على خطأ من يترك هذه السبيل او يعطلها او لايقنع بها ويدخل الزوايا المغلقة دون استئذان من الرسائل تبعاً لهواه! ويبين في الوقت نفسه مدى كوننا مستحقين لهذه الصفعة، صفعة الرحمة والتأديب.

سعيد النورسى

***

تنبيه

حكايتان صغيرتان

الحكاية الأولى: عندما كنت اسيراً في شمالي روسيا قبل خمسة أعوامٍ [١] في قاعة مصنع كبير، مع تسعين من ضباطنا، كانت المناقشات تحتد والاصوات تتعالى نتيجة الضجر وضيق المكان. وكنت اهدّئهم حيث كانوا جميعاً يحترمونني. ثم عينت خمساً من الضباط لإقرار الهدوء وقلت لهم: اذا سمعتم الضوضاء في أية ناحية اسرعوا اليها، وعاونوا الجهة غير المحقة. وحقاً لقد انتهت الضوضاء نتيجة هذا العمل. فسألوني: لِمَ قلت: عاونوا غير المحق؟ وقد أجبتهم حينها: ان غير المحق، هو غير منصف، لا يدع درهماً من راحته لأربعين درهماً من راحة الجميع. اما المحق فيكون ذا انصاف يضحي براحته التي تعدل درهماً، لراحة صديقه التي تعدل اربعين درهماً. وبتخليه عن راحته هذه، تسكن الضوضاء وينتهي الصخب ويعم الهدوء. فيرتاح الضباط التسعون الساكنون في هذه القاعة. ولكن اذا مدّ المحقّ بقوة يزداد الصخب اكثر. ففي مثل هذه الحياة الاجتماعية تؤخذ المصلحة العامة بنظر الاعتبار.

(١) المقصود سنة ١٩١٦م.ـ المترجم.

فيا اخوتي!! لا يستاء بعضكم من بعض قائلاً: ان اخي هذا لم ينصفني او اجحف بحقي.. فهذا خطأ جسيم في هذه الحياة وفي اجتماعنا هذا. فلئن اضرك صاحبك بدرهم من الضرر، فانك بإستيائك منه وهجرك اياه تلحق اربعين درهماً من الاضرار. بل يحتمل إلحاق اربعين ليرة من الاضرار برسائل النور. ولكن ولله الحمد فان دفاعاتنا الحقة القوية والصائبة جداً قد حالت دون أُخذ اصدقائنا الى الاستجواب واخذ افاداتهم المكررة، فانقطع دابر الفاسد. والاّ لكان الاستياء الذي وقع بين الاخوة يلحق بنا اضراراً جسيمة. كسقوط قشة في العين او سقوط شرارة في البارود.

الحكاية الثانية: كانت لعجوز ثمانية ابناء. اعطت لكل منهم رغيفاً دون ان تستبقي لها شيئاً. ثم ارجع كل منهم نصف رغيفه اليها. فاصبحت لديها اربعة ارغفة، بينما لدى كل منهم نصف رغيف.

اخوتي انني اشعر في نفسي نصف ما يتألم به كل منكم من آلام معنوية وانتم تبلغون الاربعين، انني لا ابالي بالآمي الشخصية. ولكن اضطررت يوماً فقلت: «أهذا عقاب لخطأي وأُعاقب به» فتحريت عن الحالات السابقة. فشاهدت انه ليس لدي شئ من تهييج هذه المصيبة واثارتها، بل كنت اتخذ منتهى الحذر لأتجنبها.

بمعنى ان هذه المصيبة قضاء إلهي نازل بنا.. فلقد دبّرت ضدنا منذ سنة من قبل المفسدين فما كان بطوقنا تجنبها، فلقد حمّلونا تبعاتها فلا مناص لنا مهما كنا نفعل.

فلله الحمد والمنة أن هوّن من شدة المصيبة من المائة الى الواحد.

بناء على هذه الحقيقة: فلا تمنّوا عليّ بقولكم: اننا نعاقب بهذه المصيبة من جرائك. بل سامحوني وادعوا لي.

ولا ينتقدن بعضكم بعضاً. ولا تقولوا: لو لم تفعل كذا لما حدث كذا.. فمثلاً ان اعتراف احد اخواننا عن عدد من اصحاب التواقيع (على الرسائل) انقذ الكثيرين. فهوّن من شأن الخطة المرسومة في اذهان المفسدين الذين يستعظمون القضية. فليس في هذا ضرر، بل فيه نفع عام عظيم. لانها اصبحت وسيلة لانقاذ الكثيرين من الابرياء.

سعيد النورسي

« نكتتان »

الفقرات التالية عبارة عن نكتتين:

الأولى: تخص الاخلاق، كتبت لمناسبة ظهور حالات غير مريحة في سجن اسكي شهر من جراء انقباض النفوس.

الثانية: نكتة لطيفة لآية كريمة لطيفة مشهورة الاّ انها ظلت مستورة.

النكتة الاولى:

ان من كمال الله سبحانه وسعة رحمته وطلاقة عدالته ان ادرج ثواباً ضمن اعمال البر، واخفى عقاباً معجلاً في اعمال الفساد والسيئات. فقد ادرج طي الحسنات لذائذ وجدانية معنوية بما يذكّر بنعم الآخرة، وادرج في ثنايا السيئات اعذبة معنوية بما يحسس بعذاب الآخرة الاليم.

فمثلاً: ان افشاء المحبة والسلام في صفوف المؤمنين، انما هو حسنة كريمة للمؤمن، فله ضمن هذه الحسنة لذة معنوية وذوقاً وجدانياً وانشراحاً قلبياً ما يذكّر بثواب الآخرة المادي. ومن يتفقد قلبه يشعر بهذا الذوق.

ومثلاً: ان بث الخصومة والعداء بين المؤمنين انما هو سيئة قبيحة. فهذه السيئة تنطوي على عذاب وجداني واي عذاب، بحيث يأخذ بخناق القلب والروح معاً، فكل من يملك روحاً حساسة وهمة عالية يشعر بهذا العذاب.

ولقد مررت بنفسي – طوال حياتي – بأكثر من مائة تجربة على هذا النوع من السيئات. فكنت كلما حملت عداء على اخ مؤمن تجرعت عذاب تلك العداوة، حتى لم يبق لي ريب من ان هذا العذاب انما هو عقاب معجل لسيئتي التي ارتكبتها. فاعاقب عليها واعذب بها.

ومثلاً: ان توقير الجديرين بالاحترام والتوقير وابداء العطف والرحمة لمن يستحقهما عمل صالح وحسنة للمؤمن. ففي هذه الحسنة تكمن لذة عظيمة ومتعة وجدانية الى حدٍ قد تسوق صاحبها الى التضحية حتى بحياته. فان شئت فانظر الى اللذة التي

تكسبها الوالدات من بذل شفقتهن لاولادهن، حتى أن الوالدة تمضي في سبيل تلك الرأفة والشفقة الى الجود بنفسها. بل ترى هذه الحقيقة واضحة حتى في عالم الحيوان، فالدجاجة تهاجم الاسد دفاعاً عن فراخها.

اذن ففي الاحترام والرأفة اجرة معجلة. يشعر بهذه اللذة اولئك الذين يملكون ارواحاً عالية ونفوساً ابية شهمة.

ومثلاً: ان في الحرص والاسراف عقوبة معنوية معجلة وجزاء قلبياً، اذ يجعل صاحبه ثملاً من كثرة الشكوى والقلق، فترى العقوبة نفسها بل اشد منها في الحسد والتنافس والغيرة، حتى ان الحسد يحرق صاحبه قبل غيره. وتنقلب الآية في التوكل والقناعة اذ فيهما ثواب واي ثواب بحيث انه يزيل آثار المصائب واوضار الفاقة والحاجة.

ومثلاً: ان الغرور والتكبر حمل ثقيل مقيت على كاهل الانسان، حيث انه يتعذب من رؤيته استثقال الآخرين له في الوقت الذي ينتظر منهم احترامه.

نعم! ان الاحترام والطاعة توهب ولا تطلب.

ومثلاً: ان في التواضع وترك الغرور والكبر لذة عاجلة ومكافأة آنية يخلص المتواضع من عبء ثقيل وهو التصنع والرياء.

ومثلا: ان في سوء الظن وسوء التأويل جزاء معجلاً في هذه الدنيا. حتى غدت «مَن دقّ دُقّ» قاعدة مطردة. فالذي يسيئ الظن بالناس يتعرض حتماً لسوء ظنهم. والذي يؤول تصرفات اخوانه المؤمنين تأويلاً سيئاً، لا محالة سيتعرض للجزاء نفسه في وقت قريب.

وهكذا فقس على هذا المنوال جميع الخصال الحسنة والذميمة.

نسأل الله الرحيم ان يرزق الذين يتذوقون طعوم الاعجاز القرآني المعنوي المنبعث من رسائل النور في زماننا هذا ذوق تلك اللذائذ المعنوية المذكورة، فلا تقرب اليهم بأذن الله الاخلاق الذميمة.

النكتة الثانيـة:

بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيْمِ

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ الاّ لِيَعْبُدون ۞ ما أُريد منهم مِن رزقٍ وما أُريد أن يُطْعِمون ۞ إنّ اللهَ هُو الرزّاقُ ذُو القُوّةِ المتينِ ﴾

(الذاريات: ٥٦-٥٨)

ان ظاهر معنى هذه الآية الكريمة لايبين الاسلوب الرفيع المنسجم مع بلاغة القرآن المعجزة، مثلما جاء في اغلب التفاسير. لذا كان يشغل فكري في كثير من الاحيان. فنبين ثلاثة أوجه اجمالاً، من بين المعاني الجميلة الرفيعة التي وردت من فيض القرآن الكريم.

الوجه الاول:

ان الله سبحانه يسند احياناً الى نفسه ما يمكن ان يعود الى رسوله الكريم ﷺ من حالات، وذلك تكريماً له وتشريفاً.

فها هنا كذلك، اذ المعنى المراد من الآية الكريمة المتﷺدرة، لابد ان يكون الاطعام والارزاق الذي يعود الى الرسول ﷺ، اي:

ان رسولي في ادائه مهمة الرسالة وتبليغه العبودية لله، لايريد منكم اجراً ولا اجرة ولاجزاءً ولا إطعاماً.. وإلاّ إن لم يكن المراد هذا المعنى لكان اعلاماً لمعلوم في منتهى البداهة، مما لا ينسجم وبلاغة القرآن المعجزة.

الوجه الثاني:

الانسان مغرم بالرزق كثيراً، ويتوهم ان السعي الى الرزق يمنعه عن العبودية، فلاجل دفع هذا التوهم، ولكي لا يُتخَذ ذريعة لترك العبادة تقول الآية الكريمة ﴿ **وما خلقت الجن والانس الاّ ليعبدون** ﴾ وتحصر الغاية من الخلق في العبودية لله، وان السعي الى الرزق – من حيث الامر الإلهي – عبودية لله ايضاً.

أما احضار الرزق لمخلوقاتي ولأنفسكم واهليكم وحتى رزق حيواناتكم فأنا الكفيل به. فأنتم لم تخلقوا له، فكل ما يخص الرزق والاطعام يخصني أنا وأنا الرزاق ذو القوة المتين.. فلا تحتجوا بهذا فتتركوا العبادة، فانا الذي ارسل رزق مَن يتعلق بكم من عبادي..

ولو لم يكن هذا المعنى هو المراد، لكان من قبيل اعلام المعلوم، لأن رزق الله سبحانه وتعالى واطعامه محال بديهي ومعلوم واضح. وهناك قاعدة مقررة في علم البلاغة تفيد:

ان كان معنى الكلام معلوماً وبديهياً، فلا يكون هذا المعنى مراداً، بل المراد لازمهُ او تابع من توابعه.

فمثلاً: ان قلتَ لاحدهم وهو حافظ للقرآن الكريم: انت حافظ. فهذا الكلام اعلامٌ بما هو معلوم لديه، فاذاً المراد منه هو: انني اعلم انك حافظ للقرآن، اي: أُعلِمهُ بما لايعلمه، وهو علمي أنه حافظ للقرآن.

فبناء على هذه القاعدة يكون معنى الآية التي هي كناية عن نفي رزق الله واطعامه هو:

انكم لم تخلقوا لإيصال الرزق الى مخلوقاتي التي تعهّدت انا برزقهم. فالرزق أنا به زعيم. فواجبكم الاساس هو العبودية، والسعي على وفق اوامري للحصول على الرزق، وهو بذاته نوع من العبادة.

الوجه الثالث:

ان المعنى الظاهري للآية الكريمة ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ في سورة الاخلاص، معلوم وبديهي. فيكون المقصود لازماً من لوازم ذلك المعنى. اي: ان الذين لهم والدة وولد لايكونون الهاً قطعاً.

فيقضي سبحانه وتعالى بقوله ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ الذي هو بديهي ومعلوم ويعني انه ازلي وابدي، لاجل نفي الالوهية عن سيدنا عيسى عليه السلام وعزير عليه السلام والملائكة والنجوم والمعبودات الباطلة.

فكما أن هذه الآية هكذا فهنا ايضاً يكون معنى الآية الكريمة ﴿ **ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون** ﴾ ان كل ما يُرزق ويُطعم وله استعداد للرزق والاطعام لايمكن ان يكون الهاً. فلا تليق الالوهية بمن هو محتاج الى الرزق والإطعام.

سعيد النورسي

* * *

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ أو هُم قائلون ﴾ (الاعراف: ٤)

لقد اهتم «رأفت» بمعنى كلمة «قائلون» الواردة في الآية الكريمة:

﴿ أوهم قائلون ﴾

فكُتب هذا البحث لمناسبة استفساره عنها، ولئلا يعطل قلمه الالماسي، بما يصيبه من انحلال في الجسم بسبب نومه بعد صلاة الفجر كالآخرين معه في السجن.

النوم على انواع ثلاثة:

الاول: الغيلولة:

وهي النوم بعد الفجر حتى انتهاء وقت الكراهة. هذا النوم مخالف للسنة المطهرة؛ اذ يورث نقصان الرزق، وزوال بركته، كما هو وارد في الحديث الشريف. حيث ان افضل وقت لتهيئة مقدمات السعي لكسب الرزق هو في الجو اللطيف، عقب الفجر، ولكن بعد مضيه يطرأ على الانسان خمول وانحلال، مما يضرّ بسعيه في ذلك اليوم، وبدوره يضر بالرزق، كما يسبب زوال بركته، وقد ثبت هذا بتجارب كثيرة.

الثاني: الفيلولة:

وهي النوم بعد صلاة العصر حتى المغرب، هذا النوم يسبب نقصان العمر، اي: يتناقص عمر الانسان مادياً في اليوم الذي يشوّب بالنوم المورث للغفلة؛ اذ يبدو ذلك اليوم قصيراً ناقصاً مثلما يكون قضاء وقت العصر بالنوم في حكم عدم رؤية نتائج معنوية لذلك اليوم، تلك النتائج التي تتظاهر على الاغلب في ذلك الوقت. فيكون الانسان كأنه لم يعش ذلك اليوم.

الثالث: القيلولة:

وهي سنة نبوية شريفة، ويبدأ وقتها من الضحى الى مابعد الظهر بقليل. ومع كون

هذا النوم من السنة المطهرة(١) فانه يعين على قيام الليل، وقد رسّخ هذه السنة النبوية ما اعتاد عليه اهل الجزيرة العربية من تعطيل نسبي للاعمال عند اشتداد الحر من الظهر حسب محيطهم. وهذا النوم يطيل العمر ويزيد الرزق؛ لان نصف ساعة من القيلولة يعادل ساعتين من نوم الليل، اي انه يزيد عمر يومه ساعة ونصف الساعة. وينقذ ساعة ونصف الساعة ايضاً من النوم الذي هو صنو الموت، ويحييها بتزييد وقت عمله كسباً للرزق، فيطيل زمن السعي والعمل.

سعيد النورسي

* * *

(١) عن انس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قيلوا فان الشياطين لاتقيل» حديث حسن اخرجه ابو نعيم في الطب ١/١٢ كما في الاحاديث الصحيحة، واخرجه الطبراني في الاوسط ٢٧٢٥، وقال الحافظ في الفتح ٧٠/١١ وفي سنده كثير بن مروان وهو متروك ورمز السيوطي لحسنه، وهو كما قال (انظر فيض القدير ٥٣١/٤ والمقاصد الحسنة ٥٦ وكشف الخفاء ٣٣٠ وصحيح الجامع الصغير برقم ٤٣٠٧. وعن انس رضي الله عنه قال: كنا نبكر بالجمعة ونقيل بعد الجمعة، اخرجه البخاري برقم ٩٠٥، ٩٤٠، وعن سهل بن ساعد قال: ما كنا نقيل ولانتغذى الاّ بعد الجمعة، اخرجه البخاري ٩٣٩. قال الحافظ في الفتح ٧٠/١١: اخرج سفيان بن عيينة في جامعه من حديث خوان بن جبير رضي الله عنه موقوفاً قال: نوم اول النهار حرق واوسطه خلق واخره حمق. وانظر الفتح ٤٢٨/٢ انهم كانوا يؤخرون القائلة حتى تكون بعد صلاة الجمعة اذ العادة في القائلة ان تكون قبل الزوال.

وهذه خاطرة جميلة

حينما كنت اقرأ جملة «ألف ألف صلاة وألف ألف سلام عليك يارسول الله» عقب الصلاة، تراءت لي من بعيد خاطرة لطيفة انكشفت من تلك الصلوات، الا انني لم أتمكن من اقتناصها كاملة، ولكن ساشير الى بعض جملها:

رأيت ان عالم الليل شبيه بمنزل جديد يفتح لدار الدنيا.. دخلت ذلك العالم في صلاة العشاء، ومن انبساط فوق العادة للخيال وبحكم ارتباط ماهية الانسان مع الدنيا قاطبة رأيت ان هذه الدنيا العظيمة قد اصبحت في ذلك الليل منزلا صغيراً جداً حتى لايكاد يرى ما فيه من بشر وذوي حياة. ورأيت خيالاً أن ليس هناك من ينور ذلك المنزل الا الشخصية المعنوية للرسول ﷺ حتى امتلأت ارجاؤه بهجة وانساً وسروراً.

وكما يبدأ الشخص بالسلام عند دخوله المنزل، كذلك وجدت في نفسي شوقاً هائلاً ورغبة جياشة الى القول: ألف ألف سلام عليك يا رسول الله (١)..

ومن هنا وجدت نفسي كأنني اسلم عليه بعدد الانس والجن واعبر بسلامي هذا عن تجديد البيعة له والرضى برسالته وقبولها منه واطاعة القوانين التي أتى بها، والتسليم لاوامره وسلامته من بلايانا. أي كأنني اقدم هذا السلام – ناطقاً تلك المعاني – باسم كل فرد من افراد عالمي وهم ذوو الشعور من جن وانس، وجميع المخلوقات.

وكذا فان ما جاء به من النور العظيم والهدية الغالية ينور عالمي الخاص هذا كما ينور العالم الخاص لكل احد في هذه الدنيا، فيحوّل عالمنا الى عالم زاخر بالنعم. فقلت

---

(١) ذلك لان الرحمة النازلة على الرسول الكريم ﷺ هي متوجهة لحاجة الامة قاطبة في زمن ابدي، لذا فالصلاة غير المتناهية التي تهدى اليه منسجمة جداً.
فلو دخل شخص بيتاً خالياً مظلماً موحشاً ـ كالدنيا المظلمة الموحشة بالغفلة ـ كم سيأخذه الرعب والدهشة والاضطراب؟ ولكن كم يسرّه ويؤنسه ويفرحه وينوره لو رأى أن شخصاً قد تصدر ذلك البيت يعرّفه بجميع ما فيه؟ فما بالك لوكان هذا الشخص هو الحبيب المحبوب والانيس المأنوس وهو الرسول العظيم ﷺ، متصدر بيت العالم، يعرف لنا المالكَ الرحيمَ الكريمَ بما فيه من اشياء.
قس هكذا لكي تقدر بنفسك قيمة الصلوات عليه ولذتها. ـ المؤلف.

تجاه هذه النعمة الهائلة: «اللهم أنزل ألف صلاة عليه» علّها تكون شكراناً وعرفانا للجميل على ذلك النور الحبيب والهدية الغالية، اذ اننا لانستطيع أن نرد جميله واحسانه الينا أبداً، فأظهرنا تضرعنا الى الله جل وعلا بالدعاء والتوسل كي ينزل من خزائن رحمته رحمة عليه بعدد اهل السموات جميعاً.. هكذا احسست خيالاً.

فهو ﷺ يطلب صلاة بمعنى «الرحمة» من حيث هو «عبد» ومتوجه من الخلق الى الحق سبحانه. ويستحق «السلام» من حيث أنه «رسول» من الحق سبحانه الى الخلق.

وكما اننا نرفع اليه سلاماً بعدد الانس والجن، ونجدد له البيعة العامة بعددها ايضاً، فانه ﷺ يستحق ايضاً صلاة من خزائن الرحمة الإلهية بعدد اهل السموات، وبأسم كل واحدٍ منهم؛ ذلك لان النورُ الذي جاء به هو الذي يظهركمال كل شئ في الوجود، ويُبرز قيمة كل موجود، وتُشاهد به الوظيفة الربانية لكل مخلوق، وتتجلى به المقاصد الإلهية من كل مصنوع. لذلك لو كان لكل شى لسان لكان يردد قولاً كما يردد حالاً: الصلاة والسلام عليك يارسول الله.. فنحن بدورنا نقول بدلا عن المخلوقات كافة:

– ألف ألف صلاة وألفُ ألف سلام عليك يارسول الله بعدد الانس والجن وبعدد الملك والنجوم.

فيكفيك ان الله صلى بنفسه   واملاكه صلت عليه وسلمت

سعيد النورسي

* * *

اخي العزيز:

تطلبون شيئاً من الايضاح حول « وحدة الوجود » ففي احدى لمعات « المكتوب الحادي والثلاثين » جواب شاف وقوي واضح إزاء رأي محي الدين بن عربي في هذه المسألة.

اما هنا فنكتفي بهذا القدر ونقول:

ان تلقين مسألة « وحدة الوجود » في الوقت الحاضر للناس يضرهم ضرراً بالغاً، اذ كما ان التشبيهات والتمثيلات(١)، اذا خرجت من ايدي الخواص ودخلت ايدي العوام وسرت من يد العلم الى يد الجهل تُتلقى حقائق كذلك وحدة الوجود وامثالها من الحقائق العالية، اذا ما دخلت بين العوام الغافلين السارحين في تأثير الاسباب، يتلقونها « طبيعة » وتولد ثلاث مضار مهمة.

الضرر الاول:

ان مشرب وحدة الوجود، مع انه في حكم انكار وجود الكائنات ازاء وجود الله سبحانه، الا انه كلما دخل بين العوام يمضي بهم الى أن يصل في فكر الغافلين منهم ولاسيما الملوثين بالماديات الى انكار الالوهية ازاء الكون والماديات.

الضرر الثاني:

ان مشرب وحدة الوجود، يردّ رداً شديداً ربوبية ما سوى الله تعالى، حتى انه ينكر ما سواه تعالى ويرفع الثنائية، فلا يرى وجوداً مستقلاً للنفس الامارة ولا لأي شئ كان، ولكن في هذا الزمان، الذي استولت فيه مفاهيم الطبيعة وتفرعنت نفوس أمارة وبخاصة من له استعداد ليتخذ نفسه معبوده من دون الله، ونفخ الغرور والانانية في اوداجه، فضلا عن نسيان الخالق والآخرة الى حد ما. فتلقين هؤلاء بوحدة الوجود يطغي نفوسهم حتى لايسعها شئ، والعياذ بالله.

---

(١) كالملكين العظيمين المسميين بالثور والحوت، انقلبا بسر التشبيه عند العوام الى صورة ثور ضخم وحوت كبير. ـ المؤلف.

الضرر الثالث:

انه يورث افكارا وتصورات لاتليق بوجوب وجود الذات الجليلة، المنزهة المبرأة المتعالية المقدسة عن التغير والتبدل والتجزؤ والتحيز، ولاتلائم تنزهه وتقدسه سبحانه بحال، فيكون بذلك سببا لتلقينات باطلة.

نعم! ان من يتكلم عن وحدة الوجود عليه ان يعرج فكراً من الثرى الى الثريا تاركاً الكائنات وراءه ظهريا، محدقاً بنظره الى العرش الاعلى، عاداً الكائنات معدومة في حالة الاستغراق، فيمكنه ان يرى بقوة الايمان ان كل شئ من الواحد الاحد سبحانه مباشرة. والا فان من يقف وراء الكائنات وينظر اليها ويرى الاسباب أمامه وينظر من الارض، فانه يحتمل ان يغرق في تأثير الاسباب ويقع في مستنقع الطبيعة، بينما الذي يعرج فكراً الى العرش كجلال الدين الرومي [1] يستطيع ان يقول: «افتح سمعك فانك تستطيع أن تسمع من كل أحد – كأنه حاك فطري – ما تسمعه من الحق تعالى». والا فمن لايستطيع العروج مثله الى هذه المرتبة الرفيعة ولايرى الموجودات من الفرش الى العرش على صورة مرايا (لتجلياته) ان قلت له:

«اصغ الى كل أحد تسمع منه كلام الله» فانه يبتلى بتصورات باطلة مخالفة للحقيقة كمن يهوي معنىً من العرش الى الفرش.

﴿ **قل الله ثُمَّ ذَرهُم في خَوضِهِم يَلعَبون** ﴾ (الانعام: ٩١).

ما للتراب ولرب الارباب.

سبحان من تقدس عن الاشباه ذاته وتنزهت عن مشابهة الامثال صفاته وشهد على ربوبيته آياته جل جلاله ولااله الاهو.

سعيد النورسي

* * *

(١) الرومي (مولانا جلال الدين): (٦٠٤ -٦٧٢هـ) (١٢٠٧ - ١٢٧٣م) عالم بفقه الحنفية والخلاف وانواع العلوم، ثم متصوف صاحب (المثنوي) المشهور بالفارسية المستغني عن التعريف في ستة وعشرين ألف بيت، وصاحب الطريقة المولوية. ولد في بلخ (بفارس) استقر في (قونية) سنة ٦٢٣هـ عرف بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الاسلامية، فتولى التدريس بقونية في اربع مدارس بعد وفاة ابيه سنة ٦٢٨ هـ ، من مؤلفاته: ديوان كبير، فيه ما فيه، مكتوبات. – المترجم.

جواب عن سؤال

لايسعني الوقت الكافي لعقد موازنة بين افكار كل من مصطفى صبري(١) وموسى باكوف (٢) الاانني اكتفي بالقول الآتي:

ان احدهما قد افرط والآخر يفرط. فمع ان مصطفى صبري محق في دفاعاته بالنسبة الى موسى باكوف الاانه ليس له حق تزييف شخص محي الدين بن عربي الذي هو خارقة من خوارق العلوم الاسلامية.

نعم، ان محي الدين بن عربي مهتد ومقبول ولكنه ليس بمرشد ولاهاد وقدوة في جميع كتاباته، اذ يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، فيخالف القواعد الثابتة لأهل السنة، ويفيد بعض أقواله – ظاهراً – الضلالة غير انه بريء من الضلالة، اذ الكلام قد يبدو كفرا بظاهره، الا أن قائله لا يكون كافراً.

فمصطفى صبري لم يراع هذه النقاط بنظر الاعتبار ففرط في بعض النقاط لتعصبه لقواعد اهل السنة. أما موسى باكوف فهو يخطئ كثيراً بافكاره التي تماشي التمدن والمنحازة شديداً للتجدد. اذ يحرف بعض الحقائق الاسلامية بتأويلات خاطئة ويتخذ شخصاً مردودا كابي العلاء المعري في مستوى اعلى من علماء الاسلام المحققين وقد غالى كثيراً لانحيازه الشديد الى تلك المسائل التي خالف فيها محي الدين اهل السنة والتي تنسجم مع افكاره.

ولقد قال محي الدين: «تحرم مطالعة كتبنا على من ليس منا» أي على من لايعرف مقامنا. نعم ان قراءة كتب محي الدين ولاسيما مسائله التي تبحث في وحدة الوجود مضرة في هذا الزمان.

سعيد النورسي

---

(١) مصطفى صبري (١٨٦٩ – ١٩٥٤) تولى مشيخة الاسلام في الدولة العثمانية، قاوم الحركة الكمالية، هاجر الى مصر، ألف كتبا اهمها (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين). – المترجم.

(٢) موسى جارالله (باكوف) تركستاني، قازاني، شيخ الاسلام في روسيا قبل الثورة البلشفية، ألف ما يقارب (١٢٠) كتاباً في مختلف موضوعات الاسلام آراؤه تنحو منحى التجدد والتحرر، أيد الثورة مدة من الزمن تخلصاً من القيصرية ثم تبين له الامر، فسجن عدة مرات. سافر الى بلدان كثيرة، وأهم مؤلفاته: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة – توفي في ملجأ العجزة بالقاهرة. – المترجم.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

عندما كنت انظر من نافذة السجن، الى ضحكات البشرية المبكية، في مهرجان الليل البهيج، انظر اليها من خلال عدسة التفكر في المستقبل والقلق عليه، انكشف امام نظر خيالي هذا الوضع، الذي ابينه:

مثلما تشاهد في السينما اوضاع الحياة لمن هم الآن راقدون في القبر، فكأنني شاهدت امامي الجنائز المتحركة لمن سيكونون في المستقبل القريب من اصحاب القبور.. بكيت على اولئك الضاحكين الآن، فانتابني شعور بالوحشة والالم. راجعت عقلي، وسألت عن الحقيقة قائلاً: ما هذا الخيال؟ قالت الحقيقة:

ان خمسة من كل خمسين من هؤلاء البائسين الضاحكين الآن والذين يمرحون في نشوة وبهجة سيكونون كهولاً بعد خمسين عاماً، وقد انحنت منهم الظهور وناهز العمر السبعين. والخمسة والاربعين الباقية يُرمّون في القبور.

فتلك الوجوه الملاح، وتلك الضحكات البهيجة، تنقلب الى أضدادها. وحسب قاعدة «كل آتٍ قريب»[1] فان مشاهدة ما سيأتي كأنه آتٍ الآن تنطوي على حقيقة، فما شاهدته اذاً ليس خيالاً.

فما دامت ضحكات الدنيا المتسمة بالغفلة مؤقتة ومعرضة الى الزوال، وهي تستر مثل هذه الاحوال المؤلمة المبكية. فلابد أن ما يسرّ قلب الانسان البائس العاشق للخلود، ويفرح روحه الولهان بعشق البقاء، هو ذلك اللهو البرئ والمتعة النزيهة وافراح ومسرات تخلد بثوابه، ضمن نطاق الشرع، مع اداء الشكر باطمئنان القلب وحضوره بعيداً عن الغفلة. ولئلا تقوى الغفلة في النفوس في الاعياد، وتدفع الانسان الى الخروج عن دائرة الشرع، ورد في الاحاديث الشريفة ترغيب قوي وكثير في الشكر وذكر الله في تلك الايام. وذلك لتنقلب نعم الفرح والسرور الى شكر يديم تلك النعمة ويزيدها، اذ الشكر يزيد النعم ويزيل الغفلة.

سعيد النورسي

---

(١) رواه ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً، وروى البيهقي في الأسماء والصفات عن ابي شهاب مرسلاً (كشف الخفاء ٢/١١٤)– المترجم.

بسم الله الرحمن الرحيم

نكتة من نكات الآية الكريمة:

﴿ **ان النفس لأمّارة بالسوء** ﴾ (يوسف: ٥٣)

والحديث الشريف: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)(١).

نعم! ان الذي يحب نفسه الامارة بالسوء – غير المزّكاة – ويعجب بها، هو في الحقيقة لايحب أحداً غيرها، وحتى لو ابدى للغير حباً فلا يحبه من صميم قلبه، بل ربما يحبه لمنافعه، ولما يتوقع منه من متاع. فهو في محاولة دائمة لتحبيب نفسه للآخرين وفي سعي متواصل لأثارة اعجابهم به، يصرف كل قصورٍ عن نفسه فلا يحمّلها اي نقص كان، بل يدافع دفاع المحامي المخلص لإبراء ساحتها، ويمدحها بمبالغات بل بأكاذيب لينزّهها عن كل عيب او قصور، حتى يقربها الى التقديس، بل يبلغ به الامر ان يكون مصداق الآية الكريمة ﴿ **من اتخذ الهه هواه** ﴾(الفرقان:٤٣) عندها تتوالى عليه صفعات هذه الآية الكريمة – حسب درجته – فينقلب مدحه الى إعراض الناس عنه، ويتحول تحبيب نفسه اليهم الى استثقالهم له، فيجد عكس ما كان يروم، فضلاً عن أنه يضيّع الاخلاص، لما يخلط من رياء وتصنع في اعماله الأخروية، فيكون مغلوباً على أمره امام شهواته وهواه ومشاعره، تلك التي لاتبصر العقبى ولاتفكر في النتائج والمغرمة بالتلذذ الآني. بل قد تبرر له اهواؤه الضالة اموراً يرتكبها لاجل متعة لاتدوم ساعة يفضي به ان يلقى في السجن لسنة كاملة. وقد يقاسي عشر سنوات من الجزاء العادل لاجل تسكين روح الثأر لديه وشهوة الغرور التي لا تستغرق دقيقة واحدة. فيكون مثله كمثل ذلك الطفل الابله الذي لايقدر قيمة جزء المصحف الشريف الذي يتلوه ويدرسه فيبيعه بقطعة حلوى رخيصة، اذ يصرف حسناته التي هي اغلى من الالماس ويبدلها بما يشبه في تفاهتها قطع الزجاج، تلك هي حسياته وهواه وغروره. فيخسر خسارة جسيمة فيما كان ينبغي له ان يربح ربحاً عظيماً.

اللهم احفظنا من شر النفس والشيطان ومن شر الجن والانس.

---

(١) «اعدى اعدائك نفسك التي بين جنبيك»، رواه البيهقي في الزهد باسناد ضعيف وله شاهد من حديث أنس.. والمشهور على الالسنة: اعدى عدوك. .إهـ (كشف الخفاء ١٤٣/١) قال العراقي في تخريج الاحياء (كتاب عجائب القلب): اخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان احد الوضاعين.إهـ وقال الزبيدي في شرح الاحياء ٢٠٦/٧ تعقيباً على العراقي: ووجدت بخط ابن حجر ما نصّه: وللحديث طرق اخرى غير هذه من حديث أنس.

سؤال:

كيف يكون البقاء في سجن جهنم بقاءاً خالداً جزاءً عادلاً لكفر في زمن قصير؟

الجواب: ان القتل الذي يحصل في دقيقة واحدة يعاقب عليه بسبع ملايين وثمانمائة واربع وثمانين الفاً من الدقائق – على اعتبار السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً. فان كان هذا قانوناً عدلاً، فالذي يقضي عشرين سنة من عمره في احضان الكفر ويموت عليه يستحق جزاءً بمقتضى هذا القانون العادل للبشر سجناً يدوم سبعة وخمسين ترليوناً وواحداً ومائتي ملياراً ومائتي مليوناً من السنين، باعتبار دقيقة من الكفر تعادل ألف قتل ويمكن ان يُفهم من هذا وجه الانسجام مع عدالة قوله تعالى: ﴿ **خالدين فيها ابداً** ﴾ (البيّنة: ٨).

ان سر العلاقة بين العددين المتباعدين جداً بعضهما عن بعض، هو ان الكفر والقتل تخريب وتعدّ على الآخرين، ولهما تأثير في الآخرين، فالقتل الذي يحصل في دقيقة واحدة يسلب خمس عشرة سنة في الاقل من حياة المقتول، حسب ظاهر الحال، لذا يسجن القاتل بدلاً منه، فدقيقة واحدة في الكفر الذي هو انكار لألف اسم واسم من الاسماء الحسنى وتزييف لنقوشها البديعة.. واعتداء على حقوق الكائنات.. وانكار لكمالاتها.. وتكذيب لدلائل الوحدانية التي لايحد وردّ لشهاداتها.. تلقي بالكافر في اسفل سافلين لاكثر من الف سنة، فتسجنه في قوله تعالى ﴿ **خالدين...** ﴾.

سعيد النورسي

* * *

توافق لطيف ذو مغزى:

ان المادة (١٦٣) من القانون التي يُتهم بموجبها طلاب النور، ويُطالب بها انزال العقوبة عليهم. هذا الرقم يتوافق مع عدد النواب الذين وافقوا على لائحة البرلمان الخاصة بمنح مائة وخمسين الف ليرة لبناء مدرسة مؤلف رسائل النور، وقد كانوا (١٦٣) نائباً من بين (٢٠٠) نائباً في مجلس الأمة التركي.

هذا التوافق يقول معنىً: ان تواقيع (١٦٣) نائباً من نواب حكومة الجمهورية على وجه التقدير والاعجاب بخدمته يبطل حكم المادة (١٦٣) بحقه.

وكذا من بين التوافقات اللطيفة ذات المغزى:

لقد كان القبض على مؤلف رسائل النور وطلابه واعتقالهم في ٢٧/نيسان/١٩٣٥ بينما كان قرار المحكمة بحقهم في ١٩/آب/١٩٣٥ اي بعد (١١٥) يوماً. هذا الرقم يتوافق مع عدد كتب رسائل النور وهو (١١٥) كتاباً يضم (١٢٨) رسالة.

كما انه يوافق عدد المتهمين المائة وخمسة عشر من طلاب النور الذين استجوبوا واتهموا.

فهذا التوافق يدل على ان المصيبة التي ابتلي بها مؤلف رسائل النور وطلابها انما تُنظّم بيدٍ من العناية (الإلهية).[1].

* * *

(١) انه جدير بالملاحظة لقد بدأ القبض على قسم من طلاب النور واعتقلوا في ٢٥/نيسان/١٩٣٥ وكان عدد الذين اتهموا بقرار المحكمة (١١٧) شخصاً حيث كرر اسم اثنين منهم.
فيتوافق بهذا عدد الطلاب (١١٧) طالباً مع عدد ايام الاعتقال البالغ (١١٧) يوماً اعتباراً من اعتقال ذلك القسم من الطلاب الى يوم قرار المحكمة.
فيمزج هذا التوافق لطافة اخرى الى لطافة التوافقات السابقة. ـ المؤلف.

النكتة الثامنة والعشرون

من اللمعة الثامنة والعشرين

بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ **لايسّمعون الى الملأ الاعلى ويُقذفون من كل جانب ۞ دحوراً ولهم عذاب واصب الاّ من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب** ﴾ (الصافات: ٨ – ٩)

﴿ **ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين** ﴾ (الملك: ٥)

سنبين نكتة مهمة من نكات هذه الآيات الكريمة وامثالها من الآيات لمناسبة اعتراض يرد من اهل الضلالة على وجه النقد.

تفيد هذه الايات الكريمة ان جواسيس الجن والشياطين يسترقون السمع الى اخبار السموات ويجلبون منها الاخبار الغيبية الى الكهان والماديين، والذين يعملون في تحضير الارواح. فحيل بين هذه الاخبار وبين التجسس الدائمي لأولئك الجواسيس ورجموا بالشهاب أزيد ما كان في تلك الفترة من بداية الوحي، وذلك لئلا يلتبس شئ على الوحي.

نبين جواباً في غاية الاختصار عن سؤال في غاية الاهمية وهو ذو ثلاث شعب.

سؤال:

يفهم من امثال هذه الآيات الكريمة المتصدرة انه لاجل استراق السمع وتلقي الخبر الغيبي حتى في الحوادث الجزئية بل احياناً حوادث شخصية تقتحم جواسيس الشياطين مملكة السموات التي هي في غاية البعد، لكأن تلك الحادثة الجزئية هي موضع بحث في كل جزء من اجزاء تلك المملكة الواسعة، ويمكن لاي شيطان كان، ومن اي مكان دخل الى السموات، التنصت ولو بصورة مرقعة الى ذلك الخبر وجلبه هكذا الى الارض. هذا المعنى الذي يُفهم من الآيات الكريمة لايقبل به العقل والحكمة. ثم ان قسماً من الانبياء وهم اهل الرسالة، والاولياء وهم اهل الكرامة يتسلمون ثمار الجنة التي هي فوق السموات العلى – بنص الآية – وكأنهم يأخذونها من مكان قريب، واحياناً يشاهدون الجنة من قريب. هذه المسألة تعني: نهاية البعد في نهاية القرب بحيث لايسعها عقل هذا العصر.

ثم أن حالة من احوال جزئية لشخص جزئي يكون موضع ذكر وكلام لدى الملأ الاعلى في السموات العلى الواسعة جداً، هذه المسألة لاتوافق ادارة الكون التي تسير في منتهى الحكمة.

علماً أن هذه المسائل الثلاث تعد من الحقائق الاسلامية.

الجواب:

اولاً: ان الآية الكريمة: ﴿ **ولقد زيّنا السَّماءَ الدنيا بمصابيحَ وجَعلناها رُجوماً للشياطين** ﴾ هذه الآية تفيد أن جواسيس الشياطين التي تحاول الصعود الى السموات للتجسس تطرد بنجوم السموات.

فقد بحثت هذه المسألة بحثاً جيداً في الكلمة الخامسة عشرة، وأُثبتت اثباتاً يقنع حتى أعتى الماديين، بل يلجؤهم الى السكوت والقبول، وذلك بسبع مقدمات قاطعة هي بمثابة سبع مراتب للصعود الى فهم الآية الكريمة.

ثانياً: نشير الى هذه الحقائق الاسلامية الثلاث التي تُظن انها بعيدة (عن العقل) بتمثيل وذلك لنقربها الى الاذهان القاصرة الضيقة.

هب ان الدائرة العسكرية لحكومة تقع في شرقي البلاد، ودائرتها العدلية في الغرب ودائرة المعارف في الشمال ودائرة الشؤون الدينية (المشيخة) في الجنوب، ودائرة الموظفين الاداريين في الوسط وهكذا.

فعلى الرغم من البعد بين دوائر هذه الحكومة، فان كل دائرة لو استخبرت الاوضاع فيما بينها بالتلفون او التلغراف ارتباطاً تاماً: عندها تكون البلاد كلها كأنها دائرة واحدة هي دائرة العدل، او الدائرة العسكرية او الدينية، او الادارية وهكذا.

مثال آخر: يحدث احياناً أن دولاً متعددة ذات عواصم مختلفة. تشترك معاً في مملكة واحدة، بسلطات متباينة، من حيث مصالحها الاستعمارية فيها، او لوجود امتيازات خاصة بها، او من حيث المعاملات التجارية وغيرها. فكل حكومة عندئذ ترتبط بعلاقة مع تلك الرعية من حيث امتيازاتها، فعلى الرغم من انها رعية واحدة وأمة واحدة، فان معاملات تلك الحكومات المتباينة – التي هي في غاية البعد – تتماس وتتقارب كلٌ منها مع الاخرى في البيت الواحد بل تشترك في كل انسان.

حتى تُشاهد مسائلها الجزئية في الدوائر الجزئية وهي نقاط التماس والتقارب، ولاتؤخذ كل مسألة جزئية من الدائرة الكلية. ولكن عندما تبحث تلك المسائل الجزئية، تبحث كأنها أُخذت من الدائرة الكلية وذلك لارتباطها بالقوانين الكلية لتلك الدائرة. وتعطى لها صورة كأنها مسألة اصبحت موضع بحث في تلك الدائرة الكلية.

وهكذا ففي ضوء هذين المثالين:

ان مملكة السموات التي هي في غاية البعد، من حيث العاصمة والمركز، فان لها هواتف معنوية تمتد منها الى قلوب الناس في مملكة الارض. فضلاً عن أن عالم السموات لا يشرف على العالم الجسماني وحده بل يتضمن عالم الارواح وعالم الملكوت؛ لذا فعالم السموات يحيط بجهة بعالم الشهادة تحت ستار.

وكذلك الجنة التي هي من العوالم الباقية، وهي دار البقاء، فمع انها في غاية البعد، الاّ ان دائرة تصرفاتها تمتد امتداداً نورانياً وتنتشر الى كل جهة تحت ستار عالم الشهادة.

فكما ان حواس الانسان التي اودعها الصانع الحكيم الجليل بحكمته وبقدرته في رأس الانسان، فعلى الرغم من ان مراكزها مختلفة، فان كلاً منها تسيطر على الجسم كله، وتأخذه ضمن دائرة تصرفها.

كذلك الكون الذي هو انسان اكبر يضم الوف العوالم الشبيهة بالدوائر المتداخلة. فالاحوال الجارية في تلك العوالم والحوادث التي تقع فيها تكون موضع النظر من حيث جزئياتها وكلياتها، وخصوصياتها وعظمتها.

بمعنى ان الجزئيات تُشاهد في الاماكن الجزئية والقريبة، بينما الكليات والامور العظيمة تُرى في المقامات الكلية والعظيمة.

ولكن قد تستولي حادثة جزئية خصوصية على عالم عظيم فاينما يُلقى السمع تُسمع تلك الحادثة.

واحياناً تحشد الجنود الهائلة اظهاراً للعظمة والهيبة وليس لقوة العدو. فمثلاً:

ان حادثة الرسالة المحمدية، ونزول الوحي القرآني، لكونها حادثة جليلة، فان عالم السموات كله، بل حتى كل زاوية من زواياه متأهب، وقد صفت فيه الحراس، في

تلك البروج العظيمة، من تلك السموات العالية الرفيعة والبعيدة بعداً عظيماً. ويقذفون من النجوم المجانيق، طرداً لجواسيس الشياطين ودفعاً بهم عن السموات.

فالآية الكريمة عندما تبرز المسألة هكذا برجم الشياطين بكثرة هائلة والقذف بالشهب ولاسيما في بداية الوحي في ذلك الوقت. تبين اشارة ربانية الى الاعلان عن درجة عظمة الوحي القرآني وشعشعة سلطانه، والى درجة أحقيته وصوابه والذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه.

وهكذا يترجم القرآن الكريم ذلك الاعلان الكوني العظيم ويشير الى تلك الاشارات السماوية

نعم! ان اظهار هذه الاشارات العظيمة السماوية، وابراز مبارزة الشياطين للملائكة، مع إمكان طرد جواسيس الشياطين بنفخ من مَلَك، انما هو لاظهار عظمة الوحي القرآني وعلوه ورفعته.

ثم ان هذا البيان القرآني المهيب، واظهار الحشود السماوية العظيمة، ليس تعبيراً عن أن للجن والشياطين قوة واقتداراً بحيث تسوق اهل السموات الى المبارزة والمدافعة معهم، بل هي اشارة الى أنه لادخل للشياطين والجن في اي موضع من مواضع هذا الطريق الطويل الممتد من قلب الرسول الاعظم ﷺ الى عالم السموات الى العرش الاعظم.

وبهذا يعبّر القرآن الكريم عن ان الوحي القرآني حقيقة جليلة حقيق ان يكون موضع ذكر وبحث لدى الملأ الاعلى والملائكة كلهم في تلك السموات الهائلة، بحيث يضطر الشياطين الى الصعود الى السموات لينالوا شيئاً من اخبارها فيرجمون ولاينالون شيئاً.

فيشير القرآن الكريم بهذا الرجم الى ان الوحي القرآني النازل على قلب محمد ﷺ، وجبرائيل عليه السلام الذي نزل الى مجلسه والحقائق الغيبية المشهودة لنظره، سليمة، صائبة، صحيحة، لاتدخل فيها شبهة قط وفي أية جهة منها قط.

وهكذا يعبّر القرآن الكريم عن هذه المسألة باعجازه البليغ.

أما مشاهدة الجنة في أقرب الاماكن وقطف الثمار منها احياناً، مع كونها بعيدة كل البعد عنا وكونها من عالم البقاء، فبدلالة التمثيلين السابقين يُفهم:

ان هذا العالم الفاني، عالم الشهادة، حجاب لعالم الغيب وعالم البقاء. انه يمكن رؤية الجنة في كل جهة مع أن مركزها العظيم في مكان بعيد جداً، وذلك بوساطة مرآة عالم المثال. ويمكن ايضاً بوساطة الايمان البالغ درجة حق اليقين ان تكون للجنة دوائر ومستعمرات (لامشاحة في الامثال) في هذا العالم الفاني ويمكن أن تكون هناك مخابرات واتصالات معها بالارواح الرفيعة وبهاتف القلب ويمكن أن ترد منها الثمار.

أما انشغال دائرة كلية بحادثة شخصية جزئية، اي: ما ورد في التفاسير من ان الشياطين يصعدون الى السموات ويسترقون السمع هناك ويأتون باخبار غيبية ملفقة للكهان، فينبغي أن تكون حقيقته هكذا:

انه لاصعود الى عاصمة عالم السموات لتلقي ذلك الخبر الجزئي، بل هو صعود الى بعض المواقع الجزئية في جو الهواء - الذي يشمله معنى السموات - والذي فيه مواضع بمثابة مخافر (لامشاحة في الامثال) للسموات، وتقع علاقات في هذه المواقع الجزئية مع مملكة الارض. فالشياطين يسترقون السمع في تلك المواقع الجزئية لتلقي الاحداث الجزئية، حتى ان قلب الانسان هو احد تلك المقامات حيث يبارز فيه ملك الالهام الشيطان الخاص.

أما حقائق القرآن والايمان وحوادث الرسول ﷺ، فمهما كانت جزئية فهي بمثابة اعظم حادثة واجلّها في دائرة السموات وفي العرش الاعظم. حتى كأنها تنشر في الصحف المعنوية للمقدرات الإلهية الكونية (لامشاحة في الامثال) بحيث يذكر عنها ويبحث مسائلها في كل زاوية من زوايا السموات، حيث أنه ابتداءً من قلب الرسول الكريم ﷺ وانتهاءً الى دائرة العرش الاعظم مصون من اي تدخل كان من الشياطين.

فان القرآن مع بيانه لهذا انما يعبّر بتلك الايات الجليلة أنه: لاحيلة ولا وسيلة للشيطان لتلقى اخبار السموات الاّ استراق السمع.

فيبين القرآن بهذا بياناً معجزاً بليغاً: ما اعظم الوحي القرآني وما اعظم قدره! وما اصدق نبوة محمد ﷺ وما اصوبها! حتى لايمكن الدنو اليهما بأية شبهة كانت وباي شكل من الاشكال.

سعيد النورسي

اللمعة التاسعة والعشرون

رسالة التفكر الايماني الرفيع

والمعرفة التوحيدية السامية(١)

باسمه سبحانه

اخوتي!

ان رسالة التفكر هذه جليلة القدر. وان اطلاق الامام علي رضي الله عنه عليها ـ من جهة ـ اسم الآية الكبرى يبين قيمتها الرفيعة تماماً.

فهي رسالة معرفة ايمانية وردت الى القلب بعين اليقين، اثناء اذكار الصلاة. واثمرت كثيراً من الرسائل. واصبحت غذاء للعقل والفكر وعلاجاً لهما طوال ثلاثين سنة. فمن الأنسب أن تُدرج ضمن «اللمعات» وان يُطبع منها اربعون او خمسون نسخة مستقلة.

سعيد النورسي

(١) كتب الاستاذ النورسي هذه الرسالة باللغة العربية، سوى المقدمات والهوامش التي كتبها بالتركية، واستنسخها المستنسخون مع ضبط الحروف ووضع الحركات تسهيلاً لقراءتها قراءة صحيحة، ولاسيما لغير قراء العربية. وقد احتفظنا بالنص كما هو مع ترجمة المقدمات والهوامش. — المترجم.

هذه اللمعة كتبت في التجريد المطلق
في سجن «اسكي شهر» قبل عشرين سنة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه اجمعين.

ايضاح

لقد امتزج قلبي بعقلي منذ ثلاثة عشر عاماً ضمن انتهاج مسلك التفكر الذي يأمر به القرآن المعجز البيان كقوله تعالى ﴿**لعلكم تتفكرون**﴾ ﴿**لعلهم يتفكرون**﴾ ﴿**أوَ لم يتفكروا في انفسهم ماخلق الله السموات والارض..**﴾ ﴿**لآيات لقوم يتفكرون**﴾ وامثالها من الآيات التي تحث على التفكر مثلما يحث عليه حثاً عظيماً الحديث الشريف كقوله ﷺ (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)(١)

ولقد تواردت في غضون هذه السنوات الثلاثين على عقلي وقلبي ضمن انتهاج مسلك التفكر، انوار عظيمة وحقائق متسلسلة طويلة. فوضعت بضع كلمات — من قبيل الاشارات — لا للدلالة على تلك الانوار، بل للاشارة الى وجودها ولتسهيل التفكر فيها وللمحافظة على انتظامها.

وكنت اردد بيني وبين نفسي تلك الكلمات لساناً بعبارات عربية في غاية الاختلاف. وعلى الرغم من تكراري لها آلاف المرات خلال هذه الفترة الطويلة وانا انتهج هذا التفكر لم يطرأ عليّ السأم ولم يعتر تذوقها النقص، ولم تنتف حاجة الروح

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج الاحياء ١/٥٨:
حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة: ابن حبان في كتاب العظمة من حديث ابي هريرة بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ورواه ابو المنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث انس بلفظ ثمانين سنة واسناده ضعيف جداً، ورواه ابو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة. اهـ. وانظر كشف الخفاء ١/٣١٠ والاحاديث المشكلة ص١١٣.

اليها. لأن ذلك التفكر لمعات تلمعت من آيات القرآن الكريم فتمثلت فيه جلوة من خصائص الآيات، تلك هي عدم الاستشعار بالسأم والملل والحفاظ على حلاوتها وطراوتها.

وقد رأيت في الآونة الاخيرة ان العقدة الحياتية القوية والانوار الساطعة التي تحتويها اجزاء رسائل النور ما هي الاّ لمعات سلسلة ذلك التفكر، فنويت كتابة مجموعها في اخريات ايام عمري، على أمل تأثيرها في غيري مثلما اثّرت فيّ. وستكون لمجموعها قوة وقيمة اخرى وإن ادرجت اهم اجزائها في الرسائل.

ولما كان اخر المطاف في رحلة العمر غير معيّن. وان اوضاعي في سجن «اسكي شهر» قد بلغت حداً أشد من الموت بكثير، فقد كتبت تلك السلسلة من التفكر دون انتظار لآخر الحياة، ودون تغيير فيها، وبناء على رغبة اخوة النور واصرارهم بقصد استفادتهم. وجعلتها في سبعة ابواب.

ولما كانت الاكثرية المطلقة من هذا النوع من الحقائق تخطر بالبال اثناء اذكار الصلاة، وان كل كلمة من كلمات الاذكار بمثابة منبع تلك الحقائق. كان ينبغي ان تكتب على وفق ترتيبها وتسلسلها في اذكار الصلاة، أي (سبحان الله والحمد لله والله اكبر ولا اله الاّ الله) الاّ أن ظروف السجن المنفرد المضطربة آنذاك قد أخلّت بذلك الترتيب.

أما الآن فستكون الابواب على النحو الآتي:

الباب الاول: في (سبحان الله)

الباب الثاني: في (الحمد لله)

والباب الثالث: في (الله اكبر)

والباب الرابع: في (لا اله الاّ الله)

وذلك لأن معظم الشافعية يذكرون: (لا اله الاّ الله) ثلاثاً وثلاثين مرة بعد ذكرهم كلاً من سبحان الله، والحمد لله، والله اكبر ثلاثاً وثلاثين مرة.

سعيد النورسي

الباب الأول

في «سبحان الله»

وهو ثلاثة فصول

(الفصل الأول)

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

فَسُبْحانَكَ يا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ السَّمآءُ بِكَلِمَاتِ نُجُومِهَا وَشُمُوسِهَا وَاَقمَارِهَا، بِرُمُوزِ حِكَمِهَا.

وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الجَوُّ بِكَلِمَاتِ سَحاباتِهِ وَرُعُودِهَا وَبُرُوقِهَا وَأمطَارِهَا، بِإشاراتِ فَوَائِدِهَا.

وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ رَأسُ الأرضِ بِكَلِمَاتِ مَعَادِنِهَا وَنَبَاتَاتِهَا وَأشْجَارِهَا وَحَيْوَانَاتِهَا، بِدَلالاتِ إنْتِظَامَاتِهَا.

وَتُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ النَّبَاتَاتُ وَالأشْجَارُ بِكَلِمَاتِ أوْرَاقِهَا وَأزهَارِهَا وَثَمرَاتِهَا، بِتَصْرِيحَاتِ مَنَافِعِهَا.

وَتُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الأزهَارُ وَالأثْمَارُ بِكَلِمَاتِ بُذُورِهَا وَأجْنِحَتِهَا وَنَوَاتَاتِهَا، بِعَجَائِبِ صَنْعَتِهَا.

وَتُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ النَّوَاتَاتُ وَالبُذُورُ بِألسِنَةِ سَنَابِلِهَا وَكَلِمَاتِ حَبَّاتِهَا بِالْمُشَاهَدَةِ.

وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ كُلُّ نَبَاتٍ بِغَايَةِ الوُضُوحِ وَالظُّهُورِ عِنْدَ انْكِشافِ أكمَامِهَا وَتَبَسُّمِ بَنَاتِهَا بِأفْوَاهِ مُزَيَّنَاتِ أزاهِيرِهَا وَمُنْتَظَمَاتِ سَنَابِلِهَا، بِكَلِمَاتِ مَوْزُونَاتِ بُذُورِهَا

وَمَنْظُومَاتِ حَبّاتِهَا، بِلِسَانِ نِظامِهَا في ميزانِهَا في تَنْظِيمِها في تَوْزِينِهَا في صَنْعَتِهَا في صبغَتِها في زِينتِهَا في نُقُوشِهَا في رَوَائِحِهَا في طُعُومِهَا في أَلوَانِهَا في أَشْكَالِهَا (١)، كَمَا تَصِفُ تَجَلِّيَاتِ صِفَاتِكَ وتُعَرِّفُ جَلَواتِ أسمَائِكَ وتُفَسِّرُ تَوَدُّدَكَ وتَعَرُّفَكَ بِمَا يَتَقَطَّرُ مِنْ ظَرَافَةِ عُيُونِ أزاهيرِهَا وَمِنْ طَرَاوَةِ أَسْنَانِ سَنَابِلِهَا مِنْ رَشَحَاتِ لَمَعَاتِ جَلَوَاتِ تَوَدُّدِكَ وتَعَرُّفِكَ إلى عِبَادِكَ.

سُبْحَانَكَ يَا وَدُودُ يا مَعْرُوفُ مَا أَحسَنَ صُنْعَكَ وَمَا أَزينَهُ وَمَا أَبينَهُ وَمَا أَتْقَنَهُ!

سُبْحَانَكَ يا مَن تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ جَمِيعُ الأَشْجَارِ بِكَمَالِ الصَّرَاحَةِ وَالبَيَانِ عِنْدَ انْفِتَاحِ أَكمَامِهَا وَانْكِشافِ أَزهَارِهَا وتَزايُدِ أَوراقِهَا وتَكَامُلِ أثمَارِهَا وَرَقْصِ بَنَاتِهَا عَلى أَيَادي أَغْصَانِهَا حَامِدَةً بأَفْوَاهِ أوراقِهَا الخَضِرَةِ بكَرَمِكَ، وأَزهَارِهَا المُتَبَسِّمَةِ بِلُطْفِكَ، وأثمارِهَا الضَّاحِكَةِ بِرَحْمَتِكَ، بالسِنَةِ نِظَامِهَا في ميزَانِهَا في تَنْظِيمِهَا في تَوْزينِهَا في صَنْعَتِهَا في صِبْغَتِهَا في زِينَتِهَا في نُقُوشِهَا في طُعومِهَا في رَوَائِحِهَا في أَلوَانِهَا في أَشكَالِهَا في اختِلافِ لُحُومِهَا في كَثْرَةِ تَنَوُّعِهَا في عَجَائِبِ (٢) خِلقَتِهَا كَمَا تَصِفُ صِفَاتِكَ وَتُعَرِّفُ أَسْمَاءَكَ وتُفَسِّرُ تَحَبُّبَكَ وَتَعَهُّدَكَ لِمَصْنُوعَاتِكَ بِمَا يَتَرَشَّحُ مِنْ شِفَاهِ ثِمَارِهَا مِنْ قَطَرَاتِ رَشَحَاتِ لَمَعَاتِ جَلَوَاتِ تَحَبُّبِكَ وَتَعَهُّدِكَ لِمَخْلُوقَاتِكَ.

حَتّى كَأَنَّ الشَّجَرَ المُزَهَّرَةَ قَصِيدَةٌ مَنْظُومَةٌ مُحَرَّرَةٌ، لِتَنْشُدَ لِلصَّانِعِ المَدَائِحَ المُبَهَّرَةَ.

أو فَتَحَتْ بِكَثْرَةٍ عُيُونُهَا المُبَصَّرَةُ لِتَنْظُرَ للفَاطِرِ العَجَائِبَ المُنَشَّرَةَ.

أَوْ زَيَّنَتْ لِعِيدِهَا أَعضَاءَهَا المُخَضَّرَةَ لِيَشْهَدَ سُلْطَانُهَا آثَارَهَا المُنَوَّرَةَ. وَتُشْهِرَ في المَشْهَرِ مُرَصَّعَاتِ الجَوْهَرِ. وَتُعلِنَ لِلبَشَرِ حِكْمَةَ خَلْقِ الشَّجَرِ.

(١) ان اثنى عشر مشهداً وحجاباً، مشهداً فوق مشهد، برهاناً ضمن برهان، دليلاً خلال دليل؛ تنبعث كلها من زهرة واحدة بنغمات متنوعة ولمعات متباينة فترى القلبَ المصور الأزلي، وتلفت عين العقل اليه. ـ المؤلف.

(٢) هذه الدلائل الخمسة عشر، الدليل ضمن الدليل، والبرهان داخل البرهان تشير الى الصانع الجليل. ـ المؤلف.

سُبْحَانَكَ مَا أَحْسَنَ إِحْسَانَكَ مَا أَبْيَنَ تبيَانَكَ مَا أَبْهَرَ بُرْهَانَكَ ومَا أَظْهَرَهُ ومَا أَنْوَرَهُ!.
سُبْحَانَكَ مَا أَعْجَبَ صَنْعَتَكَ!

تَلأْلُؤُ الضِّيَآءِ بدَلاَلَةِ حِكَمِهَا؛ مِنْ تَنْوِيرِكَ، تَشْهِيرِكَ.. تَمَوُّجُ الاعْصَارِ بِسِرِّ وَظَائِفِهَا- خُصُوصاً في نَقْلِ الكَلِمَاتِ - مِنْ تَصْرِيفِكَ، تَوْظِيفِكَ.. تَفَجُّرُ الانْهَارِ بِإِشَارَةِ فَوَائِدِهَا؛ مِنْ تَدْخِيرِكَ، تَسْخِيرِكَ.. تَزَيُّنُ الاحْجَارِ والحَدِيدِ بِرُمُوزِ خَوَاصِّهَا وَمَنَافِعِهَا - خُصُوصاً فِي نَقْلِ الأَصْوَاتِ والمُخَابَرَاتِ - مِن تَدْبِيرِكَ، تَصْوِيرِكَ.. تَبَسُّمُ الأَزْهَارِ بِعَجَائِبِ حِكَمِهَا؛ مِنْ تَحْسِينِكَ، تَزْيِينِكَ.. تَبَرُّجُ الاثْمَارِ بِدَلاَلَةِ فَوَائِدِهَا؛ مِنْ إِنْعَامِكَ، إِكْرَامِكَ.. تَسَجُّعُ الأَطْيَارِ بِإِشَارَةِ إِنْتِظَامِ شَرَائِطِ حَيَاتِهَا؛ مِنْ إِنطَاقِكَ إِرفَاقِكَ.. تَهَزُّجُ الأَمْطَارِ بِشَهَادَةِ فَوَائِدِهَا؛ مِنْ تَنْزِيلِكَ، تَفْضِيلِكَ.. تَحَرُّكُ الأَقْمَارِ بِشَهَادَةِ حِكَمِ حَرَكَاتِهَا؛ مِن تَقْدِيرِكَ، تَدْبِيرِكَ، تَدْوِيرِكَ، تَنْوِيرِكَ.
سُبْحَانَكَ مَا أَنْوَرَ بُرهَانَكَ مَا أَبْهَرَ سُلْطَانَكَ!

(الفصل الثاني)

سُبْحَانَكَ لآ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ فِي فُرْقَانِكَ. وَأَثْنَى عَلَيْكَ حَبِيبُكَ بِإِذْنِكَ. وَأَثْنَتْ عَلَيْكَ جَمِيعُ مَصْنُوعَاتِكَ بِإِنْطَاقِكَ.

سُبْحَانَكَ مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ يا مَعْرُوفُ بِمُعْجِزَاتِ جَمِيعِ مَصنُوعَاتِكَ وَبِتَوصِيفَاتِ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِكَ وَبِتَعْرِيفَاتِ جَمِيعِ مَوْجُودَاتِكَ.

سُبْحَانَكَ مَا ذَكَرْنَاكَ حَقَّ ذِكْرِكَ يَا مَذْكُورُ بِأَلسِنَةِ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِكَ وَبِأَنفُسِ جَمِيعِ كَلِمَاتِ كِتَابِ كَائِنَاتِكَ وَبِتَحِيَّاتِ جَمِيعِ ذَوِي الحَيَاةِ مِنْ مَخْلُوقَاتِكَ لَكَ وَبِمَوْزُونَاتِ جَمِيعِ الاورَاقِ المُهتَزَّةِ الذَّاكِرَةِ فِي جَمِيعِ أَشْجَارِكَ ونَبَاتَاتِكَ.

سُبْحَانَكَ مَا شَكَرْنَاكَ حَقَّ شُكْرِكَ يا مَشْكُورُ بِأثنية جَميعِ إحْسَانَاتِكَ عَلى إحْسَانِكَ عَلى رُؤسِ الأشْهَادِ وَبِاعْلانَاتِ جَميعِ نِعَمِكَ عَلى إنْعَامِكَ في سُوقِ الكَائنَاتِ وَبِمَنْظُومَاتِ جَميعِ ثَمَرَاتِ رَحْمَتِكَ وَنِعْمَتِكَ لَدى أنْظَارِ المَخْلُوقَاتِ وبِتَحْميدَاتِ جَميعِ مَوْزُونَاتِ أزاهيرِكَ وَعَنَاقيدِكَ المُنَظَّمَةِ في خُيُوطِ الأشْجَارِ وَالنبَاتَاتِ.

سُبْحَانَكَ مَا أعظَمَ شَأنَكَ وَمَا أزينَ بُرْهَانَكَ وَمَا أظْهَرَهُ وَمَا أبْهَرَهُ!

سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ يَا مَعْبُودَ جَميعِ المَلئكَةِ وجَميعِ ذَوي الحَيَاةِ وجَميعِ العَنَاصِرِ والمَخْلُوقَاتِ، بِكَمَالِ الاطَاعَةِ والامْتِثَالِ والانتِظَامِ والاتِّفَاقِ والاشْتِيَاقِ.

سُبْحَانَكَ مَا سَبَّحْنَاكَ حَقَّ تَسْبيحِكَ يا مَنْ ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ والأرْضُ وَمَنْ فيهِنَّ وَإنْ مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه** ﴾.

سُبْحَانَكَ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ السَّمآءُ وَالأرضُ بِجميعِ تَسْبيحاتِ جَميعِ مَصْنُوعَاتِكَ وَبِجَميعِ تَحْميدَاتِ جَميعِ مَخْلُوقَاتِكَ لَكَ.

سُبْحَانَكَ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الارضُ وَالسَّمَآءُ بِجَميعِ تَسْبيحَاتِ جَميعِ أنْبيَائِكَ وَأولِيَائِكَ وَمَلائِكَتِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتُكَ وَتَسْليمَاتُكَ.

سُبْحَانَكَ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الكَائنَاتُ بِجَميعِ تَسْبيحَاتِ حَبيبِكَ الاكْرَمِ ﷺ. وَبِجَميعِ تَحْميدَاتِ رَسُولِكَ الأعْظَمِ لَكَ، عَلَيهِ وَعَلى آلِهِ أفْضَلُ صَلَوَاتِكَ وَأتَمُّ تَسْليمَاتِكَ.

سُبْحَانَكَ يا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ هذه الكَائناتُ بِأصْدِيَةِ تَسبيحَاتِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَكَ؛ إذْ هُوَ الَّذي تتَمَوَّجُ أصْدِيَةُ تَسْبيحَاتِهِ لَكَ عَلى أمْوَاجِ الأعْصَارِ وَافْوَاجِ الاَجْيَالِ.

اَللّٰهُمَّ فَأَبِّدْ عَلى صَفَحَاتِ الكَائِنَاتِ وَأَوْرَاقِ الاوْقَاتِ إِلى قِيَامِ العَرَصَاتِ أَصْدِيَةَ تَسْبِيحَاتِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَلاَةُ والتَسْلِيماتُ.

سُبْحَانَكَ يا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الدُنْيَا بِآثَارِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَلاةُ وَالسَّلامُ.

اَللّٰهُمَّ فَزَيِّنِ الدُّنيَا بِآثَارِ دِيَانَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلامُ إِلى يَوْمِ القِيَامِ.

سُبْحَانَكَ يامَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الأَرضُ سَاجِدَةً تَحتَ عرْشِ عَظَمَةِ قُدْرَتِكَ بِلِسَانِ مُحَمَّدِهَا عَلَيهِ الصَلاةُ وَالسَّلامْ.

اَللّٰهُمَّ فَأَنْطِقِ الارضَ بِأَقْطَارِهَا بِلِسَانِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَلاةُ والسَّلامُ اِلى يَوْمِ البَعْثِ والقِيَامِ.

سُبْحَانَكَ يَا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ جَمِيعُ المُؤمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ في جَمِيعِ الأَمْكِنَةِ وَالاوْقَاتِ بِلِسانِ مُحَمَّدِهِمْ عَلَيهِ الصَلاةُ وَالسَّلامْ.

اللّٰهُمَّ فَانْطِقِ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤمِنَاتِ اِلى يَومِ القِيَامِ بِأَصْدِيَةِ تَسْبِيحَاتِ مُحَمَّدٍ لك عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامْ.

(الفصل الثالث)

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ المُتَقَدِّسِ المُتَنَزِّهِ عَنِ الاضْدَادِ وَالأَنْدَادِ وَالشُرَكَاءِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ القَدِيرِ الأَزَليِّ المُتَقَدِّسِ المُتَنَزِّهِ عَنِ المُعِينِ وَالوُزَرَاءِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ القَديمِ الأزَليُّ المُتَقَدِّسِ المُتَنزِّهِ عَنْ مُشَابَهَةِ المُحْدثَاتِ الزَّائِلاَتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ الوَاجِبِ وُجُودُهُ المُمْتَنِع نَظيرُهُ المُمكِنِ كُلُّ مَا سِوَاهُ المُتَقَدِّسِ المُتَنزِّهِ عَنْ لَوَازِمِ ماهيَّاتِ المُمْكِنَاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ الَّذي ﴿لَيسَ كَمِثلِه شَيءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾ المُتَقَدِّسُ المُتَنزِّهُ عَمَّا تَتَصوَّرُهُ الأوْهَامُ القَاصِرَةُ الخَاطِئَةُ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ الَّذي ﴿لَهُ المَثَلُ الأعْلى في السَّموَاتِ وَالأرضِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾ المُتَقَدِّسُ المُتَنزِّهُ عَمَّا تَصِفُهُ العَقَائِدُ النَاقِصَةُ البَاطِلَةُ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ القَديرِ المُطْلَقِ الغَنيُّ المُتَقَدِّسِ المُتَنزِّهِ عَنِ العَجْزِ والاحْتِياجِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ الكامِلِ المُطْلَقِ في ذَاتِهِ وَصِفَاتِه وَأفْعالِه المُتَقَدِّسِ المُتَنزِّهِ عَنِ القُصُورِ والنُّقْصَانِ، بِشَهَادَاتِ كَمَالاتِ الكائِنَاتِ. إذْ مَجْمُوعُ مَا في الكائِنَاتِ مِن الكَمالِ وَالجَمَالِ ظِلٌّ ضَعيفٌ بِالنِّسْبَةِ الى كَمَالِه سُبْحَانَهُ، بالحَدْسِ الصَّادِقِ وَبِالبُرْهَانِ القَاطِعِ وبالدَّليل الوَاضِحِ. إذِ التَّنْويرُ لا يَكُونُ إلاّ مِنَ النُّورانيِّ وبِدَوَامِ تَجَلّي الجَمَالِ وَالكَمَالِ مَعَ تَفَانِي المَرَايا وسَيَّالِيَّةِ المَظَاهِرِ وبِإجْمَاعِ وَاتِّفَاقِ جَمَاعَةٍ كَثيرَةٍ مِنَ الأعَاظِمِ المُخْتَلِفينَ في المَشَارِبِ والكَشْفيَّاتِ المُتَّفِقينَ عَلى ظِلِّيَّةِ كَمَالاتِ الكَائِنَاتِ لأنْوَارِ كَمالِ الذَّاتِ الوَاجِبِ الوُجُودِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ الأَزَليّ الأبَديّ السَّرْمَديّ المُتَقَدّسِ المُتنزه عَنِ التَّغيرِ والتَّبَدُّلِ اللاَّزِمَيْنِ للمُحْدَثَاتِ المُتَجَدّدات المُتكاملاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ خَالِقِ الكَوْنِ وَالمَكَانِ المُتقدّسِ المُتنزهِ عَنِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجَزُّءِ اللاَّزِمَيْنِ للمَادّيَّاتِ وَالمُمْكِنَاتِ الكَثِيفَاتِ الكَثِيرات المُقَيَّدَاتِ المَحْدُودَاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ القَدِيمِ الباقِي المُتَقَدّسِ المُتَنَزّهِ عَنِ الحُدُوثِ وَالزَّوَالِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ اللهِ الوَاجِبِ الوُجُودِ المُتَقَدّسِ المُتَنَزّهِ عَنِ الوَلَدِ وَالوَالِدِ وَعَنِ الحُلُول والإتّحَادِ وَعَنِ الحَصرِ وَالتَّحْدِيدِ وَعَمَّا لا يَلِيقُ بِجنَابِهِ وَمَا لا يُنَاسِبُ وُجُوبَ وُجُودِهِ وَعَمَّا لا يُوَافِقُ أَزَلِيَّتَهُ وَأبَدِيَّتَهُ.

جَلَّ جَلالُهُ. وَلاَ إلهَ إلاَّ هُوَ.

الباب الثاني

في « الحَمْدُ للهِ.. »(١)

في هذا الباب تسع نقاط..

النقطة الاولى:

الحَمْدُ للهِ عَلى نِعمَةِ الايمَانِ المُزيلِ عنّا ظُلُمَاتِ الجِهَاتِ السِّتّ.

إذْ جِهةُ المَاضِي في حُكْمِ يَمينِنا مُظْلِمَةٌ ومُوحِشَةٌ بِكَونِهَا مَزاراً أكبرَ. وبِنِعْمَةِ الايمانِ تَزولُ تلكَ الظُّلْمَةُ وينكَشِفُ المَزارُ الاكبرُ عَنْ مَجلِسٍ مُنوّرٍ.

ويَسَارُنَا الّذي هُوَ الجِهَةُ المُسْتقبَلَةُ، مُظْلِمَةٌ ومُوحِشَةٌ بِكَونِهَا قَبراً عَظيماً لَنَا. وبِنِعْمَةِ الايمَانِ تَنْكَشِفُ عَنْ جِنَانٍ مُزيّنةٍ فيهَا ضِيافَاتٌ رَحْمَانيّةٌ.

وَجِهَةُ الفَوقِ وَهُوَ عَالَمُ السّموات مُوحِشَةٌ مُدْهِشَةٌ بِنَظَرِ الفَلسَفَةِ. فَبِنِعْمَةِ الايمَانِ تتَكَشَّفُ تلكَ الجِهَةُ عَنْ مَصابيحَ مُتبسِّمَةٍ مُسَخَّرَةٍ بِأمْرِ مَنْ زَيَّنَ وَجه السَّماءِ بِهَا يُسْتَأنَسُ بِهَا وَلا يُتَوَحَّشُ مِنْهَا.

وَجِهَةُ التَّحْتِ وَهيَ عَالَمُ الأرضِ مُوحِشَةٌ بِوَضْعيَّتِهَا في نَفْسِهَا بِنَظَرِ الفَلسَفَةِ الضَّالَّة. فَبِنعْمَةِ الايمَانِ تَتَكَشَّفُ عَنْ سَفينَةٍ رَبَّانيَةٍ مُسَخَّرَةٍ وَمَشْحُونَةٍ بِأنْوَاعِ اللَّذَائذِ والمَطْعُومَاتِ؛ قَدْ أرْكَبَهَا صَانِعُهَا نَوعَ البَشَرِ وَجِنسَ الحَيَوَانِ للسِّياحَةِ في أطْرَافِ مَمْلَكَةِ الرَّحْمنِ.

---

(١) لما كان الشكر أهم اسس رسائل النور بعد التفكر، وان اكثر مراتب الشكر والحمد وحقائقهما قد أوضحت ايضاحاً كاملاً في اجزاء رسائل النور؛ لذا يذكر هنا بعض مراتب الحمد الذي يقابل نعمة الايمان ذكراً مختصراً جداً، اكتفاءً بتلك المراتب المذكورة. فان للحمد مراتب حسب مراتب نعمة الايمان. ـ المؤلف.

وَجِهَةُ الأَمَامِ الَّذي يَتَوَجَّهُ الى تِلكَ الجِهَةِ كُلُّ ذَوي الحَيَاة مُسْرِعَةً قَافِلَةً خَلفَ قَافِلَةٍ، تَغيبُ تلكَ القَوافِلُ في ظُلُمَاتِ العَدَمِ بِلا رُجُوعٍ. وَبِنِعْمَةِ الايمَانِ تَتَكَشَّفُ تِلكَ السِياحَةُ عَنِ انتِقَالِ ذَوي الحَيَاةِ مِنْ دَارِ الفَنَاءِ الى دَارِ البَقَاءِ، وَمِنْ مَكَانِ الخِدْمَةِ الى مَوضِعِ أخْذِ الأُجْرَةِ، وَمِنْ مَحَلِّ الزَّحْمَةِ الى مَقامِ الرَّحْمَةِ والاستِرَاحَةِ. وَأمَّا سُرعَةُ ذَوي الحَيَاةِ في أمْوَاجِ المَوتِ، فَلَيسَتْ سُقُوطاً وَمُصيبَةً، بَل هِيَ صُعُودٌ بِاشتِياقٍ وَتَسارُعٌ الى سَعادَاتِهِمْ.

وَجِهَةُ الخَلْفِ ايضاً مُظْلِمَةٌ مُوحِشَةٌ. فَكُلُّ ذي شُعُورٍ يَتَحَيَّرُ مُتَرَدِّداً وَمُستَفْسِراً بـ« مِنْ أينَ؟ إلى أينَ؟ ». فلأنَّ الغَفْلَةَ لا تُعطي لهُ جَوَاباً، يَصيرُ التَرَدُّدُ والتَّحَيُّرُ ظُلُمَاتٍ في رُوحِهِ.. فَبِنِعْمَةِ الايمَانِ تَنْكَشِفُ تِلكَ الجِهَةُ عَنْ مَبْدَإِ الانْسَانِ وَوَظِيفَتِهِ، وَبِأنَّ السُّلطَانَ الأزَليَّ أرسَلَهُمْ مُوَظَّفينَ الى دَارِ الامْتِحَانِ..

فَمِنْ هذه الحَقيقَةِ يَكُونُ « الحَمْدُ » عَلى نِعْمَةِ الايمَانِ المُزيلِ للظُّلُمَاتِ عَنْ هذه الجِهَاتِ السِّتِّ أيضاً نِعْمَةً عَظيمَةً تَستَلزِمُ « الحَمْدَ ». إذ بـ« الحَمْدِ » يُفْهَمُ دَرَجَةُ هذه النِّعْمَةِ وَلَذَّتُهَا. فَالحَمْدُ لله عَلى « الحَمْدُ لله في تَسَلسُلٍ يَتَسَلسَلُ في دَوْرٍ دَائِرٍ بِلا نِهَايَةٍ ».

النُّقطة الثانية

الحَمْدُ لله عَلى نِعْمَةِ الايمَانِ المُنَوِّرِ لَنَا الجِهَاتِ السِّتَّ. فَكَمَا أنَّ الايمَانَ بِإزَالَتِهِ لِظُلُمَاتِ الجِهَاتِ السِّتِّ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ جِهَةِ دَفْعِ البَلايا؛ كَذَلِكَ أنَّ الايمَانَ لِتَنْويرِهِ للجِهَاتِ السِّتِّ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ أُخرى مِنْ جِهَةِ جَلْبِ المَنَافِعِ. فَالانسَانُ لِعلاقَتِهِ بِجَامِعيَّةِ فِطْرَتِهِ بِمَا في الجِهَاتِ السِّتِّ مِنَ المَوجُودَاتِ. وَبِنِعْمَةِ الايمَانِ يُمْكِنُ للإنسَانِ اسْتِفَادَةٌ مِنْ جَميعِ الجِهَاتِ السِّتِّ أيْنَمَا يَتَوَجَّهُ. فَبِسِرِّ ﴿ **فأينما تولّوا فثمّ وجه الله** ﴾(البقرة: ١١٥) تَتَنَوَّرُ لهُ تِلكَ الجِهَةُ بِمَسَافَتِهَا الطَّويلَةِ بِلاَ حَدٍّ. حَتَّى كأنَّ الانسَانَ المُؤمِنَ لَهُ عُمرٌ

مَعْنَويٌّ يَمْتَدُّ مِنْ أَوَلِ الدُّنيَا إلى آخِرِهَا، يَسْتَمِدُّ ذَلِكَ العُمْرُ من نُورِ حَيَاةٍ مُمْتَدَّةٍ من الأَزَلِ الى الأَبَدِ. وحتى إنَّ الإنسَانَ بسرِّ تَنْوِيرِ الايمَانِ لجِهَاتِه يَخْرُجُ عَنْ مَضِيقِ الزَّمَانِ الحَاضِرِ وَالمَكَانِ الضَّيِّقِ الى سَاحَةِ وُسْعَةِ العَالَمِ، ويَصيرُ العَالَمُ كَبَيْتِه، والمَاضِي وَالمُسْتَقْبَلُ زَمَاناً حَاضِراً لِرُوحِه وَقَلْبِه. وَهَكَذا فَقِسْ...

النُقطة الثالثة

الحَمْدُ لله عَلى الايمَانِ الحَاوِي لنُقطَتَي الاسْتِنَاد وَالاسْتِمْدَاد.

نَعَمْ، بِسرِّ غَايَةِ عَجزِ البَشَرِ وكَثْرَةِ أَعْدَائِه يَحتَاجُ البَشَرُ أَشَدَّ احتِيَاجٍ إلى نُقطَةِ اسْتِنَادٍ يَلْتَجِئُ إِلَيْهَا لِدَفْعِ أَعْدَآئِه الغَيْرِ(١) المَحْدُودَةِ، وَبِغَايَةِ فَقْرِ الانسَانِ مَعَ غَايَةِ كَثْرَةِ حاجَاتِه وَآمَالِه يَحْتَاجُ أَشَدَّ احتِيَاجٍ الى نُقطَةِ اسْتِمدَاد يَستَمِدُّ مِنْهَا، وَيَسْأَلُ حَاجَاتِه بِهَا.

فَالايمَانُ بالله هِيَ نُقطَةُ اسْتِنَادٍ لفِطرَةِ البَشَرِ. وَالايمَانُ بالآخِرَةِ هُوَ نُقطَةُ اسْتِمدَادٍ لِوِجْدَانِه. فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَاتَينِ النُّقطَتَينِ يَتَوَحَّشُ عَلَيه قَلْبُه وَرُوحُه، وَيُعَذِّبُه وِجدَانُه دَآئِماً. وَمَنْ اسْتَنَدَ بالايمَانِ إلى النُقطَةِ الاولَى، وَاسْتَمَدَّ مِنَ النُقطَةِ الثَّانِيَةِ أَحسَّ مِن أَعْمَاقِ رُوحِه لَذَائِذَ مَعْنَوِيَّةً وَأُنْسِيَةً مُسَلِّيَةً وَاعتِمَاداً يَطْمَئِنُّ بِهَا وِجْدَانُه.

النُقطة الرابعة

الحَمْدُ لله عَلى نُورِ الايمَانِ المُزيلِ للآلاَمِ عَنِ اللَّذَائذِ المَشْرُوعَةِ بِإِراءَةِ دَوَرَانِ الامْثَالِ، وَالمُديمِ للنِّعَمِ بِإِراءَةِ شَجَرَةِ الإنْعَامِ، وَالمُزيلِ آلامَ الفِرَاقِ بإراءَةِ لَذَّةِ تَجَدُّدِ الامثَالِ. يَعْنِي أَنَّ في كُلِّ لَذَّةٍ آلاماً تَنشَأُ مِنْ زَوَالِهَا. فَبِنُورِ الايمَانِ يَزُولُ الزَّوَالُ، وَيَنقَلِبُ الى تَجَدُّدِ الامثَالِ. وَفي التَّجَدُّدِ لَذَّةٌ أُخرى..

فَكَمَا أَنَّ الثَّمرَةَ إذا لَمْ تُعْرَفْ شَجَرَتُهَا تَنْحَصِرُ النِّعْمَةُ في تِلكَ الثَّمرَةِ. فَتَزُولُ بِأَكْلِهَا.

---

(١) جاء في المصباح المنير، في مادة (غير) ما نصّه:
«... وقوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ انما وصف بها المعرفة، لأنها أشبهَت المعرفة باضافتها الى المعرفة، فعوملت معاملتها. ومن هنا اجترأ بعضهم فادخل عليها الألف واللام، لأنها لمّا شابهت المعرفة، باضافتها الى المعرفة، جاز ان يدخلها ما يعقب الاضافة، وهو الألف واللام...». – المترجم.

وَتُورِثُ تَأَسُّفاً عَلى فَقْدِهَا. وإذا عُرِفَتْ شَجَرَتُها وَشُوهِدَتْ، يَزُولُ الأَلَمُ في زَوَالِهَا لِبَقَاءِ شَجَرَتِهَا الحَاضِرَةِ، وَتَبْديلِ الثَّمَرَةِ الفَانيَةِ بِأَمْثَالِهَا. وَكَذَا إنَّ مِنْ أَشَدِّ حَالاتِ رُوحِ البَشَرِ هِيَ التَّأَلُّمَاتُ النَّاشِئَةُ مِنَ الفِرَاقَاتِ. فَبِنُورِ الايمَانِ تفترقُ الفِرَاقَاتُ وَتنعَدِمُ. بَل تَنْقَلِبُ بِتَجَدُّدِ الامثَالِ الَّذي فيهِ لذَّةٌ أُخرى إذ «كُلُّ جَديدٍ لَذيذٌ»...

النقطة الخامسة

الحَمْدُ للهِ عَلى نُورِ الايمَانِ الَّذي يُصَوِّرُ مَا يُتَوَهَّمُ أَعْدَآءً وَاجَانِبَ وَامْوَاتاً مُوحِشينَ، وَايْتَاماً باكينَ مِنَ المَوجُودَاتِ، أَحْبَاباً وإخْوَاناً وَأَحْيَاءً مُونِسينَ، وَعِبَاداً مُسَبِّحينَ ذَاكِرِينَ..

يَعْني أنَّ نَظَرَ الغَفلَةِ يَرى مَوجُودَاتِ العَالَمِ مُضِرِّينَ كَالأَعْداءِ وَيَتَوَحَّشُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، وَيَرَى الأَشْيَآءَ كَالاجانِبِ. إذْ في نَظَرِ الضَّلاَلَةِ تَنْقَطِعُ عَلاَقَةُ الأُخُوَّةِ في كُلِّ الأَزمِنَةِ المَاضيَةِ وَالاستِقْبَاليَّةِ. وَمَا أُخُوَّتُهُ وَعَلاَقَتُهُ إلاّ في زَمَانٍ حَاضِرٍ صَغيرٍ قَليلٍ. فَأُخُوَّةُ أَهْلِ الضَّلاَلَةِ كَدَقيقَةٍ في أُلُوفِ سَنَةٍ مِنَ الاجْنَبيَّةِ. وَأُخُوَّةُ أَهْلِ الايمَانِ تَمتَدُّ مِنْ مَبْدَإِ المَاضي إلى مُنتهَى الاستِقبَالِ. وَانَّ نظرَ الضَّلاَلَةِ يَرى أَجْرَامَ الكائِنَاتِ أَمْوَاتاً مُوحِشينَ. وَنَظَرَ الايمَان يُشَاهِدُ أُولئكَ الاجْرَامَ أَحْياءً مُونسينَ يَتَكَلَّمُ كُلُّ جرمٍ بِلِسَانِ حالِهِ بِتَسْبيحَاتِ فاطِرِهِ. فَلَها رُوحٌ وحَيَاةٌ مِنْ هذهِ الجِهَةِ. فَلا تَكُونُ مُوحِشاً مُدْهِشاً، بَلْ انيساً مُونِساً. وَانَّ نَظَرَ الضَّلاَلَةِ يَرَى ذَوي الحَيَاةِ العَاجِزينَ عَنْ مَطَالِبِهِمْ لَيسَ لَهُمْ حَامٍ مُتَوَدِّدٌ وَصَاحِبٌ مُتَعَهِّدٌ. كَأَنَّهَا أَيتَامٌ يَبكُونَ مِنْ عَجْزِهِمْ وَحُزْنِهِمْ وَيَأْسِهِمْ. وَنَظَرَ الايمَانِ يَقُولُ: إنَّ ذَوي الحَيَاةِ لَيسُوا أيتَاماً بَاكينَ، بَل هُمْ عِبَادٌ مُكَلَّفُونَ وَمَأْمُورونَ مُوَظَّفُونَ وَذَاكِرونَ مُسَبِّحُونَ.

النُقطة السادسة

الحَمْدُ للهِ عَلى نُورِ الايمَانِ المُصَوِّرِ للدَّارَينِ كَسُفرَتَينِ مَمْلُوءتَينِ مِنَ النِّعَمِ يَستَفيدُ مِنْهُمَا المُؤمِنُ بيَدِ الايمَانِ بأنواعِ حَوَاسِّهِ الظَاهِرةِ وَالبَاطِنَةِ، وَاَقسَامِ لَطَائفهِ المَعنَويَةِ وَالرُوحيَةِ المُنْكَشِفَةِ بِضيَاءِ الايمَانِ.

نَعَمْ: إنَّ في نَظَرِ الضَّلاَلَةِ تتَصَاغَرُ دائِرَةُ استِفَادَةِ ذَوي الحَيَاة الى دائِرَةِ لَذَائذهِ المَادِّيَّةِ المُنَغَّصَةِ بِزَوَالهَا. وَبِنُورِ الايمَانِ تتوَسَّعُ دَائِرَةُ الاسْتِفَادَةِ الى دآئِرَةِ تُحيطُ بالسَّموَاتِ وَالارضِ بَلْ بالدُّنيَا وَالآخرَةِ. فَالمُؤمنُ يَرى الشَّمسَ كَسِراجٍ في بَيْتِهِ وَرَفيقاً في وَظيفَتِهِ وأنيساً في سَفَرِهِ؛ وَتَكُونُ الشَّمْسُ نِعْمَةً مِن نِعَمةٍ. وَمَنْ تَكُونُ الشَّمْسُ نِعْمَةً لَهُ؛ تَكُونُ دائِرَةُ استِفَادَتِهِ وَسُفرَةُ نِعَمَتِهِ أوسَعَ مِنَ السَّموَاتِ.

فَالقرآنُ المُعْجِزُ البَيَانِ بِامثَالِ ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمسَ والقَمرَ** ﴾ ﴿ **وسَخَّرَ لَكُمْ مَا في الأرضِ** ﴾ يُشيرُ ببَلاَغتِهِ إلى هذهِ الإحسانَاتِ الخَارِقَةِ النَاشِئَةِ مِنَ الايمَانِ.

النقطة السابعة

الحَمْدُ للهِ عَلى اللهِ. فَوُجُودُ الوَاجِبِ الوُجُودِ نِعْمَةٌ لَيسَتْ فَوقَهَا نِعْمَةٌ لِكُلِّ أحَدٍ وِلكُلِّ مَوجُودٍ. وهذهِ النِّعْمَةُ تَتَضَمَّنُ أنوَاعَ نِعَمٍ لا نِهَايَةَ لَهَا، وَأجْنَاسِ إحْسَانَاتٍ لا غَايَةَ لَهَا، وأصْنَافَ عَطيَّاتٍ لا حَدَّ لَهَا.

قد اشير الى قسم منها في اجزاء «رسالة النور» وبالخاصة (في الموقف الثالث من الرسالة الثانية والثلاثين). وكل الرسائل الباحثة عن الايمان بالله من أجزاء رسالة النور تكشف الحجاب عن وجه هذه النعمة. فإكتفاءً بها نقتصر هنا.

الحَمْدُ للهِ عَلى رَحْمَانِيَّتِهِ تَعَالى التي تَتَضَمَّنُ نِعَماً بِعَدَدِ مَنْ تَعَلَّقَ بِهِ الرَّحْمَةُ مِنْ ذَوي الحَياة. إذ في فِطرَةِ الانسَانِ بِسِرِّ جَامِعيَّتِهِ عَلاقَاتٌ بِكُلِّ ذَوي الحَيَاة تَحصُلُ لَهُ

سَعَادَةً مَعْنَوِيَّةً بِسَبَبِ سَعَادَاتِهِمْ. وَفي فِطرَتِهِ تَأثُّرٌ بِآلامِهِمْ. فَالنِّعْمَةُ عَلَيهِم تَكُونُ نَوعَ نِعْمَةٍ لِذَلِكَ الانسَانِ.

والحَمْدُ للهِ عَلى رَحِيمِيَّتِهِ تَعَالى بِعَدَدِ الاطفَالِ المُنْعَمِ عَلَيهِمْ بِشَفَقَاتِ والِدَاتِهِمْ. إذ كَمَا أنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ فِطرَةٌ سَلِيمَةٌ يَتَألَّمُ ويَتَوجَّعُ مِنْ بُكَاءِ طِفلٍ جَائِعٍ لا وَالِدَةَ لَهُ؛ كَذَلِكَ يَتَنَعَّمُ بِتَعَطُّفِ الوَالِداتِ عَلى أطفَالِهَا.

الحَمْدُ للهِ عَلَى حَكِيمِيَّتِهِ تَعَالى بِعَدَدِ دقَائِقِ جَمِيعِ أنوَاعِ حِكمَتِهِ في الكائنَاتِ. إذْ كمَا تَتَنَعَّمُ نَفْسُ الإنْسَانِ بِجَلَوَاتِ رَحْمانِيَّتِهِ، وَيَتَنَعَّمُ قَلبُ الانسَانِ بِتَجَلِّيَاتِ رَحِيمِيَّتِهِ؛ كَذَلِكَ يَتَلَذَّذُ عَقلُ الانسَانِ بِلَطَائِفِ حِكمَتِهِ.

الحَمْدُ للهِ عَلى حَفِيظِيَّتِهِ تَعَالى بِعَدَدِ تَجَلِّيَاتِ اسمِهِ «الوَارِثِ»، وَبِعَدَدِ جَمِيعِ مَا بَقِيَ بَعدَ فَوَاتِ أُصُولِهَا وَابَائِهَا وَصَواحِبِهَا، وَبِعَدَدِ مَوجُودَاتِ دَارِ الآخِرَةِ، وبِعَدَدِ آمَالِ البَشَرِ المَحْفُوظَةِ لأجلِ المُكافأةِ الأُخرَوِيَّةِ. إذْ دَوَامُ النِّعْمَةِ اعْظَمُ نِعمَةً مِنْ نَفسِ النِّعْمَةِ؛ وَبَقَاءُ اللَّذَّةِ لَذَّةٌ أعلىٰ لَذَّةً مِنْ نَفسِ اللَّذَّةِ؛ والخُلودُ في الجَنَّةِ نِعْمَةٌ فَوْقَ نَفْسِ الْجَنَّةِ. وهكَذا.

فَحَفِيظِيَّتُهُ تَعَالى تَتَضَمَّنُ نِعَماً اكثَرَ وَأزيَدَ وَاعلى مَنْ جَمِيعِ النِّعَمِ عَلى المَوجُودَاتِ في جَمِيعِ الكائِنَاتِ.

وهكَذا، فَقِسْ عَلى اسمِ «الرَّحمن والرَّحِيمِ وَالحَكِيمِ وَالحَفِيظِ» سَائِرَ أسْمَائِهِ الحُسْنى.

فالحَمْدُ للهِ عَلى كُلِّ اسم مِنْ أسْمآئِهِ تَعَالى حَمداً بِلا نِهَايَةٍ. لِمَا أنَّ في كُلِّ اسم منها نِعَماً بِلا نِهَايَةٍ.

الحَمْدُ لله عَلى القُرآنِ الَّذي هُوَ تَرْجُمَانٌ لكُلِّ مَا مَضى مِنْ جَميعِ الإنْعَامَاتِ الَّتي لا نِهَايَةَ لَهَا حَمْداً بلا نِهَايَةٍ.

الحَمْدُ لله عَلى مُحَمَّدٍ عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ حَمْداً بِلا نِهَايَة. إذْ هُوَ الوَسيلَةُ للايمَانِ الَّذي فيهِ جَميعُ المَفَاتيحِ لِجَميعِ خَزَائِنِ النِّعَمِ التي أشَرْنَا إليهَا في هذَا البَابِ الثَّاني آنفاً.

الحَمْدُ لله عَلى نِعْمَةِ الاسْلاميَّةِ الَّتي هيَ مَرضيَّاتُ رَبِّ العَالَمينَ، وفِهرِسْتَةٌ لأَنْوَاعِ نِعَمِهِ المَادِّيَّةِ وَالمَعْنَويَّةِ، حَمْداً بِلا نِهَايَةٍ.

النقطة الثامنة

الحَمْدُ لله الَّذي يَحْمَدُ لَهُ وَيُثني عَلَيهِ بِإظهَارِ أوصَافِ جَمَالِهِ وَكَمَالِهِ، هذَا الكِتَابُ الكَبيرُ المُسَمّى بـ«الكائنَات» بجَميعِ ابوَابِهِ وَفُصُولِهَا، وبجَميعِ صَحائفهِ وَسُطُورِهَا، وَبجَميعِ كَلِمَاتِهِ وَحُرُوفِهَا، كُلٌّ بِقَدَرِ نِسبَتِهِ يَحْمَدُهُ تَعَالى وَيُسَبِّحُهُ بإظهَارِ بَوَارِقِ اَوصَافِ جَلالِ نَقَّاشِهِ الاحَدِ الصَّمَدِ بِمَظهَرِيَّةِ كُلٌّ بِقَدَرِ نِسبَتِهِ لأضْوَاءِ أَوْصَافِ جَمَالِ كَاتِبِهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ، وَبِمَظْهَرِيَّةِ كُلٌّ بِقَدَرِ نِسبَتِهِ لأنوارِ أَوْصَافِ كمالِ مُنْشِئها وَمُنْشِدِها القَديرِ العَليمِ العَزيزِ الحَكيمِ، وَبِمرآتيَّة كلٌّ بِقَدَرِ نِسبَتِهِ لأَشعَّةِ تَجَلِّيَاتِ أسْماءِ مَنْ لَهُ الأَسْماءُ الحُسنى. جَلَّ جَلالُهُ ولا إلهَ إلاّ هُوَ.

النقطة التاسعة

الحَمْدُ ـ مِنَ الله باللهِ عَلى اللهِ ـ للهِ بِعَدَدِ ضَرْبِ ذَرَّاتِ الكائنَاتِ مِنْ أَوَّلِ الدُّنيَا الى آخِرِ الخِلقَةِ في عَاشِرَاتِ دَقائِقِ الأزمِنَةِ مِنَ الأزَلِ الى الأبَدِ.

الحَمْدُ للهِ عَلى «الحَمْدُ للهِ» بِدَورٍ دائِرٍ في تَسلسُلٍ[1] يَتَسَلسَلُ إلى مَالا يَتَنَاهى.

الحَمْدُ للهِ عَلى نِعْمَةِ القُرآنِ وَالايمَانِ عَلَيَّ وَعَلى إخوَاني بِعَدَدِ ضَرْبِ ذَرَّاتِ وُجودِي في عَاشِرَاتِ دَقَائقِ عُمْري في الدُّنيَا، وَبَقَائي وبَقائِهِمْ في الآخِرَةِ.

﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاّ ما عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾

﴿ الحَمْدُ للهِ الَّذي هَديـٰنَا لِهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ

لَولا أنْ هَديــٰنَا اللهُ لقَدْ جَآءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ ﴾.

اللّٰهُمَّ صَلِّ عَلى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ بِعَدَدِ حَسَنَاتِ أُمَّتِهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلِّمْ آمينَ.

وَالحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمينْ.

---

(١) الدور والتسلسل محالان في دائرة الممكنات. لأنهما يقتضيان عدم التناهي، ودائرة الممكنات متناهية فلاتسع غير المتناهي. اما الحمد المتعلق بدائرة الوجوب فهو غير متناهٍ. فيدخل بالدور والتسلسل في دائرة غير متناهية فيتمكن فيها وتسعه. ـ المؤلف.

الباب الثالث

في مراتب

« الله اكبر »

« سنذكر سبعاً من ثلاث وثلاثين مرتبة لهذا الباب، حيث قد ذُكر قسمٌ مهم من تلك المراتب في المقام الثاني من المكتوب العشرين، وفي نهاية الموقف الثاني من الكلمة الثانية والثلاثين، وفي بداية الموقف الثالث منها. فمن شاء أن يطلع على حقيقة هذه المراتب، فليراجع تلك الرسائل »

المرتبة الاولى

﴿ وَقُلِ الحَمْدُ لله الَّذي لَمْ يَتخِّذْ وَلَداً وَلَمْ يكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلكِ وَلَمْ يكُنْ لَهُ وَليٌ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرهُ تكبيراً ﴾(الاسراء: ١١١). لَبيكَ وَسَعْدَيكَ..

جلَّ جلالُه اللهُ اكبَرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ قُدرَةً وَعِلماً، إذْ هُوَ الخَالِقُ البارئُ المُصَوِّرُ الَّذي صَنَعَ الانسَانَ بقُدرَتِه كالكَائِنَات، وَكَتَبَ الكَائِنَاتِ بقَلَم قَدَرِه كَمَا كَتَبَ الانسَانَ بذَلِكَ القَلَم. إذْ ذاكَ العَالَمُ الكَبيرُ كَهَذَا العَالَمِ الصغيرِ مَصنُوعُ قُدرَتِه مَكتُوبُ قَدَرِه. إبدَاعُهُ لذَاكَ صَيَّرَهُ مَسْجداً. ايجَادُهُ لهذا صَيَّرَهُ ساجداً. إنْشَاؤُهُ لذَاكَ صَيَّرَ ذاكَ مُلكاً. بنَاؤُهُ لهذا صَيَّرَهُ مَملُوكاً. صَنعَتُهُ في ذاكَ تَظَاهَرَتْ كتَاباً. صبْغَتُهُ في هَذا تَزَاهَرَتْ خطاباً. قُدرَتُهُ في ذاكَ تُظهِرُ حشمَتَهُ. رَحْمَتُهُ في هَذا تَنظِمُ نِعْمَتَهُ. حشمَتُهُ في ذاكَ تَشْهَدُ هُوَ الوَاحدُ. نعمَتُهُ في هَذا تُعلِنُ هُوَ الأحَدُ. سكَّتُهُ في ذَاك في الكُلِّ وَالأجْزَاءِ سُكوناً حَرَكَةً. خاتَمُهُ في هَذا في الجِسمِ وَالأعْضاءِ حُجَيرَةً ذَرَّةً.

فَانْظُرْ إلى آثَارِهِ الْمُتَّسِقَةِ كيفَ ترى كَالفَلَقِ سَخَاوَةً مُطْلَقَةً مَعَ انْتِظَامٍ مُطْلَقٍ، في سُرْعَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتِّزَانٍ مُطْلَقٍ، في سُهُولَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتْقَانٍ مُطْلَقٍ، في وُسْعَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ حُسْنِ صُنْعٍ مُطْلَقٍ، في بُعْدَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتِّفَاقٍ مُطْلَقٍ، في خِلْطَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ امْتِيَازٍ مُطْلَقٍ، في رُخْصَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ غُلُوٍّ مُطْلَقٍ. فَهَذِهِ الكَيْفِيَّةُ المَشْهُودَةُ شَاهِدَةٌ للعَاقِلِ المُحَقِّقِ، مُجْبِرَةٌ للأَحْمَقِ المُنَافِقِ عَلى قَبُولِ الصَنْعَةِ وَالوَحْدَةِ للحَقِّ ذي القُدْرَةِ المُطْلَقَةِ، وَهُوَ العَلِيمُ المُطْلَقُ.

وَفي الوَحْدَةِ سُهُولَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَفي الكَثْرَةِ وَالشِّرْكَةِ صُعُوبَةٌ مُنْغَلِقَةٌ:

إنْ أُسْنِدَ كُلُّ الأَشْيَاءِ للوَاحِدِ، فَالكَائِنَاتُ كَالنَّخْلَةِ، وَالنَّخْلَةُ كَالثَّمَرَةِ سُهُولَةً في الابْتِدَاعِ. وَإنْ أُسْنِدَ للكَثْرَةِ فَالنَّخْلَةُ كَالكَائِنَاتِ، وَالثَّمَرَةُ كَالشَّجَرَاتِ صُعُوبَةً في الامْتِنَاعِ. إذْ الوَاحِدُ بِالفِعْلِ الوَاحِدِ يُحَصِّلُ نَتِيجَةً وَوَضْعِيَةً للكَثِيرِ بِلا كُلْفَةٍ وَلا مُبَاشَرَةٍ؛ وَلَوْ أُحِيلَتْ تِلْكَ الوَضْعِيَّةُ وَالنَّتِيجَةُ إلى الكَثْرَةِ لا يُمْكِنُ أنْ تَصِلَ إلَيهَا إلاّ بِتَكَلُّفَاتٍ وَمُبَاشَرَاتٍ وَمُشَاجَرَاتٍ كَالأَمِيرِ مَعَ النَّفَرَاتِ، وَالبَانِي مَعَ الحَجَرَاتِ، وَالأَرْضِ مَعَ السَّيَّارَاتِ، والفَوَّارَةِ مَعَ القَطَرَاتِ، وَنُقْطَةِ المَرْكَزِ مَعَ النُّقَطِ في الدَّائِرَةِ.

بِسِرِّ أنَّ في الوَحْدَةِ يَقُومُ الانتِسَابُ مَقَامَ قُدْرَةٍ غَيْرِ مَحْدُودَةٍ. وَلا يَضْطَرُّ السَّبَبُ لِحَمْلِ مَنَابِعِ قُوَّتِهِ وَيَتَعَاظَمُ الأَثَرُ بالنِّسْبَةِ إلى المُسْنَدِ إلَيهِ. وَفي الشِّرْكَةِ يَضْطَرُّ كُلُّ سَبَبٍ لِحَمْلِ مَنَابِعِ قُوَّتِهِ؛ فَيَتَصَاغَرُ الأَثَرُ بِنِسْبَةِ جِرْمِهِ. وَمِنْ هُنَا غَلَبَتِ النَّمْلَةُ وَالذُّبَابَةُ عَلى الجَبَابِرَةِ، وَحَمَلَتْ النَّوَاةُ الصَّغِيرَةُ شَجَرَةً عَظِيمَةً.

وَبِسِرِّ أنَّ في إسْنَادِ كُلِّ الاشياءِ الى الوَاحِدِ لا يَكُونُ الايجَادُ مِنَ العَدَمِ المُطْلَقِ. بَلْ يَكُونُ الايجَادُ عَيْنَ نَقْلِ المَوجُودِ العِلمِيِّ إلى الوُجُودِ الخَارِجِيِّ، كَنَقْلِ الصُّورَةِ المُتَمَثِّلَةِ

في المرآة إلى الصَّحيفة الفوطوغرافيَّة لتثبيت وجود خارجيٍّ لها بكمال السُّهولة، أو إظهار الخطِّ المكتوب بمداد لا يرى، بواسطة مادة مظهرة للكتابة المستورة. وفي إسناد الأشياء إلى الأسباب والكثرة يلزم الايجاد من العدم المطلق، وهو إن لم يكن محالاً يكون أصعب الاشياء. فالسُّهولة في الوحدة واصلة الى درجة الوجوب، والصعوبة في الكثرة واصلة الى درجة الامتناع. وبحكمة أنَّ في الوحدة يمكن الإبداع وايجاد «الأيس من اللَّيس» يعني إبداع الموجود من العدم الصِّرف بلا مدَّة ولا مادَّة، وإفراغ الذَّرات في القالب العلميِّ بلا كلفة ولا خلطة. وفي الشِّركة والكثرة لا يمكن الإبداع من العدم باتِّفاق كلِّ أهل العقل. فلا بدَّ لوجود ذي حياة جمع ذرات منتشرة في الارض والعناصر؛ وبعدم القالب العلميِّ يلزم لمحافظة الذَّرات في جسم ذي الحياة وجود علم كلِّيٍّ، وإرادة مطلقة في كلِّ ذرَّة. ومع ذلك إنَّ الشُّركاء مستغنية عنها وممتنعة بالذَّات وتحكُّميَّة محضة، لا أمارة عليها ولا إشارة إليها في شيء من الموجودات. إذ خلقة السَّموات والأرض تستلزم قدرة كاملة غير متناهية بالضَّرورة. فاستغني عن الشُّركاء؛ وإلاَّ لزم تحديد وانتهاء قدرة كاملة غير متناهية في وقت عدم التَّناهي بقوَّة متناهية بلا ضرورة، مع الضَّرورة في عكسه ؛ وهو محال في خمسة أوجه . فامتنعت الشُّركاء، مع أنَّ الشُّركاء الممتنعة بتلك الوجوه لا إشارة إلى وجودها، ولا أمارة على تحقُّقها في شيء من الموجودات.

فقد استفسرنا هذه المسألة في «الموقف الأول من الرسالة الثانية والثلاثين» من الذرات الى السيارات وفي «الموقف الثاني» من السموات الى التشخصات الوجهية فاعطت جميعها جواب رد الشرك بإراءة سكة التوحيد.

فكما لا شركاء له؛ كذلك لا معين ولا وزراء له. وما الاسباب إلاَّ حجاب رقيق على تصرُّف القدرة الأزليَّة، ليس لها تأثير إيجاديٌّ في نفس الأمر. إذ أشرف

الاسْبَاب وَاوْسَعُهَا اختيَاراً هُوَ الانسَانُ؛ مَعَ أنَّهُ لَيس في يَده من أظْهَر أفْعَاله الاختيَارية كـ«الاَكْلِ وَالكَلامِ وَالفكر» منْ مئات أجْزاء إلاّ جُزْءٌ وَاحدٌ مَشْكُوكٌ. فَإذَا كَانَ السَّبَبُ الاَشْرَفُ وَالاَوْسَعُ اختيَاراً مَغْلُولَ الاَيْدي عَنِ التَّصرُّف الحَقيقيِّ كَمَا ترى؛ فَكَيفَ يُمْكنُ أنَ تَكُونَ البَهيماتُ والجَمَاداتُ شَريكةً في الايجَاد وَالرُّبوبيَّة لخَالق الأرضِ وَالسَّموات. فَكَمَا لا يُمْكنُ أنْ يَكُونَ الظَّرْفُ الَّذي وَضَعَ السُّلطَانُ فيه الهَديَّةَ، أو المَنديلُ الَّذي لَفَّ فيه العَطيَّةَ، أوِ النَّفَرُ الَّذي أرسَلَ عَلى يَده النِّعْمَةَ إليكَ، شُرَكَاءَ للسُّلْطَان في سَلْطَنَته؛ كَذَلكَ لا يُمْكنُ أنْ يَكُونَ الاسْبَابُ المُرْسَلَةُ عَلى أيْديهمُ النِّعَمُ إلينَا، وَالظُّرُوفُ الَّتي هيَ صَنَاديقُ للنِّعَمِ المُدَّخَرَة لَنَا، والاسْبَابُ الَّتي التَفَّتْ عَلى عَطَايَا إلَهيَّة مُهْداة إلَينَا، شُرَكَاءَ أعْواناً أو وَسَائطَ مُؤَثِّرَةً.

المرتبة الثانية

جَلَّ جَلالُهُ اللهُ أكبَرُ منْ كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعلْماً، إذْ هُوَ الخَلاّقُ العَليمُ الصَّانعُ الحَكيمُ الرَّحمنُ الرَّحيمُ الَّذي هذه المَوجُودَاتُ الأرضيَّةُ وَالاجرَامُ العُلويَّةُ في بُسْتَان الكَائنَات مُعجزَاتُ قُدْرَة خَلاّقٍ عَليم بالبَدَاهَة، وَهَذه النَبَاتَاتُ المُتَلَوِّنَة المُتَزيِّنَةُ المَنْثورَةُ، وَهَذه الحَيْوَنَاتُ المُتَنوِّعَةُ المُتَبرِّجَةُ المَنْشُورَةُ في حَديقَة الأرضِ خَوارقُ صَنْعَة صانعٍ حَكيمٍ بالضَّرُورَة، وَهَذه الأزْهَارُ المُتَبَسِّمَةُ وَالاثْمَارُ المُتَزيِّنَةُ في جنَان هذه الحَديقة هَدَايَا رَحْمَة رَحْمن رَحيمٍ بالمُشَاهَدَة. تَشْهَدُ هاتيكَ وَتُنَادي تَاكَ وتُعْلنُ هذه بأَنَّ خَلاَّقَ هَاتيكَ وَمُصَوِّرَ تَاكَ وَوَاهبَ هذه عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ وَبكُلِّ شيءٍ عَليمٌ قد وَسعَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وَعلماً، تتسَاوى بالنِّسْبَة إلى قُدْرَته الذَّرَّاتُ وَالنُّجومُ وَالقَليلُ وَالكَثيرُ والصغيرُ وَالكَبيرُ وَالمُتَنَاهي وَغيرُ المُتَنَاهي. وَكُلُّ الوُقُوعَات المَاضيَة وَغَرَائبها مُعجزَاتُ

صَنْعَةِ صانِعٍ حكيمٍ تَشْهَدُ على أنَّ ذلكَ الصَّانِعَ قديرٌ على كُلِّ الامْكَانَاتِ الاسْتِقْبَالِيَّةِ وَعَجائِبِها، إذ هُوَ الخَلاّقُ العَليمُ وَالعزيزُ الحَكيمُ.

فَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ حَديقةَ أرضِه مَشْهرَ صنعتِه. مَحْشرَ فِطْرَتِه. مَظْهَرَ قُدرَتِه. مَدَارَ حِكْمَتِه. مَزْهَرَ رَحْمَتِه. مَزْرَعَ جَنَّتِه. مَمَرَّ المَخْلُوقاتِ. مَسِيلَ المَوجُوداتِ. مَكيلَ المَصْنُوعَاتِ.

فَمُزَيَّنُ الحَيْوانَاتِ مُنَقَّشُ الطُّيوراتِ مُثَمَّرُ الشَّجَراتِ مُزَهَّرُ النَبَاتاتِ مُعْجِزَاتُ عِلمِه. خَوَارِقُ صُنْعِه. هَدايَا جُودِه. بَرَاهِينُ لُطْفِه.

تَبَسُّمُ الأزهَارِ مِنْ زينَةِ الأثْمَارِ، تَسَجُّعُ الاطيَارِ في نَسْمَةِ الاسْحَارِ، تَهَزُّجُ الامطارِ عَلى خُدُودِ الازهَارِ، تَرَحُّمُ الوالِدَاتِ عَلى الأطفَالِ الصِّغَارِ.. تَعَرُّفُ وَدُودٍ، تَوَدُّدُ رَحمنٍ، تَرَحُّمُ حَنَّانٍ، تَحَنُّنُ مَنَّانٍ للجِنِّ وَالانسَانِ وَالرُّوحِ وَالحَيوَانِ وَالمَلَكِ وَالجانِّ.

وَالبُذُورُ وَالاثْمَارُ، والحُبُوبُ وَالازهَارُ، مُعجِزَاتُ الحِكمَةِ. خَوَارِقُ الصَّنْعَةِ. هَدَايا الرَّحْمَةِ. بَرَاهينُ الوَحْدَةِ. شَوَاهِدُ لُطْفِه في دارِ الآخِرَةِ. شَوَاهِدُ صَادِقَةٌ بأنَّ خَلاَّقَهَا عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ. وَبِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ. قَدْ وَسِعَ كُلَّ شيءٍ بِالرَّحْمَةِ وَالعِلْمِ وَالخَلقِ وَالتَّدْبيرِ وَالصُّنْعِ وَالتَّصْويرِ. فَالشَّمسُ كَالبَذرَةِ وَالنَّجمُ كَالزَّهْرَةِ وَالأرضُ كَالحَبَّةِ لا تَثْقُلُ عَلَيه بِالخَلقِ وَالتَّدْبيرِ وَالصُّنعِ وَالتَّصويرِ. فَالبُذُورُ وَالاَثْمَارُ مَرَايا الوَحْدَةِ في اَقْطَارِ الكَثْرَةِ. إشَاراتُ القَدَرِ. رُمُوزَاتُ القُدْرَةِ بأنَّ تلكَ الكَثْرَةَ مِنْ مَنْبَعِ الوَحْدَةِ، تَصْدُرُ شَاهِدَةً لِوَحْدَةِ الفَاطِرِ في الصُّنْعِ وَالتَصويرِ. ثُمَّ الى الوَحْدَةِ تَنْتَهي ذَاكِرَةً لِحكمَةِ الصَّانِعِ في الخَلقِ وَالتَّدْبيرِ. وَتَلْويحاتُ الحِكْمَةِ بأنَّ خَالِقَ الكُلِّ بِكُلِّيَّةِ النَّظَرِ الى الجُزْئيِّ يَنْظُرُ، ثمَّ إلى جُزْئِه. إذْ إنْ كانَ ثَمَراً فَهُوَ المَقْصُودُ الاظهَرُ مِنْ خَلقِ هَذا الشَّجَرِ. فَالبَشَرُ

ثَمَرٌ لِهَذِهِ الكَائِنَاتِ، فَهُوَ المَقْصُودُ الأظْهَرُ لِخَالِقِ المَوْجُودَاتِ. والقَلبُ كَالنَّوَاةِ، فَهُوَ المرآةُ الانْوَرُ لِصَانِعِ المَخْلُوقَاتِ. وَمِنْ هذهِ الحِكْمَةِ فَالانسَانُ الأصْغَرُ في هذهِ الكَائِنَاتِ هُوَ المَدَارُ الأظْهَرُ لِلنَّشْرِ وَالمَحْشَرِ في هذهِ المَوجُوداتِ، وَالتَّخْرِيبِ والتَّبْدِيلِ وَالتَّحْوِيلِ وَالتَّجْدِيدِ لِهَذِهِ الكَائِنَاتِ.

اللهُ أكبَرُ يَا كَبِيرُ أنتَ الَّذِي لاتَهدِي العُقُولُ لِكُنْهِ عَظَمَتِهِ.

كه لا إلَهَ إلاّ هُوَ بَرَابَرْمِي زَنَنْدْ هَرْشَيْ

دَمَادَمْ جُو يَدَنَدْ: «ياحَق» سَرَاسَرْ گُويَدَنَدْ: «يا حَيّ»

المرتبة الثالثة [١]

إيضاحها في رأس «الموقف الثالث» من «الرسالة الثانية والثلاثين».

اللهُ أكبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ قُدْرَةً وَعِلماً إذْ هُوَ القَدِيرُ المُقَدِّرُ العَلِيمُ الحَكِيمُ المُصَوِّرُ الكَرِيمُ اللَّطِيفُ المُزَيِّنُ المُنْعِمُ الوَدُودُ المُتَعَرِّفُ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ المُتَحَنِّنُ الجَمِيلُ ذُو الجَمَالِ وَالكَمَالِ المُطْلَقِ النَّقَّاشُ الأزَلِيُّ الَّذِي ما حَقَائِقُ هَذِهِ الكَائِنَاتِ كُلاً وَأجزَاءً وَصَحَائِفَ وَطَبَقَاتٍ، وَما حَقَائِقُ هذهِ المَوجُودَاتِ كُلِّيًّا وَجُزئِيًّا ووُجُوداً وَبَقَاءً:

---

(١) هذه المرتبة الثالثة تأخذ بعين الاعتبار زهرة جزئية وحسناء جميلة، فالربيع الزاهر كتلك الزهرة والجنة العظيمة مثلها؛ اذ هما مظهران من مظاهر تلك المرتبة، كما ان العالم انسانٌ جميل وعظيم، وكذا الحور العين والروحانيات وجنس الحيوان وصنف الانسان.. كل منها كأنه في هيئة انسان جميل يعكس بصفحاته هذه الاسماء التي تعكسها هذه المرتبة. ـ المؤلف.

إلاّ خُطُوطُ قَلَمِ قضَائِه وَقَدَرِه بِتَنْظِيمٍ وَتَقدِيرٍ وَعِلْمٍ وَحِكْمَةٍ.

وَإلاّ نُقُوشُ بَركَارِ عِلْمِه وَحِكْمَتِه بِصنْعٍ وَتَصويرٍ.

وَإلاّ تَزيينَاتُ يَدِ بَيْضَاءِ صُنْعِه وَتَصويرِه وَتَزْيِينِه وَتَنْوِيرِه بِلُطْفٍ وَكَرَمٍ.

وَإلاّ أزاهِيرُ لَطائِفِ لُطْفِه وَكَرَمِه وَتَعَرُّفِه وَتَوَدُّدِه بِرَحْمَةٍ وَنِعْمَةٍ.

وَإلاّ ثَمَرَاتُ فَيَّاضِ عَيْنِ رَحْمَتِه وَنِعْمَتِه وَتَرَحُّمِه وَتَحَنُّنِه بِجَمَالٍ وَكَمَالٍ.

وَإلاّ لَمَعَاتُ جَمَالٍ سَرْمَدِيٍّ وَكَمالٍ دَيْمُومِيٍّ بِشَهَادَةِ تَفانِيَةِ المَرايا وَسَيَّالِيَّةِ المَظاهِرِ، مَعَ دوامِ تَجَلّي الجَمَالِ عَلى مَرِّ الفُصُولِ وَالعُصُورِ وَالادْوَارِ، وَمَعَ دَوَامِ الانْعَامِ عَلى مَرِّ الأنَامِ وَالأيَّامِ وَالأعْوَامِ.

نَعَمْ تَفَاني المِرْآةِ زَوَالُ المَوجُودَاتِ مَعَ التَّجَلّي الدَّائِمِ مَعَ الفَيْضِ المُلازِمِ مِنْ أظْهَرِ الظَّوَاهِرِ مِنْ أبْهَرِ البَوَاهِرِ على أنَّ الجَمالَ الظَّاهِرَ أنَّ الكَمالَ الزَّاهِرَ ليسَا مُلْكَ المَظَاهِرِ مِنْ أفصَحِ تِبيانٍ مِنْ أوضَحِ بُرْهَانٍ لِلجَمَالِ المُجَرَّدِ للاحسانِ المُجَدَّدِ للواجِبِ الوُجُودِ لِلبَاقي الوَدُودِ.

نَعَمْ فَالأثَرُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بالبَدَاهَةِ على الفعلِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الفِعْلُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِالضَّرُورَةِ عَلى الاسمِ المُكَمَّلِ وَالفَاعِلِ المُكَمَّلِ ثم الاسمُ المُكمّلُ يَدُلُّ بِلاريبٍ عَلى الوَصْفِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الوَصفُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِلاشَكٍ عَلى الشَّأنِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الشَّأنُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِاليَقينِ عَلى كَمالِ الذَّاتِ بِمَا يَليقُ بِالذَاتِ وَهُوَ الحَقُّ اليَقينُ.

المرتبة الرابعة

جَلَّ جَلالُهُ اللهُ أكبَرُ إذْ هُوَ العَدْلُ العَادِلُ الحَكَمُ الحَاكِمُ الحَكيمُ الأزَليُّ الَّذي أسَّسَ بُنْيَانَ شَجَرَةِ هذِهِ الكَائنَاتِ في سِتَةِ أيَّامٍ بِأُصُولِ مَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ. وَفَصَّلَها بِدَساتِيرِ

قَضائِه وَقَدَرِه. وَنَظَّمَها بِقَوانِينَ عادَتِه وَسُنَّتِه. وَزَيَّنَها بِنَوامِيسِ عِنايَتِه وَرَحْمَتِه. وَنَوَّرَها بِجَلَواتِ أسْمآئِه وَصِفَاتِه بِشَهَادَاتِ انْتِظامَاتِ مَصنوعَاتِه وَتَزيِينَاتِ مَوجُودَاتِه وَتَشابُهِها وَتَنَاسُبِها وَتَجَاوُبِها وَتَعاوُنِها وَتَعانُقِها، وَاتْقانِ الصَّنْعَةِ الشُّعُورِيَّةِ في كُلِّ شَيْءٍ عَلى مِقْدَارِ قامَةِ قابِلِيَّتِه الُمقَدَّرَةِ بِتَقْدِيرِ القَدَرِ.

فَالحِكمَةُ العَامَّةُ في تَنْظيماتِها.. وَالعِنَايَةُ التَّامَّةُ في تَزيِينَاتِها.. وَالرَّحمَةُ الوَاسِعَةُ في تَلطِيفاتِها.. وَالأَرزَاقُ وَالاعَاشَـةُ الشَّـامِلَةُ في تَربِيَتِها.. والحَيَاةُ العَجِيبَةُ الصَّنعَةِ بِمَظْهَرِيَّتِها لِلشُؤُونِ الذَّاتِيَّةِ لِفَاطِرِها.. وَالَمحَاسِنُ القَصْدِيَّةُ في تَحْسِينَاتِهَا.. وَدَوَامُ تَجَلِّي الجَمَالِ الُمنْعَكِسِ مَعَ زَوالِهَا.. وَالعِشْقُ الصَّادِقُ في قَلْبِها لِمَعْبُودِهَا.. وَالانْجِذَابُ الظَّاهِرُ في جَذْبَتِها.. وَاتِّفاقُ كُلِّ كُمَّلِهَا عَلى وَحْدَةِ فاطِرِها.. وَالتَصَرُّفُ لِمَصالِحَ في أجزائِها.. وَالتَّدْبيرُ الحَكِيمُ لِنَباتاتِها.. وَالتَّربِيَةُ الكَرِيمَةُ لِحَيواناتِهَا.. والانتِظامُ الُمكَمَّلُ في تَغيُّراتِ أركَانِها.. وَالغاياتُ الجَسِيمةُ في انتِظامِ كُلِّيَّتِها.. وَالحُدُوثُ دَفْعَةً مَعَ غايَةِ كَمَالِ حُسنِ صَنْعَتِها بِلا احتِياجٍ الى مُدَّةٍ ومَادَّةٍ.. وَالتَّشَخُّصاتُ الحَكِيمَةُ مَعَ عَدَمِ تَحْديدِ تَرَدُّدِ إمْكاناتِها.. وَقَضاءُ حاجاتِها عَلى غَايَةِ كَثْرَتِها وَتَنَوُّعِها في أوقَاتِها اللائِقَةِ الُمناسِبَةِ، مِنْ حَيثُ لا يُحتَسَبُ وَمِنْ حَيثُ لا يُشْعَرُ مَعَ قِصَرِ أيْدِيها مِنْ أصغَرِ مَطالِبِها.. وَالقُوَّةُ الُمطلَقَةُ في مَعْدَنِ ضَعفِهَا.. وَالقُدْرَةُ الُمطلَقَةُ في مَنبَعِ عَجْزِها.. وَالحَيَاةُ الظَاهِرَةُ في جُمُودِها.. وَالشُعُورُ الُمحِيطُ في جَهْلِها.. وَالانتِظامُ الُمكَمَّلُ في تَغَيُّراتِها الُمستَلزِمُ لِوُجُودِ الُمغَيِّرِ الغَيرِ الُمتَغَيِّرِ.. وَالاتِّفاقُ في تَسْبِيحَاتِها كَالدوائِرِ الُمتَداخِلَةِ الُمتَّحِدَةِ الَمرْكَزِ.. وَالَمقْبُولِيَّةُ في دَعَوَاتِها الثَّلاثِ «بِلسانِ استِعدادِها، وبِلسانِ احتِيَاجَاتِها الفِطرِيَّةِ، وبِلسانِ اضطِرارِها».. وَالُمناجاةُ وَالشُّهودَاتُ وَالفُيُوضَاتُ في عِبـاداتِهَا.. وَالانـتِـظامُ في قَدَرِيها.. وَالاطْمِئنَانُ بِذِكرِ فاطِرِها..

وَكَونُ العبادَةِ فيها خَيْطَ الوُصْلَةِ بَينَ مُنْتَهاها وَمَبْدَئِها.. وسَبَبِ ظُهُورِ كَمَالِها ولِتَحقُّقِ مَقَاصِدِ صانِعِها..

وَهكَذا بِسائِرِ شُؤُوناتِها وَاحْوَالِها وَكَيفِيَّاتِها شاهِداتٌ بِأنَّها كُلَّها بِتَدبِيرِ مُدَبِّرٍ حَكيم واحِدٍ.. وفي تَربِيَةِ مُرَبٍّ كَريم أَحَدٍ صَمَدٍ.. وَكُلُّهَا خُدَّامُ سَيِّدٍ واحِدٍ.. وتَحتَ تَصَرُّفِ متصرِّفٍ واحِدٍ.. وَمَصدَرُهَا قُدْرَةُ واحِدٍ الَّذي تَظاهَرَتْ وَتَكاثَرَتْ خَواتِيمُ وَحْدَتِه على كُلِّ مَكتُوبٍ مِنْ مَكتُوبَاتِهِ في كُلِّ صَفحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِ مَوجُودَاتِه.

نَعَمْ: فَكُلُّ زَهرَةٍ وَثَمَرٍ، وَكُلُّ نَبَاتٍ وَشَجَرٍ، بَل كُلُّ حَيَوانٍ وَحَجَرٍ، بَل كُلُّ ذَرٍّ وَمَدَرٍ، في كُلِّ وادٍ وَجَبَلٍ، وكُلُّ بادٍ وَقَفرٍ خاتَمٌ بَيِّنُ النَّقشِ وَالأثَرِ، يُظْهِرُ لِدِقَّةِ النَّظَرِ بِأنَّ ذا ذاكَ الاثرِ هُوَ كاتِبُ ذاكَ المَكانِ بِالعِبَرِ؛ فَهُوَ كاتِبُ ظَهْرِ البَرِّ وَبَطْنِ البَحْرِ؛ فَهُوَ نَقَّاشُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ في صَحيفَةِ السَّمواتِ ذاتِ العِبَرِ. جَلَّ جَلالُ نَقَّاشِها اللهُ أكْبَرُ.

كه لا إلهَ إلاَّ هُو. بَرَابَر مِي زَنَدْ عالَمْ

المرتبة الخامسة (١)

اللهُ أكبَرُ إذْ هُوَ الخَلاَّقُ القَديرُ المُصَوِّرُ البَصيرُ الَّذي هذهِ الأجرَامُ العُلوِيَّةُ والكَواكِبُ الدُّرِّيَّةُ نَيِّراتُ بَراهِينِ أُلُوهيَّتِه وَعَظَمَتِه، وَشُعاعاتُ شَوَاهِدِ رُبُوبِيَّتِه وَعِزَّتِه؛ تَشْهَدُ وَتُنادي عَلى شَعْشَعَةِ سَلْطَنَةِ رُبُوبِيَّتِهِ وَتُنَادي عَلى وُسْعَةِ حُكْمِهِ وَحِكْمَتِه، وعَلى حِشمَةِ عَظَمَةِ قُدْرَتِهِ. فَاستَمِعْ إلى آيَةِ:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إلى السَّمَآءِ فَوقَهُمْ كَيفَ بَنَيناهَا وَزَيَّنَّاها.. ﴾ (ق: ٦).

---

(١) لقد وضحت هذه المرتبة في ذيل الموقف الاول من الكلمة الثانية والثلاثين، وفي المقام الثاني من المكتوب العشرين. ـ المؤلف.

ثُمَّ انظُرْ الى وَجْهِ السَّمآءِ كيفَ تَرى سُكُوتاً في سُكُونة، حَرَكَةً في حِكْمَةٍ، تلألأً في حِشمَةٍ، تَبَسُّماً في زِينَةٍ مَعَ انتَظامِ الخِلقَةِ مَعَ اتِّزانِ الصَّنْعَةِ.

تَشَعْشُعُ سِراجِها لِتَبديلِ المَوَاسِمِ، تهَلهُلُ مِصباحِها لِتَنويرِ المعَالَم، تَلألُؤُ نُجُومِها لِتَزيينِ العَوَالِم. تُعْلِنُ لأَهلِ النُّهَى سَلْطَنَةً بلا انتِهَاءٍ لِتَدبيرِ هذَا العَالَمِ.

فَذَلِكَ الخَلاّقُ القَديرُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ، وَمُريدٌ بِإرادَةٍ شَامِلَةٍ ماشآءَ كانَ وَمَالَم يَشأ لَمْ يَكُنْ. وَهُوَ قَديرٌ عَلى كُلِّ شَيءٍ بِقُدْرَةٍ مُطْلَقَةٍ مُحيطةٍ ذاتِيَّةٍ. وَكَما لا يُمكِنُ ولا يُتَصوَّرُ وُجُودُ هذِهِ الشَّمسِ في هذا اليَومِ بِلا ضِياءٍ ولا حَرارةٍ؛ كذَلِكَ لا يُمْكِنُ ولا يُتَصوَّرُ وُجودُ إلهٍ خالِقٍ لِلسَّموات بِلا عِلْمٍ مُحيطٍ، وبِلا قُدرَةٍ مُطلَقَةٍ. فَهُوَ بالضَرورةِ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ بِعلمٍ مُحيطٍ لازِمٍ ذَاتِيٍّ لِلذاتِ، يَلزَمُ تَعَلُّقُ ذلِكَ العِلمِ بِكُلِّ الأَشيَاءِ لا يُمكِنُ أَنْ يَنْفكَّ عَنْهُ شَيءٌ بِسِرِّ الحُضُورِ وَالشُّهُودِ وَالنُّفُوذِ وَالاحَاطَةِ النُّورانِيَّةِ.

فَما يُشَاهَدُ في جَميعِ المَوجُودَاتِ مِنَ الانْتِظامَاتِ المَوزُونَةِ، وَالاتِّزَانَاتِ المَنْظُومَةِ، وَالحِكَمِ العَامَّةِ، وَالعِنَايَاتِ التَّامَّةِ، وَالأَقْدَارِ المُنْتَظَمَةِ، وَالأقْضِيَةِ المُثْمِرَةِ، وَالآجالِ المُعَيَنَةِ، وَالأَرزَاقِ المُقَنَّنَةِ، وَالاتْقانات المُفَنَّنَةِ، وَالاهتِمَامَات المُزَيَّنَةِ، وَغَايَةِ كَمَالِ الامتِيازِ وَالاتِّزانِ وَالانْتِظَامِ وَالاتِقانِ، وَالسُّهُولَةِ المُطلَقَةِ شَاهِدَاتٌ عَلى إحَاطَةِ عِلمِ عَلاَّمِ الغُيُوبِ بِكُلِّ شَيءٍ.

وأَنَّ آيَةَ ﴿ألايَعلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبيرُ﴾ (الملك: ١٤) تَدُلُّ عَلى أنَّ الوُجودَ في الشَئِ يَستَلزِمُ العِلمَ بِهِ. ونُورَ الوُجودِ في الأَشيَاءِ يَستَلزِمُ نُورَ العِلمِ فيها.

فَنِسبَةُ دَلالَةِ حُسنِ صَنْعَةِ الانسانِ عَلى شُعُورِهِ، الى نِسبَةِ دَلالَةِ خِلقَةِ الانسانِ عَلى عِلمِ خالِقِهِ، كَنِسبَةِ لُمَيعَةِ نُجَيْمَةِ الذُّبَيْبَةِ في اللَّيلَةِ الدَّهمَاءِ إلى شَعشَعَةِ الشَمْسِ في نِصفِ النَّهارِ عَلى وَجهِ الغَبْراءِ.

وَكَما أنَّهُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ فهو مُرِيْدٌ لِكُلِّ شَيءٍ لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ شَيءٌ بِدُونِ مَشيئَتِه. وَكَمَا أنَّ القُدْرَةَ تؤَثِّرُ، وَأنَّ العِلمَ يُمَيِّزُ؛ كَذَلِكَ أنَّ الارادةَ تُخَصِّصُ، ثُمَّ يَتَحَقَّقُ وُجودُ الأشيَاءِ.

فَالشَوَاهِدُ عَلى وُجودِ إرادَتِهِ تَعالى وَاختِيَارِهِ سُبحانَهُ بِعَدَدِ كَيفِيَّاتِ الأشيَاءِ وَاحْوالِهَا وَشؤُوناتِها.

نَعَمْ، فَتَنْظيمُ المَوجودَاتِ وَتَخْصيصُها بِصِفاتِها مِنْ بينِ الامْكَانَاتِ الغَيْرِ المَحْدُودَةِ، وَمِنْ بَينِ الطُّرُقِ العَقيمَةِ، وَمِنْ بَينِ الاحتِمَالاتِ المُشَوَّشَةِ، وَتَحتَ أيدي السُّيُولِ المُتَشاكِسَةِ، بِهذا النِّظَامِ الأدَقِّ الأرَقِّ، وَتَوْزِينُهَا بِهذا المِيزانِ الحَسَّاسِ الجَسَّاسِ المَشْهُودَينِ؛ وَأنَّ خَلْقَ المَوجُوداتِ المُختَلِفَاتِ المُنتَظِماتِ الحَيَوِيَّةِ مِنَ البَسائطِ الجَامِدَةِ – كَالانسانِ بِجِهَازاتِه مِنَ النُّطفَةِ، وَالطَّيْرِ بِجَوارِحِهِ مِنَ البَيضَةِ، وَالشَّجَرِ باعْضَائِه المُتَنوعَةِ مِنَ النَّوَاةِ – تَدُلُّ عَلى أنَّ تَخَصُّصَ كُلِّ شَيءٍ وَتَعَيُّنَهُ بِإرادَتِه واختِيَارِهِ وَمَشيئَتِه سُبْحَانَهُ. فَكَما أنَّ تَوافُقَ الاشيَاءِ مِنْ جِنسٍ، وَالافرَادِ مِنْ نَوعٍ في اسَاساتِ الأعْضاءِ، يَدُلُّ بالضَّرُورَةِ عَلى أنَّ صانِعَها واحِدٌ أحدٌ؛ كَذلكَ أنَّ تَمايُزَها في التَّشَخُّصاتِ الحَكيمَةِ المُشتَمِلَةِ عَلى عَلاماتٍ فارِقَةٍ مُنْتَظَمَةٍ، تَدُلُّ عَلى أنَّ ذلكَ الصَّانِعَ الواحِدَ الأحدَ هُوَ فاعِلٌ مُختَارٌ مُرِيدٌ يَفعَلُ ما يَشآءُ وَيَحكُمُ ما يُرِيدُ جَلَّ جَلالُهُ.

وَكَما أنَّ ذلكَ الخَلاّقَ العَليمَ المُريدَ عَليمٌ بِكُلِّ شَئٍ، وَمُرِيدٌ لِكُلِّ شَئٍ، لَهُ عِلمٌ مُحيطٌ، وَارادةٌ شَامِلَةٌ، وَاختيَارٌ تامٌّ؛ كَذلكَ لَهُ قُدرَةٌ كامِلَةٌ ضَرُورِيَّةٌ ذَاتيَّةٌ ناشِئَةٌ مِنَ الذَّاتِ وَلازِمَةٌ لِلذَّاتِ. فَمُحَالٌ تَداخُلُ ضِدِّها. وَإلاَّ لَزِمَ جَمْعُ الضِّدَّيْنِ المُحالُ بالاتِفَاقِ.

فَلا مراتِبَ في تلكَ القُدرةِ. فتَتَساوى بالنِّسبَةِ إليها الذرّاتُ وَالنجومُ وَالقليلُ وَالكثيرُ وَالصغيرُ والكَبيرُ وَالجزئيُّ وَالكُلّيُّ وَالجزءُ وَالكُلُّ وَالانسانُ وَالعالَمُ والنَّواةُ والشَّجَرُ:

بِسرِّ النُّورانيَّةِ وَالشفّافيَّةِ وَالمُقابَلَةِ وَالمُوازَنَةِ وَالانتِظامِ وَالامتِثالِ.

بِشَهادَةِ الانتِظامِ المُطلَقِ وَالاتِّزانِ المُطلَقِ وَالامتيازِ المُطلَقِ في السُّرعَةِ وَالسُّهولَةِ وَالكَثرَةِ المُطلَقاتِ.

بِسرِّ إمدادِ الواحِديَّةِ ويُسرِ الوَحدَةِ وتَجلّي الأحَديَّةِ.

بِحِكمَةِ الوُجوبِ وَالتَجرُّدِ ومُبايَنَةِ الماهيَّةِ.

بِسرِّ عَدَمِ التَّقيُّدِ وَعَدَمِ التَّحيُّزِ وعَدَمِ التَّجزُّءِ.

بِحِكمَةِ انقِلابِ العَوائِقِ وَالمَوانِعِ الى الوَسائِلِ في التَسْهيلِ إنْ احْتيجَ إليهِ. وَالحَالُ أنَّهُ لااحتِياجَ، كاعْصابِ الانسانِ، وَالخُطوطِ الحَديديَّةِ لنَقلِ السَيّالاتِ اللَّطيفَةِ.

بِحِكمَةِ أنَّ الذَرَّةَ وَالجُزءَ وَالجُزئيَّ وَالقليلَ وَالصَغيرَ وَالانسانَ وَالنَّواةَ ليسَتْ بِاقَلَّ جَزالَةً مِنَ النَّجْمِ وَالنَّوعِ وَالكُلِّ وَالكُلّيِّ وَالكَثيرِ وَالكَبيرِ وَالعالَمِ وَالشَّجَرِ.

فَمَنْ خَلَقَ هؤُلاءِ لايُستَبعَدُ مِنْهُ خَلقُ هذِهِ. إذْ المُحاطاتُ كالامثِلَةِ المَكتُوبَةِ المُصَغَّرَةِ، أو كالنُّقَطِ المَحلُوبَةِ المُعَصَّرَةِ. فَلابُدَّ بالضَرُورَةِ أنْ يَكونَ المُحيطُ في قَبضَةِ تَصرُّفِ خالِقِ المُحَاطِ، لِيُدْرِجَ مِثالَ المُحيطِ في المُحَاطَاتِ بِدَساتيرِ عِلمِهِ، وَأنْ يَعْصُرَها مِنْهُ بِمَوازينِ حِكمَتِهِ. فَالقُدرَةُ الَّتي أبرَزَتْ هَاتيكَ الجُزئيَّاتِ لا يَتَعسَّرُ عَليها إبرازُ تاكَ الكُلّيّاتِ.

فَكَما أنَّ نُسخَةَ قُرآنِ الحِكمَةِ المَكتُوبَةَ عَلى الجَوهَرِ الفَردِ بِذرّاتِ الأثيرِ لَيسَتْ بأقَلَّ جَزالَةً مِنْ نُسْخَةِ قُرآنِ العَظَمَةِ المَكتُوبَةِ عَلى صَحائِفِ السَّمواتِ بِمِدادِ النُّجُومِ

وَالشُّموسِ؛ كذَلكَ لَيسَتْ خلقَةُ نَحلَةٍ ونَمْلَةٍ بِاقَلَّ جَزالَةً مِنْ خلقَةِ النَّخلَةِ والفيلِ، ولا صَنْعَةُ وَردِ الزَّهْرَةِ بِاقَلَّ جَزالَةً مِنْ صَنْعَةِ دُرِّيٍّ نَجمِ الزُّهرَةِ. وَهكَذا فَقِسْ.

فَكمَا أنَّ غايَةَ كَمالِ الُسهُولَةِ في إيجادِ الاَشياءِ أوقَعَتْ اهلَ الضَّلالَةِ في التِباسِ التَّشكيلِ بِالتَّشَكُّلِ المُستَلزِمِ لِلمُحَالاتِ الخُرَافيَّةِ الَّتي تَمُجُّها العُقُولُ، بَل تَتَنفَّرُ عنها الاَوهَامُ؛ كذلكَ أثْبَتَتْ بِالقَطعِ وَالضَّرُورَةِ لأهلِ الحَقِّ وَالحَقيقَةِ تَساوِيَ السَّيَّاراتِ مَعَ الذَّرّاتِ بِالنِسبَةِ إلى قُدْرَةِ خالِقِ الكائِنات.

جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شأْنُهُ وَلآ الهَ إلاّ هُوَ.

المرتبة السادسة (١)

جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شَأْنُهُ اللهُ أكبَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعلماً، إذْ هُوَ العَادلُ الحَكيمُ القَادرُ العَليمُ الواحِدُ الاَحَدُ السُّلطَانُ الاَزَليُّ الَّذي هذهِ العَوالِمُ كُلُّهَا في تَصَرُّفِ قَبْضَتَيْ نِظامِهِ وَميزانِهِ وَتَنْظيمِهِ وَتوزينِهِ وَعَدلِهِ وَحِكمَتِهِ وَعِلمِهِ وَقُدرَتِهِ، وَمَظهَرُ سِرِّ وَاحِديَّتِهِ وَأَحَديَّتِهِ بِالحَدْسِ الشُّهُوديِّ بَل بِالمُشَاهَدَةِ. إذ لا خَارِجَ في الكَونِ مِنْ دَائِرَةِ النِّظَامِ وَالميزَانِ وَالتَّنظيمِ وَالتَّوزينِ؛ وَهُمَا بابانِ مِنَ «الامامِ المُبينِ وَالكِتَابِ المُبينِ». وَهُما عُنوَانانِ لِعِلمِ العَليمِ الحَكيمِ وأمرِهِ وَقُدْرَةِ العَزيزِ الرَّحيمِ وَإرادَتِهِ. فَذلكَ النِّظامُ مَعَ ذلكَ الميزَانِ، في ذلكَ الكِتَابِ مَعَ ذلكَ الامامِ بُرهَانانِ نَيِّرانِ لِمَنْ لَهُ في رَأْسهِ إذعَانٌ، وفي وَجهِهِ العَينَانِ، أنْ لا شَيءَ مِنَ الأشياءِ في الكَونِ وَالزَّمانِ يَخرُجُ مِنْ قَبضَةِ تَصَرُّفِ رَحمنٍ، وَتَنْظيمِ حَنّانٍ، وَتَزيينِ مَنّانٍ، وَتوزينِ دَيَّانٍ.

(١) لو كتبت هذه المرتبة السادسة كسائر المراتب لطالت جداً، لأن «الامام المبين والكتاب المبين» لايمكن بيانهما باختصار، وحيث اننا ذكرنا نبذة منهما في «الكلمة الثلاثين» فقد أجملنا هنا، الاّ اننا أسردنا بعض الايضاحات أثناء الدرس. ـ المؤلف.

الحَاصِلُ:

أنَّ تَجَلّيَ الاسمِ «الأوَّلِ وَالآخِرِ» في الخَلاّقيَّةِ، النّاظِرَينِ إلى المَبدأ وَالمُنتَهى وَالأصلِ وَالنَسلِ وَالمَاضي وَالمُستَقبلِ وَالأمرِ وَالعِلمِ، مُشيرانِ الى «الامامِ المُبينِ». وَتَجَلّيَ الاِسمِ «الظّاهِرِ وَالباطِنِ» عَلى الأشيَاءِ في ضِمنِ الخَلاّقيّةِ يُشيرانِ الى «الكتابِ المُبينِ».

فَالكَائناتُ كَشَجَرَةٍ عَظيمَةٍ، وَكُلُّ عالَمٍ منها ايضاً كَالشَّجَرةِ. فَنُمَثّلُ شَجَرَةً جُزئيَّةً لِخلقَةِ الكائناتِ وَأنواعِها وَعَوالمِها. وهَذهِ الشَّجَرَةُ الجُزئيَّةُ لها أصلٌ وَمَبدأٌ وَهُوَ النَّواةُ الَّتي تَنبُتُ عَليهَا، وَكَذا لها نَسلٌ يُديمُ وَظيفَتَها بَعدَ مَوتِها وَهُوَ النَّواةُ في ثَمَراتِها.

فَالمَبدأُ وَالمُنتَهى مَظْهَرانِ لِتَجَلّي الاسمِ «الأوَّلِ وَالآخِرِ». فَكأنَّ المَبدأ وَالنَّواةَ الأَصليَّةَ بالانتِظامِ وَالحِكمَةِ، فِهرِستَةٌ وَتَعرِفَةٌ مُرَكّبَةٌ مِنْ مَجمُوعِ دَساتيرِ تَشكُّلِ الشَّجَرةِ. وَالنَّواتَاتُ في ثَمَراتِها الَّتي في نِهاياتِها مَظهَرٌ لِتَجَلّي الاسمِ الآخِرِ.

فَتلكَ النَّواتاتُ في الثَّمَراتِ بِكَمَالِ الحِكمَةِ، كَأنَها صُنَيدِيقَاتٌ صَغيرَةٌ أُودِعَتْ فيها فِهرِستَةٌ وَتَعرِفَةٌ لِتَشكُّلِ ما يُشابِهُ تِلكَ الشَجَرَةَ. وَكأنَّها كُتِبَ فيها بِقَلَمِ القَدَرِ دَساتيرُ تَشكُّلِ شَجَراتٍ آتيَةٍ.

وَظاهِرُ الشَّجَرَةِ مَظْهَرٌ لِتَجَلّي الاسمِ «الظّاهِرِ». فَظَاهِرُها بِكَمالِ الانتِظامِ وَالتَّزيينِ وَالحِكمَةِ، كَأنَها حُلَّةٌ مُنتَظَمَةٌ مُزيَّنَةٌ مُرَصَّعَةٌ قَد قُدَّتْ عَلى مِقدارِ قَامَتِها بِكَمالِ الحِكمَةِ وَالعِنَايَةِ.

وَبَاطِنُ تِلكَ الشَّجَرَةِ مَظهرٌ لِتَجَلّي الاسمِ «البَاطِنِ». فَبِكَمالِ الانتِظامِ وَالتَّدبيرِ المُحَيّرِ لِلعُقُولِ، وَتَوزيعِ مَوَادِّ الحَياةِ الى الأعضاءِ المُختَلِفَةِ بِكَمالِ الانتِظامِ، كَأنَّ باطِنَ تِلكَ الشَّجَرَةِ ماكينَةٌ خَارِقَةٌ في غَايَةِ الانتِظامِ وَالاتِّزانِ.

فَكَما أنَّ أوَّلَها تَعرِفَةٌ عَجيبَةٌ، وآخِرَها فِهرِستَةٌ خارِقَةٌ تُشيرانِ الى «الامامِ المُبينِ»؛ كَذَلكَ إنَّ ظاهِرَها كحُلَّةٍ عَجيبةِ الصَنْعَةِ، وَباطِنَها كَمَاكينَةٍ في غَايَةِ الانتِظامِ، تُشيرَانِ الى «الكِتَابِ المُبينِ».

فَكما أنَّ القُوَّاتِ الحَافظاتِ في الانسانِ تُشيرُ الى «اللَّوحِ المَحفُوظِ» وَتَدُلُّ عَلَيه؛ كَذلكَ إنَّ النَّوَاتاتِ الاَصليَّةَ وَالثَّمَراتِ تُشيرَانِ في كُلِّ شَجَرةٍ الى «الامامِ المُبينِ». وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ يَرمُزَانِ الى «الكِتَابِ المُبينِ». فَقِسْ عَلى هذهِ الشَّجَرَةِ الجُزئيَّةِ شَجَرَةَ الأرضِ بِمَاضيها وَمُستَقبَلِها، وَشَجَرَةَ الكَائناتِ بِاَوائِلِها وَاتيها، وَشَجَرَةَ الانسانِ بِاجْدَادِها وَانسَالِها. وَهكذا...

جَلَّ جَلالُ خالِقِها وَلا إلهَ إلاَّ هُوَ.

يا كَبيرُ أنتَ الَّذي لا تَهدِي العُقُولُ لِوَصفِ عَظَمَتِهِ وَلا تَصِلُ الأفْكَارُ إلى كُنْهِ جَبَروتِهِ.

المرتبة السابعة

جَلَّ جَلالُهُ اللهُ أكبَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدرَةً وَعِلماً. إذ هُوَ (١) الخَلاَّقُ الفَتَّاحُ الفَعَّالُ العَلاّمُ الوَهَّابُ الفَيَّاضُ شَمسُ الأزَلِ الَّذي هذهِ الكَائناتُ بِانواعِها وَمَوجُودَاتِها ظِلالُ أنوَارِهِ، وَآثارُ أفعَالِه، وَألوانُ نُقوشِ انواعِ تَجَلِّياتِ اسمائِهِ، وَخُطُوطُ قَلَمِ قَضائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَرَايَا تَجَلِّياتِ صِفَاتِهِ وَجَمَالِهِ وَجَلالِهِ وَكَمالِهِ..

بِإجمَاعِ الشَّاهِدِ الأزَليِّ بِجَميعِ كُتُبِهِ وَصُحُفِهِ وَآياتِهِ التَكْوينيَّةِ والقُرآنيَّةِ..

(١) يمكن الانتقال الى المسمى ذي الجلال والاكرام اذا مانظر بمنظار هذه الاسماء المباركة الى مظاهر الافعال والآثار الإلهية وراء هذه الموجودات. ـ المؤلف.

وباجمَاعِ الأَرضِ مَعَ العَالَمِ بافتِقَاراتِها واحتيَاجاتِها في ذاتِها وَذَرَّاتِها مَعَ تَظاهُرِ الغَناءِ المُطلَقِ وَالثَّروَةِ المُطلَقَةِ عَلَيها..

وبإجمَاعِ كُلِّ اهلِ الشُّهُودِ مِنْ ذَوي الأَرواحِ النَّيِّرَةِ وَالقُلوبِ المُنَوَّرَةِ وَالعُقُولِ النُّورانيَّةِ مِنَ الأنبيَاءِ وَالأَولِيَاءِ والأَصفيَاءِ بِجَميعِ تَحقيقَاتِهِمْ وَكُشُوفَاتِهِمْ وَفُيُوضاتِهِمْ وَمُنَاجَاتِهِمْ..

قَدْ اتَّفَقَ الكُلُّ مِنهُمْ، وَمِنَ الأَرضِ وَالأَجرَامِ العُلويَّةِ وَالسُّفليَّةِ بِما لا يُحَدُّ مِنْ شَهادَاتِهِمُ القَطعيَّةِ وَتَصديقاتِهِمُ اليَقينيَّةِ بِقُبولِ شَهَادَاتِ الآيَاتِ التَّكْوينيَّةِ والقُرآنيَّةِ وَشَهَادَاتِ الصُّحُفِ وَالكُتُبِ السَّماويَّةِ الَّتي هيَ شَهَادَةُ الوَاجِبِ الوُجُودِ عَلى أنَّ هذهِ المَوجُودَاتِ آثارُ قُدرَتِهِ ومَكْتُوباتُ قَدَرِهِ وَمَرَايا أسمائِهِ وَتَمَثُّلاتُ أنوَارِهِ.

جَلَّ جَلالُهُ وَلا إِلَهَ إلاّ هُوَ.

الباب الرابع

فصلان

الفصل الاول

هذا الفصل يشير الى ثلاث وستين مرتبة من مراتب معرفة الله وتوحيده سبحانه متخذاً ورداً مهماً ومشهوراً لسيدنا الخضر عليه السلام كمبدأ واساس لهذا الورد. علما أن كل مرتبة من المراتب الثلاث والستين عبارة عن جملتين.

فكلمة «لااله الاّ الله» تثبت الوحدانية، كما أن الاسماء التي تبدأ بـ«هو» تثبت وجود واجب الوجود. فعندما تشير الجملة الاولى الى الوحدانية، يخطر بالبال سؤال مقدّر، كأن يقال: ومن هو الواحد؟ وكيف نعرفه؟ فيكون جوابه: هو الرحمن الرحيم.. مثلاً. اي أن آثار الشفقة والرحمة التي تملأ الكون كله تعرّف ذلك الرحمن وتدل عليه. وهكذا قس الباقي.

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

اللّهُمَّ إنّي أُقدِّمُ إلَيكَ بينَ يَدَي كُلِّ نِعْمَةٍ ورَحمَةٍ وحِكمَةٍ وعِنايَةٍ، وبَينَ يدَي كُلِّ حَيَاةٍ ومَمَاتٍ وحَيوَانٍ ونَبَاتٍ، وبينَ يَدَي كُلِّ زَهرَةٍ وثَمَرةٍ وحَبَّةٍ وبَذرَةٍ، وبَينَ يدَي كُلِّ صَنْعَةٍ وصِبغَةٍ ونِظامٍ ومِيزَانٍ، وبينَ يَدَي كُلِّ تَنظِيم وتَوزِينٍ وتَمييزٍ في كُلِّ المَوجُودَاتِ وذَرَّاتِها، شَهادَةً نَشهَدُ (١) أنْ:

(١) في هذه الشهادات حكمان: احدهما يدل على الوحدانية، وهو قوله: (لا اله الاّ الله) والآخر، يثبت وجود ذلك الواحد، وهو الاسماء التي تبدأ بـ«هو». فكلما ورد ضمير «هو» فهو جواب لسؤال مقدّر. وكأنه يقال: كيف نعرف ذلك الاله الواحد؟ فيجيبه مثلاً بقول: «هو السميع البصير» فيقول في هذا: ان هناك من يرى ويسمع حاجات هذه الموجودات وادعيتها فيخلق ماتطلبه ويفعل ماتريده. وهكذا مثل هذه الآثار، تثبت الافعال الإلهية، وتلك الافعال تثبت اسماء كالسميع والبصير، وتدل تلك الاسماء على وجود موصوفاتها. فجميع هذه الجمل تسير على هذا المنوال، فتثبت بالآثار الافعال، وبالافعال الاسماء، وبالاسماء وجود واجب الوجود. ـ المؤلف.

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الحيُّ القَيُّومُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الباقِي الدَّيُّومُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ العَزِيزُ الجَبَّارُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الحَكِيم الغَفَّارُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الأوَّلُ وَالآخِرُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الغَفُورُ الشَّكُورُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الخَلاّقُ القَدِيرُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المُصَوِّرُ البَصِيرُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الجَوَادُ الكَرِيمُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المُحيِي العَلِيمُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المُغنِي الكَرِيمُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المُدبِّرُ الحَكِيمُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المُرَبِّي الرَّحِيمُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ العَلِيُّ القَوِيُّ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الوَلِيُّ الغَنِيُّ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الشَّهِيدُ الرَّقِيبُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ القَرِيبُ المُجِيبُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الخَلاّقُ الحَكِيمُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الرَّزّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الأحَدُ الصَمَدُ

لآ إله الا اللهُ هو الباقي الأمْجَدُ
لا اله الاّ اللهُ هُوَ الوَدُودُ المَجِيدُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الفَعَّالُ لِما يُرِيدُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَلِكُ الوَارِثُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ البَاقِي البَاعِثُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ البَارِىءُ المُصَوِّرُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ اللَّطِيفُ المُدبِّرُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ السَّيِّدُ الدَّيَّانُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الحنَّانُ المَنَّانُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ السُّبُّوحُ القُدُّوسُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ العَدْلُ الحَكَمُ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ الفَرْدُ الصَّمَدُ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ النُّورُ الهَادي..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَعْرُوفُ لِكُلِّ العَارِفينَ[1]
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَعبُودُ الحَقُّ لِكُلِّ العابِدينَ..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَشكُورُ لِكُلِّ الشَّاكِرينَ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَذْكُورُ لِكُلِّ الذّاكِرينَ..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَحمُودُ لِكُلِّ الحَامِدينَ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَوجُودُ لِكُلِّ الطَّالبينَ..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَوصُوفُ لِكُلِّ المُوَحِّدينَ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَحبُوبُ الحقُّ لِكُلِّ المُحِبِّينَ..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَرغُوبُ لِكُلِّ المُريدينَ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَقصُودُ لِكُلِّ المُنيبينَ..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَقصُودُ لِكُلِّ الجَنانِ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المُوجِدُ لِكُلِّ الأنامِ..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَوجُودُ في كُلِّ زَمانٍ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَعبُودُ في كُلِّ مَكانٍ..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَذكُورُ بِكُلِّ لِسانٍ
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المَشكُورُ بِكُلِّ إحسَانٍ..
لآ إلهَ إلاّ اللهُ هُوَ المُنْعِمُ بِلا إمتِنَانٍ

لآ إلهَ إلاّ اللهُ إيماناً بِالله — لآ إلهَ إلاّ اللهُ أماناً مِنَ الله
لآ إلهَ إلاّ اللهُ أمانَةً عِنْدَ الله — لآ إلهَ إلاّ اللهُ حَقّاً حَقّا
لآ إلهَ إلاّ اللهُ إذعَاناً وَصِدْقاً — لآ إلهَ إلاّ اللهُ تَعبُّداً وَرِقّا

لآ إلهَ إلاّ اللهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبينُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ الصَادِقُ الوَعدِ الأمينُ

---

(١) وفحوى هذه الفقرة والتي تليها من الفقرات، الآتي:
ان كنت تريد معرفة ذلك، فانظرا ان ما عرفه جميع العارفين الذين أتوا في نوع البشر، بدلائلهم المختلفة وطرقهم المتباينة هو «معروف» واحد. فذلك المعروف هو الإله الواحد، فيظهر، وجود من يعرفه اهل المعرفة الذين لا يحصيهم العدّ بوجوه لاتعد ولا تحصى، وضوحاً ظاهراً كالشمس: وكذا، ان العابدين الذين لا يحصرهم العدّ في نوع البشر لعبادتهم معبوداً واحداً وجنيهم الثمرات المعنوية ازاء تلك العبادات، وحظوتهم بالمناجاة والفيوضات، يدل على وجود ذلك المعبود بتواتر مضاعف. وهكذا فقس على سائر الفقرات. — المؤلف.

الفصل الثاني

ان هذه السطور الخمسة او الستة من التمجيد والتعظيم التي تعتبر فاتحة اوراد الصباح لدى معظم الاقطاب. وعلى الاخص الشيخ الگيلاني، قد اصبحت كنواة لسلسلة فكرية طويلة. وانبتت سنبلاً معنوياً من قبيل الاشارة الى تسع وتسعين مرتبة من مراتب المعرفة والتوحيد.

وقد ذكرت هنا تسع وسبعون مرتبة من تلك المراتب التسع والتسعين، وهي تتوجه في كل فقرة من تلك الاشارات، الى الذات الإلهية المقدسة بجهتين:

الاولى: انها تشهد على الله سبحانه بالحال الحاضرة المشهودة، فيعبّر عن ذلك المعنى بعبارة «لله شهيد».

الثانية: انها تدلّ بعبارة «على الله دليل» على اشارة السلسلة التي تظهر بتعاقب الأمثال بعضها وراء بعض.

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

أصْبَحنا (١) وَأصبَحَ المُلكُ للهِ شَهيدٌ. وَالكبرِيَاءُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالعَظَمَةُ للهِ شَهيدٌ. وَالهَيبَةُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالقُوَةُ للهِ شَهيدٌ. وَالقُدرَةُ عَلى اللهِ دَليلٌ

---

(١) اصبحنا: اي دخلنا الصباح (صباحاً) ومُلك هذا الصباح شاهد لله ايضاً.

وفي الباب نكتتان:

النكتة الاولى: ان كل شئ بوجوده الحاضر يشهد على وجود الله ووحدانيته كما ان تبدّله المنظم وذهابه كي يفسح المجال لمن يأتي بعده من امثاله، وابرازه سلسلة عظيمة تحت صورة التجدّد.. كل ذلك دليل على وجود وجوده تعالى وعلى وحدانيته.

والحاصل: يدل بفقرة «شهيد» على الحالة الراهنة. وبجملة «دليل» يدل على السلسلة المتشكلة نتيجة تركّب امثالها المتعاقبة.

النكتة الثانية: من المعلوم حسب القاعدة النحوية ان يقال: «الآلاء على الله شهيدة» ولكن عدل عن ذلك الى اللفظ المذكر «شهيد» ليدل على ان كل فرد يشهد بذلك. ولو قيل: «شهيدة» لأفاد معنى الجماعة. ويقال: «الربوبية على الله شهيد» مثلاً: لأن المراد من الربوبية هو: ان انواع التربية والتدبير التي أوجدها الله بربوبيته، تشهد بذلك، اذ الربوبية نفسها لاتشاهَد، بينما تشاهَد انواع التربية والتدبير التي هي آثارها. فقيل: «شهيد» ليجعل كل شئ مشهود. فلو قيل «شهيدة» لكان راجعاً الى الربوبية نفسها.

وكذلك النكتة في الآية الكريمة ﴿ ان رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ فمع ان الرحمة مؤنثة لم يُعبّر عنها بـ«قريبة» وانما عبّر بـ«قريب» لأن المراد: ليس افادة قرب تلك الرحمة العالية الكلية التي هي كالشمس فقط. بدل افادة قرب الاحسانات الخاصة ايضاً والتي هي بمثابة اشعة تلك الشمس. فيرى لكل محسن احسان قريب. ولفظ «الاحسان» مذكر. فمن حقه اذن أن يخبر عنه بـ«قريب». كما أن الآية تفيد: ان الله قريب من المحسنين برحمته لذا لم يقل «قريبة». — المؤلف.

وَالآلاءُ للهِ شَهيدٌ (١). وَالانعامُ الدّائِمُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالبَهاءُ للهِ شَهيدٌ. وَالجَمالُ السَّرمَدُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالجَلالُ للهِ شَهيدٌ. وَالكَمالُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالعَظَمُوتُ للهِ شَهيدٌ. وَالجَبَروتُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالرُّبوبيَّةُ للهِ شَهيدٌ. وَالأُلوهيَّةُ المُطلَقَةُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالسَّلْطَنَةُ للهِ شَهيدٌ. وَجُنودُ السَّمواتِ وَالارضِ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالاَقضيَةُ (٢) للهِ شَهيدٌ. وَالتَقديرُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالتَربيَّةُ للهِ شَهيدٌ. وَالتَّدبيرُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالتَصويرُ للهِ شَهيدٌ. وَالتَّنظمُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالتَّزيينُ للهِ شَهيدٌ. وَالتَّوزينُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالاتْقانُ(٣) للهِ شَهيدٌ. وَالجُودُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالخَلقُ للهِ شَهيدٌ. وَالايجادُ الدّائِمُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالحَكْمُ للهِ شَهيدٌ. وَالاَمرُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالمَحاسِنُ للهِ شَهيدٌ. وَاللَّطائِفُ عَلى اللهِ دَليلٌ

---

(١) في امثال هذا كان ينبغي ان يقال «شهيد» غير انه استعمل اللفظ المذكر للنكتة المذكورة في كلمة «قريب» بدل «قريبة» في قوله تعالى ﴿ ان رحمت الله قريب من المحسنين ﴾. ولئن جاء في بعض الاماكن جمعاً، الآ انه ورد بلفظ «شهيد» المذكر لأن المراد كل واحد.— المؤلف.

(٢) الاقضية: كما ان الحالة الحاضرة والمقادير المخصوصة والمنتظمة للجزئيات تشهد على وجود الفاطر الحكيم، فان زوال الامور الكلية وزوال الجزئيات الذي يتم بتقدير وبمقدار منتظم - والذي عبّر عنه بـ«التقدير» - يدل كذلك على وجود ذلك الفاطر الحكيم. وكأن الانتظامات المقتضية تشهد على ان مناوبة الحياة والموت وتجلي القدر والتقدير المنتظم في مناوبة الإحياء والاماتة، كلها تدل على وجوده سبحانه. فمثلاً «التربية» تعني ادارة وجود الشئ ضمن شرائطه. و«التدبير» يعني تغيير ذلك. فلكل منهما دلالة مختلفة. وتستطيع ان تقيس سائر الفقرات على هذا.— المؤلف.

(٣) الاتقان: هو الصنع باهتمام وجودة. واللطائف: اريد بها صور المحاسن المعنوية والمثالية بزوال صورها المشهودة. او المراد بها: محاسن تلك السلسلة المتعاقبة.

وَالَمحامِدُ للهِ شَهيدٌ. وَالَمدائِحُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالعِبادَاتُ للهِ شَهيدٌ. وَالكَمالاتُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالتَّحيّاتُ (١) للهِ شَهيدٌ. وَالبَرَكاتُ عَلى اللهِ دليلٌ

وَالصَّلَواتُ للهِ شَهيدٌ. وَالطَّيِّبَاتُ عَلى اللهِ دليلٌ

وَالَمخلُوقَاتُ للهِ شَهيدٌ. وَالخَوارِقُ الماضِيَةُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالَموجُودَاتُ للهِ شَهيدٌ. وَالُمعجِزاتُ الآتِيَةُ عَلى اللهِ دليلٌ

وَالسَّمواتُ للهِ شَهيدٌ. وَالعَرشُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالشُّموسُ للهِ شَهيدٌ. وَالاَقمَارُ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالنُّجُومُ للهِ شَهيدٌ. وَالسَّيَّاراتُ عَلى اللهِ دليلٌ

وَالجَوُّ بِتَصرُّفاتِهِ وَامطارِهِ للهِ شَهيدٌ. وَالاَرضُ عَلى اللهِ دليلٌ

---

(١) التحيات: اي أن جميع ذوي الحياة من حيث اظهارها آثار حياتها ضمن دائرة المراد الإلهي اظهاراً منتظماً، ترحّب وتهنئ صنعة صانعها الجليل. بمثل ما اذا صنع شخص ماكنة خارقةً بديعة ركّب على رأسها اجهزة لتسجيل الصوت والتصوير، وتعمل بنفسها، فتتحدث وتكتب وتخابر بصورة ذاتية، وعملت تلك الماكنة على الوجه الذي يريده صانعها واعطت نتائجها الحسنة. فكما ان الناظر الى تلك الماكنة يبارك ويهنئ ذلك الرجل قائلاً: ماشاء الله! بارك الله! ويمنحه هدايا معنوية. كذلك اجهزة تلك الماكنة باظهارها النتائج المقصودة منها واظهار اثارها على أكمل وجه، انما تشكر وتقدر وتحيي صانعها بلسان حالها، وتقدّم التهاني والتبريك بقولها.. ماشاء الله معنى.
وهكذا ففي رأس كل ذي حياة آلات واجهزة كبيرة ومختلفة كاجهزة تسجيل الاصوات والتقاط الصور والبرقيات والهواتف.
وهي باظهارها ما في خلقها من مقاصد ونتائج على أكمل وجه وأتمه، انما تعلن عن تسبيحات لصانعها وعن كمال صنعته التي تعبّر عنها بـ« التحيات » باستحساناتها وتهليلاتها وتكبيراتها وهداياها المعنوية.
أما نحن فبقولنا « التحيات » انما نتذكر تلك التحيات ونقدمها الى الحضرة الإلهية تعبيراً عن انفسنا، واللسان بحد ذاته جهاز من تلك الاجهزة فأولى النتائج المطلوبة منها أن يكون مترجماً لهذه التحيات. ـ المؤلف.
المحامد: المراد انواع الحمد الحاضرة. والمدائح: هي الاثنية الثابتة الدائمة، وكأنها اثنية منبعثة من سلسلة الامثال المحيطة بالمحامد الماضية والمستقبلة.
الكمالات: تعني الكمالات التي تستلزم المعبودية. اي حتى اذا ذهب العابدون بعباداتهم فان الكمالات التي تقتضي المعبودية باقية. وهي ـ اي الكمالات ـ تسوق الى العبادة بدلاً عن السلاسل الماضية.ـ المؤلف.

يعني:

(وَالقُدرَةُ الظَّاهِرَةُ في الأرضِ، وَالحكمَةُ الباهِرَةُ فيها، وَالصنعَةُ المُكَمَّلَةُ فيها، وَالصِّبغَةُ المُتَزَيِّنَةُ فيها، وَالنِّعمةُ المُتَنوِّعَةُ فيها، وَالرَّحمَةُ الواسِعَةُ فيها عَلى اللهِ دليلٌ).

وَالقُرآنُ بِأُلوفِ آياتِهِ للهِ شَهيدٌ. وَمُحَمَّدٌ بِآلافِ مُعجزَاتِهِ عَلى اللهِ دَليلٌ

وَالبِحَارُ بِعَجائِبِها وَغَرائِبِها للهِ شَهيدٌ. وَالنبَاتاتُ بِأوراقِها بِأزهارِها بِأثمَارِها عَلى اللهِ دليلٌ

يعني:

(فالدَّلائِلُ المُتَزيِّناتُ المُتَزهِّراتُ المُثمِراتُ المُسَبِّحاتُ بِأوراقِها، وَالحامِداتُ بِازهارِها، وَالمُكَبِّراتُ بِأثْمَارِها، عَلى اللهِ دليلٌ)

وَالأشجَارُ بِأوراقِها المُسبِّحاتِ وَأزهارِها الحامِداتِ وَاثْمارِها المُكَبِّراتِ للهِ شَهيدٌ. وَالحَيوانَاتُ المُكبِّراتُ، والحُويناتُ المُسبِّحَاتُ، وَالطُويراتُ الحامِداتُ، وَالطُّويراتُ الصَّافَّةُ المُهلِّلاتُ عَلى اللهِ دليلٌ.

وَالانسُ وَالجِنُّ بِعبَاداتِهِم وَصَلَواتِهِم في مَسجِدِ الكَائِناتِ للهِ شَهيدٌ. وَالمَلَكُ وَالرُّوحُ في مَسجِدِ العَالَمِ بِتَسبيحاتِهِمْ وَعِباداتِهِمْ عَلى اللهِ دليلٌ.

وَالصَّنْعَةُ للهِ فَالمَدحُ للهِ..

وَالصِّبْغَةُ للهِ فَالثَّنَاءُ للهِ..

وَالنِّعْمَةُ للهِ فَالشُّكرُ للهِ..

وَالرَّحمَةُ للهِ..

فَالحَمدُ للهِ ربِّ العَالَمينَ.

في شهادة:

نَشهَدُ أنْ لآ اِلَهَ إلاّ اللّهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّهِ

اللّهُمَّ يارَبَّ مُحَمَّدٍ المُختَارِ. ويارَبَّ الجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَيارَبَّ النَبيّينَ وَالاَخيارِ، يارَبَّ الصدّيقينَ وَالأبرَارِ. ياربَّ الصغَارِ وَالكِبَارِ. يارَبَّ الحُبُوبِ وَالاَثمَارِ. ياربَّ الأنهَارِ وَالاَشجَارِ. يَاربَّ الصَّحَّارَى وَالقِفارِ. ياربَّ العَبيدِ وَالأحرارِ. ياربَّ اللَّيلِ وَالنَّهارِ.

أمسَينَا وَأصبَحنا نُشهِدُكَ وَنُشهِدُ جَميعَ صِفَاتِكَ المُتَقَدِّسَةِ.. وَنُشهِدُ جَميعَ أسمَائِكَ الحُسنى.. وَنُشهِدُ جَميعَ مَلئِكَتِكَ العُليَا.. وَنُشهِدُ جَميعَ مَخلوقَاتِكَ الشَتّىٰ.. وَنُشهِدُ جَميعَ أنبيَائِكَ العُظمى. وَجَميعَ أوليَائِكَ الكُبرى. وَجَميعَ أصفيائِكَ العُليَا.. وَنُشهِدُ جَميعَ آياتِكَ التَّكوينيَّةِ الَّتي لا تُعَدُّ وَلا تُحصى.. وَنُشهِدُ جَميعَ مَصنُوعَاتِكَ المُزيَّنَاتِ المَوزونَاتِ المَنظُومَاتِ المُتَمَاثِلاتِ.. وَنُشهِدُ جَميعَ ذَرَّاتِ الكائناتِ العاجِزاتِ. الجَامِداتِ الجَاهِلاتِ والحَامِلَةِ بِحولِكَ وَطَولِكَ وَأمرِكَ وَإذنِكَ عَجائِبَ الوَظائِفِ المُنتَظَمَاتِ.. وَنُشهِدُ جَميعَ مُرَكباتِ الذَّراتِ الغَيرِ المَحدودَاتِ المُتَنوعاتِ المُنتَظَمَاتِ المُتقَنَاتِ المَصنُوعاتِ مِنْ البسائِطِ الجَامِداتِ.. وَنُشهِدُ جَميعَ تَرَكُّباتِ الموجُوداتِ النَّامِياتِ المُختَلِطَةِ مَوَادُّ حَيَاتِها في غايَةِ الاختِلاطِ وَالمُتَميِّزَةِ دَفعَةً في غايَةِ الامتيازِ.. وَنُشهِدُ حَبيبَكَ الاَكرَمَ سُلطَانَ الاَنبيَاءِ وَالاَولياءِ أفضَلَ المَخلُوقَاتِ ذا المُعجِزاتِ الباهِرَةِ عَليهِ وعَلى آلِهِ افضلُ الصَّلَواتِ وَالتَّسليمَاتِ.. وَنُشهِدُ فُرقانَكَ الحَكيمَ ذَا الآياتِ البَيِّنَاتِ وَالبَرَاهينِ النَّيِّراتِ وَالدَلائِلِ الوَاضِحَاتِ وَالاَنوارِ السَّاطِعاتِ: بِأنَّا كُلَّنَا نَشهَدُ بِأنَّكَ أنتَ اللّهُ الواجِبُ الوُجودِ الواحِدُ الأحَدُ الفَرْدُ الصَّمَدُ الحَيُّ القَيُّومُ العَليمُ الحَكيمُ القَديرُ المُريدُ السَّميعُ البَصيرُ الرَّحمنُ الرَّحيمُ العَدلُ الحَكَمُ المُقتدِرُ المُتَكَلِّمُ، لَكَ الاَسمَاءُ الحُسنى.. وَكَذا نَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ أنتَ وَحدَكَ لا شَريكَ لَكَ

وأنّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ وبكُلِّ شيءٍ عليمٌ.. وكذا نشهدُ بكُلِّ ما مرَّ ومَعَ كُلِّ ما مرَّ بأنَّ مُحمّداً عبدُكَ ونبيُّكَ وصفيُّكَ وخليلُكَ. وجمالُ مُلكِكَ. ومليكُ صُنعِكَ. وعينُ عنايتِكَ. وشمسُ هدايتِكَ. ولسانُ محبّتِكَ. ومثالُ رحمتِكَ. ونورُ خلقِكَ. وشرفُ موجوداتِكَ (١). وكشّافُ طلسمِ كائناتِكَ. ودلاّلُ سلطنةِ ربوبيتِكَ. ومعرِّفُ كنوزِ أسمائِكَ. ومُعلّمُ أوامرِكَ لعبادِكَ ومفسّرُ آياتِ كتابِ كائناتِكَ. ومدارُ شهودِكَ وإشهادِكَ. ومرآةُ محبّتِكَ لجمالِكَ وأسمائِكَ، ومحبّتِكَ لصنعتِكَ ومصنوعاتِكَ، ولمحاسنِ مخلوقاتِكَ. وحبيبُكَ ورسولُكَ الّذي أرسلتَهُ رحمةً للعالمينَ. ولبيانِ محاسنِ كمالاتِ سلطنةِ ربوبيّتِكَ بحكمةِ صنعةِ صبغةِ نقوشِ قصرِ العالَمينَ. ولتعريفِ كنوزِ أسمائِكَ بإشاراتِ حكميّاتِ كلماتِ آياتِ سطورِ كتابِ العالَمينَ. ولبيانِ مرضيّاتِكَ ياربَّ السّمواتِ والأرضينَ. عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِهِ وإخوانِهِ ألفُ ألفِ صلاةٍ وسلامٍ في كُلِّ آنٍ وزمانٍ.

اللّهُمَّ يا حفيظُ يا حافظُ يا خيرَ الحافظينَ نستودِعُ حفظَكَ وحمايتَكَ ورحمتَكَ هذهِ الشّهاداتِ الّتي أنعمتَها علينا. فاحفظْها إلى يومِ الحشرِ والميزانِ آمين. والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.

الحَمْدُ للهِ الّذي(٢) دلَّ على وجوبِ وجودِه، ودلَّ النّاسَ على اوصافِ جلالِه وجمالِه وكمالِه، وشهدَ على أنّهُ واحدٌ فردٌ صمدٌ: الشّاهدُ الصّادقُ والبرهانُ المُصدَّقُ

(١) ان كل كلمة في هذه الشهادة الثانية تومئ الى برهان صادق حق من البراهين الحقة للنبوة الأحمدية، كما تشير الى وظيفة من وظائف النبوة، والى مقام من المقامات المحمدية، مثلما كل فقرة في الشهادة الاولى تدل على كثير من براهين الوحدانية، فكأن كلاً من تلك الكلمات والفقرات شاهدة لي، وتشهد معي، وانا بنيتي اقلب شهاداتها التي هي بلسان الحال الى لسان المقال، فنشهد معاً. – المؤلف.

(٢) ان ايضاح هذا المقام هو في آخر المكتوب التاسع عشر وهو رسالة المعجزات الاحمدية، وان كل قيد وكل كلمة فيه يشير الى دليل من دلائل الرسالة الاحمدية كما انه يومئ الى البراهين الدّالة على أن القرآن الحكيم هو كلام الله.

ولقد ذكر النبي ﷺ والقرآن الكريم هنا، على ان كل واحد منهما دليل سامٍ للغاية على وحدانية الله سبحانه وتعالى. – المؤلف.

النَّاطِقُ المُحقِقُ سَيِّدُ الأنبيَاءِ وَالمُرسَلينَ. الحَاوي لِسرِّ إجماعِهِم وَتَصديقِهِمْ وَمُعجِزاتِهِمْ. وَإمامُ الأَولياءِ وَالصدِّيقينَ. الحَاوي لِسرِّ إتِفاقِهِمْ وَتَحقيقِهِمْ وَكَرامَاتِهِمْ. ذُو الارهاصَاتِ الخَارِقَةِ وَالمُعجِزاتِ البَاهِرةِ وَالبَراهِينِ القاطِعَةِ الواضِحَةِ. ذُو الأَخلاَقِ العَالِيَةِ في ذاتِهِ. وَالخِصالِ الغَالِيَةِ في وَظيفَتِهِ. وَالسَّجايا السَّامِيَةِ في شَريعَتِهِ. مَهبَطُ الوَحيِ الرَّبَّاني بِاجماعِ المُنزِلِ بِتَوفيقٍ لَهُ. وَالمُنْزَلِ بِاعجَازِهِ. وَالمُنْزَلِ عَلَيهِ بِقُوَّةِ إيمَانِهِ. وَالمُنزلِ إليهِمْ بِكُشُوفِهِمِ وَتَحقيقَاتِهِمْ. سَيَّارُ عَالَمِ الغَيبِ وَالمَلَكوتِ. مُشاهِدُ الأرواحِ وَمُصَاحِبُ المَلئِكَةِ مُرشِدُ الجِنِّ وَالانسِ. وَانْوَرُ ثَمَراتِ شَجَرَةِ الخِلقَةِ. سِراجُ الحَقِّ. بُرهَانُ الحَقِيقَةِ. لِسانُ المَحَبَّةِ. مِثالُ الرَّحمَةِ. كاشِفُ طِلسمِ الكائِنَاتِ. حَلاَّلُ مُعَمَّى الخِلقَةِ. دَلاَّلُ سَلطَنَةِ الرُّبوبيَّةِ. مَدارُ ظُهورِ مَقَاصِدِ خالِقِ الكائِناتِ في خَلقِ المَوجُوداتِ. ووَاسِطَةُ تَظاهُرِ كَمالاتِ الكائِناتِ، المُرمِزُ بِشَخصيَّتِهِ المَعنَويَّةِ إلى أنَهُ نَصبَ عَينِ فَاطِرِ الكَونِ في خَلقِ الكائِناتِ « يَعني أنَّ الصَّانِعَ نَظَرَ إليهِ وَخَلَقَ لأجلِهِ وَلأمثالِهِ هَذا العَالَمَ » ذُو الدِّينِ والشَّريعَةِ وَالاسلامِيَةِ الَّتي هي بِدَساتيرِها أنمُوذَجُ دَساتيرِ السَّعادَةِ في الدَّارَينِ. كَأنَّ ذلِكَ الدِّينَ فِهرِستةٌ أُخرِجَتْ مِنْ كِتَابِ الكائِناتِ. فَكأنَّ القُرآنَ المُنزَلَ عَليهِ قِراءَةٌ لآياتِ الكائِناتِ. المُشيرُ دِينُهُ الحَقُّ إلى أنَّهُ نِظامُ نَاظِمِ الكونِ. فَنَاظِمُ هذِهِ الكائِناتِ بِهذا النِّظامِ الأتَمِّ الأكمَلِ هُوَ نَاظِمُ ذلكَ الدِّينِ الجَامِعِ بِهذا النَّظمِ الأحسَنِ الأجمَلِ، سَيِّدُنا نَحنُ مَعَاشِرَ بَني آدَمَ، وَمُهدينَا إلى الايمَانِ نَحنُ مَعَاشِرَ المُؤمِنينَ مُحَمَّدٌ عَليهِ وَعَلى آلِهِ افضَلُ الصَّلَواتِ وَأتَمُّ التَّسْليماتِ ما دَامَتِ الأرضُ وَالسَّمواتُ. فَإنَّ ذلِكَ الشَّاهِدَ يَشهَدُ عَنِ الغَيبِ في عالَمِ الشَّهادَةِ عَلى رُؤسِ الأَشهَادِ بِطَورِ المُشَاهِدِ.

نَعَمْ؛ يُشَاهَدُ أَنَّهُ يُشاهِدُ ثُمَّ يَشهَدُ مُنادِياً لأَجيَالِ البَشَرِ خَلفَ الأَعصَارِ وَالأَقطارِ بِاعلى صَوتِهِ.

نَعَمْ؛ فَهذا صَدى صَوتِهِ يُسمَعُ مِنْ أعماقِ الماضي إلى شَواهِقِ الاستِقبَالِ وبجميعِ قُوَّتِهِ.

نَعَمْ؛ فَقَد استَولى عَلى نِصفِ الأرضِ. وَانصَبَغَ بِصبغِهِ السَّماويّ خُمُسُ بَني آدَمَ. وَدَامَتْ سَلطَنَتُهُ المَعنَويَّةُ ألفاً وَثَلَثمائة وَخَمسينَ سَنَةً في كُلِّ زَمانٍ، يَحكُمُ ظَاهِراً وَباطِناً عَلى ثَلثمائة وَخَمسينَ مِليُوناً مِنْ رَعِيَّتِهِ الصَّادِقَةِ المُطيعَةِ بِانقيَادِ نُفوسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ وَارواحِهِمْ وَعُقُولِهِمْ لأَوَامِرِ سَيِّدِهِمْ وَسُلطَانِهِمْ. وَبِغَايَةِ جِدِّيَّتِهِ بِشَهادَاتِ قُوَّةِ دَساتِيرِهِ المُسَمَّرَةِ عَلى صُخُورِ الدُّهُورِ وَعَلى جِبَاهِ الأَقطَارِ. وَبِغَايَةِ وُثُوقِهِ بِشَهادَةِ زُهدِهِ واستِغنائِهِ عَنِ الدُّنيَا. وبغاية اطمئنانه ووثُوقه بشهادَةِ سيرِهِ وبِغايَةِ قُوَّةِ إيمَانِهِ بِشَهادَةِ أَنَّهُ أَعْبَدُ وَاتقى مِنَ الكُلِّ بِاتِّفاقِ الكُلِّ، شَهادَةً جازِمَةً مُكَرَّرَةً بـ:

﴿ **فَاعلَمْ أنَهُ لا إلَهَ إلاّ اللهُ** ﴾ الَّذي دَلَّ عَلى وُجُوبِ وُجودِهِ، وَصَرَّحَ بِأوصَافِ جَلالِهِ وَجَمالِهِ وَكَمالِهِ، وَشَهِدَ أَنَّهُ واحِدٌ أحَدٌ فَرِدٌ صَمَدٌ، الفُرقانُ الحَكيمُ الحَاوي لِسِرِّ إجماعِ كُلِّ كُتُبِ الأنبِيَاءِ وَالأَولِيَاءِ وَالمُوَحِّدينَ المُختَلفينَ في المَشَارِبِ والمَسَالِكِ المُتَّفقَةِ قُلُوبُ هؤُلاءِ وَعُقولُ أُولئكَ بِحَقائقِ كُتُبِهِمْ عَلى تَصديقِ أَساساتِ القُرآنِ المُنَوَّرِ جِهاتُهُ السِّتُّ. إذْ عَلى ظَهرِهِ سِكَّةُ الاعجَازِ. وَفي بَطنِهِ حَقائقُ الايمَانِ. وَتَحتَهُ بَرَاهينُ الاذعَانِ. وَهَدَفُهُ سَعَادَةُ الدَّارَينِ. وَنُقطَةُ استِنادِهِ مَحضُ الوَحيِ الرَّبَّانيّ بِاجماعِ المُنزِلِ

بآياته. وَالمُنزَل باعجَازِه. وَالمنزَل عَليه بِقُوّة ايمَانه وَامنيَّتِه. وكَمال تَسليميَّتِه وَصَفوتِه. وَوضعيَّتِه المعلُومَة عِندَ نُزُولِه. مَجمَعُ الحَقائِقِ باليَقين. وَمَنبَعُ أنوارِ الايمَان بِالبَداهَة. المُوصِلُ إلى السَّعادَاتِ باليَقينِ. ذُو الأثمَارِ الكَاملين بِالمُشَاهَدَة. مَقبُولُ المَلَكِ وَالانسِ وَالجَانّ بِالحَدسِ الصَّادِقِ مِنْ تَفاريقِ الأمارَاتِ. المُؤيَّدُ بِالدَلائِلِ العَقليَّة بِاتّفاق العُقَلاءِ الكَاملينَ. وَالمُصَدَّقُ بالفِطرَةِ السَّليمَةِ بِشَهادَةِ اطمِئنانِ الوِجدَانِ بِهِ. المُعجزَةُ الابديَّةُ بالمُشَاهَدَةِ. ذُو البَصَرِ المُطلَقِ يَرى الأشيَاءَ بِكَمالِ الوُضُوحِ، يَرى الغَائِبَ البَعيدَ كَالحَاضِرِ القَريبِ. ذُو الانبِساطِ المُطلَقِ يُعَلِّمُ المَلأ الأعلى مِنَ المُقَرَّبينَ بِدَرسٍ، وَيُعَلِّمُ أطفَالَ البَشَرِ بِعينِ ذَلِكَ الدَّرسِ، وَيَشمِلُ تَعليمُهُ وتَعليمَاتُهُ طَبَقاتِ ذَوي الشُّعُورِ مِنْ أعلى الأعَالي إلى أبسَطِ البَسائِطِ. لِسانُ الغَيبِ في عَالَمِ الشَّهادَةِ، شَهادَةً جَازِمَةً مُكَرَّرَةً بـ« لآ إلَهَ إلاّ هُوَ » و ﴿ **فَاعْلَمْ أنَّهُ لآ إلَهَ إلاّ اللّهُ** ﴾.

الباب الخامس

في مراتب

﴿حَسبُنا اللّهُ ونِعمَ الوَكيلُ﴾ (١).

وَهُوَ خَمسُ نكت..

*** النكتة الاولى**

فهذا الكلام دواء مجرب لمرض العجز البشري وسقم الفقر الانساني

﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٢) إِذْ هُوَ الْمُوجِدُ الْمَوْجُودُ الْبَاقِي فَلاَ بَأْسَ بِزَوَالِ الْمَوْجُودَاتِ لِدَوَامِ الْوُجُودِ الْمَحْبُوبِ بِبَقَاءِ مُوجِدِهِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ .

وَهُوَ الصَّانِعُ الْفَاطِرُ الْبَاقِي فَلاَ حُزْنَ عَلَى زَوَالِ الْمَصْنُوعِ لِبَقَاءِ مَدَارِ الْمَحَبَّةِ فِي صَانِعِهِ .

---

(١) قبل ثلاثة عشر عاماً ألقيت نظرة الى الدنيا من على قمة تل (يوشع) الشاهق.. وكنت كسائر الناس مفتوناً بطبقات الموجودات المتداخلة ومحاسنها. كما كنت مشدوداً اليها بحب شديد؛ مع أنني شاهدت بعقلي انحدارها الى الفناء والزوال بشكل ظاهر وواضح جداً. فأحسست ألماً وفراقاً؛ بل أحسست ظلمة آتية من فراقات لاحد لها. فأغاثتني فجأة آية ﴿حَسبُنا اللّهُ ونِعمَ الوَكيلُ﴾ بمراتبها الثلاثة والثلاثين. فبدأت أقرأها بشكل رمزي على نحو ماسيذكر.

ان كل جملة من الجمل السبع المباركة التي كنت أواظب عليها بين المغرب والعشاء ستكون لمعة ضمن لمعات (المكتوب الحادي والثلاثين). وقد دخلت خمس جمل منها وبقيت هاتان الجملتان. لذا بقي مكان اللمعة الرابعة واللمعة الخامسة فارغاً. وستكون احدى الجمل حول مراتب ﴿حَسبُنا اللّهُ ونِعمَ الوَكيلُ﴾. أما الأخرى فحول مراتب (لا حول ولاقوّة الاّ باللّه العليّ العظيم). ولما كانت مراتب هاتين الجملتين المباركتين عبارة عن الذكر والفكر اكثر من كونها علماً، فقد ذكرت في الباب الخامس بالعربية.ـ المؤلف.

(٢) لقد رأيت في وقت ما أنواراً ومقامات كثيرة لهذه الجملة المباركة. فأنقذتني من ورطات وظلمات رهيبة. وكنت قد وضعت إشارات الى تلك الاحوال والمقامات: فتارة في صورة فقرة مختصرة جداً، واخرى بكلمات معدودات لاجل تذكير نفسي. اما تلك الفقرة الاولى، فكنت كلما فكرت في موت ذوي الحياة بموت وفناء الدنيا الضخمة التي هي محبوبتي كما هي محبوبة للآخرين، وجدت ان ضماد آلامي وهمومي العميقة هو: ﴿حَسبُنا اللّهُ ونِعمَ الوَكيلُ﴾. والجمل التي في البداية تسير حسب هذا السرّ.ـ المؤلف.

وَهُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ الْبَاقِي فَلاَ تَأَسُّفَ عَلَى زَوَالِ الْمُلْكِ الْمُتَجَدِّدِ فِي زَوَالٍ وَذَهَابٍ.

وَهُوَ الشَّاهِدُ الْعَالِمُ الْبَاقِي فَلاَ تَحَسُّرَ عَلَى غَيْبُوبَةِ الْمَحْبُوبَاتِ مِنَ الدُّنْيَا لِبَقَائِهَا فِي دَائِرَةِ عِلْمِ شَاهِدِهَا وَفِي نَظَرِهِ .

وَهُوَ الصَّاحِبُ الْفَاطِرُ الْبَاقِي فَلاَ كَدَرَ عَلَى زَوَالِ الْمُسْتَحْسَنَاتِ لِدَوَامِ مَنْشَأِ مَحَاسِنِهَا فِي أَسْمَآءِ فَاطِرِهَا.

وَهُوَ الْوَارِثُ الْبَاعِثُ الْبَاقِي فَلاَ تَلَهُّفَ عَلَى فِرَاقِ الأَحْبَابِ لِبَقَاءِ مَنْ يَرِثُهُمْ وَيَبْعَثُهُمْ.

وَهُوَ الْجَمِيلُ الْجَلِيلُ الْبَاقِي فَلاَ تَحَزُّنَ عَلَى زَوَالِ الْجَمِيلاَتِ الَّتِي هِيَ مَرَايَا لِلأَسْمَآءِ الْجَمِيلاَتِ لِبَقَاءِ الأَسْمَآءِ بِجَمَالِهَا بَعْدَ زَوَالِ الْمَرَايَا.

وَهُوَ الْمَعْبُودُ الْمَحْبُوبُ الْبَاقِي فَلاَ تَأَلُّمَ مِنْ زَوَالِ الْمَحْبُوبَاتِ الْمَجَازِيَّةِ لِبَقَاءِ الْمَحْبُوبِ الْحَقِيقِيِّ.

وَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْوَدُودُ الرَّؤُفُ الْبَاقِي فَلاَ غَمَّ وَلا مَأْيُوسِيَّةَ وَلا أَهَمِّيَّةَ مِنْ زَوَالِ الْمُنْعِمِينَ الْمُشْفِقِينَ الظَّاهِرِينَ لِبَقَاءِ مَنْ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ وَشَفَقَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَهُوَ الْجَمِيلُ اللَّطِيفُ الْعَطُوفُ الْبَاقِي فَلاَ حِرْقَةَ وَلا عِبْرَةَ بِزَوَالِ اللَّطِيفَاتِ الْمُشْفِقَاتِ لِبَقَاءِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَ كُلِّهَا، وَلاَ يَقُومُ الْكُلُّ مَقَامَ تَجَلٍّ وَاحِدٍ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ؛ فَبَقَاؤُهُ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ يَقُومُ مَقَامَ كُلِّ مَا فَنِيَ وَزَالَ مِنْ أَنْوَاعِ مَحْبُوبَاتِ كُلِّ أَحَدٍ مِنَ الدُّنْيَا . ﴿ **حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل** ﴾

نَعَمْ حَسْبِي مِنْ بَقَاءِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بَقَاءُ مَالِكِهَا وَصَانِعِهَا وَفَاطِرِهَا.

النُّكْتَةُ الثَّانِيَةُ

حَسْبِي(١) مِنْ بَقَائِي اَنَّ اللّٰه هُوَ اِلٰهِيَ الْبَاقِي، وَخَالِقِيَ(٢) الْبَاقِي، وَمُوجِدِيَ الْبَاقِي، وَفَاطِرِيَ الْبَاقِي، وَمَالِكِيَ الْبَاقِي، وَشَاهِدِيَ الْبَاقِي، وَمَعْبُودِيَ الْبَاقِي وبَاعِثِيَ الْبَاقِي، فَلاَ بَأْسَ وَلاَ حُزْنَ وَلاَ تَأَسُّفَ وَلاَ تَحَسُّرَ عَلَى زَوَالِ وَجُودِي لِبَقَاءِ مُوجِدِي، وَاِيجَادِهِ بِاَسْمَائِهِ. وَمَا فِي شَخْصِي مِنْ صِفَةٍ اِلاَّ وَهِيَ مِنْ شُعَاعِ اِسْمٍ مِنْ اَسْمَائِهِ الْبَاقِيَةِ؛ فَزَوَالُ تِلْكَ الصِّفَةِ وَفَنَاؤُهَا لَيْسَ اِعْدَاماً لَهَا، لاَنَّهَا مَوْجُودَةٌ فِي دَائِرَةِ الْعِلْمِ وَبَاقِيَةٌ وَمَشْهُودَةٌ لِخَالِقِهَا.

وَكَذَا حَسْبِي مِنَ الْبَقَاءِ وَلَذَّتِهِ عِلْمِي وَاِذْعَانِي وَشُعُورِي وَاِيمَانِي بِاَنَّهُ اِلٰهِيَ الْبَاقِي الْمُتَمَثِّلُ شُعَاعُ اِسْمِهِ الْبَاقِي فِي مِرْآةِ مَاهِيَّتِي؛ وَمَا حَقِيقَةُ مَاهِيَّتِي اِلاَّ ظِلٌّ لِذَلِكَ الاِسْمِ. فَبِسِرِّ تَمَثُّلِهِ فِي مِرْآةِ حَقِيقَتِي صَارَتْ نَفْسُ حَقِيقَتِي مَحْبُوبَةً، لاَ لِذَاتِهَا بَلْ بِسِرِّ مَا فِيهَا وَبَقَاءُ مَا تَمَثَّلَ فِيهَا اَنْوَاعُ بَقَاءٍ لَهَا.

---

(١) مثلما رأيت جلوات الاسماء الباقية للباقي ذي الجلال وراء فناء الدنيا وزوال الآفاق، فشعرت بسلوان تام، كذلك نظرت الى شخصي. فاذا بمختلف طبقات الموجودات النفسية العديدة والصفات الشخصية وحقائقها التي افتتنت بها في شخصي تجري بسرعة نحو الزوال والفناء، فبحثت في تلك الفانيات عن البقاء بسرّ ما غرز في فطرة الانسان من عشق البقاء، فوجدت جلوة اسماء خالقي الباقي، ورأيت في زوال كلّ صفة من صفاتي جلوة باقية من جلوات اسم من الاسماء المتمثلة فيها. عند ذلك أدركت إدراكاً قاطعاً أن عشق البقاء الكامن في فطرة الانسان محبة متشعبة عن المحبة الإلهية.

بيد ان الانسان يتحرّى محبوبه بشكل خطأ؛ فبينما يلزم عليه حب المتمثّل في المرآة والبحث عنه، يبدأ بحب المرآة او حب كيفية التمثل فيها والتي تعد بمثابة الزينة لها. فيعبد «أنا» بدلاً من أن يعبد «هو». ولكن يدرك خطأه بعد زواله.

إنّ القلب وماهية الانسان مرآة ذات شعور، تحس مايتمثل فيها بشعور، وتحبه بعشق البقاء.ـ المؤلف.

(٢) إن حرف «الياء» التي تتكرر في الكلمات الثمانية، ضمير متكلم تبين نفسها. ـالمؤلف.

اَلنُّكْتَةُ الثَّالِثَةُ (١)

﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ اِذْ هُوَ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ الَّذِي مَا هٰذِهِ الْمَوْجُودَاتُ السَّيَّالاَتُ اِلاَّ مَظَاهِرُ لِتَجَدُّدِ تَجَلِّيَاتِ اِيجَادِهِ وَوُجُودِهِ؛ بِهِ وَبِالاِنْتِسَابِ اِلَيْهِ وَبِمَعْرِفَتِهِ أَنْوَارُ الْوُجُودِ بِلاَ حَدٍّ. وَبِدُونِهِ ظُلُمَاتُ الْعَدَمَاتِ وَآلاَمُ الْفِرَاقَاتِ الْغَيْرِ الْمَحْدُودَاتِ.

وَمَا هٰذِهِ الْمَوْجُودَاتُ السَّيَّالَةُ اِلاَّ وَهِيَ مَرَايَا وَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ بِتَبَدُّلِ التَّعَيُّنَاتِ الاِعْتِبَارِيَّةِ فِي فَنَائِهَا وَزَوَالِهَا وَبَقَائِهَا بِسِتَّةِ وُجُوهٍ:

اَلاَوَّلُ: بَقَاءُ مَعَانِيهَا الْجَمِيلَةِ وَهُوِيَّاتِهَا الْمِثَالِيَّةِ.

وَالثَّانِي: بَقَاءُ صُوَرِهَا فِي الاَلْوَاحِ الْمِثَالِيَّةِ.

وَالثَّالِثُ: بَقَاءُ ثَمَرَاتِهَا الأُخْرَوِيَّةِ.

وَالرَّابِعُ بَقَاءُ تَسْبِيحَاتِهَا الرَّبَّانِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ لَهَا الَّتِي هِيَ نَوْعُ وُجُودٍ لَهَا.

وَالْخَامِسُ: بَقَاؤُهَا فِي الْمَشَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَنَاظِرِ السَّرْمَدِيَّةِ.

وَالسَّادِسُ: بَقَاءُ اَرْوَاحِهَا اِنْ كَانَتْ مِنْ ذَوِي الاَرْوَاحِ (٢). وَمَا وَظِيفَتُهَا فِي كَيْفِيَّاتِهَا الْمُتَخَالِفَةِ فِي مَوْتِهَا وَفَنَائِهَا وَزَوَالِهَا وَعَدَمِهَا وَظُهُورِهَا وَانْطِفَائِهَا: اِلاَّ اِظْهَارُ

---

(١) كنت أفكر منذ امد بعيد ان اشير اشارة عابرة مجملة الى مراتب حقيقة هامة؛ تمّ ايضاحها بخمسة رموز وخمس إشارات في «المكتوب الرابع والعشرين» الذي يكشف عن طلسم الفعّاليّة الدائمة التي هي من أهم معميات الكون والتي تجري بصفة دائمة في خضم الموت والحياة والفناء والزوال. أما الفناء والزوال والعدم فمسائل تعبّر عن عناوين لأنواع مختلفة من الوجود، وتثمر كثيراً من انماطها، وأن الشئ الآيل الى الزوال يترك وراءه اضرابا كثيرة من الوجود. وإن موت ذي حياة وزواله يثمر وجودات كثيرة، يتركها وراءه ثم يذهب. نعم إن الشئ الفاني يظل باقياً من جهات متعددة. فالحبة تموت بالبلى والتعفن، ولكنها تترك مكانها سنبلة جامعة لمائة حبة. وهكذا، وبناء على هذا السر فالخوف من الموت والعدم، والتأسف على الزوال ليس أمراً في موضعه.ـ المؤلف.

(٢) كما برهن على بقائها بالقطع والضرورة ببراهين باهرة في «الكلمة التاسعة والعشرين». وان لم يكن من ذوي الارواح، تبقى قوانين حقيقتها وخلقتها ونواميس ماهيتها ودساتير تشكلها. فان ذلك القانون والناموس والدستور روح أمريّ لذلك الفرد ولنوعه. كما ان شجرة التينة تموت وتنعدم ويبقى روحها الامري الذي هو قوانين تشكله ويدوم في نويته الصغيرة؛ فذلك الروح الامري لايموت بل يتجدد عليه الصور، بل تدوم ماهيته للحياة. اذ ماهيتها ظل لاسم من الاسماء الحسنى الباقية، فتبقى تلك الماهية تحت شعاع الاسم الباقي، وتبقى هويته ايضاً في كثير من الالواح المثالية. فلا يكون العدم الاّ عنواناً لانتقال وجود زائل الى انواع من وجود دائم. ـ المؤلف.

المُقْتَضيَات للاَسْماء الالَهيَّة، فَمِنْ سرٍّ هذه الْوَظيفَة صَارَت الْمَوْجُودَاتُ كَسَيْلٍ في غَايَة السُّرْعَة تَتموّج مَوْتاً وَحَيَاةً وَوُجُوداً وَعَدَماً. وَمِنْ هذه الْوَظيفَة تَتَظَاهَرُ الْفَعَّاليَّةُ الدَّائمَةُ وَالْخَلاَّقيَّةُ الْمُسْتَمرَّةُ. فَلاَ بُدَّ لي وَلِكُلِّ اَحَدٍ اَنْ يَقُولَ: ﴿**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ يَعْني؛ حَسْبي منَ الْوُجُود اَنّي اَثَرٌ منْ آثَار وَاجب الْوُجُود. كَفَاني آنٌ سَيَّالٌ منْ هذا الْوُجُود الْمُنَوّر الْمَظْهَر منْ مَلاَيين سَنَة منَ الْوُجُود الْمُزَوَّر الأَبْتَر.

نَعَم بسرّ الانْتسَاب الايمَانيّ تَقُومُ دَقيقَةٌ منَ الْوُجُود؛ مَقَامَ اُلُوف سَنَة بلاَ انْتسَاب ايمَاني، بَلْ تلْكَ الدَّقيقَةُ اَتَمُّ وَاَوْسَعُ بمَرَاتبَ منْ تلْكَ الآلاَف سَنَة.

وَكَذا حَسْبي منَ الْوُجُود وَقيمَته اَنّي صَنْعَةُ مَنْ هُوَ في السَّمَآء عَظَمَتُهُ، وَفي الأَرْض آيَاتُهُ، وَخَلَقَ السَّمَوات وَالاَرْضَ في ستَّة اَيَّام.

وَكَذا حَسْبيَ منَ الْوُجُود وَكَمَاله اَنّي مَصْنُوعُ مَنْ زَيَّنَ وَنَوَّرَ السَّمَاءَ بمَصَابيحَ، وَزَيَّنَ وَبَهَّرَ الأَرضَ بأَزَاهير.

وَكَذا حَسْبي منَ الْفَخْر وَالشَّرَف اَنّي مَخْلُوقٌ وَمَمْلُوكٌ وَعَبْدٌ لِمَنْ هذه الْكَائنَاتُ بجَميع كَمَالاَتهَا وَمَحَاسنهَا ظلٌّ ضَعيفٌ بالنّسْبَة اِلَى كَمَاله وَجَمَاله، وَمنْ آيَات كَمَاله وَاشَارات جَمَاله.

وَكَذا حَسْبي منْ كُلّ شَيْءٍ مَنْ يَدَّخرُ مَا لاَ يُعَدُّ وَلاَ يُحْصَى منْ نعَمه في صُنَيْدقَات لَطيفَة هيَ بيْنَ «الْكَاف وَالنُّون» فَيدَّخرُ بقُدْرَته مَلاَيينَ قنطَاراً في قَبْضَة وَاحدَة فيهَا صُنَيْدقَاتٌ لَطيفَةٌ تُسَمَّى بُذُوراً وَنَوايَا.

وَكَذا حَسْبي منْ كُلّ ذي جَمَال وَذي احْسَان؛ الْجَميلُ الرَّحيمُ الَّذي مَا هذه الْمَصْنُوعَاتُ الْجَميلاَتُ الاَّ مَرَايَا مُتَفَانيَةٌ لتَجَدُّد اَنْوَار جَمَاله بمَرّ الْفُصُول وَالْعُصُور وَالدُّهُور. وَهذه النّعَمُ الْمُتَوَاترَةُ وَالأَثْمَارُ الْمُتَعَاقبَةُ في الرَّبيع وَالصَّيْف مَظَاهرُ لتَجَدُّد مَرَاتب انْعَامه الدَّائم عَلَى مَرّ الأَنَام وَالاَيَّام وَالاَعْوَام.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَمَاهِيَّتِهَا انِّي خَرِيطَةٌ وَفِهْرَسْتَةٌ وَفَذْلَكَةٌ وَمِيزَانٌ وَمِقْيَاسٌ لِجَلَوَاتِ اَسْمَآءِ خَالِقِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَوَظِيفَتِهَا كَوْنِي كَكَلِمَةٍ مَكْتُوبَةٍ بِقَلَمِ الْقُدْرَةِ، وَمُفْهِمَةٍ دَالَّةٍ عَلَى اَسْمَآءِ الْقَدِيرِ الْمُطْلَقِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ بِمَظْهَرِيَّةِ حَيَاتِي لِلشُّئُونِ الذَّاتِيَّةِ لِفَاطِرِيَ الَّذِي لَهُ الاَسْمَاءُ الْحُسْنَى.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَحُقُوقِهَا اِعْلانِي وَتَشْهِيرِي بَيْنَ اِخْوَانِيَ الْمَخْلُوقَاتِ وَاِعْلاَنِي وَاِظْهَارِي لِنَظَرِ شُهُودِ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ بِتَزَيُّنِي بِجَلَوَاتِ اَسْمَاءِ خَالِقِيَ الَّذِي زَيَّنَنِي بِمُرَصَّعَاتِ حُلَّةِ وُجُودِي وَخِلْعَةِ فِطْرَتِي وَقِلاَدَةِ حَيَاتِي الْمُنْتَظَمَةِ الَّتِي فِيهَا مُزَيَّنَاتُ هَدَايَا رَحْمَتِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنْ حُقُوقِ حَيَاتِي فَهْمِي لِتَحِيَّاتِ ذَوِي الْحَيَاةِ لِوَاهِبِ الْحَيَاةِ وَشُهُودِي لَهَا وَشَهَادَاتُ عَلَيْهَا.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ حُقُوقِ حَيَاتِي تَبَرُّجِي وَتَزَيُّنِي بِمُرَصَّعَاتِ جَوَاهِرِ اِحْسَانِهِ بِشُعُورٍ اِيمَانِيٍّ لِلْعَرْضِ لِنَظَرِ شُهُودِ سُلْطَانِيَ الاَزَلِيِّ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَلَذَّتِهَا عِلْمِي وَاِذْعَانِي وَشُعُورِي وَاِيمَانِي، بِاَنِّي عَبْدُهُ وَمَصْنُوعُهُ وَمَخْلُوقُهُ وَفَقِيرُهُ وَمُحْتَاجٌ اِلَيْهِ؛ وَهُوَ خَالِقِي رَحِيمٌ بِي كَرِيمٌ لَطِيفٌ مُنْعِمٌ عَلَيَّ، يُرَبِّينِي كَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَقِيمَتِهَا مِقْيَاسِيَّتِي بِاَمْثَالِ عَجْزِيَ الْمُطْلَقِ وَفَقْرِيَ الْمُطْلَقِ وَضَعْفِيَ الْمُطْلَقِ لِمَرَاتِبِ قُدْرَةِ الْقَدِيرِ الْمُطْلَقِ، وَدَرَجَاتِ رَحْمَةِ الرَّحِيمِ الْمُطْلَقِ، وَطَبَقَاتِ قُوَّةِ الْقَوِيِّ الْمُطْلَقِ.

وَكَذا حَسْبِي بِمَعْكَسِيَّتِي بِجُزْئِيَّاتِ صِفَاتِي مِنَ الْعِلْمِ وَالارادَةِ وَالْقُدْرَةِ الْجُزْئِيَّةِ لِفَهْمِ الصِّفَاتِ الْمُحِيطَةِ لِخَالِقِي. فَأَفْهَمُ عِلْمَهُ الْمُحِيطَ بِمِيزَانِ عِلْمِي الْجُزْئِيِّ.

وَهَكَذا حَسْبِي مِنَ الْكَمَالِ؛ عِلْمِي بِأَنَّ إِلَهِي هُوَ الْكَامِلُ الْمُطْلَقُ. فَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْكَمَالِ مِنْ آيَاتِ كَمَالِهِ، وَإِشَارَاتٌ إِلَى كَمَالِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْكَمَالِ فِي نَفسِي، الايمَانُ بِاللهِ. اذا الايمَانُ لِلْبَشَرِ مَنْبَعٌ لِكُلِّ كَمالاَتِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لأَنْوَاعِ حَاجَاتِيَ الْمَطْلُوبَةِ بِأَنْوَاعِ أَلْسِنَةِ جِهَازَاتِيَ الْمُخْتَلِفَةِ، إِلَهِي وَرَبِّي وَخَالِقِي وَمُصَوِّرِيَ الَّذِي لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَيُرَبِّينِي وَيُدَبِّرُنِي وَيُكَمِّلُنِي، جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَمَّ نَوَالُهُ.

اَلنُّكْتَةُ الرَّابِعَةُ

حَسْبِي لِكُلِّ مَطَالِبِي مَنْ فَتَحَ صُورَتِي وَصُورَةَ أَمْثَالِي مِنْ ذَوِي الْحَيَاةِ فِي الْمَآءِ بِلَطِيفِ صُنْعِهِ وَلَطِيفِ قُدْرَتِهِ وَلَطِيفِ حِكْمَتِهِ وَلَطِيفِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكَذا حَسْبِي لِكُلِّ مَقَاصِدِي مَنْ أَنْشَأَنِي وَشَقَّ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَأَدْرَجَ فِي جِسْمِي لِسَاناً وَجَنَاناً، وَأَوْدَعَ فِيهَا وَفِي جِهَازَاتِي؛ مَوَازِينَ حَسَّاسَةً لاَ تُعَدُّ لِوَزْنِ مُدَّخَرَاتِ أَنْوَاعِ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ. وَكَذا أَدْمَجَ فِي لِسَانِي وَجَنَانِي وَفِطْرَتِي آلاتٍ حَسَّاسَةً لا تُحْصَى لِفَهْمِ أَنْوَاعِ كُنُوزِ أَسْمَآئِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ أَدْرَجَ فِي شَخْصِيَ الصَّغِيرِ الْحَقِيرِ، وَأَدْمَجَ فِي وُجُودِيَ الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ هذِهِ الأَعْضَاءَ وَالآلاتِ وَهذِهِ الْجَوَارِحَ وَالْجِهَازَاتِ وَهذِهِ الْحَوَاسَّ وَالْحِسِّيَاتِ وَهذِهِ اللَّطَائِفَ وَالْمَعْنَوِيَاتِ؛ لاِحْسَاسِ جَمِيعِ أَنْوَاعِ نِعَمِهِ، وَلإِذاقَةِ أَكْثَرِ تَجَلِّيَاتِ

اَسْمَائِه بِجَلِيلِ اُلُوهِيَّتِه وَجَمِيلِ رَحْمَتِهِ وَبِكَبِيرِ رُبُوبِيَّتِه وَكَرِيمِ رَأْفَتِهِ وَبِعَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَلَطِيفِ حِكْمَتِهِ.

اَلنُّكْتَةُ الْخَامِسَةُ

لا بُدَّ لِي وَلِكُلِّ اَحَدٍ اَنْ يَقُولَ حَالاً وَقَالاً وَمُتَشَكِّراً وَمُفْتَخِراً: حَسْبِي مَنْ خَلَقَنِي، وَاَخْرَجَنِي مِنْ ظُلْمَةِ الْعَدَمِ، وَاَنْعَمَ عَلَيَّ بِنُورِ الْوُجُودِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي حَيّاً فَاَنْعَمَ عَلَيَّ نِعْمَةَ الْحَيَاةِ الَّتِي تُعْطِي لِصَاحِبِهَا كُلَّ شَيْءٍ وَتُمِدُّ يَدَ صَاحِبِهَا اِلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي اِنْسَاناً فَاَنْعَمَ عَلَيَّ بِنِعْمَةِ الاِنْسَانِيَّةِ الَّتِي صَيَّرَتِ الاِنْسَانَ عَالَماً صَغِيراً اَكْبَرَ مَعْنىً مِنَ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي مُؤْمِناً فَاَنْعَمَ عَلَيَّ نِعْمَةَ الاِيمَانِ الَّذِي يُصَيِّرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ كَسُفْرَتَيْنِ مَمْلُوئَتَيْنِ مِنَ النِّعَمِ يُقَدِّمُهُمَا اِلَى الْمُؤْمِنِ بِيَدِ الاِيمَانِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي مِنْ اُمَّةِ حَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فَاَنْعَمَ عَلَيَّ بِمَا فِي الاِيمَانِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَحْبُوبِيَّةِ الاِلَهِيَّةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ اَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالاتِ الْبَشَرِيَّةِ.. وَبِتِلْكَ الْمَحَبَّةِ الاِيمَانِيَّةِ تَمْتَدُّ اَيَادِي اِسْتِفَادَةِ الْمُؤْمِنِ اِلَى مَا لاَ يَتَنَاهَى مِنْ مُشْتَمَلاَتِ دَائِرَةِ الاِمْكَانِ وَالْوُجُوبِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ فَضَّلَنِي جِنْساً وَنَوْعاً وَدِيناً وَاِيمَاناً عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَلَمْ يَجْعَلْنِي جَامِداً وَلاَ حَيَوَاناً وَلاَ ضَالاً. فَلَهُ الْحَمْدُ وَلَهُ الشُّكْرُ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي مَظْهَراً جَامِعاً لِتَجَلِّيَاتِ اَسْمَائِه، وَاَنْعَمَ عَلَيَّ بِنِعْمَةٍ لا تَسَعُهَا الْكَائِنَاتُ بِسِرِّ حَدِيثِ (لا يَسَعُنِي اَرْضِي وَلا سَمَائِي وَيَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ)(١) يَعْنِي اَنَّ الْمَاهِيَّةَ الاِنْسَانِيَّةَ مَظْهَرٌ جَامِعٌ لِجَمِيعِ تَجَلِّيَاتِ الاَسْمَاءِ الْمُتَجَلِّيَةِ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنِ اشْتَرَى مُلْكَهُ الَّذِي عِنْدِي مِنِّي لِيَحْفَظَهُ لِي، ثُمَّ يُعِيدَهُ اِلَيَّ، وَاَعْطانا ثَمَنَهُ الْجَنَّةَ. فَلَهُ الشُّكْرُ وَلَهُ الْحَمْدُ بِعَدَدِ ضَرْبِ ذَرَّاتِ وُجُودِي فِي ذَرَّاتِ الْكَائِنَاتِ.

حَسْبِي رَبِّي جَلَّ اللهُ   نُورُ مُحَمَّدْ صَلَّى اللهُ

لاَ اِلَهَ اِلاَّ اللهُ

حَسْبِي رَبِّي جَلَّ اللهُ   سِرُّ قَلْبِي ذِكْرُ اللهُ

ذِكْرُ اَحْمَدْ صَلَّى اللهُ

لاَ اِلَهَ اِلاَّ اللهُ

---

(١) الحديث «ما وسعني سمائي ولا ارضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن». ذكره في الاحياء بلفظ مقارب. قال العراقي في تخريجه: لم ار له أصلاً (كشف الخفاء للعجلوني ١٩٥/٢ باختصار). وقال السيوطي في الدرر المنتثرة: قلت اخرج الامام احمد في الزهد عن وهب بن منبه: ان الله فتح السموات لحزقيل حتى نظر الى العرش فقال حزقيل: سبحانك ما اعظمك يارب! فقال الله: ان السموات والارض ضعفن ان يسعنني ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين» اهـ. قال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: وذكر جماعة له من الصوفية لا يريدون حقيقة ظاهره من الاتحاد والحلول لأن كلاً منهما كفر، وصالحو الصوفية اعرف الناس بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وانما يريدون بذلك ان قلب المؤمن يسع الايمان بالله ومحبته ومعرفته. اهـ. ـ المترجم.

الباب السادس

في «لا حَولَ ولاقُوَّةَ إلاّ باللهِ العَلِيِّ العَظيمِ» (١)

وهذه الكلمة الطيبة المباركة خامسة من الخمس الباقيات الصالحات المشهورات التي هي: «سبحان الله. والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله اكبر، ولا حول ولاقوة إلاّ بالله العليّ العظيم».

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

إلهي وَسَيِّدي وَمَالِكي! لِي فَقرٌ بِلا نِهايَةٍ، مَعَ أنَّ حاجَاتي وَمَطالِبي لا تُعَدُّ وَلاتُحصى، وَتَقصرُ يَدي عَنْ أدنى مَطالِبي. فَلا حَولَ وَلاقُوَّةَ إلاّ بِكَ يا رَبِّيَ الرَّحيمِ! وَيا خالِقي الكَريم! يا حَسيبُ يا وَكيلُ يا كافي.

إلَهي! إختيَاري كَشعَرةٍ ضَعيفَةٍ، وَآمالي لاتُحصَى. فَأعْجَزُ دائماً عَمَّا لااَستَغني عَنها أبَداً. فَلا حَولَ وَلاقُوَّةَ إلاّ بِكَ ياغَنيُّ ياكَريمُ ياكَفيلُ ياوَكيلُ ياحَسيبُ ياكَافي.

---

(١) لقد اوضحنا في رسائل كثيرة؛ بأن في فطرة الانسان عجزاً بلا حدود وفقراً بلا نهاية، مع أن له عداءً لاحد لها ومطالب لاتنتهي. والانسان من اجل هذا العجز والفقر محتاج فطرةً الى الالتجاء الى قدير رحيم. فكما أن الجملة الاولى من آية: ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ترشد الى مرهم للعجز وملجأً تجاه كل اعدائه؛ وان الجملة الثانية (نعم الوكيل)، دواء لفقره ووسيلة الى تحقيق جميع مطالبه؛ وكذلك جملة (لاحول ولاقوة الاّ بالله العلي العظيم) دواء للعجز والفقر البشريين كجملة (حسبنا الله) تماماً، ولكنه في صورة اخرى، فكلمة «لاحول» تفيد ان نقطة استناده تجاه اعدائه، بتبرؤه من قوته ملتجأً الى القدرة الإلهية وتفيد كلمة (لاقوة) ان الوسيلة لقضاء مطالبه وحاجاته هي التوكل مع الاعتماد على القدرة الإلهية.
ولقد احسست بمراتب كثيرة لجملة (لاحول ولاقوة..) هذه في نفسي بتجارب كثيرة. فوضعت كلمات مختصرة اشارة الى تلك المراتب فألاحظ تلك المراتب بوساطة تلك الاشارات. وسوف يذكر في هذا الباب من الكلمات التي ترمز الى قسم من تلك المراتب بعينها. ـ المؤلف.

إلَهي وَسَيِّدي وَمَالِكي! إقتداري كَذَرَّةٍ ضَعيفَةٍ، مَعَ أنَّ الأعداءَ وَالعِلَلَ وَالأوهامَ وَالاهوالَ وَالالامَ وَالأسقَامَ وَالظُّلُماتِ وَالضَّلالَ وَالأسفَارَ الطِّوالَ ما لا تُحصى. فَلا حَولَ عَنها، وَلا قُوَّةَ عَلى مُقابَلَتِها إلاّ بِكَ ياقَوِيُّ ياقَديرُ ياقَريبُ يامُجيبُ ياحَفيظُ ياوَكيلُ.

إلَهي! حَياتي كَشُعلَةٍ تَنطَفىءُ كَأمثَالي. وَآمالي لاتُحصَى. فَلا حَولَ عَنْ طَلَبِ تِلكَ الامَالِ، وَلاقُوَّةَ عَلى تَحصيلِها إلاّ بِكَ ياحَيُّ ياقَيُّومُ ياحَسيبُ ياكافِي ياوَكيلُ ياوافي.

إلَهي! عُمري كَدَقيقَةٍ تَنْقَضي كَاَقراني؛ مَعَ أنَّ مَقَاصِدي وَمَطَالِبي لا تُعَدُّ وَلا تُحصَى. فَلا حَولَ عَنها وَلا قُوَّةَ عَلَيها إلاّ بِكَ ياأزَلِيُّ ياأبَدِيُّ ياحَسيبُ ياكافي ياوَكيلُ ياوَافي.

إلَهي! شُعُوري كَلَمْعَةٍ تَزُولُ؛ مَعَ أنَّ ما يَلزَمُ مُحافَظَتُهُ مِنْ أنوَارِ مَعرِفَتِكَ، وَما يَلزَمُ التَّحَفُّظُ مِنْهُ مِنَ الظُّلُماتِ وَالضَّلالاتِ لاتُعَدُّ وَلاتُحصَى. فَلا حَولَ عَنْ تِلكَ الظُّلُماتِ وَالضَّلالاتِ وَلا قُوَّةَ عَلى هاتيكَ الانوَارِ وَالهِداياتِ إلاّ بِكَ ياعَليمُ ياخَبيرُ ياحَسيبُ ياكافي ياحَفيظُ ياوَكيلُ.

إلَهي! لِي نَفسٌ هَلُوعٌ وَقَلبٌ جَزُوعٌ وَصَبرٌ ضَعيفٌ وَجِسمٌ نَحيفٌ وَبَدَنٌ عَليلٌ ذَليلٌ، مَعَ أنَّ المَحمُولَ عَلَيَّ مِنَ الأحمَالِ المَادِّيَّةِ والمَعْنَويَّةِ ثَقيلٌ ثَقيلٌ. فَلا حَولَ عَنْ تِلكَ الأحمَالِ وَلا قُوَّةَ عَلى حَملِها إلاّ بِكَ يارَبِّي الرَّحيمُ ياخالِقي الكَريمُ ياحَسيبُ ياكَافي ياوَكيلُ ياوَافي.

إلَهي! لِي مِنَ الزَّمَانِ آنٌ يَسيلُ في سَيْلٍ وَاسِعٍ سَريعِ الجَرَيانِ؛ وَلِيَ مِنَ المَكانِ مِقدارُ القَبرِ مَعَ عَلاقَتي بِسائِرِ الأمكِنَةِ وَالأزمِنَةِ. فَلا حَولَ عَنِ العَلاقَةِ بِهَا، وَلاقُوَّةَ عَلى

الوُصُولِ إلى ما فيها إلاّ بكَ يارَبَّ الأَمْكِنَةِ وَالأكوانِ، وَيارَبَّ الدُّهُورِ وَالأَزمَانِ ياحَسيبُ ياكَافي ياكَفيلُ ياوَافي.

إلَهي! لِي عَجزٌ بِلا نِهايَةٍ وَضَعفٌ بِلا غايَةٍ، مَعَ أنَّ أعدائي وَما يُؤلِمُني وَما أخَافُ منهُ وَما يُهَدِّدُني مِنَ البَلايَا وَالافاتِ ما لا تُحصَى. فَلا حَولَ عَنْ هَجَماتها وَلا قُوَّةَ عَلى دَفعِها إلاّ بِكَ ياقَويُّ ياقَديرُ ياقَريبُ يارَقيبُ ياكَفيلُ ياوَكيلُ ياحَفيظُ ياكَافي.

إلَهي! لِي فَقرٌ بِلا غايَةٍ وَفَاقَةٌ بِلا نِهايَةٍ؛ مَعَ أنَّ حاجاتي وَمَطالِبي وَوَظائِفي ما لا تُحصَى. فَلا حَولَ عنها وَلاقُوَّةَ عَليها إلاّ بِكَ ياغَنيُّ ياكَرِيمُ يامُغني يارَحيمُ.

إلَهي تَبَرَّأتُ إلَيكَ مِنْ حَولي وَقُوَّتي، وَالتَجأتُ إلى حَولِكَ وَقُوَّتِكَ فَلا تَكِلني إلى حَولي وَقُوَّتي. وَارحَمْ عَجزي وَضَعفي وَفَقري وَفَاقَتي. فَقَد ضاقَ صَدري، وَضاعَ عُمري، وَفَني صَبري، وَتَاهَ فِكري، وَأَنتَ العَالِمُ بِسِرِّي وَجَهري، وَأَنتَ المَالِكُ لِنَفعي وَضَرِّي، وَأَنتَ القَادِرُ عَلى تَفريجِ كَربي وَتَيسيرِ عُسري. فَفَرِّجْ كُلَّ كَربَتي وَيَسِّرْ عَلَيَّ وَعَلى إخواني كُلَّ عَسيرٍ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ الزَّمانِ الآتي، وَعَنِ اَهوالِهِ مَعَ سَوقٍ إلَيهِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الماضي وَلَذائِذِهِ مَعَ عَلاقَةٍ بِهِ إلاّ بِكَ ياأزَلِيُّ ياأبَدِيُّ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ الزَّوالِ الَّذي أخَافُ وَلا أخلصُ منهُ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى إعَادَةِ ما فَاتَ مِنْ حَياتيَ الَّتي أتَحَسَّرُها، وَلا أصِلُ إلَيها إلاّ بِكَ ياسَرمَدِيُّ ياباقي.

إلَهي! لاحَولَ عَنْ ظُلمَةِ العَدَمِ؛ وَلاقُوَّةَ عَلى نُورِ الوُجُودِ إلاّ بِكَ يامُوجِدُ يامَوجُودُ ياقَديمُ.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ المَضارِّ اللاّحِقَةِ بِالحَياةِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى المَسارِّ اللاّزِمَةِ لِلحَياةِ إلاّ بِكَ يامُدَبِّرُ ياحَكيمُ.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ الآلامِ الهَاجِمَةِ عَلى ذي الشُّعُورِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى اللَّذائذِ المَطلُوبَةِ لِذي الحِسِّ إلاّ بِكَ يامُرَبِّي ياكَريمُ.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ المَساوي العَارِضَةِ لِذَوي العُقُولِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى المَحَاسِنِ المُزَيِّنَةِ لِذَوي الهِمَمِ إلاّ بِكَ يامُحسِنُ ياكَريمُ.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ النِّقَمِ لأهلِ العِصيَانِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى النِّعَمِ لأهلِ الطَّاعَاتِ إلاّ بِكَ ياغَفُورُ يامُنْعِمُ.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ الأحزَانِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الافراحِ إلاّ بِكَ. فَإنَّكَ أنتَ الَّذي أضْحَكَ وَأبْكى ياجَميلُ ياجَليلُ.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ العِلَلِ، وَلا قُوَّةَ عَلى العَافيَةِ إلاّ بِكَ ياشافي يامُعَافي.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ الآلامِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الامالِ إلاّ بِكَ يامُنجي يامُغيثُ.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ الظُّلُماتِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الأنوارِ إلاّ بِكَ يانُورُ ياهادي.

إلَهي لاحَولَ عَنِ الشُّرورِ مُطلَقاً؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الخَيرات أصلاً إلاّ بِكَ يامَنْ بيَدِهِ الخَيرُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قديرٌ، وَبِعبَادِه بَصيرٌ، وَبِحَوايِجِ مَخلُوقَاتِه خَبيرٌ.

إلَهي! لاحَولَ عَنِ المَعاصي إلاّ بِعِصمَتِكَ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الطَّاعَةِ إلاّ بِتَوفيقِكَ يامُوَفِّقُ يامُعينُ.

إلَهي! لِي عَلاقَاتٌ شَديدَةٌ مَعَ نَوعيَ الانسانيِّ، مَعَ أنَّ آيَةَ ﴿ **كُلُّ نفسٍ ذآئقَةُ المَوت** ﴾ تُهَدِّدُني وَتُطفِئُ آمالي المُتَعَلِّقَةَ بِنَوعي وَجِنسي، وَتَنعي عَلَيَّ بِمَوتِهما. فَلا حَولَ عَنْ ذاكَ الحُزنِ الألِيمِ النَّاشِئِ مِنْ ذلكَ المَوتِ وَالنَّعي، وَلا قُوَّةَ عَلى تَسَلٍّ يَملأُ مَحَلَّ مازالَ عَنْ قَلبي وَروحي إلاّ بِكَ. فَانتَ الَّذي تَكفي عَنْ كُلِّ شَيءٍ، وَلا يَكفي عَنكَ كُلُّ شَيءٍ.

إلَهي! لِي عَلاقاتٌ شَديدَةٌ مَعَ دُنيايَ الَّتي كَبيْتي وَمَنْزِلي؛ مَعَ أنَّ آيَةَ ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيها فانٍ وَيَبقى وَجهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالاكرامِ** ﴾(الرحمن: ٢٦) تُعلِنُ خَرابيَّةَ بَيتي هذَا، وَزَوالَ مَحبُوبَاتي اللّاتي ساكَنتُهُمْ في ذلكَ البَيتَ المُنهَدِمِ؛ وَلاحَولَ عَنْ هذهِ المُصيبَةِ الهائلَةِ، وَعَنْ الفراقَاتِ مِنَ الأحبَابِ الآفلَةِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى ما يُسَلِّيني عَنها، وَيَقُومُ مَقَامَها إلاّ بِكَ يا مَنْ يَقُومُ جلوةٌ مِنْ تَجَلّياتِ رَحمتِهِ مَقَامَ كُلِّ ما فارَقَني.

إلَهي لِي عَلاقَاتٌ (١) بِجامعيَّةِ ما هيَّتي، وَغايَةِ كَثرَةِ جهازاتي الَّتي أنْعَمْتَها عَلَيَّ، وَاحتياجاتٌ شَديدَةٌ إلى الكائنَاتِ وَانواعِها؛ مَعَ أنَّ آيَةَ ﴿ **كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ الاّ وَجهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَاليهِ تُرجَعُونَ** ﴾ (القصص: ٨٨) تُهَدِّدُني وَتَقطَعُ عَلاقَاتي الكَثيرَةَ مِنَ الأشيَاءِ. وَبانقِطاعِ كُلِّ عَلاقَةٍ يَتوَلَّدُ جَرْحٌ وَأَلَمٌ مَعنَويٌّ في رُوحي. وَلا حَولَ عَنْ تلكَ الجُرُوحاتِ الغَيرِ المَحدُودَةِ؛ وَلاقُوَّةَ عَلى أدويَتِها إلاّ بِكَ يا مَنْ يكفي لِكُلِّ شَيءٍ، وَلا يَكفي عَنْ شَيءٍ واحِدٍ مِنْ تَوَجُّهِ رَحمَتِهِ كُلُّ الأشيَاءِ، وَيا مَنْ اذا كَانَ لشيءٍ كَانَ لَهُ كُلُّ شَيءٍ ومَنْ لَم يَكُنْ لَهُ لا يَكُونُ لَهُ شَيءٌ مِنَ الأشيَاءِ.

إلَهي! لِي عَلاقاتٌ شَديدَةٌ وَابتِلاءٌ وَمَفتُونيَّةٌ مَعَ شَخصيَّتي الجِسمانيَّةِ، حَتّى كَأنَّ جسمي عَمُودٌ في نَظَري الظَّاهريِّ لِسَقفِ جَميعِ آمالي وَمَطَالبي؛ وَفِيَّ عِشقٌ شَديدٌ للبَقاءِ؛ مَعَ أنَّ جِسمي لَيسَ مِنْ حَديدٍ وَلا حَجَرٍ لِيَدُومَ في الجُملَةِ، بل مِنْ لَحمٍ وَدَمٍ وَعَظمٍ عَلى جَناحِ التَّفَرُّقِ في كُلِّ آنٍ؛ وَمَعَ أنَّ حَياتي كَجسمي مَحدودةُ الطَّرَفَينِ، سَتُختَمُ بِخَاتَمِ المَوتِ عَنْ قَريبٍ؛ مَعَ أنّي قَد اشتَعَلَ الرَّأسُ شَيباً مِنّي، وَقد ضَرَبَ السَّقَمُ ظَهري وَصَدري، فَأنا في قَلَقٍ وَضَجَرٍ وَاضطِرابٍ وَتَأَلُّمٍ وَتَحزُّنٍ شَديدٍ مِنْ هذهِ الكَيفيَّةِ. فَلاحَولَ عَنْ هذهِ الحَالَةِ الهَائلَةِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى ما يُسَلّيني عَمَّا يَحزُنُني، وَعَلى

---

(١) لقد اشيرت الى مراتب (لاحول ولاقوة..) هذه والى حقائقها، باشارات فقط. أما البراهين والدلائل فلم تذكر، لأن المئات بل الآلاف من براهين الوحدانية ودلائل الربوبية المذكورة في الابواب السابقة هي دلائل على حقائق (لاحول ولاقوة...) بصفة عامة. فلذلك لم تذكر أدلة مستقلة اخرى. ـ المؤلف.

ما يُعَوِّضُني ما يَضيعُ منّي، وعَلى ما يَقُومُ مَقَامَ ما يَفُوتُ منّي إلاّ بِكَ يا رَبّي الباقي، والباقي بِبَقَائه وإبقائه مَنْ تَمَسَّكَ باسمٍ مِنْ أسمائه الباقيَة.

إلَهي! لي ولِكُلِّ ذي حَياة خَوفٌ شَديدٌ مِنَ المَوت وَالزَّوال اللّذَين لا مَفَرَّ منهُما؛ وَلي مَحَبَّةٌ شَديدةٌ للحَياة وَالعُمْرِ اللّذين لا دَوامَ لَهُما؛ مَعَ أنَّ تَسارُعَ المَوت إلى أجسامنا بهُجُوم الآجالِ لا يُبقي لي وَلا لأحَد أمَلاً مِنَ الآمالِ الدُّنيَويَّة إلاّ وَيقطَعُها، وَلا لَذَّةً إلاّ ويَهْدمُها. فَلا حَولَ عَنْ تلكَ البَليَّة الهائلَة وَلا قُوَّةَ عَلى ما يُسَلّينا عنها إلاّ بِكَ ياخالِقَ المَوت وَالحَياة! وَيامَنْ لَهُ الحَياةُ السَّرمَديَّةُ، الّذي مَنْ تَمَسَّكَ به وَتَوجَّهَ إليه وَيَعرفُه ويُحبُّه؛ تَدُومُ حَياتُهُ ويَكُونُ المَوتُ لَهُ تَجَدُّدَ حَياة وَتَبديلَ مَكان. فَإذاً فَلا حُزنَ لَهُ وَلا ألَمَ عَليه بِسرٍّ﴿ **ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحزَنُونَ** ﴾(يونس: ٦٢)

إلَهي! لي لأجلِ نَوعي وَجنسي عَلاقَاتٌ بتَألُّماتٍ وتَمَنّياتٍ بالسَّموَاتِ وَالأرضِ وَبأحوَالها. فَلا قُوَّةَ لي بوَجهٍ مِنَ الوُجُوه عَلى إسماعِ أمري لَهُما، وَتَبليغِ أمَلي لتلكَ الأجرامِ، وَلاحَولَ عَنْ هذا الابتِلاءِ وَالعَلاقَة إلاّ بِكَ يا رَبَّ السَّموَاتِ وَالأرضِ! وَيا مَنْ سَخَّرَهُما لعباده الصَّالحين.

إلَهي! لي وَلِكُلِّ ذي عَقلٍ عَلاقَاتٌ مَعَ الأزمنَة الماضيَة وَالأوقات الاستقبَاليَّة؛ مَعَ أنَّنا قَد انْحَبَسْنَا في زَمانٍ حاضرٍ ضيِّقٍ لا تَصلُ ايدينا الى أدنى زَمانٍ ماضٍ ومُستَقبَلٍ لجلبِ مِنْ ذاكَ ما يُفرِّحُنا، او لِدَفعِ مِنْ هذا ما يُحزِنُنا. فَلاحَولَ عَنْ هذه الحالَة، وَلا قُوَّةَ عَلى تَحويلها إلى أحسَنِ الحالِ إلاّ بِكَ يارَبَّ الدُّهُورِ وَالأزمَان.

إلَهي! لي في فِطرَتي وَلِكُلِّ أحَدٍ في فِطرَتهِم آمالٌ أبَديَّةٌ وَمَطالبُ سَرمَديَّةٌ تَمتَدُّ إلى أبَد الآباد. إذ قَد أودَعْتَ في فِطرَتِنا استعداداً عَجيباً جامعاً، فيه احتياجٌ ومَحبَّةٌ لا يُشبعُهُما الدُّنيا وَما فيها، وَلا يَرضى ذلكَ الاحتياجُ وَتلكَ المَحبَّةُ إلاّ بالجَنَّة الباقيَة؛ ولايَطمئنُّ ذلكَ الاستعدادُ إلاّ بِدارِ السَّعادَة الأبَديَّة. يارَبَّ الدُّنيا وَالآخرَة وَيارَبَّ الجَنَّة وَدَارِ القَرارِ (١).

---

(١) كان من المقرر أن تكتب عشرون مرتبة من مراتب (لاحول ولاقوة..) في البداية. وقد أخرتها على أمل كتابتها في الختام. ولما بلغنا الختام تأخرت حالياً. لأن هذه الأدلة لو وضحت لطالت كثيراً، وان كتبت باشارات تخصني فحسب لكانت الاستفادة منها قليلة. لذا أرجئت الى وقت آخر ـ المؤلف.

اللمعة الثلاثون

من المكتوب الحادي والثلاثين، وثمرة من ثمار سجن «اسكي شهر» وذيل الذيل للكلمة الثلاثين.
وهي عبارة عن ست نكات.

هذا الدرس القيّم ثمرةٌ من ثمار سجن «اسكي شهر» وحصيلة مدرستها اليوسفية، مثلما كانت رسالة «الثمرة» ثمرة أينعها سجن «دنيزلي» وكما كانت رسالة «الحجة الزهراء» درساً بليغاً أزهر في سجن «آفيون».

تضم هذه الرسالة – وهي اللمعة الثلاثون – نكاتٍ دقيقة لستةٍ من الاسماء الحسنى التي هي الاسم الاعظم.

«في القسم الذي يخص اسم الله «الحي» و «القيوم» من الاسم الاعظم مسائل عميقة وواسعة جداً قد لايستطيع كل أحد أن يستوعبها كلها ويتذوقها جميعاً، الاّ انه لا يبقى أحدٌ دون نصيب منها وفائدة يغنمها».

النكتة الاولى

تخص احدى نكات اسم الله

القدوس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والارضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الماهِدُون ﴾ (الذاريات: ٤٨)

لقد تجلت لي نكتة من نكات هذه الآية الكريمة وتجلٍّ من تجليات اسم الله «القدوس» وهو الاسم الاعظم أو أحد انوراه الستة، وانا نزيل سجن «اسكي شهر» أواخر شهر شعبان المبارك. فبيّن لي: الوجود الإلهي بوضوح تام، وكشف لي: الوحدانية الربانية بجلاء، كما يأتي:

لقد تراءى لي هذا الكون وهذه الكرة الارضية كمعمل عظيم دائب الحركة، وشبيهة بفندق واسع، او دار ضيافة تُملأ وتُخلى بلا انقطاع علماً ان دار ضيافة بهذه السعة وبهذه الكثرة الكاثرة من الغادين والرائحين، تمتلئ بالنفايات والانقاض، ويصيب كل شئ بالتلوث، وتضيق فيها اسبابُ الحياة. فان لم تعمل يد التنظيف والتنسيق فيها عملاً دائماً ادّت تلك الاوساخ الى اختناق الانسان واستحالة عيشه...

بيد اننا لا نكاد نرى في معمل الكون العظيم هذا، وفي دار ضيافة الكرة الارضية هذه أثراً للنفايات، كما انه لا توجد في أية زاوية من زاواياهما مادة غير نافعة، أو غير ضرورية، أو اُلقيَتْ عبثاً، حتى ان ظهرت مادةٌ كهذه سرعان ما تُرمى في مكائن تحويل بمجرد ظهورها، تُحيلها الى مادة نظيفة...

فهذا الامر الدائب يدلنا على: ان الذي يراقب هذا المعمل انما يراقبه بكل عناية واتقان، وان مالكه يأمر بتنظيفه وتنسيقه وتزيينه على الدوام حتى لا يرى فيه – رغم ضخامته – أثرٌ للقاذورات والنفايات التي تكون متناسبةً مع كُبر المعمل وضخامته. فالمراعاة بالتطهير اذن مستمرة، والعناية بالتنظيف دائمة ومتناسبة مع ضخامة المعمل

وسعته، لأن الانسان الفرد إن لم يستحم ولم يقم بتنظيف غرفته خلال شهر، لضاقت عليه الحياة.. فكيف بنظافة قصر العالم العظيم؟!

اذن فالطُّهر والنقاء والصفاء والبهاء المشاهَد في قصر العالم البديع هذا ما هو الاّ نابع من تنظيف حكيمٍ مستمر، ومن تطهير دقيق دائم.. فلولا هذه المراقبة المستديمة للنظافة، والعناية المستمرة بالطهر، لكانت تختنق على سطح الارض - باجوائها الموبوءة - مئاتُ الآلاف من الاحياء خلال سنة.. ولولا تلك المراقبة الدقيقة والعناية الفائقة في أرجاء الفضاء الزاخرة بالكواكب والنجوم والتوابع المعرّضة للموت والاندثار، لكانت انقاضُها المتطايرة في الفضاء تحطم رؤوسنا ورؤوس الاحياء الاخرى، بل رأس الدنيا! ولكانت تمطر علينا كتلاً هائلة بحجم الجبال، وتُرغمنا على الفرار من وطننا الدنيوي! بينما لم تسقط منذ دهور سحيقة من الفضاء الخارجي - نتيجة الاندثار - سوى بضعة نيازك، ولم تُصب احداً من الناس، بل كانت عبرةً لمن يعتبر! ولولا التنظيف الدائب والتطهير الدائم في سطح الارض، لكانت الانقاض والاوساخ والاشلاء الناتجة من تعاقب الموت والحياة اللذين يصيبان مئات الالوف من أمم الاحياء، تملأ البر والبحر معاً، ولكانت القذارة تصل الى حد ينفر كلٌّ من له شعور ان ينظر الى وجه الارض الدميم، بل كان يسوقه الى الفرار منها الى الموت والعدم ناهيك عن حبه وعشقه.

نعم، مثلما ينظف الطيرُ اجنحته بسهولة تامة أو يطهِّر الكاتب صحائف كتابه بيُسر كامل، فان اجنحة هذه الارض الطائرة - مع الطيور السماوية في الفضاء - وصحائف هذا الكتاب العظيم - أعني الكون - ينظّفان ويطهّران ويجمّلان ويزيّنان بمثل تلك السهولة واليسر، بل ان تطهير سطح الارض هذا وتنظيفه وتنسيقه وتزيينه هو من كمال الاتقان ما يجعل الذين لا يرون - بايمانهم - جمال الآخرة يعشقون هذا الجمال وهذه النظافة لهذا العالم الدنيوي بل قد يعبدونه!

اذن فقصر العالم الباذخ هذا، ومعمل الكون الهائل هذا، قد حَظَيا بتجلٍ من تجليات اسم الله «القدوس» عليهما، حتى انه عندما تصدر الاوامر الإلهية المقدسة الخاصة بالتطهير والتنظيف لا تصدر للحيوانات البحرية الكبيرة المفترسة، المؤدية وظيفة التنظيف والصقور البرية الجارحة وحدها، بل يستمع لها ايضاً أنواع الديدان

والنمل التي تجمع الجنائز وتقوم بمهمة موظفي الصحة العامة الراعين لها في هذا العالم، بل تستمع لهذه الاوامر التنظيفية حتى الكريات الحمراء والبيضاء الجارية في الدم فتقوم بمهمة التنظيف والتنقية في حجيرات البدن كما يقوم التنفس بتصفية الدم، بل حتى الاجفان الرقيقة تستمع لها فتطهر العين باستمرار، بل حتى الذباب يستمع لها فيقوم بتنظيف اجنحته دائماً..

ومثلما يستمع كل ما ذكرناه لتلك الاوامر القدسية بالتنظيف، تستمع لها ايضاً الرياح الهوج والسحاب الثقال، فتلك تطهّر وجهَ الارض من النفايات، والاخرى ترشّ روضتها بالماء الطاهر فتسكّن الغبار والتراب، ثم تنسحب بسرعة ونظام حاملة ادواتها ليعود الجمالُ الساطع الى وجه السماء صافياً متلألئاً.

ومثلما تستمع لتلك الاوامر الصادرة بالتطهير والتنظيف النجوم، والعناصر، والمعادن، والنباتات باشكالها وانواعها، تستمع لها الذراتُ جميعاً، حتى انها تراعي النقاوة والصفاء في دوامات تحولاتها المحيرة للالباب، فلا تجتمع في زاوية دون فائدة، ولا تزدحم في ركن دون نفع، بل لو تلوثت تُنظَّف فوراً وتُساق سوقاً من لدن قدرة حكيمة الى أخذ أطهر الاوضاع وانظفها وأسطعها واصفاها، وأخذ أجمل الصور وانقاها وألطفها.

وهكذا فان فعلَ التطهير هذا الذي هو فعلٌ واحد، ويعبّر عن حقيقة واحدة هوتجلٍ اعظم من تجليات اسم «القدوس» الاعظم،يُرى ذلك التجلي الاعظم حتى في أعظم دوائر الكون واوسعها، بحيث يبين الوجود الرباني، ويُظهر الوحدانية الإلهية مع اسمائها الحسنى ظهوراً جلياً كالشمس المنيرة، فتبصره العيون النافذة النظر.

وقد ثبت ببراهين دامغة في أغلب اجزاء (رسائل النور): ان فعل التنظيم والنظام الذي هو تجلٍ من تجليات اسم الحَكَم والحكيم، وان فعل الوزن والميزان الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم العدل والعادل، وان فعل التزيين والاحسان الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم الجميل والكريم، وان فعل التربية والإنعام الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم الرب الرحيم.. كل فعل من هذه الافعال، هو فعلٌ واحد، وحقيقة واحدة، تشاهَد بوضوح

في آفاق الكون كله، فكل منها يشير الى وجوب وجودِ واحدٍ أحدٍ، ويبين وحدانيته بجلاء.

كذلك فعلُ التنظيف والتطهير الذي هو تجلٍ من تجليات اسم «القدوس» يدل على وجود ذلك الواجب، كالشمس، ويبين وحدانيته كالنهار..

وكما ان الافعال المذكورة من تنظيم وتقدير وتزيين وتنظيف وامثالها من الافعال الحكيمة تبين خالقاً واحداً أحداً، بوحدتها النوعية، وبظهورها في اوسع الآفاق الكونية، كذلك اكثر الاسماء الحسنى، بل كل اسم من الف اسم واسم من الاسماء الحسنى له تجلٍ أعظم في اوسع دائرة من دوائر الكون كهذا. فيُظهر الفعلُ الناتج من ذلك التجلي الواحد الاحد ظهوراً جلياً يناسب سعة ذلك الفعل ووضوحه.

نعم، ان الحكمة العامة التي تُخضع كل شئ الى قانونها ونظامها، والعناية الشاملة التي تجمّل كل شئ وتزيّنه، والرحمة الواسعة التي تُدخل السرورَ والبهجة على كل شئ وتجعله في حمدٍ دائم، والرزق العام الذي يعتاش عليه كلُ ذي حياة ويتمتع بلذائذه، والحياة والإحياء التي تربط كل شئ بالاشياء الأخرى، وتجعل الشئ ينتفع من كل شئ كأنه مالك للاشياء..

هذه الحقائق وامثالها، المشهودة بالبداهة، والمتسمة بالوحدة، والجاعلة وجهَ الكون يشرق بهاءً، ويستهل بِشراً وسروراً، تدل بداهةً على: الحكيم، الكريم، الرحيم، الرزاق، الحي المحيي، كما يدل الضوءُ على الشمس. ولله المثل الاعلى.

فكل فعل من هذه الافعال الواسعة التي تربو على المئات، دليل باهر الوضوح على الوحدانية، إن لم يُسنَد الى (الواحد الاحد) سبحانه لنتجت اذاً مئات المحالات بمئات من الأوجه.

فمثلاً: انه ليست الافعال كلها كالحكمة والعناية والرحمة والاعاشة والإحياء والاماتة التي هي من الحقائق البديهية ومن دلائل التوحيد، بل حتى فعلٌ واحد فقط منها وهو فعل التطهير لو لم يُسند الى رب العالمين للزم – في طريق الكفر والضلالة –

ان يكون كلٌّ شئ له علاقةٌ بالتنظيف ابتداءً من الذرات، الى الحشرات، الى العناصر، الى النجوم، على علمٍ ومعرفةٍ بتنظيف هذا الكون العظيم وتزيينه وتجميله وموازنة ما فيه!! وأن يلاحظ الامور وفقها، ويقدِر على التحرك.

أو يلزم ان يتصف كلٌّ منها بالصفات القدسية الجليلة لرب العالمين!!

أو يلزم ان يكون هناك مجلس شورى واسع سعة الكون كله لتنظيم جميع تزيينات الكون وتطهيره وتقدير كل ما يلج فيه وما يخرج منه وموازنته، وان يشكِّل هذا المجلسَ ما لا يحد من الذرات والحشرات والنجوم!!..

وهكذا يصل سالكُ طريق الكفر الى مئات من أمثال هذه الخرافات السخيفة والمحالات السوفسطائية كي يظهر التزيين المحيط والتنظيف الشامل الظاهر في الارجاء كافة. اي لاينشأ محال واحد بل مئات الالوف من المحالات.

نعم، ان لم يسند ضوء النهار والشُميسات المتألقة المثالية في كل شئ على سطح الارض، الى الشمس الواحدة، ولم تُفسَّر على انها انعكاساتٌ لتجلي تلك الشمس الواحدة، للزم وجود شمسٍ حقيقية في كل قطرة ماء لماعة، وفي كل قطعة زجاج شفافة، وفي كل بلورة ثلج مشعة، حتى في كل ذرة من ذرات الهواء، كي يظهر ذلك الضوء الذي يعم الوجود!!

وهكذا؛

فالحكمة ضياءٌ، والرحمة الواسعة ضياء، والتزيين والموازنة والتنظيم والتنظيف كلٌّ منها ضياء شامل محيط وشعاع من اشعة ذلك النور الازلي سبحانه.

فانظر الآن بنور هذا الايمان لترى كيف يسقط أهل الكفر والضلالة في مستنقع آسن لا يمكنهم الخروج منه. وشاهد مدى حماقة أهل الضلالة وجهالتهم! واحمد الله قائلاً:

الحمد لله على دين الاسلام وكمال الايمان.

نعم، ان هذا التنظيف السامي الشامل المشاهَد الذي يجعل قصر العالم طاهراً نقياً نظيفاً لهو تجلٍ من تجليات اسم «القدوس» ومقتضىً من مقتضياته.

وكما تتوجه تسبيحات المخلوقات جميعها الى اسم «القدوس» وترنو اليه، كذلك يستدعي اسم «القدوس» نظافة تلك المخلوقات وطهارتها[1] حتى عدّ الحديث الشريف «النظافة من الايمان» الطهور نوراً من انواره[2] لارتباطه القدسي هذا، واظهرت الآية الكريمة ان الطُهر مدعاة الى المحبة الإلهية ومدار لها، في قوله تعالى:

﴿انَّ الله يحبّ التوابينَ ويحبّ المتطهرين﴾ (البقرة:٢٢٢).

---

(١) يجب الأ ننسى: ان الخصال القبيحة، والاعتقادات الباطلة، والذنوب والآثام، والبدع، كلها من الاوساخ المعنوية. ـ المؤلف.

(٢) وردت في هذا المعنى احاديث كثيرة منها: «الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان..» رواه مسلم واحمد والترمذي عن ابي مالك الأشعري، (عن كشف الخفاء للعجلوني). ـ المترجم.

النكتة الثانية

تخص احدى نكات اسم الله

العدل

﴿ وإنْ مِن شيءٍ إلاّ عندَنا خزائنهُ وَمَا نُنَزّلُه الاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم ﴾ (الحجر:٢١)

لقد تراءت لي نكتة لطيفةٌ من لطائف هذه الآية الكريمة، ونور من انوار تجليات اسم الله: « العدل » الذي هو اسم الله الاعظم، أو هو نور من أنواره الستة.

تراءى لي ذلك النور من بعيد – كما هو الحال في النكتة الاولى – وانا نزيل سجن « اسكي شهر» ولأجل تقريبه الى الافهام نسلك أيضاً طريق ضرب الامثال. فنقول:

هذا الكون قصر بديع يضم مدينة واسعة تتداولها عوامل التخريب والتعمير، وفي تلك المدينة مملكة واسعة تغلي باستمرار من شدة مظاهر الحرب والهجرة، وبين جوانح تلك المملكة عالم عظيم يسبح كل حين في خضم الموت والحياة.. ولكن على الرغم من كل مظاهر الاضطراب، فان موازنةً عامة وميزاناً حساساً، وعملية وزنٍ دقيق تسيطر في كل جوانب القصر ونواحي المدينة وتسود في كل ارجاء المملكة واطراف العالم، وتهيمن عليها هيمنة، بحيث تدل بداهة:

ان ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العدّ من تحولات، وما يلجُ فيها وما يخرج منها لا يمكن أن يكون الاّ بعملية وزنٍ وكَيْلٍ، وميزان مَن يرى انحاء الوجود كلها في آن واحد، ومن تجري الموجودات جميعُها أمامَ نظر مراقبته في كل حين... ذلكم الواحد الأحد سبحانه.

والاّ فلو كانت الاسباب الساعية الى اختلال التوزان، سائبة أو مفوضة الى المصادفة العشواء أو القوة العمياء أو الطبيعة المظلمة البلهاء، لكانت بويضات سمكةٍ واحدة التي تزيد على الالوف تخل بتلك الموزانة، بل بذيرات زهرةٍ واحدة – كالخشخاش – التي تزيد على العشرين ألف تخل بها، ناهيك عن تدفق العناصر

الجارية كالسيل، والانقلابات الهائلة والتحولات الضخمة التي تحدث في ارجاء الكون.. كل منها لو كان سائباً لكان قميناً أن يخل بتلك الموزانة الدقيقة المنصوبة بين الموجودات، ويفسد التوزان الكامل بين اجزاء الكائنات خلال سنة واحدة، بل خلال يوم واحد. ولكنت ترى العالم وقد حلّ فيه الهرجُ والمرج وتعرّض للاضطرابات والفساد..

فالبحار تمتلئ بالانقاض والجثث، وتتعفن.

والهواء يتسمم بالغازات المضرة الخانقة، ويفسد.

والارض تصبح مزبلة ومسلخة، وتغدو مستنقعاً آسناً لا تطاق فيه الحياة.

فان شئت فأنعم النظر، في الموجودات كلها، ابتداء من حجيرات الجسم الى الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، ومن تحولات الذرات الى التناسب والانسجام بين اجهزة الجسم، ومن واردات البحار ومصاريفها الى موارد المياه الجوفية وصرفياتها، ومن تولدات الحيوانات والنباتات ووفياتها الى تخريبات الخريف وتعميرات الربيع، ومن وظائف العناصر وحركات النجوم الى تبدل الموت والحياة، ومن تصادم النور والظلام الى تعارض الحرارة والبرودة.. وما شابهها من أمور، كي ترى ان الكل: يوزَن ويُقدّر بميزان خارق الحساسية، وان الجميع يُكتال بمكيال غاية في الدقة، بحيث يعجز عقلُ الانسان ان يرى اسرافاً حقيقياً في مكان وعبثاً في جزء.. بل يلمس علمُ الانسان ويشاهد اكملَ نظامٍ واتقنَه في كل شئ فيحاول أن يُريَه، ويرى اروَع توازنٍ وابدعه في كل موجود فيسعى لإبرازه.

فما العلوم التي توصّل اليها الانسان الاّ ترجمة لذلك النظام البديع وتعبير عن ذلك التوازن الرائع.

فتأمل في الموازنة الرائعة بين الشمس والكواكب السيارة الاثنتى عشرة التي كل منها مختلفة عن الاخرى، الا تدل هذه الموازنة دلالة واضحة وضوح الشمس نفسها على الله سبحانه الذي هو «العدل القدير»؟

ثم تأمل في الارض – وهي احدى الكواكب السيارة – هذه السفينة الجارية السابحة في الفضاء التي تجول في سنة واحدة مسافة يقدّر طولها باربع وعشرين الف

سنة. ومع هذه السرعة المذهلة لا تبعثر المواد المنسقة على سطحها ولا تضطرب بها ولا تطلقها الى الفضاء.. فلو زيد شئٌ قليل في سرعتها أو أنقص منها لكانت تقذف بقاطنيها الى الفضاء، ولو أخلّت بموازنتها لدقيقة – بل لثانية واحدة – لتعثرت في سيرها واضطربت، ولربما اصطدمت بغيرها من السيارات ولقامت القيامة.

ثم تأمل في تولدات ووفيات النباتات والحيوانات واعاشتهما وحياتهما على الارض والتي يزيد عدد انواعها على الاربعمائة الف نوع، ترى موازنة رائعة ذات رحمة، تدلك دلالة قاطعة على «الخالق العادل الرحيم» جلّ جلالُه، كدلالة الضياء على الشمس.

ثم تأمل في اعضاء كائن حي من الاحياء التي لاتعد ولا تحصى، ودقق في اجهزته وفي حواسه.. ترَ فيها من الانسجام التام والتناسق الكامل والموازنة الدقيقة ما يدلّك بداهة على الصانع الذي هو «العدل الحكيم».

ثم تأمل في حجيرات جسم كائن حي وفي اوعية الدم، وفي الكريات السابحة في الدم، وفي ذرات تلك الكريات، تجد من الموزانة الخارقة البديعة ما يثبت لك اثباتاً قاطعاً انه لا تحصل هذه الموازنة الرائعة ولا ادارتها الشاملة، ولا تربيتها الحكيمة الاّ بميزان حساسٍ وبقانونٍ نافذ وبنظام صارم للخالق الواحد الاحد «العدل الحكيم» الذي بيده ناصية كل شئ، وعنده مفاتيح كل شئ. لايحجب عنه شئ ولايعزب، ويدير كل شئ بسهولة ادارة شئ واحد.

ان الذي لا يعتقد ان اعمال الجن والانس يوم الحشر الاكبر توزن بميزان العدل الإلهي، ويستغرب منها ويستبعدها ولا يؤمن بها، أقول لو تمكّن ان يتأمل فيما هو ظاهرٍ مشاهدَ من انواع الموازنة الكبرى امامه في هذه الدنيا لزال استبعاده واستنكاره حتماً.

ايها الانسان المسرف الظالم الوسخ.!

اعلم، ان الاقتصاد والطهر والعدالة سنن الهية جارية في الكون، ودساتير الهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها لايفلت منها شئ الاّ انت ايها الشقي، وانت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرة منها والغضب عليك وانت تستحقها..

فعلامَ تستند وتثير غضبَ الموجودات كلها عليك فتقترف الظلم والاسراف ولاتكترث للموازنة والنظافة؟

نعم، ان الحكمة العامة المهيمنة في الكون والتي هي تجلٍ أعظم لاسم «الحكيم» انما تدور حول محور الاقتصاد وعدم الاسراف، بل تأمر بالاقتصاد.

وان العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الاعظم لاسم «العدل» انما تدير موازنة عموم الاشياء، وتأمر البشرية باقامة العدل.

وان ذكر الميزان اربع مرات في «سورة الرحمن» اشارة الى اربعة انواع من الموازين في اربع مراتب وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمته العظمى في الكون. وذلك في قوله تعالى: ﴿ **والسماء رفَعها وَوَضَع الميزان۝ الأَّ تَطْغَوا في الميزان۝ وَاقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ** ﴾ (الرحمن: ٧- ٩).

نعم، فكما لا اسراف في شئ، فلا ظلم كذلك ظلماً حقيقياً في شئ، ولا بخسَ في الميزان قط، بل ان التطهير والطهر الصادر من التجلي الاعظم لاسم «القدوس» يعرض الموجودات بأبهى صورتها وابدع زينتها، فلا ترى ثمة قذارة في موجود، ولا تجد قبحاً اصيلاً في شئ ما لم تمسّه يد البشر الوسخة.

فاعلم من هذا ان «العدالة والاقتصاد والطهر» التي هي من حقائق القرآن ودساتير الاسلام، ما أشدها ايغالاً في اعماق الحياة الاجتماعية، وما اشدها عراقة واصالة. وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط احكام القرآن بالكون، وكيف انها مدّت جذوراً عميقة في اغوار الكون فأحاطته بعرىً وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها ان افساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع افساد نظام الكون والاخلال به وتشويه صورته.

ومثلما تستلزم هذه الحقائق المحيطة بالكون، وهذه الانوار العظيمة الثلاثة (العدالة والاقتصاد والطهر) الحشرَ والآخرة فهناك حقائق محيطة معها: كالرحمة والعناية والرقابة، وامثالها مئات من الحقائق المحيطة والانوار العظيمة تستلزم الحشر وتقتضي الحياة الآخرة، اذ هل يمكن ان تنقلب مثل هذه الحقائق المهيمنة على الموجودات والمحيطة بالكون الى اضدادها بعدم مجئ الحشر وبعدم اقامة الآخرة، أي ان تنقلب الرحمةُ الى ضدها وهو الظلم، وتنقلب الحكمةُ او الاقتصاد الى ضدهما وهو العبث والاسراف، وينقلب الطُهر الى ضده وهو العبث والفساد. حاش لله..

ان الرحمة الإلهية، والحكمة الربانية اللتين تحافظان على حق حياة بعوضةٍ ضعيفة محافظةً تتسم بالرحمة الواسعة، لا يمكن ان تضيّعا - بعدم اقامة الحشر - حقوق جميع ذوي الشعور غير المحدودين وتهضما حقوقاً غير متناهية لموجودات غير محصورة..

وان عظمة الربوبية التي تُظهر دقة متناهية وحساسية فائقة - اذا جاز التعبير - في الرحمة والشفقة والعدالة والحكمة، وكذا الالوهية الباسطة سلطانها على الوجود كله والتي تريد اظهار كمالاتها وتعريف نفسها وتحبيبها بتزييناتها الكائنات ببدائع صنائعها وبما أسبغت عليها من نِعَمٍ هل يمكن ان تسمح - هذه الربوبية العظيمة والالوهية الجليلة - بعدم اقامة الحشر الذي يسبب الحطّ من قيمة جميع كمالاتها ومن قيمة مخلوقاتها قاطبة؟.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فمثل هذا الجمال المطلق لا يرضى - بالبداهة - بمثل هذا القبح المطلق.

فالذي يريد ان ينكر الآخرة عليه ان ينكر وجود هذا الكون اولاً بجميع ما فيه من حقائق. والاّ فالكائنات مع حقائقها المتأصلة فيها تكذِّبه بالوفٍ من الألسنة، وتثبت له انه الكذّاب الأشر.

وقد أثبتت «رسالة الحشر» بدلائل قاطعة: ان وجود الآخرة ثابت وقاطع لاريب فيه كوجود هذه الدنيا.

النكتة الثالثة

تشير الى النور الثالث من الانوار الستة للاسم الاعظم :

الحكم

﴿ادعُ الى سَبيل ربك بالحِكْمة﴾ (النحل:١٢٥)

لقد تراءت لي نكتة من النكات الدقيقة لهذه الآية الكريمة، ونور من أنوار تجليات اسم الله «الحَكَم» الذي هو اسم الله الاعظم، أو أحد أنواره. في شهر رمضان المبارك. فكُتبت هذه النكتة المشتملة على خمس نقاط على عجل، فأثبتّها على حالها في المسودة دون تنقيح أو تغيير.

النقطة الاولى:

مثلما ذكرنا في «الكلمة العاشرة» ان التجلي الاعظم لاسم «الحَكَم» جعل هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كُتبتْ في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب، وأُدرجت في كل سطر منه مئات الصفحات، وخُطّتْ في كل كلمة منه مئات الاسطر، وتُقرأ تحت كل حرف فيه مئات الكلمات، وحُفظَ في كل نقطة من نقاطه فهرسٌ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله.. فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة – بمئات الأوجه – على مصوِّرِه وكاتبه، حتى أن مشاهدة الكتاب الكوني العظيم هذا وحدَها كافية للدلالة على وجود كاتبه، بل تسوقنا الى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه اضعافاً مضاعفة.

اذ بينما يدل الحرفُ الواحد على وجوده ويعبّر عن نفسه بمقدار حرف فأنه يعبّر عن أوصاف كاتبه بمقدار سطر..

نعم! ان سطح الارض «صحيفة» من هذا الكتاب الكبير، هذه الصحيفة تضم كتباً بعدد طوائف النباتات والحيوانات، وهي تُكتب أمام أنظارنا في موسم الربيع في غاية الكمال والاتقان من دون خطأٍ، كتابةً متداخلة، جنباً الى جنب، في آن واحد.

والبستان «سطر» من هذه الصحيفة، نشاهد فيه قصائد منظومة وهي تُكتب أمام أعيننا بعدد الازهار والاشجار والنباتات، كتابةً متداخلة، جنباً الى جنب، من دون خطأ.

والشجرة النامية الزاهية أوراقُها، المفتحة أزهارُها، وقد أوشكت أن تخرج أثمارُها من اكمامها، هذه الشجرة «كلمةٌ» من ذلك السطر، فهذه الكلمة تمثل فقرةً كاملة ذات مغزى تعبّر تعبيراً بليغاً عن ثنائها وحمدها ودلالتها على «الحكم» ذي الجمال، بعدد أوراقها المنتظمة وأزهارها المزينة وأثمارها الموزونة، حتى لكأن تلك الشجرة المفتحة الازهار قصيدةٌ عصماء تتغنى بالمدح والثناء على آلاء بارئها المصور الجليل.

وكأن «الحكيم» ذا الجلال يريد أن ينظر عباده الى ما عَرَضه من بدائع آثاره وعجائب مخلوقاته في معرض الارض البديع بألوف من العيون.

وكأن تلك الهدايا الثمينة والأوسمة الغالية والشارات اللطيفة التي منحها الله تعالى لتلك الشجرة قد أعطتها من الشكل الجميل المزيّن، والهيأة الموزونة المنتظمة، والابانة الحكيمة البليغة ما يهيؤها للعرض أمام أنظار المِلك العظيم في يوم عيده البهيج وعرضه العام للمخلوقات.. في الربيع الزاهي.. فتنطلق بالشهادة على وجود البارئ المصور، والدلالة على أسمائه الحسنى ألسنةٌ عديدة ووجوهٌ كثيرة متداخلة؛ من كل زهرة من أزهار الشجرة، ومن كل ثمرة من ثمارها.

فمثلاً: ان كل ما في الزهرة والثمرة موزونٌ بميزان دقيق، وذلك الميزان مقدّر وفق تناسق بديع، وذلك التناسق يسير منسجماً مع تنظيم وموازنةٍ يتجددان، وذلك التنظيم والموازنة يجريان في ثنايا زينة فاخرة وصنعة متقنة، وتلك الزينة والاتقان يظهران بروائح ذات مغزى وبمذاقات ذات حكمة.. وهكذا تشير كل زهرة الى «الحكم» ذي الجلال اشاراتٍ، وتدل عليه دلالات، بعدد أزهار تلك الشجرة.

والشجرة التي هي بمثابة كلمة، وثمارها التي هي بحكم حروف تلك الكلمة، وبذور الثمر كأنها نقاط تلك الحروف التي تضم فهرس الشجرة كاملاً وتحمل خطة اعمالها. هذه الشجرة اذا اخذناها مثالاً وقسنا عليها كتاب الكون الكبير، نرى سطورَه وصحائفه قد صارت بتجلى انوار اسم «الحكيم الحَكَم» معجزة باهرة، بل

غدت كل صحيفة منه، وكل سطر منه، وكل كلمة، وكل حرف، وكل نقطة معجزة تبلغ من العظمة ما لو اجتمعت الاسباب المادية كلها على أن تأتي بمثل تلك النقطة - أي البذرة - أو بنظيرها لا تأتي بمثلها. بل تعجز الاسباب جميعها عجزاً مطلقاً عن معارضتها.

نعم، ان كل آية كونية من آيات قرآن الكون العظيم المنظور تُعرِض للانظار معجزاتٍ نيّرات هي بعدد نقاطها وحروفها، فلا جرم أن المصادفة العشواء والقوة العمياء، والطبيعة الصماء البلهاء التي لا هدف لها ولا ميزان، لا يمكنها ان تتدخل - في أية جهة كانت - في هذا الميزان المتقن الخاص، وفي هذا الانتظام الدقيق البديع المتّسمين بالحكمة والبصيرة. فلو اُفترض تدخلها - جدلاً - لظهر أثر التدخل، بينما لا يشاهَد في أي مكان تفاوتاً ولا خللاً قط.

النقطة الثانية:

وهي مسألتان:

● *المسألة الاولى:* مثلما وضح في «الكلمة العاشرة» أنه من القواعد الاساسية الرصينة:

ان الجمال الذي هو في منتهى الكمال لابد أن يَشهَد ويُشهِدَ جمالَه.

وان الكمال الذي هو في منتهى الجمال لابد أن يَشهَد ويُشهِد كمالَه.

فبناء على هذا الدستور العام فان البارئ المصور سبحانه الذي أبدع كتاب الكون العظيم هذا يعرّف جمالَ كماله ويحبّبه بألسنة مخلوقاته - ابتداءً من أصغر جزئي الى أكبر كلي - فيعرِّف سبحانه ذاتَه المقدسّةَ، ويفهّم كمالَه السامي، ويُظهر جمالَه البديع: بهذا الكون الرائع، وبكل صحيفة فيه، وبكل سطر فيه، وبكل كلمة فيه، بل حتى بكل حرف وبكل نقطة من كتابه العظيم هذا.

فيا أيها الغافل! ان هذا «الحكيم الحَكَمَ الحاكم» ذا الجلال والجمال، اذ يعرّف نفسَه لك ويحبّبها اليك بكل مخلوقٍ من مخلوقاته، وبهذه الصورة الرائعة وبهذه الكثرة الكاثرة من الوسائل البديعة، اِن لَم تقابِل تعريفَه هذا بالايمان به ولم تعرِفه، وإن

لم تقابِل تحبيبه هذا بالعبادة له ولم تحبّب نفسَك اليه، فما أعظم جهلك اذن، وما أفدح خسارتك!. أحذر!. أنتبه!.. وأفِق من غفلتك!.

● *المسألة الثانية:* انه لا مكان للشرك قط في هذا الكون الشاسع العظيم الذي أبدعه الصانع القدير الحكيم بقدرته وحكمته؛ لأن وجود منتهى النظام في كل شئ لن يسمح بالشرك ابداً، فلو تدخلت أيدٍ متعددة في خلق شئٍ ما لبان التفاوت والاختلال في ذلك الشئ، مثلما تختلط الامور اذا ما وجد سلطانان في بلاد، ومسؤولان في مدينة، ومديران في قصبة، ومثلما يرفض أبسط موظف تدخل أحدٍ في شأن من شؤونه التي تخص وظيفته..

كل ذلك دلالة على ان الخاصة الاساسية للحاكمية انما هي: «الاستقلال» و«الانفراد» فالانتظام يقتضي الوحدة كما ان الحاكمية تقتضي الانفراد.

فاذا كان ظلٌ باهت زائل للحاكمية لدى هذا الانسان العاجز الفقير يردّ المداخلة بقوة، فكيف بالحاكمية الحقيقية التي هي في مرتبة الربوبية المطلقة لدى القدير المطلق سبحانه؟ ألا تردّ الشرك وترفضه رفضاً باتاً؟.

فلو أُفترض التدخل – ولو بمقدار ذرة – لاختلط الانتظام والتناسق واختل النظام والميزان!. مع العلم ان هذا الكون قد أبدع ابداعاً رائعاً الى حد يلزم لخَلْق بذرة واحدة قدرة قادرة على خلق شجرة كاملة، ويلزم لخلق شجرة واحدة قدرة قادرة لإبداع الكون كله. واذا ما افتُرض وجود شريك في الكون كله وَجَب أن يظهر نصيبه في التدخل لخلقِ أصغر بذرة مثلاً – اذ البذرة نموذج الكائنات – وعندئذ يلزم استقرار ربوبيتين – لا يسَعهما الكونُ العظيم – في بذرة صغيرة، بل في ذرة!! وهذا من أسخف المحالات والخيالات الباطلة وأبعدها عن المنطق والعقل.

فاعلم من هذا! ما أتفه الشرك والكفر من خرافة! وما اكذبهما من كلمة! وما أفظعهما من افتراء! اذ يقتضيان عجز القدير المطلق الذي يمسك السموات والارض أن تزولا، والذي بيده مقاليد السموات والارض يديرهما بميزان عدله ونظام حكمته.. يقتضيان عجزه سبحانه حتى في بذرة صغيرة!!

واعلم! ما أصوبَ التوحيد من حق وحقيقة! وما أعدله من صدق وصواب! ادرك هذا وذاك وقل: الحمد لله على الايمان.

النقطة الثالثة: ان الصانع القدير باسمه «الحَكَم والحكيم» قد أدرج في هذا العالم ألوف العوالم المنتظمة البديعة، وبوأ الانسانَ - الذي هو اكثر من يمثل الحِكَم المقصودة في الكون وأفضل مَن يظهرها - موقعَ الصدارة، وجعله بمثابة مركز تلك العوالم ومحورها؛ اذ يتطلع ما فيها من حِكَم ومصالح الى الانسان. وجعل الرزق بمثابة المركز في دائرة حياة الانسان؛ فتجد ان معظم الحِكَم والغايات وأغلب المصالح والفوائد - ضمن عالم الانسان - تتوجه الى ذلك الرزق وتتضح به؛ لذا فان تجليات اسم «الحكيم» تبدو واضحة بأبهر صورها واسطعها من خلال مشاعر الانسان، ومن تضاعيف مذاقات الرزق، حتى غدا كل علم - من مئات العلوم التي توصّل الانسان الى كشفها بما يملك من شعور - يعرِّف تجلياً واحداً من تجليات اسم «الحَكَم» في نوع من الأنواع.

فمثلا:

لو سُئل علم الطب: ما هذه الكائنات؟

لأجاب: انها صيدلية كبرى أُحضرت فيها باتقان جميع الادوية وأُدّخرَت.

واذا ما سُئل علم الكيمياء: ما هذه الكرة الارضية؟

لأجاب: انها مختبر كيمياء منتظم بديع كامل.

على حين يجيب علم المكائن: انها معمل منسّق كامل لا ترى فيه نقصاً.

كما يجيب علم الزراعة: انها حديقة غنّاء ومزرعة معطاء، تستنبت فيها انواع المحاصيل، كلٌّ في أوانه.

ولأجاب علم التجارة: انها معرض تجاري فخم، وسوق في غاية الروعة والنظام، ومحل تجاري يحوي أنفس البضائع المصنوعة وأجودها.

ولأجاب علم الاعاشة: انها مستودع ضخم يضم الأرزاق كلها بأنواعها وأصنافها.

ولأجاب علم التغذية: انها مطبخ رباني تطبخ فيه مئات الالوف من الاطعمة الشهيّة اللذيذة جنباً الى جنب بنظام في غاية الاتقان والكمال.

ولو سئل علم العسكرية عن الارض!

لأجاب: انها معسكر مهيب يُساق اليه في كل ربيع جنودٌ مسلحون جُدد يؤلفون أمماً مختلفة من النباتات والحيوانات يبلغ تعدادها اكثر من اربعمائة ألف أمة، فتنصب خيَمُهم في ارجاء سطح الارض. وعلى الرغم من أن ارزاق كل أمَّة تختلف عن الاخرى، وملابسها متغايرة واسلحتها متباينة، وتعليماتها مختلفة، ورخصها متفاوتة، الا ان أمور الجميع تسير بانتظام رائع، ولوازم الجميع تُهيأ دون نسيان ولا التباس، وذلك بأمر من الله تعالى وبفضل رحمته السابغة صادراً من خزينته الواسعة.

واذا ما سئل علم الكهرباء!

لأجاب: ان سقف قصر الكون البديع هذا قد زُيّن بمصابيح متلألئة لاحدَّ لكثرتها ولا منتهى لروعتها وتناسقها، حتى ان النظام البديع والتناسق الرائع الذي فيه يحولان دون انفجار تلك المصابيح السماوية المتوهجة دوماً – وهي تكبر الارض الف مرة وفي مقدمتها الشمس – ودون انتقاص توازنها او نشوب حريق فيما بينها..

تُرى من أي مصدرٍ تُغذّىٰ تلك المصابيح التي لا يحد ولا ينفد استهلاكها؟. ولِمَ لا يختل توازن الاحتراق؟ علماً ان مصباحاً زيتياً صغيراً إن لم يُراعَ ويُعتَنَ به باستمرار ينطفئ نوره ويخبُ.. فسبحانه من قدير حكيم ذي جلال كيف أوقد الشمس – التي هي أضخم من الارض بمليون مرة ومضى على عمرها أكثر من مليون سنة – حسب ما توصل اليه علم الفلك – دون ان تنطفئ ومن دون وقود أو زيت[1]..

تأمل في هذا وسبّح باسم ربك العظيم وقل: ما شاء الله، تبارك الله، لا اله الا الله.. قلها بعدد الثواني التي مرت على عمر الشمس.. فلاشك ان نظاماً بديعاً صارماً هو الذي يهيمن على هذه المصابيح السماوية المتلألئة ولابد أن رعايتها،

(١) اذا ماحُسب مايلزم مدفأة قصر الكون ومصباحه - وهو الشمس - كم تحتاج يومياً من الوقود ومن الزيت للاضاءة، نرى أنها - بحساب الفلكيين - بحاجة الى مليون ضعف حجم الكرة الارضية من الوقود والوف الاضعاف من حجم البحار من الزيوت!!
فتأمل في عظمة الخالق القدير ذي الجلال الذي يوقد تلك المدفأة ويشعل ذلك السراج الوهاج من دون وقود ولازيت، ويشعلها بلا انقطاع. تدبّر في سعة حكمته وطلاقة قدرته، وقل: سبحان الله.. ماشاء الله.. تبارك الله.. بعدد ذرات الشمس. - المؤلف.

ومراقبتها دقيقة، حتى كأن مصدر الحرارة – والمرجل البخاري – لتلك الكتل النارية التي هي في منتهى الضخامة وفي غاية الكثرة، انما هي جهنم لا تنفد حرارتُها وترسلها الى الكل مظلمة قاتمة بلا نور. وكأن ماكنة تلك المصابيح المنورة والقناديل المضيئة التي لاتعد ولا تحصى هي جنة دائمة ترسل اليها النور والضياء فيستمر اشتعالها المنتظم بالتجلي الاعظم لاسم «الحكم والحكيم».

وهكذا قياساً على هذه الامثلة، فان كل علمٍ من مئات العلوم يشهد قطعاً: ان هذا الكون قد زُيّن بحكَمٍ ومصالح شتى ضمن انتظام كامل لا نقص فيه، وان تلك الانظمة البديعة والحِكَم السامية النابعة من تلك الحكمة المعجزة المحيطة بالكون قد أدرجت بمقياس اصغر، حتى في اصغر كائن حي وفي أصغر بذرة..

ومن المعلوم بداهة ان تتبع الغايات وارداف الحِكَم والفوائد بانتظام لايحصل الا بالارادة والاختيار والقصد والمشيئة، والاّ فلا. فكما ان هذا العمل البديع ليس هو من شأن الاسباب والطبيعة – اللتين لا تملكان ارادةً ولا اختياراً ولا قصداً ولا شعوراً – فلن يكون لهما تدخلٌ فيه كذلك؛ لذا فما أجهل مَن لايعرف أولا يؤمن بالفاعل المختار وبالصانع الحكيم الذي تدل عليه هذه الانظمةُ البديعة والحِكَم الرفيعة التي لاحدَّ لها وهي مبثوثة في موجودات الكون قاطبة.

نعم! ان كان هناك شئٌ يُستَغرب منه ويُثير عند الانسان العَجب في هذه الدنيا انما هو: انكار وجوده سبحانه؛ لأن الانتظام بأنواعه البديعة التي لا تعد والحِكَم بأشكالها السامية التي لا تحصى والمندرجة في كل موجود في الكون شواهد صادقة على وجوب وجوده سبحانه وعلى وحدانيته.. فبعداً لعمىً ما بعده عمى! وسحقاً لجهلٍ ما بعده جهل لمن لايرى هذا «الرب الحكيم» سبحانه! حتى يمكنني القول: أن السوفسطائيين الذين يُعَدّون حمقى لأنكارهم وجود الكون، هم أعقلُ أهل الكفر؛ لأن الاعتقاد بوجود الكون ومن بعده انكار خالقه – وهو الله سبحانه – غير ممكن قطعاً، ولا يُقبل اصلاً، لذا بدأوا بانكار الكون وأنكروا وجودهم أيضاً، وقالوا لاشئ موجود على الاطلاق. فأبطلوا عقولهم، وانقذوا أنفسهم بأقترابهم شيئاً الى العقل من متاهة الحماقة المتناهية للمنكرين الجاحدين الحمقى المتسترين تحت ستار العقل!

النقطة الرابعة:

مثلما أشير في «الكلمة العاشرة» الى أنه: اذا ما شيَّد معماري بارع حكيم قصراً منيفاً، وأودع في كل حجر من احجاره مئات الحِكَم والمصالح والفوائد، فلا يتصور مَن له شعور ان لايبني له سقفاً يحفظه من البلى والفساد؛ لان هذا يعني تعريض البناء الى العدم والتلف وضياع تلك الفوائد والحكم التي كان يرعاها ويتولاها، وهذا ما لايرضى به ذو شعور. أو أن حكيماً مطلقاً يُنشئ من درهم من البذور مئات الاطنان من الفوائد والحكم والغايات، ويتعقبها ويديرها، لا يمكن ان يتصور مَن له عقل صدور العبث والاسراف المنافيين كلياً للحكمة المطلقة من ذلك «الحكيم المطلق» فيقلّد الشجرة الضخمة فائدة جزئية، وغاية تافهة وثمرة قليلة، علماً أنه ينفق لإنشائها واثمارها الكثير!..

نعم، فكما لا يمكن ان يتصور هذا أو ذاك عاقلٌ قط، كذلك لا يمكن ان يتصور مَن له مسكةُ عقل أن يصدُر من «الصانع الحكيم» العبثُ والاسراف بعدم اتيان الآخرة وبعدم اقامته الحشر والقيامة بعد أن قلَّد كل موجود في قصر الكون هذا مئاتٍ من الحكم والمصالح وجهزه بمئاتِ الوظائف – حتى انه قلَّد كل شجرة حكماً بعدد ثمارها ووظائف بعدد ازهارها – فلا يمكن ان يتوارد على خاطر عاقل ان يضيّع هذا «الحكيمُ الجليل» جميعَ هذه الحِكم والمقاصد وجميع هذه الوظائف بعدم اقامته القيامة والآخرة.

اذ يعني هذا اسناد العجز التام الى قدرة القدير المطلق، وتنسيب العبث والضياع الى الحكمة البالغة للحكيم المطلق، وارجاع القبح المطلق الى جمال رحمة الرحيم المطلق، واسناد الظلم المطلق الى العدالة التامة للعادل المطلق، أي انكار كل من الحكمة والرحمة والعدالة الظاهرة المشاهدة، انكارها كلياً من الوجود! وهذا من أعجب المحالات واشدها سخفاً واكثرها بطلاناً!.

فليأت أهلُ الضلالة، ولينظروا الى ضلالتهم كيف انها مظلمة مليئة بالعقارب والحيات كقبورهم التي سيصيرون اليها! وليدركوا ان طريق الايمان بالآخرة منور جميل كالجنة فليسلكوه ولينعَموا بالايمان.

النقطة الخامسة:

وهي مسألتان:

● *المسألة الاولى:* ان تعقب الصانع الجليل - بمقتضى اسم «الحكيم» لألطف صورة في كل شئ واقصر طريق، وأسهل طراز، وأنفع شكل.. يدل دلالة واضحة على ان الفطرة لا إسراف فيها قط ولا عبث، فما من شئ الاّ وفيه نفعه وجدواه، وإن الاسراف مثلما ينافي اسم «الحكيم» فالاقتصاد لازمُه ومقتضاه ودستوره الاساس.

فيا ايها المسرف المبذر! اعلم مدى مجانبتك الحقيقة بقعودك عن تطبيق أعظم دستور للكون المبني على الاقتصاد. وتدبّر الآية الكريمة ﴿**وكُلوا واشربوا ولاتُسرفوا**﴾ (الاعراف: ٣١) لتعلم مدى رسوخ الدستور الواسع الشامل الذي ترشد اليه.

● *المسألة الثانية:* يصح ان يقال: ان اسم الله «الحكم» و«الحكيم» يقتضيان بداهة نبوة محمد ﷺ ورسالته، ويدلان عليها ويستلزمانها.

نعم! مادام الكتاب البليغ بمعانيه ومراميه، يقتضي بالضرورة معلماً بارعاً لتدريسه.. والجمال الفائق يقتضي مرآةً يتراءى فيها، ويري بها جمالَه وحُسنه.. والصنعةُ البديعة تستدعي منادياً داعياً اليها..

فلابد ان يوجد بين بني البشر الذي هو موضع خطاب كتاب الكون الكبير المتضمن مئات المعاني البليغة والحِكَم الدقيقة في كل حرف من حروفه، اقول:

لابد ان يوجد رائدٌ اكمل، ومعلمٌ اكبر، ليرشد الناس الى ما في ذلك الكتاب الكبير من حكم مقدسة حقيقية.. وليعلّم وجود الحِكَم المبثوثة في ارجائه ويدل عليها.. وليكون مبعث ظهور المقاصد الربانية في خَلق الكون، بل السبب في حصولها.. وليرشد الى مايريد الخالق اظهارَه من كمال صنعته البديعة، وجمال اسمائه الحسنى، فيكون كالمرآة الصافية لذلك الكمال البديع والجمال الفائق.. ولينهض بعبودية واسعة - باسم المخلوقات قاطبة - تجاه مظاهر الربوبية الواسعة، مثيراً الشوقَ وناثراً الوجدَ في الآفاق براً وبحراً ملفتاً انظار الجميع الى الصانع الجليل بدعوةٍ ودعاء، وتهليل وتسبيح وتقديس، ترنّ به ارجاء السماوات والارض.. وليقرع اسماع

جميع ارباب العقول بما يلقّنه من دروس مقدسة سامية وارشادات حكيمة من القرآن الحكيم.. وليبين بأجمل صورة واجلاها بالقرآن العظيم المقاصد الإلهية لذلك الصانع «الحكم الحكيم».. وليستقبل بأكمل مقابلة وأتمها مظاهر الحكمة البالغة والجمال والجلال المتجلية في الآفاق. فانسانٌ هذه مهمته، انسان ضروري وجوده،بل يستلزمه هذا الكون،كضرورة الشمس ولزومها له.

فالذي يؤدي هذه المهمات، وينجز هذه الوظائف على اتم صورة ليس الا الرسول الاكرم ﷺ كما هو مشاهد؛ لذا فكما تستلزم الشمس الضوء، ويستلزم الضوء النهار، فالحِكَم المبثوثة في آفاق الكون وجنباته تستلزم نبوة محمد ﷺ ورسالته.

نعم! مثلما يقتضي التجلي الاعظم لاسم «الحكم والحكيم» - في اوسع مداه - الرسالة الاحمدية، فان اغلب الاسماء الحسنى؛ «الله، الرحمن، الرحيم، الودود، المنعم، الكريم، الجميل، الرب» وامثالها، تستلزم الرسالة الاحمدية في اعظم تجلياتها واحاطتها بالكون كله، استلزاماً قاطعاً لا ريب فيه.

فمثلاً:

ان الرحمة الواسعة التي هي تجلي اسم «الرحيم» تظهر بوضوح بمَن هو «رحمة للعالمين»..

وان التحبب الإلهي، والتعرف الرباني - اللذين هما من تجليات اسم «الودود» - يفضيان الى نتيجتهما ويجدان المقابلة بـ«حبيب رب العالمين»..

وان جميع انواع الجمال: من جمال الذات الى جمال الاسماء، وجمال الصنعة والاتقان، وجمال المصنوعات، والمخلوقات، كل انواع الجمال - التي هي تجلٍ من تجليات اسم «الجميل» - تشاهَد في تلك المرآة الاحمدية، وتُشهد بها..

بل حتى تجليات عظمة الربوبية، وهيمنة سلطنة الالوهية انما تُعرف برسالة هذا الداعية العظيم الى سلطان الربوبية وتتبين بها، وتُفهم عنها، وتؤخذ منها وتُصدّق بها..

وهكذا فأغلب الاسماء الحسنى انما هي برهان باهر على الرسالة الاحمدية كما مر آنفاً..

نحصل مما سبق:

ما دام الكون موجوداً بالفعل ولا يمكن انكاره، فلا يمكن ان يُنكَر كذلك ما هو بمثابة ألوانه وزينته، وضيائه واتقانه، وانواع حياته، واشكال روابطه من الحقائق المشهودة، كالحكمة، والعناية، والرحمة، والجمال، والنظام، والميزان، والزينة، وامثالها من الحقائق..

فمادام لا يمكن انكار هذه الصفات والافعال، فلا يمكن انكار موصوف تلك الصفات، ولا يمكن انكار فاعل تلك الافعال ونور شمس تلك الاضواء، اعني ذات «الله» الاقدس جلّ جلالُه «الواجب الوجود»، الذي هو الحكيم، الرحيم، الجميل، الحكم، العدل..

وكذا لا يمكن انكار مَن هو مدارٌ لظهور تلك الصفات والافعال، بل مَن هو مدارٌ لعرض كمالاتها، بل تحقق تجلياتها، ذلكم الرسول الكريم محمد ﷺ، الرائد الاكبر، والمعلم الاكمل، والداعية الاعظم، وكشاف طلسم الكائنات، والمرآة الصمدانية، وحبيب الرحمن.. فلا يمكن انكار رسالته قطعاً، لأنها اسطع نور في هذا الكون كسطوع ضياء عالم الحقيقة ونور حقيقة الكائنات .

عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام بعدد عاشرات الايام وذرات الأنام.

﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

النكتة الرابعة

تخص اسم الله

الفرد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿قل هو الله أحد﴾

بينما انا نزيل سجن «اسكي شهر» في شهر شوال اذ تراءت لي نكتة دقيقة من النكات اللطيفة لهذه الآية الجليلة، ولاح لي قبس من انوار اسم الله الاعظم: «الفرد» - او هو أحد انواره الستة - الذي يتضمن اسمي «الواحد والأحد» من الاسماء الإلهية الحسنى.

سنبين هنا باختصار شديد التوحيد الحقيقي الذي يُظهره ذلك التجلي الاعظم. وذلك في سبع اشارات موجزة.

الاشارة الاولى:

لقد وضع اسم الله الاعظم: «الفرد» بتجليه الاعظم على الكون كله بصمات التوحيد المميز، واختامَ الوحدانية الواضحة، على مجموع الكون، وعلى كل نوعٍ فيه، وعلى كل فردٍ فيه.

ولما كانت «الكلمة الثانية والعشرون» و«المكتوب الثالث والثلاثون» قد تناولا بيان ذلك التجلي بشئ من التفصيل، نكتفي بالاشارة فقط الى ثلاث بصماتٍ واختام منها دالّة على التوحيد:

■ *الختم الأول*

ان التجلي الاعظم للفردية قد طبع على وجه «الكون» كله طابعاً مميزاً للتوحيد، وختماً واضحاً للوحدانية وضوحاً حوّل الكون كلّه بحكم «الكل» الذي لايقبل التجزئة قطعاً بحيث:

ان مَن لايقْدِر على أن يتصرف في الكون كلِّه لا يمكن أن يكون مالكاً مُلكاً حقيقياً لأي جزء منه.

ولنوضح هذا الختم المميز:

ان موجودات الكون، بانواعها المختلفة، تتعاون فيما بينها تعاوناً وثيقاً، ويسعى كلٌّ جزء منها لتكملة مهمة الآخر وكأنها تمثل بمجموعها واجزائها تروس معمل بديع ودواليبه - الذي يشاهد فيه هذا التعاون بوضوح - فهذا التساند، وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة في اسعاف كلٍ منها لطلب الآخر، وامداد كلِ جزء للجزءِ الآخر، بل هذا التعانق والاندماج بين الأجزاء، يجعل من اجزاء الكون كله وحدةً متحدة تتعصّى على الانقسام والانفكاك. يشبه في هذا وحدةَ أجزاء جسم الانسان الذي لا يمكن فكّ بعضها عن البعض الآخر.

نفهم من هذا ان الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود، ان لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضاً.

اذاً فـ «التعاون» و«التساند» و«التجاوب» و«التعانق» الواضحة على وجه الكون، انما هي أختام كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.

■ *الختم الثاني:*

ان التجلي الباهر لاسم الله «الفرد» يجعلنا نُشاهد - على وجه الارض ولا سيما في الربيع - ختماً لامعاً للأحدية، وآية جلية للوحدانية بحيث:

ان من لايدير جميع الأحياء على وجه الارض كلها بافرادها واحوالها وشؤونها كافة، والذي لايرى ولايخلق ولايعلم جميعها معاً، لا يمكن أن يكون له أي تدخل في أي شئ من حيث الايجاد.

فلنوضح هذا الختم:

تأمل في هذه البُسُط المفروشة على الارض التي لحمتُها وسُداها مئتا ألف طائفة ونوع من أنواع الحيوانات وطوائف النباتات بأفرادها المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى والتي تضفي الزينة وتنثر البهجة على نسيج الحياة على سطح الارض - وبخاصة في

الربيع – تأمّلها جيداً وأدِم النظر فيها، فانها مع اختلاف اشكالها، وتباين وظائفها، واختلاف ارزاقها وتنوع اجهزتها، وامتزاجها بعضها مع البعض الآخر تشاهد: ان رزق كل ذي حياة يأتيه رغداً من كل مكان ومن حيث لا يحتسب، بلاسهو ولا نسيان، بلا انشغال ولا ارتباك، بلا خطأ ولا التباس.. فيعطى بميزان دقيق حساس كل ما يحتاجه الفرد، في وقته المناسب، من دون تكلف ولا تكليف، مع تمييز لكلٍ منها، وهو يموج في هذا الامتزاج الهائل وفي هذا الخضم من الموجودات المتداخلة، فضلاً عما يخبئ باطن الارض من آيات التوحيد الرائعة المتلمعة من انتظام المعادن والعناصر الجامدة.

لذا فان هذا «التدبير والادارة» المشاهد في هذا الأمر الدائب على وجه الارض وباطنها انما هو آيةٌ ساطعة للأحدية، وختمٌ واضح للوحدانية، بحيث:

ان مَن لم يكن خالقاً لجميع تلك الموجودات من العدم، ومدبّراً لجميع شؤونها في آن واحد، لا يقدر على التدخل – من حيث الربوبية والايجاد – في شئ منها، لأنه لو تدخل لأفسد تلك الادارة المتوازنة الواسعة. الاّ ما يؤديه الانسان من وظيفة ظاهرية – بإذن إلهي ايضاً – لكشف تلك القوانين الربانية وحسن سيرها.

■ *الختم الثالث:* في وجه الانسان

ان شعار التوحيد وختمه واضح وضوحاً بيناً لكل مَن يتأمل وجه أي أنسان كان، وذلك:

ان لكل انسان علامة فارقة في وجهه تُميّزه عن غيره. فالذي لا يستطيع ان يضع تلك العلامات في كل وجه، ولا يكون مطّلعاً على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم عليه السلام الى يوم القيامة، لا يمكنه ان يمد يده من حيث الخلق والايجاد ليضع تلك الفوارق المميزة الهائلة في ذلك الوجه الصغير لإنسان واحد.

نعم، ان الذي وضع في وجه الانسان ذلك الطابع المميز وتلك الآية الجلية بتلك العلامات الفارقة، لابد أن أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده، وضمن دائرة علمه حتى يضع ذلك الختم للتوحيد في ذلك الوجه. بحيث إنه مع التشابه الظاهر بين الاعضاء الاساس – كالعيون والانوف وغيرها من الاعضاء – لا تتشابه تشابهاً تاماً، بسبب علامات فارقة في كلٍ منها.

وكما أن تشابه الأعضاء ـ من عيون وأنوف ـ في وجوه البشر كافة دليل قاطع على وحدانية خالق البشر سبحانه وتعالى، كذلك فان العلامات الفارقة الموضوعة على كل وجه ـ لصيانة حقوق كل فرد في المجتمع، ولمنع الالتباس، وللتمييز، ولحِكَم أخرى كثيرة ـ هي الأخرى دليل واضح على الارادة المطلقة والمشيئة الكاملة لذلك الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وآية بديعة جلية ايضاً للأحدية، بحيث:

ان الذي لا يَقدر على خلق جميع البشر والحيوانات والنباتات بل جميع الكون لا يمكنه ان يضع تلك السمة المميزة في أحد.

الاشارة الثانية:

ان عوالم الكائنات المختلفة وانواعها المتنوعة وعناصرها المتباينة قد اندمجت اندماجاً كلياً وتداخل بعضُها مع البعض الآخر، بحيث:

ان مَن لم يكن مالكاً لجميع الكون لا يمكنه ان يتصرف بنوعٍ منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً، لأن تجلي نور التوحيد لاسم الله «الفرد» قد اضاء ارجاء الكون كله، فضمّ اجزاءها كافة في وحدة متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدانية.

فمثلاً: كما ان كون الشمس مصباحاً واحداً لهذه الكائنات يشير الى أن الكائنات بأجمعها ملكٌ لواحد، فان كون الهواء هواءً واحداً يسعى لخدمة الأحياء كلها.. وكون النار ناراً واحدة توقد بها الحاجات كلها.. وكون السحاب واحداً يسقي الارض.. وكون الامطار واحدة تأتي لأغاثة الاحياء كافة.. وانتشار أغلب الاحياء من نباتات وحيوانات انتشاراً طليقاً في ارجاء الارض كافة مع وحدة نوعيتها، ووحدة مسكنها.. كل ذلك اشارات قاطعة وشهادات صادقة أن: تلك الموجودات ومساكنها ومواضعها انما هي ملكٌ لمالك واحدٍ أحد.

ففي ضوء هذا وقياساً عليه نرى: ان تداخل الأنواع المختلفة للكائنات واندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعَها بمثابة «كلٍ» واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث الايجاد. فالذي لا يستطيع ان يُنفِّذ حكمه على جميع الكون لا يمكنه ـ من حيث الخلق والربوبية ـ أن يُخضِع لربوبيته أي شئ فيه، حتى لو كان ذلك الشئ ذرة أو أصغر منها.

الاشارة الثالثة:

لقد تحول الكون كله - بالتجلي الاعظم لاسم الله «الفرد» - الى ما يشبه رسائل صمدانية ومكاتيب ربانية متداخلة بعضها في البعض الآخر، تزخر كلُّ رسالة منها بآيات الوحدانية واختام التوحيد، وتحمل كل رسالة بصمات الأحدية بعدد كلماتها، بل ان كل كلمة فيها تُفصح عن وحدانية كاتبها؛ اذ كما يدل الختمُ أو التوقيع في الرسالة على كاتبها، فان كل زهرة وكل ثمرة، وكل عشب، وكل حيوان، وكل شجر، انما يمثل ختم الأحدية وطغراء الصمدانية وكأنها أختام لمواضعها التي تتخذ هيئة الرسائل فتبين كاتبها.

فزهرة صفراء - مثلاً - في حديقة ما. هذه الزهرة هي بمثابة ختم يدل بوضوح على مصور الحديقة، فمن كان مالكاً لذلك الختم - الزهرة - فهو مالكٌ لجميع أنواع تلك الزهرة ومثيلاتها المبثوثة على الارض كافة، ويدل ايضاً على ان تلك الحديقة كتابته.

اي ان كل شئ يُسند جميع الاشياء الى خالقها ويشير الى تجلٍ باهر عظيم لوحدانيته سبحانه.

الاشارة الرابعة:

لقد أوضحت رسائل النور في أجزائها الكثيرة ببراهين متعددة أن التجلي الاعظم لاسم الله «الفرد» مع أنه واضح وضوح الشمس، فهو مقبول في الاعماق الى حد السهولة المطلقة، وهو مستساغ عقلاً ومنطقاً الى حد الوجوب والبداهة. وبعكسه «الشرك» المنافي لذلك التجلي، فهو معقد الى أقصى حدود التعقيد، وغير منطقي اطلاقاً، وهو بعيد جداً عن المعقول الى حد المحال والامتناع.

سنبين هنا «ثلاث نقاط» من تلك الأدلة فقط، ونحيل تفاصيلها الى الرسائل الاخرى.

● *النقطة الاولى:*

لقد أثبتنا ببراهين قاطعة في ختام «الكلمة العاشرة» وفي «الكلمة التاسعة والعشرين» اثباتاً مجملاً، وفي ختام «المكتوب العشرين» مفصلاً أنه:

من السهولة واليسر على قدرة «الأحد الفرد» سبحانه، خلقُ أعظم جرم، وخلقُ أصغرِ شئ على حدّ سواء، فهو سبحانه يخلق الربيع الشاسع بيُسرِ خلقِ زهرةٍ واحدة، ويُحدِث في كل ربيع بسهولة بالغة آلافاً من نماذج الحشر والنشور - كما هو مشاهَد - ويُراعي شجرة ضخمة باسقة بيُسر مراعاته فاكهة صغيرة.

فلو أُسنِد أيٌّ من ذلك الى الأسباب المتعددة، لأصبح خلقُ كلِّ زهرةٍ فيه من المشكلات ما للربيع الشاسع، وخلقُ كل ثمرةٍ فيه من الصعوبات ما للشجرة الباسقة.

نعم، ان كان تجهيز الجيش بأكمله بالمؤن والعتاد بأمر صادر من قائد واحد، من مصدر واحد، سهلاً وبسيطاً كتجهيز جندي واحد، يكون صعباً بل ممتنعاً ان كان كل جندي يتجهز من معامل متفرقة ويتلقى الاوامر من ادارات متعددة كثيرة، اذ عندئذٍ يحتاج كل جندي الى معامل بقدر افراد الجيش باكمله!!

فكما ان الأمر يسهل بالوحدة ويصعب بالكثرة هكذا، كذلك اذا أُسند الخلقُ والايجادُ الى «الفرد الأحد» جل وعلا، فان خلقَ افرادٍ غير محدودة لنوعٍ واحد يكون سهلاً كخلق فرد واحد، بينما لو أُسنِد الى الأسباب، فان خلقَ كلِّ فردٍ يكون مُعضلاً وصعباً كخلق النوع الواسع الكثير.

اجل! ان الوحدانية والتفرد تجعل كل شئ منتسباً ومستنداً الى الذات الإلهية الواحدة، ويصبح هذا الانتساب والاستناد قوة لاحدّ لها لذلك الشئ، حتى يمكنه ان يُنجز من الاعمال الجسيمة، ويولّد من النتائج العظيمة ما يفوق قوته الذاتية الوفَ المرات معتمداً على سر ذلك الاستناد والانتساب.

أما الذي لا يستند ولا ينتسب الى صاحب تلك القوة العظمى ومالكها «الفرد الأحد» فسينجز من الاعمال ما تتحمله قوتُه الذاتية المحدودة جداً، وتنحسر نتائجُها تبعاً لذلك.

فمثلاً:

ان الذي انتسب الى قائد عظيم واستند اليه بصفة الجندية، يصبح له هذا الانتساب والاستناد بمثابة قوة ممدّة لا تنفد، فلا يضطر الى حمل ذخيرته وعتاده معه،

لذا قد يَقْدِم على أسر قائد جيش العدو المغلوب مع آلاف ممن معه، بينما السائب الذي لم ينخرط في الجندية، مضطر الى حمل ذخيرته وعتاده معه، ومهما بلغ من الشجاعة فلا يستطيع ان يقاوم بتلك القوة الاّ بضعة افراد من العدو، وقد لا يثبت امامهم الاّ لفترة قليلة.

ومن هنا نرى أن قوة الاستناد والانتساب – التي في الفردية والوحدانية – تجعل النملة الصغيرة تقدم على اهلاك فرعون عنيد، وتجعل البعوضة الرقيقة تجهز على نمرود طاغية، وتجعل الميكروب البسيط يدمر باغياً اثيماً.. كما تمدّ البذرة الصغيرة لتحمل على ظهرها شجرة صنوبر باسقة شاهقة.. كل ذلك باسم ذلك الانتساب وبسر ذلك الاستناد.

نعم، ان قائداً عظيماً شهماً يستطيع ان يستنفر جميع جنوده ويحشّدهم لانقاذ جندي واحد وامداده، والجندي بدوره يستشعر كأن جيشاً جراراً يسنده ويمدّه بقوة معنوية عالية حتى تمكّنه من ان ينهض باعمال جسام باسم القائد.

فالله سبحانه وتعالى (وله المثل الاعلى) لانه فرد واحد أحد، فلا حاجة في اية جهة الى أحدٍ غيره، واذا افترضت الحاجة في جهة ما، فانه يستنفر الموجودات كلها لأمداد ذلك الشئ واسناده، فيحشر سبحانه الكون كله لأجله.

وهكذا يستند كلُّ شئ الى قوة عظيمة هائلة تملك مقاليد الكون بأسره.. وهكذا يستمد كل شئ في الوجود قوته من تلك القوة الإلهية العظيمة المطلقة.. من ذلك «الفرد الأحد» جلّ وعلا.

فلولا الفردية.. لفقَد كل شئ هذه القوة الجبارة، ولسقط الى العدم وتلاشت نتائجه.

فما تراه من ظهور نتائج عظيمة هائلة من اشياء بسيطة تافهة، ترشدنا بالبداهة الى «الفردية» و «الأحدية». ولولاها لبقيت نتائج كل شئ وثماره منحصرة في قوته ومادته الضئيلة، وتصغر عندئذٍ النتائج بل تزول. الا ترى الاشياء الثمينة النفيسة كالفواكه والخضر وغيرها مبذولة ومتوافرة امامنا. ما ذلك الاّ بسر الوحدانية والانتساب وحشر جميع القوى، فلولا الفردية لما كنا نحصل بآلاف الدراهم ما نحصله اليوم من بطيخ او رمان بدراهم معدودة. فكل ما نشاهده من بساطة الامور

والاشياء وسهولتها ورخصها وتوفرها انما هي من نتائج الوحدانية وتشهد بالفردية.

● *النقطة الثانية:*

ان الموجودات تُخلق وتظهر الى الوجود بوجهين:

الاول: الخلق من العدم، وهو ما يعبَّر عنه بـ «الابداع والاختراع».

الثاني: انشاؤها من عناصر موجودة، وتركيبها ومنح الوجود لها من أشياء حاضرة، أي بـ«التركيب والانشاء».

فاذا نظرنا الى الموجودات من زاوية سر الاحدية وتجلي الفردية، نرى ان خلقها وايجادَها يكون سهلاً وهيّناً الى حد الوجوب والبداهة، بينما ان لم يُفوَّض امرُ الخلق والايجاد الى الفردية والوحدانية، فستتعقد الامور وتتشابك، وتظهر امورٌ غير معقولة وغير منطقية الى حد المحال والامتناع. وحيث اننا نرى الموجودات قاطبة تظهر الى الوجود من دون صعوبة وتكلف، ومن غير عناء، وعلى اتم صورة وكيفية، يثبت لنا بداهة اذاً تجلي الفردية، ويتبين لنا: أن كل شئ في الوجود انما هو من ابداع الاحد الفرد ذي الجلال والاكرام.

نعم، ان اسند أمر الخلق الى «الفرد الواحد الاحد» يخلق كل شئ من العدم في لمح البصر وبكل سهولة ويسر، وبقدرته المطلقة العظيمة بآثارها المشهودة. ويقدّر لكل شئ بعلمه المحيط المطلق ما يشبه قوالب معنوية وتصاميم غيبية.. فكل شئ عنده بمقدار.

فكما ان الجنود المطيعين في الجيش المنظم يساقون لأخذ مواضعهم بامر من القائد وحسب خطته الموضوعة في علمه، كذلك الذرات المطيعة للاوامر الربانية فانها تساق بالقدرة الربانية – بكل سهولة ويسر – لتأخذ مواقعها وتحافظ عليها حسب تصميمٍ موجود، وصورة موجودة، في مرآة العلم الإلهي الازلي. حتى لو لزم جمع الذرات من الانحاء المختلفة، فان جميع الذرات المرتبطة بقانون العلم الإلهي المحيط، والموثوقة الصلة بدساتير القدرة الإلهية، تصبح بمثابة الجنود المنقادين في الجيش المنظم، فتأتي مسرعة بذلك القانون وبسَوق القدرة لأخذ مواقعها في ذلك القالب العلمي والمقدار القدري المحيطين بوجود ذلك الشئ.

بل كما تظهر الصورةُ المثالية المتمثلة في المرآة على الورقة الحساسة في آله التصوير وتلبس وجوداً محسوساً خارجياً، وكما تظهر وتشاهد الكتابة المخفية السرية بامرار مادة كيمياوية عليها، كذلك الأمر في صورة جميع الموجودات، وماهية جميع الاشياء الموجودة في مرآة العلم الإلهي الفرد الاحد، فان القدرة الإلهية المطلقة تُلبسها – بكل سهولة ويسر – وجوداً خارجياً محسوساً، فتظهر للعيان في عالم الشهادة، بعد ان كانت في عالم المعنى والغيب.

ولكن ان لم يُسند أمرُ الخلق الى «الفرد الاحد» فعندئذ يلزم لخلق ذبابة واحدة مسح وتفتيش سطح الارض وغربلة عناصرها جميعاً وذراتها المعينة لوجود معين ثم وزنها بميزان دقيق حساس، لوضع كل ذرة في موضعها المخصص لها، حسب قوالب مادية بعدد اجهزتها واعضائها المتقنة، وذلك لكي يأخذ كل شئ مكانه اللائق به، فضلاً عن جلب المشاعر والاحاسيس الروحية الدقيقة واللطائف المعنوية من العوالم المعنوية والروحية بعد وزنها ايضاً بميزان دقيق حسب حاجة الذبابة!!

ألا يكون – بهذا الاعتبار – خلق ذبابة واحدة صعباً ممتنعاً كايجاد جميع الكائنات؟! أليس فيه الصعوبات تلو الصعوبات والمحالات ضمن المحالات؟!

لذا اتفق جميع اهل الايمان والعلم: انه لا يخلق من العدم الاّ الخالق «الفرد» سبحانه وتعالى. ولهذا لوفوّض الأمر الى الاسباب والطبيعة يستلزم لوجود شئ واحد الجمع من اكثر الاشياء.

● *النقطة الثالثة:*

لقد اوردنا امثلة كثيرة في رسائل شتى تشير الى: ان اسناد الخلق الى الفرد الواحد الاحد يجعل خلق جميع الاشياء سهلاً كالشئ الواحد، وبعكسه اذا أُسنِد الى الطبيعة والاسباب فخلق الشئ الواحد يكون صعباً ممتنعاً كخلق جميع الاشياء..

نقتصر منها هنا على ثلاثة أمثلة فقط:

المثال الاول:

اذا أُحيلت ادارة الف جندي الى ضابط واحد، وأُحيلت ادارةُ جندي واحد الى عشرة ضباط، فان ادارة هذا الجندي تكون ذات مشكلات وصعوبات بمقدار عشرة اضعاف ادارة تلك الفرقة من الجنود وذلك:

لأن الأمراء العديدين سيعادي بعضُهم بعضاً، وستتعارض اوامرُهم حتماً، فلا يجد ذلك الجندي راحة بين منازعة امرائه. بعكسه تماماً ذلك الضابط الذي يدير باوامره فرقة كاملة من الجنود وكأنه يدير جندياً واحداً، وينفّذ خطته وما يريده من الفرقة بتدبيره كل شئ بسهولة ويسر، علماً انه يتعذر الوصول الى هذه النتيجة اذا ترك الامر الى جنود سائبين.

المثال الثاني:

اذا سُلّم أمر بناء قبة جامع «أيا صوفيا» الى بنّاء ماهر، فانه يقوم به بكل سهولة ويسر، بينما اذا سُلم بناؤها الى احجارها، للزم ان يكون كل حجرٍ حاكماً مطلقاً على سائر الاحجار، ومحكوماً لها في الوقت نفسه كي تأخذ القبة المعلقة الشامخة شكلها! فبينما كان البنّاء الماهر يصرف جهداً قليلاً - لسهولة الأمر لديه - تصرف الآن مئات من البنّائين - الاحجار - اضعاف اضعاف ذلك الجهد من دون الحصول على نتيجة!!.

المثال الثالث:

ان الكرة الارضية مأمورة وموظفة من لدن «الفرد الواحد» سبحانه، وهي كالجندي المطيع لله الواحد الأحد، فحينما تستلم الأمر الواحد، الصادر من آمرها الأحد، تهبّ منتشية بأمر مولاها وتنغمر في جذبات وظيفتها في شوق عارم، وتدور كالمريد المولوي العاشق - عند قيامه للسماع - فتكون وسيلة لحصول المواسم الاربعة، واختلاف الليل والنهار وظهور الحركات الرفيعة العظيمة، والكشف عن مناظر خلابة لقبة السماء المهيبة وتبديلها باستمرار كتبدل المشاهد السينمائية.. ويكون سبباً لحصول امثال هذه النتائج الجليلة، حتى لكأن الارض هي القائد لتلك المناورة العسكرية المهيبة بين نجوم الكون.

ولكن ان لم يُسند الأمر الى «الفرد الأحد» الذي احاط بحاكمية ألوهيته وسلطان ربوبيته الكون كله، والذي ينفذ حكمه وأمره في كل صغيرة وكبيرة في الوجود،

فعندئذٍ يلزم وجود ملايين النجوم التي تكبر الارض بالوف المرات، ولابد من ان تسير هذه النجوم في مدار اكبر واوسع بملايين المرات من مدار الارض كي تظهر تلك المناورة السماوية والارضية وتلك النتائج نفسها التي تتولد من حركتي الارض السنوية واليومية بكل سهولة ويسر.

وهكذا فان حصول هذه النتائج الجليلة الناشئة من حركتي الارض حول محورها ومدارها – حركة تشبه حركات المولوي العاشق – يظهر لنا مدى السهولة والفطرية والبساطة في الأحدية والفردية، ويبين لنا في الوقت نفسه كم هي مملوءة طريق الشرك والكفر بالمحالات التي لا حد لها وبالامور الباطلة غير المعقولة.

وبعد..

فلاحظ الآن بمنظار هذا المثال الآتي جهل المتشدقين بالطبيعة وعبّاد الاسباب، لتعلم في أي دَرَك من وحل الحماقة يتمرغون وفي اي بيداء وهم يتيهون، وقس عليه مدى بعدهم كل البعد عن ميدان المنطق والعقل السليم:

معمل عظيم.. كتاب رائع.. قصر مشيد.. ساعة دقيقة.. لاشك ان الذي صنع كلاً من هذه قد نظمه ونسقه بدقة وعناية، ويجيد ادارته ويرعاه، ولاشك انه أراد في صنع كل منها اظهار محاسن صنعته وابراز بدائع عمله.

فان احال احدُهم ادارة المعمل العظيم الى دواليب المعمل نفسه، وفوّض بناء القصر المنيف الى احجار القصر نفسه، واسند معاني الكتاب الجميلة الى الحروف نفسها، فكأنه قد جعل كل جزء من أجزاء المعمل ذا قدرة عظيمة لتنظيم نفسه وغيره! وجعل كل حرف من حروف الكتاب بل الورق والقلم شيئاً خارقاً يبدع الكتاب نفسه! اي انه يحيل روعة الانتظام في المعمل الى دواليب المعمل، ويسند جمال المعنى في الكتاب الى توافق الحروف من تلقاء نفسها!!

ايّ هذرٍ هذا! وايّ وَهْم! أليس الذي يتفوه به بعيداً كل البعد عن سلامة العقل؟ فالذين يحيلون أمر الخلق والايجاد في هذا الكون البديع الى الاسباب والى الطبيعة يهوون في جهل مركب سحيق كهذا. وذلك لأن مظاهر الابداع واضحة على الاسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقة كسائر المخلوقات. فالذي خلقها – على هذه الصورة البديعة – هو الذي يخلق آثارها ونتائجها ايضاً، ويظهرها معاً.. فالذي خلق

البذرة هو الذي أنشأ عليها شجرتها، وهو الذي يخرج اثمارها وازهارها من اكمامها..

بينما ان لم يُسند خلق الاسباب والطبيعة مع اثارهما الى الواحد الأحد، يلزم لوجود انواع الاسباب وانماط الطبيعة المختلفة، انواع من الاسباب والطبيعة المنتظمة المنسقة المختلفة . وهكذا تستمر سلسلة موهومة ممتنعة لا معنى لها ولا نهاية!

وهذا من أعجب عجائب الجهل واتعسه!!

الاشارة الخامسة:

لقد أثبتنا في مواضع متعددة من الرسائل وببراهين دامغة: ان الاستقلال والانفراد من أخص خصائص الحاكمية، حتى ان هذا الانسان الذي هو عاجز عجزاً شديداً، ولا يملك من الحاكمية سوى ظل باهت، نراه يردّ بكل قوة اي فضول كان من الآخرين، ويرفض بكل شدة اي تدخل كان منهم في شؤونه، صوناً منه لاستقلاله وانفراده في الأمر. بل ذُكِر في التاريخ ان كثيراً من السلاطين قد سفكوا دماءً زكية لأبنائهم الأبرياء واخوانهم الطيبين حينما شعروا بتدخل منهم في شؤونهم.

اذن فالاستقلال والانفراد ورفض مداخلة الآخرين هو من أخصّ خصائص الحاكمية الحقة، لا فكاك لها عنه. بل هو لازمها ومقتضاها الدائم.

فالحاكمية الإلهية التي هيٍ في ربوبية مطلقة تردّ بكل شدة الشرك والاشتراك مهما كان نوعه، ولا تقبل تدخلاً ما من سواها قط، ومن هنا نرى القرآن الكريم يفيض في بيان التوحيد الخالص ويردّ الشرك والمشاركة باسلوب شديد وبتهديد مروّع..

فكما اقتضت الحاكمية الإلهية – التي هي في الربوبية المطلقة – التوحيد والوحدانية بقطعية تامة، واظهرت مقتضى شديداً وداعياً قوياً لها، كذلك النظام المتقن والانسجام البديع المشاهدان في الكون – ابتداء من النجوم والنباتات والحيوانات والأرض والمعادن وانتهاء بالجزئيات والافراد والذرات – كل منهما شاهدُ عدلٍ، وبرهان باهر على تلك الوحدانية والفردية، فلا يسمح قط لريبة أو لشبهة، إذ لو كان هناك تدخل مما سوى الواحد الأحد، لفسد هذا النظام البديع الرصين، واختل

هذا التوزان المحكم المشاهَد في جميع اجزاء الكون، فصدق الله العظيم الذي قال:

﴿ **لو كانَ فيهما آلِهةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدتا** ﴾ (الانبياء: ٢٢)

نعم، لو كان هناك اي تدخل مهما كان لظهرت آثارُه باديةً، الاّ أن الدعوة الصريحة في الاية الكريمة: ﴿ **فارجِعِ البَصَرَ هَلْ ترى مِنْ فُطُورٍ** ﴾ (الملك:٣) تريك هذا النظام البديع بكل وضوح وجلاء حتى لا ترى ثغرة ولا لبساً ولا نقصاً في جهة من الجهات ابتداءً من الذرات الى المجرات.

اذاً فالنظام الرصين في الكون، والانتظام الرائع في المخلوقات كافة، والموازنة الدقيقة بين الموجودات.. يظهر لنا التجلي الاعظم لاسم «الفرد» ويشهد شهادة واضحة على الوحدانية.

ثم ان اي مخلوق مهما كان صغيراً، انما هو مثال مصغر للكون كله ونموذجه، وفهرسه المختصر، بمقتضى تجلي الأحدية. فلا يكون مالكاً لذلك المخلوق الحي الصغير الاّ مَن كان بيده زمام الكون كله وله الأمر جميعاً. وحيث ان كل بذرة متناهية في الصغر ليست بأقل ابداعاً في الخلق من شجرة ضخمة، وأن كل شجرة باسقة تضاهي في خلقها خلق الكائنات، وكل كائن حي صغير انما هو بحكم عالم مصغّر، وكون صغير فان تجلي الأحدية هذا يجعل الشرك والاشتراك محالاً ممتنعاً.

ثم ان في هذا الكون في ضوء هذا السر – سر الأحدية – ليس كلاً يستعصي على التجزئة وحدها بل ايضاً هو كلّي من حيث الماهية، لا يقبل الانقسام والاشتراك والتجزئة وتدخل الايدي المتعددة قط، فإن كل جزء فيه بحكم جزئي وفرد منه وكل الكون هو بحكم الكلي، فليس فيه موضع للاشتراك في أية جهة كانت.

فهذا التجلي الاعظم لأسم «الفرد» يثبت حقيقة التوحيد بهذا السر للأحدية، بدرجة البداهة.

نعم، ان اندماج انواع الكائنات واندغامها فيما بينها، وتوجه وظيفة كل منها الى عموم الكائنات مثلما يجعل الكون كلاً واحداً يستعصي على التجزئة قطعاً – من

حيث الخلق والربوبية – كذلك الافعال العمومية المحيطة بالكائنات والتي تظهر أثارها وفعالياتها في الكائنات عموماً تجعل الكون ايضاً كلاً واحداً – من حيث تداخلها ببعضها – حتى يرفض التجزئة ويردّها ردّاً قوياً. ولتوضيح ذلك نسوق المثال الآتي:

حالما توهب الحياة للكائن يظهر فعل الاعاشة والإرزاق فيه مباشرة. وضمن افعال الاعاشة والإحياء هذه، يشاهَد مباشرةً فعلُ تنظيمِ جسد ذلك الكائن وتنسيق اعضائه، وتجهيزه بما يحتاج ويلزم. وحينما تظهر افعالُ الاعاشة والإحياء والتنظيم والتجهيز يفعل التصويرِ والتربية والتدبير فعلَه في الوقت نفسه.. وهكذا.

فتداخل امثال هذه الافعال المحيطة العامة بعضها بالبعض الآخر، واتحادها ببعضها، وامتزاجها كامتزاج الالوان السبعة في الطيف الشمسي، ثم احاطة كل فعل من تلك الافعال وشموله – مع وحدته من حيث الماهية – للموجودات كلها في وحدة واحدة، وكون كل فعلٍ منها فعلاً وحدانياً.. يدل دلالة واضحة على أن فاعلَه واحدٌ أحد فرد..

وكما أن استيلاء كل فعل – من تلك الافعال – وهيمنته على الكائنات قاطبة، واتحاده مع سائر الافعال في تعاون وثيق، يجعل الكون كلاً غير قابل للتجزئة.. كذلك فان كل مخلوق حي من حيث كونه بمثابة بذرة الكون وفهرسه ونموذجه يجعل الكون كلياً غير قابل للانقسام والتجزئة – من حيث الربوبية – بل يجعل انقسامه محالاً وخارجاً عن الامكان، أي أن الكون بهذا هو كلٌّ لا يتجزأ، فلا يكون اذاً ربُّ الجزء الاّ من كان رباً للكل. وهو كلي ايضاً بحيث يكون كل جزء منه بحكم فرد، فلا يكون رباً للفرد الواحد الاّ من كان زمام ذلك الكلي بيده.

الاشارة السادسة:

كما ان انفراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية،وتوحيده بالالوهية هو اساس جميع الكمالات(١) ومنشأ المقاصد السامية، ومنبع الحِكَم المودَعة في خلق الكون، كذلك

(١) حتى ان التوحيد هو نفسه أوضح برهان، وأسطع دليل على الكمال والجمال الإلهي، لأنه: اذا عُرف ان صانع الكون واحد أحد، فسيُعرف جميع انواع الكمال والجمال المشاهدة في الوجود، بأنها: ظلال وتجليات وعلامات لانواع الكِمال المقدسِ وانماط الجمال المنزّه لذلك الصانع الواحد الأحد لذلك الكمال المقدس والجمال المنزه، بينما اذا لم يُعرف الصانع الواحد، فستحال تلك الكمالات وانواع الجمال الى الاسباب التي لاشعور لها والى مخلوقات عاجزة، وعندها يحار العقل البشري امام خزائن الكمال والجمال السرمديين، لانه فقد مفتاح تلك الكنوز الخالدة. ـ المولف.

هو الغاية القصوى، والبلسم الشافي، لتطمين رغبات كل ذي شعور وذي عقل ولاسيما الانسان، فلولا الفردية لانطفأت شعلةُ رغباته ومطالبه كلها وتنمحي جميع الحِكَم المودَعة في خلق الكون، وتتلاشى اكثرُ الكمالات الموجودة والثابتة وتنعدم.

فمثلا: ان رغبة «حب البقاء» بل عشقه، عميقة في الانسان.. هذه الرغبة العريقة لايحققها ولا يسكّنها ويطمئنها الاّ من هو مالك لمقاليد الكون، الذي يفتح باب البقاء السرمدي أمام الانسان بالآخرة، بعد أن يُنهي هذه الدنيا الفانية ويغلق ابوابها كسهولة غلق غرفة وفتح اخرى.

وهناك رغبات اخرى كثيرة جداً للانسان امثال هذه الرغبة، كلها ممتدة الى غير نهاية معلومة ومتشعبة في ثنايا الكائنات جميعاً.. فهذه الرغبات جميعها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحقيقة التوحيد، ومشدودة مع سر الفردية. فلولا ذلك السرّ لبقيت هذه الرغبات عقيمة دون نتائج، قاصرة عن بلوغ مداها، مبتورة منكمشة. ولولا تصرف الواحد الأحد في الكون كله لما اطمأنت ولا حصلت تلك الرغبات ولو حصلت حصلت مبتورة.

فالايمان بالوحدانية، وبقدرة «الفرد الواحد الأحد» المطلقة اذاً هو وحده الكفيل باحلال الطمأنينة والسكون في تلك الرغبات المتأججة لدى الانسان.

من اجل هذا السر العظيم نرى القرآن الكريم يذكر التوحيد والوحدانية بكل حرارة وشوق، ويكررها بكل حلاوة وذوق، وان الانبياء – عليهم السلام – والاصفياء والعلماء والاولياء الصالحين يجدون بغيتهم وذوقهم السامي، بل منتهى سعادتهم في افضل ما قالوه: «لا إله إلاّ هو».

الاشارة السابعة:

ان هذا التوحيد الحقيقي، بجميع مراتبه، وبأتم صورته الكاملة، قد أثبته واعلنه وفهّمه وبلّغه محمد ﷺ، فلابد ان رسالته ثابتة وقاطعة كقطعية ثبوت التوحيد نفسه؛ لانه: لما كان التوحيد هو اعظم حقيقة في عالم الوجود، وان الرسول الاعظم ﷺ هو الذي تولى تبليغه وتعليمه بجميع حقائقه، فلابد ان جميع البراهين التي تثبت التوحيد، تكون بدورها براهين لاثبات رسالته وادلة على صدق نبوته واحقية دعوته ﷺ، فرسالة كهذه الرسالة العظمى التي تضم الوفاً من امثال هذه الحقائق السامية

وتكشف عن حقيقة التوحيد وترشد اليه وتلقنه، لا شك انها رسالة يقتضيها ذلك التوحيد وتلك الفردية.

فمَن ذا غير محمدﷺ الذي أدىّ الأمانة على افضل وجه وبلّغ الرسالة على اجمل صورة؟.

سنذكر ثلاثة نماذج، مثالاً لتلك الادلة الكثيرة والاسباب العديدة التي تشهد بعظمة الشخصية المعنوية لهذا النبي الكريم ﷺ وتدل على علو منزلته الرفيعة، وتبيّن انه السراج المنير لهذه الكائنات وشمسها الساطعة.

الدليل الاول:

ان ثواب جميع الحسنات التي ينالها جميع افراد الامة، وعلى مدى جميع العصور مكتوبٌ مثلُه في صحيفة حسناته ﷺ، اذ هو السبب في نيل كل ثواب تناله امتُه الى يوم القيامة، حيث «السبب كالفاعل»..

تأمل في هذا ثم فكّر في المقام المعظم اللائق الذي يقتضيه مجموع الادعية غير المحدودة من الصلوات المقبولة المرفوعة يومياً من الأمة كافة.. تدرك عندئذٍ، درجته العالية الرفيعة وتفهم ان شخصيته المعنوية شمس الكائنات والسراج المنير للخلق اجمعين.

الدليل الثاني:

ان بذرة الشجرة الوارفة للاسلام، ومنشأها، وحياتها، ومنبعها انما هي حقيقة الماهية المحمدية، بما تملك من فطرة سامية، وخلقة كاملة. فتذكّر هذا ثم فكّر في الرقي الروحي لهذا الرسول الحبيب ﷺ النابع من استشعاره الكامل الأتم لجميع معاني ومراتب عبادته، واذكاره، وكلماته الشريفة، والذي يمثل بمجموعه روح الاسلام وحقيقته. لتعلم مدى علو مرتبة ولاية عبوديتهﷺ الى الدرجة الرفيعة، درجة الحبيبية. وافهم مبلغ سموّها.

ولقد فتح الله عليّ يوماً في سجدةٍ في صلاةٍ، بعض المعاني والانوار المشعة من كلمة (سبحان ربي الاعلى) بما يقرب من فهم الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين من هذه الكلمة المقدسة. فتبين لي يقيناً انها خير من عبادة شهر، فادركتُ بها المنزلة العظيمة والدرجة العالية التي يحظى بها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم اجمعين.

نعم، ان الانوار التي تشعها الكلمات المقدسة، وفيوضاتها في بدء الاسلام لها مزايا خاصة، وذلك لجدّتها، ولها من اللطافة والطراوة واللذة ما تتناقص بمرور الزمن وتتستر تحت ستار الغفلة.

والآن، وفي ضوء ما سبق تأمل مكانة الرسول الكريم ﷺ الذي تناول الكلام المقدس، ورَشَفَه من المنبع الأقدس، واستوعب انواره بالوحي الإلهي بكامل جدّته وطراوته ولطافته. مع ما فُطر عليه من استعداد كامل.. فالانوار والفيوضات الكامنة في تسبيحةٍ واحدة منه ﷺ هي خيرٌ وأعم من جميع الانوار التي تملأ ارجاء عبادة سنة كاملة عند غيره.!.

قس على هذا المنوال، كي تعلم كم بلغ رسولنا الحبيب ﷺ من درجات الكمال التي لا حد لها ولا نهاية.

الدليل الثالث:

ان الانسان يمثل اعظم مقصد من المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّل لإدراك الخطاب الرباني. وقد اختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصطفى من بين الانسان المكرّم مَن هو اكمل وأفضل واعظم انسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضع خطابه الجليل باسم النوع الانساني كافة، بل باسم الكائنات جميعاً.

فلا ريب ان الله سبحانه الفرد الجليل الذي هيأ رسوله الحبيب ﷺ لهذه المرتبة اللائقة به قد منحه من الانوار والكمالات ما لا يحد بحدود.

وهكذا وبمثل هذه الدلائل الثلاثة ودلائل اخرى كثيرة يَثبت لدينا يقيناً:

ان الشخصية المعنوية للرسول الكريم ﷺ، شمس معنوية ساطعة للكائنات. وسراج منير لامع لها، كما انها الآية العظمى من قرآن الكون، والاسم الاعظم للفرقان الاعظم، ومرآة صافية للتجلي الاعظم لانوار اسم «الفرد» عزّوجل.

فاللّهم يا أحدُ، يا فردُ، ياصمدُ، أنزِل من بركات خزينة رحمتك التي لا تنفد صلواتٍ وسلاماً على تلك الذات النبوية الشريفة، بعدد ذرات الكون مضروباً بعدد عاشرات جميع ازمنة الكون.

﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

النكتة الخامسة

اسم الله الاعظم

الحي

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿فانْظُر الى اثارِ رحْمتِ الله كيفَ يُحْيي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إنّ ذلك لَمُحْيي الموتى وهو على كل شيءٍ قدير﴾ (الروم: ٥٠)

﴿الله لا اله الاّ هو الحيُّ القيُّومُ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ...﴾ (البقرة: ٢٥٥)

لقد تراءت في افق عقلي نكتة من النكات الدقيقة للآيتين المذكورتين، وتجلٍ من تجليات نور الاسم الاعظم «الحي» أو أحد نوريه، أو أحد انواره الستة، وذلك في شهر شوال عندما كنت في سجن «اسكي شهر». فلم اتمكن ان اثبتّها في حينه، ولم استطع ان اقتنص ذلك الطائر السامي، ولكن بعدما تباعد ذلك القبسُ الوضيءُ اضطررت الى الاشارة اليه بوضع رموزٍ ترمز الى اشعة تلك الحقيقة الكبرى، وذلك النور الاعظم.

وسأشير اليها هنا باختصار:

الرمز الأول:

ما «الحياة» التي هي تجلٍ أعظم لأسم الله «الحي المحيي»؟

وما ماهيتها؟

وما مهمتها؟

جواب هذا السؤال نُدرجه على صورة فهرس، على النحو الآتي:

الحياة هي لهذه الكائنات:

• أهمُّ غاية..
• وأعظمُ نتيجة..
• وأسطع نور..
• وألطفُ خميرة..
• وأصفى خلاصة..
• وأكملُ ثمرة..
• وأسمى كمال..
• وأزهى جمال..
• وأبهى زينة..
• وهي سرُّ وحدتها..
• ورابطةُ اتحادها..
• ومنشأ كمالاتها..
• وهي أبدع ذاتِ روحٍ فيها، من حيث الاتقان والماهية..
• وهي حقيقتُها المعجزة؛ تُصيِّر أصغر مخلوقٍ عالَماً بحدّ ذاته..
• وهي اروع معجزات القدرة الإلهية؛ بجعلها الكائن الحي بمثابة كونٍ مصغر، فكأنها – اي الحياة – وسيلةٌ لأنطواء الكائنات في ذلك الكائن الحي الصغير؛ بما تُظهر فيه ما يشبه فهرس الكون العظيم، كما تجعله في رباط وثيق مع معظم الموجودات..
• وهي صنعةٌ الهية خارقة؛ تكبِّر الجزء الضئيل الى اكبر كلٍّ، حتى انها تجعل الفردَ بحكم العالَم وكأنه كلّي. وتُعرضَ الكونَ – من حيث الربوبية – في حكم الكلّ والكلي الذي لا يقبل التجزئة والاشتراك والانقسام..
• وهي أسطعُ برهان ضمن ماهيات الكائنات، واثبتُه واكملُه، يشهد على وجوب وجوده سبحانهُ، وعلى أنه «الحي القيوم» ويدل على وحدته وأحديته جل وعلا..
• وهي أبلغ صورة لصنعة ربانية حكيمة – ضمن المصنوعات الإلهية – واخفاها وأظهرها وأثمنها وازهدها وأنزهها وألمعها.

• وهي ألطف تجلٍ للرحمة الإلهية وأرقها وأدقها؛ تجعل الموجودات خادمة لها..

• وهي أجمع مرآة تعكس الشؤون الإلهية للانظار..

• وهي اعجوبة الخلقة الربانية؛ اذ تجمع تجليات اسم «الرحمن، الرزاق، الرحيم، الكريم، الحكيم وأمثالها من الاسماء الحسنى» وتجعل الحقائق الكثيرة والمشاهدة كالرزق والحكمة والعناية والرحمة تابعة لها، فتقودها، مثلما هي منشأ جميع المشاعر ومعدن الحواس العامة كالبصر والسمع والشعور..

• وهي ماكنة تنظيفٍ عظيمة، وجهاز استحالة عجيبة فيٍ مصنعِ الكائنات حيث تقوم بالتصفية والتطهير في كل نواحيه؛ فتطهّر الشئ وتمنحه الرقي وتنوّره، وكأن الجسدَ الذي هو عشّ الحياة - دارُ ضيافةٍ لقوافل الذرات ومدرستها ومعسكرها؛ تتعلم فيه وظائفها، وتتدرب على اعمالها، فتتنور وتضئ .

• وهي وسيلة ينوّر بها الحيُّ المحيي سبحانه عالَم الدنيا المظلم الفاني السافل ويمنحه نوعاً من البقاء، ويجعله بماكنة الحياة لطيفاً مهيئاً للمضي الى العالم الباقي ..

• ثم ان وجهي الحياة، اي المُلك والملكوت، صافيان طاهران لا نقص فيهما، ساميان وهي - أي الحياة- مخلوق خاص متميز عن كل خلق آخر لم توضع لها الاسباب الظاهرة حُجباً بينها وبين تصرفات القدرة الإلهية - كما هي في سائر الاشياء - وذلك ليكون أمر صدورها من يد القدرة الربانية مباشرة دون حُجب أو وسائط..

• وحقيقة الحياة نورانية تتطلع الى الاركان الايمانية الستة وتثبتها معنىً ورمزاً، اي:

• انها تثبت وجود واجب الوجود سبحانه وحياته السرمدية..

• والدار الآخرة وحياتها الدائمة..

• ووجود الملائكة.. وتتوجه توجهاً كاملاً الى اثبات سائر الاركان الايمانية وتقتضيها.

• وهي أصفى خلاصة مترشحة من الكائنات كلها كما أنها أعظم سرٍّ يولّد الشكر والعبادة والحمد والمحبة التي هي أهم المقاصد الإلهية في الكون واهم نتيجة لخلق العالم هذا.

تأمل هذه الخصائص المهمة القيّمة للحياة والبالغة تسعاً وعشرين خاصية، ودقق النظر في مهماتها السامية الشاملة، ثم انظر من وراء اسم المحيي الى عظمة اسم

«الحي» وادرك كيف ان اسم «الحي» هو اسم الله الاعظم من حيث هذه الخصائص العظيمة للحياة، ومن حيث ثمارها ونتائجها، وافهم ايضاً ان للحياة غاية كبرى كبر الكون ونتيجة عظمى بعظمته ما دامت هي اعظم نتيجة لهذه الكائنات واعظم غاية واثمن ثمرة؟ لأن الثمرة مثلما هي نتيجة الشجرة، فنتيجة الثمرة شجرة قادمة بوساطة بذرتها.

نعم، ان غاية هذه الحياة ونتيجتها هي الحياة الابدية، كما ان ثمرة من ثمارها هي الشكر والعبادة والحمد والمحبة تجاه واهب الحياة «الحي المحيي» وان هذا الشكر والمحبة والحمد والعبادة هي ثمرة الحياة كما انها غاية الكائنات.

فاعلم من هذا: ان الذين يحصرون غاية هذه الحياة في: «عيشٍ برفاه، وتمتّع بغفلة، وتنعّم بهوى» انما يستخفّون – بجهل مستهجن قبيح – بهذه النعمة الغالية الكبرى، نعمة الحياة، وهدية الشعور، واحسان العقل، ويحقرونها وينكرونها بل يكفرون بها فيرتكبون كفراناً عظيماً واثماً مبيناً.

الرمز الثاني:

الحياة التي هي أعظم تجلٍّ لاسم الله «الحي» وألطف تجلٍ لاسم الله «المحيي» يحتاج في بيان مراتبها وصفاتها ووظائفها – المذكور فهرستها في الرمز الاول – الى كتابة رسائل عدة بعدد تلك المزايا والخصائص. لذا سنشير إشارة مختصرة الى بضع منها محيلين تفاصيلها الى اجزاء رسائل النور، حيث بيّنت قسماً من تلك الخصائص والمراتب والمهمات.

فلقد ذكر في الخاصية الثالثة والعشرين من الخصائص التسعة والعشرين للحياة:

أن وجْهَي الحياة صافيان، شفافان، رائقان. فلم تضع القدرة الربانية اسباباً ظاهرية لتصرفاتها فيها.

وسرّ هذه الخاصية هو ما يأتي:

ان كل شئ في الكون ينطوي على خير، وفيه جمالٌ وحُسن، أما الشر والقبح فهما جزئيان جداً، وهما بحُكم وحدتين قياسيتين، أي انهما وجدا لإظهار ما في الخير وما في الجمال من مراتب كثيرة وحقائق عديدة؛ لذا يُعَدُّ الشر خيراً والقبح حُسناً من هذه الزاوية. اي من زاوية كونهما وسائل لإبراز المراتب والحقائق.

ولكن ما يبدو لذوي الشعور من مظاهر القبح والشر والبلاء والمصائب قد تدفعهم الى السخط والشكوى والامتعاض. فوُضعَت الاسبابُ الظاهرية ستاراً لتصرف القدرة الإلهية، لئلا تتوجه تلك الشكاوى الظالمة والسخط الباطل الى «الحي القيوم» جلّ وعلا.

زد على ذلك فان العقل ايضاً بنظره الظاهري القاصر، قد يرى منافاة بين امور يراها خسيسةً، خبيثةً، قبيحة، وبين مباشرة يد القدرة المنزّهة المقدسة لها. فوُضعَت الاسبابُ الظاهرية ستاراً لتصرف القدرة الربانية لتُنَزّه عزة القدرة الإلهية عن تلك المنافاة الظاهرية.

هذا علماً ان الاسباب نفسها لا يمكنها ان توجد شيئاً بحد ذاتها قط. بل هي موضوعة لصيانة عزة القدرة الإلهية وتنزيهها، ولتظل هي هدفاً مباشراً للشكاوى الظالمة والاعتراضات الباطلة.

ولقد ذكرنا في «مقدمة المقام الثاني من الكلمة الثانية والعشرين» أن مَلَك الموت (عزرائيل) عليه السلام وجد أن مهمة قبض الارواح التي اوكلَت اليه مهمةٌ بغيضة لبني آدم، وسيكون من جرائها موضع سخطهم ومثار امتعاضهم، فناجى رب العزة بشأن مهمته قائلاً:

- يارب ان عبادَك سيسخطون عليّ!

وجاءه الجواب:

- سأضع ستار الامراض وحجاب المصائب بين مهمتك وبينهم، فلا تُصوَّب سهام الشكاوى والاعتراضات اليك، بل الى الحُجُب.

فحسب مضمون هذه المناجاة نقول:

ان الذين لا يرون الوجه الصبوح الحقيقي للموت - المطل على أهل الايمان - ولا يدركون ما فيه من رحمة مدّخرة، يبدون اعتراضات وشكاوى، فتبرز أمامهم مهمة عزرائيل - عليه السلام - حجاباً وستاراً، فلا تتوجه تلك الشكاوى الباطلة والاعتراضات المجحفة الى الذات المقدسة «للحي القيوم». ومثلما ان مهمة عزرائيل ستار، فان الاسباب الظاهرية الاخرى هي ايضاً حُجُب وأستار.

نعم، ان «العزة والعظمة» تقتضيان ان تكون الاسباب حُجُباً بين يدي القدرة الإلهية أمام نظر العقل، الاّ ان «الجلال والوحدانية» يقتضيان ان تسحب الاسباب ايديها وترفعها عن التأثير الحقيقي.

أما وجها الحياة الظاهر والباطن، المُلك والملكوت، فهما صافيان كاملان مبرّءان من النقص والتقصير، فمثلما لا يوجد فيهما مايستدعي الشكوى أو الاعتراض، فليس فيهما كذلك ماينافي عزة القدرة ونزاهتها من دَنَس مستهجَن أو قبح ظاهر؛ لذا فقد سُلِّم وجهاها مباشرةً الى اسم «المحيي» لذات الله الحي القيوم من دون إسدال أستار الاسباب وحُجُبها.

ومِثل الحياة؛ النور، وكذلك الوجود والايجاد.. وعليه نرى أن الايجاد والخَلق يتوجهان مباشرةً من دون حُجُب واستار الى قدرة الخالق سبحانه، بل حتى المطر - وهو نوع من الحياة ورحمة مهداة منه سبحانه - فلا يحكّمه قانون مطّرد يحدد وقت نزوله؛ وذلك لئلا تُحرَم اكفّ الضراعة امام باب الرحمة من الرجاء والاسترحام وقت الحاجة؛ اذ لو كان المطر ينزل حسب قانون مطّرد - بمثل شروق الشمس وغروبها - لَمَا كان الخلقُ يتوسلون ويستغيثون كل حين استنزالاً لنعمة الحياة تلك.

الرمز الثالث:

لقد ذكر في الخاصية التاسعة والعشرين أن:

الحياة هي نتيجة الكائنات مثلما أن نتيجة الحياة هي:

الشكر والعبادة، فهما سبب خلق الكائنات وعلة غايتها، ونتيجتها المقصودة.

نعم، ان خالق الكون سبحانه «الحي القيوم» اذ يعرّف نفسَه لذوي الحياة ويحبّبها اليهم بنعَمه التي لاتعد ولاتحصى، يطلب منهم شكرِهم تجاه تلك النعم، ومحبّتهم ازاء تلك المحبة، وثناءهم واستحسانهم مقابل بدائع صنعه، وطاعتهم وعبوديتهم تجاه اوامره الربانية.

فيكون الشكر والعبادة - حسب سرّ الربوبية هذا - اعظم غاية لجميع انواع الحياة، وبدورها يكون غاية الكون بأسره.. ومن هنا نرى ان القرآن الكريم يحث بحرارة ويسوق برفق وعذوبة الى الشكر والعبادة؛ فيكرر كثيراً ويبيّن ويوضح:

أن العبادة خاصّة لله وحده، وأن الشكر والحمد لايليقان حقاً الاّ به سبحانه، وان ما في الحياة من شؤون وامور هي في قبضة تصرفه وحده، فينفي بهذا وبصراحة تامة الوسائطَ والاسباب، مسلّماً الحياة بما فيها الى يد القدرة «للحي القيوم» فيقول مثلاً:

﴿ وهو الذي يُحيي ويُميتُ وله اختلافُ الليلِ والنهار﴾ (المؤمنون:٨٠)

﴿ وهو الذي يُحيي ويُميتُ فاذا قَضى أمراً فإنما يقولُ له كُنْ فيكون ﴾(المؤمن: ٦٨)

﴿ فيُحيي به الارضَ بَعد مَوتها ﴾ (الروم: ٢٤)

نعم! ان الذي يدعو الى الشكر والحمد والامتنان، والذي يثير الشعور الى المحبة والثناء – بعد نعمة الحياة – انما هو الرزق والشفاء والغيث، وامثالها من دواعي الشكر والحمد.

وهذه الوسائل ايضاً محصورة كلياً بيد «الرزاق الشافي» سبحانه، فليست الاسباب الاّ أستار وحُجب ووسائط فحسب؛ اذ ان علامة الحصر والتخصيص – حسب قواعد اللغة العربية – هو الرزاق، هو الذي، واضحة في الآيات الكريمة الاتية:

﴿ هو الرزاقُ ذو القوةِ المتينُ ﴾(الذرايات: ٥٨)

﴿ واذا مَرِضْتُ فهوَ يَشفينِ ﴾ (الشعراء:٨٠)

﴿ وهو الذي يُنزِّلُ الغَيثَ مِن بَعدِ ما قَنَطوا ﴾ (الشورى: ٢٨)

فهذه الآيات الكريمة وامثالها تبين:

ان الرزق والشفاء والغيث خاصةٌ به سبحانه وتعالى، وتنحصر كلياً بيد قدرة «الحي القيوم». فالذي وهب خواص الادوية والعلاج هو ذلك الشافي الحقيقي سبحانه الذي خلقها وليس غيره.

الرمز الرابع:

لقد بُيّنت في الخاصة الثامنة والعشرين من الحياة:

ان الحياة تثبت اركان الايمان الستة وتنظر اليها وتتوجه نحوها، وتشير الى تحقيقها.

نعم! فما دامت (الحياة) هي حكمة خلق الكائنات، وأهم نتيجتها وخميرتها، فلا تنحصر تلك الحقيقة السامية في هذه الحياة الدنيا الفانية القصيرة الناقصة المؤلمة، بل ان غاية شجرة الحياة ونتيجتها وثمرتها - والتي فهم عظمتها وماهيتها بالخواص التسع والعشرين - ما هي الاّ الحياة الأبدية والآخرة والحياة الحية بحجرها وترابها وشجرها في دار السعادة الخالدة. والاّ يلزم ان تظل شجرة الحياة المجهزة بهذه الأجهزة الغزيرة المتنوعة في ذوي الشعور - ولا سيما الانسان - دون ثمر ولا فائدة، ولا حقيقة. ولظل الانسان تعساً وشقياً وذليلاً وأحط من العصفور بعشرين درجة - بالنسبة لسعادة الحياة - مع أنه أسمى مخلوق، وأكرم ذوي الحياة وارفع من العصفور بعشرين درجة، من حيث الاجهزة ورأس مال الحياة.

بل يصبح العقل الذي هو أثمن نعمة بلاءً ومصيبة على الانسان بتفكره في أحزان الزمان الغابر ومخاوف المستقبل فيعذّب قلبَ الانسان دائماً معكراً صفو لذة واحدة بتسعة آلام!. ولا شك أن هذا باطل مائة في المائة.

فهذه الحياة الدنيا اذن تثبت ركن «الايمان بالآخرة» اثباتاً قاطعاً بما تظهر لنا في كل ربيع اكثر من ثلاثمائة الف نموذج من نماذج الحشر.

فيا ترى هل يمكن لربٍّ قدير، يهيئ ما يلزم حياتك من الحاجات المتعلقة بها جميعاً ويوفّر لك أجهزتها كلها سواءً في جسمك أو في حديقتك، أو في بلدك، ويرسله في وقته المناسب بحكمة وعناية ورحمة، حتى أنه يعلم رغبة معدتك فيما يكفل لك العيش والبقاء، ويسمع ما تهتف به من الدعاء الخاص الجزئي للرزق مُبدياً قبوله لذلك الدعاء بما بثّ من الاطعمة اللذيذة غير المحدودة ليُطمئن تلك المعدة! فهل يمكن لهذا المتصرف القدير ان لايعرفك؟ ولايراك؟ ولايهيئ الأسباب الضرورية لأعظم غاية للانسان وهي الحياة الأبدية؟؟ ولايستجيب لأعظم دعاء وأهمّه وأعمّه، وهو دعاء البقاء والخلود؟ ولا يقبله بعدم انشائه الحياة الآخرة وايجاد الجنة؟ ولا يسمع دعاء هذا الانسان - وهو أسمى مخلوق في الكون بل هو سلطان الارض ونتيجتها - ذلك الدعاء العام القوي الصادر من الاعماق، والذي يهز العرش والفرش! فهل يمكن ان لا يهتم به اهتمامَه بدعاء المعدة الصغيرة ولا يُرضي هذا الانسان؟ ويعرّض حكمتَه الكاملة ورحمته المطلقة للانكار؟؟ كلا.. ثم كلا ألف ألف مرة كلا.

وهل يعقل ان يسمع اخفت صوت لأدنى جزء من الحياة فيستمع لشكواه ويسعفه، ويحلم عليه ويربيه بعناية كاملة ورعاية تامة وباهتمام بالغ مسخِّراً له أكبر مخلوقاته في الكون، ثم لا يسمع صوتاً عالياً كهزيم الرعد لأعظم حياة وأسماها وألطفها وأدومها؟ وهل يعقل: ألاّ يهتم بدعائه المهم جداً – وهو دعاء البقاء – وألاّ ينظر الى تضرعه ورجائه وتوسله؟ ويكون كَمَن يجهّز – بعناية كاملة – جندياً واحداً بالعتاد، ولايرعى الجيش الجرار الموالى له!! وكمن يرى الذرة ولايرى الشمس! أو كمن يسمع طنين البعوضة ولا يسمع رعود السماء! حاشَ لله مائة ألف مرة حاشَ لله.

وهل يقبل العقل – بوجه من الاوجه – ان القدير الحكيم ذا الرحمة الواسعة وذا المحبة الفائقة وذا الرأفة الشاملة والذي يحب صنعتَه كثيراً، ويحبّب نفسَه بها الى مخلوقاته وهو أشدّ حباً لمن يحبونه، فهل يعقل أن يُفْني حياة مَن هو أكثر حباً له، وهو المحبوب، وأهلٌ للحب، والذي يعبد خالقَه فِطرةً؟ ويُفني كذلك لبَّ الحياة وجوهرها وهو الروح، بالموت الأبدي!! ويسبب جفوةً بينه وبين محبه ومحبوبه ويؤلمه أشد الايلام! فيجعل سر رحمته ونور محبته معرّضاً للأنكار! حاشَ لله الف مرة حاشَ لله...

فالجمال المطلق الذي زيّن بتجلّيه هذا الكون وجمّله، والرحمة المطلقة التي أبهجت المخلوقات قاطبة وزيّنتها، لابد أنهما منزّهتان ومقدستان بلا نهاية ولا حدّ عن هذه القساوة وعن هذا القبح المطلق والظلم المطلق.

النتيجة:

مادامت في الدنيا حياة، فلابد أن الذين يفهمون سر الحياة من البشر، ولايسيؤن استعمال حياتهم، يكونون أهلاً لحياة باقية، في دار باقية وفي جنة باقية.. آمنا.

ثم، ان تلألؤ المواد اللماعة على سطح الارض بانعكاسات ضوء الشمس، وتلمّع الفقاعات والحَباب والزَبَد على سطح البحر، ثم انطفاء ذلك التلألؤ والبريق بزوالها ولمعان الفقاعات التي تعقبها – كأنها مرايا لشُمَيسات خيالية – يُظهر لنا بداهة ان تلك اللمعات ما هي الاّ تجلي انعكاس شمسٍ واحدة عالية. وتذكُر بمختلف الالسنة

وجود الشمس، وتشير اليها بأصابع من نور... وكذلك الامر في تلألؤ ذوي الحياة على سطح الارض، وفي البحر، بالقدرة الإلهية وبالتجلي الاعظم لإسم «المحيي» للحي القيوم جلّ جلاله، واختفائها وراء ستار الغيب لفسح المجال للذي يخلفها – بعد أن رددّت «ياحي» – ما هي إلاّ شهادات واشارات للحياة السرمدية ولوجوب وجود «الحي القيوم» سبحانه وتعالى.

وكذا، فان جميع الدلائل التي تشهد على العلم الإلهي الذي تُشاهَد آثارُه من تنظيم الموجودات، وجميع البراهين التي تثبت القدرة المصرّفة في الكون، وجميع الحجج التي تثبت الارادة والمشيئة المهيمنة على ادارة الكون وتنظيمه، وجميع العلامات والمعجزات التي تثبت الرسالات التي هي مدار الكلام الرباني والوحي الإلهي.. وهكذا جميع الدلائل التي تشهد وتدلّ على الصفات الإلهية السبع الجليلة، تدل – وتشهد أيضاً – بالاتفاق على حياة «الحي القيوم» سبحانه، لأنه: لو وجدت الرؤية في شئ فلابد أن له حياة ايضاً، ولو كان له سمع فذلك علامة الحياة، ولو وجد الكلام فهو اشارة على وجود الحياة، ولو كان هناك الاختيار والارادة فتلك مظاهر الحياة، كذلك فان جميع دلائل الصفات الجليلة التي تشاهَد آثارُها ويُعلَم بداهة وجودُها الحقيقي، أمثال القدرة المطلقة، والارادة الشاملة، والعلم المحيط، تدل على حياة «الحي القيوم» ووجوب وجوده، وتشهد على حياته السرمدية التي نورّت – بشعاعٍ منها – جميعَ الكون وأحيَت – بتجلٍ منها – الدار الآخرة كلها بذراتها معاً.

***

والحياة كذلك تنظر وتدل على الركن الايماني (الايمان بالملائكة) وتثبته رمزاً. لأن:

الحياة ما دامت هي أهم نتيجةٍ للكون، وان ذوي الحياة – لنفاستهم – هم اكثر انتشاراً وتكاثراً، وهم الذين يتتابعون الى دار ضيافة الارض قافلة إثر قافلة، فتعمّر بهم وتبتهج.. وما دامت الكرة الارضية هي محط هذا السيل من انواع ذوي الحياة، فتملأ وتُخلى بحكمة التجديد والتكاثر باستمرار، ويُخلق في أخس الاشياء والعفونات ذوو حياةٍ بغزارة، حتى اصبحت الكرة الارضية معرضاً عاماً للاحياء.. وما دام يُخلق بكثرةٍ هائلة على الأرض أصفى خلاصة لترشح الحياة وهو الشعور والعقل والروح

اللطيفة ذات الجوهر الثابت، فكأن الأرض تحيا وتتجمل بالحياة والعقل والشعور والارواح.. فلا يمكن ان تكون الاجرام السماوية التي هي أكثر لطافةً واكثر نوراً وأعظم أهميةً من الارض جامدةً ودون حياة وبلا شعور.

اذن فالذين سيعمِّرون السماوات ويبهجون الشموس والنجوم، ويهبون لها الحيوية، ويمثلون نتيجة خلق السماوات وثمرتها، والذين سيتشرفون بالخطابات السبحانية، هم ذوو شعور وذوو حياة من سكان السموات وأهاليها المتلائمين معها حيث يوجدون هناك بسرّ الحياة.. وهم الملائكة.

***

وكذلك ينظر سر ماهية الحياة ويتوجه الى «الايمان بالرسل» ويثبته رمزاً.

نعم! فما دام الكون قد خُلق لأجل الحياة وان الحياة هي اعظم تجلٍ وأكمل نقش وأجمل صنعة «للحي القيوم» جلّ جلاله، وما دامت حياته السرمدية الخالدة تظهر وتكشف عن نفسها بارسال الرسل وانزال الكتب، اذ لو لم يكن هناك «رسل» ولا «كتب» لما عُرفت تلك الحياة الازلية، فكما ان تكلم الفرد يبين حيويته وحياته كذلك الانبياء والرسل عليهم السلام والكتب المنزَلة عليهم، يبيّنون ويدلّون على ذلك المتكلم الحي الذي يأمر وينهي بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون. فلابد ان الحياة التي في الكون كما انها تدل – بصورة قاطعة – على «الحي الازلي» سبحانه وتعالى وعلى وجوب وجوده، تدل كذلك على شعاعات تلك الحياة الازلية وتجلياتها وارتباطاتها وعلاقاتها باركان الايمان مثل (ارسال الرسل) و (انزال الكتب) وتثبتهما رمزاً. ولا سيما «الرسالة المحمدية» و «الوحي القرآني». اذ يصح القول، انهما ثابتان قاطعان كقطعية ثبوت تلك الحياة، حيث انهما بمثابة روح الحياة وعقلها.

نعم، كما ان الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة.. كذلك الحياة المحمدية – المادية والمعنوية – مترشحة من الحياة ومن روح الكون فهي خلاصة زبدتها، والرسالة المحمدية كذلك مترشحة من حسّ الكون وشعورِه وعقلِه،

فهي اصفى خلاصته، بل ان حياة محمد ﷺ – المادية والمعنوية – بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني – بشهادة حقائقه الحيوية – روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل.. أجل.. أجل.

فاذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره مات الكون وتوفيت الكائنات، واذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جَنّ جنونه وفَقَدت الكرة الارضية صوابَها، وزال عقلُها، وظلت دون شعور، واصطدمت باحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة.

***

والحياة – كذلك – تنظر الى الركن الايماني «القدر» وتدل عليه وتثبتهُ رمزاً، اذ: ما دامت الحياة ضياءً لعالم الشهادة وقد استولت عليه وأحاطت به، وهي نتيجة الوجود وغايته، واوسع مرآةٍ لتجليات خالق الكون، وأتم فهرسٍ ونموذج للفعالية الربانية حتى كأنها بمثابة نوعٍ من خطتها ومنهجها – اذا جاز التشبيه – فلابد أن سر الحياة يقتضي ان يكون عالم الغيب أيضاً – وهو بمعنى الماضي والمستقبل – أي المخلوقات الماضية والقابلة في حياة معنوية أي في نظام وانتظام وان يكون معلوماً ومشهوداً ومتعيّناً ومتهيأً لأمتثال الأوامر التكوينية. مَثَلُها كمثل تلك البذرة الاصلية للشجرة وأصولها، والنوى والاثمار التي في منتهاها، التي تتميز بمزايا نوعٍ من الحياة كالشجرة نفسها، بل قد تحمل تلك البذور قوانين حياتية أدق من قوانين حياة الشجرة.

وكما ان البذور والأصول التي خلفها الخريف الماضي، وما سيخلفه هذا الربيع – بعد إدباره – من البذور والأصول، تحمل نور الحياة، وتسير وفق قوانين حياتية، مثل ما يحمله هذا الربيع من الحياة، فكذلك شجرة الكائنات، وكلُّ غصن منها وكلُّ فرعٍ، له ماضيه ومستقبله، وله سلسلة مؤلفة من الاطوار والاوضاع، القابلة والماضية، ولكل نوعٍ ولكلّ جزء منه وجودٌ متعدد بأطوار مختلفة في العلم الألهي، مشكّلاً بذلك سلسلة وجود علمي. والوجود العلمي هذا، الشبيه بالوجود الخارجي هو مظهرٌ لتجلٍ معنوي للحياة العامة، حيث تُؤخذُ المقدرات الحياتية من تلك الالواح القَدَرية الحية ذات المغزى العظيم.

نعم، ان امتلاء عالم الارواح – الذي هو نوع من عالم الغيب – بالارواح التي هي عين الحياة، ومادتها، وجوهرها، وذواتها، يستلزم ان يكون الماضي والمستقبل – اللذان هما نوع من عالم الغيب وقسم ثان منه – متجلية فيهما الحياة. وكذا فان الانتظام التام والتناسق الكامل في الوجود العلمي الإلهي لأوضاع ذات معانٍ لطيفة لشئ ما ونتائجه واطواره الحيوية ليبين ان له اهلية لنوع من الحياة المعنوية.

نعم، ان مثل هذا التجلي – تجلي الحياة – الذي هو ضياء شمس الحياة الازلية لن ينحصر في عالم الشهادة هذا فقط، ولا في هذا الزمان الحاضر، وفي هذا الوجود الخارجي، بل لابد أن لكل عالمٍ من العوالم مظهراً من مظاهر تجلّي ذلك الضياء حسب قابليته.

فالكونُ اذن – بجميع عوالمه – حيٌ ومشعٌ مضئ بذلك التجلي والا لأصبح كلٌ من العوالم – كما تراه عين الضلالة – جنازة هائلة مخيفة تحت هذه الحياة الموقتة الظاهرة، وعالماً خرباً مظلماً.

وهكذا يُفهم وجهٌ واسع من أوجه الايمان بالقضاء والقدر من سر الحياة ويثبت به ويتضح. أي كما تَظهر حيويةُ عالمِ الشهادة والموجودات الحاضرة بانتظامها وبنتائجها، كذلك المخلوقات الماضية والآتية التي تعدّ من عالم الغيب لها وجودٌ معنوي، ذو حياة معنىً، ولها ثبوتٌ علمي ذو روح، بحيث يظهر – باسم المقدرات – اثر تلك الحياة المعنوية بوساطة لوح القضاء والقدر.

الرمز الخامس:

لقد ذكر في الخاصية السادسة عشرة من خصائص الحياة أنه:

ما ان تنفذ الحياةُ في شئ تصيّره عالَماً بحدّ ذاته؛ اذ تمنحه من الجامعية مايجعله كلاً ان كان جزءاً، وما يجعله كلياً إن كان جزئياً؛ فالحياة لها من الجامعية بحيث تعرض في نفسها أغلب الاسماء الحسنى المتجلية على الكائنات كلها، وكأنها مرآة جامعة تعكس تجليات الاحدية. فحالما تدخل الحياة في جسم تعمل على تحويله الى عالم مصغّر، لكأنها تحيله بمثابة بذرة حاملة لفهرس شجرة الكائنات، وكما لايمكن ان تكون البذرة الاّ اثر قدرة خالق شجرتها كذلك الذي خلق اصغر كائن حي لابد انه هو خالق الكون كله.

فهذه الحياة بجامعيتها هذه تُظهر في نفسها أخفى اسرار الاحدية وأدقّها. أي: كما ان الشمس العظيمة توجد بضيائها وألوانها السبعة وانعكاساتها في ما يقابلها من قطرة ماء أو قطعة زجاج، كذلك الامر في كل ذي حياة الذي تتجلى فيه جميع تجليات الاسماء الحسنى وانوار الصفات الإلهية المحيطة بالكون. فالحياة - من هذه الزاوية - تجعل الكون من حيث الربوبية والايجاد بحكم الكلّ الذي لايقبل الانقسام والتجزئة، وتجعله بحكم الكلّي الذي تمتنع عليه التجزئة والاشتراك.

نعم! ان الختم الذي وَضَعه الخالق سبحانه على وجهك يدل بالبداهة على أن الذي خلقك هو خالق بني جنسك كلهم؛ ذلك لأن الماهية الانسانية واحدة، فانقسامها غير ممكن. وكذلك الامر في أجزاء الكائنات! اذ تتحول بوساطة الحياة كأنها افراد الكائنات، والكائنات كأنها نوع لتلك الافراد.

فكما تُظهر الحياة ختمَ الأحدية على مجموع الكون فانها تردّ الشرك والاشتراك وترفضه رفضاً باتاً باظهارها ختم الأحدية نفسه وختم الصمدية على كل جزء من أجزاء الكون.

ثم ان في الحياة من خوارق الصنعة الربانية ومعجزات الابداع الباهر بحيث انه مَن لم يكن قادراً على خلق الكون يعجز كلياً عن خلق أصغر كائن حي فيه.

نعم، ان القلم الذي كتب فهرس شجرة الصنوبر الضخمة ومقدّراتها في بذرتها الصغيرة - ككتابة القرآن مثلاً على حبة حمص - هو ذلك القلم نفسه الذي رصّع صفحات السماء بلآلئ النجوم، وان الذي ادرج في رأس النحل الصغير استعداداً يمكّنها من معرفة ازهار حدائق العالم كله، وتقدر على الارتباط مع اغلبها بوشائج، ويجعلها قادرة على تقديم ألذّ هدية من هدايا الرحمة الإلهية - وهي العسل - ويدفعها الى معرفة شرائط حياتها منذ أول قدومها الى الحياة لا شك انه هو خالق الكون كله وهوالذي اودع هذا الاستعداد الواسع والقابلية العظيمة والاجهزة الدقيقة فيها .

الخلاصة:

ان الحياة آيةُ توحيد ساطعة تسطع على وجه الكائنات، وان كل ذي روح - من جهة حياته - آيةٌ للأحدية، وان الصنعة المتقنة الموجودة على كل فرد من الاحياء ختمُ

للصمدية، وبهذا جميع ذوي الحياة يصدّقون ببصمات حياتهم رسالةَ الكون هذه ويعلنون أنها من «الحي القيوم» الواحد الأحد.. فكل منها ختم للوحدانية في تلك الرسالة فضلاً عن انها ختم للأحدية وعلامة الصمدية.

فكما ان الأمر هكذا في الحياة، فكل كائن حي ايضاً ختم للوحدانية في كتاب الكون؛ كما قد وُضع على وجهه وسيماه ختم الأحدية.

نعم! ان الحياة بعدد جزئياتها وبعدد أفرادها الحية أختامٌ وبصماتٌ حية تشهد على وحدانية «الحي القيوم» مثلما ان فعل البعث – الإحياء – ايضاً يختم باختام التصديق على التوحيد بعدد الأفراد من الاحياء.

فإحياءُ الارض الذي هو مثال واحد على البعث هو شاهدُ صدقٍ ساطع على التوحيد كالشمس، لأن بعث الأرض في الربيع واحياءها يعني بعث افرادٍ لا تعد ولا تحصى لأنواع الأحياء التي تربو على ثلثمائة الف نوع، فتُبعث جميعاً معاً من دون نقص ولا قصور بعثاً متداخلاً متكاملاً منتظماً. فالذي يفعل بهذا الفعل أفعالاً منتظمة لا حدود لها فانه هو خالق المخلوقات جميعها، وأنه «الحي القيوم» الذي يحيي ذوي الحياة قاطبة، وأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له في ربوبيته قط.

اكتفينا بهذا القدر القليل المختصر من بسط خواص الحياة محيلين بيان الخواص الاخرى وتفصيلاتها الى أجزاء رسائل النور وفي وقت آخر.

الخاتمة

ان الاسم الاعظم ليس واحداً لكل أحد، بل يختلف ويتباين، فمثلاً: لدى الامام علي رضي الله عنه هو ستة اسماء حسنى هي: فردٌ، حيٌ، قيومٌ، حكمٌ، عدلٌ، قدوسٌ.. ولدى أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه اسمان هما: حَكَمٌ عدلٌ.. ولدى الشيخ الگيلاني قُدس سره هو اسم واحد: يا حيّ.. ولدى الامام الرباني (احمد الفاروقي السرهندي) رضي الله عنه هو: القيوم.. وهكذا، فلدى الكثيرين من العظماء الافذاذ اسماء اخرى هي الأسم الاعظم عندهم.

ولما كانت هذه «النكتة الخامسة» تخص اسم الله «الحي» وقد أظهر الرسول الاعظم ﷺ في مناجاته الرفيعة المسماة بـ«الجوشن الكبير» معرفته الجامعة السامية لله اظهاراً يليق به وحده؛ لذا نذكر من تلك المناجاة شاهداً ودليلاً وحجةً وتبركاً ودعاء مقبولاً وخاتمة حسنةً لهذه الرسالة، فنذهب خيالاً الى ذلك الزمان ونقول: آمين.. آمين على ما يقوله الرسول الكريم ﷺ، فنردد المناجاة نفسها على أصداء ذلك القول النبوي الكريم:

يا حيٌّ قبلَ كلِّ حيّ * يا حيٌّ بعد كل حيّ

يا حيٌّ الذي لا يُشبِهَهُ شيٌ * يَا حيٌّ الذي ليسَ كمثلِه حيٌّ.

يا حيٌّ الذي لا يُشاركُه حيٌّ * يا حيٌّ الذي لا يحتاج الى حيّ.

يا حيٌّ الذي يُميت كلَّ حيّ * يا حيٌّ الذي يرزُق كلَّ حيّ.

يا حيٌّ الذي يحيي الموتى * يا حيٌّ الذي لا يموت.

سُبحانك يا لا إله إلاّ انتَ الأمان الأمان نجّنا من النار.

آمين.

﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ مَا عَلّمْتَنَا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

النكتة السادسة

تتطلع الى اسم الله الاعظم:

القيوم

لقد اصبحت الخلاصة المقتضبة لاسم الله «الحي» ذيلاً لمنبع النور، كما أُرتُئي ان تكون هذه النكتة التي تخص اسم الله «القيوم» ذيلاً للكلمة الثلاثين.

اعتذار:

ان هذه المسائل البالغة الخطورة والاهمية، والتجلي الاعظم لإسم الله «القيوم» الطافح على وجه الحياة والغاص في أعماق الوجود، لم تتوارد الى القلب تواردا متعاقباً منتظماً، الواحدة تلوَ الأخرى. بل سَطَعت دفعةً واحدة في سماء القلب كالبروق الخاطفة، وانقدح زناد القلب، فاستنار الوجدانُ بها فدونتها كما خطرتْ لي ولم أُجرِ عليها أي تعديل أو تغيير أو تشذيب. فلا جرم أن يعتورها شئ من الخلل في الأداء البياني، والسبك البلاغي. فارجو ان تتكرموا بالصفح عما تشاهدونه من قصور في الشكل لأجل جمال المضمون وحُسن محتواه.

تنبيه:

ان المسائل اللطيفة والنكات الدقيقة التي تخص «الاسم الاعظم» هي عظيمة السعة، عميقة الاغوار، ولاسيما المسائل التي تخص اسم «الحي القيوم». وبخاصة «الشعاع الاول» منها، الذي ورد وروداً أعمق من غيره لتوجهه مباشرة الى الماديين(١). لذا فليس الجميعُ سواءً في إدراكهم لمسائله كلها، وربما صَعُب على البعض الاحاطة ببعضٍ منها، وفاته إدراك جزءٍ هنا، وجزء هناك، الاّ أننا مطمئنون الى ان أحداً لن يخرُجَ من النظر فيها، من غير أنْ يستفيد شيئاً، بل سينال - بلا شك - حظَّه المقسوم له من كل مسألة منها، «فما لا يُدرَك كلُّه، لا يُترك كلُّه» كما تقول

(١) إن لم يكن قارئ هذه الرسالة على اطلاع واسع على العلوم، فعليه الاّ يقرأ هذا الشعاع، او يقرأه في الختام، وليشرع من الشعاع الثاني. - المؤلف.

القاعدة السارية؛ فليس صواباً ان يدع أحدٌ هذه الروضة المعنوية المليئة بالثمرات بحجة عجزه عن جَني جميع ثمراتها! وما قطفه منها وحصل عليه فهو كسب ومغنم.

ومثلما ان من المسائل التي تخص «الاسم الاعظم» ما هو واسع جداً لدرجة تتعذر معها الأحاطة الكلية به، فان فيها أيضاً مسائل لها من الدقة ما تندُّ بها عن بصر العقل؛ ولاسيما رموز الحياة الشاملة لأركان الايمان التي هي في اسم الله «الحي»، واشارات الحياة فيه الى الايمان بالقضاء والقدر، والشعاع الاول لاسم الله «القيوم».

ولكن مع هذا لا يبقى أحد دون الأخذ بحظٍ منها. بل تشدّ ايمانَه وتُزيده سعةً ومدىً على أقل تقدير، ولا غرو فان زيادة الأيمان الّذي هو مفتاح السعادة الأبدية انما هي على جانب عظيم من الأهمية، فزيادتُه ولو بمقدار ذرة كنزٌ عظيم، كما يقول الأمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي:

«ان انكشاف مسألة صغيرة من مسائل الايمان لهو أفضل في نظري من مئاتٍ من الاذواق والكرامات».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ بيَدِه مَلَكوتُ كلِّ شيءٍ ﴾ (يس: ٨٣)

﴿ لَهُ مقاليدُ السّمواتِ والأرض ﴾ (الزمر: ٦٣)

﴿ وانْ مِن شيءٍ إلاّ عِنْدَنا خزَائنُه ﴾ (الحجر: ٢١)

﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاّ هو آخِذٌ بناصِيَتها ﴾ (هود: ٥٦)

لقد تراءى لعقلي في شهر ذي القعدة وانا نزيل سجن «اسكي شهر» تجلٍ عظيمٌ من أنوار اسم الله الأعظم «القيوم» الذي هو الاسم الأعظم، أو السادس من الأنوار الستة للاسم الأعظم. كما تراءت نكتة من نكات هذه الآيات الكريمة المشيرة الى القيومية الإلهية.

بيد أن ظروف السجن المحيطة بي تحول دون أن أوفي حق هذه الانوار من البيان.
وحيث ان الأمام علياً رضي الله عنه قد أبرز الاسم الأعظم في قصيدته المسماة بـ«أرجوزة السكينة» لدى بيانه لسائر الاسماء الجليلة من قصيدته «البديعة». يولي أهمية خاصة لتلك الاسماء الستة، فضلاً عما يمنحه لنا - بكرامة من الله - السلوان والعزاء اثناء بحثه لتلك الأسماء، لذا سنشير باشارات مختصرة الى بيان هذا النور الأعظم لإسم الله «القيوم» - كما فعلنا مع الاسماء الخمسة الأخرى - وسنجعل تلك الاشارات في خمسة أشعة.

الشعاع الأول:

ان خالق هذا الكون ذا الجلال «قيومٌ». أي: أنه قائم بذاته، دائم بذاته، باقٍ بذاته، وجميع الأشياء والموجودات قائمة به، تدوم به، تبقى في الوجود به، وتجد البقاء به. فلو انقطع هذا الانتساب للقيومية من الكون بأقل من طرفةِ عينٍ يُمحى الكونُ كله.

ثم ان ذلك الجليل مع قيوميته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ كما وصفه القرآن الكريم. أي لا نظير له ولا مثيل ولا شبيه ولا شريك: في ذاته.. في صفاته.. وفي أفعاله.

نعم، ان الذي يمسك الكون كله أن يزول في قبضة ربوبيته ويدير جميع شؤونه ويدبّر جميع أحواله وكيفياته بكمال الإنتظام ومنتهى التدبير وغاية الرعاية، وفي سهولة مطلقة كادارة قصر أو بيت محالٌ ان يكون له مثلٌ او مِثيلٌ أو شريك أو شبيه.

نعم، ان مَن كان خلق النجوم سهلاً عليه وهيناً كخلق الذرات.. ويسخّر أعظم شئ في الوجود كأصغره ضمن قدرته المطلقة.. ولا يمنع شئ شيئاً عنه، ولا فعلٌ فعلاً، فالأفراد غير المحدودين نصبَ نظره كالفرد الواحد، والأصوات جميعُها يسمعها معاً، ويوفي حاجات الكل في آن واحد ودفعةٍ واحدة، ولا يخرج شئ مهما كان، ولا حالةٌ مهما كانت من دائرة مشيئته ونطاق ارادته - بشهادة الأنظمة والموازين الجارية في الكون - وكما انه لا يحدّه مكانٌ فهو بقدرته وبعلمه حاضرٌ في كل مكان، وكما ان كل شئ بعيدٌ عنه بُعداً مطلقاً، فهو أقرب اليه من أيِّ شئ.. فهذا «الحي القيوم» ذو الجلال، لابد أنه ﴿ليسَ كَمِثلِهِ شئٌ﴾ فلا نظير له ولاشريك ولاوزير ولاضد

ولاندّ. بل محال في حقه كل ذلك. اما شؤونه المنزّهة الحكيمة، فيمكن ان يُنظَر اليها بمنظار المَثَل والتمثيل (وجميع أنواع الأمثال والتمثيلات والتشبيهات الواردة في رسائل النور انما هي من هذا النوع من المثل والتمثيل).

فهذا الذات الأقدس الذي لا مثيل له، وهو الواجب الوجود، والمجرّد عن المادة المنزّه عن المكان، المحال عليه التجزؤ والانقسام، والممتنع عليه التغيّر والتبدل، والذي لا يمكن أن يُتصورَ عجزه واحتياجه ابداً، هذا الذات الأقدس قد أعطى قسمٌ من أهل الضلالة احكامَ ألوهيته العظيمة الى بعضٍ مخلوقاته، وذلك بتوهمهم ان تجلياته سبحانه المتجلية في صفحات الكون وطبقات الموجودات هي الذات الأقدس نفسه، ففوض قسم من هؤلاء بعض آثار تجلياته سبحانه الى الطبيعة والاسباب، والحال انه قد ثبت ببراهين متعددة ناصعة وفي عديد من رسائل النور:

أن الطبيعة: ما هي الاّ صنعة الهية ولا تكون صانعاً، وهي كتاب رباني ولا تكون كاتباً، وهي نقشٌ بديع ومحال ان تكون نقّاشاً مُبدعاً، وهي كراسٌ ولا تكون واضعة القوانين وصاحبة الكراس، وهي قانونٌ ولا تكون قدرةً، وهي مسطرٌ ولا تكون مصدراً للوجود، وهي شئ منفعل ولا تكون الفاعل، وهي نظام ومحال ان تكون ناظماً، وهي شريعة فطرية وممتنع ان تكون شارعاً مشرّعاً.

ولو أفترض محالاً وأحيل خلقُ أصغر كائن حي الى الطبيعة، وقيل لها – فرضاً –: هيا أوجدي هذا الكائن – مثلاً – فينبغي للطبيعة عندئذٍ ان تهئ قوالبَ مادية ومكائن – بعدد أعضاء ذلك الكائن لكي تستطيع ان تؤدي ذلك العمل!! وقد أثبتنا محالية هذا الفرض في مواضع كثيرة من رسائل النور.

ثم ان قسماً من أهل الضلالة الذين يطلق عليهم «الماديون» يشعرون بالتجلي الأعظم للخلاقية الإلهية والقدرة الربانية في تحولات الذرات المنتظمة، ولكنهم يجهلون مصدر ذلك التجلي، ويعجزون عن ان يدركوا من أين تُدار تلك القوة العامة النابعة من تجلي القدرة الصمدانية.. فلأنهم يجهلون كل ذلك فقد شرعوا باسناد اثار الألوهية الى الذرات نفسها والى حركاتها عينها، فتوهموا أزلية المادة

والقوة. فسبحان الله!! أفيمكن لإنسانٍ ان يتردى الى هذا الدرك السحيق من الجهالة والخرافة المحضة، فيسند الآثار البديعة للخالق البديع والأفعال الحكيمة للعليم البصير - وهو المتعال عن المكان والزمان - الى ذراتٍ مضطربة بتيارات المصادفات، جامدةٍ عمياء غير شاعرة، لاحول لها ولا قوة، والى حركاتها!.. أفيمكن ان يقرّ بهذا أحد؟. فمن كان له مسكةٌ من عقل لابد ان يحكم بان هذا جهلٌ ما بعده جهل، وخرافة ما بعدها خرافة.

ان هؤلاء التعساء قد وقعوا في عبادة الهة كثيرة لأنهم أعرضوا عن الوحدانية المطلقة. أي لأنهم لم يؤمنوا بالهٍ واحد، أصبحوا مضطرين الى قبول ما لا نهاية له من الآلهة!.. أي لأنهم لم يستوعبوا بعقولهم القاصرة أزلية الذات الأقدس وخلاّقيته - وهما صفتان لازمتان ذاتيتان له سبحانه - فقد اصبحوا - بحكم مسلكهم الضال - مضطرين الى قبول أزلية ذرات جامدة لا حدّ لها ولا نهاية، بل الى قبول ألوهية الذرات!

فتأمل مبلغ الحضيض الذي سقطوا فيه، وسحيق الدرك الاسفل من الجهل الذي تردّوا فيه!

نعم! ان التجلي الظاهر «للحي القيوم» في الذرات قد حوّلها الى ما يشبه الجيش المهيب المنظم بحول الله وقوته وأمره، فلو سُحب أمرُ القائد الأعظم لأقل من طرفة عين من تلك التي لا تحد من الذرات الجامدة والتي لاشعور لها ولاعقل، لظلت سائبة، بل تمحى نهائياً من الوجود.

ثم ان هناك من يتظاهرون ببُعد النظر، فيسوقون فكراً أجهل من السابق وأوغل في الخرافة منه حيث يتوهمون ان مادة الأثير هي المصدر وهي الفاعل، لقيامها بمهمة المرآة العاكسة لتجليات ربوبية الخالق سبحانه! علماً انها ألطف وأرق وأطوع صحيفة من صحائف اجراءات الصانع الجليل واكثرها تسخيراً وانقياداً، وهي وسيلة لنقل أوامره الجليلة. وهي المداد اللطيف لكتاباته، والحلّة القشيبة الشفيفة لايجاداته، والخميرة الاساس لمصنوعاته، والارض الخصبة لحبّاته.

فلا شك ان هذا الجهل العجيب المرعب يستلزم محالات لاحد لها ولا نهاية، وذلك لأن مادة الأثير هي ألطف من مادة الذرات التي غرق بها الماديون في مستنقع

الضلالة، وهي اكثف من الهيولي(١) التي ضلّ فيها الفلاسفة القدماء وتاهوا. وهي مادة جامدة لأرادة لها ولاأختيار ولاشعور، فإسناد الافعال والآثار الى هذه المادة القابلة للأنقسام والتجزؤ والمجهّزة للقيام بوظيفة النقل وخاصة الإنفعال، والى ذراتها التي هي اصغر من الذرات لاشك انه جريمة وخطأ فاحش بعدد ذرات الأثير؛ لأن تلك الافعال والآثار الربانية لا يمكن ان تحدث الاّ بارادة من يقدِر على رؤية كل شئ في أي شئ كان ومَن يملك علماً محيطاً بكل شئ.

نعم! ان فعل الايجاد المشهود في الموجودات يتسم بكيفية معينة واسلوب منفرد بحيث يدل دلالة واضحة على ان الموجِد هو صاحبُ قدرةٍ قادرة واختيار طليق، يرى اكثر الاشياء، بل الكون كله لدى ايجاده أيَّ شئ كان، ولاسيما الكائن الحي ويعلم كل ما يرتبط به من الأشياء، ثم يضع ذلك الشئ في موضعه الملائم له، ويضمن له البقاء في ذلك الموقع، أي ان الاسباب المادية الجاهلة لا يمكن ان تكون بحال من الأحوال فاعلاً لها.

نعم، ان فعلاً ايجادياً ـــ مهما كان جزئياً ـــ يدل دلالة عظيمة ـــ بسر القيومية ـــ على انه فعلُ خالِق الكون فعلاً مباشراً. فالفعل المتوجّه الى ايجاد نحلة ـــ مثلاً ـــ يدلنا بجهتين على أنه يخص خالق الكون ورب العالمين.

الجهة الاولى

ان قيام تلك النحل مع أمثالها في جميع الأرض بالفعل نفسه في الوقت نفسه يدلنا على ان هذا الفعل الجزئي الذي نشاهده في نحلة واحدة انما هو طرفٌ لفعلٍ يحيط بسطح الارض كله. أي ان من كان فاعلاً لذلك الفعل العظيم الواسع ومالكاً له فهو صاحب ذلك الفعل الجزئي.

الجهة الثانية

لأجل ان يكون أحدٌ فاعلاً لهذا الفعل الجزئي المتوجه الى خلقِ هذه النحلة الماثلة أمامنا، ينبغي ان يكون ـــ الفاعل ـــ عالماً بشروط حياة تلك النحلة وأجهزتها

(١) الهيولي: لفظ يوناني معناه عند الفلاسفة: المادة الاولى المجردة عن الصورة من حجم وامتداد ولون وماأشبه ذلك. ـــ المترجم.

وعلاقاتها مع الكائنات الاخرى وكيفية ضمان حياتها ومعيشتها، فيلزم اذن ان يكون ذا حكم نافذ على الكون كله ليجعل ذلك الفعل كاملاً. أي ان أصغر فعلٍ جزئي يدل من جهتين على أنه يخصّ خالقَ كل شئ. ولكن اكثر ما يحيّر الانسان ويجلب انتباهه هو: ان الأزلية والسرمدية التي هي من أخص خصائص الألوهية وألزم صفةٍ للذات الأقدس المالك لأقوى مرتبة في الوجود وهو «الوجوب» وأثبت درجة في الوجود وهو «التجرد من المادة» وأبعد طور عن الزوال وهو «التنزه عن المكان» واسلم صفة من صفات الوجود وأقدسها عن التغير والعدم وهو «الوحدة».

أقول: ان الذي يحير الانسان ويثير قلقه، ويجلب انتباهه انما هو: منح صفة الأزلية والسرمدية الى الأثير والذرات وما شابهها من المواد المادية التي لها أضعف مرتبة من مراتب الوجود، وأدق درجة فيه، واكثر أطواره تغيراً وتحولاً، وأعمها انتشاراً في المكان، ولها الكثرة التي لا تحد.. فإسناد الأزلية الى هذه المواد وتصورها أزليةً، وتوهم نشوء قسم من الآثار الألهية منها، ما هو الاّ مجافاة وأي مجافاة للحقيقة وأمرٌ منافٍ أي منافاة للواقع، وبعيد كل البعد عن منطق العقل وباطل واضح البطلان وقد أثبتنا هذا في كثير من الرسائل ببراهين رصينة.

الشعاع الثاني: وهو مسألتان:

المسألة الاولى: قال تعالى:

﴿لا تأخذُهُ سِنةٌ ولا نومٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

﴿ما مِنْ دابةٍ الاّ هو آخذٌ بناصِيَتِها﴾ (هود: ٥٦)

﴿لهُ مقاليدُ السّموات والارض﴾ (الزمر: ٦٣)

وأمثالها من الآيات التي تتضمن حقيقة عظمى تشير الى التجلي الأعظم لاسم الله «القيوم».. سنورد وجهاً واحداً من تلك الحقيقة، وهو الآتي:

ان قيام الأجرام السماوية في هذا الكون ودوامَها وبقاءها انما هو مشدود بسر القيومية، فلو صَرف سر القيومية وتجلّيه وجهَه – ولو لأقل من دقيقة – لتبعثرت تلك الأجرام التي تفوق ضخامة بعضها ضخامة الكرة الأرضية بألوف المرات ولإنتثرت ملايين الأجرام في فضاء غير متناهٍ ولإصطدم بعضُها ببعض ولَهَوت الى سحيق العدم.

لنوضح ذلك بمثال:

اننا مثلما نفهم قدرة قيومية مَن يُسيّر ألوف قصور ضخمة في السماء بدل الطائرات بمقدار ثبات تلك الكتل الهائلة التي في السماء ودوامها، وبمدى انتظام دورانها وانقيادها في جريها. نفهم أيضاً: تجلي الأسم الأعظم: «القيوم» من منح القيوم ذي الجلال قياماً وبقاءاً ودواماً – بسر القيومية – لأجرامٍ سماوية لا حدّ لها في أثير الفضاء الواسع، وجريانها في منتهى الإنقياد والنظام والتقدير، واسنادها وادامتها وابقائها دون عمد ولا سند، مع ان قسماً منها أكبر من الأرض ألوف المرات وقسماً منها ملايين المرات، فضلاً عن تسخير كل منها وتوظيفها في مهمة خاصة، وجعلها جميعاً كالجيش المهيب، منقادةً خاضعة خضوعاً تاماً للأوامر الصادرة ممن يملك أمر «كن فيكون». فكما ان ذلك يمكن ان يكون مثالاً قياسياً للتجلي الأعظم لاسم «القيوم» كذلك ذرات كل موجودٍ – التي هي كالنجوم السابحة في الفضاء – فانها قائمةٌ ايضاً بسر القيومية، وتجد دوامَها وبقاءها بذلك السر.

نعم! ان بقاء ذرات جسم كل كائن حي دون ان تتبعثر وتجمّعها على هيئةٍ معينة وتركيب معين وشكل معين حسب ما يناسب كل عضو من اعضائه، علاوةً على احتفاظها بكيانها وهيئتها أمام سيل العناصر الجارفة دون ان تتشتت، واستمرارها على نظامها المتقن.. كل ذلك لا ينشأ – كما هو معلوم بداهة – من الذرات نفسها، بل هو من سر القيومية الإلهية التي ينقاد لها كلُّ فردٍ حي انقيادَ الطابور في الجيش، ويخضع لها كلُّ نوعٍ من أنواع الأحياء خضوعَ الجيش المنظم.

فمثلما يُعلن بقاءُ الأحياء والمركبات ودوامُها على سطح الأرض وسياحةُ النجوم وتجوالُها في الفضاء «سرَّ القيومية» تعلنه هذه الذرات أيضاً بألسنة غير معدودة.

المسألة الثانية:

هذا المقام يقتضي الاشارة الى قسمٍ من فوائد الأشياء وحِكَمها المرتبطة بسرِ القيومية. ان حكمة وجود كل شئ، وغايةَ فطرته، وفائدةَ خلقه، ونتيجة حياته – كلاً منها – انما هي على أنواع ثلاثة.

النوع الاول: وهو المتوجه الى نفسه والى الانسان ومصالحه.

النوع الثاني: (وهو الأهم من الأول): هو ان كل شئ في الوجود بمثابة آية جليلة،

ومكتوب رباني، وكتاب بليغ، وقصيدة رائعة، يستطيع كلُّ ذي شعور ان يطالعها ويتعرّف من خلالها على تجلّي اسماء الفاطر الجليل. أي ان كل شئ يعبّر عن معانيه الغزيرة لقرائه الذين لا يحصيهم العد.

أما النوع الثالث: فهو يخص الصانع الجليل، وهو المتوجه اليه سبحانه، فلو كانت فائدةُ خلقِ الشئ في نفسه واحدةً فالتي يتطلع منها الى الباري الجليل هي مئات من الفوائد، حيث أنه سبحانه يجعله موضع نظره الى بدائع صنعه، ومحطّ مشاهدة تجلي أسمائه الحسنى فيه، فضمن هذا النوع الثالث العظيم من حكمة الوجود يكفي العيش لثانية واحدة.

هذا وسيوضح في «الشعاع الثالث» سرٌّ من أسرار القيومية الذي يقتضي وجود كل شئ.

تأملتُ ذات يوم في فوائد الموجودات وحكمها من زاوية انكشاف «طلسم الكائنات» و «لغز الخلق» فقلت – في نفسي –: «لماذا ياترى، تعرض هذه الأشياء نفسَها وتُظهرُها ثم لاتلبث أن تختفي وترحل مسرعةً؟».. انظر الى أجسامها وشخوصها فاذا كل منها منظّم منسق قد أُلبس وجوداً على قدّه وقدره بحكمة واضحة وزُيّن بأجمل زينة وألطفها، وأُرسل بشخصية ذات حكمة وجسم منسق ليُعرَض أمام المشاهدين في هذا المعرض الواسع.. ولكن ما أن تمر بضعة أيام – أو بضع دقائق – الاّ وتراه يتلاشى ويختفي من دون أن يترك فائدة أو نفعاً.!! فقلت: ترى ما الحكمة من وراء هذا الظهور لنا لفترة قصيرة كهذه؟..

كنت في لهفة شديدة للوصول الى معرفة السر.. فادركني لطفُ الرب الجليل سبحانه.. فوجدت – في ذلك الوقت – حكمةً مهمة من حكَم مجئ الموجودات – ولا سيما الأحياء – الى مدرسة الأرض، والحكمة هي: انّ كل شئ – ولا سيما الأحياء – انما هي كلمة إلهية ورسالة ربانية وقصيدة عصماء، واعلانٌ صريح في منتهى البلاغة والحكمة. فبعد ان يصبح ذلك الشئ موضع مطالعة جميع ذوي الشعور، ويفي بجميع معانيه لهم ويستنفد أغراضه، تتلاشى صورتُه الجسدية وتختفي مادتُه تلك التي هي: بحكم لفظ الكلمة وحروفها،تاركة معانيها في الوجود.

لقد كفتني معرفة هذه الحكمة طوال سنة.. ولكن بعد مضيها انكشفت أمامي المعجزات الدقيقة في المصنوعات والاتقان البديع فيها ولا سيما الأحياء. فتبيّن لي:

ان هذا الأتقان البديع جداً والدقيق جداً في جميع المصنوعات ليس لمجرد افادة المعنى أمام أنظار ذوي الشعور؛ اذ رغم ان ما لا يحد من ذوي الشعور يطالعون كلّ موجود الاّ ان مطالعتهم – مهما كانت – فهي محدودة، فضلاً عن أنه لا يستطيع كل ذي شعور ان ينفذ الى دقائق الصنعة وابداعها في الكائن الحي ولا يقدر على اكتناه جميع أسرارها.

فأهم نتيجة اذاً في خلق الأحياء وأعظم غاية لفطرتها انما هي: عرضُ بدائع صنع «القيوم الأزلي» أمام نظره سبحانه، وابراز هدايا رحمته وآلائه العميمة التي وهبها للأحياء، أمام شهوده جل وعلا.. لقد منحتني هذه الغاية اطمئناناً كافياً وقناعة تامة لزمن مديد. وأدركت منها:

ان وجود دقائق الصنع وبدائع الخلق في كل موجود – ولا سيما الأحياء – بما يفوق الحد، انما هو لعرضها أمام «القيوم الأزلي» أي ان حكمة الخلق هي:

مشاهدة «القيوم الازلي» لبدائع خلقه بنفسه.. وهذه المشاهدة تستحق هذا البذل العميم وهذه الوفرة الهائلة في المخلوقات.

ولكن بعد مضي مدة.. رأيت أن دقائق الصنع والاتقان البديع في شخوص الموجودات وفي صورتها الظاهرة لاتدوم ولاتبقى، بل تتجدد بسرعة مذهلة، وتتبدل آناً بعد آن، وتتحول ضمن خلق مستمر متجدد وفعالية مطلقة.. فأخذتُ أوغل في التفكير مدة من الزمن.

وقلت: لابد ان حكمة هذه الخلاقية والفعالية عظيمةٌ عظمَ تلك الفعالية نفسها.. وعندها بدت الحكمتان السابقتان ناقصتين وقاصرتين عن الايفاء بالغرض. وبدأت أتحرى حكمة أخرى بلهفة عارمة، وابحث عنها باهتمام بالغ.. وبعد مدة – و لله الحمد والمنة – تراءت لي حكمةٌ عظيمة لاحد لعظمتها وغاية جليلة لامنتهى لجلالها، تراءت لي من خلال فيض نور القرآن الكريم ونبعت من سر القيومية..

فأدركت بها سراً إلهياً عظيماً في الخلق، ذلك الذي يطلق عليه «طلسم الكائنات» و «لغز المخلوقات»!

سنذكر في «الشعاع الثالث» هنا بضع نقاط من هذا السر ذكراً مجملاً حيث انه قد فصل تفصيلاً كافياً في «المكتوب الرابع والعشرين» من المكتوبات.

نعم! انظروا الى تجلي سر القيومية من هذه الزاوية وهي :

ان الله أخرج الموجودات من ظلمات العدم ووهب لها الوجود، ومنحها القيام والبقاء في هذا الفضاء الواسع، وبوأ الموجودات موقعاً لائقاً لتنال تجلياً من تجليات سر القيومية كما بينته الآية الكريمة: ﴿ **اللهُ الذي رفعَ السمواتِ بغير عَمَدٍ تَرَوْنها** ﴾ (الرعد:٢). فلولا هذه الركيزة العظيمة وهذا المستند الرصين للموجودات، فلا بقاء لشئ بل لتدحرج كل شئ في خضم فراغ لا حدّ له، ولهوى الى العدم.

وكما تستند جميع الموجودات الى «القيوم الأزلي» ذي الجلال في وجودها وفي قيامها وبقائها، وان قيام كل شئ به سبحانه.. كذلك جميعُ أحوال الموجودات قاطبة وأوضاعها كافة وكيفياتها المتسلسلة كلها مرتبطةٌ بداياتُها أرتباطاً مباشراً بسر القيومية، كما توضحها الآية الكريمة ﴿ **واليه يُرجَع الأمرُ كُلُّه** ﴾ (هود: ١٢٣) اذ لولا استناد كل شئ الى تلك النقطة النورانية، لنتج ما هو محال لدى أرباب العقل من ألوف الدور والتسلسل، بل بعدد الموجودات. ولنوضح ذلك بمثال:

أن الحفظ، أو النور، أو الوجود، أو الرزق أو ما شابهه من أي شئ كان، انما يستند - من جهة - الى شئ آخر، وهذا يستند الى آخر، وهذا الى آخر وهكذا.. فلابد من نهاية له، اذ لا يعقل الاّ ينتهي بشئ. فمنتهى امثال هذه السلاسل كلها انما هو في «سر القيومية».

وبعد أدراك هذا السر «سر القيومية» لايبقى معنىً لأستناد أفراد تلك السلاسل الموهومة بعضها بالبعض الآخر، بل تُرفع نهائياً وتزال. فيكون كل شئ متوجهاً توجهاً مباشراً الى «سر القيومية».

الشعاع الثالث:

سنشير في مقدمة أو مقدمتين الى طرفٍ من انكشاف «سر القيومية» الذي تتضمنه الخلاقية الإلهية والفعالية الربانية كما تشير اليها امثال هذه الآيات الكريمة:

﴿ **كُلَّ يَوم هو في شأن** ﴾ (الرحمن: ٢٩)

﴿ فعّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج:١٦)

﴿ يَخلُقُ ما يَشاءُ ﴾ (الروم:٥٤)

﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوت كلِّ شيءٍ ﴾ (يس:٨٣)

﴿ فانظُر الى آثارِ رَحْمتِ اللهِ كَيْفَ يُحيي الأرض بَعْدَ مَوتِهَا ﴾ (الروم:٥٠)

حينما ننظر الى الكائنات بعين التأمل، نرى: ان المخلوقات تضطرب في خضم سيل الزمان وتتعاقب قافلةً إثر قافلة. فقسمٌ منها لا يلبث ثانية ثم يغيب، وطائفة منها تأتي لدقيقة واحدة ثم تمضي الى شأنها. ونوع منها يمر الى عالم الشهادة مر الكرام ثم يلج في عالم الغيب بعد ساعة. وقسم منها يحط رحله في يومٍ ثم يغادر، وقسم منها يمكث سنة ثم يمضي، وقسم يمضي عصراً ثم يرحل، وآخر يقضي عصوراً ثم يترك هذا العالم.. وهكذا فكلٌ يأتي ثم يغادر بعد اداء مهمته الموكولة اليه.

فهذه السياحة المذهلة للعقول، وذلك السيل الجاري للموجودات والسفر الدائب للمخلوقات، انما تتم بنظام متقن وميزان دقيق وحكمة تامة، والذي يقود هذه الرحلة المستمرة ويمسك بزمامها، يقودها ببصيرة ويسيّرها بحكمة، ويسوقها بتدبير بحيث لو اتحدت جميع العقول واصبحت عقلاً واحداً لما بلغ معرفة كنه هذه الرحلة ولا يصل الى ادراك حكمتها، ناهيك عن ان يجد فيها نقصاً او قصوراً.

وهكذا ضمن هذه الخلاقية الربانية يسوق الخالق تلك المصنوعات اللطيفة المحبوبة اليه — ولاسيما الاحياء — الى عالم الغيب دون ان يمهلها لتتفسح في هذا العالم. ويعفيها من مهماتها في حياتها الدنيوية دون ان يدعها تنشرح وتنبسط، فيملأ دار ضيافته هذه بالضيوف ويخلّيها منهم باستمرار دون رضاهم، جاعلاً من الكرة الارضية ما يشبه لوحة كتابة — كالسبورة — يكتب فيها باستمرار قلم القضاء والقدر كتاباته ويجددها، ويبدلها، بتجليات مَن(يُحيي ويُميت).

وهكذا، فان سراً من اسرار هذه الفعالية الربانية وهذه الخلاّقية الالهية، ومقتضياً اساساً من مقتضياتها وسبباً من الاسباب الداعية لها انما هو حكمة عظيمة لا حدّ لها ولانهاية، هذه الحكمة تتشعب الى ثلاث شعب مهمة:

فالشعبة الاولى من تلك الحكمة:

هي أن كل نوع من انواع الفعالية – جزئياً كان ام كلياً – يورث لذة، بل ان في كل فعالية لذة، بل الفعالية نفسها هي عين اللذة، بل الفعالية هي تظاهر الوجود الذي هو عين اللذة، وهو انتفاضة بالتباعد عن العدم الذي هو عين الالم.

وحيث ان صاحب كل قابلية يرقُب بلهفة ولذة ما ينكشف عن قابلياته بفعالية ما، وان تظاهر كل استعداد بفعالية انما هو ناشئٌ من لذةٍ مثلما يولّد لذةً، وان صاحب كل كمال ايضاً يتابع بلهفة ولذة تظاهر كمالاته بالفعالية، فاذا كان في كل فعالية لذة كامنة مطلوبة كهذه وكمال محبوب كهذا، والفعالية نفسها كمال، وتشاهد في عالم الاحياء تجليات أزلية لرحمة واسعة ومحبة لا نهاية لها نابعة من حياة سرمدية.. فلا شك ان تلك التجليات تدل على:

ان الذي يحبّب نفسه الى مخلوقاته، ويحبّهم ويرحمهم باسباغ نعَمه وألطافه عليهم على هذه الصورة المطلقة، تقتضي حياته السرمدية عشقاً مطلقاً (لاهوتياً اذا جاز التعبير) ومحبة مقدسة مطلقة، ولذة – منه – منزّهة سامية.. وأمثالها من الشؤون الالهية المقدسة اللائقة بقدسيته والمناسبة لوجوب وجوده. فتلك الشؤون الالهية بمثل هذه الفعالية التي لا حد لها، وبمثل هذه الخلاقية التي لا نهاية لها، تجدّد العالَم وتبدّله وتخضّه خضاً.

الشعبة الثانية من حكمة الفعالية الالهية المطلقة المتوجهة الى سر القيومية:

هذه الحكمة تطل على الاسماء الالهية الحسنى.

من المعلوم ان صاحب كل جمال يرغب ان يرى جماله ويُريَه الآخرين، ويودّ صاحب المهارة ان يلفت الانظار اليه بعرض مهاراته واعلانه عنها. فالحقيقة الجميلة الكامنة، والمعنى الجميل المخبوء يتطلعان اذاً الى الانطلاق واستقطاب الانظار.

ولما كانت هذه القواعد الرصينة سارية في كل شئ، كلٍ حسب درجته. فلا بد ان كل مرتبة من مراتب كل اسمٍ من ألف اسمٍ واسم من الاسماء الحسنى للجميل المطلق وللقيوم ذي الجلال، ينطوي على حُسنٍ حقيقي، وكمالٍ حقيقي، وجمال حقيقي، وحقيقة جميلة باهرة بشهادة الكائنات كلها، وتجليات تلك الاسماء الظاهرة

عليها، واشارات نقوشها البديعة فيها، بل ان كل مرتبة من مراتب كل اسم من الاسماء الحسنى فيهامن الحسن والجمال والحقائق الجميلة ما لايحصره حدّ.

وحيث ان هذه الموجودات وهذه الكائنات هي مرايا عاكسة لتجليات جمال هذه الاسماء المقدسة.. وهي لوحات بديعة تُعرض فيها نقوش تلك الاسماء الجميلة.. وهي صحائفها التي تعبر عن حقائقها الجميلة.

فلابد ان تلك الاسماء الدائمة الخالدة ستعرض تجلياتها غير المحدودة، وتبرز نقوشها الحكيمة غير المعدودة، وتشهر صحائف كتبها امام نظر مسمّاها الحق وهو (القيوم) ذو الجلال، فضلاً عن عرضها امام انظار ما لا يعد من ذوي الارواح وذوي الشعور لمطالعتها والتأمل فيها.

ولا بد انها تجدّد الكائنات عامة وعلى الدوام بتجلياتها وتُبدّلها إستناداً الى ذلك العشق الالهي المقدس، وبناءً على سر القيومية الالهية، وذلك لاجل ابراز لوحاتٍ لا نهاية لها من شئٍ محدود، وعرض شخوصٍ لا حدّ لها من شخص واحد، واظهار حقائق كثيرة جداً من حقيقة واحدة.

الشعاع الرابع:

الشعبة الثالثة من حكمة الفعالية الدائمة المحيِّرة في الكون:

هي ان كل ذي رحمة يُسرّ بإرضاء الآخرين، وكل ذي رأفة ينشرح اذا ما أدخل السرور الى قلوب الاخرين، وهكذ يبتهج ذو المحبة بابهاج مخلوقاته الجديرة بالبهجة، كما يسعد كلُّ ذي همة عالية وصاحب غيرة وشهامة باسعاده الآخرين، ومثلما يفرح كل عادل بجعل اصحاب الحقوق ينالون حقهم ويشكرونه لوضع الحق في نصابه وانزال العقاب على المقصّرين، يزهو كلُّ صناع ماهر ويفتخر بعرض صنعته واشهار مهارته لدى قيام مصنوعاته بانتاج ما كان يتوقعه على أتم وجه يتصوره.

فكلٌّ من هذه الدساتير المذكورة آنفاً، قاعدة اساسية عميقة راسخة جارية في الكون كله مثلما تجري في عالم الانسان.

ولقد وضّحنا في (الموقف الثاني من الكلمة الثانية والثلاثين) أمثلة ثلاثة تبين

جريان هذه القواعد الاساسية في تجليات الاسماء الحسنى، نرى من المناسب اختصارها هنا فنقول:

ان الذي يملك رحمة فائقة وهمة عالية مع منتهى الكرم والسخاء، يسعده جداً ان يغدق على فقراء مدقعين ومحاويج مضطرين ويتفضل عليهم بكرمه وجوده، فيعدّ لهم موائد ولائم فاخرة ومأكولات نفيسة على متن سفينة عامرة تجري بهم في بحار الأرض ليُدخل البهجة والسرور في قلوبهم ضمن سياحة جميلة ونزهة لطيفة.. فهذا الشخص يستمتع من مظاهر الشكر المنبعثة من اولئك الفقراء، وينشرح صدره انشراحاً عظيماً وهو يشاهد تمتعهم بمباهج النعم والآلاء، ويفتخر بسرورهم ويزهو بفرحم.. كل ذلك بمقتضى ما أودع الله في فطرته من سجايا سامية وصفات رفيعة.

فاذا كان الانسان الذي هو بمثابة أمين على ودائع الخالق الكريم وموظف للتوزيع ليس الاّ، اذا كان يستمتع وينشرح ويتلذذ الى هذا القدر لدى اكرامه الآخرين في ضيافة جزئية، فكيف اذن ياترى بالحي القيوم – ولله المثل الاعلى – الذي تنطلق اليه آياتُ الحمد والشكر وتُرفع اليه اكفّ الثناء والرضى بالدعاء والتضرع من مخلوقاتٍ لا حدّ لهم من الاحياء الى الانسان والملائكة والجن والارواح، الذين حملهم في سفينة الرحمن – الارض – واسبغ عليهم نِعَمه ظاهرة وباطنة بانواع مطعوماته المنسجمة تماماً مع ما غرز فيهم من اذواق وارزاق، وتفضّل عليهم بهذه السياحة الربانية في أرجاء الكون. فضلاً عن جعله كلَّ جنةٍ من جنانه في دار الخلود، دار ضيافة دائمة معدّة فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين... فجميع آيات الشكر والحمد والرضى المنطلقة من جميع المخلوقات قاطبة والمنبعثة من سرورهم وفرحهم وابتهاجهم بالنعم والآلاء العميمة عليهم والمتوجهة كلها الى الحي القيوم تولد من الشؤون الالهية، المقدسة التي تقتضي هذه الفعالية الدائمة والخلاقية المستمرة، تلك الشؤون التي يعجز الانسان التعبير عنها ولم يؤذن لنا بالافصاح عنها، بل ربما يشار اليها باسماء: «الرضى المقدس» و«الافتخار المقدس» و «اللذة المقدسة» وما شابهها من الاسماء التي نُعبّر بها – نحن البشر – عن معاني الربوبية المنزّهة.

ومثال آخر:

اذا قام صنّاع ماهر، بصنع حاكٍ - بلا اسطوانة - يعبّر عما يريده منه ويعمل على افضل صورة يرغبها هو، كم يكونُ ذلك الصناع مفتخراً، وكم يكون متلذذاً من رؤية صنعته على هذه الصورة وكم يكون مسروراً حتى يردد في نفسه: ما شاء الله..

فاذا كانت صنعة صغيرة صورية - من دون ايجاد حقيقي - تثير في روح صانعها الى هذه الدرجة من مشاعر الافتخار والرضى. فكيف بالصانع الحكيم الذي أوجد هذه الموجودات كلها وجعلها موسيقى إلهية تعبّر عن شكرها وتسبيحها وتقديسها بأنواعٍ من النغمات وانواع من الكلام، كما جعلها مصنعاً عجيباً فضلاً عما أسبغ على كل نوع من أنواع الكائنات، وكل عالم من عوالم الكون من صنعةٍ متقنة بديعة متباينة معجزة بخوارقها، أضف الى ذلك المكائن الكثيرة التي اودعها في رؤوس ذوي الحياة الشبيهة بالحاكي وآلات التصوير وأجهزة البث والاستقبال، بل أودع أعجب من هذه الاجهزة المعجزة حتى في رأس أصغر حيوان! بل لم يودع في رأس الانسان مجرد حاكٍ بلا اسطوانة، ولا آلة تصوير بلا عدسة، ولا هاتفاً بلا سلك بل مكائن اعجب بكثيرٍ وخوارق أعظم وأعظم مما ذكر بكثير.

فما يُنشئه عمل هذه المكائن العاملة وفق ارادته والمودَعة في رأس الانسان المخلوق في احسن تقويم من معاني الافتخار المقدس والرضى المقدس، وأمثالها من المعاني الجليلة والشؤون المقدسة للربوبية - التي هي من هذا النوع - يستلزم حتماً هذه الفعالية الدائمة المشاهدة.

ومثلاً:

ان الحاكم العادل يجد لذة ومتعة ورضىً عندما يأخذ حقَّ المظلوم من الظالم ويجعل الحق يأخذ نصابه، ويفتخر لدى صيانته الضعفاء من شرور الاقوياء، ويسر لدى منحه كل فرد ما يستحقه من حقوق.. كل ذلك من مقتضيات الحاكمية والعدالة وقواعدهما الاساس.

فلا بد ان الحاكم الحكيم العادل الذي هو «الحي القيوم» منحه شرائط الحياة في صورة حقوق الحياة للمخلوقات كافة ولاسيما الاحياء.. وباحسانه اليهم باجهزة

تحافظ على حياتهم.. وبحمايته الضعفاء من شرور الاقوياء بكل رحمة ورأفة.. وبتوليه اظهار سر العدالة في الكون باعطاء كل ذي حق من الاحياء حقَّه كاملاً، وبانزال شئ من العقوبة بالظالمين – في هذه الدنيا – وبخاصة ما يحصل من التجلي الكامل للعدالة العظمى في المحكمة الكبرى ليوم الحشر الاعظم.. يحصل من كل هذا ما نعجز عن التعبير عنه من شؤون ربانية ومعانٍ قدسية جليلة هي التي تقتضي هذه الفعالية الدائمة في الكون.

وهكذا في ضوء هذه الامثلة الثلاثة:

فان الاسماء الالهية عامة، وكلٌّ اسمٍ منها خاصة، يقتضي هذه الخلاّقية الدائمة، حيث يكون محوراً لقسم من هذه الشؤون الالهية المقدسة وأمثالها ضمن هذه الفعالية الدائمة.

وحيث ان كل قابلية وكل استعداد يورث فرحاً وانشراحاً ولذةً، بمنحها الثمار والفوائد لدى انبساطها وانكشافها.. وان كل موظف يشعر – عند اتمام الوظيفة وانهائها على الوجه المطلوب – براحة وأيّ راحة.. وان جني ثمرات كثيرة من بذرة واحدة، واغتنام ربح مئات الدراهم من درهم واحد هي حالات مفرحة جداً لأصحابها وتعد تجارة رابحة لهم..

فلا بد ان يفهم مدى أهمية المعاني المقدسة وشؤون الربوبية الالهية الناشئة من الفعالية الدائمة والخلاقية الربانية التي تكشف عن جميع الاستعدادات التي لا تحد، وجميع القابليات التي لا تعد، لجميع المخلوقات غير المحدودة.. والتي تُنهي وظيفة جميع المخلوقات بعد ان تستخدمها في وظائف جسيمة وترقّيها بهذا التسريح الى مراتب أسمى وأعلى – كأن ترقى العناصر الى مرتبة المعادن، والمعادن الى حياة النباتات، والنباتات الى درجة حياة الحيوانات بما تمدّها من رزق، والحيوانات الى مرتبة الانسان الشاعرة والعالية بالشكر والحمد – والتي تجعل كل كائن يخلُف انواعاً من الوجود كروحه وماهيته وهويته وصورته بعد زوال ظاهر وجوده لتؤدي المهمة نفسها «كما وضح في المكتوب الرابع والعشرين».

جوابٌ قاطع عن سؤال مهم

يقول قسم من أهل الضلالة:

ان الذي يغيّر الكائنات بفعالية دائمة ويبدلها، يلزم ان يكون هو متغيراً ومتحولاً أيضاً.

الجواب:

كلا ثم كلا. حاش لله ألف ألف مرة حاش لله!

ان تغيّر اوجه المرايا في الارض، لا يدل على تغير الشمس في السماء، بل يدل على اظهار تجددٰ تجليات الشمس. فكيف بالذي هو أزلي وأبدي وسرمدي وفي كمال مطلق وفي استغناء مطلق (عن الخلق) وهو الكبير المتعال المقدس عن المادة والمكان والحدود، والمنزّه عن الامكان والحدوث، فتغيّر هذا الذات الاقدس محال بالمرة.

ثم ان تغير الكائنات، ليس دليلاً على تغيّره هو، بل هو دليل على عدم تغيره، وعدم تحوّله سبحانه وتعالى. لان الذي يحرّك اشياءً عديدة بانتظام دقيق ويغيّرها، لابد الاّ يكون متغيراً والاّ يتحرك.. مثال ذلك: انك اذا كنت تحرك كرات كبيرة وصغيرة مرتبطة بعدة خيوط؛ حركة منتظمة ودائمة، وتضعها في اوضاع منتظمة، ينبغي ان تكون أنت ثابتاً في مكانك دون ان تتحول عنه والاّ اختل الانتظام.

ومن القواعد المشهورة: ان الذي يحرّك بانتظام ينبغي الاّ يتحرك، والذي يغيّر باستمرار ينبغي الاّ يكون متغيراً. كي يستمر ذلك العمل في انتظامه.

ثانياً: ان التغير والتبدل ناشئ من الحدوث، ومن التجدد بقصد الوصول الى الكمال، ومن الحاجة، ومن المادية، ومن الامكان.

أما الذات الاقدس؛ فهو قديم أزلي، وفي كمال مطلق، وفي استغناء مطلق، منزّه عن المادة، وهو الواجب الوجود، فلا بد ان التبدل والتغير محال في حقه وغير ممكن أصلاً.

الشعاع الخامس:

المسألة الاولى:

اذا اردنا ان نرى التجلي الاعظم لاسم الله (القيوم) فما علينا الاّ ان نجعل خيالنا واسعاً جداً بحيث يمكنه ان يشاهد الكون بأسره، فنجعل منه نظارتين احداهما ترى أبعد المسافات كالمرصد والاخرى تشاهد اصغر الذرات .

فاذا ما نظرنا بالمنظار الاول نرى:

ان ملايين الكرات الضخمة والكتل الهائلة التي منها ما هو اكبر من الارض بألوف المرات، قد رُفعت بتجلي اسم (القيوم) بغير عمد نراها، وهي تجري ضمن أثير لطيف ألطف من الهواء، وتسخرُ لاجل القيام بمهام عظيمة في حركاتها وفي ثباتها الظاهر.

لنرجع الآن الى المنظار الاخر.. لنرى أصغر الاشياء، فاذا بنا امام ذرات متناهية في الصغر تشكل اجسام الاحياء – بسرّ القيومية – وهي تأخذ اوضاعاً منتظمة جداً كالنجوم، وتتحرك وفق نظام معين وتناسق مخصص منجزة بها وظائف جمة، فان شئت فانظر الى الكريات الحمر والبيض تراهما تتحركان حركات خاصة شبيهة بحركات المولوية لأنجاز مهمات جسيمة في الجسم وهما تجريان في السيل الدافق للدم.

خلاصة الخلاصة:(١)

لقد ارتأينا ان ندرج هنا خلاصة تبين الضياء المقدس الحاصل من امتزاج أنوار الاسماء الستة للاسم الأعظم، كامتزاج الألوان السبعة لضوء الشمس – ولله المثل الاعلى – ولأجل مشاهدة هذا النور المقدس نسوق هذه الخلاصة:

تأمل في موجودات الكون كله وانظر اليها من وراء هذا التجلي الاعظم لاسم (القيوم) الذي منح البقاء والدوام والقيام لها ترَ: ان التجلي الاعظم لاسم (الحي) قد جعل تلك الموجودات الحية ساطعةً منورة بتجليه الباهر، وجعل الكائنات كلها منورة بنوره الزاهر، حتى يمكن مشاهدة لمعان نور الحياة على الاحياء كافة.

---

(١) هذه الخلاصة هي الاساس الذي تستند اليها الرسائل الصغيرة للّمعة الثلاثين، وهي زبدة موضوعاتها التي تحمل أسرار الأسماء الستة الحسنىٰ للاسم الأعظم.–المؤلف.

والآن انظر؛ الى التجلي الاعظم لاسم (الفرد) من وراء اسم (الحي) ترَه قد ضمّ جميع الكائنات بأنواعها وأجزائها واستوعبها ضمن وحدة واحدة، فهو يطبع على جبهة كل شئ ختم الوحدانية، ويضع على وجه كل شئ ختم الاحدية، فيجعل كل شئ يعلن تجلّيه بألسنة لا حد لها ولا نهاية.

ثم انظر من خلف اسم (الفرد) الى التجلي الاعظم لاسم (الحكم) ترَ: انه قد ضم الموجودات كلها من أعظم دائرة فيها الى أصغرها كلياً كان أم جزئياً — ابتداءً من النجوم وانتهاء الى الذرات — منح كل موجود ما يستحق من نظام مثمر وما يلائمه من انتظام حكيم وما يوافقه من انسجام مفيد. فلقد زيّن اسم (الحكم) الاعظم الموجودات كلها ورصّعها بتجليه الساطع.

ثم انظر من خلف التجلي الأعظم لأسم (الحكم) الى التجلي الاعظم لاسم (العدل) — كما اوضحناه في النكتة الثانية — ترَه يدير جميع الكائنات بموجوداتها ضمن فعالية دائمة بموازينه الدقيقة ومقاييسه الحساسة ومكاييله العادلة بحيث يجعل العقول في حيرة واعجاب، فلو فقد نجمٌ من الأجرام السماوية توازنه لثانية واحدة. أي اذا انفلت من تجلي اسم (العدل) لحلّ الهرجُ والمرج في النجوم كلها ولأدّى — لامحالة — الى حدوث القيامة.

وهكذا فكل دائرة من دوائر الوجود وكل موجود من موجوداتها ابتداءً من الدوائر العظيمة — المسماة بدرب التبانة — الى حركات أصغر الموجودات في الجسم من كريات حمر وبيض، كلٌّ منها قد فُصّل تفصيلاً خاصاً وقُدّر تقديراً دقيقاً وقيس بمقاييس حساسة، ومُنح شكلاً معيناً ووضعاً مخصوصاً بحيث يُظهر — كل منها — الطاعة التامة والانقياد المطلق ودينونة كاملة للأوامر الصادرة من الذي يملك أمر «كن فيكون» ابتداءً من جيوش النجوم الهائلة المتلألئة في الفضاء الى جيوش الذرات المتناهية في الصغر.

فانظر الآن من خلف التجلي الاعظم لاسم الله (العدل) ومن خلاله، وشاهد التجلي الاعظم لاسم الله (القدوس) — الذي وضحناه في النكتة الاولى — ترَ : ان هذا التجلي الاعظم لاسم (القدوس) قد جعل موجودات الكائنات نظيفة، نقية

طاهرة، براقة، صافية، زكية، مزينة، وجميلة وحوّلها الى ما يشبه مرايا جميلة مجلوة لائقة لاظهار الجمال البديع المطلق، وتناسب عرض تجليات اسمائه الحسنى.

نحصل مما تقدم:

ان هذه الاسماء والانوار الستة للاسم الاعظم، قد عمّت الكون كله وغطت الموجودات قاطبة ولَفَعَتْها باستار مزركشة ملونة بازهى الالوان المتنوعة وابدع النقوش المختلفة وأروع الزينات المتباينة.

المسألة الثانية من الشعاع الخامس:

ان جلوة من تجليات القيومية على الكون، وشعاعاً من نورها مثلما يعمّ الكون بمظاهر «الواحدية والجلال»، فانه يبرز على هذا الانسان – الذي يمثل محور الكون وقطبه وثمرته الشاعرة – مظاهر «الاحدية والجمال». وهذا يعني:

ان الكائنات التي هي قائمة بسر القيومية فهي تقوم ايضاً – من جهة – بالأنسان؛ الذي يمثل اكمل مظهر من مظاهر تجلي اسم (القيوم). أي: ان القيومية تتجلى في الانسان تجلياً يجعل منه عموداً سانداً للكائنات جميعاً، بمعنى ان معظم الحِكَم الظاهرة في الكائنات وأغلب مصالحها وغاياتها تتوجه الى الانسان.

نعم ، يصح ان يقال: ان (الحي القيوم) سبحانه قد أراد وجود الانسان في هذا الكون، فخلق الكون لاجله، وذلك لان الانسان يمكنه ان يدرك جميع الاسماء الالهية الحسنى ويتذوقها بما اودع الله فيه من مزايا وخصائص جامعة. فهو يدرك – مثلاً – كثيراً من معاني تلك الاسماء بما يتذوق من لذائذ الارزاق المنهمرة عليه، بينما لا يبلغ الملائكة الى ادراك تلك الاسماء بتلك الاذواق الرزقية.

فلأجل جامعية الانسان المهمة يُشعِر «الحي القيوم» الانسان بجميع اسمائه الحسنى، ويعرّفه بجميع انواع احسانه، ويذوّقه طعوم آلائه، فمَنحَه معدةً ماديةً يستطيع بها ان يتذوق ما أغدق عليه من نِعمٍ لذيذة قد بسطها في سُفرة واسعة سعة الارض. ثم وهب له حياة، وجعل هذه الحياة كتلك المعدة المادية تستطيع ان تتنعم بأنواع من النعم المُعَدّة على سُفرة واسعة مفروشة أمامها وتتلذذ بها بما زودها –

سبحانه – من مشاعر وحواس لها القدرة ان تمتد – كالايدي – الى كل نعمة من تلك النعم، فتؤدي عند ذلك حقها من انواع الشكر والحمد.

ثم وهب له – فوق معدة الحياة هذه – معدة الانسانية، وهذه المعدة تطلب رزقاً ونعَماً ايضاً. فجعل العقل والفكر والخيال بمثابة أيدي تلك المعدة، لها القدرة على بلوغ آفاق أوسع من ميادين الحياة المشهودة، وعندها تستطيع الحياة الانسانية ان تؤدي ما عليها من شكر وحمد تجاه بارئها حيث تمتد أمامها سفرةُ النِعَم العامرة التي تسع السماوات والارض.

ثم لأجل ان يمدّ امام الانسان سفرة نعمٍ أخرى عظيمة جعل عقائد الاسلام والايمان بمثابة معدة معنوية تطلب ارزاقاً معنوية كثيرة فمدّ سفرة مليئة بالرزق المعنوي لهذه المعدة الايمانية وبَسَطها خارج الممكنات المشاهدة. فضم الاسماء الالهية في تلك السفرة العظيمة.. ولهذا يستشعر الانسان – بتلك المعدة المعنوية – ويتمتع بأذواق رفيعة لا منتهى لها، نابعة من تجليات اسم «الرحمن» واسم «الحكيم» حتى يردد (الحمد لله على واسع رحمته وجليل حكمته).. وهكذا – مكّن الخالق المنعم الانسان – بهذه المعدة المعنوية العظمى – ليستفيد ويغنم نعماً الهية لا حد لها، ولا سيما أذواق محبته الالهية، في تلك المعدة فان لها آفاقاً لا تحد وميادين لا تحصر.

وهكذا جعل (الحي القيوم) سبحانه الانسان مركزاً للكون، ومحوراً له، بل سخّر الكون له فمدّ أمامه سفرة عظيمة عظم الكون لتتلذذ انواع معداته المادية والمعنوية.

اما حكمة قيام الكون بسر القيومية على الانسان – من جهة – فهي للوظائف المهمة الثلاث التي انيطت بالانسان:

الاولى:

تنظيم جميع انواع النعم المبثوثة في الكائنات بالانسان وربطها بأواصر المنافع التي تخص الانسان، كما تنظّم خرز المسبحة بالخيط، فتُربط رؤوس خيوط النعم بالانسان ومصالحه ومنافعه. فيكون الانسان بما يشبه فهرساً لأنواع ما في خزائن الرحمة الالهية ونموذجاً لمحتوياتها.

الوظيفة الثانية:

كون الانسان موضع خطابه سبحانه بما أودع فيه من خصائص جامعة أهّلته ليكون موضع خطابه سبحانه وتعالى، ومقدّراً لبدائع صنائعه ومعجباً بها، ونهوضه بتقديم آلاء الشكر والثناء والحمد الشعوري التام. على ما بُسط أمامه من أنواع النعم والألاء العميمة.

الوظيفة الثالثة:

قيام الانسان بحياته بمهمة مرآة عاكسة لشؤون (الحي القيوم)ولصفاته الجليلة المحيطة، وذلك بثلاثة وجوه:

الوجه الاول:

هو شعور الانسان بقدرة خالقه سبحانه المطلقة ودرجاتها غير المحدودة بما هو عليه من عجز مطلق. فيدرك مراتب تلك القدرة المطلقة بما يحمل من درجات العجز. ويدرك كذلك رحمة خالقه الواسعة ودرجاتها بما لديه من فقر، ويفهم أيضاً قوة خالقه العظيمة بما يكمن فيه من ضعف... وهكذا.

وبذلك يكون الانسان مؤدياً مهمة مرآةٍ قياسية صغيرة لأدراك صفات خالقه الكاملة، وذلك بما يملك من صفات قاصرة ناقصة؛ اذ كما ان الظلام كلما اشتد سطع النور اكثر، فيؤدي هذا الظلام مهمة اراءة المصابيح، فالانسان ايضاً يؤدي مهمة اراءة كمالات صفات بارئه سبحانه بما لديه من صفات ناقصة مظلمة.

الوجه الثاني:

ان ما لدى الانسان من ارادة جزئية وعلمٍ قليل وقدرة ضئيلة وتملّك في ظاهر الحال وقابلية على إعمار بيته بنفسه، يجعله يدرك بهذه الصفات الجزئية خالق الكون العظيم ويفهم مدى مالكيته الواسعة وعظيم اتقانه وسعة ارادته وهيمنة قدرته واحاطة علمه. فيدرك ان كلاً من تلك الصفات انما هي صفات مطلقة وعظيمة لا حدّ لها ولا نهاية. وبهذا يكون الانسان مؤدياً مهمة مرآة صغيرة لأظهار تلك الصفات وادراكها.

أما الوجه الثالث:

من قيام الانسان بمهمة مرآة عاكسة لكمالات الصفات الالهية فله وجهان:

● اظهاره بدائع الاسماء الالهية الحسنى المتنوعة وتجلياتها المختلفة في ذاته. لأن الانسان بمثابة فهرس مصغر للكون كله – بما يملك من صفات جامعة – وكأنه مثاله المصغر، لذا فتجليات الاسماء الالهية في الكون عامة نراها تتجلى في الانسان بمقياس مصغر.

● الوجه الثاني:

اداؤه مهمة المرآة العاكسة للشؤون الالهية، أي ان الانسان كما يشير بحياته الى حياة (الحي القيوم) فانه بوساطة ما ينكشف في حياته الذاتية من حواس كالسمع والبصر وامثالها يفهم – ويبيّن للآخرين – صفات السمع والبصر وغيرها من الصفات الجليلة المطلقة (للحي القيوم)

ثم ان الانسان الذي يملك مشاعر دقيقة جداً وكثيرة جداً – وقد لا تنكشف ضمن حياته وانما عندما يحفَّز او يُثار – فتظهر تلك المشاعر بأشكال متنوعة وانفعالات مختلفة، فانه بوساطة هذه المشاعر الدقيقة والمعاني العميقة يؤدي مهمة عرض الشؤون الذاتية (للحي القيوم). فمثلاً: الحب والافتخار والرضى والانشراح والسرور وما شابهها من المعاني التي تتفجّر لدى الانسان في ظروف خاصة، يؤدي الانسان بها مهمة الاشارة الى هذه الانواع من الشؤون الالهية بما يناسب قدسية الذات الالهية وغناه المطلق وبما يليق به سبحانه وتعالى.

وكما ان الانسان وحدة قياس – بما يملك من جامعية حياته – لمعرفة صفات الله الجليلة، وشؤونه الحكيمة، وفهرس لتجلي اسمائه الحسنى، ومرآة ذات شعور بجهات عدة لذات (الحي القيوم).. كذلك – الانسان – هو وحدة قياس ايضاً لمعرفة حقائق الكون هذا، وفهرس له ومقياس وميزان.

فمثلاً: ان الدليل القاطع على وجود اللوح المحفوظ في الكون يتمثل في نموذجه المصغر وهو «القوة الحافظة» لدى الانسان. والدليل القاطع على وجود عالم المثال

نلمسه في نموذجه المصغر وهو «قوة الخيال» لدى الانسان،(١) والدليل القاطع على وجود الروحانيات في الكون ندركه ضمن نموذجها المصغر وهو «لطائف الانسان وقواه».. وهكذا يكون الانسان مقياساً مصغراً يُظهر عياناً الحقائق الايمانية في الكون بدرجة الشهود.

وهناك مهمات ووظائف وخدمات كثيرة اخرى للانسان فضلاً عمّا ذكرناه؛ اذ هو: مرآة لتجلي الجمال الباقي، وداعٍ الى الكمال السرمدي ودالّ عليه. ومحتاجٌ شاكر لأنعم الرحمة الواسعة الابدية.

فما دام الجمال باقياً والكمال سرمدياً والرحمة أبدية، فلا بد ان الانسان الذي هو المرآة المشتاقة لذلك الجمال الباقي والداعي العاشق لذلك الكمال السرمدي والمحتاج الشاكر لتلك الرحمة الابدية سيُبعث الى دار بقاء أبدية ليخلد فيها دائماً، ولابد انه سيذهب الى الابد ليرافق الباقين الخالدين هناك ويرافق ذلك الجمال الباقي وذلك الكمال السرمدي وتلك الرحمة الابدية في ابد الاباد. بل يلزم ذلك قطعاً لأن: الجمال الابدي لا يرضى بمشتاق فانٍ ومحبٍ زائلٍ. اذ الجمال يطلب محبة تجاهه مثلما يحب نفسه. بينما الزوال والفناء يحولان دون تلك المحبة ويبدلانها الى عداء.

فلو لم يرحل الانسان الى الابد، ولم يبق هناك خالداً مخلداً فسيجد في فطرته عداءً شديداً لما يحمل من سر مغروز فيه وهو المحبة العميقة نحو الجمال السرمدي. مثلما بينا ذلك في حاشيةٍ في الكلمة العاشرة (رسالة الحشر): ان حسناء بارعة الجمال عندما طردت – ذات يوم – احد عشاقها من مجلسها، انقلب عشقُ الجمال لدى العاشق المطرود قبحاً وكرهاً حتى بدأ يسلّي نفسه بقوله: تباً لها ما أقبحها! فانكر الجمال وسخط عليه.

---

(١) نعم! ان عناصر الانسان مثلما تشير الى عناصر الكون وعظامه تنبئ عن أحجاره وصخوره، وأشعاره توحي الى نباتاته واشجاره، والدم الجاري في جسمه والسوائل المختلفة المترشحة من عيونه وانفه وفمه تخبر عن عيون الارض وينابيعها ومياهها المعدنية، كذلك تخبر روحُ الانسان عن عالم الارواح وحافظته عن اللوح المحفوظ وقوة خياله عن عالم المثال. وهكذا يخبر عن كلُ جهاز عن عالم ويشهد على وجوده شهادة قاطعة. – المؤلف.

نعم فكما ان الانسان يعادي ما يجهله، فانه يتحرى النقص والقصور فيما تقصر يدُه عنه، ويعجز عن الاحتفاظ به ومسكه.. بل تراه يتحرى فيه عن القصور بشئ من عداء وحقد يضمره، بل يتخذ مايشبه العداء له.

فما دام الكون يشهد بان المحبوب الحقيقي والجميل المطلق سبحانه يحبّب نفسَه الى الانسان بجميع اسمائه الحسنى، ويطلب منه مقابل ذلك حباً عظيماً له، فلابد انه سبحانه لايدع هذا الانسان الذي هو محبوبه وحبيبه يسخط عليه، فلا يودع في فطرته ما يثير عداءً نحوه – أي بعدم احداث الاخرة – ولا يغرز في فطرة هذا المخلوق المكرم الممتاز، المحبوب لدى الرب الرحيم والمخلوق اصلاً للقيام بعبادته، ما هو منافٍ كلياً لفطرته من عداء خفي، ولا يمكن ان يحمّل روحه سخطاً عليه سبحانه قط؛ لأن الانسان لا يمكنه ان يداوى جرحه الغائر الناشئ من فراقه الابدي عن جمال مطلق يحبّه ويقدّره الا بالعداء نحوه، أو السخط عليه، أو انكاره؛ وكون الكفار اعداء الله نابع من هذه الزاوية.. لأجل هذا فسيجعل ذلك الجمال الازلي حتماً هذا الانسان الذي هو مرآة مشتاقة اليه مبعوثاً الى طريق أبد الآباد، ليرافق ذلك الجمال المطلق والبقاء والخلود، ولا ريب ان سيجعله ينال حياة باقية في دار باقية خالدة.

وما دام الانسان مشتاقاً فطرةً لجمال باقٍ وقد خُلقَ محباً لذلك الجمال.. وان الجمال الباقي لا يرضى بمشتاق زائل.. وان الانسان يسكّن آلامه وأحزانه الناجمة عما لا تصل اليه يدُه او يعجز عن الاحتفاظ به او يجهله، بتحري القصور فيه بل يسكّنها بعداء خفي نحوه، مسلياً نفسه بهذا العداء.. وما دام الكون قد خُلق لاجل هذا الانسان، والانسان مخلوق للمعرفة الالهية ولمحبته سبحانه وتعالى.. وخالق الكون سرمديٌ باسمائه الحسنى وتجلياته باقية دائمة.. فلا بد ان هذا الانسان سيُبعث الى دار البقاء والخلود، ولا بد ان ينال حياة باقية دائمة.

هذا وان الرسول الاكرم ﷺ وهو الانسان الاكمل والدليل الاعظم على الله قد أظهر جميع ما بيّناه من كمالات الانسان وقيمته ومهمته ومثله، فأظهر تلك الكمالات

في نفسه، وفي دينه، بأوضح صورة وأكملها، مما يدلنا على: ان الكائنات مثلما خُلقت لأجل الانسان، أي انه المقصود الاعظم من خلقها والمنتخب منها، فان اجلّ مقصود من خلق الانسان ايضاً وافضل مصطفى منه، بل أروع واسطع مرآة للأحد الصمد انما هو محمد عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام بعدد حسنات أمته...

فيا الله يارحمن يارحيم يا فرد يا حيُّ يا قيوم يا حكم ياعدل ياقدوس.

نسألك بحق فرقانك الحكيم وبحُرمة حبيبك الاكرمﷺ

وبحق اسمائك الحسنى وبحرمة إسمك الاعظم

ان تحفظنا من شر النفس والشيطان ومن شر الجن والانسان. آمين

﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحكيم ﴾

اللمعة الحادية والثلاثون

انقسمت هذه اللمعة الى « الشعاعات » وستنشر في مجلد مستقل ان شاء الله.

اللمعة الثانية والثلاثون

وهي « اللوامع » التي هي آخر ما ألفه « سعيد القديم » في غضون عشرين يوماً من شهر رمضان وجاءت منظومة نظماً عفوياً. نشرت ملحقةً بمجموعة « الكلمات ».

اللمعة الثالثة والثلاثون

هي الحقائق التي ظهرت على قلب « سعيد الجديد » بدرجة الشهود، وسطرها باللغة العربية في رسائل موسومة بـ « قطرة من بحر التوحيد، حبة من جنان القرآن، شمة من نسيم هداية القرآن، ذرة شعاعات هداية القرآن، حباب من عمان القرآن، زهرة من رياض، القرآن شعلة من انوار القرآن » مع ذيول هذه الرسائل وقد ضمت كلها تحت عنوان « المثنوي العربي النوري » سينشر في مجلد مستقل ان شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

يا الله ، يا رحمن ، يا رحيم

يا فرد ، يا حي ، يا قيوم ، يا حكم ، يا عدل ، يا قدوس بحق الاسم الاعظم وبحرمة القرآن المعجز البيان وبكرامة الرسول الاعظم ﷺ ، ادخل الذين قاموا بطبع هذه المجموعة ومعاونيهم الميامين جنة الفردوس والسعادة الابدية . . آمين.

ووفّقهم في خدمة الايمان والقرآن دوماً وابداً . . آمين.

واكتب في صحيفة حسناتهم ألف حسنة لكل حرف من حروف كتاب «اللمعات» . . آمين.

وأحسن اليهم الثبات والدوام والاخلاص في نشر «رسائل النور.» . آمين

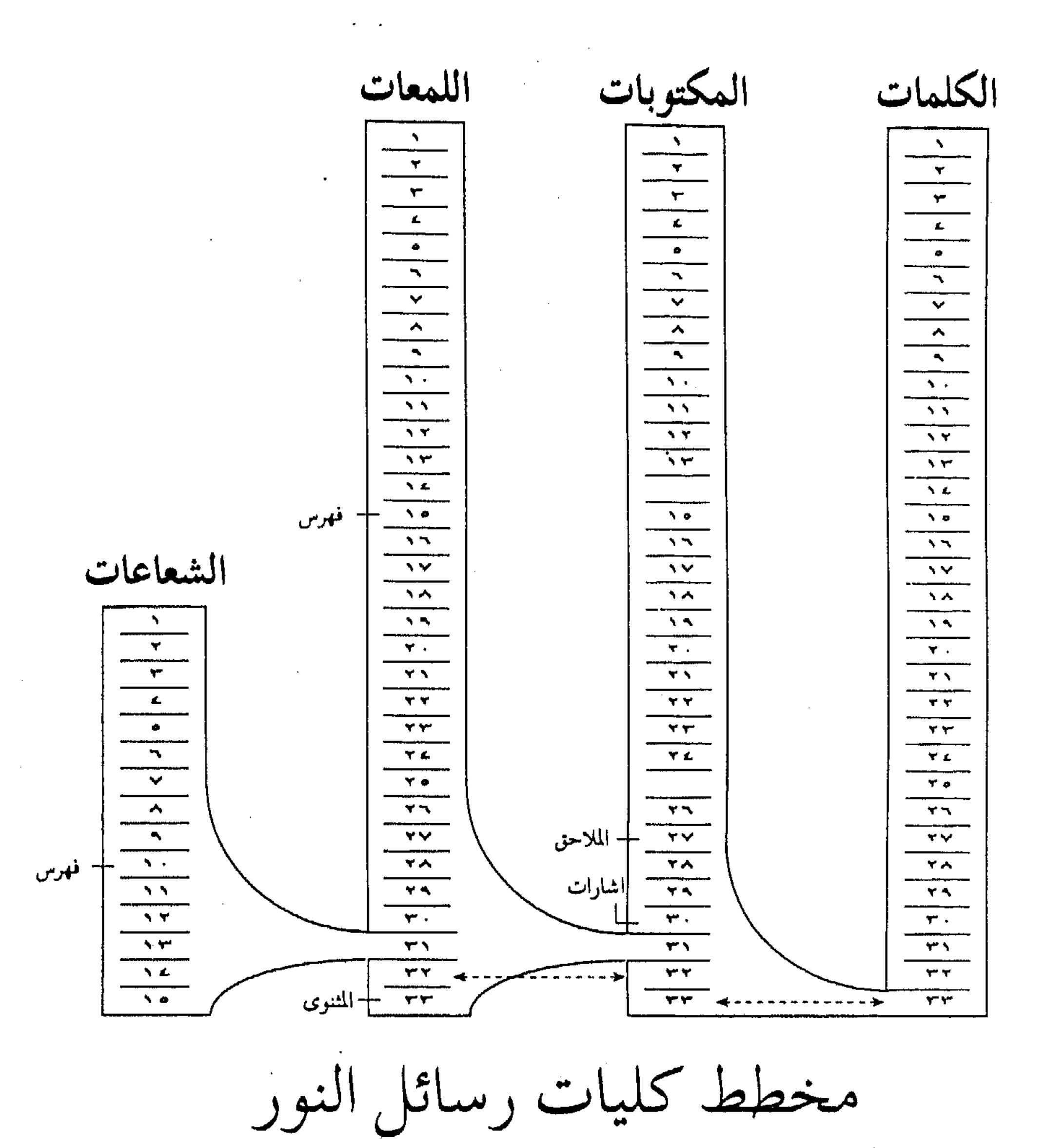
يا ارحم الراحمين! آت جميع طلاب النور في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة . . آمين.

واحفظهم من شر شياطين الجن والانس . . آمين.

واعف عن ذنوب هذا العبد العاجز الضعيف سعيد . . آمين.

بإسم جميع طلاب النور

سعيد النورسي



مخطط كليات رسائل النور

لقد أهدانا هذا المخطط الأخ العزيز « اسماعيل يازجي » مدير دار سوزلر للنشر باستانبول الذي استلهمـه من الشعاع الثامن من مجـموعة « الشعاعـات » ليعين القارئ الكريم على معرفة موقع كل رسالة ضـمن الكليات فنقدم له وللأخوة العـاملين في الدار وافر شكرنا وجزيل امتناننا وندعو لهم خالص الدعوات . — المترجم.

الفهارس

فهرس عام للموضوعات

فهـرس الآيـات الكريمة

فهرس الاحاديث النبوية والآثار

فهرس تحليلي

أ

ب

ت

ث

ج

ز

س

ش

غ

فهرس الأشعار والأمثال والحكم والقواعد

فهرس الاشعار

فهرس الأمثال والحكم والقواعد

فهرس الاماكن والمواضع

فهرس النباتات والحيوانات والعناصر والأجرام السماوية

فهرس اسماء النباتات

فهرس الحيوانات

فهرس العناصر

فهرس الاجرام السماوية

شركة سوزلر للنشر

٣٠ شارع الإمام أبو حنيفة (خلف مصر والسودان) .

الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٠٠٢٠٢٤٠٢٤٦٩٩ فاكس : ٢٣٦٣٠٥٣١

